

روايات (الهلال)

الحرية... أو الموت

نيقوس كازانتزاكيس

عدد ممتاز



الحرية أو الموت

تأليف

نيقوس كازانتزاكيس

ترجمة

سعد زغلول نصار



دار الهلال

روايات الهلال
Riwayat Al Hلال



سلسلة
شهرية
لتنشر
القصاص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس إدارة
مكرم محمد أحمد
المدبر العام

عبد الحميد حروش
رئيس التحرير
مصطفى خليل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

عن الطبعة

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي 21 جنيهاً في ج. م.
ع. تُسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير
حكومية - البلاد العربية 20 دولاراً - أمريكا وأوروبا
وآسيا وأفريقيا 30 دولاراً - بقى دول العالم 50
دولاراً
القيمة تُسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة
دار الهلال - ويرجى عدم إرسال صكوك نقدية
بالتبريد

بالاشتراك في الجولت السنوية يُمنح عضوية إقليمية
العضوية - 1991 (1991) 20000 ج. م.
إدارة الطبع: 11 شارع محمد فرج، القاهرة (المنشور)
تلفاز: 0114444 (خطوط الهاتف) - ج. م.
55 القيمة - الطبع: الرقم البريدي 11411 - القاهرة
التصوير - الطباعة ج. م.
تلفاز: 0114444 (خطوط الهاتف) - ج. م.
تلفاز: 0114444 (خطوط الهاتف) - ج. م.
تلفاز: 0114444 (خطوط الهاتف) - ج. م.

الفصل الأول

أخذ الكابتن ، ميخائيليس ، يجرز على أسنانه كما هي عادته كلما استشاط به الغضب . ثم رفع أصابع يده اليمنى وكأنتها مخالب . إلى شاربته الأسود يعيث به . كان جديرا بلقب « الخنزير البري » الذي يعرف به في ميغالوكاسترو . فقد كان ما ينصف به من ثورات الغضب . وكانت عيناه المصفقتان الداكنتان المستديرتان ، وعنقه القصير الصلب وأصابعه الطويلة كالمخالب وجسده الثقيل العريض .. كل ذلك كان يشبه بحق خنزيرا برياً انتصب على ساقيه فأتاح ذراعيه للربيع .

كان الكابتن مطبقاً بقبضة يده على رسالة ماليث أن دسها في ثنابا حزامه العريض بعد أن أمضى وقتاً طويلاً وهو يتعجى حروف كلماتها ويبتذل جهداً خارقاً في فهم معانيها .. إنه لن يحضر هذا العيد أيضاً (هكذا فهم) . وهكذا فإن أمه المريضة التي تحتضر وأخته المسكينة .. لن تتاح لهما رؤيته لانه - كما يقول - لا يزال يدرس .

بحق الشيطان .. ما هو الذي يدرسه ؟ أسيمظل يدرس هكذا إلى الأبد ؟ أم أنه لم يعد له وجه يعود به إلى كريت بعد أن تزوج من يهودية وأم يتزوج من امرأة قروية من بلدنا ؟ هذا ما وصل إليه حال وأدك المفضل يا شقيقى كوستا ! أه لو كنت حياً لتري ! أه لو كنت حياً لتمسك به من كاطليه وتعلقه في دعامة خشبية ورأسه إلى أسفل وكأنه غرارة حيوب ! .

وانتصب واقفاً كمارد ممشوق فكانت رأسه تلمس سقف الدكان . وكانت المصانبة السوداء التي يعصب بها جبينه قد ارتخت فوق ظهره فجذبها وأعاد تثبيتها حول جبهته البارزة العظام ثم اتجه نحو الباب باحثاً عن نسمة هواء ..

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية « كابتن ميخائيليس .. التي نشرت بالفرنسية تحت عنوان
La liberté Ou la mort
تأليف

Nikos KAZANTZAKIS

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحة حسنين

وكان الصبي القوي شاريتوس الذئب البرى ذو الشعر البنى والعينين المرعتتين الراعشتين والاذنين المطرقتين . متوقفا خلف لغة من حبال السفن ونظراته تطوف بأشعة السفن والأواح الخشب وعبوات الدهان والقار والسلاسل الثقيلة والخطاطيف الحديدية وكل ما يلزم السفن من عدد والآلات . ولكنه - من شدة خوفه - لم ير سوى « الرئيس » الذى كان يقف على عتبة الدكان وقد ملا كل فراغ الباب وهو يحدق مسوب الميناء . كان الكابتن ميخائليس عمه . . ولكنه لم يكن يناديه إلا بكلمة « الرئيس » . . وكان يرتعد بحضوره .

وقف الكابتن يغمغم فى غضب : « كأنما لا يكفينى مالقيت اليوم من منفصات ما الذى يريد هذا الكلب حين يطلب منى أن أتوجه إلى منزله التمس هذا المساء . ويحيى ابن أخى أيضا ليؤيد طين المنفصات بله سوف تطلب منى أمه أن أكتب إليه . . ولقد سبق أن فعلت ذلك . ولكنه لم يكلف نفسه عناء الحضور ! »

ثم التفت إلى اليسار نحو الميناء شاخصا بهصره تجاه البواخر والسفن والبحر . وكانت الأصوات تتناهى من حاجز الأمواج مختلطة بأصوات الرعاة والبحارة . بينما كان الحمالون المنتشرون بين براميل الزيت والنيذ والكرام المختلفة يسيرون ويلعبون أثناء قيامهم بالشحن والتفريغ وهم فى عجلة من أمرهم لينهوا أعمالهم قبل غروب الشمس وقبل أن تغلق أبواب القاعة . وكان البحر يشيع جوا حارا رطبا فى المكان الذى تتوق منه روائح البريقال المنعطر والشليمج (اللفت) والنيذ والزيت . بينما كانت هناك اثنتان أو ثلاث من السيدات المالبطات يثرثن بأصوات ميجوحة وقد ابتلت ثيابهن برذاذ الماء وهن يلوحن لباخرة مالطية عريضة الصارية كانت قادمة وهى تحمل شحنة من الزجاجات .

اختفت الشمس وراء سماء حمراء . وانتهى آخر يوم فى شهر مارس . وهبت ريح شمالية ياردة رعشت لها ميخائلكاسترو . فأخذ أصحاب الحوانيت يذلقون أيديهم . ويصكون قدامهم . ويتناولون الأشرطة الدافة أو البروم . وعلى مدى المسير كانت تبدو فم جهال « استروبولاس » مكتوبة بالثلوج . وجبل « سبولونيس » وروى اللون لتخلله زرفة محتمة . وكل التلوج المنجمدة تلح بوضاه بين الأضاليد العميقة التى تليها

الرياح . . بينما السماء صافية زاهية .

والقى الكابتن ميخائليس بنظرة إلى برج « كويل » . . ذلك البرج العتيذ الضخم الرابض إلى يمين مدخل الميناء . وفى مواجهته أسد فينيسيا الرخامى ضامنا أجنحته . كانت ميخائلكاسترو محاطة باكملها بالأسوار المنيعه والأبراج الحربية التى أنشأها حكامها فى العصور الذهبية للبيدنية . والتى خضيتها دماء البنادقة والأتراك واليونانيين . وفى كل مكان كانت يقايا الطابع القديم لاتزال واضحة . فهذه هى الأسود المنحوتة من الحجارة تحمل الانجيل بين فكها . وتلك آثار ضربات الفوس التركية تبدو واضحة على الحصون منذ ذلك الخريف الدامى الذى سبق فيه الأتراك ميخائلكاسترو بعد أعوام طويلة من الحصار اليأس . وفى كل مكان - وبين الأطلال - تنتشر اشجار التين والأعشاب الشوكية والشجيرات الجرداء .

وخفى الكابتن فيخائليس بصوره وأخذ يحدق فى اسفل برج « كويل » وقد لغرت العروق فى جبينه وأخذ يتنهد بعرق . هناك . وفى داخل هذا القيو الذى تنكسر عليه الأمواج كان السجن اللعين الذى قضى فيه أجيال من المحاربين نحبيهم مكيلة أيديهم وأرجلهم بالسلاسل : « حقا إن أجساد أبناء كريت قوية . ولكنها أبدا لاترقى إلى قوة مشاعرهم . . واسترسل يقول لنفسه وكأنه يهذى : « إننى أتهم الله . . اتهمه بأنه لم يمنح أبناء كريت أجسادا من فولاذ تمكنهم من الصمود مائة عام أو مائتين أو حتى ثلاثة حتى تحرر كريت . . وبعدها ليكن مايكون . . حتى ولو تحولنا إلى تراب أو رماد » .

ثم ارتفع غضبه عندما تذكر ابن أخيه الذى يعيش فى الشارع كافرنيى . يقول إنه متعلم . . ما الذى يتعلمه بحق الشيطان ؟ . . سوف يعود ولاشك مثل عمه تيتيروس المدرس ا . . مخلوقا غليلا . . بعوينات وأرداف . . خنزيرا ممتازا . . اللعنة ! . . ميوعة . . ا . . . ويصق بصقعة بعيدة . . ثم ترد لحظة قبل أن يتجه إلى حانوت للعطارة يملكه « ديميتريوس » . .

ويخفى يحدث نفسه : « لقد جئت إلى هذه الدنيا جسورا . . من صلب جدنا الجسور ميخائليس المعنوت الذى لم يكن يخشى الأتراك ا . . . » . . ولغزت إلى ذاكرته صورة جده التى كانت تبعث الرعب فى القلوب . كيف

تموت ذكرى هذا الرجل الذي ترك كل هؤلاء الأولاد والأحفاد ؟ إن كبار السن هنا وهناك يعرفونه ويذكرون كيف كان يقف على شاطئه كزيت محمدا مظللا عينيه بكفه ، كان يتربص ظهور إحدى السفن الروسية في البحر عند خط الأفق وهو يحرك طرفه فيميله إلى ناحية من رأسه - ويظل يسيير في تكاسل جبينة وذعابا بهذا أنوار ميخائيلوكاسترو وينحنى أمام برج « كبول » اللعين ويعني في وجوه الأتراك : « الموسكوف قادمون ! » .. كان شعر رأسه طويلا ولحيته مسترسلة ، وكان يتنقل حذاء براقية طويلة تصل إلى حزام الوسط ، ويقال إنه لم يكن يخلعه عن قدميه ، ويرتدي قميصا أسود طويلا علامة على الحداد على كزيت التي ترسف في الأغلال ، وكان يخرج عقب القداس في أيام الأحاد ويتجول هنا وهناك وفي يده قوس جده وعلى كتفه جعبة مملوءة بالسهم .

وزمجر الكابتن ميخائيليس ، وقطب عن جبينه وهو يقول : « كان هؤلاء رجالا خفا ، كانوا جبارية ، ولم يكونوا مثلنا كالديدان . وهكذا كان نسأزم أيضا ، بل نلعون كن أكثر منهم تحوشا ! .. ! ، لكم تنحدر طبيعة الرجل مع الزمان .. تنحدر إلى الشيطان ! » .

وارتسمت صورة جدته - بعد صورة جده - بأظفرها المتسفة ، كانت قد غادرت بيتها ذا الجدران الخشبية عندما بلغت من السن عتيا ، وخلفت فيه أولادها وأحفادها وأولاد أحفادها ، ومضت إلى واحد من الكهوف العميقة التي في أعلى القرية .. ودفنت نفسها فيه وظلت بداخله طوال عشورين سنة ! .. وكانت إحدى حفيداتها - ممن تزوجن من رجال قرية « بيلورويتس » - تحضر لها كل صباح قطعة من خبز الشعير وقليلا من الزيتون وفتية من النبيذ (وكان الماء متوافرا بالكهف) ، وكانت تصغر لها في كل عيد فصيح ، يبيضتين مصبوغتين باللون الأحمر في ذكرى السيد المسيح ، وكانت المحوز تظهر كل صباح على مدخل الكهف بوجهها الأبيض الناصع كالشمع ، ويشعرها وأظفرها الطويلتين وثيابها المهاللة - ونظت تحديق في الشمس ملوحة بذراعيها الضميرين طويلا .. داعية أو لاجلة ، ثم تعود تلتف إلى كهفها في ظن الجول .. هكذا .. حوال عشرين سنة ! حتى إذا كان صباح يوم ما .. لم يرها أحد .. وأدرك الجميع ما حدث ، فاستدعوا ففتى القرية الذي صعد إلى الكهف وفي يده شعلة ضخمة ليود عظام المحوز فإذ في إحدى النقر وقد شامت نراعاها .. وظلت رأسها بين يديها ..

وهز الكابتن ميخائيليس رأسه وهو يبعد بعينه عن السجن في محاولة لأن يبعد عن ذاكرته صورة الأموات .

وفي حانوت صغير على جانب الطريق : كان « ديمتريوس » يجلس ناعسا فوق أريكة ضيقة وقد أمسك بمذبة من شعر حمار يحركها في دخول من ناحية لأخرى ليطرد الذباب عن الأيكاس الصغيرة التي تحتوي على القرنفل وجوز الطيب واللادك والقرقة .. وعند الزجاجات الصغيرة المملوءة بزيت شجر الغار والزريحان .. وكان ديمتريوس هذا يبدو دائم الكتابة بسحنته الصفراء وأنفه الذي يشبه الحيازة .. وبينما كان يتتأهب ويرمش بعينه من حين لآخر - إذا لم يكن قد استغرق في النوم بعد - لاح له الكابتن « ميخائيليس » كما لو كان متجها نحوه .. فرفع يده بتحية السماء ملوحا بمذبة ، إلا أن هذا الجار النشيط أدار وجهه في الاتجاه الآخر .. فعاد ديمتريوس إلى ناعسه ..

فعاد الكابتن ميخائيليس يده في حزامه العريض فوجد الخطاب المكرمش ، فانتزعه ومزقه إلى مئات القطع .. وأخذ يحدث نفسه : « كان مدرسا واحدا ليس كافيًا لكي نوصم أسرنا بالفناء ! الآن أصبح لدينا الثاني .. وأين من يكون ! ؟ .. إنه ابنتك يا شقيقى كوستا - أنت الذي انتزع شعلة وأضرم بها النار في الحانوت فالتهمت دبر « أركادي » بقديسيه وصلبانه وورهبانه وكل من فيه .. مسيحين وأتراكا ! .. »

وكان « فيندوسوس » في ذلك الحين يقف على رصيف الميناء مرتديا سترة من الصوف .. كان قد أوصى « كيزاموس » أن يوافيه ببرميل من النبيذ لحناته وهو الآن في انتظار أن يتسلمه ، ولكنه حين رأى الكابتن ميخائيليس على بعد وقد أسدل غطاء رأسه على حاجبيه ، تبين ما هو عليه من غضب فاستدار وقال لنفسه : « إن التنتين في حالة هياج هذا المساء .. وخير لي أن أسلك طريقا آخر .. »

وبدأت الشمس تغيب خلف مرتفعات « استروميولاس » .. وبدأت الظلال تملأ الشوارع .. وبدت العاذن البيضاء في لون ودي .. وأخذ صال الميناء والتجارون وعمال الشحن والبجارة يتهون عمل اليوم .. وأخرج الكابتن ميخائيليس كيس التبغ من حزامه ولف لنفسه سيجارة .. وبدأ غشيه يهدأ مع نفثات الدخان .. وأخذ يداهب فثقه الداكنة بأسباعه المخملية البيضاء وهو يحدث نفسه :

- يجب أن يعيش وادي « ترانساكي » لكي يعيد وجوهنا نظيفة من جديد .. لا بد وأن يضرب مثلا لعمه « تيتيوس » ولابن أخى .. ذلك الحكيم جدا الذى لم يخجل من خلط دماننا بدماء المرابين ، لا بد أن يرتفع وادى بمستوى أسرتنا ! »

وفجأة أحس بأن الحياة بخير .. وأن الله عادل .. وأنه لا عتبه عليه بعد الآن .

واقترب تركى عجوز حليق الرأس يرتدى ثيابا بالية ، ورفع بصره إلى الكابتن ميخائليس وهو يرتعد .. فيأمره هذا فى حدة : « ماذا تريد يا على اغا ! »

وكان « على اغا » أحد جيران الكابتن ميخائليس الذى لم يكن يطق روية وجهه الذى تشعرت منه نفسه . فقد كان يبدو له هشاً كالقوقعة الرقيقة . نصف رجل ونصف امرأة .. يقضى أمسياته مع جارته من النساء اليونانيات ويشاركهن ثورتهم .

وتعلم العجوز قائلاً :

- سيدي .. لقد أرسلني « نوري بك » - وهو يحبك ويسالك ما إذا كان من الممكن أن تسعدوا هذا المساء بزيارته فى قصره ..

- حسن .. حتى أن الفيت هذه الرسالة من خادمه الأسود .. وتستطيع أنت أن تصرفه .

- إذا يقول إن الأمر عاجل للغاية ..

- قلت لك الحرب الآن من وجهي ..

فقد كان يشاهده سماح الصوت النسائي لذلك المملوك ..

وعسى « على اغا » على لسانه واستدار لانذا بالحائط .. ثم مضى من حيد إلى حيد .

- وماذا فعل فى بيوت الأتراك ١٢ .. ماذا يريد منى هذا الكلب ١٢ .. ولماذا لم يأت إلى بنفسه ١٢ .. لن نذهب إليه !

والثقت فجأة .. ونادى : « شاريتوس ! أدخل وأسرح فرسى » ..

فقد خطر له فجأة أن يمتلئ فرسه فى نزهة تنسيه جدته وجده وابن عمه ونوري بك أيضاً ! ولعله بذلك يزيح عن كاهله الكثير .

وبينما هو يعد ذراعه ليلتقط المفتاح ويعلق حانوته . إذا بصهيل فرح متعش ينتهى إلى سمعه داوياً فى الشارع ، إنه ليميز هذا الصوت تماماً .. صوت ذلك الجواد الأسود المتألق ذى العنق الرقيق !

والثقت الكابتن ليرى ذلك الجواد الأصيل الأنيق يتقدم فى خياله وقد أمسك بلجامه غلام تركى عارى القدمين ليقوده فى مسيرة بلا سرج فى شوارع ميغالوكاسترو ليهدى من أنفاسه اللاهثة .. لا بد أنه كان يعدو قبل الليل . فلا يزال الزيد ظاهراً على فمه وصوره . وتحت كتفيه . ولكن قوته لم تكن تبارى .. كان لا يزال ينفق قوة فيتناثر الزيد رذاذاً حول عنقه وهو يقفز متخفياً بين اللحظة والأخرى ضارباً الأرض بساقيه الأماميتين الرشيقتين .. وهو يصهل :

وصاح أحد الواقفين خارج حانوت الحلاق « باراسكيافس » .. الرجل القادم من جزيرة « سيرا » !

- انظروا يا أولاد .. ها قد أقبل جواد نوري بك !

واندفع إلى باب الحلاق خمسة أو ستة لم يحلقوا بعد ذقونهم . وواحد غطت ذقنه رغوة الصابون .. وأخذوا يحدقون فى الجواد بالقواء فاعرة وأعناق مشربية .. وصاح شاب رخو ذو لصية شعثةا كالحية الجدى ..

- بحق روحى ذاتها . لو أن أحداً ساكنى ما إذا كنت اختار جواد نوري بك أو زوجته .. لاخترت الجواد .

وصاح « ياناروس » معلم البياض - والذى كانوا يسمونه بـ « قرون الخنزيرة » .. بسبب شاربه الكث - صاح ضاحكاً :

- إن لك عقلاً مثل عقل فرشاة البياض تماماً .. أيها الاحمق . إن أمينة هائم جميلة وفى العشرين من عمرها .. امرأة متوحشة .. فليقع اختيارك إن عليها فى فقط أيها المسكين حتى تمنح جسدك شيئاً من المتعة ! وأجاب الشاب :

- قلت لك إننى أفضل الجواد .. ولا أحب الدنس .

وتدخل السنجور ، هاراسكيڤاس ، الذي كان قد اندفع بدوره نحو الباب والمقص في يده .. وقال بصوت مرتفع :

- لا أيها القوي الطيب .. لا الجواد ، ولا الهائم ، إن المتاعب التي تكمن وراءها أكثر مما يستحقان .

واستدار الشاب ذو اللحية التي تشبه لحية الجدى .. وقال :

- أيها النافه من سيرا ، إن الحياة كلها متاعب ، وليس يريح المرء سوى الموت .. أنا أريد الخيرك - لا تتكلم بهذه الطريقة أمام الكريتيين ، فقد نسميهم فهم ما تقصد فنندفك حيا ..

وارتحن رجل « سيرا » المسكين ، إنه - وهو العاقل - لم يعد يذكر ما الذي قذف به إلى كريت ليطلق ثورون هؤلاء الوحوش ، كل حين يقدم إليه واحد من هؤلاء الكريتيين الذين يعيشون في الجبال .. ويدلف إلى الحائث فيفتقر هو في دعر ليرى ما يريد .. من أين يا ترى يبدأ المسكين ؟ لعل شهورا طويلا قد مضت منذ آخر مرة اغتمل فيها أو حلق ذقنه مثل هذا الرجل الجبلي ؟ وأهل سنين كاملة قد مضت منذ آخر مرة قص فيها شعره .. ! وإنه ليريد المشقة - ويمسك بمقصه ويتحرك في نشاط حول المقعد الذي يبلس فيه مثل هذا الكريتي وهو يتطلع في إعجاب إلى وجهه المضطرب في العراء ، وإنه ليريد أمامة كما لو كان Wether ، أو كما لو كان القديس ، ساماس ، الرعاي الضخم الذي راه - السنجور « هاراسكيڤاس » مرة في إحدى الصور المقدسة بلحية كهذه وعوارض لا يستطيع عشرة من الخلائين أن ينالوا فيها حقا أو باطلا .

إن نفسه ليتضائل في يده فجأة .. من أين يبدأ في هذه اللحية الضخيرة ؟ ثم إنه ليتعهد .. ثم يستقر رأيه في النهاية على أن يبدأ باسم الله برغبة الصابون ، وتراجع المسكين في دعر وهو يتسائل :

- حيا ؟ ؟ .. ولعازلا يا صديقي الطيب تدفنتي حيا ؟ ؟ ..

- هل تعرف يم نسمي أولئك الذين يتكلمون بهذه الطريقة ؟ ؟ .. موتي ! ..

وابتلع رجل « سيرا » المسكين لعابه ، وظاهر يده أم يسمع شيئا .. واستدار ودخل حائثه

وفي تلك اللحظة وصل الكابتن « ستيفانس » ، وريان السفينة « داردان » التي أغرقها الأتراك خلال ثورة ٧٨ .. كانت إحدى قذائف سفينة تركية قد اخترقت سفينة وحطمت ركبته ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يصلح لشيء سوى أن يضطج على الأرض الصلبة بعصاه ويعرج في مشيته حول حى الميناء ، وكان له عصوان : إحداهما مستقيمة يستخدمها عندما تسير الأمور في كريت سيرا عاديا ، والأخرى مقوسة يستخدمها عندما تضطرب الأمور وتشتت رائحة البارود في الجو ، وإنه اليوم ليستخدم العصا المقوسة وهو مقبل يستمع إلى ما يقال :

قال « ستيفانس » :

- لا تتشاجروا يا شباب .. فالأمر يسير .

- قل لنا أنت يا كابتن « ستيفانس » : أيهما تختار لنفسك ؟ ؟ .

- أيها الصمقي ، أنا أختار الاثنين معا ! جواد نوري لكي أمتطيه ، وأسيرة هائم لتركب خلفي فوق مؤخرته - مثل القديس جورج !

وصاح الكريتيون ، الطليق منهم وغير الطليق :

- ونحن أيضا .. نحن أيضا .. نحن أيضا يا كابتن ستيفانس ، وعسى الله أن يستجيب !

ورفع الكابتن ميخائيليس بصره : كان الجواد قد أصبح قريبا منه رائحا .. تاريا كجفعة سوداء بعنقها ترقعها عاليا .. واستدار الجواد نحوه وبرقت عيناه كما لو كان قد عرف الكابتن ميخائيليس ، واهتم لحظة وصهل وتقدم الكابتن نحوه بالرغم منه - ومررت لحظات وهو واقف أمامه ويدها تتحرقان لأن تلمسه وتتحسس حرارة جسده والزبد حول فمه .. وراء الصبي التركي ووقف سائلا .

ويدأت يد الكابتن ميخائيليس تجوس خلال الصدر العريض الذي يبله العرق وأحاطته قلادة من الأحجار الزرقاء الخفيفة محلاة بهلال من العاج .. وأخذت يده في لهفة تربت العنق والخياشيم والرأس ، وتضرب بخنان معرفة العنق ، وتنتقل في اشتياق إلى الظهر والفخذين (crupper) ، وتدور حول البطن المضطربة دون أن تكفي ، كانت يده كأنها تريد أن يتبع الجواد كله .

أما الجواد الرائع المدلل بروعته ، فقد أحنى عنقه وهو يمس بمتعة شرهة في دغدغة اليد الحانية ، ثم أدار رأسه ذات العينين الداكنتين الواسعتين كحيتي خوخ (plum) .. ونغر بحرارة فوق رأس الرجل وبدأ فجأة يتراقص .. واندفع يرفع عصاية رأس الكابتن ميخائيليس السوداء ، ويلوح بها في الهواء دون أن يدعها تسقط ، وعيناه تثابعتها في شخج ودلال ، وأحسن الرجل بقلبه يرق ، أبدا لم ينظر إلى آدمى بهذه السعادة الرائقة .. ألفى نفسه وقد بدأ يهمس في أذن الجواد بكلمات الود والاعزاز ، ويخفض الجواد عنقه كما لو كان يستمع ثم مسحه في كفتي الرجل ، وفجأة رفع الكابتن ميخائيليس يده وجذب عصاية رأسه السوداء من فم الجواد .. وقد علاها الزيد ، ووضعها حول رأسه ثم استدار نحو الصيى التركي وأشار إليه أن يتصرف .

وقال وهو لا يزال يتابع الجواد ينصره وقد اقترب من البوابة الرئيسية :

- سوف أذهب ..

كان قد قرر رايه فجأة ، واستدار ليطلق دكانه وليأخذ طريقه نحو قصر نورى بك ولكن الكابتن ستيغناس الذى كان يراقبه وهو يربت على الجواد بذلك الاشتياق الزائد .. وقف أمامه متكئا على عصاه المقوسة يروج له أمسية طيبة ، لم يكن ستيغناس يخشى هذا الصنف من الرجال الذين يكرهون الناس ، فقد كان هو نفسه رجلا بمعنى الكلمة .. كلب بحر قويا استطاع خلال ثورات ١٨٥٤ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٨ ، أن يخترق الحصار التركي بسفينته ، داردانا ، مرات لا يحصى عددها وينقل الطعام والتخيذة للكريتيين في موانئه الطبيعية منعزلة ، وعندما أصابوه وأغرقوا سفينته ، منفتت الدماء من ركبته المعسفة ولكنه سبح في خليج القديسة يهلاجيا وهو يعسك بين أسنانه فوق الأمواج بالرسائل التي يعثت بها اللجنة الاثينية إلى القائد الشهير كابتن ، كوراكس .. زعيم مقاطعة ، ميسارا ، ومنذ ذلك التاريخ .. عاد إلى الأرض اعرج فقيرا مهلول الثياب منتعلا حذاه الذى رثق مرة ومرات ، يدور كل يوم حول الميناء وهو يتطلع إلى السفن الاجنبية في إعجاب ، ولكن بقلب مكلوم ، ويشم رائحة الفطران ويسمع اصوات التحية المتبادلة وضجة الخطاطيف المرتطمة بالأصعاق البعيدة ، كان الجسد ضعيفا .. والجيوب خاوية .. ولكن الروح كانت شامخة داخل صدره

وهو يحدق في صفحة البحر كأنه رأس وحش خرافى .

واستند إلى عصاه المقوسة ، ووقف ثابتا في مواجهة الكابتن ميخائيليس وتكلم :

- هيه .. كابتن ميخائيليس .. هل التقتك اذنك ما يقوله الناس في الميناء ؟ .. إنهم يتسألون ! إذن أنت خبئت بين جواد نورى بك .. وبين أمينة هائم .. فأيهما تختار ؟ ..

وقال الكابتن ميخائيليس :

- أنا لا أهتم بهذه الثرثرة المتخجلة :

ثم اتجه إلى دكانه دون أن ينظر إلى رهبان السفينة ، ولكن البحار العنيد لم يستسلم .. ظل يتفحص الكابتن .. وقال وكأنه لم يسمع شيئا :

- لقد جلبها نورى بك من القسطنطينية ، وهي شركسية كما يقولون ، جمالها يكفى خمس نساء .. متوحشة - من اكالات لحوم البشر بحق ! .. إن جارأتى ، العوانس العجائز ، يسمعن من جاريتها السوداء التى أحسرتها معها ، عما يجرى خلف أبواب القفص الذى وضعها فيه البك ، ثم يتشرون حفظ الله الستهن الصغيرة ! - مايسمعن ..

وقال الكابتن ميخائيليس في شيء من الغضب :

- كابتن ستيغناس .. قلت لك إننى لا ألقى بالا إلى هذه الثرثرة المتخجلة .. ولكن البحار العنيد لم يتزحزح .. لا .. لأن يجبره على أن يطلق لسه .. إن الخوف لم يعرف إليه طريقا وهو في مواجهة البحرية التركية ، شيف يخاف إذن من هذا الرجل ؟ .. سوف يسمعه كل مايريد أن يقوله سواء أراد أم لم يريد .. تابع كلامه فقال :

- إن نورى بك أخوك في الدم يا كابتن ميخائيليس ، لاتنس ذلك ، ومن ثم فإنه من حلقك أن تعرف ما يجرى داخل بيته .. إنهم يقولون إن هذا البك المتوحش يجلس إلى أقدامها محذفا في عينيها ، وإنها تضغط سمجارتها المستعلة في عنقه وهي تقهقه . ويقولون أيضا أنها تتذكر بلادها أحيانا .. تذكر الخيام ورائحة الروث واللبن وصهيل الخيول - وتستبد بها الذكرى فتحطم أكواب ، البورسلان ، وتسكب زجاجات العطر على الأرض .. وتلهب ظهر جاريتها بالسوط ..

وأمسك الكاتب ميخائيليس بالمفتاح وأزاح بيده الذئب البحرى المعجوز
عن الباب وهو يهدر مثل كلب مسعور ، حتى يتمكن من إغلاق دكانه .. ولكن
البحار لم يكن يستطيع الآن أن يمسك لسانه ، صحيح أنه كان من الأفضل
لا يدخل فى نقاش مع وحش مفترس كهذا ، ولكن الأمر كان قد انتهى
وأصبح متورطاً فى الحديث .. فلتنص السفينة إذن ناشرة قلاعها وأبكن ما
يكون ! ويسرع فى إنهاء حكايته ..

- ويقولون أيضاً .. إن الهائم تغار من جواد نورى بك ، وأنها دفعت
نورى بك بعيداً مساء أول من أمس عندما حاول هو أن يحتضنها وقالت له :
« افعل أولاً شيئاً من أجلى » ، وقال هو : « كل ما تطلبينه يا عشيقه قلبى .. »
كل ما تطلبينه مجاب .. « أحضر جوادك إلى الفناء ، وأشعل المصابيح
حتى أستطيع أن أراه .. » وأنبجه أما عينى ! .. وتهددك وأحنى رأسه
وانطلق يعدو خارج الحجره وأغلق على نفسه باب حجرته وظل طوال تلك

الليلة يذرع أرضها جيفةً وذهاباً وهو يهدر ، أنا احكى لك ما سمعته حتى
يكون لديك به علم ، فقد أرسل يطلبك لأنه محتاج إليك ، لا تحاول أن تنكر
فقد أخبرنى على أفا ، ومن ثم فمن الأفضل قبل أن تذهب ، أن تعرف حال
الزوجين العاشقين فى تلك العقلة !

ومسح ستيفانس بيده الجامدتين ، سعيداً بأنه قال كل ما يريد دون أن
يغلبه الخوف ..

- نعم يا كاتب ميخائيليس ، هذه هى الحقيقة ، وإذا كان ما قيل كتباً ،
فالأفضل إذن أن تحدرى العوائس العجائز الأمر !

وتحرك الكاتب ميخائيليس ، وصفق باب الدكان فأغلقه ، ودس مفتاحه
فى حزامه ثم استدار إلى الكاتبين الصفيق وقال فى غضب :

- أنت أيها المخلوقة البحرى لا تعرف شيئاً عن احترام النساء ،
وانطلق فى طريقه :

وصاح ستيفانس يرد فى ضيق
- وأنتم يا فرسان الأرض تعرفون كل شيء فى هذا الصدد ! دائماً
تعدون وسط روث الخيل !

.. قالها واندفع يتوكأ ليتمنى خلف الناصية وكأنما استبد به الخوف
فجأة .

شد الكاتب ميخائيليس عصاية الراس السوداء إلى جبهته حتى غطت
ذرايعها عينيه كأنما لا يريد أن يراه أحد أو أن يرى هو أحداً ، وأنبجه نحو
الصى التركي وهو يتنفس بقوة .

كانت الشمس قد غابت ، وبدأت الطبول تدق .. وكان الحراس قد
أحكوا إغلاق أبواب المدينة الأربع بالمفاتيح حتى لا يخرج أحد خارج
حدود ميخالكاسترو ، حتى شروق الشمس ، ويبقى الأتراك والكريتيون
داخل أسوارها مع طوال الليل .

واشدت الظلمة وامشدت لتغمز الأزقة ، واختفت النساء من الطرقات ،
واضربت المصابيح داخل البيوت ، وصفت الموائد وهرج الرجال
المحترمون إلى منازلهم ليتناولوا العشاء ، بينما توقف الرجال المرتضون فى
الحانات ليتناولوا كأساً أو كأسين ، وبدأت ميخالكاسترو وسط الظلام كأنها
جوعى تهبىء نفسها لوجبة المساء .

وكانت تلك هى الساعة التى تبدأ فيها الشقيقات الثلاث المعروفات
بالعوائس العجائز فى الوقوف خلف بابهن متجاورات ، كل تنظر من خلال
واحد من الثقوب الثلاثة التى جعلت فى الباب ، يتطلعن إلى المارة ويظفن
على حسن هذا وقبح ذلك ، كن عجائز شعرهن ناصع البياض ، وكذلك
حواجبهن ورموش عيونهن الممرارات منذ يوم ولادتهن وكانها عيون
أرانب ، ولم يكن يخرجن من البيت طوال اليوم ، وقيل إنهن لم يكن يحسن
الرؤية فى ضوء الشمس ومن ثم يترقبن المساء بفارغ الصبر حيث يقف
ثلاثتهن إلى الثقوب الصغيرة الثلاثة ويشاهدن من خلالها العالم يمر
أمامهن ، ومن خلال هذه الثقوب لم تكن ذبابة تستطيع أن تغفل من نظرهن
ومن المستنهن العادة المسمومة ، وكان بيتهن يقع على ناصية شارع
السوق فى النقطة التى ينتهى عندها الحى التركي ويبدأ حى الكريتيين ومن
ثم فقد كن يشاهدن كل شخص .. ويطلقن على كل شخص اسماً لا يستطيع
بمرور الوقت أن يفلت منه ، هن اللاشى أطلقن على الكاتب ميخائيليس اسم
« الدب المفترس » ، وهن اللاشى أسعين شقيقه المدرس « تيتيوس » ، لأن
إباه أحضر معه فى إحدى العرات قطعة جبن كبيرة من القرية ، فسأله أبوه

المعلم باللغة اليونانية الكلاسيكية It rups eiuai apros , natep
(أى صنف من الجبن هذا ، يا أبى ١٢) .. وسمعت العجائز العوانس
الثلاث .. وأصبح الاسم .. نيتيوس . ا .

وطوال النهار ، كن يطبخن أو يحكن الثياب أو يكتسن ، فلم يكن لديهن
شئ آخر يفتقن ، ليس هناك رجال أو أطفال يونانيين عنائتجن . أما
شقيقتن ، الرجل الذهبي - هبة الرب لهن - السيد / اريستوطوليس
الكيمارى .. فبالرغم من أنه لم يكن متزوجا . فقد كان يقضى اليوم كله
مشغولا فى صنع المساحيق أو المراهم . مريضا ضيق النفس مسفر
الوجه متورم القدمين من طول الوقوف .. ثم يعود إلى شقيقاته حاملا معه
سلة ممتلئة بكل ما فى السوق ، وقد اختيرت له يوما ما - أيام كان شابا -
فتاة من عائلة طيبة تملك دومة محترمة . وكان من الممكن أن يصبح السيد
اريسوطوليس زوج ابنة ممتازا وبسط هذه العائلة ، فقد كانت صيدليته تقع
فى قلب ميجالوكاسترو وفى الميدان الرئيسي لها . وكانت زاخرة
بالزجاجات والقوارير والروائح وأنواع السابون .. وكان المدرسون والأطباء
يتجمعون عنده كل مساء يناقشون كل مشكلات الدنيا ، فلا يفعل السيد
اريسوطوليس أكثر من أن ينصت إليهم بعينيه الصغيرتين الزرقاوين
المرهفتين ثم يهز رأسه الجريئة وكأنما يقول لكل واحد منهم : أنت على
حق .. أنت على حق ؟ بينما هو فى الحقيقة لم يكن يفكر فى غير أن حياته
على ظهر هذا الكوكب فى الطريق إلى الاختفاء . كان يريد أن يتزوج حقا ،
ولكن ليس لأنه يهتم بالنساء ، فإله لا يحب ذلك الكلا .. وإنما لمجرد أنه
كان يريد أن يتجنب ولدا يستطيع أن يدير الصيدلية بعده . ولكن : أين
تذهب شقيقاته ؟ لا يد أولاً أن يتزوجن - فذلك هو السأوف .. ومن ثم ، فقد
مرت الأعوام ، وأبيض شعره .. وتخلخت أسنانه .. وانحنى ظهره وتهدل
خده اللذان كانا يوما ما شابين حمرآوين . أصبح السيد اريستوطوليس
عجوزا .. وأصبحت حياته فارغة ، وأصبح لا يشغله سوى مصنع
المصطفى .. وهكذا ، أصبح صانع المراهم يمصغ ويمصغ طوال اليوم .
وعندما يأتي المساء يستمع إلى المعلمين والأطباء وهم يتناقشون
ويتجادلون حول الإرادة الحرة والروح الخالدة وما إذا كانت عوالم النجوم
مسكونة .. بينما هو لا يفكر بغير رأسه ويقول لنفسه : حتى لو أُنشئ تزوجت
الآن ، فليس باستطاعتى أن أتجنب ولدا .. لا أستطيع هذا الآن .. لا

أستطيع أن أتجنب ولدا .. ثم يضع الهاون فوق المائدة ، ويتابع مصغ
المصطفى .. وهو يدق مساحيقه حتى ساعة متأخرة فى حرص وعناية .

واليوم .. بكرت العوانس العجائز فى الوقوف فى مراكزهن ، كان البرد
شديدا ، وكانت شعورهن غير ممشطة وأذرعهن وسيقانهن غلب عليها
التعب ! .. ولكنهن رغم ذلك ظالن واقفات فى ، رجولة ، على أقدامهن
ينتظرن وقد الصقن اعينهن الياقوتية بتقوب التخلص ويثنن نظراتهن على
الباب الأخضر لقصر نوزى بك .

وقالت ، أجلاجا ، - وهى أوسطنه :

- ثبتن عيونكن هناك .. هناك شئ يطهى ، تذكرن ما قالته المرأة
البربرية أمس !

- لقد عاد البك من قريته هذا المساء غاضبا مهتاجا . أنا رأيتك كذلك .
رأيتك يتدفع عبر الباب بعد أن فتحه بعنف بالغ .. وبعدها مباشرة سمعت
صيححات وصرخات وتأكبت أنه يضرب خدمه مرة أخرى .

وأدلت ، قيروسين ، بدلوها :

- ومن هناك غيرهم ايشربهم ١٢ .. الجواد ١٢ أمينة ١٢ .. وليس
بجسده براغيث فيصرخ ! ..

وبينما كانت العجائز العوانس الثلاث يتهايمن ، يدا الشارع أمامهن
فجأة وكأنه قد ازداد ظلمة ، وتراجعن ، وقلن .

- الكابتن ميخائيليس !

ثم اندفعن ثالثة نحو تقوب التخلص .

وفى مواجهتهن فى الشارع ، كان الرجل ذو اللحية الرمادية الداكنة
المجعدة يسير فى مهل ولكن فى نشاط وخفة .. ينتفض بعنق ، وقد تدلت
ذؤابات عصاية رأسه فوق عينيه ، كان يسير بحذاء الحائط ويده تستريح
على حزامه العريض وقد أمسكت فى صلابه بخنجر ذى مقبض أسود .
واحتك جسده أثناء سيره بالياب الذى كانت العوانس العجائز يراقبته من
خلال التقوب فيه ، وعندما استدار لحظة وكأنما أحس بأن هناك ست أعين
تراقبه ، وبرتفت عيناه فى الظلام ، وأصابت العجائز رعدة ومن يحسن

انفاسهن .. ولكن الرجل تابع سيره في بطنه حتى إذا توقف في مواجهة البوابة الضخمة رمى بنظره حوله وكان كل شيء ساكنا ولا مخلوق هناك . وفي قفزة واحدة عبر الزقاق الضيق دفع بوابة قصر نوري بك .. وبخل .. وتراجعت العوانس الثلاث .. وزسعت .. أجلاجا .. علامة الصليب وهي تقول :

- كبرى إيسون ! .. هل رأيتما كيف دخل ؟ متلما يدخل اللص !
- ماذا يريد ، الدب المقترس ، من اليك ؟ لا بد أن في الأمر شيئا .
أراهن على أنه يريد أن يبيع له الجواد ..
.. أو امينة !

وبدا الثلاث : أجلاجا وثاليا وفيروسيين يثرثن مرة أخرى

تقدم الكابتن ميخائيليس بجنازة عتية الباب يقدمه اليمنى وهو ينظر حوله في كل اتجاه . وحقق في الزنجى الذى كان ينتظره خلف الباب .. ذلك العجوز الأسود الذى ورثه نوري بك عن أبيه . والذى يظل قابعا خلف الباب كالكلب طوال النهار وحتى منتصف الليل .. ولمسه الكابتن ميخائيليس بأطراف أصابعه فتراجع الرجل وسمح له بالدخول . وسار الكابتن في بطنه بين صفيين من الأصص الضخمة المليئة بالورود . ولابد أنه كانت في مكان ما من الحديقة شجرة ليمون مزهرة - فقد انتشر أثر ربيع أزهار الليمون يعبق الجو مختلفا برائحة الأرض المسعدة بالروث والمروية حديثا وفي أقصى الحديقة حيث يقوم المنزل العتيق متلائما في الفسق تنامى صوت مجلجل كان لا يزال يشقق داخل قفصه . وبدت أضواء من خلال الشباك الخشبي المرتفع وسمعت ضحكات نسائية .. وتنفس الكابتن ميخائيليس الهواء التركي بالريح منه . وقد أحنى رأسه وهو يحدث نفسه :

- ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ .. التثن التركي !

ووقف ساكنا لا يزال أمامه وقت كاف : لم يره أحد سوى الزنجى . ولا يزال في مقدوره أن يعود من حيث أتى . ولابد أن شاريتوس قد أسرج الفرس الآن . ويستطيع هو إذن أن يمتطى صهونها ويسابق بها الريح حتى الميدان الكبير لكي يهديه من غضبه .. ولكنه أحس بالخلج .

- سوف يقولون إننى خائف .. تقدم .. تقدم يا كابتن ميخائيليس !
وتابع سيره في خفة حتى أصبح أمام الباب الرئيسي الذى كان مفتوحا . وقد تدلى من اعلاه مصباح كبير مضاء ذو زجاج أخضر وأحمر اللون وقف تحته نوري بك وقد انعكست عليه الأضواء الخضراء والحمراء . كان قد سمع صوت الباب الخارجى وعرف لمن الخطوات المقبلة فتقدم ليحمى ضيقه :

رجل جسيم وقور جليل الأيماءات . تطل من رأسه المستدير . عينان لوزيتان داكنتان . وقد أضفت عليهما أضواء المصباح بريقا أخادا .. شاربته الكثيف تتضح فيه الصبغة السوداء . كانت الأناقة الشرقية معقدة فيه : كان يشبه ذلك الأسد ذا الوجه القمعى الذى كانت النساء التركيات في الماضى يطربزن رسمه فوق الأقمشة الفارسية . كان يرتدى سروالا طويلا من الصوف الأزرق . ولكن حزامه كان أحمر قانيا . وعمامته التى تغطي شعره بيضاء كالثلج . وكانت كتفاه معطرتين بالمسك وكانت راحته هو كراشحة وحش مقترس في حر ربيعى ..

تقدم خطوة إلى الامام مادا يده بأصابعها القصيرة .. وهو يقول :

- لا تغضب منى . يا كابتن ميخائيليس لانتى كلفك المجرى إلى بيتى . ولكن الأمر هام . وسوف ترى بنفسك أنه كذلك ..

وهمهم الكابتن ميخائيليس وتقدم خلف البك إلى مجلس الرجال دون أن يتكلم . ثم توقف لحظة قصيرة عند المدخل وكأنه يفكر فى غضب ثم اختلس نظرة إلى الخلف وتأكد أن أحدا لم يكن هناك .. وكان ثمة مصباح ضخم مضاء أمام الديووات . وفحم مشعل داخل جرة برونزية كبيرة الحجم تنتشر من داخلها رائحة قشور الليمون وعلى المائدة المستديرة فى ركن من أركان المجلس جرة من البوروسيلان ذات عنق طويل مليئة بشراب . والراكي .. وكوبان .. وبعض الحلوى ..

وجلس الاثنان متجاورين فوق مقعد صغير . وكانت جلسة الكابتن ميخائيليس بالقرب من النافذة المطلة على الحديقة . وأخرج نوري بك من داخل حزامه صندوقا حديديا داكنا مليئا بالطباقي ومحلّى فى وسطه بهلال منقوش بحبات اللؤلؤ .. فتحة وقدمه لصديقه .

ولف الكابتن ميخائيليس لفاقة (سيجارة) وكذلك فعل نوري بك . واخذ الاثنان يبخنان وقد صمت كلاهما بعض الوقت ، ثم تنحنح نوري بك وكأنه لا يدري كيف يطرح الموضوع دون أن يجعل ضيفه يخطئ . فهمه فيفقد أعصابه . فقد كان يعرف أن ضيفه هذا ليس بالرجل الذي يقبل أن يدع نياحة تروح وتجيء فوق سيفه ! وكان يدرك في الوقت نفسه أن ذلك الذي يريد أن يقوله هذا المساء .. شيء ليس سهلا الدخول إليه ..

- هلا شربنا بعض الراكي يا كابتن ميخائيليس ؟ إنه صنف معتق وجيد مصنوع من الليمون أخضرته خصيصا من أجلك .
ووضع يده فوق الكوبين علامة على أنه لا يريد أن يشرب .. ثم تسأل :
- ماذا لديك لتقوله لي يا نوري بك ؟

وسعل البك وسحق سيجارته وسط رماد المجرمة وهو ينحنح فوقها فيبدو وجهه في مواجهة الفحم المشتعل كالتحاس الأحمر ..

- إذا كان لايد أن اتكلم ، فلا تسمه فهمي يا كابتن ميخائيليس .

وتوقف قليلا حتى يمدح اليوناني الأسمر على أن يقول شيئا . ولكن الكابتن ميخائيليس ظل صامتا فوقف البك واتجه نحو الباب وفتح قميصه عند العنق ثم عاد فجلس ، وأحس فجأة بأن حذاه أصبح ضيقا .. فتخلص منه بخلعه ووضع قدميه عاريتين فوق الأرض فأحس بالراحة .

واستدار إلى زميله الأيكم ، وقد استقر رأيه على أن يتكلم ، ورفع يده ليبرم شاربه ، ولكنه مالبث أن أترلها .. الحرس ! فإن الكابتن السريع الهياج قد يسمه فهم هذه الحركة . أخيرا قال وهو يتهدد :

- أخوك مانوساكيس يجعل من تركيب أضموكة وسخوية : فأول من أمس - الخامس والعشرين من مارس - كان ثملا كعادته وأدخل حماما إلى المسجد ، ولقد جئت من القرية فوجدت رجالى وقد تجمعوا ، ورجالكم أيضا تجمعوا مسلحين ، وقد يدت بوادرمتاب خطيرة ، أنا أقول لك ذلك يا كابتن ميخائيليس حتى لا تتفجر فيما بعد ، لقد رأيت من واجبي أن أقول لك ومن واجبك أن تسمع ، فافعل ما يقودك إليه الله سبحانه .

وقال الكابتن :

- صبب الشراب ..

وصبب البك الشراب .. وانتشرت رائحة الليمون .

- في صحتك الطيبة يا نوري بك .

وأجاب نوري بك في هدوء وهو ينظر إليه ..

- وفي صحتك ..

ويشربا كأسيهما أحدهما بالآخر ووقف الكابتن ميخائيليس وأزاح ذؤابات عصابة رأسه إلى الخلف .

أهذا ما كنت تريد أن تقوله يا نوري بك ؟ ! .. أمن أجل هذا أرسلت في طلبى ؟

وأمسك به البك من حزامه في رفة :

- إذا كنت حزينا فلا تذهب ، هذه شرارة .. نعم ، مجرد شرارة .. ولكنها قد تسبب نارا يمكن أن تحترق بها قريتنا ، مر أخاك ألا يهين حكومتنا . نحن أبناء قرية واحدة ، أبناء أرض واحدة ، فلجلس ودعنا نبحث الأمر .

- إن أخى أكبر منى بسنة عشر عاما ، وله أولاد وأحفاد ويستطيع أن يدرك ما يفعله وأمامه سبع سنوات أخرى على الأقل يصحس فيها التبصر أنه يفعل ما يريد وأن تجدى معه أبدا كلماتي .

- أنت فارس القرية .. إن الناس فيها ينصتون جيدا إلى ما تقول .

- الكلمات عزيزة يا نوري بك .. ولا تشرح بسهولة من بين أسئلتى !

عش البك شفقيه ولكن قلبه قسا فجأة . وأخذ يتفحص الكابتن ميخائيليس الذي كان قد نهض وبدأ ينظر نحو الباب متعبا للخرج . هذا الكافر قد جاء سلالة من جذع وحشى منتصب ، ولأبناء جنسى ثارات قديمة عند هذا الرجل . ليس كوستاروس - دنس الله بالقار جنته ! - هو أخوه الذي ذبح أبى عند الصخرة ؟ ! كنت لا أزال طفلا .. ووطنت نفسي على أن أصير حتى أصبح قادرا بعد على أن أثار للدم ، ولكنى كنت سبيء .

الحظ ، فقد قتل الرجل الملعون في (اركادي) - تسف تسفا ، بينما كان
ابنه لا يزال جروا صغيرا من العار ان افكر في قتله ، ولقد انتظرت حتى
يكبر هذا الجرو ، ولكنه ما إن طر شاربه حتى هرب ، ذهب بعيدا .. قالوا
إنه ذهب إلى الفرنجة لكي يتعلم .. قمتي يعود يا ترى ١٩ .. إن دعاء أبي
تصرخ ..

ونهض واقفا واتجه نحو الباب فوقف تجاهه والغضب في اعماقه يعلو
ويهبط وهو لا يدري من أين يبدأ ، واضاعت لحية الكابتن ميخائيليس
الشائكة في ضوء المصباح .. الحية التي قيل إنه أقسم ألا يطلقها حتى
تتحرر كريت ، ولعلت عيننا نوري بك في احتقار ، فلينظر إذن هذا الكافر
إذا لم يكن ذلك يضايقه ، ولتطول حتى تصل إلي ركبتيه أو حتى إلى
الأرض .. نعم .. لتصل إلى الأرض وتضرب بدخلها جذورا .. ولكن
كريت - أبدا إن ترى الحرية منذ خمسة وعشرين عاما قتل منا من قتل
أمام حوائط فيجالوكاسترو قبل أن تسقط في قبضتنا ، ولن ندعها تفلت ،
وإن تدعنا هي تذهب ، لقد أصبحت جزءا من أجسادنا .

وتذكر أباه .. تذكر المسلمين الذين لقوا حتفهم في الشنادق حول
ميجالوكاسترو . إن نهرا من الدماء يجري بينه وبين الكابتن ميخائيليس ..

وقال الكابتن ميخائيليس وهو يرفع يده ليؤذي جانبا ويخرج :

- دع الموتى يهدأون يا نوري بك وكف عن هذا الفصيح ! - إن ما تريد
أن تفعله محال تحقيقه .

ولكن نوري بك كان رجلا ثابتا قويا ، فكظم غضبه ، وقال في صوت
رفيق :

- لاتذهب يا كابتن ميخائيليس .. لاتذهب هكذا بهذه الأفكار الوحشية كما
لو كنا قد تشاجرنا ، وإذا كنت ترى كلماتي قاسية فينسى أسحبها ، اعتبر
اننى لم أقل شيئا وأنت لم تسمع شيئا ، السننا صديقين لها لقد أرسلت
في طلبك لكي تشرب معا وتتذوق معا لقمة لذيدة ، إنها فطيرة من قريتنا -
احضرتها معي الآن ، ورايت أن نأكلها معا ونحن نتذكر الأيام الخوالي ..
أيام كنا سفارا .. أيام كنا نلعب معا .. الأيام الخوالي الحلوة في قريتنا يا

كابتن ميخائيليس ..

- أنا لن أكل .. فهي أيام الصيام عندنا .

وامسك به نوري بك بكلتا يديه وقال في اعتذار شديد :

- أقسم لك بالرسول محمد اننى لم أكن أعرف ذلك ، ولو كنت قد عرفت
إنن لكنت أعددت لك بعض الكافيار الأسود .

ويملا الكاسين .. وقال وهو يرفع كأسه :

- في صحتك يا كابتن ميخائيليس ، أنا سعيد لأنك قبلت المجيء هنا إلى
بيتى لتشرب معي بعض الراكي .. انظر .. الفيلس دمي مثل هذا إذا كنت
أضمر لك أي شر .

قالها وهو يسكب بضع فطرات من الشراب على الأرض وتراجع الكابتن
ميخائيليس وجلس مرة أخرى فوق المقعد الصغير إلى جوار النافذة .

- أنا أيضا لا أضمر لك شرا يا نوري بك ، ولكن من الشرف أن يزن
العمر كلماتي .

ثم أفرغ كأسه في جوفه .

وساد الصمت مرة أخرى .. وأص البك بالحرارة فنهض وفتح
النافذة ..

وفي الخارج - في الحديقة - كانت نافورة صغيرة تنثر رذاذا باردا
منعشا فيجمل معه إلى الداخل رائحة الورد وأشجار الليمون ومرة أخرى
سمعت ضحكات نسائية من الحرملك ..

وظل الرجلان صامتين ، وأجهد نوري بك نفسه لكي يجد وسيلة يستأنف
بها حديثا آخر جديدا بينما كان الكابتن ميخائيليس ينصت إلى خريف الماء
وإلى الضحكات .. ويستنشق أريج الحديقة - ومرة أخرى عاد قلبه يدق
بقوة .. أهذه هي كريت ١٩ ضحكات وعطر .. وأنت تشرب الراكي مع
الأتراك ١٩ ؟ كأن يفكر .. وفجأة أغلق النافذة ..

وقال نوري بك وهو يملا الكاسات :

- لا تغضب يا كابتن ميخائيليس ، لقد فتحتها دون أن أسالك .

وانتبه الكابتن ميخائيليس .. وحقق في التركي ، لقد وادأ في نفس القرية . الأولى بك له كل شيء ، والأخرى رعية - أدنى من كلب .. كان أبوه - كابتن - سيفلاكس ، يملك البيت المصنوع من الحجارة ، ولم يكن مسموحا له في تلك الأيام بأن يمتطى سهوة جواد . فكان يركب حماره الصغير ويسرع بالنزول من فوق ظهره كلما رأى عددا من الكريتيين - هانى على . والد نورى ، هذا .. لكي يسمح للرجل العظيم بالمرور ؛ وفى إحدى الامسيات كان الكابتن سيفلاكس معتل المزاج فلم يترجل . وهكذا . رفع هانى على ، سوطه فنزفت الدماء من الرأس التي حاولت التمدى .. ولم يقل الرجل العجوز شيئا ! ولكنه شم جوانحه على العه وظل ينتظر أن الكريتى ليس كالألبانى .. الكريتى يفكر جيدا ! وسوف يأتي اليوم الذى سيدفع فيه الثمن .. ولم يكذ يرم عام واحد حتى انزلت ثورة ١٨٦٦ . وحتى تمردى ولده الأكبر كوستاوس ، فى إحدى الليالى للسفاح ، هانى على ، خارج ميجالوكاسترو فذبحه كما تذيب الشاة فوق صخرة فى كهف ، وينديفيس . - ولكن : هاهو ذا ولده : يأخذ مكانه على العرش فى ميجالوكاسترو داخل هذا القصر الضخم ذى التحف والنافورات والشبابيك الخشبية ذى الصلف الشبكية . يأكل ويشرب ويقبل النساء ويمتطى سهوة جواده فى الامسيات الرائقة عبر الحى اليونانى وبحوافر جواده تخرج الشرار من الأرض .

وأخرج صندوق الطباقي ولف لنفسه سيجارة . وامتلأت خياشيمه بالدخان . ترى . أهو يكره هذا التركي الجالس إلى جواره . أم هو معجب به ! أهو يشتر منه ؟ لقد طالما سأل نفسه هذا السؤال دون أن يصل إلى إجابة عليه وعندما يتقابل الاثنان مصادفة داخل أزقة ميجالوكاسترو الضيقة ، أو خارجها وهما على ظهور الخيل .. كان الكابتن ميخائيليس يتطلع إلى وجه نورى بك الصماقى السمح فيحس قلبه بالبهجة ولا يدرى كيف ! - أيقظه أم لا - أبحثنه كصديق قديم بأحسن لقاء ؟

كانا يوما ما طفلين صغيرين يلعبان معا فى قريتهما . يثيران غبار الأرض . ويتسابقان ويتصارعان ويلقى أحدهما بالآخر ويضحكان .. ويتشاجران .. وفى إحدى الامسيات - عندما أصبحا رجليين - تقابلا وكل على ظهر جواده عند هذا الجانب من إقطاعية نورى بك التي تبعد ساعة عن ميجالوكاسترو وبالذات عند كهف ، وينديفيس ، .. لاحظتها سارا صامتين

بعين الوقت .. ولكن فى تيرم وضيق . وفى تلك الأيام كان الأتراك الكريتيين يقتلون ، وكانت كريت قد اشتعلت نارا مرة أخرى حين حاولت ، الرعية . مرة أخرى أن ترتفع رأسها ..

سارا دون أن ينطق أحدهما بكلمة حتى لاحظت للاعين تلك الحوايط القبيسية المشهورة وقد اكتسبت بحمرة الشمس الغارية ، ولحظتها قال الكابتن ميخائيليس لنفسه : هذا الكلب .. لم أعد أستطيع أن اتحمل منظره وهو يمتطى فرسه ليلهو داخل الحى اليونانى ويفتن النساء فيه .. ولحظتها أيضا كان نورى بك يقول لنفسه : لم أعد أحتمل هذا الكافى .. فى كل مرة يستبد به السكر يخرج من بيته . ويمتطى سهوة جواده . ويهين الأتراك . فى العام العاشر أمسك به من الأوركين ولعنى مثل الفرارة حتى وضعنى فوق سلف دكانه . وجاء الناس يتقاطرون .. ووضعوا سلما كيما أنزل بينما ضحكاتهم ترتفع !

ولحمرت وجنتا نورى بك .. واستدار فى غضب نحو الكابتن ميخائيليس : - كابتن ميخائيليس .. إما أن أقضى عليك . وإما أن تقضى أنت على . لا مكان لنا نحن الاثنين معا فى ميجالوكاسترو . - اختر إذن سلاحك يا صديقى نورى بك . هل أترجل حتى نبدا ؟ !

ولم يجب نورى بك . فقد استقرت نظراته فوق اليونانى الراكب إلى جواره . وامتلأت عيناه بمنظره البطولى ، ياله من رجل ! ، ياله من كيرياه وياله من شجاعة ! إنه أبدا لا ينطق بما لايزم النطق به ولا يدعى ! إنه لا يتشاجر مع من هم أقل منه . وهو لا يعرف الغدر ولا يحترم حتى الموت . سعيد ذلك الرجل الذى عدوه من هذا الصنف من الرجال !

أخيرا .. تكلم :

- ليس بهذه السرعة يا كابتن ميخائيليس ، سوف يكون ذلك مؤسفا .. أنا اسمع ماقلت ، نعم - أنا أومن بأنه لا محمد ولا المسيح يريدان ذلك . أنا أومن بأنك محارب أصيل . وكذلك أنا .. وينبغى بالفعل أن تسيل تماؤنا .. ولكن بطريقة أخرى .

- طريقة أخرى ؟

- نعم .. لنصيح اخوين في الدم ..

وتابع الكابتن ميخائيليس سيره وقد احس كاتما قلبه ينتفخ ويصعد إلى حلقه . وظل لحظة لا يكاد يسمع سوى اختلاج الدم في عروقه حتى إذا هدا .. وعاد يدرك حقيقة ما سمع . اجتاحه هياج شديد .. ربما كان سوروا لفكرة امتزاج دمه بدم هذا البك الشاب الذي تربى وبسبب رائحة المسك ، فكرة الا يصيح بعد مجبراً على قتله ، وأن يقاوم دوما الاغراء الذي يتنايه كلما وقع عليه بصره .. بأن يشدد قبضته على خنجره .

كان الرجل رائعاً حقاً بصرف النظر عن كونه من الاتراك . كان حقاً لخير ميخائيلوكاسترو دون أن يعدو أحد الحقيقة في ذلك ، كان عطفوا ، كريماً ، نبيلاً .. كان رجلاً .. نعم رجلاً عليه اللعنة !

ويشد إليه العنان فتوقف الفرس لحظة . والهيب نوري بك جواده قادرك الفرس وراكبه ..

وقال الكابتن ميخائيليس دون أن ينظر إليه :

- لا بأس ..

وتابع الاثنان سيرهما دون أن ينطقا بكلمة حتى بلغا اقطاعية البك ، ودخلا إلى فناء اسرع إليهما فيه أحد الخدم فساق الجوادين إلى الاسطبل بينما صلفك البك بيديه فظهر خادم لخر .. وانحنى ..

- اذبح ديكاً .. هذا الديك الكبير الذي يكسوه الريش تماما ، واحضر لنا بعض الخمر المعتقة .. وجهز سريرين وافرشهما بملامات من الحرير ، سوف ناكل هنا وننام ليلتنا ، وانذهب واغلق الابواب ..

واصبحا وحدهما ، وركب الاثنان متجاورين ومتقابلين تحت شجرة الزيتون المثقلة بالبراعم والتي تنتصب في شموخ وبسط الفناء .. وكانت الشمس قد غابت ، وبدات النجوم تتلالا ويلوح للازهار خلال اوراق الزيتون .

ونهض نوري بك واتجه إلى البئر يبحث عن الكوب البرونزي المعلق هناك ليشرب فيه المسافرين ويرفعوا الاكف بالدعاء ليانيه ، هاني على ، ثم عاد وجلس القرفصاء ، وقال وهو ينزع خنجره من حزامه :

- باسم محمد وباسم المسيح ..

ورفع الكابتن ميخائيليس كم سترته الايمن وكشف ذراعه المفتولة التي اوجحتها اشعة الشمس ، وانحنى نوري بك إلى الامام وغرس طرف الخنجر في احد عروق الذراع الثانية فانجس الدم حاراً داكناً وتلقاه نوري بك بالكوب البرونزي حتى إذا بلغ سمك اصبع ، رفع عن رأسه عصابتها ولف بها الذراع المجروحة ..

- وهذا دورك يا كابتن ميخائيليس ..

- باسم المسيح ومحمد ..

واخرج خنجره وغرסה في ذراع البك ، فانجس منها الدم يتلقاه بالكوب البرونزي ، ثم نزع عصابة رأسه ولف بها الذراع ..

وبوضعا الكوب بينهما .. وبدا يمزجان الدماء معا بخنجرهما - دون أن ينطق احدهما بكلمة ..

وكان الليل يتقدم ، وارتفع الدخان من مدخنة الضيعة فقد كان الخدم يتناولون طعامهم في المكان المخصص لهم .. ومسح كل منهما خنجره في ثنابا شعره ثم وضعاهما في حزاميهما ..

- إنني أشرب في صحتك يا كابتن ميخائيليس يا شقيقي في الدم ! واقسم لك - نعم أقسم بمحمد أنني أبدا لن أؤذيك ، لا بالكلمة ولا بالفعل ، لا في الحرب ولا في الرخاء ، الشرف بالشرف ، الرجولة بالرجولة ، الولاء بالولاء ! أمامي يونانيون كثيرون أخذ يثأري منهم ، وأمامك أنت أتراك كثيرون تأخذ يثأرك منهم !

ورفع الكوب إلى شفثيه وبدأ يشرب الدم المختلط .. قطرة قطرة ، حتى إذا أتى على نصفه مسح شفثيه ، وقدم الكوب إلى الكابتن الذي أمسك به بين يديه وقال :

- إنني أشرب في صحتك يا كابتن ميخائيليس ، يا شقيقي في الدم ، واقسم لك - نعم أقسم بالمسيح ، أنني أبدا لن أؤذيك ، لا بالكلمة ولا بالفعل ، لا في الحرب ولا في الرخاء ، الشرف بالشرف ، الرجولة بالرجولة ..

بالرجولة ، الولاء بالولاء . امامى اترك كثيرون أخذ بثأرى منهم ، وامامك
يونانيون كثيرون تاخذ بثأرك منهم !

ثم شرب ما تبقى من دم فى الكوب دفعة واحدة .

فتح الكابتين ميخائيليس النافذة والى بسجارتها فبدت كتجمعة حمراء
صغيرة ، فى إصبعى وروءى . واضحة وسط السبخة المروية حديثا . ثم
نهض واقفا وقد بدأ وجهه كالما .. بينما مال البك بجسده إلى الوراء ثم
نهض واقفا هو الآخر ..

- أنا لم انس . ولعل ذلك هو السبب فى أن احدنا لايزال حيا حتى
الآن .. فقد عادت إلى ذاكرته كالبرق تلك الامسية التى أمضيها تحت
الزيتونة .. ودور الشراب السعيد مع النبيذ المعتق .. والنوم العميق تحت
الملاءات الحريرية .. ورفع الزجاجاة ، وملا كاسه وشرب .. وعاد فملأها
وشرب .. ثم جلس وهو يقول :

- اليس عندك قزم فى هذه الدار ؟ مهرج ؟ فاطلبه إذن ومعه يأن
يرقص لنا أو يدق طبلة أو يغنى .. سوف انفجر إذا لم يكن ذلك ..

وسعد نورى بك . فقد رأى أن الهياج بدأ يأخذ مجرى طيبا . ولعله أن
يفرق فى الشراب ويدفن فيه . لايد من رقية تقذف به بعيدا !

وأحس برغبة فى أن يفعل شيئا كبيرا ، شيئا من أجل شقيقه فى الدم لم
يسمع بعته من قبل .. شيئا يتجاوز الصداقة والمحبة يستطيع عن طريقه أن
يستأنس هذا الرجل المكتئب وييسط به أسارير وجهه . وأخذ يعصر ذهنه
ويجول وهو فى مكانه بكل ركن من أركان الدار لعله أن يعثر على شيء من
لجل شقيقه فى الدم . ماذا يعطيه يا ترى ؟ قطع ذهبية أثرية يخرجها من
صناديقها أم أسلحة مفضضة من المعلقة فوق الحوائط . أم قطع من
القمائن من الصوف والحرير . أم دنائ حمر معتقة من مخزن الخمر ؟ !
وقبادة استقر ذهنه عند تلك المشربيات التى شربها حول ألقى كتوزة على
الاطلاق . واستدار إلى ضيفه وهو يضحك :

- سوف أفعل من أجلك الليلة شيئا يترك .. شيئا لم يفعله تركى واحد
من قبل إلا لأخيه ..

ونظر إليه الكابتين ميخائيليس ولكنه لم يقل شيئا . وعاد يملا كاسه من
حميد . ووقف نورى بك . واتجه إلى الباب القصير الذى يؤدى إلى
الحرملك وصاح :

- ماريا !

وجاءت امرأة بيربرية تهوول هابطة الدرج .. امرأة عجوز بلا أسنان .
حانة ككش يقول وحول عنقها صليب .

- قولى لسيدتك أن تحضر الماندولين وتنزل إلينا .

ورفعت المرأة البيربرية بصرفها دهشة فزعمة ، وحدقت فيه .

وصاح نورى بك وهو يدغمها :

- هيا !

وأعاد الكابتين ميخائيليس الكاس التى لم تكد تلمس شفطيه . واستدار
نحو نورى بك وهو يدغمهم :

- ماذا ؟

- أريد أن أسعد شقيقى فى الدم .. أنتى اثق بك ..

- ليس فى هذا شيء يسر . ليس فيه سوى العار لك . والعار لزوجتك
كذلك .. العار فى أن تسمح بظهورها أمام شخص غريب . والعار لى أن
أيضا حين أرفع بصرى لأنظر إليها ..

وقال نورى بك فى شيء من الاضطراب :

- أنا اثق بك .

وكاننى أحسن لحظتها بالأسف لما أمر به . ولكنه خجل من أن يتراجع عن
قراره .

ووقف .. ووضع وسادة من الريش فوق أريكة فى ركن المكان . وأخرى
إلى الحائط من أجل الهانم لتستند إلى شيء ناعم . ووقف الكابتين
ميخائيليس هو الآخر وخفض ضوء المصباح حتى يغمر الحجر ضوءه

هادى رفیق . ثم أخرج من منطقتة مسيحة من الأبنوس أخذ يداعب حباتها
فى عسبينة وقد جعل بصره إلى الأرض .

وتعالت أصوات نسائية فى الطابق العلوى مختلطة بوقع أقدام سريعة
وأبواب تصفق . وهرولة . وهام يمصب .. ثم ساد الصمت لحظة .

ورغم الكابتن عيني وهو يفكر : « إن تأتى هذه الكلية . إنها متوحشة .
شركسية نالفة . هذا أفضل .. أفضل تماما .. أى روح شديدة ثقيفى
هنا ؟ سوف أخرج ! »

وفى ذات اللحظة التى قرر فيها أن ينهض ليخرج . سمع صرير درجات
السلام . درجة بعد درجة . ولمع لآلاء عقود وأقراط . وهرع نورى بك ليفتح
الباب القصير .. ويضع يديه فوق صدره ثم ينقلها إلى شفتيه ويجهته
مرحبا وهو يقول فى رقة :

- مرحبا بأمة هائم .. مرحبا .. مرحبا ..

وفى إطار الباب . وعلى الضوء الخافت الرفيق . برزت فى لآلئها سيدة
شابة وجهها مستدير كالعقور مثل وجه نورى بك كشف لون جسدها الأبيض
المشوب بالحمرة . بعينين واسعتين ناعستين . ووجنتين وشفتين غلغلتما
الحمرة .. وأهداب مكحولة .. ولوحت أظفارها ويدها مخضبة بالحناء وهى
تمسك يماندولين يراق كأنه الطفل بين ذراعيها ..

وتقدمت فى خطوات رشيقة بقدميها الصغيرتين بخفهما الأحمر
الرفيق .. وهى تدير عنقها لترى ظل الرجل قريبا من النافذة . ثم تصرخ فى
فرح :

وأمسك بها نورى بك فى رقة وهو يقول :

- لا تخجلى يا حبيبة قلبى . إنه شقيقى فى الدم الذى طالما حدثك
عنه ! الكابتن ميخائيليس ! إن قلبينا متقلان الليلة . فهيا يا حبيبتى ومعينا
بالعزف على المندولين . وغدينا من اغنيات بلادك من أجل هذا رجونا أن
تتزالى إلينا يا حبيبة القلب .

وانصت الكابتن ميخائيليس وعيناه لاتزالان مثبتتين إلى الأرض . وقد
نفس بمخالبه على المسبحة وكأنه يريد أن يفتت حباتها . إنه طالما سمع

محال هذه البنت الشركسية ويوحشيتها ويغنائها فى الأعياد يتسلل عبر
المشربيات الخشبية ويشير الاضطراب بين الجيران فيزحف الأتراك
والكربانيين نحو الجراة إلى إركان الشارع وسط الظلام كى يستمعوا إليها
وهم ينتهون كالمراهقين حتى يبعدها نورى بك عن المشربيات وهو يضم
صدرها إليه فيحس كأنه يضم الدنيا بأسرها !

وتناهت إلى خياشيمه رائحة المسك التى غمرت المكان بمجرد أن
تقدمت الهائم نحو الركن الذى أعده البك لجلويسها .. وممرت بحذاءه وهى
ترميه بنظرة خاطفة فى نفس اللحظة التى رفع فيها الكابتن ميخائيليس
عيني .. والتقت النظرتان . ثم انحصرتا على الفور .. كلاهما وحشية !

وجلمت الهائم القرفصاء فوق الوسائد .. ثم غصمت تريد أن يراها
الأتان جيدا :

- يا له من ظلام ..

وينهض نورى بك واقفا .. ورفع ضوء المصباح . وغمر الضوء الحجرية .
وسلط رفيقا فوق وجنتى الشركسية ويديها وأحاطها بهالة من النور
الأحمر .. واختلس الكابتن ميخائيليس نظره إليها . ولكنه سرعان ما خفض
بصره وحيات المسبحة تنز تحت أصابعه .

وقالت الشركسية وقد ارتعشت خياشيمها :

- مساء الخير يا كابتن ميخائيليس .

وجاء صوت الكابتن من ذات حلقه مرتعشا :

- مساء الخير يا أمة هائم .. معذرة !

وضحكت الهائم . فهناك فى بلادها تعمل النساء غير محجبات جنبا إلى
جنب مع الرجال . ويمتلئين بصوات الضيل . وهناك يستمتع الرجل بالمرأة
وتستمتع المرأة بالرجل حتى يكتفى الأتان ! .. ولكنها أخذت من هناك
سفيرة حين باعها أبوها لأحد الباشوات المسنين فى القسطنطينية . حتى
اشتراها هذا البك الكريتى . وكانت قد هيات نفسها لئلا تعيش مع الرجال
أو لمرامهم بهذه الصورة . ومن ثم لم إن خياشيمها كانت تهتز كحيوان جائع
كلما التقت بأحد الرجال .

كانت طوال النهار ، تتبع خلف نوافذ المشربيات وترقب الشبان من الأتراك أو الكرديتين وهم يروحون ويحيثون فتحس بالآلم في صدرها ، حينما كانت تخرج للزفة في حجابها الحريري وبجانها وصيفتها البربرية تتعثر خلفها .. كانت تستمتع بالمرور بهذا المعاهى العلية بالناس أو في منطقة الميناء التي تزدهم بالصالحين والبحارة ، أو عبر بوابات القلعة حيث يمر الفلاحون الشمعت الغير الذين يسيل عرقهم ، وعندها كانت الشركسية تنفلس بعمق وقد أحست بأنها لم تعد تحتل رائحة الرجل أكثر من ذلك !

مرة استدارت إلى وصيفتها وهي تقول :

- بحق الله يا مارييا : لولا ننتهم لما كنت اجيء إلى هنا لأراهم !

- من تعنين يا بطلقتى ؟ !

- الرجال - الرجال ! ترى ، كيف كان حالك معهم أيام كنت شابة ؟ !

وقالت المرأة البربرية وهي تنتهد :

- كنت أومن بالمسيح يا بطلقتى ! !

ونظرت إلى الكابتن ميخائيليس في صحت ، لظالما حدثها البك عن الكابتن في لهجة إكبار .. وها هو ذا يجلس أمامها ! أي شيء لم تسمع به عن أعماله الخارقة ومكره ووحشيته ؟ ! .. وعن أنه لا يجب الحديث عن النساء أو الاستماع إلى أحاديث عنهن .. وها هو يجلس أمامها - زوجها نفسه هو الذي جاء به إلى هنا ..

وقال نوري بك :

- أمينة يا حبيبة القلب ، غنى من أجلنا أغنية شركسية تنسينا هموم الدنيا ، نحن رجلان .. فاشفقى علينا ..

وقهقت الهانم - وأرست الماندولين إلى حجرها ، واصدرت عنه نغمات عالية سريعة .. ثم ألقت برأسها إلى الوراء وسألتها البك في معادة :

- ماذا ستعزفين لنا يا زوجتى -

- سوف ترى -

وبدأت نغمات الماندولين تصيح أكثر سرعة ، وأخذت هي تتمايل وتتربح في الضوء اللامعت مثل وحش حبيس وهي تلثث ، وفجأة ، انطلق من أعناقها - وعبر حلقها المنتفخ - صوتها الهادر ! .. واهتزت الدار .. وأحس الكابتن ميخائيليس بأن شيئاً يخرق جسده .. أي ثورة ؟ ! .. أي نار يحس بها في قبضتيه وهي طلقه وفي كل حنايا جسده ؟ ! الجبال ضحككت ، والسهول غدت قرمزية بالجنود الأتراك الذين يملأونها ، وفوقهم كان ينطلق الكابتن ميخائيليس كالعاصفة وهو يعتلى صنوبة جواد نوري بك ، ويخلفه آلاف من أبناء كريت وبحول جباهم عصاليات الرأس السوداء ، ولا أحد أمامه ! القرى صاحت ! .. المآذن تقصصت مثل أشجار سرو ساقطة ! .. الدماء ارتفعت حتى بلغت بطن جواده ..

وشد الكابتن ميخائيليس قبضتيه على جسده ، وسكتت الشركسية فجأة ، وفجأة أيضاً وقف العالم ثابتاً أمام ناظريه ، كانت هناك كريت ، وكانت ميجالوكاسترو ، وكانت ضيعة البك ، وحدث البك هو الآخر في أمينة .. وتنهى .. وشرب .. لقد نسيت الروح تهويها ، وعادت مرة أخرى إلى سجنها .

وساد الصمت لحظات ، وأخيراً ، تعلملت أمينة وهي تربت ببدها على المندولين المستقر فوق ركبتيها ، ثم قالت :

- كانت هذه أغنية شركسية قديمة ، الناس يفنونها هناك عندما يعضون إلى الحرب .

وبهض نوري بك واقفاً وقد أخذت ركبته ترتعشان رعشة خفيفة واتجه نحو زوجته ورفع كأسه :

- في صحتك يا أمينة ، هناك ثلاثة أشياء أحبها ، الرائحة الطيبة ، والمرأة والغناء ، وأنت يا أمينة تسعديننا بها كلها ، فلتعيشي لنا ألف سنة - بل ألفى سنة ... !

وأفرغ كأسه في جرعة واحدة ، ومصمص شفثيه واستدار إلى الكابتن ميخائيليس ، وقال وهو يملأ له كأسه :

- اشرب يا شقيقى في الدم ! إشرب أنت أيضاً في صحتنا .

ولكن الكابتن ميخائيليس وضع أصبعين داخل الكأس المترعة ثم ضغط

بهما إلى الخارج فطمح الكأس إلى قطعتين : وسالت الخرفوق المائدة ..
وصاح في ضيق وعيناه مضطربتان :

- كفى !

وصرخت أمينة ، وقفزت من فوق الأريكة وهي تحديق في الكابتين
ميخائيليس والدموع في مآقيها ، أبدا لم تر مثل هذه القوة في يد رجل من
قبل ، واستدارت إلى زوجها في تحد وهي تقول لامئة الأنفاس :

- هل تستطيع أن تفعل مثل ذلك ؟ .. هل تستطيع ؟

وشحب وجه نوري بك ، واستجمع كل قوته في أصابع يده اليمنى ،
وأوشك أن يضع أصبعين داخل الكأس الأخرى ليحطمها ، ولكنه تراجع
والعرق البارد يتصبب منه ، فقد أحس بأنه يهان أمام زوجته ، وهدج
الكابتين ميخائيليس بنظرة حائلة .. ها هو مرة أخرى يجعل منه سخرية ! ..
شيء لم يعد يحتمله !

وجذب أمينة من ذراعها وهزما بعنف كالمجنون .. وصاح :

- اصعدى إلى غرفتك .

وعادت أمينة تكرر ووجنتاها ملتهبتان :

- هل تستطيع أنت أن تفعل ذلك ؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ .. هل
تستطيع أنت أيضا أن تفعل ذلك ؟

وعاد البك يامرهما :

- اصعدى إلى غرفتك !

ثم جذب المندولين وضرب به العائط فتناثر قطعاً ..

وضحكت الشركسية ضحكة جافة ساخرة ..

- نعم ، هذا ما نستطيع أن تفعله - تحطم المندولين ، نعم ، هذا هو
ما نستطيعه يا نوري !

وانسلت من فوق الأريكة وهي تمس الكابتين ميخائيليس وثوبها يلامس
ظهر يده ومرة أخرى فاحت رائحة المسك ، وأحس الكابتين ميخائيليس كأنما

يده تحترق ، بينما رستت هي بيدها الساخنة وهي تبتسم - دائرة حول
نوري - موة ومزتين - ثم دفعتته مداعبة وهي تضحك .. وفجأة انطلقت تعدو
نحو الدرج .. ثم اختفت .

وتل الرجلان والفتين تجاه أحدهما الأخرى في وسط الغرفة ، وداعب البك
شاربته وصدره يعلو ويهبط في عنف بينما كان الكابتين ميخائيليس يحض على
شفتيه الجافتين غابسا وهو ينظر إليه وقد وضع كل منهما يده على مقبض
خنجره .

وأخيرا تكلم نور من بين شفتين حائلتين نصف مفتوحتين .. قال في
صحيح :

- كابتين ميخائيليس .. أخرج -

نوري بك .. سوف أخرج في الوقت الذي يناسبني .. خذ الكأس
الصحيحة واملأها لي ..

وضغط البك على مقبض خنجره ورسم بيصره إلى المصباح ، وفكر
لحظتها في أن يطفئه ليصبح الاثنان وسط الظلام ، ثم يتصارعا حتى يموت
أحدهما ، ولكن قلبه لم يحزم الأمر بعد .

وعاد الكابتين ميخائيليس يقول في بطء :

- خذ الكأس الصحيحة واملأها لي .. وإلا فلن أخرج ..

واستدار نوري بك إلى المائدة .. وتقدم خطوة واحدة ثقيلة كأنما
رصاص يتقل ساقيه ، والعرق يفرقه .. ثم ملا الكأس ويده ترتعش
والشراب يسيل فوق الفطيرة .

وأشار إلى الكأس :

- اشرب ..

وقال الكابتين ميخائيليس -

- ناولني الكأس ..

ورفع البك الكأس وهو ين من الغضب ، ودفع بها إلى راحة الكابتين
ميخائيليس الذي رفعها إلى فمه وهو يقول في فتور :

- في مسجده يا نورى بك سوف افعل ما طلبت منى . وسوف اخبر اخصى
بالا يتعرض لتركيا بالاهانة ..

ثم بلل شفتيه . واحكم عصاة الرأس فوق جبهته واتجه إلى عتبة
الباب ..

والقى المصباح ضوءا اخضر واحمر فوق الحديقة الساكنة العظيمة .
بينما كان الكابتن ميخائيليس يسير في هدوء ويهبط في اتجاه الباب المؤدى
إلى الشارع دون أن ينظر حوله .

ساد الظلام .. وكانت ميجالوكاسترو تتناول وجبة العشاء وهي . تتنأب
وترتعض وتغلق نافذة اثر اخرى . وترسم علامة الصليب .. وتدلغ إلى
الفراس . وكان هناك بعض الذين اخرتهم اعمالهم لايزالون يتحركون في
الطرقات .. وبعض العشاق يتعانقون تحت النوافذ المغلقة .. وهنا وهناك .
كانت الثرثرات المنهوكة تسمع من الاقياء المسكونة . عمال الليل ..

وكانت العوانس الثلاث قد تجعدن من اثر وقتهن يتلصصن خلف بابهن
بينما كان الكابتن ميخائيليس يسير الهويئا عائدا والظلام يشتد حلكة . اما
شقيق العوانس الثلاث فكان قد عاد إلى بيته عابسا منهوك القوى وجلس
الاربعة إلى المائدة يتبادلون وضع كلمات قليلة . ماذا سيأكلون غدا . ليس
هناك فحم كاف .. لازيت للسلطة .. ولا زيت للمصباح .. كيف ينهني على
أريستوتولويس أن « يرم » عظامه ! .. تكلعوا . واكلوا . ثم رفعوا المائدة .
وأعدوا الشاي ليساعد على الهضم . وارتدوا ملابس النوم الطويلة ..
ورسموا علامة الصليب . ولكن أفكار العوانس الثلاث كانت عند الباب
الاخضر !

وتابع الكابتن ميخائيليس سيره إلى البيت عن الطريق الأطول . وقد
أحس بأن الجدران الاربعة لن تقدر على احتوائه في ليلته تلك . وبأن قلبه
منتفخ لم يعد في جسده مكان له . ويأته حتى ميجالوكاسترو أصبحت
أضيق من أن تتسع له .. تابع سيره والبيوت والأزقة والناس تبدو كما لو
كانت جميعا تخفته . ثم أوسع الخطى وقد كثر عن أسنانه كوحش مطارد
حتى وصل إلى الشارع الرئيسى الذى كان خاليا ومصابيح البيترول على
طوله تلقى بأضوائها الحمراء الشاحبة على الارضفة . ومر بهذا السوق

وكان ثمة مطعم تركى لايزال يفتح ابوابه . وكذلك مقهى وحانة او حلتان .
وسمع شخصا يناديه . وبدا الصوت كما لو كان صوت الكابتن
بوليكسيجيس فأوسع الخطى أكثر حتى أصبح بخذاء باب قصر الباشا
والنافورة المرمورية ذات الطراز البندقى والأسود المنحوتة عليها .. رفع
بصره ورأى الأشجار العالية - الأشجار العنينة ! .. واقتراب .. ولم يكن ثمة
أحد سواه . ورسم علامة الصليب وهو يغمغم قائلا : « إلى أن نلتقى مرة
أخرى فى بهجة أيها الآباء ! » منذ اجيال والباشوات يجعلون من هذه
الأشجار مشانق للكريستين الذين تجرأوا على أن يرفعوا رؤوسهم . وطوال
الشتاء والصيف كانت الحبال ذات الخية تعلق إلى فروعها القوية ..

وأخذ يحدق فى غضب فى الأشجار وكأنها هى امامه شخص اترك .
ليلة ما .. ككريتى . سوف أتور ... سوف أرفع فأسا واقطع أيتها الأشجار
الملعونة .

واختصر طريقه . ودلف إلى رتاق طويل مظلم حتى وصل إلى الأقياء
الثلاثة . لا أثر لمطلوق ! .. حل أزرار قميصه الذى كان يشغله وتنفس بعشق
وهو يتطلع حواله . هناك إلى الشمال . تتلألا صفحة البحر ويتنامى
هديره .. وجبال أبوختاس وسيلينا وسيلفورتيس تبدو على مرمى البصر .
وفى السماء كانت تتلألا النجوم . وبطل الكابتن ميخائيليس يبرح ويجىء فى
دائرة كأنه جواد ترى وصل إلى الخندق الذى يحيط بميجالوكاسترو ورأى
اكواخ الطين المقتاترة التى تعلو ذلك التل المنعزل هناك . تلك كانت
« ميسكينيا » .. قرية المجزومين . وعلى الشاطئء كان ثمة تل وأطيرء
يسمى « تل الفئوس السبعة » وهو التل الذى اندفع منه الأتراك كالعاصفة
ليحتلوا ميجالوكاسترو قبل مائتى عام .. وكانت هناك فئوس سبعة من
فئوسهم لاتزال مفروسة فى الأرض . وعلى مرمى البصر خلف هذا التل
كانت تبدو جزيرة « ديا » المهجورة كأنها سلطفاة بحرية .

وسمع أصواتا نسائية خلفه . وحفيف الثواب حربية ناعمة . ثم برز
تركى احذب يمسك بيده مصباحا ضخما وخلفه سيدتان تركيتان تثرثران
خلف الحجاب الأسود .. وتناهت رائحة المسك .

- كل الشياطين يتبعوننى الليلة ..

ثم ادار بصره تجاه البحر حتى لا يرى الهوانم التركيات ..

.. كل الشياطين - ولكتمهن لن يقلحوا ..

وأحس لحظتها باستيقاق إلى بيته ، ولكنه لم يكن يريد أن يرى أحدا هناك ، لسوف يسمعون وقع خطاه من بعيد .. وسوف يسعل ، فيفهمون ما يريد فيختبئون .. ولسوف يكون ذلك شيئا طيبا ، وما إن يضرب الباب بقدمه فيفتحه حتى يصبح وحده تماما ، لا زوجة ، ولا أولاد ، ولا كلاب .. وحده تماما ! .. ولحظتها ، سوف يتخذ قراره .

وتحت ضوء المصباح كانت زوجته كاتيرينا وابنته ، رينيو ، تنتظران ه خلفهما - وعند حافة النافذة التي تأخذ الجانب الأكبر من حائط الديوان - المكان الذي يجلس فيه الكابتن ميخائيليس ولا أحد سواه ، فعندما يكون خارج البيت لم يكن أحد يجرد على الجلوس هناك أو مجرد الاقتراب منه ، لزوجته ، ولا ابنته .. فقد كانا يصران كما لو أنهما تلمسان جسده إذا هما اقتربتا من ذلك المكان .. فترتعبان وترتدان إلى الخلف في نعر .

كانت الأم تحيك جوربا ، وكان ضوء المصباح يسقط منحرفا فوق شعر بني كث مسترسل ، وحاجبين فيها كبرياء .. وخبدين متعاسكين .. ويكتشف عن فم حزين ، وذقن عريض عنيد . كانت تلك المرأة تحمل سحرا غريبا - سحرا وصلابة وإرادة قوية ، كانت ابنة الكابتن ، ثراسيبولوس رواس ، أحد الأبطال المرموقين الذي لم يربق بغيرها فتمتعت هي بحرية وخطوة كذلك التي يتمتع بها صبي ، ولكن ما إن تزوجت حتى سقطت في براثن أسد ، وفي السنوات الأولى لزوجها كانت تبدي ثردا ومقاومة ، ثم ماليت مع السنين أن أحنت رأسها ، كان الكابتن ميخائيليس ! .. ومن ذا الذي يستطيع أن يواجهه ؟ أنتهت القوة .. وانتهت الإرادة الحرة وأصبحت رقيقة هادئة .

كانت تشغل في حياكة الجورب .. وتفكر ، كانت حياتها تعبر من بين يديها مثل الماء .. وكانت أحيانا ترفع رأسها وتنتظر حولها حيث علقت على الحوائط صفوف أبطال عام ١٨٢١ - وحوش برية ، يذوقون كأنها فروة الأسد .. وفي منتصف الحجرة - وأمام صورة واحد من هؤلاء - أضيء مصباح فضي ..

وهزت كاتيرينا رأسها في صمت .. حياتها كلها - في بيت أبيها أو في بيت زوجها - عاشتها تحت السلاح ! قبل زواجها ، وخلال ثورة ١٨٢٦ ،

خرجت هي أيضا وقد تمنطقت بحزام ومن فيه الرصاص .. وحملت بيدها بندقيته واشتركت في القتال لتمنع الاتراك من اجتياح قريتها ، حتى وهي معلقة .. كانت تمرق الكتب التي أحضرها التساوسة من الأبراشيات وتسنع من أوراقها سناديل لطلقات الرصاص مع غيرها من الفتيات الصغيرات ، كانت تعرف جيدا رائحة البارود .. وتحبها - وكان الكابتن ميخائيليس رجلا طيبا - نعم الرجل - وكانت هي تحبه ، ولكن حياتها التي كانت تحبها رغم ذلك .. كانت حياة قاسية بالنسبة لامرأة .. وكانت تحس في مكان ما بداخلها أنها غير سعيدة .

وتركت الجورب من يدها ورفعت بسرهما مرة أخرى ، فوق الديوان علقت صورة لشمشون مكبلا مهانا من الفلسطينيين ، كان يرى في الوسط مكبل اليدين والقدمين بالحبال والسلاسل ، وخلفه جمع من الشباب يتجانسون ويضربونه ويسخرون منه ، ويأعلى الصورة - في البرج - كانت دليلة ، تنحنى خلال فتحة مشربية صغيرة ناهدة الصدر ، تنطلع في ضغينة واحتقار وتشف .

وكانت كاتيرينا تنقل بصرها من صورة إلى أخرى وكأنها تراها جميعا لأول مرة .. ثم تنهدت وهي تنحنى مرة أخرى على الجورب .

لما ابنتها السمينة النضرة ذات الخمسة عشر ربيعا بحاجبيها الكثيفين مثل أميها وذقنها العريض العنيد كامها .. فقد تركت ما بيدها ، وضعت تربت على ظهر القطة العجفاء المتوحشة التي تكومت عند قدميها كالكرة .

- لماذا تنتهدين هكذا يا أمي ؟ فيم تفكرين ؟

وفيهم أفكر يا ابنتي ؟ في حياتي .. وحياتك أينها المسكينة .. حياتنا اللتين سقطنا في براثن وحش مفترس .. في الطفلة الذي ظلت أهددها حتى تنام وحتى لاتصبح فتوقظ كل الأنواع الشريرة داخل أميك .. لراساكي .. هو وحده الذي اطمنن إليه - لأنه مثل أبيه تماما ! ..

ونظرت إلى الدثار .. وأرهفت السمع :

- لقد نام .. الحمد لله ! .. إنه صورة من أبيه ! .. هل ترين كيف يغضب ؟ .. أو الطريقة التي يبزي بها حاجبيه ؟ .. كيف يضرب أصدفاهه .. ؟ .. كيف ينظر إلى النساء يوحشية ! ..

ولم تعلق « رينيو » .. كانت تخاف من أبيها ولكنها كانت تحبه وتفخر به ، وكان كل ما يفعله يبدو لها حقا ، وكانت تحس بأنها لو كانت رجلا لفعلت نفس ما يفعله أبوها ، كانت هي أيضا تتمنى أن يكون ابنها وحده هو الذى يجعل الفتيات يرحمن بعيدا كلما سمعن الناب يفتح عندما يحضر هو ! كان والدها قد منعها من أن تظهر امامه بمجرد أن أصبحت فى الثانية عشرة .. ونما جسمها وتكبر صدرها .. ومنذ ثلاث سنوات لم يقع بصره عليها .. وكانت هي دائما تجلس فى المطبخ أو تحبس نفسها فى حجرتها الصغيرة بالطابق العلوى مادام أبوها فى البيت . وأصبحت تميز وقع خطاه على بعد فتتلمى على الفور .. حتى القطة كانت تفعل ذلك بأسرع مما تفعل « رينيو » .. ذلك واجب .. وأبوها على حق .. لم تكن « رينيو » تفكر فى كلمة « لماذا ؟ » ولكنها كانت واثقة من أن أباهما على حق !

أما أيضا كانت ترى ذلك ، ولكنها لم تكن ترتاح له ، إن زوجها صورة طبق الأصل من أبيها ، وكمن من السنين ظل فيها الكابتن « روفاس » لا يرى ابنته ! كانت فى العشرين ولم تكن قد تزوجت بعد حين اقتحم الجنود الأتراك البيت ، وقتل أبوها من قدر على قتله منهم .. ولكنهم كانوا كثيرين أخذوه معهم .. وأخرجوه إلى الفناء ، ثم وصلتهم الأوامر بأن يسلموه لباشا ميغالوكاسترو وخرجت كاتيرينا مع أمها إلى الفناء ورأته مرقق الثياب داسى الجسد .. ويومها رفع يديه وقال : « وداعا .. » ثم قال : « لاتحزن يا نساء .. وأخبرن كعك الجنازة بطريقة طيبة ، إننى أموت فى سبيل الحرية فلا تبكين ! واحتمن بأنفسكن ، اهتسى بنفسك يا كاتيرينا ، واحملى فى أحشائك طفلا ذكرا - وسوف يكون عندك إذن شراسوس .. رجل مثلى ! »

وأخذوه إلى ميغالوكاسترو حيث أوقفوه أمام باب الباشا تحت الأشجار الطويلة ، ثم جاء حلاق تركى حلق له رأسه .. وبعدها ، أصبح مصطفى باشا يملك صندوقا للطبايق مصنوعا من عظام جمجمة !

ذلك كله مر بإطار كاتيرينا وهي تحيك الجورب وتتهدد ، إن حياتها تمضى مع الكابتن ميخائيليس على ما يرام ولم يكن هناك ما تشكو منه ، كان فارسا شريفا مشرفا .. وكان رجلا جادا .. لم يكن يلهث وراء النساء أو يلعب الورق ، ولم يكن شحيحا .. وكان يسكر مرتين فحسب كل ستة ليظلمن من حدة ما يعمل بداخله ، كان رجلا ، وليس فى ذلك عيب وليس منه ضرر ، الآخرون كانوا يرتكبون الحماقات ، بينما هو يسكر فحسب .. ولكن

الأمور فى هذه السنة كانت تجرى صعبة .. الطفلة التى ولدت له فى السنة السابقة - رفض الكابتن ميخائيليس مجرد النظر إلى عينيها ! وكان يصبح كل صباح وهو يفتح باب البيت متوجها إلى ذلك :

- لا أريد أن أراها .. لا أريد أن اسمعها .. أى شيطان جعل لها هاتين العينين الزرقاوين ؟ !

إن أحدا فى عائلته ليس له مثل هاتين العينين الزرقاوين ، ولكن عيني هذه الطفلة زرقاوان ! من أين لها هاتان العينان ؟ ! .. لكان شاة سوداء قد ضلت فدخلت بيته ولكان دمها قد دنست ، والكابتن ميخائيليس لا يستطيع أن يحتمل هذه الفكرة ..

وابتلعت الأم سبية الصطدموعها ولم تقل شيئا ، فعاندا يمكن أن تقول له ؟ ! - بصوت ، وركعت أمام العذبة - أمام القديس ميخائيل ذى الأجنحة الذهبية والسيف المنهوب ، والروح الجديدة التى يقدر عليها بيده تبدو كمثل مرتعد .

.. كانت تتحنن امامه فى ذل وشراعة - ليس هو حلمى حمى بيتها ؟ ! - وتتوسل إليه أن يحدث زوجها .. إن يقتحم عليه أحلامه بالليل ويحاتبه .. ويطلب منه أن يكون قلبه رقيقا ولو قليلا ..

وكان الكابتن يقضى اليوم بطوله فى الدكان ، وكانت هي تبعث إليه بوجبة الغداء مع شارييتوس صبي الدكان ، ثم تضع الطفلة فوق ركبتيها وتظل تهددها وهي تبكى وتصرخ ، وعندما يقترن المساء تطعمها شيئا لتنام وحتى لا تستيقظ قبل صباح اليوم التالى .

وسمعت الأم وابنتها صوت « تراساكي » وهو يحلم فى الغرفة الأخرى ، وضحكت الأم :

- باركه الله ، إنه لا يريح نفسه حتى وهو نائم ! .. إنه يحلم دائما بأنه يسطاد ويقفل أو يأنه على رأس جنود يشبعون ذبحا فى الأتراك .. عندما يكبر سوف يفعل ما يحلم به الآن .. تماما مثل أبيه ومنل جده .. أه .. إن أحران كريت لا نهاية لها ..

وساد الصمت .. وحدثت « رينيو » فى ظلام الليل من خلال النافذة ، وكانت تهب ريح شمالية تهز إحدى صلف النافذة .. ولو أن المرء توقف عند

كل بيت من البيوت في تلك اللحظة لسمع صوت لم تهدد طفلها ، وأغلقت
« رينيو » عينها .. وأرهفت السمع وصدرها يرتجف .. ثم قالت بعد لحظة
وكانها تريد أن تقطع على أفكارها الطريق ..

- لقد تأخر هذا العشاء .

- قالوا إن ثوري أرسل في طلبه ، ترى ماذا يريد منه هذا الكلب ؟
وضحكت « رينيو » ..

- سوف يرفعه أبي من حزامه الأحمر مرة أخرى ويضعه فوق السطح !
وهزت الأم رأسها :

- ولكنه بعد ما سوف يقتنص عشرة من الكريبيين ويأخذ بثأره منهم .
قلت لك إن الأم كريبت لا نهاية لها ..

- لقد قلت نفس الشيء من أبي ، ولكن في ليلة من الليالي ..

وتوقفت وقفرت جويسيب - هكذا كان اسم القطة - على كتف رينيو ..
ودغدغت أذنها .. وأرهفت الاثنان السمع .. وسرعان ما التفتت « رينيو »
الخيط والإبر والمقص بينما كانت القطة قد اختفت داخل المطبخ .

وقالت رينيو :

- لقد وصل ..

ولحظتها سمع سعال خارج الباب .

- نعم .. هو ..

ثم وقفت وقالت :

- سوف أسخن العشاء ، فربما يريد ألا يرى أحدا ، من أجل هذا
يسعل .. !

وفتح الباب الخارجي .. وخفا الكابتن ميخائيليس إلى الداخل ثم أغلق
الباب وراءه بالمزلاج وعبر الفناء ، ودخل وهو ينظر حوله ؛ لا أحد .. رفع
عصابة الرأس وخلع سترته التي بللها العرق ، وجلس في مكانه على حافة

المقعد بالقرب من النافذة المعطلة على الحديقة ، ثم أخرج من حزامه متديلا
حرف به عرق جبهته وعنته وصدره ، وفتح النافذة ليتنسم الهواء ..

وسمع صوت زوجته وابنته وهما تشعلان النار لتسخين العشاء ، وخيل
إليه اللحظة أنه سمع صوت الطفلة .. وأحس على الفور بأن نداهم تفور ،
فأرهف السمع أكثر .. ولكنه لم يسمع سوى الصمت فأخرج عليه الطباخ
وإف سيجارة وأشعلها .. ولكنه أحس بهرارة فمه وكانما هو مليء بالسم
فلوح بالسيجارة من خلال النافذة ..

ودخلت زوجته بالعشاء .. وقال الكابتن ميخائيليس دون أن يرفع رأسه :

- لست جائعا ، خذي الطبق بعيدا !

ولم تقل الزوجة شيئا رفعت الطبق .. وخرجت .

وساد صمت ثقيل .. ونهض الكابتن ميخائيليس وتناول سترته مرة ثانية .
وعاد فوضع العصابة حول رأسه واتجه نحو الباب ثم توقف لحظة يتطلع
إلى صف المحاربين المعلفة صورهم على الحوائط من أبطال ١٨٢٦ ..
بسلاحهم .. أحزمة ذخيرتهم .. ومسدساتهم وشواربهم النافرة كالإبر
وشعورهم المسدلة إلى اكتافهم ..

نسى للحظة ما كان يريد أن يفعله ، وظل يحدق في كل واحد منهم
ويحييه .. ولم يكن يعرف تماما هذه الوجوه ، ولا الأماكن التي حاربوا
فيها .. ولا الأعمال التي قاموا بها .. ولا الأماكن التي جاؤا منها -
رومليا ، أم موريا ، أم الجزر أم كريبت ؛ ولكنه كان يعرف على وجه اليقين
شيئا واحدا ، هو أن كل هؤلاء الرجال حاربوا الأتراك - وكان ذلك بكفية ،
أما من عدهم فقد كانوا من طراز المدرسين .

وخرج إلى فناء الدار .. وأحس بالانقباض وهو يرى البئر وغصون الكرم
وأصمخ الزهور .. واقترب من الحظيرة الصغيرة الملحقة بالفناء حيث
الفرس الأبيض يلعب جسده في الظلام ، وأرهفت الفرس السمع ثم أدارت
رأسها ورات سيدها فسهلت في سرور .. واتجه الكابتن ميخائيليس نحوها
وأخذ يمسح على عنقها ويطنها ويعجزها بيديه المغفومتين .. متلوقفة دافئة
معيودة .. مستعدة دائما بمجرد أن يأمرها سيدها .. مترفعة ومطبعة

لا تفسد أبداً عليه مزاجه ، معه دائماً كما لو كانت جزءاً من جسده حتى الموت .

وابتعد عن الفرس ... ثم تحسس حذاه الطويل ثم رفعه إلى الركبتين ثم اللخذية .. وشد صدره كأنما يستقبل الربيع ، ووضع الحذاء داخل السرج ثم صاح :

- شاريتوس !

وخرجت زوجته .

- إنه نائم ..

- ابتغية !

ثم لف وانتظر مكانه لا يتحرك ، وأخذ يدخن وهو لا يعود يحس بمرارة في فمه .. ويملأ الدخان من أنفه وينتظر في هدوء ..

ويخرج ، شاريتوس ، يدعك عينيه النائميتين .. بشعره المشعث وعنقه الطويل وقدميه العاريتين مثل عنزة برية في الثانية عشرة . كان ابن أخيه ، فانوريوس الراعي ، وكان قد قدم من قريته بعد أن بحث به أبوه ليتعلم القراءة والكتابة ، ولكن الكابتن ميخائيليس رأى أن تعلم الكتب عمل الحمقى الأغبياء ، هل تريدني أن أجعل منك نبيلًا جائعًا ؟ أم مدرسًا ؟ ألا ترى التعاسة التي يعيش فيها عمك المدرس ، تيتوريوس ، الذي جعلت بلاده المدرسة من حياته عبئًا ؟ سوف يضعف بصرك أيها السبي ، وتضع على عينيك عيونات وتجعل من نفسك أضحوكة الناس ، أبق في الدكان إذن .. وسوف تكبر .. وسوف تكبر مخك ، وسوف أمحك أنا دفعة إلى الأملم حتى تستطيع أن تفتح لنفسك دكانًا خاصًا بك وتصبح رجلاً ..

وقال نفس الشيء لأخيه ، فانوريوس ، الذي أجابه بقوله :

- أفعال ما يحلوك ، لك فيه اللحم وإلى أنا العظم ، صفه على النحو الذي يروق لك وأجعل منه رجلاً ..

وامسك به الكابتن ميخائيليس من قفاه ، وهز قائلاً :

- اذهب إلى البئر واغتسل وافق جيداً .. ثم عد إلى وتلق أوامري ..

واتجه ، شاريتوس ، إلى الفناء ، وأخرج ماء من البئر واغتسل به وسطش شعره بأظافر يديه ثم عاد إلى عمه :

- ها أنذا ..

وضرب الكابتن ميخائيليس بيده على كتفه ، وقال :

- أمض إلى البيوت الخمسة التي تعرفها ، وأقرع باب كل منها حتى يفتح لك .. أقرعها بحجر إذا لزم الأمر . مفهوم ؟

- مفهوم ..

- فيندوسوس ، وفوروجانوس ، وكاجابيس ، وبيثروبولوس .. وإلى الكنية ، حيث يعيش أفندينا ..

- أفندينا ، روث الخيل ، ؟

- وقال لهم : تحياتي صمى إليكم ، وهو يخبركم أن غدا السبت .. وأن عليهم في صباح الأحد المبكر أن تتفضلوا بالمحضور إلى بيته .. مفهوم ؟

- مفهوم ..

- اذهب .

ثم نادى زوجته :

- اذبحي ثلاث دجاجات وأطبقيها ، نظفي القبو ، وجهزي المائدة الكبيرة والمعاهد والكنوس ..

وودت زوجته لحظتها لو تكلمت وقالت : ، إنها أيام الصيام الأربعة عشر ، ألا تخشى الله ؟ ، ولكنه رفع يده ، فلم تقل شيئاً ، واتسمرت وهي تنتهد .

وقالت لابنتها ، رينيو :

- سوف يكون عندنا لسوء الحظر عيد آخر ! .. علينا أن نذبح ثلاث دجاجات ونهين القبو كما أمر ..

وقالت رينيو :

الفصل الثاني

- ما الذي حدث له ؟ إن الشهور الستة لم تنته بعد !

ولكن قلبها كان يفلز في سرور . فقد كانت تحب مشهد البيت عندما يصير كل شيء فيه مضطربا ، وعندما تروح وتجري لذائذ الطعام وعندما يجلس الرجال في الحجرة السفلية ويسكرون .

وتغمعت الأم :

- ها هو ذا قلبها مثل من جديد .. إن الأرواح الشريرة قد دخلته مرة أخرى .

ثم رسمت علامة الصليب وقالت :

- أنا مضطحة يا ربي ، أنا أقول أشياء لم يكن ينبغي أن أقولها ، ولكنني لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك ، إنه يمتهن أيام الصيام الأكبر .. إنه لم يعد يخشى الله !

وتذكرت في ثورة القديس ميخائيل هناك في المذبح كم مرة قدمت ندمي أمامه وتوبيتي ، كم صلاة قدمتها في حضرته ؟ كم مرة ملأت مصباحه بالزيت وكم شمعة من أجله أشعلت ؟ .. وذلك كله ضاع هباء .. حتى هو أصبح الآن في صفه !

ثم غمعت :

- أه لو أنني كنت رجلا ، أقسم بخلاص روحي ، إنني كنت سأفعل نفس الشيء ، أنا أيضا كنت سأأخذ لنفسني خمسة أو ستة من الأصدقاء . وعندما يضيق صدري ادعوهم إلى القبور .. وأسكرهم .. وأطلب منهم أن يفتوا ويعزفوا على القيثارة ويرقصوا .. حتى أبعث السعادة إلى قلبي . هذا حقا .. ما يفعله الرجل ! ..

هبط على ميجالوكاسترو ، ليل مشبع بجوربيبي رطب وحر ، وكانت سمعات الشمال الباردة قد هبت قبيل منتصف الليل ، ثم مالبت أن حلت محلها ريح رطبة دافئة تطلت فروع الأشجار فانتفتحت ريح قادمة من الجزيرة العربية ، عبرت البحر النيبى واكتسحت سهول ميسارا ، من تيباكي ، و جودهاربور ، إلى سانت باراباره ، تاركة وراءها كروم أرشاني ، الشهيرة تتسلق أسوار القلعة وتتخلل شقوق الأبواب والنوافذ . وتهبط فوق النساء كالرجال ، وفوق الرجال كالنساء .. تمنعهم جميعا من النوم . أبريل المؤذي حل بجزيرة كريت مثل لص يليل !

حتى الباشا - حاكم ميجالوكاسترو ، الرجل المسن القوى البنية - طار النوم من عينيه وهو يحس بالحرارة وبالشهوة تسريان في جسده ، لمصطف بيديه وبرز له خادمه العربي سليمان .

- افتح النافذة أو يفضي على ! .. ماذا أصابني يا ترى ؟ وأي ريح هذه يا سليمان .

- ريح قادمة من الجزيرة العربية يا أفندينا الباشا .. ريح حارة ولكنها لا تضر . فلا تخش شيئا .. نحن أبناء كريت نسميها ريح الخيار ، .. لأنها تتضح الخيار .

- ريح الخيار ؟ .. لم أعرف مثلها قط ! اذهب الآن ومر الجارية غاطمة بأن تكون مهية إذا احتجت إليها .. واحضري معك إبريقا من ماء الحوض ومروحة تمتحنى بعض الهواء البارد .. وكريت ، هذه سوف تكون السبب في موتي !

وحتى مطران • ميغالوكاسترو • المهيب الذي يخشى الله ذو الثمانين عاما والحية البيضاء الناصعة كان يحترق من شدة الحر .. خلق ملابس النوم ونهض متجها إلى النافذة التي تطل على قصر الأسقف واستند إليها يتلمس بعض الهواء ، السكون موحش وعميق ! وكل البيوت غارقة في ظلام دامس ، وشجرة الليمون العجوز تقف مزهرة في الميدان الذي تطل عليه الكنيسة وتنتشر حولها أريحا حلوا . وفي قبة السماء مصابيح لا يحصرها العد تضيء أمام عرش الرب . وغاب المطر عن ذاته أمام المشهد المهيب للسماء الزاخرة بالنجوم ، وظل لحظة واقفا بجسده الفارع الثقيل محوطا بسكون عميق من صنع الله ، ثم مالبث أن عاد مرة أخرى إلى الأرض ليجد نفسه لا يزال متكئا على حافة النافذة . فرسم علامة الصليب على صدره وهو ينص بأن ريح الربيع الدافئة قد سكتت ، وبأن جسده أصبح باردا خفيفا ، فعاد إلى فراشه ليفرق بلا خطيئة في أحضان الرب .

جذب الكابتن • ميخائيليس • الملامة وجلس على فراشه غامسا لا يد أن الوقت الآن قد تجاوز منتصف الليل . انحنى في لهفة وأمسك بالأبريق القريب منه وضغطه فوق شفطتي وجرح جرحتين كبيرتين أو ثلاثا حتى يفيق ويبعد ذلك الحلم المخجل الذي انقل عليه نومه . ولكن الحلم ظل يتشبث به كامرأة لا يريد أن يطلقه . ويدعم الكابتن • ميخائيليس • . لعن الله النوم ! .. لللعنة عليه .. إنه يفتح الأبواب للأرواح الشريرة .. ومن خلالها تنفذ ..

ونهض واقفا وهبط الدرج حافى القدمين حتى أصبح في الفناء فأخرج ماء من البئر وضمر رأسه في الدلو ليطفىء اللظى ولكن اللعاب الحلو ظل داخل فمه والنحاس ينقل جفونه فعاد ليجلس مرة أخرى فوق الفراش وفتح النافذة القريبة ، ظلام حالك ! .. وأرهف السمع : ميغالوكاسترو ، غارقة في النوم لا يسمع لانفاسها صوت .. وريح غريبة حارة ترف وهي تمس الأرض والماء وأوراق الكروم وعريشها في حفيف رتيب متصل ..

واستند الكابتن ميخائيليس بظهوره إلى الحائط وبدأ يدهن وفي نية ألا يستسلم للنوم مرة أخرى . كان مخلوقا تركيا ذلك الذي رأى في الحلم .. مخلوقا مجنوناً لا يوثق به ، أخذ يدهن وهو يحدث في أيقونة • ميخائيل كبير الملائكة .. حامى قومه : غضب السماء بجعبته فوق ظهوره ، وعلى يمين

السورة يثيق غدارته الفضية التي ورثها عن أبيه وعلى يسارها للكبل الشرف الذي وضعه فوق رأسه يوم زفافه .. إكمال مستوح من أزهار الليمون المكسوة بالشمع . وسمع للحظة زوجته • كاتيرينا • تنتهد في الحجرة المجاورة .. ومن أعلى .. ووسط عروق الخشب - كان غار يقرض .. وحياة اندفعت فطة إلى الخارج تصعد الدرج في خفة دون أن تحدث صوتا .. ثم ساد صمت عميق .

ظل الكابتن ميخائيليس يدهن دون أن يزيئه الفلق أو الخجل - ظل هكذا وهو يتنفس بعمق وقد ثبت نظراته بالنافذة .. ينتظر طلوع النهار ..

وفي الطرف الآخر من • ميغالوكاسترو • قريبا من • البوابة الجديدة • كان العم • يانيس • متجها إلى بيته غارقا في عرقه وقد شعر اكتماله وأمسك بيده قنديلا يضاه بالزيت تتراقص ذبائمه . ومضى يتعثر على طول الرقاق الضيق وهو يتبعى حظه ، فالتاس يصرون على أن يحرموه من الشيء الوحيد الذي يقى له بعد وفاة زوجته . النوم ، فهو لا يفتأ يكذب ويكح منذ الصباح الباكر وهو ينقل الماء لسكان • ميغالوكاسترو • في الشتاء يوفر لهم مياه • سالييس • العذبة الصافية لتبعث فيهم الدفء . وفي الصيف يوفر لهم الشراب البارد . فهل نعم في حياته باسفامة ؟ لقد كان يؤدي أيضا عمل القابلة ! قريبا يجيء المخاض إحدى جاراته أو قريباته : • اسرع يا عم يانيس المسكين .. اسرع بتوليدها ! .. لقد تعلم هذه الحرفة عن أبيه المرحوم الذي كان حادادا .. وكان يقوم بتوليد الأفراس وإنث السمين . ولكن العم • يانيس • نقل من أبيه من الأفراس وإنث الجمير إلى النساء وسماء أمس فقط . قام بتوليد ابنة أخته المسكين • بيلاجيا • ولم يكن الأمر سهلا ظلت ثلاث ساعات تعاني الأم الطلق . ولكنه استطاع في النهاية أن يخرج الطفل ، طفلا ممثلا أسود في لون الفار .

وما هو الآن يحدث نفسه وهو ماض في طريقه بلعن حظه . وتتلقى إلى سمعه وقع حوافر جواد خلفه . ولكنه لم يكن واحدا من هذه الجياد التي تعرفها والتي تأكل الشعير ! .. وقد عرف العم يانيس هذا الجواد من وقع حوافره التي كانما كانت مكسوة بالقطن . ومن الشذا المقدس الذي انتشر في الهواء .. وفهم العم يانيس ، فلم تكن تلك أول مرة . والتسقى بالحائط ورسم علامة الصليب على صدره .. وانتظر . وانترب الضوء . واقتربت الخطوات السابحة أكثر وأكثر . وأصبح الشذا أكثر نفاذا ..

وتمت العم « يانيس » : « انكرني ايها الرب ، عدت مساء يا قديسي
« ميناس » . عدت مساء يا قديسي » .

وفتح عينيه في سعادة . فهناك في الطريق ظهر القديس « ميناس »
حامل « ميغالوكاسترو » - البطل ذو الشعر الرمادي - ممتطيا صهوة جواد
احمر اللون في سمرة . يتلألا وسط الظلام كعائلة كل مساء حين يقوم
بجولته وهو يرتدي صدريته المدرعة الفضية ويضع حربته الطويلة
الصمراء فوق كتفه . ففي منتصف الليل . وعندما تخلد المدينة إلى النوم
يخطو القديس « ميناس » خارج ضريحه ليطوف بالحي اليوناني يلقط
ابواب البيوت إذا كانت مفتوحة . ويتوقف إذا لمح ضوءا ينبعث من نافذة
أحد الكرتيين المرضى .. يدعو الرب من أجل شفائه . وليس لعمير الناس
قدرة على أن تتعرف عليه . ولكن الكلاب فقط هي التي تهز ذيلها . ورغم
ذلك فهناك رجالان فقط في المدينة استطاعا أن يرياها رؤية العين :
« باربايانيس » . و« أفندينا روث الخيل » ضعيف العقل .

وعندما كان القديس ميناس ينتهي من جولته عند مشارف الفجر . كان
يعود مرة ثانية إلى لبقونه ومزاره . ولاشك أحد في أن أمورا خفية قد
حدثت بالليل إذا اكتشف « موريفولوس » - الذي يضيء المصابيح
ويظنف الكنيسة في الصباح - العرق بيال جسد جواد القديس
« ميناس » ..

شاهد العم « يانيس » القديس « ميناس » وهو يخطي في الظلام فرسم
علامة الصليب وهو يتمتم : « الليلة رأيت مرة أخرى - عظيما في جلالة
ولسوف تتحدث أحوالي واللائك » - ثم جذب من سترته كعكة حصل عليها
كأجر مقابل جهده في توليد « بيلاجيا » وبدا يقضمها في ارتياح حتى
وصل إلى كوخه فأطلقا القنديل .

وظل الكابتن « ميخائيليس » يدخن وهو يروح ويجي . وذهنه يطن مثل
الخنفساء وهو يسترجع كل ماراه وعائاه وأخيه وكراهه في حياته : قريته
ووالده وبيته والناس والأتراك والكرتيين . ثم استجمع كويته كلها من
« جرابوسا » إلى « توليوموناستري » .. من الصخرة إلى الأخرى .. ومن
تمرد إلى تمرد . ولكن أفكاره لم تكن تتوقف ولو لحظة عند شيء معين .
وإنما كانت تلهث فحسب ثم ترتد كل مرة إلى فم يجلله العار فلا تغادره ..

وظل يذرع الحجرة في احتياح وهو يرمق صورة الملك ميخائيل في وحشية
وكأنه يسأله أن يتخلى عن وجوده السلس في الصورة ليخرج ويفرض
النظام . ثم استدار على عقبه وحدث في السماء من خلال النافذة وقد بدأ
الظلام يتخسر شيئا ما . ثم قال وكأنه يخاطب السماء : « بدأ الضوء
ينهمر .. وسوف يكون في مقدوري أن أرى إلى أين أذهب » .. وأسرع يهبط
إلى الفناء . وغمر رأسه مرة أخرى في الدلو . ثم استراح قليلا .. ثم جلس
الفرغصاء عند عتبة البيت .. وانتظر ..

كان الكابتن ميخائيليس في صراع مع نفسه مثل الثور . ولكن « نوري
بك » هو الآخر أمضى الليل بطوله يذرع جناح الرجال . ويخرج مرات إلى
الصديقة ليشم بعض الهواء ثم لا يلبث أن يعود . ويدخن سيجارة في عقب
أخرى . ويشرب كوبا بعد آخر .. ويجار بصوته . ثم رفع بصره إلى الباب
الخشبي وكانت المرأة الشركسية قد أغلقت دونه ورفضت أن تسمح له
بالاقتراب منها وصاحت فيه من خلال ثقب المفطاح : « لا أريدك لقد جللت
تفسك بالعار .. ولم تعد تصلح لي » ..

كانت هي الأخرى عاجزة عن أن تغلق عينها . فقد اتجهت إلى النافذة
وهي تصف عارية ومدت ذراعها في لوعة تجاه الحي اليوناني . ورات وسط
الظلام حاجبي الكابتن « ميخائيليس » الداكنين ولحمته وبديه القويتين . ثم
أنت مثل أنثى الخيل .

وغصم « نوري بك » وقد بدأ يميكي : « إنها على حق .. وسوف أذهب أنا
إلى الكلاب مثل أفندينا . وسوف يستدعيني الكافر أنا أيضا كلما أولم
وأيمه لكي اللعب من أجله دور القرة قرة » . وفي الصباح وجد الخادم
البربري سيده مكوما على عتبة البيت وقد غاب عن الوعي من كثرة ما
شرب . بينما كان شاربه وصدرة وسترته جميعا ملوثة بالقيء والخمر ورماد
السجائر المحترقة .

وفي اللحظة التي خطر فيها ببال « نوري بك » كان « أفندينا » نائما على
ظهره يتمتم في سعادة . فقد تهاوت إليه الأنباء في وقت متأخر من
المساء . هناك عيد آخر سوف يستغرق ثمانية أيام . وسوف يأكل لحم
الخنزير والسجق الذي سينزلق إلى داخل بطنه مثل الزبد . وسوف يكون
هناك خمر .. وسوف ينسى بؤسه طيلة ثمانية أيام .. نعم .. وإلى الجحيم

كل شيء ١ .. إلى الجحيم أيضاً .. الحرام والحلال ٢ .. وأخلق عينيه وأخذ يتحسس ذقته بيده حتى راح في النوم .

وفي نفس اللحظة التي خطر هو فيها ببال « نوري بك » كان أفندينا يحلم .. ففتح الباب وبخّل خنزير سمين أحسنت تغذيته ووفق رأسه طربوش مثل الأتركة وقد تدلت من رقبته مدية كأنها تسمية . وعندما نظر إليه « أفندينا » وقف على قدميه الخلفيتين وقدم له التحية على الطريقة التركية . ثم مالئ أن تناول العديرة وغرسها في عنقه وأخذ يتدحرج فوق الأرض . بينما انحنى « أفندينا » فوفته . ثم مالئ أن رأى مشوياً طازجاً مكسواً بأوراق اللبغون وقد انبعثت منه رائحة شهية . وأطلق أفندينا صيحة فرح .. واستيقظ من حلمه ولعابه يسيل ١

وهناك ، فوق الأرض .. كانت مخلوقات بشرية بائسة تحترق وتبعث متعاقبة في عذاب عن وسيلة تخضع بها النيران .. كان قبو السماء يدور ، والنجوم تسبح في مداراتها . وجماعة ، وخلق قسم « لاسي » ، ففزع نجم الصباح إلى الأمام وأخذ يطن وسط الريح ، وفتح الديك الكثيف الريش في فناء بيت الكابتن « ميخائيليس » عينيه ليرى ما يدور في السماء . ثم أخذ يتسرب بجانبه وينفث بصدره .. ويصبح وهناك ، بعيداً في فناء المزارع الثرى « كراسو جورجيس » كان الحمار القبرصي الشهواني يستنشق الهواء بقوة ويتشمم رائحة العشب اللذيذ المندي .. بينما رفعت العمارة الكريتية ذيلها في صلاة ويدات تنهق ١

استيقظت « ميغالوكاستور » من أول الشوارع إلى آخره ، ومن يتر « إيدومينا » إلى مخبز « تولوبانا » . ويدات الحياة تدب في حي الكابتن « ميخائيليس » .

بادى ذى بدء ، حررت زوجة « ماستراباس » زوجها - ذلك الرجل المقدس - من قوائم السرير الذي تعودت أن تربطه إليها بإحكام كل مساء من شدة غيرتها عليه ولكي تمنعه من الهبوط ليلاً يتحسس طريقه إلى الخادمة السمينة « أنيسينا » بصدرها القبرى ١ حيث تنام في المطبخ الكائن في الطابق السفلى . كانت تربطه جيداً كل مساء ولا تخفف قيوده ليلاً إلا إذا استيقظ لغضاء حاجة بالليل . وحتى في مثل هذه الحالة كانت

تبقى الحبل حول كاحله وهي تمسك بطرفه جيداً حتى لا يحاول سجينها الإفلات ٢

وكان الكابتن بوليوكسينجيس قد عاد قبل قليل من مغامرته الليلية مرهقا تتوح منه رائحة المسك . أما السيد « ديمتريوس » فقد كان يتعاقب وهو مستلق إلى جوار زوجته « بنيلوب » التي كان مزاجها معكراً مرة أخرى ١ .. وقد ألفت جانباً بملابس النوم وهي غصم : « أحفا أنا في الخامسة والعشرين ؟ أحياناً أحس بأن جسدى يحترق . وأحياناً أحس كما لو كنت سلعامة ١ . وفي هذه اللحظة بلاذات من الفجر الرمادى . كان جسدها يحترق ١ .. وجلست في عدة وحديث زوجها المتكلم « ديمتريوس » بنظرة جانبية مليئة بالكراهية .. ثم نهضت .. وخرجت ..

ويدات صفحة السماء تشحب . واستيقظت الطيور المغردة فوق حواف الأسطح وتحتها . وفي بيت « كراسو جورجيس » كان الطائر الأسود يغنى في قفصه . وجمعت « بنيلوب » وهي تتنهق « حظوظة » زوجة كراسو جورجيس .. فهو مزارع غنى .. ولكنه لا يزال يحتفظ بحيويته ونشاطه . وهو أبداً لا يخيب أمل زوجته ١ ..

وأرهقت السمع ، وتناقت إليها أصوات من البيت القريب حيث كان « كراسو جورجيس » السمين مستلقياً على ظهره وقد ارتفع شخبيره وأنبعثت من شاربهِ رائحة النبيذ والبصل . وأرتفعت أنفاسه الثقيلة . وكانها صانارة من أعماق قبر . وإلى جواره زوجته الصغيرة « كاتينيسنا » لاتزال نائمة ، كاتينيسنا ابنة « باربانانيس » .. المخلوقة الطروب البادية الصحة والتي تعشق الشراب . كانت تبسّم وهي تتناغى مثل القمري . فقد كانت تحلم لحظتها بأنّها في رفقة شاب تمسك هي بيده ويخطفان معا داخل حديقة ذات أسوار وهو يضع ذراعاً حول كتفها . ولم يكن ذلك الشاب زوجها السمين ١ ولكنه كان ممشوق الغوام .. ليقا .. ذا شاربٍ دقيق وشعر مسترسل أسود ، وفي منطقتة غدارتان فضيقتن .. ومع انقلاسه تنبعت رائحة القرفة .. كان شبيبها بهذه الصورة التي يجب بها كل من يزود بيت الكابتن « ميخائيليس » والتي كتب تحتها « اثاناسيوس ديلاكوس » - وهو اسم يطلق مشهور من أبطال النضال من أجل الحرية - وكان يضع ذراعاً حول كتفها تحيط بهما مثل سياج الثلثة غناقيد داكنة . وكانت هي تسير إلى جواره وقد اغتمتها السعادة وهي تبسّم وتناغى كالقمري .

ولكن الشيطان أفسد كل شيء . اسمعها . كراسوجورجيس . فاستدار نحوها وفتح عينيه وصاح :

- هيه .. يا زوجتي ! ما كل هذا الإبتسام والمعاناة في الصباح الباكر ؟ أهى قطعة من خبز الجنزبيل تلوكتينها ؟ .. أعطنى إذن قطعة منها ! ..

ولكنها أولته ظهورها غاضبة وهى تقول :

- لا تلتفتنى .. دعنى احمالى فانا ثائرة ! ثم الغمضت عينيهما وجاوت أن تجد حلمها مرة أخرى .. مع رجلها الصغير ! ..

وفى مخبز . تولوياناس . ارتفعت سحابة إثر سحابة من الدخان الأول الأزرق الشاحب . واستيقظ الخباز العجوز الشجهم الوجه الصامت أبدا . وبدأ العمل وحده فى معبته حتى ينسى متاعبه . ولكن أيا له النسيان ؟ كان له ولد عزيز وحيد فى العشرين من عمره أشقر وسيم تقانى هو دائما فى كسوته ورعايته . وجماعة . ومنذ ثلاث سنوات . بدأ يصاب بالأورام . واكتسى وجهه بالشور . وتعمقت أطراف أصابعه .. وسقطت أظفاره .. والآن . بدأت شفتاه تتقيحان . وأبوه واهمه يرفضان إرساله إلى ميستيكينا حيث مستعمرة العجوزيين . فكيف يطيقان فرقة ولدهما الوحيد ؟ ومن ثم فقد فضلا أن يبقياه رهين حجرته حتى لا تقع عليه عين إنسان .. كيف إذن يستطيع . تولوياناس . العجوز أن يهنا بالنوم .. ولماذا يفتح فمه ليتكلم ؟ ينحنى فوق المعبته .. ويدقق بالعجين إلى داخل الفرن .. ويخرج الخبز الذى نضح . ثم يبدأ جولته فى الشوارع ليبيع الأرغفة المستديرة كالطلق . والقطائر المعشوية بالسايانج . وليجهد نفسه فى عمله لعله ينسى . ولكن كيف ينسى ؟ كيف ينسى وهو فى كل صباح يدخل لرؤية ولده . فيمشط إلى أن يرى كيف تسوء حالته .. وكيف يزداد التهور والتعفن يوما بعد يوم ؟ !

مضى . تولوياناس . العجوز فى عمله أمام الفرن وهو يتهد . وعندما رجع يصمر لحظة وراى الضوء لا يزال ينفذ من خلال نافذة فى طابق أعلى .. فز رأسه ويتهد . مسكينة أيتها المرأة الفرنسية .. أنت أيضا تعانين .. تعانين سوء حظك .. لا .. لا .. لا تستطيع قلوب الرجال أن تجد الراحة ..

والحق أن الضوء لم ينطفىء طوال الليل . فالمرأة الفرنسية المسكينة لم تنم طعم النوم . كانت تسعل وتبصق وتتن . جاء بها الطبيب . كاساباكيس . يوما ما زوجة له من باريس ثم زرعها فى هذا العنق التركى فى آخر الدنيا ! كانت فى البداية تتهد ثم أصبحت تسعل .. ثم انتهت بها الأمر إلا إلى أن تبصق دما . وقيل إن زوجها الطبيب لم يكن يستطيع أن يبريها . ومن ثم فقد كان على علاقة بخادمتها الشابة القادمة من أوركاخورى . .. وعندما قدمت المرأة الفرنسية لأول مرة . ظلت تعول وتسيح طيلة أسابيع . . أين الخط الحديدى الذى قلت لى إنه يمر أمام بيتنا ؟ .. ليس هذا ما وصفته لى ونحن فى باريس ؟ .. وكان زوجها الطبيب السمين يضحك ويقول : فى ميجالوكاسترو . نحن نسمى ميترنا .. السكة الحديدى ! !

جلس الكابتن . ميخائيليس . القرفصاء صامتا ساكنا وسط الفناء .. ينتظر مرة أخرى أن يزداد ضوء السماء . وعندما سمع صياح الديك رفع يديه . وكانت السماء قد بدأت تشع بالضياء . فقفز وأندفع إلى حجرته وأرعى ملابس على عجل . ولف الزنار الواسع حول جسده عدة مرات . ودفغ بالشرة الأسود الملقوف داخله . ثم تناول زجاجة الزيت الصغيرة المتعلقة أمام إطار الأيقونة وسلا المصباح الصغير الذى كانت ذبالبته قد بدأت تخفت . وحقق فى ميخائيل كبير الملائكة زعيمه ورئيسه .. وهو يقول له : أنا ماض الآن .. وكل ما ينبغي أن يقال .. قلناه . وهكذا فانا ماض الآن .. فقول أنت رعاية البيت !

ثم هبط إلى الفناء وفتح الباب المؤدى إلى الشارع . وأسرج جواده وأعطى صهوته متجها إلى المستشفى وقد طلع النهار .. وأخذ الجنود الملائيح . وتهيأوا لفتح أبواب القلعة الأربعة . وكانت البيوت لاتزال مغلفة . ولكن بعض المواقف كانت تخرج ضائها . وكان . باريايانيس . قد خرج ينادى على ما معه من ماء الشعير الممزوج لى وفرة بالفلل .

وكز الكابتن . ميخائيليس . صوته وانطلق مارا بالشجرة الضخمة المزروع لحاؤها - أكلة أبناء كريت ! - ثم استدار متجها إلى ميدان السوق حتى وصل إلى الأقبية الثلاثة . فتوقف لحظة وأجال البصر حوله . كانت خطوط الجبال تتوهج باللون الأحمر الوردى . وفى مواجهته كان . الجبل

الغاضب هوة عارية ، وحلقة جبل ، سيلوريتيس ، السيد الجليل بقمته
التجبية .. وعلى يمينه التين الرخامي ، لوختاس ، وهناك بعيدا ، لاح
البحر أزرق متألعا في شجوب .. مرصقا قليلا هنا وهناك بالزبد الأزرق
المخضوضر ، والسفن العالطية السوداء ذات الشراع الأحمر قد بدأت
عملها في البحر ، والشمس تبرز من بين الامواج لترتفع وسط ضباب
متوهج ، وادارت المهرة رأسها ورات الشمس ، فنالت عينها ومالت إلى
الخلف بعنفها .. وصهلت تحييبها .

ارتفعت دقات الطبول وارتفع العلم التركي فوق ساريته ، وفتحت ابواب
القلعة الحديدية في صريف مستموع ، وانفتح الفلاحون الذين ظلوا
ينتظرون بالخارج منذ لحظات الفجر الأولى .. اندفعوا إلى الداخل على
القور يطاون اقدام بعضهم البعض ، وحمرهم وبغالهم محملة بالخشاب
وفحم الحطب وزجلجات الخور والزيت وسلال الخضراوات والفاكهة
والجرار الشمسية المملوءة بمسك النحل ، وكان عليهم لكي يدخلوا القلعة
أن يمروا عبر السرداب العظيم الذي يخترق كل الجدران الفينيسية الكثيفة ،
وفي داخل هذا السرداب ، وتحت الاقياء الصخرية ارتفعت الاصوات
واللحنات والنهيق ووقع اقدام الحيوانات والبشر ، وامتزجت اصداؤها
جميعا ، وعادت هذه الرقبة الارضية تضج بالطنين .

وشق الكابتن ميخائيليس طريقه وسط هذه الغلظة الصاخبة حتى
خرج إلى الحقول وامتنطى فرسه منحدرا إلى الساحل ، فاصبحت
ميخالكاسترو ، خلفه وسلك طريق الشاطيء متجها إلى الجبل
القاسي ، مارا ، بالنلال الحمراء ، وعلى يمينه ارض خضراء داكنة تنشر
عقها ، وعلى يساره البحر والشمس لامتلز قريبة من خط الافق ملعقة
كانها تيمية ذهبية فوق صدر المدينة .

ومغم الكابتن ميخائيليس ، وهو يرسم فوق صدره علامة الصليب ،
باسم السيد المسيح .. وباسم ميخائيل كبير الملائكة ..

ارتفعت الشمس وفاضت بأشعتها على ميخالكاسترو ، في البداية ،
انعكست أشعتها على الماذن ثم على قبة القديس مينااس ثم على اسطح
المنارل ، ثم مالبت حدثها أن خفت وسط الأتزة الرطبة ، وفتحت الفتحات
ناذهن ليستقبلنها .. ومن خلالها نفثت الأشعة ، وانطلقت النسوة

المحائر إلى أفنية دورهن ولتعمس الدفء ، ورسمن علامة الصليب ، وقدمن
الشكر إلى الرب على انتهاء مارس .. ذلك الشهر الملعون من الرب والذي
.. أدى به العجائز .. لقد بدأت اطرافهن الآن تبت فيهن الدفء ، مرحبا
.. أبريل .. ومرحبا بالقديس جورج ..

ومرت خمير كريت عبر كل بوابات القلعة وهي مبتهجة خفيفة الحركة
ترفع ذيولها ، وتنهق وكأنها تعلن للسكان عن مقدم الربيع .

وعادت ، بنيلوب ، إلى الغناء .. وتمطت في قوة حتى ، طرقت
منظاما . كانت امرأة نسفا ، صدرها وعجزها ذوا حجم مضاعف .. تأكل
حيدا - فهي ممتازة الشهية ! - تفسل بنفسها جسد زوجها السيد /
ميترويس وتحت جلده وتلعنه وتطرهه مثل الحصان ، وفي كل مساء
تساول جاهدة أن تتعلمه ؟ ولم يكن لديها اطفال ، فكانت تصب القطط وطيور
الكارايا وقبرات الربيع .

وفي هذا الصباح كانت ، بنيلوب ، تحس بما يشبه وخز الإبر والدبابيس
في ظهرها ، ولو كان لها ذيل هي الأخرى لرفعت مثل النيران لتعلن لكاترينا
عن فرور الربيع ! ولتعلنه أيضا لزوجتي كراسو جورجيس وماستراياس
وأروجة الطيب ولكل الجيران لماذا لايرين نائمات إلى الأبد ؟ لابد أن
يبعضن لكي يدعن الشمس لتمسهن ، وتجعلهن جميعا ينهقن ويعقرن
النسهن في الحقول .. الربيع جاء ، واليوم لن نسعها جدران حجرتها
الأربعة ، أعدت طيبيخا بسرعة .. وأرسلت خادمتها الصغيرة لتتطرق باب
، كاترينا ، زوجة الكابتن التي تسكن في مواجهتها . وتقول لها : « تحيات
سيدتي بنيلوب زوجة ديمتريوس .. وهي تقول لك - إذا أنت أحببت -
فسوف نحمل غدا صا ونخرج إلى الحقول ونتناوله هناك .. وهي تقول لك ،
لقد جاء الربيع .. ولكن كيف تغادر زوجة الكابتن بيتها وهي تعد
لاستقبال خمسة رفاق بشوشين في الصباح الباكر لليوم التالي ؟ لقد كانت
تعد اللباج كوجية لذينة للمادة ، واحدة ستسلق ، والثانية سوف تتبل
بالدقيق المسكر ، والثالثة سوف تشوى على السوفد .

- لن نستطيع ، قول لسيدتك إننا لن نستطيع ذلك اليوم ، ونرجو أن
تعدرنا ولكن إذا أحببت أن تتفضل بزيارتنا هذا المساء ومعها أدوات
الحياكة ، فسوف الجازات أيضا .. وسبحضر كذلك (على أفا) لكي

يسلونا ، قولى لها إن الكابتن سوف يغيب عن البيت اليوم بطوله ، فلا تخشى شيئا .

وقطبت ، بنيلوب ، جيبتها ، وأرسلت خادمتها الصغيرة إلى جارات أخريات ، إلى زوجة « ماستراياس » ، وزوجة « كراسوجورجيس » ، إلى شقيقة « بوليكسيجيس » .

الكابتن ميخائليس اليوم بطوله .. فلا يتبقى أن نخشى شيئا .

وقطبت بنيلوب جيبتها وأرسلت خادمتها الصغيرة إلى جارات أخريات ، إلى زوجة ماستراياس وزوجة جراسوجورجيس وإلى شقيقة « بوليكسيجيس » ، ولكن الأولى قالت أنها تتوقع قدوم الأسقف ليطرد الأرواح الخبيثة من بيتها ، وقالت الثانية أنها تعاني من الصداع والدوار ، أما شقيقة « بوليكسيجيس » فقد قالت أنها تخبز سميكا للعشاء ، وأن قدميها متورمتان ولا تستطيع الحركة ..

وزمجت بنيلوب في هياج : « سحقا لكم ابنتا اللعيبات الفاسدات .. ! ألا تفحصن أبدا جهوركن لثريين مايدور خارجها ؟ أم أن ذلك يجعلكن تشعرن كما لو أصبحتن عرايا ؟ تعال يا ماروليو ، والذهبي إلى « ماسيلا » زوجة الطبيب . بالرغم من أنها فريسة لسوف تفهم ماذا يعنى قدوم الربيع ، وسوف تحضرا .. »

كان اسمها « مارسيل » وليس « ماسيلا » ، ولكن بنيلوب كانت تمزح معها بسبب يونانيتها ، ولأنها كانت تتميز بإدعاء أبناء المدينة الكبيرة ، كانت « ياريسيا » ، وهكذا كانت نطقها - أكبر من « ميخالوكاسترو » .. وهناك نهر يجري وسط شوارعها ، ونسائها بهشمين العفاهى ويتبادلان الحديث فى جرأة مع الرجال .. ويظهرون أقدامهن حتى كواطحا ، وكانت تلك حكايات أشبه بالأساطير ، ولكن هذه الفرنسية الصالحة لها أسلوب رشيق فى الحديث عن ذلك كله .. أسلوب يدل على أنها هى نفسها تصنع ما تقول ، كثيرا ما رايت عينها كاهيتين .. ما الذى يمكن أن تأخذه من زوجها هذا الوقع بنوعته وإبعاته ؟ ، يا للعار ! إلى الجحيم هذا الزوج ! إنه لا يخجل من أن تكون له علاقة بفتاة من أركالخورى .. لابد أن تخرج هذه المرأة المسكينة إلى الحقول ، وسوف تنطلق فى سرعة القديسة (إيرين) قديسة الجداول الأربعة ، وسوف يزيل هذا سامها . .

ولكن الخادمة الصغيرة عادت لمطالمة الرأس : « إنها لا تستطيع .. قالت لها ثلاث تسع طوال الليل ولم تذق طعم النوم ربما تستطيع فى يوم آخر .. والعذريها ! ..

وسبت بنيلوب ولعنت ، واستعرضت فى ذاكرتها كل جاراتها ، هل - لا سمح الله ! - تدعو زوجة « كوليئاس » ؟ ، إن زوجها حفار قبور .. وهى نفسها معسوسة ترى الأشباح ، وكل العوثنى يرفرفون فوق وسادتها ، ويخدمونها بإخلاص ، لماذا يجزئهم زوجها من أكفانهم ويكسب بها روجه ونفسه ويترك العوثنى عرايا فى رطوبة الأرض غضبانا ولهم كل الحق فى أن يغضبوا ؟ .. كلا .. لا ينبغي أن تدخل بيتها زوجة « كوليئاس » ، فهل سمعت مرة أخرى إلى « أركوندولا » .. هذه البندقة المرة لتسألها إذا كان من الممكن أن تتفضل بالخروج مع بنيلوب زوجة العقاب ! وهذه أيضا يقولون إن أباهما كان ترجمانا فى القسطنطينية ، وكان يلعب الورق مع البطريك ، وعندما مات أبوها أصبحت تتلقى من البطريركية كل عام حقيبة ملأى بالجنهات الذهبية من البطريركية ، وكانت تأكل الكافيار بالملعة ! كلا .. إن طعام الآخرين لا يناسب وزيارات الموظفين والباشا لم تكن بقبيها ! .. وعندما كانت لاتزال صغيرة ، وجدت أن رجلا قد تبخر وأخر لعن ، هذه المخلوقة المغرورة ! فلتنضح الآن فى عسارتها وهى تجلس فوق الصنوق الذى يضم جهاز عرسها ، ولتدفع الثمن عن نفسها .. ولتدفع الثمن عن أخيها أيضا هذا الأصم الأبكم ، فالأباء ياكلون الحصرم والأبناء يسوسون . فقد حدث أن سبق كريتي إلى القسطنطينية ليشتقوه هناك حيث قيل أنه قتل رجلا تركيا .. ولقد كان أبوها الترجمان - اللعنة على منامه ! - يعرف الحقيقة ، فالقاتل لم يكن ذلك الكريتي ولكنه كان شخصا أمر .. كان أحد اليكوات .. ولكن هل هناك شيء يمكن أن يجعل هذا الترجمان الثلاث يفتح فمه ليتكلم ؟ ، كان مذعورا .. وظل كالأخرس لا ينطق .. ومن أجل هذا فإن ولده الوحيد أصبح أخرس لا ينطق .. لا .. لن نجري مع الأتمة « أركوندولا » .. لا .. حتى ولو أرادت هى ذلك .

ولفرت خواطرها بعيدا عن هذا البيت الكبير المتعالى .. بعيدا .. فهل أترى أسأل فانجيليو ؟ ولكنها هى الأخرى لن تحضر ولأنها مشغولة ، والأشك بإعداد جهاز عرسها ، ففى عيد الفصح سوف تتزوج من « نيتريوس » المدرس بحق الشيطان ، كيف اختارت الفتاة هذا الرجل ؟

هذا الراس الأصفر .. هذا المعلول ذا العيونات ؟ لهما هي تحبه كما كانت تقول ؟ ولكن لا غرابة فهناك لعنة حلت عليها هذه المسكينة . فاخوها هذا الويسم القاسم يساعته الذهبية . قد أهدر كل نفوسها على الحلوى والتجوير ..

ورعد طول بحث وتحسيس . وصلت بنيلوب إلى قرار ارتقت حوض الألفاف وأسكت قبضة من أوامر التكبيرة واتجهت إلى المطبخ ولغت الطعام في أوراق العنب ومئات سلة بالذئب والزيتون ويرتقالتين وبجاجة صغيرة من النبيذ ويرقوق بيضاء بالكحول وبن وسكر وسكين وشوكة ومنشفة . ثم خرجت إلى الغناء وصاحت في خاصتها الصغيرة : تعالي معي يا مارويو .

وانفتحت الباب المطل على الشارع .. وانحدرت نحو الميناء بجسدها السمين وتكفيها العريضين ومشيئها المترجحة وكأنها نوع خاص من الخراف نوات ، اللية ، السمينة التي وصلت أخيرا إلى كريت من آسيا الصغرى ! وتلك الارتياح السيدة المسكينة وهي تحس بنصفها الأسفل يتأرجح . ولكن ماذا كان بمقدورها أن تفعل ؟ هكذا قالت وهي تشعر بشئ من الارتياح . فحتى هذه ، الغريبة ، من صنع الله .

من حسن حظي أن ساقى ليستا متورمتين مثل قدمي الأنسة كريسانتي ، شقيقة ، بوليبيسيس ، ولارات والحمد لله قادرة على استخدماهما . ولأرثت أصدر أوامري إلى هذا الخنزير زوجي أنا التي أقوده وليس هو الذي يقودني ، فانا أساوي عشر فتيات . وعشرة شبان لا يستطيعون اسطاطي على الأرض . أنا حقا كما وصفوني .. السيدة القوية ..

ورعد طول تعثر وانحدار عبرت الشارع العريض الذي كان يعج بالعمال والزارعين أي ضجة هذه وأي صخب ! يا لكريبتين واعناقهم الذليلة كاصق الحميم هكذا كانت بنيلوب تقول لنفسها وهي ترم شفيتها . ذلك لأنها كانت من ، ويثيمو . وكانت تفخر بذلك . كايونا ، للأسبجة . وه ويثيمو ، المكتب . وه ميغالوكاسترو ، للكيزاك ، وهي كل مساء لا يناد أبناء ميغالوكاسترو ينتهون من أعمالهم حتى يترهلون داخل الحانات ويشربون يشراة ويتردون الأسماك المجففة واللحم المشوية

على السفايف وقد فاحت عنهم رائحة النبيذ والعرق واللحم . أما أبناء ، ويثيمو ، فهم على النبيذ من ذلك بمشيئهم المحترمة وانصتاءتهم المذمومة . واحفالاتهم الربيعية ! زوجها ديمتريوس فقط كان يختلف عن باقي أبناء ، ميغالوكاسترو . ولكنه ، باركة الله ! كان نصف جسد .. لماذا لا يستطيع أن تبعته إلى الحياة بالليل ؟ كل محاولاتي ضاعت مساء .. نعم أه لو كان من أبناء ، ويثيمو .

شهدت وتابعت سيرها حتى أصبحت قريبة من الميناء . سوف يكون هناك هناك كعادته يلهو بمذبه . نعم ..

ولكن ديمتريوس كان قد تعب من اللهو بمذبه منذ فترة . وغرق بين ندى مجلد ضخم كان يسجل فيه يلوينين من البحر - أحمر اللبوم .. وأندق الدائري - الطعام الذي يأكله كل يوم . وكان قد استغرق في مراجعته . بقرا عن الأطباق .. ويتذوقها بخياله حتى سال لعابه وبدأ يتصفح صفحات سبعة أيام مضت .. يتهجي ماكتب فيها ببهه ويستلهم وكأنه يصنع الطعام . ٢٠ مارس ١٨٨٩ فاصوليا طازجة بالخرشوف والبصل الأخضر . شبة من الزيت تخلط جيدا ، ٢١ مارس . خيار بالثوم يشويه اليانيس ..

وأقبلت فتاة صغيرة إلى مدخل الدكان .

.. سيدي ديمتريوس ، أرسلتني سيدتي زوجة كريستوفانكاس ، لكي تحطيني ست أوقيات من المعصلكي لزوم الطهيو .

.. أعرف ما تريدني يا ابنتي .. ولكنه هناك .. في مكان عال ..

وعط الكلمة الأخيرة كأطول ما يستطيع حتى يشير إلى أن المعصلكي هناك في مكان عال في آخر الدنيا ..

وانصرفت الطفلة بينما عاد السيد ديمتريوس ليفرق مرة أخرى في دراسه . ٢٥ مارس العنوان : السمك البكلاء بالليمون .. البكلاء باليقونس . البكلاء المشوي بالثوم ، سلامة القنار . لذية الطعام لعابية ..

ولكنه الآن كان قد نرس وبعابه الكفافية . فعاد إلى المذبة وهو يتهدد

ويغمغم : أنا ، ابن الكاين ليبيوتوم الشهير ، الأم انتهى بي الأمر ؟ كان جدي يمتلك سفينة حربية يشرب بها سفن الأتراك ، وكان أبي يمتلك بتدفية وكان يقتل بها الأتراك ، أما أنا ، فلا أمك سوى هذه المنشة .. أقتل بها الذئاب ! لعن الله وجهي ! .. ثم لطم وجهه الصبوح براحة وهو يرى وكأنه قد أصبح ضئيلا بالنسبة إليه بعد أن خطر أيوه بذاكرته .. ويسقط زراعيه وليس بأصابعه الحوائط مينا وبسار ، وبمال شمشون ، ود لوك هذه الحوائط حتى يجعل الدنيا أمامه أكثر اتساعا لا يحس هو ..
ديمتريوس لينبوتوم ، بالطبع ..

وفي ذات اللحظة التي كان يندثر فيها نفسه ليدك الحوائط إلى شطرين ، انظم الدكان ، فقد وقعت بياه ، بنيلوب ، طويلة مستديرة سمينة لاهة الانفاس ، وعندما رها مستر ، ديمتريوس ، أغبر وجهه : ماذا تريد مني بحق الشيطان ؟ .. ألا يكفي الليل بطوله ؟ من أين لها هذا النشاط .. هذه المرأة التي لا تستحي ؟ هل وضع أحدا ما بترولا في أزدافها ؟ .. أه ! أين هي من سيدات ويثيمتو المحترمات ؟ ..

ثم قال في صوت عال وهو يفتح الكتاب بسرعة ، مرحيا : !

وصاحت زوجته : انهض يا ديمتريوس .. انهض ! سوف تمضى معا إلى الريف ! لا تتعمق هكذا ، أعط عظامك فرصة الدفء ، بارك الله فيك ! ها أنت مثل الضفدعة بمستنقع هيا وأخرج نفسك من هذا المستنقع لقد أحضرت غداً ما .. طوبك المفضل ..

ثم انحنت نحوه تهمس في آذنه : وكلته ملفوفة بورق العنب .. وضعت فيها كمية كبيرة من الفلفل .. سوف ترى كيف يلذ مذاقها في الريف ! ..

هز السيد ديمتريوس كتفيه وصاح : لن أذهب .. لن أذهب .. ثم تشبث بمقعده ..
- قم يا ديمتريوس .. يا عروستي الصغيرة .. قم ! اعمل معروفاً ، واعدك بالأنتهرك ..

ولكنه أشاح بقوة كما لو كانت ، بنيلوب ، ذبابة ، أو خادمة يريد أن يطردوا من الدكان ، ثم صاح ثانية : لن أذهب ! الذي عمل كثير اليوم ألا تدين بعينك ؟ أنا أسوى حساباتي .. مالي وما على حتى أعرف فوق أي أرض نفق .. ذهبي أنت .. فهناك ملاك في رفقته ! ..

وأسكت ، بنيلوب ، خادمتها من عنقها وصاحت : هيا ياماروليو ! ..
- سوف تمضين معي وكأنك جارتي وزوجي ! .. هيا بنا .. وسوف نتناول غداً ما معا تحت أشعة الشمس ، ثم أدارت ظهرها للسيد / ديمتريوس واستحيت وهي تغتمم :

كان أفضل لو تزوجت سكيراً ، هاوي محظيات ، .. أنجب له دسنة أطفال قبل أن يستطيع ترويضى ، وكان أفضل لو عشت في ريثيمتو ، حيث يعيش عليه القوم ، وليس هنا مع هؤلاء الحمير ، أبناء ميجالوكاسترو ! ..

... وتحركت في هياج : وكان الجوع قد استبد بها .. ورات الشمس ترتفع أكثر في كبد السماء .. ولحست بخياشيمها ترتعش .. لقد بدأت تشم رائحة العشب .. وكانت لاتزال ممسكة بخادماتها الصغيرة ، ماروليو ، من فلهاها تجرها معها بقوة والفتاة تتعثر معها وهي تهت وتثن تحت ثقل السلة الموسوقة .. وبين الحين والآخر ينزلق وشيشبها ، من قدميها .. حتى اضطرت إلى أن تخلعه وتضعه فوق الخضراوات في السلة .. ويعددها بدأت تركض إلى جوار سيدتها ..

وعندما وصلت « بنيلوب » إلى كنيسة القديس ، ميناس ، توقفت ثم رسمت علامة الصليب وتغمغت : عزيزي القديس ميناس .. أنت تعرف ما أريده .. ساعدني ! ..

وارتفعت صرخات وضحكات ، وامتلأت الساحة بالأطفال .. فقد دق الجرس .. اندفع التلاميذ إلى المدرسة ، وقفز قلب « بنيلوب » ، وظلت واقفة مكانها تنظر إلى الأطفال في إعجاب ، وتقول : أه ! .. لو لم يكن ذلك عيب ديمتريوس وليس عيبى أنا ! سامحنى يا رب ! ..

وغامت عينها للحظة ، مر بخاطرها أولئك الشبان الذين رأتهم في الشوارع وفي القرى وفي الأحلام .. وتمتمت لتقسما : سامحنى الله ، ولكنى أظن أن زوجة باربايانيس برجالها الذين يعدون والآلاف .. على حق .. ترى كم من الرجال أنجبت منهم ! الله وحده يعلم ومن أنجبت جارتي كاتيفيستا زوجة كرا وهورجيس ! وباربايانيس يحاول أن يسد آذنيه ، ولكن برغوثاً يظل يطن في آذنيه على الدوام ، كان يرى قرينه بعينيه ويلسهما .. ويصن بهما ! .. ولكن .. ماذا كان يوسع أن يفعل ؟ مرة واحدة فقط - عندما كان مريضاً - استدع زوجته وقال لها : يا

زوجتي ... بحق الرب ... وبحق ما تؤمنين به .. أصدقيتي الغول ! هل كل
الأطفال الذين أحببتهم .. أولادى ؟ ..

ولكن زوجتك لم تحر جوابا ..

- « أخبريني يا زوجتي .. أنت تريين أنني أموت .. مع توشين
إن ؟ .. »

فقال الزوجة :

- « وماذا لو لم تمت ؟ .. لنفرض أنك لم تمت ؟ .. »

وضحك بنيلوب وهي تتذكر ذلك .. ثم أفسحت الطريق جانبا لكي يمر
أطفال المدرسة ، ونظرت إلى « تارسوس » الصغير ، ابن جارتها زوجة
الكاتبين ، وبادته وهي تنظر نحو السلة لكي تعطيه برتقالة « تارساكي ..
تارساكي ! .. »

وإن كيف يستطيع تارساكي أن يسمعها ؟ لقد كان يضع يده فوق كتفي
زميليه .. « مانولوبوس » ابن « ماستراياس » عن يمينه .. و« أندريكوس »
ابن « كراسوجورجيس » عن يساره .. وكانوا جميعا يقدون وهم يترشرون
ويضحكون وكانهم لا يتعبون من اللهو ، بالأسف فقط قذفوا خردقة صغيرة
على مدخل المدرسة في اللحظة التي أدار فيها « تيتيوس » ظهره وتوبا
لتعليمهم الأغنية التي كان ينبغي أن يغنوها يوم الأحد التالي : « جاء
الربيع وحرارة أخرى عادت الزهور ! .. » ولحظتها ارتفع صخب التلاميذ ..
ووجد « تيتيوس » فيها صوت مائة للدعاية الهامة ، فرجع مقرنته وقال :
« يا أولاد .. هيا بنا إلى الغناء .. جميعا .. ولتغنوا هناك ، حتى إذا كان بعد
غد وذهبنا إلى الأقيام الثلاثة » .. لم يفضح أنفسهم .. إلى الامام ! ..

وقادهم بنفسه ورفع الراس .. ولكن ما أن خطا خطوتين في صرامة عند
مدخل المدرسة تحلق وسقط فوق الأرض مثل الجرة .. وانسحقت عويناته
إلى قطع صغيرة ..

وتسائل أندريكوس ألم تحطم عظامه أيضا ؟ ... وكأنه يريد أن يطعن
على أنها لم تخرج سليمة ! ..

ولكن كارساكي أجابه مؤكدا : « لقد مات .. أقول لك إنه مات .. ألم

تسمع وقع السقطة ؟ .. لقد كان صوت عظامه ..

وقال مانولوبوس وهو يفرق يديه في سرور : « وهل سمعت صرخته ...
أوه ! .. لا بد أن عظام وركه قد تحطمت - فهو لم يستطع النهوض ، لقد
صرخ .. آه .. آه .. ثم أخذ يبحث عن نظارته .. »

- « ذلك يعني أننا أحرار الآن نستطيع أن نعمل ما نريد .. اتفقنا ؟ .. »

وصاح الزميلان « اتفقنا ! .. » و« مر بحدائهم كلب ، فالتعلوا حجارة من
الأرض وانطلقوا خلفه .. »

... وقريبا من « التكية » المجاورة للباب المؤدى إلى القديس ميناس .
سمعوا ضجيجا وصخيا .. فتوقفوا ...

وقال تارساكي : « حميده مولا تضرب أفندينا ؟ فلننتظر فقد نرى شيئا
مسلما .. »

وقفوا على أطراف أصابعهم ليتمكنوا من الرؤية من خلال الشباك في
الحائط .. وكان الغناء المسيح المزروع بالأعشاب يمتد أمامهم .. وفي
الوسط منه يقوم قبر القديس مزينا بأشرطة من أقمشة ملونة ، وبالقرب من
الشريح كانت الأم المرسله الشعر بأنفها الممتد كطرف حرية .. كانت
تقدس على علق ابنها بإحدى يديها .. وبالأخرى عصا ذات أطراف
كالشوك .. كانت تسيح فيه مهددة :

- « لا تخاف الله ؟ أنت لازلت تتردد على بيوت هؤلاء اليونانيين حيث
يدمنون لك لحم الخنزير ويجعلونك تشرب النبيذ ويدنسوك ، سوف أحبسك
أبها الغبي الملعون وسوف أشربك بلا شفقة .. وإن تذهب ! .. »

وحاول أفندينا التماس والفكك من مخالب أمه .. وصرخ كما لو كانت
مقبلة على قتله وصاحت الأم وهي تهزه بعنف :

- « لن تذهب ! أنسيت العار الذي جلبته على نفسك في كل مرة نعتبت
فيها إليهم ؟ وعندما تفتيق تعتذر وتعوى ! ثم تلقى قبعتك فتبدو القرحة .
فتوتها بروث الخيل وتجري في الشوارع وتنهق كالحمير ، هؤلاء
اليونانيون يرجمونك بقشر الليمون ويطلقون عليك اسم امرأة .. أنهم
يسمونك أفندينا « أفندينا روث الخيل » ! .. ألا تحجل وأنت أمام هذا
القديس .. أمام جدك .. »

فكلا كانت تهيئه بحدته وهي تشير إلى الضريح بحرقه الملونة البراقة
وساح أفندينا ويدها مرفوعتان :

- أنا أفكر فيه ليلا ونهارا .. أقسم انه لا يغيب عن بالي ليلا أو نهارا -
- لماذا إذن تدنس نفسك ! ..

- ألا تريدان أن أصبح قديسا ؟ قديسا مثل جدى ؟ كيف بحق الشيطان
تتوقعين أن أصبح قديسا إذا أنا لم أمارس الخطيئة ؟ إذا أنا لم أفح في
الخطيئة فكيف أعرف الندم ؟ وكيف أبكى ؟ وكيف أتوجه إلى الرب ؟ وكيف
أظهر قروحي ؟ كيف إذن بحق الشيطان أصبح قديسا ! ..

ووقفت حميدة مولا فاغرة فاها ، وبدات تحرق في أبنها ، ثم في الضريح
ثم لزمت الصمت ، ربما كان أيتها الأحقق هذا على حق .. ربما كان حقا
هذا الذي سمعته من الرجل العجوز .. القديس .. جد أفندينا .. لقد سمعت
انه قضى حياته متمسسا في اللذات وعندما نقض وجهه وأصبح عاجزا عن
تناول الخمر واللحوم والنساء .. سقط في القدسية ! .. وقد ارتقى مؤذنة
ه أجاكاترينا ه ورفض أن يهبط أو يأكل ويشرب ، وقال بيكى ويشرب نفسه
ويستهل إلى الله ، ظل يصيح سبعة أيام بلياليها ، ثم صرخ صرخة قوية
وقف لها شعر سكان ه مينجالوكاسترو ه وطارت الغريبان في السماء ، وانزل
الله عليه رحمة فارسل إليه الطعام حتى يعده عنه الموت .. إلا يمكن أن
تكون هذه أيضا هي نفس سبيل أبنها إلى أن يصبح قديسا !

واحضت ه حميدة مولا ، بالحيرة ولم تعد تدري أتستمر في ضرب
عزيبها أو تجلس القرفصاء في ركن فناء بيتها لتستمتع بالشمس وهي التي
بدات ترتعش .. وألقت العصا بالقرب من الضريح ، واسترخت أظفارها
التي كانت تقبض عنق أفندينا ، ثم رفعت قبضتها ملوحة له .

- أغرب عن وجهي ! ليتخطك الشيطان . افعل ما شئت .. كل وأشرب
وارفض هنا وهناك ، ثم عد وضع روث الخيل فوق قروح رأسك .. !
قالت ذلك واندفعت في قلق نحو ركن الفناء المشمس ..

وقال ه اندريكوس ه

- يا لسوء الحظ ، إنها لم تعزقه إربا ..

وقال ه تاراساكي ه :

- فقط انتظر .. وسوف يقوم أبى غدا بهذه المهمة .

ثم وكز صديقه بكوعه وقال :

- هيا .. وغدا عند الغروب سوف نبرم ما اتفقنا عليه أنا ادعوك ، ولا
تس أن تحضر المقلع وسوف أحضر أنا حيتلا ..

قال ه اندريكوس ه :

- سوف أحضر عصا .

وقال ه مانولويس ه :

- وأنا سأحضر وتدأ .

- وسوف ندعو ه نيكولا ه ابن ه فورد جاتوس ه أيضا فإن يديه قويتان .
وسأسل ه مانولويس ه وقد توقفت مكانه :

- ولكن ماذا يحدث لو أن أباهما رانا ؟

وقال ه تاراساكي ه في ضيق :

- أف ... ! وماذا لو رانا ؟ .. اهو قادر على أن يضرب أى شخص ! ..
إنه ليس كريمتيا ولكنه من ه سيزا ه ..

فقال ه اندريكوس ه :

- ولكن .. هل ستقدر على الإمساك بها ؟ إنها ترون طنا كاملا .. هب إنها
سرحت ؟ ..

وعيس ه تاراساكي ه وقال :

- اسمع يا اندريكوس ، امور كهذه تمتلجج إلى قلب ثابت ، ليس لك
قلب ثابت ؟ إذا لم يكن لديك فأخرج من اللعبة .. وسوف أرى من يحل
محلك .

فقال ه اندريكوس ه وقد أحس بأنه قد جرح :

- أنا ؟ إن قلبي مثل الجبل ..

مصاح تاراسكى وهو يحث الخطى :

- سنلتقى غدا ..

وأصبحوا قريبين من المدرسة فقال « تاراسكى » أمرا :

- اهدوا الآن .. ولا تبح بكلمة واحدة ، وإلا فسوف تندم ! غدا يسكر
أبي ، وأصبح أنا حرا وأستطيع الخروج .. وقال لك ستخرج للخدمة
السائية ، وسوف تعطيك أمك تقودا ، وتولد بها شمعة ، وسوف تشتري بها
جمصا ..

وقال « ماتوا بوس » مقترحا :

- وتأخذ معنا إليها ..

فصاح « تاراسكى » :

- غبي ... ! ولماذا تأخذ لها ؟ ! نأكله .. !

في نفس اللحظات كان الكابتين ميخائيليس يمر بمهرته بخذاء الجبل
الظالم والعصاة التي يعصب بها رأسه قد انحدرت حتى حاجبيه ، وعلى
يساره البحر المزبد ، وعلى يمينه صخرة .. صخرة كانها الحديد .. الجبل
الموحش العاري .. الجبل الملعون الذي حين يمر به الكريتي فيرسم علامة
الصليب وهو يسب تركيا .. ذلك أنه في أى ثقب منه ، وفى شق تبحث
فيه ؟ .. سوف تجد عظام كريتين ذبحهم الأتراك ..

ورسم الكابتين ميخائيليس علامة الصليب على صدره ، فعدت ثمانية أعوام
مضت قتل أخوه « كريستوفيس » ، وولده ، وبعدا ظل الناس أياما يتبعون
الغريبان حتى وجدوا جثثهم الثلاث داخل معر صخرى شيق ملقاة أحداها
فوق الأخرى ، وكانت السننوم مفقودة .. كانوا يركبون دوابهم كل إلى
جانب الآخر فى المساء وهم سعداء ينشدون نشيد موسكو ، كان ذلك يوم
تعهد « تاراسكى » وكان الأخوة وأولادهم فى الطريق إلى بيوتهم بعد أن
شربوا وسعدوا بوقتهم ، ولحظتها لوحوا نحو الأفق ، وصاحوا يتمنون أن
يتركهم الموسكوفيين .. وكان الأتراك فى انتظارهم .. فوثبوا عليهم من
كمين أعده ، وقطعوا السننوم .

وقدم الكابتين « ميخائيليس » وهو بلكر مهتره : « أينها المنيوة كرييت !

لم من الأجيال انقضت وأنت تبكين أيتها الأرض سيمة الحظ .. ومن ذا
الذى استمع إلى بكائك ؟ حتى الرب محتاج إلى تهديد لكى يصنع
مهمته .. إن الأقوياء فوق هذه الأرض يحتاجون إلى تهديد جيد .. أبيض
بنك ببنفيتك مرة أخرى أيها الأحق . فهم وحدها التى ستصبح
الموسكوفيين المنقذين ! .. ولاشرف غيرها ! ..

وتهد .. أتابع سيره يعينين كابتين ، بعيدا وفى بطنه عن البحر داخل
السهل .. ومن السهل داخل الجبل ، ثم مالبت خياشيمه أن تمددت ، لقد
تعبرت وهاد كرييت بالصعتر والمريمية .

وقدم الكابتين : « كم هى جميلة كرييت .. كم هى جميلة ! .. اه .. اه لو
كنت فسرا كيما أستمتع بمنظرها الشامل من ارتفاع شاهق .. »

والحق أن النسو يمكن أن يشاهد جمال كرييت ويعجب به .. يعجب
بالطريقة التى يرتفع بها جسدها المحبوك فى اتزان .. الطريقة التى يبرق
بها سواحلها .. مرة فى رمل أبيض .. وأخرى بين رمل أحمر كالدم ، جبال
خالصة داخل البحر . وسوف تغمره البهجة وهو يرى القرى والمزارع
المسجمة والأديرة والكنائس الصغيرة التى تتوهج فى مواجهة الصخرة
المدببة الداكنة أو التى تقف ثابتة فوق التربة .. وفوقها كاتيا ، وريثيمو
وسجالبوكاسقو .. مدن ثلاث معذبة ظلها الأتراك يحوانطهم الفينيسية
وبأصابعهم التتريك فى الكنائس ..

والله أيضا - وهو أعلى من كل بشر - لابد أن يرى نفس المشهد إذا لم
يش سبحاته قد نسي كرييت أجيالا وراء أجيال وأسلمها روحا وجسدا إلى
أيدي الأتراك !

لا .. بل أسلم الجسد فحسب . فقد قاوم الكريتيون ، وغلوا دائما
بالعصب .. ورفضوا أن يضعوا خاتمهم تحت خاتم الله اعلم يكن ذلك من
العمل فى شىء ! ورفضوا أيديهم إلى السماء وصاحوا : ظلم ! ووطنوا
أنفسهم كمسيحيين طيبين على أن يرفعوا ذلك الظلم الإلهى الذى
لاستقل . والله ذاته محارب أيضا .. أيكون مشغولا عنهم لأنه يدير حربا
فى مكان ما ، فوق كوكب ما ، ضد أتراك آخرين ! ؟ .. لسوف تظل نناديه
بصوته حتى يصعنا ..

هناك شعوب وأدميون يدعون الله بالصلوات والدموع أو يضبط النفس المنظم والمعقول .. بل ربما لعنوه .. لما الكريتيون فقد دعوه بالبنادق .
وقفوا أمام بيت الله وأطلقوا بنادقهم حتى يسمعهم سبحانه . وأصاب
التردد : « السلطان في الصميم عندما سمع لأول مرة صوت الطلقات ..
وسرعان ما انتابه الهياج والغضب وأرسل الباشوات والجنود والعصابات .
وصاح الفرنسي « إهانة ! » . وأطلقوا سفنهم الحربية ضد اللماء الهزيل
الواقع بين أوروبا وآسيا وأفريقيا الذي خاض في شجاعة حرب الموت
وأعلنت « هيلاس » الام المتسولة وهي ترتعد . تذرعوها بالصير . ولا تلقوا
بى في مذبحه ! .. وأجاب الكريتيون في صوت يضم الأذان وهم أمام
باب « الرب » . الحرية أو الموت ..

في البداية مدت ذلك مرة واحدة في جبل واحد . ولكن في النهاية -
وبعد الثورة الكبرى في عام ١٨٢٦ ، ارتفعت حدة الصخب . وأسرع
المسخط خطاه . وابتلع قلب كريت الاعانة والاحساس بالظلم . والمعاناة
حتى اتضح وفاض الكيل في النهاية فانفجرت كريت في وجه الوحش
المخيف الذي تقبض مقالبه على سجينه . فافقت جسدها وأحرقت قرارها
وخربت حقول زيتونها وعبتها . وتكومت الجثث فوق سهولها العارية مرتفعة
تصل إلى أعقاب الله . ثم عادت .. تنزف من الآف الجراح .. عادت إلى
مخالب الوحش . كان ذلك في سنة ١٨٦٦ في زمن أركادي . ثم حدث
انفجار ثان في سنة ١٨٧٨ وعادت كريت لتسقط مرة أخرى فوق الأرض .
وبدأت تصيب أكثر استعدادا لابتلاع الظلم والبؤس .. والألم - وفي بداية
عام ١٨٨٩ - بدأ قلب كريت يقترب من الانتفاض والفيضان . في القرى
كان الكريتيون يديرون وجوههم ويرفعون قبضات أيديهم ويحدثون في
اتجاه الشمال .. في اتجاه اليونان .. وإلى أبعد من ذلك في اتجاه موسكو .
استيقظ الأرياء في صدورهم فتململوا ولم يعيدوا يحتملون البقاء داخل
بيوتهم وقراهم في راحة ويسكون . كان النوم قد جفاهم . في كل يوم أحد
كانوا يستدعون المدرس والقسيس وعازف الفيتار ليغنى لهم همومهم ..
هموم كريت . ولكي يذكر أوار غصبتهم ويقفز بها إلى الرؤوس . ودائما
عندما كان بهجم الربيع .. وعندما تعثره الحقول بالدفء . وعندما تدفعهم
القوة الغائضة .. كانت قلوب الكريتيين تزداد ضراوة .. وكان الأتراك
يعرفون ذلك ويعتوثن بالأوامر - وبالجنود - لابقائهم داخل بيوتهم .

وتورم قلب الكابتن ميخائيليس . ولم يعد قادرا على احتمال يؤس
« كريت » أكثر من ذلك . غرس المهماز في بطن المهرة وركض بها بخذاء
« الجبل الظلم » حتى وصل إلى تربة حمراء . ثم اتجه في طريق
« الشاطئ » . وأحس بالجوع . فانهدر نحو فندق الأرملة . وجاءت صاحبة
الفندق - أرملة حاذقة طروب كثة سمينة فاحت منها رائحة الرطوبة .. رائحة
الدمار والكراوية وغيرها الكابتن ميخائيليس بنظرته . فلم يكن يحب النساء
المدنلات اللاتي يهزرن أردافهن . وظل يصدق في الطريق أمامه وفي
البحر ..

وقالت الأرملة وهي تغمز له بطن : « مرحبا بالكابتن ميخائيليس نحن
لا نراك إلا لعاما ! إذا لم تكن على عجلة من أمرك فعندى أرتب مطبوخ
وبالس الطازج والكراوية .. »

وانحنت تجهز له مقعدا فانكشفت خطوط صدرها المرجب .. متدلها
رغبا ..

قالت وهي تغمز له مرة أخرى :

« يجب أن تأكل لحما يا كابتن ميخائيليس . فانت على سفر وهذه ليست
خسنة ولكن الكابتن ميخائيليس كان غاضبا . كان يكره هذه المرأة
ولعابها .. وكره لصفتها حتى جوعه . وقال :

« لن أكل شيئا لست جوعان !

ثم قفز فوق ظهر المهرة . وبحث الركض أسرع .. ترك الجبال خلفه .
وأصبح في السهل . بخسرتة الأمانة الجلية . ولطبت النحل فيه . وقرقة
الطيور وهي تعود في ثقة إلى أعشاشها الكريتيه نفس أعشاشها في العام
السناسي . اليوم أول أبريل نشع كريت بالبهبه تحت أشعة شمس الربيع
الناعم . ولكن الكابتن ميخائيليس لم يكن يرى ذلك حث الضطى إلى أين يا
تري ؟ من الذي كان يقفلى أثره ؟ لقد غطت مشاعره سحابة داكنة . كان
الساحل الذي تشره أشعة الشمس مظلما . وكان الطريق يمتد أمامه وكأنه
النهر . وكانت جبال « لاسيني » تبدو أمامه متبقرة متلوجة كالدخان . ومر
به فلاحان فوق ظهري جماريهما . ورفعا أيديهما إلى صدريهما يحسبانه .
« أمال الله عمرك يا كابتن ميخائيليس ! » ولكنه لم يزد على نظرتهما

وثميتها ، فقد كان ذهنه مشغولا ويقصر ، تورى بك ، - كان ذهنه يحوم حوله يسمح حوائطه العالية مثل اللص .. كان يحسب كيف وأين يستطيع أن يقفز من فوقها ليصبح في الداخل ، ولكن ذهنه تعب ، ولم يعد يستطيع أن يعرف ماهي خطوته التالية إذا هو قفز وتسلل داخل الحديقة .. تحدر العرق على حاجبيه ، وبس يده في زنته ولمس مبيض الخنجر ولعمف يقول لنفسه : هذا الكلب على حق ، واحد أو آخر منا يعني الكثيرين ..

وعندما استلم الخنجر وتسلق السور المرتفع في جراته وانحدر إلى الحديقة متسللا بين اواني الأزهار حيث كان المصباح الأحمر الأخضر لا يزال مشتعلا ، سمع فوق رأسه وخلف سلك الشباك ضجكة ، وفي الحال تسبب العرق غزيرا ، فوق عنقه من حاجبيه ومن كتفيه ووضع لمامه شيء أنه لم يقتمح المنزل ليقفل إن شيطانا قد تلبسه ! - شيطانا جديدا يختلف تماما عن الشياطين من جنسه ، شيطان حقير يجله العار وتفرح منه راحة المسك ووجهه - يا للعار ! - وجه امرأة -

ونغمف في اثنين ، - ألا تخجل من نفسك يا كايثن ميخائيليس ؟ .. ماذا جئت تفعل ؟ ! -

ورأى أجداده يقومون من قبورهم ليلعنوه فانكمش إلى الوراء ورفع قبضته وصاح : - ايها الأجداد فلنظلوا داخل حفركم في الأرض ! أما أنا فحي أنا قائد ! - لا تصرخوا في وجهي ! -

ومسح العرق من فوق حاجبيه بعصاية رأسه وتماسك ، وعادت الجبال امامه واضحة المعالم ثابتة ، وعاد الساحل يتلالا ، وانتصب النهر امامه فأصبح مرة أخرى طريقا كما كان ، وعاد فنتكر لعماد اتجه إلى باب المستشفى وما الذي أراد أن يفعله ، لقد أعطى وعدا لثيك ، وينبغي أن يفي ، كان في طريقه ليرى شقيقه مانوساكاس في ، أي - جاني ، إلى هذه القرية الفسيحة جدرانها والتي تبعد مسيرة ساعة من القرية الكبيرة ، - بيتروكيغالو ، التي جاءت أسرته ، ألقت المقادير بشقيقه ، مانوساكاس ، منذ عدة سنوات مضت ، مثل حبة نبات وهناك القرى جذوره وأينع ، - الآن - ومثل شجرة البلوط بفروعها وأغصانها ، أصبح له أطفال وأحفاد يفرخون على طول القرية وعرضها ويستمدون الغذاء من تربتها ..

أو يوم لا ينسى - في الرابع عشر من سبتمبر سنة 1866 - وكان

، مانوساكاس ، يمسح الأرض مع رفاقه بحثا عن الأتراك ، اقتحم قرية ، - أي - جاني ، ووجد في بيت فلاح هناك امرأة صغيرة مسئلة الشعر ، رائحة فوق الأرض ، وكان الأتراك قد ذبحوا زوجها للتو على عتبة البيت ، وكانت حديبة الزواج وكانت ثعلن الرب ، إنه ظالم ، إنه يجب الأتراك ، وحيق ، مانوساكليس ، الذي كان في الأربعين من عمره وكان قد فقد زوجته منذ سنتين ، حلق في الأرملة الصغيرة .. وأحس بأن قلبه قد ضاع منه : ترك رفاقه ليستريحوا ويأكلوا في الفناء بينما اتجه هو إلى البيت وقد أوثق البارد الأسود .. وطال شعره كالمتموحش .. وعندما رآته الأرملة تملكها الفزع ، وصاحت وهي ترتعش وتخفي وجهها في حجرها : - يا إلهي المقدس ! -

ولكنه حاول قدر طاقته أن يبدو وريفا .. ثم اقترب منها وقال : - ابك يا امرأة .. ابك نفسك وخففي عن قلبك ، أنا الأخرى كانت لي زوجة وفلتها هؤلاء الأتراك الكلاب ، أنا أيضا أعولت وذرفت الدموع وخففت من قلبي ..

ثم تهالك بالقرب منها ، ولاحظ كيف أنها كانت تعلم وتعوى ، فانتظر ، ثم حلق فيها وبدأ يحس بقلبه يرتجف بالحنين ، - أه لو استطاع أن يضمها بين ذراعيه ! - لم يشعر ، مانوساكاس ، من قبل بشوق إلى امرأة ستلما أحس به وهو يرى هذه المرأة بعينها العاري السالخن المهتر وهي رائحة وإلقى بيده فوق كتفها في نعمة وجذر في رقة :

« حسيك .. حسيك ، سوف تؤذين عينيك يا امرأة .. الست أسفة عليها هاتان الجميلتان اللتان ، لم يخلق مظهرهما في الدنيا .. أعطى يا امرأة أنني عرفت الدنيا - أنا الكايثن مانوساكاس ، الذي يركع الآن أمامك لن أكون .. دعيا ، ولكن تستطيعين أن تسألني عن أي مخلوق ابتداء من كيساناموس حتى سينثيا ، وسوف يخبرونك من أكون .. »

ثم سكت فقد خشى أن تبعد عنه كلمة رائدة واحدة ، هذه الأرملة إذا تملكها الرعب مرة أخرى ، ولكنه لم يكن يستطيع الاحتمال ، فاقترب منها أكثر وانحس فوقها وبدأ يحكي في صوت هامس كالغناء عن الأشياء التي رآها والتي عاناها وكيف أن كثيرا من الأرامل واليتامى تركوا يعانين نفس

العذابات . وكيف أن دموعاً عزيزة ذرفت .. من طرف كريت إلى الطرف الآخر - دموعاً كالنهر .. كانت تلك حلاكمات كريت . وكل من ولد كريتياً ينبغي أن يعلم بها ولا يجفل .

ورفعت المرأة رأسها في بطنه - وكانها تأقت إلى أن تسمع من الحماكمات وعن الآلام التي في الدنيا . وكان ذلك قد أسكن من روحها . فمسحت عينها ونظفت رجليها وبدأت بدورها تحكي كيف قتلوا زوجها . ثم رفعت يدها وأشارت إلى الدماء التي كانت لاتزال على عتبة البيت وقالت أنها تنوى الاغتسل هذه الدماء حتى تظل دائماً أمام بصرها .. فنذكرها .. وتبكي أمامها ..

ولمسها « ماتوساكاس » في رقة .. لمس كتفها .. ثم شعرها .. ثم ركبته .. في رقة بالغة ثم قال :

« أنت على حق يا امرأة . أنا أيضاً فعلت نفس الشيء على زوجتي الحبيبة . لقد اغتالوها في فناء البيت انتقاماً مني لأن زوجها فائد . واستلا الفناء بالدماء . ولكن الأمطار جاءت وغسلت الدماء . وعادت الصخور مرة أخرى بيضاء » ..

ثم تنهد وانحنى فوق الأرملة :

« إن روح الرجل أيضاً مثل الحجارة يا امرأة . وشيئاً فشيئاً . سوف تغسل الدماء .. وينسى كل شيء » ..

وعندما رأى المرأة وقد بدأت تغضب لمثل هذه الكلمات . أمسك بيمامته الدافئة التي كانت تتصاعد منها رائحة البارود . ثم وضعها حول كتفها . وقال :

« لقد برد الجو .. دفني نفسك حتى لاتصابي بالبرد » .. ونظرت إليه .. وأحست بالخيول كما لو أن رجلاً قد وضع نفسه فوقها . وبدأت لو الفت العباءة ولكنها كانت تخشى أن تؤدي مشاعره . فأنحنت وأحست في البداية برعشة . وشيئاً فشيئاً بدأت تحس باحتياج عاطفي عذب وهي تشم رائحة رجل تنفذ إليها من الرداء الصوفى وتتسلل إلى جسدها .. من كتفها إلى ظهرها .. إلى فخذيها .. إلى كل قطعة من جسدها . وتذكرت زوجها . وأول عناق بينهما . وذراعيه وكيف تسللت في

دموعاً وابتهاج داخل جسدها في الليلة الأولى . وأحست بمزيد من الدفء والارتياح والعباءة تدثر كتفها . وأحست بانفاس الرجل فوقها لاهمة بصف وليلتها عاطفة حلوة فاستدارت نحوه وقالت :

« ليس لدى شيء تأكله - ولابد أنك الآن جوعان . أنت قادم لتوك من القتال . ولكن هؤلاء الكلاب الأتراك سلبوا كل شيء » ..

« لا أريد أن أكل يا امرأة .. الله يأبى ذلك ! كيف أكل أنا وأمدك حاتمة ؟ إذا لم تتذرعني أنت بالشجاعة وإذا لم تأكل معاً فاقسم بالله الذي .. أومن - أن أموت من الجوع معك » ..

وخشى أن تبعده عنها مثل هذه الكلمات القوية . فعمل . وهو يسر بأنه قد عجز عن أن يصلح ما قد يكون أفسده . ثم مالبت أن قال :

« لاتغضبني مني لحديثي معك بهذه الجراءة . ولكن ماذا أقول لك ؟ وكيف أقول ما أريد ؟ إن تسديفتي ! » ..

ثم عاد فتتهد وبدأ يلف سيجارة . ولكنه مالبت أن توقف فقد أحس بالحيرة والضياع . ورفعت المرأة أهدابها الطويلة المائلة بالدموع وحدقت فيه . كانت تريد أن تسأل . ولكنها كانت خائفة . وتأقت نفسها إلى أن تسمع ما يريد أن يقوله . ولكنها كانت تحس بالخيول :

وعاد « ماتوساكاس » يتكلم

« إنه لشيء مخجل حقاً . ولكني لا أستطيع معه صبراً . سوف أقول لك الحقيقة كل الحقيقة .. وبيامنة . وأرجوك بحق الله ألا تسبني التفسير ! وإذا كنت كاذباً فليجعل الله بصاعقة تحرقني ! بمجرد أن جئت إلى هنا ورايتك تبتكين . أحسست كما لو أن سكيتنا قد انغرست في قلبي . أنا أقول الحق يا امرأة . لقد أصابني الشلل فلم أرغي حيلتي مثل هذا الجمال ! أنا أعني تماماً ما أقول . لاتغضبني . ولاتقومى وتهربي من أمامي . هاتك . لن المسك . معي ما أريد أن أقوله هو أن زوجك العزيز قد مات .. انتهى . وزوجتي العزيزة أيضاً . قد ماتت وانتهت . ولكن كلينا باقٍ وحده في هذه الدنيا .. تعالى حتى أراك » ..

وبكت الأرملة الصغيرة .. ومالت منكبة فوق ركبتيها .. وكانت أسنانها

تصمك وجسدها يرتعش ، ونهض مانوساكيس وأتجه إلى الباب ليدع
المرأة وحدها لحظة يمنحها فيها الفرصة لتتماسك ورأى رفاقه معدين في
الفناء ، وقد فتحوا زكائبهم ، وجلسوا يأكلون ، ووراء الفناء ، رأى الطفل
الخصيصة ، وأشجار الزيتون ، اثلاثتها الشمار ، وطواحين الهواء تدور وهي
تنز في سلام ، ونغم مانوساكيس ، وقد وصل إلى قرار :

« ... هنا سوف ألقى جذوري ، هذه التربة جيدة ومثمرة ومثلها هذه
الأرملة ، هي أيضا جيدة ، رطبة ومثمرة ، وسوف تلد أطفالا أقوياء ، أنا
أحب هذه المرأة ، وهنا سوف ألقى جذوري ، أفيحق هذه الشمس التي ترى
فوق كل شيء .. لن أتحرك من هنا ! .. »

وعندما عاد ليرى حال الأرملة الصغيرة ، وجدها قد أحكمت أزرارها
ونظمت شعرها ، وعضت شفيتها وبللتها بأسانها لتبدوا حمراوين ، بينما
العبادة لم تغادر كلفتها ، ..

قالت في خبث وهي تدبر عينيها :

« كابتن مانوساكيس ، هذا الذي قلته لم يكن ينبغي أن تكلمه ،
كذلك فاصبح عما قلته أنا أيضا ، وإذا كان ذلك صحيحا فهي خطيئة
كبيرة ، إن دم زوجي العزيز لا يزال دافئا على عتبة البيت .. »

وتنهذ مانوساكيس ، وخطا خطوتين ثم قال وهو يتهرب من ذلك
الحديث :

« لو كان لدى فقط قسمة خبز أو جرعة نبيذ ! - كذلك - إذا سمحت -
فأنا قادرة على أن أفعل ذلك بنفسى - ثبتي هذا الزرار المعتدلى من
سترتى .. »

وصممت المرأة ، وأحست بالأسى من أجل الرجل ، فنهضت وأحضرت
إبرة واحتنى الرجل قليلا أمامها ، ومسحت من عينيها لترى أفضل ، ثم
بدأت تثبت الزرار .. وبينما كانت تفعل ذلك كانت تحس بقلب
مانوساكيس ، يبق يعنف ورجشة داخل سترته ، ويأنفاسه الملتهبة فوق
ركبتيها ..

وأحست بالخجل ، وإنهت بسرعة تثبيت الزرار ثم نهضت وأقفة ،

وهنحت الصندوق .. لم يكن صحيحا ما قالته ، فلم يسبق الأتراك شيئا ،
وأخرجت طعام سنسوجا وبسطة فوق مائدة غطاء أبيض ناصع البياض
كانما أشاء البيت ، ثم عضت وأشعلت ناراً وبدأت تطهو ، أما مانوساكيس
فقد أشعل سيجارا وجذب مقعدا جلس فوقه بالقرب من عتبة البيت كما لو
كان هو رجل البيت ، ثم ألقى ينظرة إلى الخارج ، ولكن أذنيه كانتا مرهفتين
إلى داخل البيت ، سمع المرأة تروح وتجيء في انشغال تقلب النار ، وتطهو
الطعام ، ثم تعود فتجهز السكاكين والشوك والأطباق ، وتعد المائدة سمع
ذلك كله وسر قلبه ، ولم يحس في حياته كلها بمثل هذه الراحة ومثل هذا
الهدوء .. ومثل هذا الصبر .. إذن الآن يقينا ! أن هذه المرأة التي لوأتها
الذئبق .. والتي تطهو من أجله .. والتي سيجلس معها بعد لحظة لينتولا
وحدة طعام ، سوف تشاركه الطعام والغرائز طوال العمر بعد أن تنتهي فترة
الحداد على زوجها الميت !

هكذا كسب مانوساكيس زوجته كريستينا ، وهكذا ثبت جذوره في
فريتها ، كانت زوجة صالحة انجبت له أطفالا ، انجبتهم له توأما بعد توأم ،
وامتلا فناء البيت ، بل أنه الآن أصبح جدا - أصبح له أول حفيد - وشرب
كثيرا في الاحتفال بمقدمه .

لاحت بيتروكيفالو ، على بعد - في سفح الجبل وبأعلى المضيق
ظهرت « أى - جاشي » قرية كريستينا ، محوطة بالخضرة وحث الكابتن
ميخائيليس مهرته ، فسهلت وبدات تعدو في الطريق .. فقد عرفت القرية
في الأخرى ..

كان باب بيت مانوساكيس مفتوحا ، وأشرب الكابتن ميخائيليس
دراسه ، واندفع بمهرته ، ثم توقف في الفناء وصاح :

« - أخى مانوساكيس »

وكانت الأسرة كلها تجلس بالداخل حول مائدة منخفضة تتناول الطعام ،
وكان مانوساكيس يستند إلى السلطان وقد علق سوطه قريبا منه ، وفي
مواجهته جلست زوجته كريستينا ، القرفصاء سعيدة شاكرة ، وبدت
أسمن قليلا وأن كان صدرها قد تعدل ، فقد أرضعت أطفالا كثيرين ، ولكن
وجهها كان لا يزال يتوهج مثل وردة كلمة الإزدهار .

سمع مانوساكيس صوت شقيقه فقفز وأقفا وخرج إلى الفناء مارا

يديه الضمشتين ، وهو يقول : مرحبا بأخي ، المائدة جاهزة .. زوجة
أخيك تحبك .. اتزل ..

فقال الكاتب ميخائيليس :

- أنا على عجلة من أمري ، أغلق الباب وسأحدث معك .

وأغلق ميخائيليس ، باب البيت ليعتصم أولاده ويثبته من الاستماع إلى
حديثهما ثم أتجه إلى شقيقه .

استمع إلى ما أقوله يا ميخائيليس ، يا أخي ، إذا لم تكن تستطيع
أن تصمد للخمر ، فلا تشرب منها شيئا ..

وأكفهر وجه ميخائيليس .

- لماذا توجه لي هذه الكلمة ؟

- لأن الله لم يخلق الخمار ليركب الرجل .. ولكنه خلق الرجل ليركبوا
الخمير .. أفهمت ؟

- نعم .. لا بد أن أخاك في الدم نوري بك غاضبا ، وقد أرسلك إلى
لتقوم بعمله القدر .. أم لعلك أنت أيضا يا كاتب ميخائيليس ؟

- أنا لم أغضب ، ولا تحاول أن ترد كلماتي في وجهي - أنت تعرف
حقيقة ما أشعربه ، ولكن ذلك لا يخدم قضية كريت ، فالوقت لم يحن بعد
لنرفع الراية ..

ولكن ميخائيليس ، كان قد استشاط غضبا .

- وعندما تسكر أنت وتغنى أغنية موسكو ، وتقتحم مقاهي الأتراك
وتوجه الأمانات إلى البكوات وتطرحهم أرضا فهل تفكر لحظتها في قضية
كريت ؟ وهل قدمت الأوسمة إلى بيتي لتقوم بدور المدرس ؟

ثم اتحنى والتقط قطعة من الحجارة قذف بها إلى الأرض بعنف وجذب
عنان المهرة وقال :

- ماذا تقول إذن يا كاتب ميخائيليس ؟ هل أنا على حق ؟ لالتعب على
دور القديس أونوفوريوس ؟

وسكت الكاتب ميخائيليس فماذا ترى يستطيع أن يقول ؟ لقد كان
ميخائيليس ، على حق ، فهو نفسه يسكر وحين يسكر فهو لا يفكر في
شئ ولا في غيرها ، إلى الجحيم هذا الاعتدال اللذيذ ! في مثل هذه
الأحوال يمتطي شهوة فرسه ، ويبدو أمامه العالم كله سفيرا ، وتألقا أشبه
ما يكون بقشرة بندقة ، ويظل لحظتها يركض هنا وهناك ، ويحس كما لو كان
يتوس هذه القشرة بجوار فرسه إلى الجحيم هذه القشرة !

وقال ميخائيليس ، وهو ينظر إلى الفناء ثم إلى أخيه وقد قطب جبينه
وأخذ يحدق في الجبل :

- لماذا لاتتكم ؟ ما الذي يضيقك الآن ؟ - أنا أعلم ما يدور الآن
يداخلك ، استقر على رأي الست ثائرا ؟ قلت لك استقر على رأي .. فذلك
هو مصير كريت دعني أنا أيضا أخذ بثأري ولحقق هذا العالم في
بيدم الأضنى سوف أخذ بغلتي وأقتحم بها مسجدهم .. ويستطيعون
وقتها أن يقتلوني إذا هم أرادوا ..

- أنا لا يهمني أن يقتلوك .. ولكن يهمني ألا تتسحق كريت .

- أحق أن تتسحق كريت فلا تتف ، نحن الرجال الذين انسحقنا ،
وايست كريت الخالدة . انتظر لحظة .

ثم قال بعد تفكير :

- أخي ..

ثم صمت لحظة وعاد يتكلم .

- هذه هي الحقيقة ، أنا مشتق داخل هذه القرية - ألا تقوم ؟ ظلت
زما لا أستطيع أن أفهم سببا لذلك ، ولكن عندما اشرب ، يصفو عقلي ..
ويطرح قلبي منك ، أنا لا أستطيع أن أذهب إلى القسطنطينية لأقتل
السلطان فدعني إذن أوجه ضرباتي وأحقق ذاتي كبطال في قريتي
الصغيرة .. دعني أعمل ..

وجذب الكاتب ميخائيليس عنان المهرة وأدارها نحو الباب الخارجي وهو
يقول :

- فكر جيدا فيما قلته لك يا ميخائيليس ، يا أخي ، فكر فيه جيدا

عندما تخلد إلى نفسك ، ثم أعمل بعدها ما يهكم به الله وما تراه مناسبا
لكرين ، ليس لدى ما أقوله لك بعد هذا .. وداعا ...

- انزل قلت لك ، وكل شيئا معنا ولا تكن متعجلا هكذا ، اى شيطان
يتعقبك ؟ ابق الليلة فى بيتى ، انه متسع والحمد لله وفيه مكان لك .. ابق
لترى اولادى وترى كريستينا .. ولترى ايضا اول اخفادى .. ساسعهم
« ليفيتيزيس (الحرية) » فقلعه يرى الحرية ..

- انقل إليهم عنى جميعا التحية ، فانا فى عجلة من امرى ..
- ان تدخل القرية لتزور اباك العجوز ؟

- لا وقت لدى قلت لك اننى فى عجلة من امرى - لدى عمل اقوم به فى
الصباح الباكر .. متعكم الله بالصحة والسعادة ..

- انت عنيد صلب الرأس كالخنزير - دائما تتفقد الذى يدور فى رأسك
وإلى الجحيم كل شىء ... !

ونظس كابتن « ميخائيليس » فوق ظهر مهرته وخرج من الباب الرئيسى
وركض بجواده متجها نحو السهل ، كان سعيدا ، فقد أعجبه كلام
« مانوساكاس » ، وأعجبه أنه واجهه فى ثبات وكرجل ، ولولا التهاب
المشاعر ، لاحاطه كابتن ميخائيليس بذراعيه ، نعم ... انت على حق يا
« مانوساكاس » فافعل ما تؤمن به وإلى الجحيم كل شىء .. ومهما كانت
النتائج ..

وانطلق مثل البرق حتى عاد إلى « ميغالوكاسترو » وقلبه يقفز بين
ضلوعه ، فقد وضع لحمه ودمه مرة أخرى موضع التجربة ، ووجده كما كان
يريد أن يجده ..

كان الوقت قد تجاوز الظهيرة وبدأت الشمس تميل ، وعندما علمت نساء
الحى أن الكابتن « ميخائيليس » سوف يغيب طوال النهار ، تجعن فى فئانه
ومعهن اشغال الابرمة ، والمغازل .. والخضراوات ليقترنها ، بنيلوب
وكريسانتى ، وشفيقه بوليكيسيس ، وكاتينيسا زوجة كراسو جورجيس ،
وزوجة ماستراباس كلهن اجتمعن فى امسية فكحة من ايام السبت ، لقد
انتهى اسبوع ، وغدا يوم راحة وطعام جيد ، وحياة اجتماعية حافلة ،
والحمد لله سبحانه الذى خلق يوم الأحد ..

بدأت « كاتينيسا » الحديث بصوت كالغناء :

- هل سمعت الانباء الحزينة يا عزيزتى اريوتزا ؟ مرة اخرى فى الليلة
الماضية كانت هناك ضيحات وصرخات عند الجيران .. فى منزل
« فوروجاتوس » ، كانت زوجته تضربه من جديد ..

وقالت بنيلوب :

- الحمد لله ان زوجى ليس له شارب كشارب فوروجاتوس ، حين تتظن
إليه تحسبن يخوف لذيذ - فقد برمه جيدا ، وهذا الشمع الذى يستخدمه
يجعله منتصبا مشربيا .

وقالت زوجة « ماستراباس » التى تبقى زوجها مربوطا من كاحليه طول
الليل :

- « لماذا لا يتبادلان مكانيهما ؟ ينبغي ان يعطى شارب لزوجته ،
ويرتدى هو ملابسها .

وضحكت الانسة كريسانتى وقالت :

- افس عند منتصف الليل تقريبا ، كان يبكي مرة اخرى ، واقام
الجيران كلهم على صوت عويله ، وكان اضى يمر قريبا منهم .. فسمعه ،
وفى الصباح زاره وقال له : يا فوروجاتوس يا لخي ، لماذا تدع زوجتك
تشرط جسدها إلى شرائح ، وانت لاترفع يدك لتلزمها حدودها ؟ انت تجعلنا
نحن الرجال جميعا نبدو حمقى ، الا تخجل من نفسك ؟ فماذا تظنون كانت
اجابته ؟ قال : انا افس بالجنجى يا كابتن انا افس فعلا بالجنجى ،
ولكننى .. استمتع بالضرب !

وضحكت النسوة .. ونهضت « رينيو » وأحضرت الطعام والشراب ،
قهوة وطعاما محفوظا ويسكويتا بالسمسم ، وبينما كانت تخدم شاهدت على
شبة البيت جارهم على اغا بجواريه وابير الخياطة وحقيته الخضراء التى
اعطته اياها « رينيو » وقد وضعها فوق كتفيه .. كان اصلع - بلا شعرة
واحدة - وكان يلعب من كثرة الاستحمام .. وكان قميصه المشاحب المرقق
مرارا .. ناصعا ، وساقاه الرقيقتان يقيباهما .. تلعمان .. واستقبلته
« كاترينا » فى ادب وقالت :

- مرحبا على اغا جارنا العزيز .. تعال وتناول فدحا من القهوة .

واجابها على اغا وهو يتحلى لكل واحدة منهم :

- شربتها لتوى .. شكرا ، ومعى بسكويت ايضا ومربة كريب معطرة ..
شكرا جزيليا يا سيدى ..

وصاحت النسوة فى صوت واحد :

- اوه .. ماذا دهك يا على اغا ؟ اشرب قدحا اخر معنا صحية ..

وكن يعلمن جيدا انه غفيف بالرغم من فقره .. كان فقيرا مثل فلان الكنيسة ، ولم يكن عنده لا قهوة ولا بسكويت ولا مربة ، ولا شيء ، كل حياته كانت جوعا فى جوع ، وكان الطعام شاغله الوحيد ، كان دائما يتحدث عن اشياء رائعة ياكلها ، وكان يتلمظ دائما وهو يتحدث ، وجذبت النسوة طرف الحديث فورا فى موضوعه المفضل .. ليتفكهن .. سألته : كيت ، وهى تلقى بالكرة إلى الاخريات :

- و اى اشياء جميلة اخرى سوف تاكلها فى الغذاء يا على اغا ؟ يعلم الله انك نواقة ممتاز ، واخلالك ستاكل اليوم شرائح من صدور الدجاج ..

وايتسم على اغا فى ارتياح ، ويبل شفثيه بلسانه وغرس ابرته فى زناره ، ثم بدأ الرجل التنظيف العجوز يصف فى شرافة كيف اصبح الدجاج هزيلة هذه الايام .. وبأى شيء يتبله ، وأى صلصة ، ابتكرها .. وكيف حمرها الفرن جيدا فأصبحت فى لون بنى رائق .. تكلم .. وتكلم .. ويبل شفثيه كثيرا .. ثم تنهد :

وكانت النسوة يكتمن ضحكتهن : يلحن فى الاسئلة ، ثم يدعنه يستمر فى كلامه :

- الا تكف عن اكل اللحوم والصلصات يا على اغا ؟ سوف تفسد صحتك ، تناول ايضا بعض الخضراوات من حين لآخر ، ان كثرة اللحم تضرك ..

وقالت زوجة ماستراباس :

- سوف احضر لك هذا العشاء طبقا من الكريب يا جارى ؟

وسوف ترى كيف سيفيد الهضم ، فهذا الخبز الابيض الذى تاكله لايذ

ان يكون ثقيلا على المعدة .

واضافت : بنيلوب ، بسرعة :

- كذلك فان كثرة الكافيار يا جارى تتعب الرجل ، سوف اعطيك انا ايضا طبقا من الزيتون المشوح ، وسوف ترى انه افضل ، وانه سوف يفتح شهيتك كثيرا .

هكذا كان الرجل العجوز المتعطف الفقير مع جيرة من اليونانيين ، يعيش على مثل هذا الاحسان العمزوج بالفكافة ، وهكذا امضى النسوة امسيتهن ، وعندما انتهين من تدبير عشاء ، على اغا ، بدان حديثا طويلا حول بشائر الربيع فى الريف .. وحول الرجال وكلهم فاسقون .. وهكذا قالت زوجة ماستراباس ، وهى تنتهد - ولا يجدون لذة إلا فى اللحم الحرام ! اما كاتينيستا ، فقد شككت من ان زوجها ياكل كثيرا ويعلو شخيريه عند النوم فيبعثها فى غنة !

كان موزوفلوس ، حارس الكنيسة واقفا هناك فى برج الجرس يكتيسة ، القديس ميناس ، منذ وقت ليس بالقصير ، وقد وضع يديه بالقرب من اذنيه ينصت إلى طنين ، ميجالوكاسترو ، وكانه صادر عن خلية نحل ، وكان فى مقدوره ان يميز صيحات الرجال الوحشية وهم ينادون على بنسائهم ، وطرقات مطارق الحدادين ، واصوات الشحاذين وهم يغنون بطريقة تبعث على الشفقة ويدقون ابواب الدور ، والكلاب وهى تتبع ، والخيول وهى تصهل ، ويكور الماعز الصغيرة قادمة إلى ميجالوكاسترو ، فى مساء السبت لتذبح .

وقبحة احس بالخجل لانصاته إلى هذه الاصوات والضوضاء ، فقبض على حبل الاجراس الثلاثة المعلقة فوقه وهو يقول لنفسه عندما : كلى ! .. لقد حان الوقت لكى اتكلم : خمسة وسبعون سنة وانا استمع اليك حسنى ذلك ..

كان من النادر ان يفتح موزوفلوس ، ليتكلم ، فماذا لديه ليقوله ؟ فكل عالم يكن يقدر على ان يقوله كلن ينطق به عن طريق اجراسه الثلاثة فهى اقواء ، ولها السنة .. وهى تصيح ، وسرا .. ويون ان يتخير احدا اطلق عليها ثلاثة اسماء مسيحية : فالأوسط وهو اكبرها سماه ، القديس ميناس ، حامى وسيد ، ميجالوكاسترو ، وعلى اليمين كان ، البيفثيريا ،

(الحرية) وعلى اليسار كان : ثاناتوس ، (الموت) وكان صوت « اى - ميناس » دائما يرق عبقا أما يتبعه على الفور « اليقترينا » حانثا مستبشرا لعوبا كأنه الماء البارد . ثم يجيء « ثاناتوس » متثاقلا شديد الوطأة ، وكانت هذه الأصوات الثلاثة تبعث من جوف هذا الخادم الأشيب - لتصب في جوف كريت وتعلن فوق أسطح الكريتيين . وشوارع الاتراك وقصر الباشا عن الشوق إلى الانتقام وعن تحفز المظلومين العنسحقين .

كانت روح « موزوفلوس » بأصواتها الثلاثة من الفضة والبرونز ، تجلجل في انتصار وتبث الشجاعة في « كاسترو » برغم عبوديتها للاتراك لتحتفل بالمهرجانات الأربعة في السنة . رأس السنة والفصح ، ويوم القديس ميناس (١١ نوفمبر) .. وفي المقدمة يوم القديس جورج .. يوم ميلاد ملك اليونان ..

وجلل « موزوفلوس » خيالاته ، باكائيل الغارليجي ، القديس جورج « وقد وصل إلى « كريت » وهو يمتطي جوادا أبيض ملهما ، ويرتدى ثوبا وصدريه حديدية وحول وسطه حزام جلدي وغدارتان فضيتان ، ويتقل زوجا من الأحذية المنقطة أيضا ، بشراريب ، حمراء وظلقة على ظهر الجواد جلست فتاة صغيرة .. ابنة الملك .. الحرية ، وهي ابنة من أثينا ، وفي كل عام وفي الثالث والعشرين من أبريل على وجه التحديد ، يهبط القديس جورج أرض ميجالوكاسترو ويكوي موزوفلوس هو أول من يراه وهو معلق أجراسه الثلاثة كالرافس .. يراه قاندا من الميناء فيحبيه برقة يدهل العقل من أجراسه الثلاثة ، القديس ميناس .. والحرية .. والموت .

ولكن « موزوفلوس » كان مكتئبا اليوم ، فاليوم هو أول أبريل . وقد مضت خمسة وسبعون سنة - كيف مرت يا ترى ؟ - منذ أن ولد . وأحس لأول مرة أنه بدأ يكبر ويشيخ . وخشى أن يدرك الموت دون أن يشهد يوم تحرير كريت . ترى ايجي « أحد غيره ليدق هذه الأجراس في مثل هذا اليوم المقدم ؟ .. أبدا - إن روح موزوفلوس لا تستطيع أن تتحمل ذلك .. أبدا .. حتى لو قبضنى الشيطان فسوف أنطلق في هذا اليوم من قبزي اللا منتهاي العمق وسوف اتعلق بالأجراس وأبدا الرنين .

ورطب جبهته المعجدة اليابسة الجلد . حرق يارده . ترى هل سينتقل في

وقت مناسب ؟ .. وارتعشت يداها وبدأ يلهث بعنف وهو يرق أجراس النساء .

وهناك في أسفل .. في فناء الكابتن ميخائليس حيث كانت النسوة يشرن عن الرجال والنساء ، وحيث كان على أفا يشرح للنسوة اليونانيات كلمات النبي محمد .. رق جرس النساء .. وعلى الفور جمعت النسوة معا أصوات الحياكة .. وثوقفن عن العمل .. ورسمن علامة الصليب .. ونهضن لتمسكي كل واحدة مذهن إلى بيتها .. وفي كل بيت في مساء السبت كانت نوقت النيران لتندفقا المياه للاستحمام ، وكانت الفتيات الغضبات يدعكن عسات الميوت وأقدامهن عارية . ويفركن الأنيبة المتسخة ويسقين أواسي الرهور .. وكانت النسوة المعجائز يأخذن المياخر من فئس الأيقونة ، ليدخرن النور ويتذكرن الموت وهن يتمتمن بعينن نصف مغلقة .

وفي هذه اللحظة التي تقف فيها الأجراس ، يدخل الأب « مانوليس » لاهتا داخل بيته . فمئذ الصباح الباكر وهو مشغول بتوزيع البركات في البيوت في بداية الشهر .. وهو يزور كل البيوت المحيطة .. وبعد أن يمسس الزبيب يتخير الذمعا في الأطباق من طعام التقدمة اللذيذ ويدسه في مباحكة داخل أعماق جيبه .. وهو الآن كالمستحم في عرقه .. ولكن مزاجه كان رائقا ، صفق بيديه وصاح « أنت يا زوجتي ! ..

وبرزت زوجة المطران الراضية السمينة بلا أسنان في فمها وهي تجر فديسها اللين تشبهان جذعي شجرتين ، وتتعل شيشيا باليا ، وكانت جميلة في شبابه . وكانت مشددة عظيمة ، وكان في ذقتها تؤول صغير يشبه حبة الزيتون سحر عيني المطران في ذلك الزمان .. أما الآن فقد نما هذا التولول وتضخم وبرز منه شعر كثيف ، ولكن عينيها كانتا لاتزالان نشعائز بتلذذ وعيل للحب ، ونظرت إلى ثوب زوجها المتلخ وقالت :

- « مرحبا يا عجوز .. هل أخلع ملابسك ؟ ..

وفي وسط الفناء رفع الأب يديه المشعرتين فوق رأسه وقال :

- « اخلعي .. وأحضري طبقا »

وأحضرت زوجة الأب طبقا ضخمنا وبدات تفرغ الجيوب التي لاتلك والتي تمتد من خصرة إلى ساقيه .

ومضت الزوجة تعمل .. وتعمل .. تضع في الطبق اللحم والسجق
والفطائر الملقوفة والخيار واللوز والبليح وكعك البندق والبشملة والحمص
المشوى والكعك بالجنين .

« استمعين هذا الملعون موروفولوس ؟ إنه يصم أذاني .. اسرعى يا
امراة ! .. »

وامتلا الطبق وقالت الزوجة وهي ترفع الطبق إلى صدرها في نهم :
« لقد انتهيت من خلع ملابسك يا معجوز .. والأن أسرع من أجل خير
روحك ! .. »

مد الأب ساقيه .. وقد خف حملة .. ثم انطلق ليؤدي خدمة المساء ..
في هذا الوقت كانت « كريسانتي » شقيقه « بوليكسيجيس » قد عادت
إلى بيتها ، وألقت شالها الهندي المفضل فوق كتفها القويتين
المعجنيتين ، ووضعت ندرتين صغيرين . زجاجة نبيذ صغيرة وزجاجة زيت
صغيرة داخل سلة ، وبينما كان « مانوليس » يمر بالقرب منها وجيمه لا يزال
منثلقا ، خرجت « كريسانتي » من الباب واتجهت إلى الكنيسة في خطوات
ثقيلة .. كانت هي الأخرى لينة رطبة رشيقة في شبابها ، ولكنها أصبحت
الآن ثقيلة العينتين ، وأصبحت شفتها العليا وذقنها وخداها تثبت شعرا
طويلا كشعر الحمار !

ونظر الأب إلى السلة في جشع وقال محببيا : « باركك القديس ميناس يا
أنسة كريسانتي .. »

ولكن الأنسة « كريسانتي » كانت تلهت تحت وطأة جسدها السمين
وساقها الثقيلتين المنتفختين ، وكانت مفاصلها الاثنان والسيكون قد
بيست ! وكان ذهنها يسرح بعيدا ، وقالت لنفسها في صمت : « أي -
ميناس ، ها أنت ترى أنني أجيء مساء كل سبت وأحضر لك هداياك ،
نبيذك وزيوتك ، فهلا صنعت لي يدورك المعروف الذي سألتك أيام منذ سنين
طويلة ؟ دعني أمت قبل أخى ، إنه كريم وإذا ظل حيا بعدى فسوف يقدم لي
جنازة لائقة ، بل انه سوف يجعل في مقدمة جنازتي هذه المصابيح
الكبيرة .. »

وكانت المصابيح الكبيرة قد أحضرت منذ زمن ليس بالبعيد ، من

المسطنطينية عن طريق الصنوبرين عن كنيسة « القديس ميناس » ، وكانت
رائحة معلقة بسلاسل مفضضة مزينة بزجاج ذى ألوان عدة وحبال من
الحبرير الأسود ، ولم تكن تستخدم إلا في جنازات الأثرياء فقط ، وعندما
كانت « كريسانتي » صغيرة ابتلعت إلى « القديس ميناس » حتى بيعت لها
زوج طيب ، زوج وسيم ، ورجل بيت نشيط ، وأخيرا ، يمر بعد أمل وراء
أمل ، ابتلعت إلى القديس ميناس أن يساعد شقيقها الكاتبين
« بوليكسيجيس » في أشغاله ، فعندما كانت الأحوال هادئة ، وكان
بوليكسيجيس عاطلا ، افتتح دكانا بالقرب من بوابة كاثيا كان يطلب إليها
النبيذ والزيت والعنب والليمون واللث من الفلاحين ليعود فيبيها مرة
أخرى إلى تجار الجملة ، أو التجار الجشعين كما كان يدعوهم ، ويملا
ستوفه بالجنينيات التركية .. وحينها نابلون الذهبية .. كمن مع أخى
في تجارته أيها القديس ميناس حتى تزدهر فإذا أنت أدبت لي هذه الخدمة
فإن تنقطع عنك الشحوع ، وإن يتقطع عنك النبيذ والزيتون ، وكل ما يحتاج
إليه قديس .. ولترزقنا دائما بمزيد من الطعام .. مزيد من أجود أصناف
الطعام ، فهو كما تعلم شيء طيب مثل الزوج والأولاد ، يطمئن البشر ، إن
على أفا على حق أيضا عندما يقول : « أنا لن أصير ضخما لا تعدو في
النهاية سميئا من أجل الديدان » .. مسكين أنت يا على أفا يا خادم الله ،
تصوم لأنك لاتجد شيئا تأكله .. »

كانت قد كرست كل حياتها من أجل شقيقها ذاك القوي الشكيفة .. من
أجله كانت تغسل وتشطب وتمسح وتبلخ .. وتحن : « ياله من رجل قوى ..
وسيد حقيقي لا أحد يستطيع أن يصفه بأنه خامل الذكر لا يصلح لشيء » ،
إن النساء يصنعن الرجال ، فليأخذ بحظه من المتعة ؟ كانت تعيش معه
وحدها - فقد ولدا لنفس الأبوين في اليوم نفسه وإذا كانت هي تكبر سريعا
فذلك لايهم على الاطلاق - مادام هو ينظر صغيرا وشيقا ! : نعم ، أنا
سعيدة معه - مسكينة أنا ، أجلس من أجل طول الليل فأحس بمعنى
لحياتي ، حتى ولو كنت أنام في النهاية وحدي .. وفي كل يوم كان يصل
إلى البيت في غيش الفجر ، عائدا من جولاته ، وكانت الأنسة كريسانتي
تحدث فيه في سعادة وقد طار النوم من عينها تنزع عنه حذاءه .. وتغليء
المياه ليغتسل .. وتعد له فنجانا من القهوة شديدة الحرارة لينعشه ، وعندما
تقترب منه كانت تتنشق في اشتياق شاربه وشعره ، وتتشمق الرائحة التي

تركها فيهما النساء ، هكذا كانت الأنسة ، كريسانتي ، تستمتع بالحب في هذه الدنيا !

ولكنها في النهاية - وقد كبرت في السن وتضخمت وانتفخت ساقها أكثر وأكثر - كانت تنهل إلى القديس ميناس ، من أجل شيء واحد وهي تحضر إليه مساء كل سبت هداياها ايررضي عنها ، كانت تنهل إليه أن يهيئ بفضل منه موتها قبل أن يموت أخوها - حتى يستاجر في جنازتها هذه المصابيح الكبيرة التي وصلت أخيراً ..

أما أخوها على الطرف الآخر من ميجالوكاسترو بالقرب من بوابة كانيا ، فقد سمع جرس المساء ، فرسم بلا تفكير علامة الصليب على صدره الحريرية وهو لا يزال يعزف على المتولين ، ثم قفز برشاقة ليغلق مكانه .

كان رجلاً وسيماً قوي البنية ، متغندراً يرتدي دائماً ملابس شامب في العشرين ، سراويل من الصوف ، وصدرية حريرية مشغولة ، وزنبراً حريرياً عريضاً وطلافاً في لون القشدة مما يرتديه الأتراك والكريثيون المتأنقون على السواء ..

وكان الطماق مشقوقاً في وسطه من أعلاه إلى قدمه وخرطومًا بأشرطة حمراء لتضفي قيمة كاملة إلى القدم الرشيقية .. وكان بوليكيكسيس يضع طربوشه الكبير على جانب بحيث يسقط زره في لا ميالة فوق كتفه اليسر ، ثم يأخذ طريقه في خطوات واسعة يلفز من حجر إلى حجر متجهاً نحو حلاقه الممتاز ، بارسكيكفاس ، حيث كان يخلق شعره كل يوم سبت .

وكان وهو في طريقه إلى الحلاق يتوقف باستمرار ليحيي أصدقائه من أصحاب الدكاكين ويلقي باحدى نكاته هنا وهناك أو يشرب ، الراكى ، ثم يمضي في طريقه بطربوشه المائل وخطواته الخفيفة .. ولقد كان يستمتع بأحسانه بجسده الطالع بالقوة ، ويأن كل أعضائه الداخلية تعمل مثل الساعة . وكان يستمتع أيضاً بأن شيئاً في الدنيا لا يشغل باله ، لقد قرأ يوماً في كتاب شيئاً أثر في نفسه تأثيراً كبيراً ، « كاناريس ، المحارب من أجل الحرية : سئل ذات يوم كيف يمكنه أن يحقق كل هذه الأعمال البطولية ؟ فأجاب ذلك الصياد .. وفائد السفن العربية بقوله : « يا أولادى ، لقد كنت دائماً أقول لنفسى : كونستانتس لابد أنك ستعوت يوماً ما .. ومنذ ذلك اليوم والكابتن ، بوليكيكسيس ، يعمل طربوشه إلى جانب وسواء

الآن في حرب أو في حفل كان دائماً يقول لنفسه : بوليكيكسيس ، لابد أنك ستعوت يوماً ما ، ومن ثم فقد كان دائماً أول من يخطو للأمام ، ولقد صاحب العمال ، فهم الذين بنوا له نصيباً ذا حجرات من الحجارة والرخام ، في ساحة الكنيسة ، قبوا تحت الأرض زوده بأرفف ووسائد ، ومائدة مغطىة في الوسط ، ودولاب غائر في الحائط مليء بالزجاجات والأكواب . وكان حين يدعو مزاجه ، يملأ سلة يكل مائد وطلب ويصطحب معه بعض أصدقائه ذوى الجسارة فيذهبون جميعاً إلى هذا النصب ، وهناك يبدأون في الشرب بشراهة ، ويتكلمون عن الحرب والمرأة والموت .

وهكذا .. كان الكابتن ، بوليكيكسيس ، يمضي في طريقه ، وريشان مرراوان تزوفان صدغيه ، متوقفاً أن يقضى أمسية ممتعة . لم تكن هناك ورقة شجر واحدة تتحرك ، ومن صحون الدور كانت تهب رائحة ورود أبريل ، وكانت العيازيب رطبة والأرض نكية الرائحة . ولكن ذلك كله لم يكن يهوى ، بوليكيكسيس ، أن هي الا لحظات حتى يعمل السننور بارسكيكفاس في نغته رغاوى الصابون ، ويخلق ويلمع شعره بزيت عطري ، وبعدها يخرج ، بوليكيكسيس ، من مكانه فلا يكاد يعرفه أحد فسوف ينقلب إلى حصى في العشرين .. ثم بعدها يستدير ليندخ في أزقة مظلمة ليمر على أصدقائه المرحين وعلى صديقاته العاهرات ..

شهد الكابتن ، بوليكيكسيس ، وهو يقول لنفسه : « أه .. لو كان هناك إله .. فليضع الآن معجزة .. فأتانا أريدها الآن .. فأتانا الآن في عنفوانى .. والآن هو وقت المعجزة ! من سنوات قليلة مضت كنت مهرجاً لا أفهم شيئاً ، وكيف كان لي أن أدرك ماتعني النساء والخمر والحرب ؟ وبعد سنوات قليلة قادمة أكون قد انتهيت تقريباً .. فكيف استطيع الاستمتاع بالدنيا وليس لي أسنان أولدى شهية ؟ لسوف أمضى .. أتطلع إلى النساء وأشهد مثل العلب عن عقايد العنب .. أعتقد أن القديس جورج هو القديس الذى يفهمنى أكثر من غيره .. أنا أعجب بك دائماً فوق الأيقونة ، أعجب بطريقة ركوبك سهوة جوادك ، وأمرأة تجلس خلفك ، أيها القديس جورج يا قديسى يا بن عمى ، ساعدنى ولا تخف ..

قال ذلك .. ودفع طربوشه إلى جبهته واستدار في الشارع الرئيسي .. كان الشارع العريض واحداً من شارعين رئيسيين في ميجالوكاسترو . وكان يمتد من بوابة كانيا ، في الغرب حتى بوابة المستنشر حيث

الميدان الفسيح : ميدان المراديب الثلاثة وحدائق الباشا ، وهناك تحت عدد من الأشجار المتزينة ، كان يقوم ، كلتكم ، خشبي تعزف الموسيقى فيه كل يوم جمعة فرقة موسيقية عسكرية ، أما الشارع الرئيسي الثاني فقد كان يمتد من البوابة الجديدة حتى الميناء ، وحيث كان الشارعان يتقابلان كان هناك الميدان الرئيسي ، قلب المدينة ، وفي الشارع العريض كانت تقوم محال الاسكافية ومحال الزجاج والصيني ، والمخازن ، ومقاهي اليونانيين ومحال البقالة ، ومن داخل هذه المحال كانت تنتهي دائما أصوات المناقشات العالية ، أصحاب محال ، مساعدين وعمال تحت التعرير ، وفكاهات ، كلهم يتبادلون المزاح ويثرثرون ويطلقون الضحكات المرتفعة ، ويشيرون ساخرين إذا مر أفندينا أو شخص مقوس القدمين أو لحوال العيينين أو مخلوق يساعد على السخرية ، ولحظتها كان الاسكافية يدقون في أن واحد فوق قوالب الأحذية ، وكان المساعدين والعمال يطلقون الصفير .. ويقذفون قشر اللبوعن والطماطم المغفنة .. !

ومساء كل سبت ، كان الحب يشيع في الجوا .. واليوم ، كما هو العالوف ، كان الشارع العريض يعج بالحركة ، فقد كانت اجراس المساء قد أحالته إلى ضوضاء عارمة .. وكان الأسبوع قد انتهى والحمد لله ، ونزع صبية البقالين وعمال الدكاكين ميادعهم (مرابلهم) وأنحنوا على الميازيب لكي يفسلوا محالهم .. كما اغتمسوا هم أنفسهم « وتهندموا » وبرعوا شواربهم وأخرجوا المقاعد وجلسوا فوقها وهم يشربون القهوة كما يحيونها .. ويحدثون الفرجلية ، وفي هذه الأثناء كانت المرأة البربرية ، والرشيئة ، تمر بالشارع ، جبلا من السواد ، وجسدا لامعا بقلادة من خرزات زجاجية غليظة من هذا النوع الذي يوضع حول أعناق الجياد ، ويصدر مثل يكاد أن يصل إلى بطنها ، وفسحة ودودة وعيين خبيثتين ، وأسنان لامعة ، وفوق رأسها طبق من الكعك بالسمنم ، ثم هاهو ذا ، تولوياتاس ، يقوم من اتجاه نافورة « ايدومينياس » وعلى كلتا يديه صينية أحدها ملى يفتائر السباتج والآخرى بالكعك الممزوج بالسمنم والقرقة الشارع لم يعد الشارع العريض ! .. فقد تحول الى منزل كبير مسكون امتلا عن اخره بالظرفاء .

وتأمل الكاتبين « بوليكتيسيس » لحظة ، وأحس بالفخر وهو يرى هذا الشارع اليوناني الزاخر بالمحال والبضائع وليس فيه تركي واحد ، فالهواء

على ، والكريتيون يضحكون ويمزحون بينما دقات الجرس لاتزال دائمة ، هذه هي الجنة ، لا شيء ينقصها سوى العلم ، ولكن هذا أت .. ونحن الكريتيين سنحقق وجوده .. هكذا كان يقول لنفسه وهو يسير ويلقى بالتحية بينما ويسارا قبل أن يندف إلى دكان الحلاق .

كانت الظلال تمتد .. وكان المؤذن قد صعد إلى منذنته يدعو المؤمنيين إلى صلاة العصر ، ولكنه قبل أن يقرر إطلاق صوته في السماء .. تمهل لحظة .. ولف القماشة الخضراء حول غطاء الراس الأبيض الذي يضعه فوق رأسه .. وألقى ببصره حوله .. وغغم .. قائلا :

« يا الله يا الله مهما حاول الإنسان فلن يستطيع أبدا أن يعلا الأعين التي منحها له حين ينظر إلى الدنيا .. »

وأحس على شرفة المنذنة .. وتهلل لعرائ « ميغالوكاسترو » كيف تمتد تحتها كثيرة الألوان عديدة الأصوات بمآذنها البيضاء وقباب قديسيها المقدنية ، ويعلم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحدائق الباشا ، وغليه الاحساس بالجمال الفائق .. فتنهد .

« السعادة تفيض على الجميع .. الجميع .. الجميع ! .. النساء هناك ، والشباب الوسيم مثل نوري وعندما أراه مندعفا كالعاصفة فوق جواده أعود إلى العشرين .. هناك أيضا شباب ناعم مثل ورائق الخبز الصغيرة يغنون في المقاهي في المساء ، فتحس بالدوار فلا تدرى إلى أين تذهب لكي تشكر الله .. إلى المسجد أم إلى المقهى ! ويحق الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أن الراحة نفسها لتقتنني ، وعندما أذهب إلى بوابة المستشفى واتنفس بعمق روث حميرنا الكريئية الصغيرة ، يصبح قلبي حديقة السماء أي لا أعذل بهذه الراحة الميغالوكاسترية ! .. كل روائح الدنيا الزكية ، بالنسبة للأخريين قد تكون رائحة ننتة .. ولكنها تمتعني ! .. »

قال ذلك .. ثم تنفس بعمق .. ووضع يديه فوق أذنيه .. وفجأة ، ومن أعناق جسده ، نوى صوته كالرعد عميقا .. صافيا .. حاملا كل الحب والدعاء في أقوى صوره ، أي عذوبة في هذا الصوت ، وأي قوى ! ، وكيف استطاع هذا الصوت أن يغطي على كل اجراس موزونولوس ! .. لقد ارتفع على الشمس بقمة أصداثه واقتحم السماء داعيا الله ثم هبط فجأة فوق ميغالوكاسترو مثل البرق الخاطف منتشيا باسم الله .

وفي اللحظة التي كان المؤذن يمدح فيها نوري ، في أعجاب شديد .
كان نوري ، عائدا من إقطاعيته وقد غمرته الكنية .. كان قد ذهب إلى
هناك ليخلع ملايسه . ولكن الخجل كان لايزال عالقا بوجهه وعنقه ويقل
على صدره ويحرقه بلهبه . وكان جواده ينفث من فمه الزبد الأخضر فقد
كان الأمر في ذلك اليوم سيئا حتى بالنسبة لجواده ، كانت ركبه مهالكة ..
وكان يتعثر في ركضه ، وكان البحر قد توهجت صفحته وعلاه الزبد
وارتفعت صفحته . ولكن نسمة واحدة لم تكن تهب . وعبر تهر
جوفيرا .. وكانت بشائر أوراق الشجر قد بدأت تثبت في فروع أ
لكروم . وكانت أشجار اللوز قد بدأت تزهر . وأشجار التين تعبق الجوز
برائحتها .

وعدم نوري .

- لا شيء .. لا شيء يستطيع أن يهدئي لعن الله البحر .. والشجر ..
والشمس ..

وامام ناظره ارتسمت مرة أخرى صورة الكابتن ميخائيليس تماما حيث
مد اصبعيه الى الزجاج ، وسمع صوت تكسر الزجاج .. ورأى أمينة .
ترتمى على عنق الكابتن ، فصاح في ضراوة :
- العار لي ! أجدد بالأرض أن تنشق فتبتلعني . أي شيء أريده من
الحياة مادمت لم أعد أفضل الرجال هنا ؟ .. اللعنة على ذلك كله ..

ومضى في طريقه .. ولا تزال ليلة الأمس بطولها في مخيلته .. كم كانت
ليلة مضطربة وكم أسرف في الشراب حتى انتهى به الحال إلى أن تمدد
على عتبة بيته وقد أعماه السكر .. فوق الروث ثم تذكر . لقد غلبه النوم
النوم الذي ملأ الصراع الوحشي .. والنتاج من ذلك الذي جاءه في نومه
ونادى عليه ؟ عندما جاءه خالده البربري في الصباح .. واغتسل .. تحول
الحلم إلى دخان .. واختفى كل شيء .. ولكن سكينًا ظلت مغروسة في
قلبه ..

واليوم ركض بجواده عبر مداخل الأتراك ، حيث تنتصب شواهد القبور
بالكلمات المنقوشة عليها والعمائم الحجرية الملونة مثل أشخاص من
الرخام انشقت عنها الأرض من تناضل من أجل الخلاص ومن أجل أن
تبتعد عن هذه النصب وتعود إلى بيوتها في ميخالوكاسترو .

وماول أن يميز قبر أبيه هناك في الركن بعيدا عن البحر وبين شجرتي
السوي . ولكن عندما عثر عليه بدأ جسده يتقلع . خيل إليه أن العمامة
الحجرية قد تحركت التي الخلف تماما مثلما كان يفعل هاني على الأعمى
بعمامة .. عندما يستبد به السخط . ودارت به الدنيا .. وأحس بالدوار ..
وعثر جواده بقير من القبور فجذب نوري بك ناصيته حتى لا يسقط فوق
الأرض وتشتت بالعنان فنراجع الجواد المعتز بنفسه وهو يرتعش .. فقد
كان ذلك أول يوم يتعثر فيه الجواد .. أول يوم منذ سنتين طويلة . قال
مسي ..

وسرع اليك .. وأراد أن يترجل ليركع على قدميه أمام قبر أبيه ، ولكنه
كان يخاف الموتى . تسلسل الخوف إلى قلبه مثل برق خاطف . وتذكر حلم
الليلة الماضية . كان أبوه يقف فوق وساد مشعت الشعر .. قدرا .. عارى
القدمين . وهو الذي لم يتناول يوما ويلمس الأرض بقدميه ! .. ورفع يده
الطويلة المسودة وقال في صوت كالرعد : « كم من السنين ظلت أحوم
حولك أيها القصر الملعون ؟ .. منذ سنة ١٨٦٦ فلنتدهم ! .. ثلاثة
وعشرون عاما ! وكنت أظن أن ولدي .. ولدي الوحيد سوف يظل يفكر في
ليله ونهاره ويشحن سكنته لينتقم لدمي . إنما لاطوف ببيتك اليأس . فلا
أسمع سوى الضحكات والماندولين والأغنيات . وأنت هجرتني .. هجرتني
لتنسك جيتة ونهايا في الشوارع والحقول لماذا إذن تنجب الأبناء ؟ لكي
ينتموا لدمائنا ! بينما أنت لا تحجل من أن تكون أبا في الدم لشقيق
ذائلي ! بل أنك لتسمح له بروية زوجتك بدون حجاب ! اللعنة عليك أيها
الكافر وعندما سمع نوري تلك اللعنة الثقيلة غلبه الغضب . وود لو صاح :
« ماذا أيها العجوز .. ألا زلت مصرا على متابعة إصدار الأوامر لي حتى
أنت في قبرك ؟ .. ولكن الكلمات توقفت في حلقه . فضغط بقدميه جيئة
الجواد . ولم تكن الشمس قد غربت بعد . فعاد عن طريق بوابة كانيا
وأنفذ داخل الحصن اليوناني ..

وفي نفس اللحظة وصل الكابتن ميخائيليس إلى بوابة المستشفى على
الطرف الآخر من ميخالوكاسترو . وكان قد حث جواده بأقصى ما
يستطيع من جهد . وكانت الشمس قد غربت لتوها وأن كانت لا تزال تلقى
بأخر أشعتها فوق بوابة القلعة . ومن بعيد . كان في مقدوره أن يرى
المجدوعين ينهضون كماداتهم بعد أن ظلوا طوال النهار مستلقين على يمين

الفصل الثالث

البوابة ويسارها فوق التراب والروث وقد بسطوا أطراف أذرعهم يتسولون . وفي الغروب كان عملهم اليومي ينتهي ، فيقفون ويتحركون في سف واحد وراء أحدهم الآخر متجهين صوب ، ميكسكيتيا ، قرية المجذومين ولم يكن أحدهم ينظر إلى الآخر ، بل كانوا يتدافعون محتايعين نوب أن ينطق أحدهم بكلمة ، كانت حدودهم متاكلة وأتوفهم وأذاتهم غير موجودة ، وكان كثيرون منهم عميا ، وكان بعضهم يبديون كمن يتسعون لأنهم بلا شفاة . وبالتالي فإن أسنانهم كانت ظاهرة على الدوام ، كلهم كانوا يركضون كما لو أن يوم الدينونة قد بدأ وكما لو كانوا قد سمعوا طبول الملاك . أو كما لو كانت الأرض قد انشقت عنهم فخرجوا بعد أن نسوا أجزاء من أجسادهم في عجلتهم !

وأدار الكابتن ميخائيليس وجهه بعيدا فقد كان يكره منظر المرضى ، وكان يقول دائما : « الأصحاء فقط هم الذين ينبغي أن يعيشوا ، أي فائدة لمثل هؤلاء ! » .. ثم لكز جواده وعبر بوابة القلعة في اللحظة التي بدأ فيها الحارس العسكري ينق طبلته في نوبة الغروب .. والتعلم التركي ينزل من فوق ساريته ..

الثالثة .. تلك الليلة .. هبطت ثقيلة فوق المدينة . كان الجو ساكنا ولم يستلم الكابتن ميخائيليس النوم ، فقد كانت الرطوبة شديدة .. وفتح سكان « ميجالوكاسترو » رجالا ونساء نوافذهم وخرجوا إلى أفنية دورهم وفكروا أرباب أردية نومهم طلبا لتسمات الهواء .. وأحست بعض العجائز من السنوة كأن كارية توشك أن تحل ، فجلسن على عتبات بيوتهن ، ولكنهن لم يحدرن على فتح أفواههن حتى لا يفضحن أفكارهن ! كن خائفات من أن قدر ، « ميجالوكاسترو » الشرير قد يسمعهن ويحقق ماكن يتصورن أنه لم يقرر بعد نهائيا .. وهكذا كن يهمنن مع إحداهن الأخرى ويحاولن أن يظل الحديث المتناثر قائما .. وإن كان حديثهن برغم ذلك يعود إلى اللقل الخفى الذي لا يمكن التصريح به .. هل تذكر المرة الأخيرة ؟ لم تكن هناك ورقة شجر واحدة تتحرك ، « هودوما ! » ، ألا تسمعن الطنين تحت أقدامكن ؟ .. « هودوما ! » ..

وعند فحسب انفسهن داخل أرواجهن وترقين مطلع النهار ثم برزت الشمس من خلف جبال ، لاسيتي ، معتمة ساخطة تصبها منق من السحاب النحاسية اللون ، وتوهجت المائدن ، وتوردت صفحة البحر ، وبق « موروفلوس » الأجراس الثلاثة ، واستيقظ الصي اليوناني من سباته ، وفتحت الأبواب وخرج سكان البيوت ، اغتسلوا جميعا وأرتدوا سترات ، ونصان أيام الأحاد ذات الهياطات : الزوج والزوجة وخلفهما الحماة وأمامهما الأولاد ، الصبية يسكون بمناديل بيضاء مطوية ، والفتيات يضعن مشابك في أوشحة أعناقهن .

كانوا جميعا في طريقهم لكن بقدموا مظاهرا التشريف للقديس اترابك ، أي ميناس ، ولبستهم إلى خطاب المطران ويتزودوا بالفداء بين يديه .

كان اليوم يوم الأحد . ولم تكن هناك مشاغل . فالمحال مغلقة . والشيطان -
التاجر الأكبر - تأتم مليئة يوم كامل . ومن ثم فالتاس سعداء بأن يتلقوا كلمة
الرب - فذلك لم يكن ليكلفهم شيئاً . ولم يكن أحدهم ليفقد شيئاً إذا هو فعل
ذلك . وغدا سيكون هناك - كالمعتاد - وزن وقياس ومساومة . وسيحاول كل
واحد منهم أن يلتمه الآخر . ستة أيام للشيطان . ويوم واحد للرب !
اشعل المصاييح للثنتين . وسوف يكون كل شيء بعدها على مايرام !

كانت الكنيسة تتلأأ مثل سماء زاهرة بالنجوم . وتفوح منها رائحة
القناديل والبخور ويشيع فيها الدفء . وتعلو طنين كأنه صادر عن خلية
نحل . طنين ملائكة وقديسين وبشر . ولم يكن هناك مكان لكل المسيحيين
المؤمنين - فقد وقف كثيرون منهم في الممرات . ووقف المطران البدين
بالقرب من عرشه بجسده العملاق ولحيته البيضاء الثلجية وصلبيه الذهبي
وتأج الاستقضية الملوكي . وكأنه وحش مفزع هب من السماء إلى الأرض
ليطرح الناس أرضاً ويدخل في قلوبهم الذعر .

وعلى باب التماثيل وقف الأب . مانوليس . بملامحه الهادئة وملابسه
المذهبة . يرتل الانجيل في ذات اللحظة التي فتح فيها . كاجابيس . باب
بيته ليحلق بالكنيسة هو وزوجته . وكان زفافهما قد تم يوم الأحد الماضي
ومن ثم فقد كان عليهما - حسب التقاليد - أن يؤمنا الكنيسة لعدة ثمانية
أيام وهما بملابس الزفاف ليبتهلا . إلى القديس . ميناس . حامي البلاد .
ولبقدا له كعكا كبير الحجم مزوجاً بالقرفة والمصطكي والسكر .

كان بيتهما الصغير قريبا من الميناء . تماما حيث يبدأ الحى اليهودي .
وداخل أزقة ضيقة متعرجة ابتليت بالرياح الحارة وهواء البحر المضمئ .
تعلمت . جاروفاليا . بذراع زوجها . وسار الاثنان في بطء واعتزاز
ويستقبلان معا في ود عالم الزواج الحديث . كم تشع هذه الشوارع المظلمة
بالرياح . وما أعذب ما تشيعه من رائحة ! وما أحلى ما تنبسم هذه
الصخور ! وما أروع ما اقتربت الدنيا - برغم كل شيء - من جو
الزواج ! نعم . فهذه بعض شجيرات الشوك في سور إحدى الحدائق . وقد
ازهرت ! ... أكانت هذه هي . ميغالوكاسترو . التي يستعيدها الاتراك ؟
أكانت هذه هي أزقة الحى الفقير بروائع نفاياتها ؟ .. أكان هذا هو البحر
الكريتي المهيأ دائما لأن يعامل الرجال في وحشية ويعيدا تماما عن كل

عاشى الرقة ؟ . رفعت . جاروفاليا . خلسة .. عينها الناصتين . وحدقت
في زوجها : . يا إلهي .. أى معنى لكل هذه الأحاديث التي يلغونها
الفساوسة ؟ .. الجثة هنا يارجلى الطيب . يا إلهي . أنا لا أبغى جثة أخرى
سواه ! ..

وكانا قد وصلا إلى ميدان السوق قبل أن يقتحما الشارع المؤدى إلى
الكنيسة .. واستدار . كاجابيس . وتظفر إلى زوجته وقلبه مغمم بالسعادة .
وأنجل إليه فجأة كأن العالم لم يعد موجودا وأنه لم يبق في كل زحام هذه
الحياة سوى هذه المتخوفة التي تسير إلى جواره دافئة مططرة مصبوكة حول
سدها هذا المشعل وهذه التنورة الملينان بالازرار والاشرطة الملونة .
وغما الطيب الرائحة في عذوبة ودفء .. لقد كان القلق يستبد به منذ الليلة
فعل الماضية . عندما قيل له إن عليه أن يتوجه إلى بيت الكابتن ميخائليس
بعد ثمانية أيام فقط مع زوجته . وأحس بالغضب . وتوقفت عن السير عند
السوق . ماذا ترى يهمة من . أى ميناس . قديس . ميغالوكاسترو .
بماداته المحلية وهو الرجل الغليظ القادم من . سفاكيا . ؟ ولماذا يضيغ
وقت داخل الكنيسة بدلا من أن يعود إلى بيته بأسرع ما يستطيع ؟ إنهما
حديثا الزواج . وسيففر الله لهما .. لم يعد أمامه غير وقت قصير . فلماذا أن
الكابتن ميخائليس . - هذا الوحش الضارئ - في انتظاره الآن في قبو
بيته . وسأل زوجته :

- . مارايك في أن نعود يازوجتى إلى بيتنا الصغير ؟ .

وحبس أنفاسه يترقب .. وأحمر وجه المرأة وارتعش جفناها . ثم أجابت
بعينين مسبلتين :

- . الامر أمرك يا صغيرى يا نيس . ..

ثم استدار في لهفة وكان أحدا يتلقى لثريها وعبرا السوق في سرعة .
وسارا مخلفين ورأسعا الشجرة العارية وقصر الباشا ثم دخلا زلفا ضيفا
حتى وصلا إلى الميناء . وفتح . كاجابيس . الباب بركة من قدمه . ودخل
الاثنان البيت . وأغلقا الباب بالمزلاج .. وقدفا نفسيهما فوق الفراش .

في تلك اللحظات . كان . الكابتن ميخائليس . يجلس في القبو في غيش
العجبر وإلى يمينه ثلاث . براميل . ملأى بالخمور تستقر فوق عارضتين

متينتين ، وإلى يساره إناءان أحدهما ملء بالزيت والثاني بالدقيق ، وفوق رأسه تدلت سفوف من التين والرمان والسفرجل والشمام الشتوى الأصفر المعروف باللون الأخضر .. وعلى الحائط طقت حزم من الأواني المصنوعة من أعشاب المريمية والحيق .. وكانت رائحة التبيذ والسفرجل تعبق جو القيو .. ولكن ما أسرع ما استغطى عليها رائحة الدجاج الساخن وسك ، أم الحبر ، والمعانق (السجق) .

جلس الكابتن ميخائيليس فوق مقعد مرتفع ، وقد أسند إلى الحائط رأسه الثقيل وقد غصبه في إحكام مقناش دأكن ، وحقق بعينه في الباب المنخفض القائم في مواجهته دون أن ينظر إلى شيء بعينه ، ولم يكن كذلك يفكر في شيء ، جلس دون حراك ، وإن كان من حين لآخر يضغط بمخالب يده حافة المائدة أمامه فيحنى خشبها .

كان ذهنه ساكنا ، ثقيلًا ، ولكن قلبه كان يدق في عنف ، لقد كانت الحياة كريمة معه ، ولم يكن يفتقر فيها إلى شيء كان رجلاً قويا صحيح البدن ، له زوجة طيبة وأسرة .. وكانت الدنيا تكن له كل التقدير وكان ابته مثله تماما - يفتشى الموت - فإذا مات هو فسوف يمضى ابنه على ذرية وكان لابنه - مثله تماما - علامة فوق عنقه ، وحاجبان غليظان كثيفان ، وعينان صغيرتان شديدا السواد ، فما بال قلبه إذن ؟ .. وأى شيطان هذا الذى يجعله يضطرب هكذا ؟ لم يكن يحس بالسرور ، ولم يكن يقدر حتى على الابتسام أو على أن تبدر عنه فكاهة أو كلمة ودودة تريحه حين تجرى على شفطيه فهو متحفظ دائما .. قليل الكلام .. عنيف .. زاره يوما وفي قريته الرجل طيب القلب ، مانولاكيس ، الخياط ، وقال شيئا وضحك ، ولحظتها قلب الكابتن ميخائيليس ، جبينه وعيس ، فكانما شل ، مانولاكيس ، المسكين الذى مالبت أن نهض وغادر البيت ، وبعدها استدار ، الكابتن ميخائيليس ، نحو ابنه وقال في أسلوب مهين : « انه لا يخجل ! .. إنه يضحك ! .. »

ولقد كان يقول لنفسه أحيانا ، « عندما تتحرر كريت ، فسوف يتحرر قلبى أيضا عندما تتحرر كريت فسوف أضحك ، ومنذ وقت ليس بالبعيد كان يراوده حلم كأنه الحقيقة بعينها : سمع الأجراس تدق لأن كريت نالت حريتها ، وراى الشوارع وقد غطيت بالغار والريحان ، وسفينة حربية بيضاء الفت مراسيها في الميناء ، ومن السفينة خرج ابن الملك قادما من

أثينا ، وقرز إلى العرسي ثم انحنى يقبل تربة كريت ، وعلى الرصيف كان « نفسه - الكابتن ميخائيليس - يقف مسكنا بمفاتيح « ميغالوكاسترو » فوق طبق قضى ليلسهما لابن الملك ، كريت تحررت ، تحررت - ولكن قلبه لم يتحرر بعد .

ويعدم في غضب : « ماذا دهاني بحق الشيطان أجل ماذا ينقصنى بحق الشيطان ؟ ؟ .. سوف أسقط على أم رأسى ولاشك ! .. »

وعلى الدم في عرقه وخيل اليه أن مخه قد تضخم ، واحمرت عيناه ، انه نهضت كريت ثم سقطت في أعماقه لم تعد بعد جزيرة .. وإنما أصبحت وحشا مفترسا يحدق في البحر - أصبحت « جورجون » شقيقة الاسكندر الأكبر ، وكانت تنتحب وتضرب الماء بذيلها الذى مثل ذيل السمكة .. وتثير مياه البحر ، وعندما تنأهى صوت تحييبها إلى سمع « الكابتن ميخائيليس » سرت زعشة في رأسه فما لبث أن بدلت من صورتها لتتحول إلى شجرة عارية شارية جذورها في أعماقه تغذى من أعضائه الحيوية ، ومن أعماق هذه الشجرة تدلى الأسلاف يشعروهم الأشيب وأقدامهم العارية وقد اكتست وجوههم بالزرقه وأخذوا يعضون على السننهم .. بينما ربح عاتية تقول وتثن .. وعندما بسط الكابتن ميخائيليس ذراعيه ليصلى من أجل هؤلاء الأسلاف .. اختفى كل شيء وعادت مخيلته فارغة .. ولم يعد باقيا سوى قنديل بزجاجه الأحمر الأخضر ، وبتحته « نوري بك » وشراب اللبيون وطائر القطاة المطبوخ ثم .. ضحكات مكتومة .. وامراتان شركميتان .

وقفز الكابتن ميخائيليس واقفا ، وضرب الحائط بقبضته في عنف حتى أهد ارتج البيت ، ووقع بصره إلى الباب المنخفض ، وفجأة ، بدأ يغضب ويلعن لأن رفاهه البشوشين قد تأخروا .

وفي اللحظة التى كان الكابتن ميخائيليس يضرب فيها الحائط بقبضته ، كان هؤلاء الرفاق ينطلقون من أركان « ميغالوكاسترو » الأربعة ، كان أول من استيقظ منهم فى الصباح الباكر .. « فيتدوموس » صاحب الحانة الذى رسم علامة الصليب ووقف أمام الأيقونة ذات المصباح الموقد أبدا وهو يصلى لحمايته عذراء حقول الكروم المقدسة ، حتى تمنحه القوة على الاحتمال ، كان فى طريقه إلى المبارزة الكبرى ، المبارزة التى ستستمر ثمانية أيام يليالها .. من الأحد إلى الأحد ، وإذا لم تساعده العذراء

فسوف تكون اياما وليالي ضائعة .. ومنذ سنوات قليلة مضت عهد إلى الراهب فينيديوس ، بان يسجن له عذراء .. لا كما يصورها الرسامون كأم .. ولكن كما رآها هونفسه في الحلم : امرأة مثل النساء اللاتي يجمعن الكروم في شهر أغسطس مجنونة بالرجال ، غليظة الشفتين تعصب رأسها بحصاة كريتية ، وتحمل فوق ذراعيها - بدلا من الطفل - عناقيد عنب ، ولقد رفض الراهب في البداية ، وقال إن أمرا كهذا لم تنص عليه الكتب المقدسة وإن ذلك سيكون خطيئة ولاشك ، فلا بد لها أن تحمل المسيح فوق ذراعيها ، وليس حزمة من عناقيد العنب ، ولكن فينيديوس ولفه بزجاجة من الزبيب ، ويضع أولويات من سمك الكيلاء ، فهدات نفس الراهب ، ورسم علامة الصليب ، وتناول القرشاة وسم الأم المقدسة أم الكروم المقدسة .

وقف في فينيديوس ، أمام صورتها وقد ارتدى جواربه ولما يضع قدميه بعد في الحذاء .. وقال :

- سيدتي .. سيدة حقول الكروم التي تحرس الحانات وأصحاب الحانات ، تحياتي اليك ، أنا ماض الآن ، ماض إلى قبو الكابتن ميخائيليس ، وأنت تعلمين جيدا ماذا يعنيه ذلك ، أنا محتاج إلى مساعدتك ، أنت تعرفين أنني قدمت التقود والكيلاء والزبيب من أجل أن صورتك ، ساعديني ! ساعديني على أن أحتمل وإلا أسكر هذه المرة فينقلب حالي وأحيل الجدران إلى فوضى شاملة ، وأسالك أيضا يا سيدتي أن تطاميني من حدة هذا الوحش الذي لا يضيض ، الكابتن ميخائيليس ، حتى يسمح لنا بالخروج بسرعة ، إن ثمانية أيام يليها شيء كثير ، أيتها العذراء المقدسة .. شيء كثير ..

واغتسل وارتدى ملابس وتناول قيثارته من أمام الايقونة وخرج إلى سحن البيت وودع زوجته وابنتيه وطلب منهم أن يذهبوا إليه كل يومين ليطمئنا على ما يحدث هناك ، ثم ترك معهم نقودا ليشتروا طعاما يكفيهم الأسبوع كاملا ، وأخبر ابنته الكبرى التي كانت تحسن الكتابة لأنها كانت مدرسة ، بان تكتب له على ورقة كل ما ينبغي أن يقوله ، ثم وضع الورقة في جيبه وأجال بصره حوله في أرجاء البيت وكأنما يودعه .. ورسم علامة الصليب .. واجتاز عتبة البيت .

أنتجه أولا إلى الحانة وأخرج من جيبه الورقة وبثتها فوق الباب حتى يراها الناس : صاحب الحانة مضطر إلى أن يتغيب ثمانية أيام في بعض شؤونه الخاصة ، ويعددها لحس بشيء من الراحة ، فانطلق مسرعا إلى بيت الكابتن ميخائيليس سوف يصل متأخرا ، ولن يبيد التثنية ملاحظة حول تأخيريه ، ولكنه فقط سيقلب جيبه .. وذلك وحده يكفي !

وعندما مر بحذاء بيت شقيقه الأكبر تاجر الجملة ، اغذ السير : لا ينبغي أن يقع بصره على فسوف يشك في أنني ذاهب إلى هناك ، وسوف أتعرض لعزيب من التعنيف ، إلى الجحيم هذا الحمار العجوز ! ، ومسح يبه إليه الذي يشبه الخبارة والذي ينمو كل شهر قطعة حتى لقد أدرك الآن فيه ! وعاد يفغم ، أه ! .. فليذهب إلى الجحيم ! ، إنه يطيب له دائما أن يمستى الدروس ، ليس كذلك ! ولكني أول أمس أعطيتك كل ما قدرت عليه ! أنا اعرف ماذا ينتابني - ولللعنة على ذلك كله - وأنا أبور والقوم وأنحدر بين الجدران عندما جاء رب العائلة السمين هذا ، وودع عقبرته خارج بيته هذا الايقن الملعون وقال : أيها المخروب مانوليس ! ألم تكتف بعد ؟ الا تكف عن الشرب .. الشرب ؟ .. ووقفت أنا لحظتها في مواجهته قريبا من الحائط .. ووقت مثل الشمعة المنتصبة وفتحت فمي الصغير وقلت له : وأنت يا تاجر الجملة ألم تكتف بعد ؟ .. الا تكف عن عدم الشرب .. وعدم الشرب ؟ .. ولحظتها توقف رجل أو رجلان كانا يسيران .. توقفوا وضحكا في صوت مرتفع ، أما هذا الحمار العجوز - فقد اختفى .. اختفى ! ..

ومضى فينيديوس في طريقه يحدث نفسه : كانت مشيئة الله ، لقد وأنت يوم الجمعة الطيبة وكان أبي قسيسا ، وأريد لي أن أكون قسيسا مثله ، أو أبوم وأحد (والشيطان له أرجل كثيرة) ولكن كيف كان لي أن أظل حامدا في المدرسة ، وكيف كان لي أن أسلم عنق للعبودية ؟ فمنذ كنت طفلا صغيرا وأنا أعرف على القيثارة فسمعتني حتى الأحجار .. وترقص .. وميما كانت تجرى احتفالات أو مجالس أس ، كنت أوجد أنا .. وكنت أبقى ، ولم يكن أحد يستطيع أن يبعثني عنها ، ومن أجل ذلك أسومتني (فينيديوس الحائق) وشيئا فشيئا تعودت على أن أشرب بحرية ولم أعد أستطيع أن أعيش بدون رائحة الخمر ، ومن ثم فقد أنشأت الحانة وطلبت أن ترسم لي العذراء المقدسة التي تناسبتني ، والتي لا مثل لها عند مخلوق في العالم المسيحي كله ! وعندما أناديتها تلبس ، ولا تشغل نفسها بان تجري هنا وهناك في أمور شاذة مختلفة ، فهي لاتفارقني وتجييب أملي في

الساعة التي أحتاج فيها إليها ، إنها ملكي أنا فقط . وإن اقترضها لأي مخلوق سخيئ أحق . في العام الماضي طلبها مني هذا المجدف كابتن بوليكسيجييس حتى يأمر برسم واحدة مماثلة له . ولكن كيف كان يمكن أن أعطيها له ؟ سألته يومها : أيمن لك أنت أن تعطيني فرسك يا كابتن بوليكسيجييس ؟ كلا - فأنا أيضا لا يمكن أن أعطيك عذارىي ..

وفي هذه اللحظة من حديثه لنفسه اصطدم عند نافورة « ايدومينياس » بكل من « بيترودولوس » و « فوروجاتوس » الذين كانا في طريقهما لاهثين إلى وكر التين . وكانا في عجلة من أمرهما حتى لقد كادت قيثارة « فيندوسوس » أن تتحطم لحظة الصدام . بينما سقطت قبة « بيترودولوس » إلى الأرض .

وصاح « فوروجاتوس » :

« فيندوسوس .. لماذا تهرج هكذا تحو فك الأسد ؟ قف ! دعنا نلف سيجارة حتى تمنحنا الشجاعة .. »

ثم جلس الثلاثة فوق الدرج الرخامي للنافورة وأخرجوا صناديق الطباخ جلس « فوروجاتوس » في الوسط بقامته المديدة كالمتوج . وكان قد ازداد صلابة مع الكبر . وكانت ساقاه طويلتين كساقى عملاق حين تبدآن في الرقص تطرب وتنتشى تربة كريت . ولو لم تكن له هاتان الساقان . لما حياه إنسان . فانت لا تحيي إنسانا يضرب زوجته . وكان له حاجبان كثيفان وشارب منتفش نافذ مباشرة إلى الامام يبدو معها حقا كأنه قطة متوحشة (فوروجاتوس) . وانحنى في ود نحو زميله « بيترودولوس » وغطاء بعابته التي كانت قد سقطت عند الاصطدام . كما نطف قبعة الصغيرة الناشفة . المتعائلة وثبتها في قوة فوق شعره الرمادي الطويل .

كان « بيترودولوس » رجلا عجوزا بريئا ضئيل الجسم . ذا قم رفيع وذقن ناتئة . حديثه الحلاقة وعارضين جانبيين قصيرين تتبعث منهما رائحة مرهم عطري . وكان أول رجل في « ميغالوكاسترو » وربما في كريت كلها - لا يبخس الله أو الناس . ويحلق شاربه تماما .. وفي أول الامر ظن الكريتيون أن بشرته خديقة بطبعها فلم يغيضوا . ولكن عندما تأكدوا من أنه يحلق شاربه انتابهم غضب شديد . مستحيل ! فهو يدمر نظام الأشياء ! وهو يخلط النساء بالرجال . ولقد قذفه البعض بالحجارة وبقتلر الليمون .

بينما اكلفي آخرون بأن يمتنعوا عن الترحيب به . ولقد صاح فيه « بارباياتيس » يوما ما وهو يبرم شاربه : « هذا في كريت يا بيترودولوس . هناك صفتان من الادميين وليس ثلاثة . الرجال والنساء . وليس عندنا رجال نساء ! »

وفي يوم من أيام الاحاد . كان بيترودولوس يمر بجذاء الاقبياء الثلاثة . انيفا خفيف الخطوة باسم الوجه ممسكا بقبضته استوقفه فوروجاتوس . وقد غيبه السكر عن وعيه . وامسك به وحاول أن يخلع عنه سرواله امام الجميع حتى يرى كما قال . ما إذا كان بداخله « بترودولوس » أو « بيترودولينا » ! ولكن بعض الرجال ممن لم يكونوا سكارى وقتها .. تدخلوا في الامر بينما انفجر فوروجاتوس باكيا واحتضن بترودولوس وضمه إلى صدره وربت عليه وقبله واحتفظها صرح بترودولوس أنت تحطم اضلعي ! .. حل عنى ! ثم ركه بعنف ومد ذلك الحين والاشنان صديقان لا يلتزمان .

ولقد كان قدرا أن لا يكون كريتيا . فهو من « زانتي » وهو . كريت . كما كان يقول . ولكنه لم يعد يذكر كيف قدم إلى « ميغالوكاسترو » وسط هذه الوحوش المفترسة ليصبح معلما في العزف على القيثارة . كذلك فإن « بيترودولوس » لم يكن اسمه . ان اسمه كان « الكونت مانجياقينو » . والآن فقط - لأنه يظل يرتعش طوال الشتاء والربيع ويثر نفسه في عيانت السمكة الخضراء . ولأنه كان متغض الجلد مقوس الساقين . ولأنه كان يقول أشياء غريبة مضحكة . ولأنه كانت تسهل إضافته - أطلق عليه الكريتيون اسم « بيترودولوس » ... واصق الاسم به ! ..

ولكن عدد تلاميذه قل يعبرو السنين . فما الذي يستقيده ابناء « ميغالوكاسترو » من وراء الجيتار وهم ذوو أصوات حميرية لا تلائمها مثل اغنيات الحب .. اغنيات « زانتي » .. ويذا « بيترودولوس » المسكين يتسور جوعا . فكان يغيث المقاهي ويتحدث في جاذبية مؤثرة عن حياته وعن أيام كان فيها لامعا وعن سيدات مرموقات وعن حفلات « للسيرانادا » والمندولين في « زانتي » وكان يضع جيتاره فوق ركبتيه ويعزف بعض المقطوعات القديمة حتى يحس صاحب المقهى بالخجل ويقدم له قدحا من القهوة وبعض البسكويت أو « سد الحنك » أو قشور البرتقال المسكرة . بعدها يتخف « الكونت » من جوعه . بل انه كان يحصل في بعض الأحيان على إذن في أن يلف « سد الحنك » في قطعة نظيفة من الورق ويأخذها

معه . فقد كان مفتونا بصاحبة البيت ذات الشعر الأبيض . العجوز كالثال . ويخجل من أن يستمتع وحده باللحوى . فهو يعرف جيدا كم تحب هذه المسكنة . سد الحنك . الذى لا يحتاج أكله إلى أسنان !

ويوما ما فكر الكابتن ميخائيليس : سوف يصلح تماما لقبوى . فقد سمعه بيوى بعض حكاياته الحقيقية والخرافية فى معنى « تريالونيس » .. وكان يتحدث فى ذلك اليوم عن « زانتى » - زهرة الشرق - التى لم تطفأ أبدا أقدام تركية . وحيث ولد شاعر أغنية الربيع اليونانى . ونداءه « الكابتن ميخائيليس » وقال : « استمع إلى ياسيد بيترودولوس . أنت شخص ممتاز . وانه لمن سوء طالع ميخائيلوكاسترو الا تستطيع توفير الحياة لك . لهذا فسوف أمثك مرتبا شهريا حتى لاتعانى . ولكنك ستانى معى إلى قبوى كلما أرسلت فى طلبك . وأجاب الكونت وهو يقذف بقبعته إلى الأرض : « بكل سرور يا سيدى عيدك يا كابتن ميخائيليس المشهير ! »

ولف « فوروجاتوس » الرجل العجوز الصغير فى عباته كالطفل . ففقهه هذا شاكرًا كما لو كان أحد قد دغدغه .

وقال « فيندوسوس » :

« تجلد يا بيترودولوس فنحن مقبلون على عاصفة هوجاء يا سيدى المسكين . فى هذا القبر سوف تولد الحرية اليونانية . »

وأجابه « بيترودولوس » فى تيه وهو يفرج من عباته ربطة كان يحملها تحت ذراعه : « لا تقلق يا سينيور فيندوسوس . فقد أخذت احتياطاتى لكل الاحتمالات . »

وتحسس « فيندوسوس » الربطة بأصابعه وقال : « ماذا بداخل هذه الربطة يا سينيور بيترودولوس ؟ »

وأجابه الرجل العجوز النظيف وقد أحمر وجهه : « غيار .. قميص ! .. وصاح « فوروجاتوس » وهو يقذف بسيجارته بعيدا : « حسيكم ! .. لقد دخلنا بما فيه الكفاية . الآن هيا يا أولاد . هيا امضوا إلى المشكلة العويصة .. إلى الأمام .. والله معنا ! .. »

واشتبكت أذرع الثلاثة . واتجهوا إلى باب الكابتن ميخائيليس . وبيترودولوس . فى الوسط .

رجل متوسط العمر . ذو لحية شقراء متماسكة . وعينين برزقتين وحشيتين مستديرتين كالبيض . وراس تحته لثام عمامة تركية عريضة بهيضاء تركت أذناه فيها علامتين حيث لاتكاد تقادر رأسه حتى يكون مهيا على الدوام للدخول بها إلى الجنة . ذلكم هو أفندينا . كان منذ سنوات مضت قد زار « مكة » . ومنذ تلك الأيام المقدسة امتلا عقله بحرما وسنتها وباللهب والفرح . وعاد إلى « ميخالوكاسترو » ليصبح درويشا فى إحدى التكايا التى كان أحد أسلافه يوما ما وليا من أوليائها . وظل دحما من الزمن يستقبل عددا من الأطفال الأتراك يعلمهم القراءة والكتابة . يضربهم أحيانا .. وأحيانا يضربونه . حتى كان يوم شج فيه رأسه ابن أخت « نوى » لك .. « إبراهيم » .. وكانت نهاية المدرسة .

وكانت « التكية » قريبة من كنيسة القديس ميناس . ساحة منسبطة مستطيلة مزروعة بالكرنب . فى أقصى نهايتها ثلاثة أقباء صغيرة خرية . وفى وسطها يقوم قبر الولى . قبر خشبى ذو شاهد قائم من الرخام تعلوه عمامة خضراء محت الأمطار والشمس الكلمات المذهبة المنقوشة فوقه . وحول القبر .. وقريبا منه مقاعد صغيرة وكبيرة يجلس فوقها المريدون كل يوم جمعة يجذقون فى الولى ويدخنون « النرجيلة » ويحستون القهوة التى نعدما لهم قارئة التعاويذ « حميدة مولا » والدة أفندينا .. أما العمامة فقد كانت فارغة من الداخل . وكان المريدون يضعون العملات النقدية الصغيرة بداخلها لكن يضمنوا مساعدة الولى لهم فى شئون دنياهم .. وفى أمرتهم .. ولم يكونوا يهتمون بهذه « التشكيلة » من الأشياء التى يتوسل من أجلها المسيحيون إلى قديسيهم . فبحسبهم فى الدنيا والآخرة . طعام حديد .. وامرأة جيدة .. وشجاعة جيدة ! ومن ثم كانوا يقذفون داخل العمامة بهديايم طلبا للشفاعة ..

وفى كل صباح . وعندما تشرق الشمس . كان أفندينا يجلس فى الساحة وقد شبك ساقيه ووضع فوق ركبتيه مصحفا شغما وأخذ يهتز إلى الأمام وإلى الخلف حتى يصميه الدوار .. ثم يبدأ فى الترتيل . وإذا أحس بالبرد نهض واقفا وبسط ذراعيه ودفن رأسه فى كتفيه وبدأ يرقس مثل الدراويش وهو يصغر ويصق ويدق بقدميه حتى يسرى الدفء فى جسده . فإذا انتصف النهار واستبد به الجوع أخذ يجرى كالمجنون من طرف الساحة إلى طرفها الآخر وهو ينفث مثل الكبر وقد تصبب عرقه وهو لا يضع

فوق جسده سوى عمامته وسرواله ، وتجمع الجيران ليشاهدوه عن كثب من خلال النافذة المطلة على الشارع ، بعضهم يضحك ساخرا منه ، والبعض الآخر يشفقون عليه ويقولون : « بحق الله يا أفندينا .. ماذا دهك ؟ » .. فكان يجيبهم على الفور : « أحس بلهيب داخلني يا جيراني » .

وعندما كان يتوك مكانه لأمه العجوز ويتطلق إلى الخارج ، كان الأطفال اليونانيون يقدفونه بالحجارة فيطلق اساقبه العنان محاولا أن يقفز من فوق ميزاب إلى آخر فلا يقدر ، فقد كان الشارع يبدو أمامه وكأنه يود لو استطاع أن يقفز إليه ولكنه لم يكن يجرؤ على ذلك ، فكان يتراجع مرتعشا عاجزا عن السباحة .

وكان الكابتن ميخائيليس يدعو أفندينا كلما أعد لجلسة شراب ، فقد كان يحب أن يضم إلى مجلسه سقطا تركيا ، وكان أفندينا يستقبل الأبناء في خوف وتشفق معا ، فقد كان يعد الشهور التي تمر قبل أن يعود إليه « شاريكوس » وهو في « التكية » ليهمس في أذنه : « تحيات عمي الكابتن ميخائيليس » وهو يزوجك أن تذهب إليه في القبر .

وطوال العام كله .. كان « أفندينا » يتحرق شوقا إلى لحم الخنزير والخمير الأبيض والمقانيق والخمر ، ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يسمح له بأن يشرب الخمر أو يأكل لحم الخنزير ولا أن يرفع بصره إلى عيني امرأة ، ولو أن ذلك حدث .. لأصابته الرعدة جسده .. وقد حدث مرة أن كادت له واحدة من هؤلاء النساء الصغيرات .. فنظارت بانها وقعت في غرامه ، وساعتها ، ارتضى هو فوق الأرض وقد علا الزيد فمه .. ولكن متممة واحدة فقط بقيت له في ندياه ، متممة تحمل معها الشطينة ولكنها متممة ثمينة . دعوة الكابتن ميخائيليس له كل ستة أشهر ليشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير وليعلا كيانه الهزيل للأشهر الستة القادمة ، وقد تعود أن يقول له في كل مرة : « بحق ما أؤمن به يا كابتن ميخائيليس ، هددني ضح سكيننا فوق عنقي وضع في وجهي ، التهم لحم الخنزير وحب من هذه الخمر أو افكك ! اجبرني على ذلك يا كابتن ميخائيليس حتى لا أكون قد ارتكبت خطيئة ، وهكذا ، كان يأكل ويشرب ويمارس كل كفر وتجديف حبس بعيدا عنها في الأشهر الستة الماضية كذلك فقد كان يكشف ما كان يعرفه عن « جاره » - وهكذا كان يسمى « القديس ميناس » فلم يكن يفضلها عنه

سوى حائط . وكان بمقدوره أن يراه كل ليلة يخرج من الكنيسة منطويا سهوة جواده فيفتأبه الذعر ويدفن رأسه في الوسادة حتى إذا أصبح الصباح سرق الزيت من مصباح جده ليعلا به سرا قنديل « القديس ميناس » المسيحي .

وطوال ستة عشر يوما في العام ، كان أفندينا يشرب ويكفر في قبر « الكابتن ميخائيليس » كرجل حقيقي . ثم يبدأ ذهنه في العمل مثل الساعة فلا يحس باللهيب داخل جسده ، ويظل يقفز من رصيف إلى رصيف بلا خوف ، ولكن الأيام الجميلة كانت تمرق مثل البرق .. لتعود إليه الولاية والتضحية مرة أخرى !

وطوال الليلة الماضية أعجزته سعادتته عن النوم ، فقد قام في الظلام وانسل إلى الفناء حافي القدمين وفتح الباب في هدوء حتى لا تسمعه أمه . وانطلق خارجا ، وسار مستترا بسور « القديس ميناس » وأجتاز المدرسة اليونانية حتى وصل إلى مسجد « سانت كاترين » ، وهناك .. توقف ، وأحس بعرق بارد يتساقط من جبهته ، إن عليه الآن أن يعبر الطريق إلى الرصيف الآخر ليستدير متجها إلى بيت « الكابتن ميخائيليس » وقدم رجلا .. ولكنه مألوف أن آخرها وقد بدأت تستبد به الرعدة ، لم يكن ذلك الذي أمامه شارعا ، ولكنه كان مياه عميقة تدير في دواماتها صنغورا مناشرة وهي تجري هادئة في طريقها مابين الرصيفين .

واستند أفندينا إلى الحائط ، ومسح عرقه وظل يحدق في الشارع : إن يور بي الآن شخص ما - تركيا كان أو مسيحيا ، أو حتى يهوديا - لكي يشفق عليّ ؟ .

وظل أفندينا ينتظر لاهت الأنفاس ، هناك على الطريق الآخر للمشاة .. يوجد النبيذ ولحم الخنزير والمقانيق ، تشجع يا قلب ، قفزة واحدة !

ومرة أخرى هيا نفسه لكي ينطلق جريا ، ولكن ما إن انحنى إلى الامام حتى رأى الشارع يرتد وينكسر إلى الخلف ، فعاد يلوذ بالحائط .

ومن فوقه بدأت منڈة القديس كاترين تومض متوهجة فقد ادركت أشعة الشمس بالفعل عتبات البيوت وبدأ فون « تولوباناس » يتسبع ورائحته ، وناحات من كنيسة القديس ميناس ترتيلات غدبة عالية .

أما من مسيحي واحد في طريقه إلى الكنيسة يمر بهذا الطريق ويرحمنا ؟ أما من أحد يمر بي ؟ أصبح العالم مهجورا ، وأى صحراء هذه ياترى ؟ .. لقد انتهيت .

وفجأة صاح وهو يرتجف أيها المسيحيون النجدة !

وفتح باب في مواجهته ، باب مرتفع مزين بقارح برنوزي ثقيل ، ويرزمنه السيد ، شاريلوس ليونداراكيس ، السراف الجشع - القزم ذو الأرداف الثقيلة واللحية الوحشية والأصابع القصيرة التي يكسوها شعر كثيف ، كان ينتحل حذاء سميك النعل ، ويرتدى سترة قصيرة في لون القهوة ويمسك بعضا مقبضها فضي على شكل رأس أسد ، كان شاريلوس ليونداراكيس ، ينتمي إلى إحدى عائلات البندقية ذات المكانة والتي أصبحت من عائلات كبرى ، وكان لأسلافه علم عليه رسم أسد ، كما كانوا يحفرون نفس الرسم في قصورهم .

كان في طريقه إلى الكنيسة ، ونظر إلى أفندينا وبدأ يضحك في سخوية كان يجب رؤية المخابيل والمجدومين والعميان والشحاذين ونوى الحظوظ السيئة ، فقد كان ذلك يبعث الإرتياح إلى قلبه بسبب منظره هو نفسه ، وصاح :

.. أفندينا ، تشجع أيها الأحق المسكين ! افقر ! ..

وصاح الرجل المسكين :

.. ألا تخش الله يا مستر شاريلوس ؟ بحق هذا اليوم الذي يشرق علينا الآن إلا اقتربت ، اد إلى يدك وساعدني على العبور ! أريد أن أتذهب إلى بيت الكابتن ميخائيليس فلا أستطيع .

وبرزت من الباب فتاة ذات شفتين معتكلتين ووجه صغير أسود ، وكان شاريلوس ، يعارس معها الحب ويصعد فوق مقعد صغير حتى يستطيع أن يقفز إلى فراشها ، وفي إحدى الليالي قدمت له إحدى نساءها :
.. سيدى ابتلع كل صباح (على الريق) بيضة طازجة .. ابتلعها والله يساعدك .. وهكذا ، كان القزم الصغير يتبع كل صباح بيضة .. لكي تبعثه قويا !

وقالت الفتاة الخبيثة وهي تدس بيضة في يده :

.. سيدى لقد نسيت البيضة ! لقد باضتها الدجاجة الآن فقط ! ..

وأخرج ، شاريلوس ليونداراكيس ، مدية الجيب الصغيرة ، وأحدث أفندا بالبيضة من أحد طرفيها وثقيا في طرفها الآخر ، وأحس عنقه الفصير الذين إلى الخلف وابتلع البيضة .

وصرخ أفندينا من جديد :

.. ساعدنى يا سيد شاريلوس إذا كنت تؤمن بالله ! ..

وضحك القزم الصغير وقال وهو يداعب عصابه :

.. سوف تعود فتأكل لحم الخنزير يا مسكين وتدنس نفسك ! ..

.. سأذهب حتى لو تحطفتني الشيطان ! مسكين أنا ! لك هي المتعة الوحيدة لي في هذه الدنيا ، وسوف تكافأ على مساعدتى ، مد عصبك يا سيد شاريلوس حتى أمسك بها ..

وأشفق الله على ، أفندينا ، فقد برز من الناصية عجوز أقرع ينتعل فدفا ، قادمة من الحديقة العامة حاملا في يده حرارة ملأى بالفت البرى ، ومد ، أفندينا ، ذراعيه وصاح :

.. يا عزيزى على أغا .. يا عزيزى على أغا ، أنت رجل طيب ومسلم صادق ! إن أمامى ماء كثيرا وتارا مستعرة ! خذ بيدي خلالها ! ..

ودون أن يتنطق بكلمة ، أخذ الرجل طيب القلب بيد ، أفندينا ، وقاده في بطنه وحرص إلى الرصيف الآخر ثم استدار إليه ليقول شيئا ، ولكنه فكر جيدا - ماذا ترى يقول له ؟ وضع الفرازة تحت ذراعه ومضى في طريقه ، ماذا يمكن أن يقول له ؟ إن الله رحيم .. رحيم وقوى .. وقادر على أن يجعل الخنزير إلى حمل داخل الفم ويخيل الخمر إلى ماء .. إن الله يفعل مايشاء .. كل واشرب يا أفندينا وثق بالله ..

وعندما وصل ، أفندينا ، لاهنا إلى بيت ، الكابتن ميخائيليس ، كان كل سيوفه قد نزلوا إلى عرين الأسد .. وكان ، شاريتوس ، يروح ويجه بين الملبغ والقبور يبحث عن المشهورات ، وارتعشت خياشيم ، أفندينا ، في شفق ، وتناهت إلى سمعه أصوات الأكواب الزجاجية من تحت الأرض .

وتسلطت إلى خياشيمه رائحة المقاتق ، فاستمدت إلى الباب حتى لا يفسى عليه ا ولحظتها خيل إليه انه يسمع صوتا : « يا أفندينا روث الخيل ! اتبع روحك مقابل لقمة من لحم الخنزير ؟ تذكر مكة . والصحراء ، والجمال والبخور والحجر الأسود .. تذكر جدك الذى طالما اذن فى الناس بالصلاة من المائدة اياما وليالى طولها وهو فى حيايم دائم لا يأكل ولا يشرب . وتذكر رقدته الآن فى وسط كهف من نور يجرى امامه نهر من لبن وقشدة .. أنت من عائلة كلها اولياء صالحون ، لاتنس ذلك ، يا أفندينا روث الخيل ، أنت ماض هذه الساعة إلى الجحيم ، ولكن الباب لا يزال مفتوحا .. فاهرب ! ..

وارتمش ، أفندينا ، واتجه بصبره إلى باب الخروج .. ثم إلى باب القبو حيث تخرج رائحة المقاتق .. وما أن بدأ يتخذ قراره ، حتى خرجت « كاترينا » إلى سحن البيت ورائته فقالت :

« أهذا أنت يا أفندينا ! أنزل بسرعة حتى لا تندم » .

« هل الطعام جاهز يا سيدتى كاترينا ؟ » .

« نعم .. أسرع » .

وغمغم « أفندينا » :

« هذه مشيئة الله ، هو سبحانه أرسل إلى السيدة كاترينا ، فلا ينبغي لى بعدها أن أقاوم : المقاومة الآن خطيئة كبرى ، افاعصى الله ؟ يا الله .. يا الله .. انى اتوسل إليك أن تنعم على بنعمة واحدة : دعنى أرتكب كل الخطايا ، ودعنى ايضا - انا المسكين - استمتع بهذه الدنيا فوفى . وقيل أن يدركنى الموت بنصف ساعة فقط ، امتحنى الوقت كىما أتوب إليك ! ألا تكفى نصف ساعة ؟ إنها تكفى ولاشك .. اتوسل إليك ! ..

ثم ففز ودفع الباب الصغير وهبط إلى القبو ..

جلس الكابتن « ميخائيليس » فوق مقعد مرتفع فى مواجهة الباب وقد بدا وجهه غائبا غارقا فى سحابة من دخان سيجارته . وقد تدلى سوطه من مسمار بالمناط فوق رأسه ، وإلى اليمين واليسار منه مقعدان طويلان جلس فوقهما أربعة من ضيوفه : « فيندوسوس » ، و « كارجابيس » إلى ناحية .

و « فورديجاتوس » ، و « بيثروفيلوس » فى الناحية الأخرى . و فوق المائدة المرتفعة كانت المشهيئات لاتزال يتبعث منها بخارها . وكانت الخمر تتلالا حمراء قانية كالدسم فى اكواب ضخمة . وكان « فيندوسوس » قد استند فينارته إلى ركبتيه وقرب منها اذنه وهو يشبط اوتارها بينما تشر « بيثروفيلوس » فى عيامة مرتعشا سعيدا فى حماية « فورديجاتوس » - وهو يأكل بلا توقف . اما « كارجابيس » فقد كان يأكل ويشرب .. ويفكر فى روجه ..

وظل الكابتن « ميخائيليس » يملا كوبه مرة تلو الأخرى ويشرب دون أن ينسح الخمر اذنى متعة . كان يكرهها ، وفى كل مرة كان يرفع كوبه إلى فيه فيصن أن شفطيه تقارمانه ويرفضان . ولكنه كان فى كل مرة كان يفرغ الكوب فى معدته على الرغم منه ليضمد هذه المرءة التى تليست . والنس كانت هى الأخرى تخلف الخمر . كانت مرءة من اصوات وحشية ، أكثرها ليست اصوات بشر ، بل اصوات وحوش ترار بمجرد أن تتفتح العنابريس بداخله وتدع الخيالات القديمة تغفر أمام ناظره ، نمر ، وذئب ، وخنزير برى ، ويدهم جميعا اجداده الذين يكسو الشعر اجسادهم .. خارجين من أعناق كهوف « بسيلوريتيس » .

اما الآن ، فقد كان هناك مارد من نوع جديد يعلن عن نفسه فى أعماله . لم يكن يجاز كغيره .. ولم يكن يهدد ، بل كان يضحك ، ولم تكن انفسه منتنة ، ولكنها كانت عذبة ، ولأول مرة أحس « الكابتن ميخائيليس » بالخوف فظل يملا كوبه ثم يعود ليملا .. ويشرب .

وعندما انتسق الباب مفتوحا ، وظهر « أفندينا » ، رفع « الكابتن ميخائيليس » رأسه بينما فرك « أفندينا » يديه فى ذهول وهو يخطو خطوة إلى الامام دون أن يهبط الدرج كله ، وهربت منه الكلمات وسط اضطرابه ، كان يريد أن يقول : « تحياتى يا كابتن » ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بها فقد تلعثم .

ورفع « الكابتن ميخائيليس » يده وأشار إلى مقعد منخفض فى مواجهته وقال « اجلس ! ..

وسأله « فيندوسوس » دون أن يرفع اذنه من فوق فينارته :

« ماذا تريدنى أن أعرف يا كابتن ميخائيليس ؟ » .

وكان « فورجاتوس » قد نهض واقفا وأزاح المقاعد جانبها ليهيئ لنفسه مكانا . كان متلهفا على أن يبدأ . وكان يحس كما لو أن نعليه يعتوقان ويغدغانه . ربما كانت الخمر تؤدى بالآخرين إلى الغناء أو المزاح أو حتى النكاه أو النعاس . ولكنها كانت تدفع هذا الرجل الطويل الغليظ « فورجاتوس » .. إلى الرقص . كان يشرب . ثم يرقص فيعود إلى وعيه . ولكنه في الحقيقة لم يكن يعود إلى وعيه . كل ما في الأمر أن حالة السكر كانت تأخذ شكلا آخر : كانت تتحول إلى محاولة يائسة غير مثمرة لمنع جسده جناحين ليظهر بهما القوانين التي لا تقهر .. ولم يكن يستطيع . ومن ثم فقد كان يعود إلى الشراب ليتزود بقوة جديدة تساعد على التحليق .

وأجال الكابتن « ميخائيليس » بصره في ضيوفه الخمسة : لا الغناء ولا الرقص ولا القيثارة يمكن أن تخفف ما يقليه اليوم . واستقرت نظرته على « افندينا » .

وصاح « افندينا » محذرا :

« سيدى . لا تطلب منى أن أبتسم وأرتكب اللبس . هددنى أولا .. أجبرنى على أن أفعل ما هو ضد رغبتى فأكل والشرب . وبعدها ستكون لدى الشجاعة ! »

ولكن « بيترودولوس » وقد أكل وشرب وواتته القوة تدخل وقال في صوت كالثغاء :

« أيها النبيل كابتن ميخائيليس . هل لى - لكى نقطع الوقت - أن اهنى لك حكاية قديمة مشهورة من قصص البندقية . لقد رأيتها بعيني رأسى وأنا فى الشرفة . ومنذ ذلك الحين لم يقر لقلبي قرار . ما أقل عانسيت مرارة الحياة . لأننى كنت دائما أحمل فى مخيلتى صورة ابنة هذا الرجل النبيل .. التى قتلت قتلة فاحشة .. صورة ديدمونة .

وسأله الكابتن ميخائيليس وقد نوى ما بين حاجبيه :

« من ؟ »

« ديدمونة يا سيدى الكابتن المحترم . ابنة هذا النبيل من البندقية . ألم تسمع عنها ؟ لقد أحبها بربرى . كان جنديا عظيما . ولكنه كان غيبورا

دقلها بلهبى الحب . تناول مندريلا .. »

ورفع الكابتن ميخائيليس قبضته ليوقف القم الذى جالته العار . وقال :
« بمحضرى . لن يكون هناك حديث عن النساء يا بيترودولوس .

وتنفس وجه « بيترودولوس » . واحتبست الحكاية الليتيسية فى حلقه ورفع « فيندوسوس » قومه ذا الجرسين فى الهواء وتسامل :

« ماذا إذن ؟ »

واستند الكابتن ميخائيليس إلى السائط بكل ثقله وقال :

« اعرف ما شئت بحق الشيطان ! »

وأفرغ « كاجابيس » كأسه ومسح شفثيه . ورفع « فورجاتوس » قدمه اليمى وقد ثبت عينيه فوق القيثارة .. وتهايا للتحليق ..

ولكنه لم يحلق . فقد اهتز البيت وه ططقت « الجدران وقبض « بيترودولوس » البرميل خلفه بقوة على لا يسقط .. بينما هوت صفوف السفرجل والرمال والشمام المرصوفة فوق الأرفق .. هوت إلى الأرض وتدرجت فى كل مكان وقفزت حتى وصلت إلى مستوى المائدة ..

وصاح « فيندوسوس » : « زلزال ! » واندفع بزيد الضوئ إلى العراء . بينما كان « كاجابيس » قد عد يده نحو الباب وفكره يعود نحو الميناء .. نحو كوخ متواضع . يبحث عن « جاروفاليا » . أما « افندينا » فقد سقط على أنفه فوق الأرض وهو يحاول أن يتشبث بشىء ..

ومن أعلى . ثبأت صرخات امرأة ووقع أقدام . واضطراب وانتحب « فورجاتوس » وهو يصرخ :

« بحق الله ! .. افتحوا الباب لتخرج ! .. »

ولكن « الكابتن ميخائيليس » جذب السوط من فوق رأسه وصاح :

« ألا تخجلون من أنفسكم ؟ »

ووجد « فورجاتوس » فى نفسه شجاعة ليقول :

- ولماذا نخجل ؟ إنه زلزال يا كابتن ميخائيليس - إنه ليس بشرا
تستطيع أن تتغلب عليه !

وبيئنا هو يقول ذلك قرقعت من باطن الأرض أصوات بعد كأنها خوار
ثور ، وبدأت أجراس القديس ميناس ، تنق دقاتها المألوفة .

وصاح « بيرتودولوس ، وقد لف رأسه بعباءته :

- « الشجدة يا قديس ديونيسس ! لنا الكونت مانجيافينو ! »

وفرغع « الكابتن ميخائيليس ، بسوطه في الهواء وصاح :

- « لا أحد يتحرك ! ارفعوا أفئدينا من فوق الأرض وأسندوه إلى
البرميل »

ثم جذب العبائة عن « بيرتودولوس » وهو يقول :

- « ليس الزلزال شيئاً ذا بال يا بيرتودولوس ، كريت شيء حى ، وهى
تتحرك ويوما ما سوف أرى كيف تجد طريقها لتتربط باليونان »

فجأة اعتدل مزاجه وتكلم ، كان لا يزال صبيبا يوم خرب الزلزال الكبير
نصف قريته ، ولقد رأى يومها النساء والرجال أيضا حيارى يصرخون
ويصيحون .. ويدفنون تحت أنقاض بيوتهم .

أيوه « الكابتن سيفلكاس » وهو وحده - وبدون أن ينطق بكلمة واحدة -
رفع ذراعيه ويديه ليدعم إطار باب البيت ، وظل رافعا كوعيه عاليا حتى
استطاعت زوجته وأطفاله وزوجان من الأبقار وفرسهم الرمادية أن يجتازوه
إلى الخارج ، ويعدعا قفز هو قفزة واحدة ليلحق بهم ، ثم انهارت جدران
البيت ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد « الكابتن ميخائيليس » يخشى الزلازل ، فقد
أدرك أن الرجل الحق يمكن أن يسيطر عليها ، وملا الأكواب ، وشربوا ،
وعادت قلوبهم إلى أماكنها .

أما هناك على السطح فوقهم ، فقد اندفعت الجارات خارج بيوتهن
يصرخن ، حتى « أركوندولا » - هذه العجوز « الناشفة » الحامضة -
خرجت إلى الشارع هى وشقيقها الأصم الأكم فى ذراعيها ، كانت هى
الأخرى قد اختلطت بجاراتها وأصبحت واحدة بينهن ترتجف وتصرخ كما
لو لم تكن تنتمى إلى أسرة ذات مكانة .

وكان المطران فى تلك اللحظة يقدم عظمة داخل الكنيسة ، وقد تحدث
فى البداية عن الرب ، ثم مالبت خطابه أن انصرف فترك السماء لحالها
وهبط إلى كريت ، ووقف الكاهن أمام عرشه المموه بالذهب وحلق صوته
المسيق تحت القبة المرسوم عليها صورة السيد المسيح وهو يحدث فى
خسب ، ومن هذه الصورة كان الصوت يستمد قوته ثم يهبط ليدوى فى
أرجاء الكنيسة بينما كان المسيحيون يفتريون أحدهم من الآخر كما لو كان
هو حقا السيد المسيح يبعث إليهم صوته من أعلى الكنيسة ، ويحتون
رؤوسهم وهم يرتعشون .

قال الرجل المعجوز :

« يا أولادى ، الآن يجىء الصيام الأكبر ، وتقرب الأم المسيح ، ولابد
أن يسيطر الخوف على الإنسان ويركز أفكاره فحسب فى ذلك الدم الذى
أربق فوق الصليب ، سامحنى الله ! .. إننى أتحدث عن الأم المسيح بينما
أنا أفكر فى كريت » ..

ورفع يديه إلى قبة الكنيسة حيث صورة المسيح ، وصاح :

« كم مرة .. وكم جيلا .. وكم ألفا من أبناء كريت مثلى ، رفعوا أيديهم
إلى السماء صارخين ، (حتى متى يا إلهى .. حتى متى ؟) نحن لسنا
حجارة أو خشبا مسندة يا إلهى ! نحن أرواح .. أرواح أنت وهبتنا إياها ،
نحن رجال ونساء ، فإلى متى إذن تهرق دماء كريت ؟ إن البحر كله ابتداء
من شواطئ كريت حتى Hellespont حتى القسطنطينية .. أحمر
اللون » ..

وتأمل ماحدث بعد ذلك .. بينما كان الرجل المعجوز يقف منتصبا محذفا
فى القبة ، وبينما رأى الصمت لحظة كما لو كان الجميع فى انتظار
الاجابة : اهتزت الكنيسة كلها وترافقت الأضواء ودقت الأجراس دون أن
يلمسها انسان .

وارتفعت الصيحات « زلزال ! زلزال ! » وهزعت النساء من الجانب
المخصص لهن فى الكنيسة وتزاجعن ووطأن بأقدامهن الواحدة الأخرى
مندفعات نحو الأبواب ، ووقف المطران جامدا مذعورا بلا حراك ، وهو
لا يزال يحدث فى صورة المسيح ، بينما اندفع « موزوفلوس » نحوه والقى

ذراعيه حوله واتجه به بعيدا عن عرشه خلال باب جانبي يؤدي إلى ساحة الكنيسة ، ثم ربت على كتفيه في ود وهو يقول :

« لا تخف يا سيدي ، إنها هزة أرضية وستنتهي » .

وغمغم المطران وقد امتلات عيناه بالدموع .

« لقد أخطأت يا إلهي ، لقد أخطأت ، فبدلا من أن أتحدث عن الامم تحدثت عن كريت » ..

أما الكابتن « بوليكسيجيس » ، فقد كان يسير وسط الحى التركي ، وبينما كان المسيحيون يؤدون صلواتهم كان هودق تهبيا للخروج ، حليقا ، قد بلل شعره بكثير من ماء اللاوندا ، وفوق راسه طربوشه المائل إلى جانب . كان يسير وحده وحداؤه يترجأ لأمس الأرض ، ويحس داخل جسده بسعادة غامرة ، كان في قمة قوته .. مثل حصان .. مثل ثور يجوس خلال البقول في الربيع .. كانت كل أعضائه تعمل بلا أدنى صوت : قلبه .. معدته .. وأمعائه .. كانت كلها تؤدي وظيفتها دون أن تتشاجر أحدها مع جارتها ، وكانت جميعا - في طاعة وروح جماعية سعيدة - تكون بناء الكابتن « بوليكسيجيس » .

وغمغم يقول لنفسه :

« إنه لمؤسف حقا ان الشباب في الكائن البشرى لا يدوم ألف سنة ! أيمن أن يكون السبب أن الله يخشى أن يأخذ منه عرشه ؟ لهذا السبب يا ترى يجرينا في حذق من أسلحتنا .. قطعة قطعة ؟ فهو يخلع أسنانتنا ، ويؤايب مفاصلنا ويضعف كواتنا ويلقى العتامة فوق عيوننا ويجعل ألونفا وأقواها تقطر الرجل والبصاق ... إن الموت لا يقلقني ، يحق روحي إنه لا يقلقني ، فهناك شيء ينبغي أن يقال في حصد التغلب تماما على هذا اللقح ، ولكني لا أطيق صبرا على أن أتخدر شيئا فشيئا لأصبح مجرد صورة »

كانت العبارة الأخيرة لاززال معلقة فوق شفتيه عندما بدأ الحى التركي يتكلمه بترنج .. وتهافت الأبواب وارتفعت صرخات النساء معترجة بطرقة الكتل الخشبية في أفنية اللبور ، وبرزت « روهيني » .. المرأة البربرية من إحدى النواصي وهي تصرخ « الرحمة يارب ! » ، والصنيئية المستديرة

« أخرج فوق رأسها والكعب المعزج بالسسم ينساق من فوقها إلى الأرض ليخسطن بالقاذورات والروث .. »

وواعد الكابتن « بوليكسيجيس » ، ما بين قدميه ليقف ثابتا فوق الأرض فلا يسقط ، بينما استند على جدار - شاء حظه أن يكون قريبا من منزل « نوري بك » .

انكسى وجهه بهرق خفيف وغمغم « والزلازل ! » ، إنه يستطيع أن يواجه أي شيء - المرضى والاعداء .. والنساء ، ولكن كيف يمكن أن يواجه والزلازل ؟ - فكيف له أن يعرف ما سيفعله هذا الزلزال ؟ وشحب وجهه ودار حول نفسه وأدرك أنه كان يقف أمام الباب الأخضر لبيت « نوري بك » وكان في مقدوره أن يسمع الأصوات المذعورة بداخله .. فأرهب أذنيه وانتظر : هل ستشق الأرض وتبتلع الناس أم أن ذلك كان مجرد موجة زهر وتنتهي ؟ « ميغالوكاسترو » كلها .. انتظرت حابسة الانفاس .. حتى الكلاب التي كانت قد بدأت تتجج ، سكنت ذبولها وانتظرت هي الأخرى وقد قف شعرها ، وبدأ ينتشر ضوء أصفر معتم بينما تناهت من تحت الأرض أصوات كأنها دفخ في مزمار ، ثم مالبت البيوت أن اهتزت مرة أخرى وتأرجحت المآذن مثل أشجار السرو ، وانهار الجدار الذي كان يستند إليه الكابتن « بوليكسيجيس » ، وتناهت من داخل منزل « نوري بك » أصوات تكسر الزجاج والأطباق والمصاييح وهي ترتطم بالأرض وتتدحرج فوقها وتتخطم .

ونجاة .. فتح الباب الأخضر ، واندفعت من خلاله « أمينة هانم » تصرخ ، وقد خرجت مسدلة الشعر حافية القدمين ، ثم سقطت مغشيا عليها وسط الشارع وخلفها خرجت المرأة البربرية المسيحية وهي تحمل لها شيشيها الأحمر الصغير ، وانصتت المرأة فوق سيدتها ونادت عليها ، وأكر « أمينة هانم » ، ظلت ملقاة فوق الصخور ورأسها مائل إلى الخلف أبيض مثل الشمع .

وانسورها الكابتن « بوليكسيجيس » .. وغمغم « أمينة هانم ! » ، ثم ابتعد عن الحائط واقترب منها فما لبث أن أحمر وجهه الشاحب ، فطالما التفت إلى أن يرى هذه المرأة الشركسية المتوحشة .. وما هي ذى ملقاة لدهاء .. فلماذا يهجم الآن من الزلزال ؟ - يشعروا المسدل وقدميها العاريتين .. تماما كما تعنى أن يراها من قبل ..

والحنى نحوها في شغف ، ولكن المرأة البربرية أمسكت به في عنف
ورفعته بعيدا وصاحت متوحدة :

« لا تقترِب ، فهذه زوجة نوري بك ! » ثم جذبت بعنف وشاح سيدتها
لتغطي به وجهها ..

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » :

« إذا لم تشم ماء اللولدا فسوف تموت هذه المسكينة ..

ثم أخرج من جيب صدره زجاجة عطر صغيرة يحملها دائما ، ففتحها
وأمنى فوق ركبتيه وقربها من فم المرأة الشركسية .

وكانت الأرض قد عادت ثابتة كما كانت .. وبدأ قلب « ميخالوكاسترو »
يدق من جديد دقاته العادية . كما وجدت الكلاب هي الأخرى في نفسها
الجراء لكي تعود فتنبح في وجه الزئزال !

وتنفست الشركسية بعمق ، وفتحت عينها فأبصرت رجلا لا تعرفه
ينحني فوقها فصرخت وهي تغطي فمها بكفها يديها .

وقالت المرأة البربرية للرجل :

« ابتعد ! .. ابتعد عن هنا إذا كنت تهتم بحياتك . فسوف يكون نوري
بك هنا في لحظات ..

ولكن الكابتن « بوليكسيجيس » كان يهدق في عيني الشركسية . كيف
يستطيع أن يقرر الآن ما إذا كان يفضل الموت أو الحياة ؟ كانت العينان
السوداوان في البداية قاسيتين مليئتين بالاحتقار . ولكن الشركسية مالبت
أن لا تلت في بطنه وهي تدع أنفاس الرجل الثقيلة ورائحته النفاذة تهوم
فوقها . ثم استدارت نحو خادمتها وسألها :

« من يكون هذا الكافر ؟ »

وأجابها هو بنفسه :

« الكابتن بوليكسيجيس .. خادمك يا سيدتي .. احتفظي بهذا العطر
حتى تذكريني .. »

وإن المرأة الشركسية قذفت بالزجاجة في وجهه وتهضت واقفة وقد
عادت عينها غاضبتين مرة أخرى .

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يتنهد :

« سوف أمضى .. لا تعضبي .. وهنا .. قالت المرأة الشركسية في
احتقار : « خائف ؟ » ..

« ممن ؟ »

« من نوري بك . »

« أنت ياسيدتي .. الإنسان الوحيد الذي أخافه ، وإذا أنت طلبت مني
الآن أن أقتل نفسي . فسوف أفعل ولا أقترب منك مرة أخرى ..

ولكنه خشى كلماته ذاتها .. فردها إلى صدره ثم قال في جراءة :

« إذا كان هناك اله في السماء . فسوف اقترب منك يوما ما يا أمينة
دام . يوما ما ، سوف اقترب منك ، ولين هذا العالم كله ! ..

وتحصته الشركسية بعينين غاضبتين نصف مغلقتين ، كما لو كانت
تسأل أن تقيمه ، كما لو كانت تقيمه قبل أن تشتريه . ووقف الكابتن

« بوليكسيجيس » في ثبات وقد وضع يده اليمنى فوق زناره الحريري ..
وانتظر ..

وقالت الشركسية وهي تغطي وجهها بوشاحها بلا عجلة :

« إن إلهي يرى اليونانيين أشياء تثير الاستمزاز ..

ورد الرجل :

« إن إلهي يحب النساء الشركسيات .. وهو عظيم قادر ..

وتناهت إليه أصوات « فاستدار ورأى رجلين تركيين يبرزان عند إحدى
الدواصي .. وفتحت أبواب .. وأحاطت المرأة البربرية سيدتها بذراعها
واسرعت بها داخل البيت ، وأغلق خلفها الباب الأخضر .

وتهبأ الكابتن « بوليكسيجيس » للسير . ولكن ركبته كانتا

كالمشلولين .. وضغف يقول : « لقد انتهيت .. انتهيت .. تماما كما لو كنت لم أقبل امرأة أو عرقت اللهب أو لعست امرأة .. من لى الآن بنار اقتحمها لكى أبرد الآن جسدى ؟ » ..

وتلفت حوله .. وأحس بالنشوة .. وأحس بأن الشوارع قد اختلفت صورتها وبأن الوجوه قد تغيرت .. وبدت « ميجالوكاسترو » تحت قدميه كشبكة مرقشة لاصطياد طيور النمل .. رسمت فوقها بيوت ومآذن .. وحدائق وبيجار ..

وسار فوق الشبكة .. ومضى إلى بيته وقد استبد به القلق .. وعندما أصبح عند مدخل البيت اندفعت إلى ذراعيه شقيقته السمينة الأسفنجية وهي تمسح : « الزأزال ! .. » .. وجسدها يرتعش .. وهي تنتظر كلمة طيبة من شقيقها ..

ولكنه أراحها جانبا وطوح بطربوشه فوق الأريكة وهو يمس بأن البيت قد أصبح شيقا .. لا يتسع له ..

كان الحفل داخل القبو قد تقدم كثيرا ! فعند بداية المساء تسللت « رينيو » لتتظر من خلال ثقب فى الحائط وترى حال ضيوف أبيها المحققى !

كان « فورد جانتوس » قد خلع حذاءه : كانت قدماء قد التهمت ، فقام يرتص وحده وقد أعماه السكر وتملكته روح شريرة .. وأخذ يخطب السقف برأسه فى قفزاته العالية ، والدماء تسيل فوق أذنيه وعنقه وهو ماضى فى سعادة .. يتابع رقصته ويقفز .. أما أفندينا فقد نسى كل شيء عن العار والتجمل .. وخلع عمامته فبدت القرحة فى رأسه بيضاء ناصعة .. وانحنى فوق اليرميل الأوسط حيث انحنى « كاهابيس » هو الآخر وقد زين رأسه بأوراق الخرشوف .. وكانت لاززال هناك يضع بيضات فى الطبق الفخارى يرهق « فيندوسوس » أعصابه فى بطولة لكى يأتى عليها بقشرها وهو يسعل وعيناه مليئتان بالدموع اثر محاولاته ابتلاع قشر البيض ! « بينما جلس « بيرتودولوس » المسكين فى الركن خلف الأباريق .. وقد عقد سابقه ورعى بمعطفه بعيدا حتى لا يتسخ .. وكان المسكين فى تلك اللحظة يدس أصبعه فى حذر داخل حلقه حتى يتقيا .. وبعد كل دفعة .. يتجه إلى زملائه ويتحنى ليقول فى صوت منغم :

« معذرة يا سادسنى النيلاء .. معذرة .. »

وكانت « رينيو » سعيدة وهي ترى كيف يهين هؤلاء الناس أنفسهم لكى يتلوا أباها .. ثم اتجهت ببصرها إلى نهاية القبو حيث جلس الكايتن « جابلين » ..

كان يستند إلى الحائط فى صمت وقد ألقى برأسه إلى الخلف وهو يهتق فى فراغ .. ولم تكن الخمر قد أحدثت أثرا فيه بعد .. فلم يكن فى حالة سكر .. كما أنه لم يكن يتكلم .. بيد أنه أيضا .. لم يكن مبتهيا .. كانت شفاه العليا فحسب ترتعش قليلا فتبرق أنيابه وسط شعر شاربه المشعث الشفيف ..

وابتسمت « رينيو » .. كانت تحب أباها وتفخر بمظهره الشرس وبصمت وكبريائه وتقول دائما لنفسها : « لو اتنى كنت رجلا لأحببت أن أكون مثله .. وإذا أنا تزوجت .. فأنا أريد رجلا مثله ! » ..

غابت الشمس .. ونسيت « ميجالوكاسترو » أنها تعيش فى لجة فتألفت سعيدة مودعة تحت أشعة الوداع ..

وامتلات « الأتياء الثلاثة » بالناس .. وأخرج الرجال والنساء إلى الشوارع ليترى بعضهم البعض .. تماما مثلما يخرج النمل والديدان من دامن الأرض إلى الشمس بعد انقطاع المطر .. كانوا قد اطلقوا من خطر داهم .. لقد انشقت القبور لحظات تحت أقدامهم .. ونكتها مالميث أن انطلقت .. ولايزالون أحياء على ظهر الأرض .. ويشكروا لله .. كانوا يهينون بعضهم البعض وهم يرفعون قبعاتهم ويتصالحون فى مرارة .. فقد وحدهم هذا المساء حب مفاجيء .. كانوا ينظرون فى رقة أحدهم إلى الآخر وهم « روحون ويجينون ويهدقون فى البحر كما لو لم يكونوا قد رأوه من قبل .. ويتوقفون عند « كثنك » الباشا فى وسط الميدان حيث أزهرت إحدى شجيرات زهر العسل المتسلقة لكى يتشققوا عبيرا وكانما أصابهم الدهول من قرط رقتها ..

« ما هذا يا صديقى ؟ »

« زهر العسل .. »

« اللهم باركنى ! »

وشيئا فشيئا بدأ الناس يتوافدون على المقهى الكبير بعد أن تعبوا من السير هنا وهناك .. بدأوا يتوافدون على مقهى « ليونيداس بابا لاروس » ويصفقون بأيديهم ليهرع إليهم المسافة عراة الأقدام يقفزون كالزناجير ، فيطلبوا منهم شراب الكرز والمياه الغازية وقطائر الصيام وكعك العنب .. وخرج الأطفال الأثراك وفي أيديهم فطائر اليقطينة والياسمين ، حتى « روهيني » ، هذه المرأة البربرية التي تلمع مثل فرس سوداء ، ظهرت هي الأخرى بعدد من الخبز الزجاجي حول عنقها ، ويديها العريضين المتهدلين وقد نطقت « الكعك ابوسمسم » مما علق به من الروث حين سقط فوق الأرض بفعل الزلزال . ظهرت تسير هنا وهناك ضاحكة تتمايل وتتحنن وأسنانها البيضاء الناصعة .. وعيناها الخبيثتان تلمع تحت أشعة الشمس الغارية .

لحظتها قال أبناء المدينة

« ياها من سعادة ! .. ياها من جنة ! وهذه روهيني أيضا .. وكعكها أبو سمسسم » .

وبينما كان المزيد والمزيد من الأماكن القريبة من « ميغالوكاسترو » يتوافدون معا ويخفقون بهجة في « الأقباء الثلاثة » ، بعلايسهم الجديدة . كانت الشمس قد اختفت وراء « ستروميولاس » تاركة وراءها وهجا رقيقا بنفسجيا تمددت تحته معالم وجوه الرجال والنساء .

ترى ، من من أبناء « ميغالوكاسترو » تبحث عنه فلا تجده في « الأقباء الثلاثة » مرتديا ملابس يوم الأحد ؟ بل من من نسائها كن هناك لسبب من الأسباب . فلم تجلس عند مقهى « ليونيداس باربالاروس » لتشتري كعك اليقطينة وتضع عيونها وتتأمل في الدنيا ؟

كان « تيتيروس » هناك مع خطيبته « فانجيليو » ومعهما كانت « كريسانتي » مصففة الشعر مبدرة الوجه تضع فوق رأسها قبعة بمناسبة زيارتها . للأقباء الثلاثة « هي وابنة أخيها وحفيدها الجديد . وكانت تسترق النظر خلسة إلى « فانجيليو » وتبتسم في ارتياح وتقول لنفسها « أنا أفضل منها .. وأجمل .. وعندي شيء يمكن أن يمسك به الرجل . أما هذه المخلوقة المسكينة ! الجلد على عظم ! فسوف لا يجد تيتيروس فيها لهما يمكن أن

دلا نبضته . ولكن ماذا يهتم في الزواج ؟ لدى لخرى - ولست في حاجة إلى مطلق آخر ! ..

وظهر الطبيب أيضا هو « مارسيل » . كان رجلا « عاملا » ذا اكتفاء « أنى » سمينا . يضع فوق رأسه قبعة باريسية جافة . ويرتدى قفازين ويسك بعضا . أما « مارسيل » فقد لطخت وجهها بالمساحيق وبالغت في ثوبه كي تخفى تعاسها .. كما حمرت شفيتها .. وكانت نسوة « ميغالوكاسترو » يتطلعن إليها في سخرية . يا للقناع يا عزيزتى ويا الغرور ذلك ما يستحقه هذا الطبيب المتحذلق ! كان الأجدر به أن يتزوج من بلده الأصلي !

غرق البحر في الظلمة . واختفت من أفقه جزيرة « ديا » . وتهدت نسائم قادمة من الشاطئ تطايرت معها شعور النساء وجملتهن يضعن مراحهن جانبا . ومر جماعة من الصيادين المالمطين ومعهم « الكونسرتينا » * . وقد وضعوا في أذانهم القراطا وفتحوا صدور قمصانهم لتظهر صدورهم العارية كثيفة الشعر التي صيفها البحر والشمس . وكانوا يغنون بأصوات مبحوحة دون أن يستديروا لينظروا إلى نساء « ميغالوكاسترو » . بل ساروا قدما متجهين إلى الميناء حيث تنتظرهم هناك النساء المالمطيات المتعددات وسط حبال الشباك وسلال السمك .

وفي وسط الظلام وجد الصغار الجرة على أن يبدأوا مرة أخرى جولاتهم . ويقربوا من الفتيات ويسترقوا إليهم النظرات وقد ارتفعت فوق وجوههم رياح حب دافئة . وإلى جانب تقع الجبال . وإلى الجانب الآخر يقع البحر الكريتي ومن فوق .. سماء معتمة زرقاء . وفوق كل رأس لشباب أو فتاة لم يتزوجا بعد .. ترقص « فينوس » نجمة النساء بألف العوية خبيثة !

وبينما كان رجال « ميغالوكاسترو » ونسائهما يتجمعون في « الأقباء الثلاثة » كان « تاراسكي » ابن « الكابتن ميخائيليس » وأصدقائه الثلاثة يحثون السير إلى « البيروفولا » . تلك المدينة غير محددة المعالم بلا سياج في طرف « ميغالوكاسترو » . والمدينة بالحصار والحشائش ذات الأطراف

* آلة موسيقية .

المدبية . وكان « تاراساكي » يحمل معه حبالا لفة حول خاصرته .
وه مانوليس « ابن » ماستراباس « يحمل هراوة . وه اندريكوس « ابن
« كراسوجورجيس » يحمل مقرعة .. وه نيكولاس « ابن » فورد جاتوس «
يحمل صفارة .

وقال « نيكولاس » :

« إذا رأينا أباها يخرج . فسوف أصغر لنهرب . »

وسأله « اندريكوس » :

« هل قلت إن بيرفولا تجلس دائما عند عتبة الباب ؟ »

ولم يكن « بيرفولا » هو اسم ابنة « باراسكيلاس » . ولكنه كان الاسم
الذي أطلقه عليها هؤلاء الأوغاد الصغار لأنها كانت سميت غضة دامة
الابنسام .

وقال « تاراساكي » :

« إنها تقف عند عتبة الباب كل يوم أحد بشرائطها في شعرها .
أعطين صفارتك يا نيكولا . وسوف أطلقها عندما تبدأ الهجوم عليها . »

ثم أمسك به وأخذ منه الصفارة وقال :

« أنت تأخذ الحبل . الست أنا الكابتن ؟ حسنا . فلابد أن تكون
الصفارة معي . هيا بنا الآن ! »

كانت هناك بضعة بيوت بائسة متناثرة . تكون الحي غير المطروق الذي
يسكنه فقراء الأتراك والأرمن . وكان الأرمن يطحنون البن في هاونات
خشخمة من الحجارة ثم يبيعونه . وكان الأتراك يعملون بالنهار جمالين
وقملة .

وبدا الاصدقاء الأربعة الذين كانوا يعدون منذ لحظات .. يتحركون في
حذر لمسح الحوائط في صف واحد يقودهم « تاراساكي » بصفارته . وفجأة
توقفوا . فقد ظهرت « بيرفولا » السعيدة الفكهة واقفة إلى باب بيتها
والشريط الأحمر في شعرها الأشقر وهي تمضغ اللبن .

واستدار « تاراساكي » إلى رفاقه وقال هامسا :

« انظروا ! ها هي ذى ! سوف أطلق الصفارة وانذع أنا في البداية .
ليس هناك أحد قائم . »

وتقدم الأربعة قليلا . وظهرت « بيرفولا » المزهرة أمامهم فارعة الطول
سائكة خشخمة . وكانت تدير وجهها بعيدا عنهم تراقب فطنتين تقتتلان في
مسحف فوق الحائط خلفها .

وسار الأرقام الأربعة ملتصقين بالحائط وقد حبسوا أنفاسهم . وجال
« تاراساكي » ببصره في الشارع هنا وهناك . لا أحد ! وضع الصفارة
بين شفتيه . ونفخ فيها ثم اندفع نحو الفتاة وانذع خلفه الآخرون مثل
القط . وأمسك « تاراساكي » بها من جانب بينما أمسك « نيكولاس » بها
من الجانب الآخر . وتشبث « اندريكوس » بقدميها بينما أطيقت « مانوليس »
بيده على فمها لكي يمنعها من الاستغاثة . ولكنها لم تقاوم . ثم مالبت
الأربعة أن حملوها وهم يلهثون بعنف - فقد كانت ثقيلة - دون أن يعرفوا ما
يمكن أن يفعلوه بها بعد ذلك .

وقال « تاراساكي » أمرا :

« هيا إلى البيرفولا . أمسكوا بها بقوة حتى لا تهرب منا ! هيا ! »

ثم أخذوا يتعثرين وهم يندفعون بها من البوابة المحطمة إلى بضع
« ملوات خلفها . ثم وقفوا حولها وهم ينظرون إليها . وكان الشريط الأحمر
قد انزلق فتهدل شعرها فوق كتفيها . بينما تحرق ثوبها من فوق ركبتيها .
وأخذ صدرها يعلو ويهبط في عنف تحت المشد الشفاف . كان الذعر قد
سلكها في البداية . أما وقد عرفت الآن من الذي فعل ذلك بها فقد بدأت
تدهن . ثم تعددت فوق الحشائش وهي تنظر إلى الصبية بعين متحدية
مسح مغلقة .. وانتظرت ..

وأخذ نيكولاس يتحسس في إمعان بيرفولا الممددة من قمة رأسها إلى
أخصص قدمها دون أن يصل في شأنها إلى قرار .. فتصالح :

« ماذا سنفعل بها الآن ؟ »

فقال « مانوليس » :

- د لئسحق عليها .

وبدا الأربعة يبسقون عليها . ولكن ذلك لم يبعث الراحة إلى نفوسهم . فلم يكن ذلك ليكني . وتوقفوا عن ذلك وأخذوا يحدقون فيها بعيونهم . يجب أن يفعلوا شيئا آخر . نعم .. شيئا آخر . ولكن .. ماذا ؟ ..

قال • اندريكوس • وهو يرفع الهراوة التي أمسك بها • فلنضربها ! •
واندفع الأربعة فوقها وبدأوا يضربونها - بالهراوة والحبل . بينما أخذ • نيكولاس • وهو اقوام بنية يضربها بقبضة يده . وعاد الذعر يستبد بالفئاته وبدأت تصرخ :

وقال • ثاراساكي • مقترحا :

- هيا ندوس فوقها حتى تمنعنا من الصراخ • ..

وسأل • مانوليوس :

- ما رأيكم في المقرعة ؟ ..

ثم أخرجها من حزامه .. فقال • ثاراساكي • :

- هذه بجري دورها في النهاية • -

وفلز الأربعة فوق ظهر الفئاته وفوق بطنها وهي تتدحرج فوق الحشاشات تحاول أن تهرب من اقدامهم . ثم استطاعت أن تقف في النهاية وهي تحاول الهرب . ولكنهم ارتموا فوقها مرة أخرى . واسقطوها إلى الأرض .

وبدا عرقهم يتصبب . واحسوا بالتعب . فتوقفوا مرة أخرى وهم ينظرون إلى الفئاته وقد تملكتمهم الحيرة فيما يمكن أن يمارسوه فيها من أنواع جديدة من التعذيب . ماذا يمكن أن يفعلوه في الفئاته غير ذلك ؟ كانوا يتوقعون أن يحسروا بالسروور حين يشتغلونها ويعاملونها بقسوة . ولقد ظلوا شهرا بطوله يديرون خطتهم وهامهم الآن برون الفئاته ملقاة امامهم دون أن يحسروا بالرضا . ووقفوا يحدقونها بنظرات مليئة بالهبط والكراهية .

وقال • ثاراساكي • :

- كان لايد أن نحضر معنا مطواة جيب نقرسها في جسدها لتسيل دماؤها . كان لايد من ذلك ! • ..

فقال • ثاراساكي • :

- هل اعضها ؟ استطيع أن أتزع قطعة من لحمها ! •

وقال • مانوليوس • :

- نعم . لنفعل ذلك بالدور • ..

ولكن • ثاراساكي • أصدر اوامره :

- لا .. بل نفعل معا .. ودقعة واحدة ! •

ولم • نيكولاس • الحبل . وألقى الأربعة انفسهم فوق الفئاته ليكلوها بينما أخرج • مانوليوس • المقرعة من حزامه . ولكنهم لم يستطيعوا أن يملأوا ما أتتوه . فقد تناهى من عند الباب المحطم صوت حاد يتميز غيظا :

- أيها المشربون الملاعين ! •

واستدار الأربعة ليروا السنيور • باراسكيفاس • واقفا بباب البيروفلا نصف عار . وسلحا بعصا مكنته . كان مساء السبت قد أرفقه بعد أن خلق رحوس وذقون كثيرين من الكريشيين . وكان قد نام اليوم بطوله حتى يستجمع قواه لأسبوع آخر قادم . ولم تكن المقصات والامواس تبدوله بمثل الحدة التي تبدو بها فوق جزيرة الشيطان هذه .. وفجأة . واثناء نومه . سمع صرخات ابنته . فقفز من فوق فراشه واختطف عصا المكنته وهرع إلى الشارع وهو لا يرتدى سوى سرواله . صاح رافعا صوته قدر طاقته وهو يرفع عصا المكنته :

- أيها المشربون الحمقى ! •

ولكنه تراجع فجأة . فقد رأى بين الأربعة . ابن الكابتن • ميخائيليس • فغمغم يقول لنفسه :

- • أوه . هذا يعني متاعب ! .. كن حريصا أيها المسكين باراسكيفاس ! • . واكتفى بأن يلوح بالعصا في الهواء مهددا ..

وقال • ثاراساكي • :

- هيا بنا .. اتبعوني • ..

الفصل الرابع

ما أروع ما رتب الله سبحانه الأمور في هذه الدنيا ! ستة أيام في الأسبوع ليجري الناس وراء المال ، واليوم السابع يوم لله ..
اشرق صباح الاثنين ، ودارت العجلة دورة أخرى ، ونسى سكان ميغالوكاسترو - الذين كانوا بالأمس خائفين مهذبين - نسوا الزلزال .. ونسوا الله ، وعادوا ليتقمسوا في ، الأخذ والعطاء ، وفي ، أن يأكلوا أو يوتلوا ! ..

اشرقت الشمس ، وحمل الجنود مفاتيحهم الخليفة ، وفتحو الأبواب الثلاثة على العالم الخارجي ، ومن بعيد اندفع الفلاحون يصيحون برفقة حميرهم وبقائهم الموسوقة بالأحمال - وفتح كذلك باب الميناء واندفع عبره الحمالون وملاحو الزوارق وعمال الميناء ، وارتفع مرة أخرى ضجيج البشر فوق الترسيف ، وملا ضجيج معائل أذان الرجال في السوق بينما بدأت طرقات مطاق الحدادين تعلو في حى القصر المجاور .. ووقف العنادى في وسط الميدان وجلجل صوته كالجرس ، وهو يعلن أن بقرة سيجورى ذبحها في المذبح الإسماعيلي ، وأن لحمها سيكون أرق من الحلوى التركية ! .. وإن الذى يسبق ، سيكون له حظ اختيار أفضل أجزاء اللذيحة ..

وقى الشارع العريض بدأت حوانيت الإسكافية تفتح أبوابها الواحد بعد الآخر ، وأخذ ، المعلمون ، أماكنهم فوق كراسيهم المرتفعة وبدؤوا يقطعون الطلوع بينما بدأ المساعدين وه الصبيان ، يخرجون مقاعدهم الصغيرة والاتهم ليبدؤوا العمل وهم يتطلعون إلى الشارع لعلمهم بيوم شمسنا يسمح لهم مظهره بالسخرية منه ، فذلك كانت أفضل الوسائل بالنسبة لهم لقتل الوقت !

وكان الكابتن ، ستيفانيس ، أول القادمين متكئا على عصاه الملتوية ،

واستدار نحو ، ياراسكيكافس ، وهو يقول :

- أنت .. يا سيد ياراسكيكافس ، ابتعد عن الباب ودعنا نخرج ، واقذف بعضا المكسرة هذه ! ..

وقال ، ياراسكيكافس ،

- معذرة ! ..

والقى بعيدا بعضا المكسرة .

فقد سمع بأن سفينة صديقه الكابتن « جاكوميس » قد وصلت مساء أمس من « سميرنا » فأراد أن يرحب بقدمه ويعرف منه ما كان يحدث هناك في اليونان . وماذا كان يفعل الملك وماذا كان الناس يقولون عن الاتحاد . ففى « سيريا » كانت هناك « لجنة كريت » التى كانت « كريت » شاطئها الأكبر فى الليل والنهار .. كانت تجمع الاموال وتشتري البنادق والذخيرة وتنتظر . وكان اعضاؤها يقولون إنه إذا لم يكن هناك تقدم فإن كريت سوف تتور مرة أخرى . لهذا . فقد أسرع الكابتن « ستيفانس » ليعاين صديقه ويعرف منه فى العانة شيئا عما كان يحدث فى العالم ..

وصفر أحد « الصبيان » الاسكافيين بغم . وكانت تلك إشارة .. وتطلع الجميع .. وحدقوا . ولكنهم مالبثوا ان اداروا عنه ابصارهم فى دعر وضيق فلم يكن احد منهم على استعداد لان يصطدم « بقلب البحر » . هذا الذى نال على يديه أحد « الصبيان » أول أمس « علقه » فاسية لانه سخر منه . حين أخذ يصيح فيه « ايها القملة الضئيلة .. اهل تسخر منى ١٩ هل تعرف ايها الاحمق السبب فى هذا العرج - ومتى وأين اصابنى ؟ حسن .. فاسأل إذن يا خسيس الاتف ! .. » ثم امسك به وظل يضربه بمصاه دون ان يجرؤ . معلمه « على الدفاع عن صبيه - بل على العكس . قال : « صدقت يا كابتن ستيفانس .. فانت (ميادليس) * الكريتى - ٢ .. زده ضربا ٢ ..

احضى الاسكافيون إذن رؤوسهم . ولم ينس احدهم ببنت شفة . وتركوا الكابتن « ستيفانس » يعضى فى طريقه . وحين اختفى عن الانظار . قال احدهم : « بحق كل مقدس يا اولاد .. هذا الرجل بندقه سلبية .. صلبية تعز على الكسر ! » وبيئما كان لا يزال يتكلم ظهر « شاريلوس » ذلك القزم مقوس الساقين وفى يده عصاه الهزيلة .. بشاربه المبروم .. وحذائه الضخم .. ومر بعداء حوانيت الاسكافيين وهو يشرب الأرض بمصاه . ورفع اصحاب الحوانيت ايديهم إلى صدورهم يتحنون له يوما طيبا ..

وحين كان أبناء « ميغالوكاسترو » يرون السيد « شاريلوس » مارا بهم . كانوا يحسون بالاحترام والرهبة معا وكانما لم يكن بشرا . بل شيئا ما بين البشر والعفاريت جاء من دنيا الاساطير .. كان الاملال يلزمون اماكنهم ويحدقون فيه وقد اصابهم الذعر .. كان حارس كثر من الذهب

مطور فى الأرض . كان يسيطر على قوى الظلام .. كانت عيناه شوبيرلين . فإن هو نظر إليك تسوف يتقلب جلدك على الفور أخضر اللون .. وسوف ينتفخ جلدك ويتورم وكان افعى قد لغتاك ! وكانوا يحكون عنه انه حتى فى يوم من الأيام فى شجرة ليمون مزهرة .. وعلى الفور . ذابت زهور الشجرة !

من أجل ذلك . احضى الاسكافيون رؤوسهم فى صمت .. وتركوه يمر بهم فى سلام !

وقال الصبي الذى صغر بلغه من قبل :

« بداية سنة لهذا اليوم يا اولاد ! لاشء نضحك منه اليوم ! أين اندرنا يا ترى ؟ ! أين باربايانيس ! هل مات الاثنان ١٩ »

وصاح صبي آخر فى دكان مقابل :

« جاءت سيرة القط . فجاه ينط ! هذا هو باربايانيس ! »

وآدار الكل رؤوسهم فى سعادة يتطلعون إليه وهو يصيح على بضاعته وهو يحمل صفيحته البرونزية بيده اليمنى . وسلة معلومة بالثلج بيده اليسرى .. ويتقدم برأسه المديب ومظهره البشع ..

وكان فى شئهم أن يثيروا ضجة تغطى على صوت « باربايانيس » . ثم يذفونه بعد بقلشور الليمون ويتكلمون عليه وهم يسامونه على بضاعته . وسأل احدهم : يا زوجتى الصغيرة ! هل كل الاولاد فى البيت من حليبى ١٩ اصدقينى القول ! فكرى جيدا .. فانا أموت يا زوجتى العزيزة ! .. وأجابه آخر من الجانب الآخر للشارع فى صوت مرتفع منغم :

« وإذا لم تمت يا باربايانيس ؟ .. وانفجر الشارع كله بالضحك . ووقف بعدها لكى يسمعه الجميع وصاح : « يا اولاد . هذه المرة سوف تلعب مع لعبة جديدة لن تصدر صوتا . وعندما يمر بنا ويحاذينا تماما . سوف نتظاهر باننا جميعا لاتراه .. نقوا ! ان ذلك سيبعث به إلى الجنون وسوف تكون لعبتنا هذه مسلية حقا .. »

* « ميادليس » .. بطل قرصان كريتى ..

ووصل • باربايانيس • • وبدأ يصيح على شرابه • ونظر يمينا ويسارا
إلى جوانب الأودية • وتوقف لحظة ينتظر • ما الذي يجري ؟ رحمتك
يارب ! .. الا يرفع أحدهم رأسه وينظر إليه ؟ الا يفتح أحدهم فمه لينادي
عليه ؟ هل أصبح ضئيلا إلى هذا الحد ؟ .. أصبح سواء أن يمر بهم
كلب أو حمار أو • باربايانيس • ؟ ... لماذا لا تصدرون صوتا يا أولاد ؟ ..
مازالت أنا كما كنت .. باربايانيس ! .. أين إذن قشور الليمون ؟ ..

صمت ! .. الكل ينحني على الجلد أمامه في صمت • يدقون بعاتقهم •
ويصفقون الأشرطة • ويمزجون الخيوط في الإبر • ويخيطون الجلود •
وارتعش • باربايانيس • ومسح بيديه عينيه • ترى هل يحلم ؟ .. ووضع
الصدوق والسلة فوق الأرض ثم صاح :

- وحق الرب ! .. قولوا شيئا يا أولاد ! .. سوف أجن ! .. لا .. لست
أحتمل ذلك ! .. أين قشور الليمون ؟ ..

ولكن أحدا لم ينظر إليه .. ولم يصدر عن أحدهم صوت • وعاد
• باربايانيس • يتوسل إليهم :

« الرحمة يا أولاد ! أنا أموت • وأنتم لاترحمونني بنظرة ... !

• أحقا أنا لاأزال حيا ؟ أم انني مت ؟ .. قولوا ولو كلمة
واحدة ! .. لاشي • ! .. سكن كسكين الموت ! وأصاب • باربايانيس •
فزع شديد • وتتم يقول : • سحرا ! .. هذه نهاية العالم • والموت يحوم
فوقنا ! إما أن الاسكافيين قد ماتوا • وإما أنا الذي مت • .. ثم مالئث أن
صاح : • المنجدة يا قدسي ! • ثم أمسك بالصدوق والسلة في عنق وضرب
بهما قديمه .. وهنا • انفجر الشارع كله ضاحكا •

وسمعت الضجة حتى في الأسقفية • ونهض كبير الأساقفة من سريره
حيث كان يردد مصابيا بنزلة برد وكان • مورزوفولوس • قد أبعد لثوه كاس
الحجامة وأمسك به يمسحه بقطعة من القماش • وتتسائل وهو يرفف أذنيه :
• أتكون عامسة تقترب .. لم أنه زلزال آخر ؟ ..

وأجاب • مورزوفولوس • في غضب :

- • لابد أنهم الاسكافيون يا سيدي • .. يسخرون من شخص مسكين

سي • الحظ • هؤلاء الضالون ! الدنيا أصبحت للكلاب ! .. ولكنهم يوما ما
سيستغيثون ! .. اللعنة عليهم • فقد قطعوا حديثنا يا أسقفنا
المحترم ..

وكان كبير الأساقفة يحدث عن روسيا - عن « كيف » حيث عمل
• أرشيمندريتا • سنوات طويلة • عن العواصف الثلجية • عن الغياب
الذهبية في قمم الكنائس وعن الأديرة تحت الأرض .. التي تزخر
بالقدسيين • قال :

- • لاتخش شيئا يا مورزوفولوس طالما بقيت روسيا .. إن الإيمان الحق
سوف • يعيش • ويسيطر إلى الأبد • هناك في روسيا وجد المسيح له ملجا ..
هناك رأيتُه بعيني هاتين ! .. هناك رأيتُه يامورزوفولوس في إحدى اسميات
الشتاء • كان يذرع الثلوج وقد اكتسى بمعطف طويل من الجلد وانتعل
حذاء طويلًا برفية • ووضع يديه في قفازات سمكية • وظل يطرق الأبواب
دون أن يسمح له أحد بالدخول • ثم رأيتُه من خلال النافذة فاندفعت أعين
الدرج لافتح الباب له وأنا أصبح • ياسيدي المسيح ! .. ولكنه كان قد
اشفى •

ورسم • مورزوفولوس • على صدره علامة الصليب • وقال في اكتئاب :

• أما أنا .. فلم أره أبدا ..

وأجاب كبير الأساقفة :

• إنهب إلى روسيا .. وسوف تراه ..

ثم أدار وجهه نحو الحائط واستسلم للنعاس •

ولكن الباشا هو أيضا كان في شيق بعد أن استيقظ هذا الصباح وهو
يرى أن صحته ليست على مايرام في هذه الأيام • ويمس فجأة بأنه يطعن
في السن • أول أمس • وكان يدخن غليونه الطويل في • كشك الباشا •
بالقرب من الأقباء الثلاثة • وكان الجنود يدقون طبولهم • لمحت عيناه وسط
• جوع اليونانيين التي كانت تمر بالقرب من الفرقة الموسيقية .. فتاة ذات
شعر كثيف وقم شهوانى أعجبا كثيرا • فاستدار نحو خادمه العربي
سليمان وقال :

من تكون هذه الفتاة اليونانية التي ترتدى ثوبا أحمر؟ ..

- هل تعجبك يا أفندينا الباشا ؟ إنها ليست من ميجالوكاسترو إنها قادمة من ، كروسون ، هذه القرية المتوحشة .. وقد تزوجت يوم الأحد الماضي من ، كاجابيس ، البقال المشهور بإجاداته للفناء .. أنت سمعت من قبل .. يحق الشيطان يا أفندينا الباشا ! .. دعها وشأنها ..

- هل هي امرأة محترمة ؟ .. فلنذهب إلى الجحيم إذا كانت كذلك !

- محترمة جدا يا أفندينا الباشا .. محترمة جدا .. وزوجها من أبناء سفاكيا .

وهي الباشا رأسه الصلحاء وهو يتعم :

- امرأة محترمة .. امرأة محترمة .. هي كذلك لأنني أصبحت عجوزا .. اه .. إنها النهاية .. ماذا ينتظر المرء بعد من الحياة ، إذا لم يعد في مقدوره أن يرتكب الصماقات ، حينما لا يستطيع أن يفعل برجل شيئا إذا أراد ، أو أن يقبل أية امرأة حين يشاء ؟ أي باشا أنا إذن ؟ هذه الشيفوخة الملعونة ! كم كان لي من أوقات حلوة في أماكن يونانية أخرى حيث تعودت

أن أبعث بجلاذي ومعه تقاحة ملفوفة في قماش هدية للعروس ، ورضاصة هدية للعريس ليخبرهم أن الخيار بأيديهم ، فكيف كان بمقدورهم إذن أن يضاخوا الرضاصة ؟ .. كانوا دائما يضاخون التقاحة ، وكانت العروس تجيء عندى غارقة في دموعها في ثوب زفافها ، وكانت تقارمنى وتصارعنى كما أحب في النساء دائما .. ثم لانتليث أن تجلس فوق ركبتي ، ولكنى الآن أصبحت عجوزا ، الدولة أيضا أصبحت عجوزا ، والسبب هو هذه الملعونة كريت ..

ثم استدار نحو خادمه العريبى وقال وهو يغمز بعينه :

- مازايك يا سليمان ؟ ..

- كذلك لم ترها يا أفندينا الباشا .. تذكر .. نحن في كريت هنا سوف تلقى المتاعب .. لا تنتهد .. هل أبحث لك عن الفتاة الأرمينية ؟ ..

كانت ، ماروسيا ، الأرمينية مشهورة في كريت حتى لقد ورد اسمها في

إحدى الأغنيات بالجزيرة .. كان زوجها أرمينيا فظا ضخم الجسد يملك دكانا في الميدان الرئيسى يقف بداخله طوال اليوم منحنيا فوق الهاون الحجري العميق يطحن البن الذى تنتشر رائحته في كل مكان حوله .. وكانت ذراعه مقنولة صلبة من كثرة ما يستخدمها في إدارة عصا الهاون حتى ليستطيع أن يضرب بها الحائط فيخرقه .. وكانت زوجته الأرمينية الساحرة الصغيرة تبدو من خلفه كما لو كانت مؤلفة من مجرد كرتين توهزان كلما سارت ، أما رائحتها الجنسية العشرية كرائحة الحيوان - فقد كانت تتسلل إلى أنوف الشباب حتى وهم في أطراف المدينة البعيدة .. وفي المساء ، كانوا يتسللون متجهين إلى كوخها القريب من ، البيروفلا ، حيث كانت تقف على مدخله بجسدها المنكح ، خداهما تكسوهما المساحيق الكثيفة وشعيرات خفيفة فوق شفرتها غارقة في العرق ، كانت تقف هكذا حاسمة ساكنة مبهتمة وعيناها شبه مغلقتين حتى إذا انطم الأليل وكان زوجها المتعب لا يزال نائما ، بدأت هي تفتح دكانها الخاص وتتبع العب بالميزان بينما شخير زوجها يعلو من الحجرة المجاورة .. وكانت تتعمد ترك الباب مفتوحا ، فقد كان يمتعها أن تحس بأن زوجها قريب منها ، وبأن ترتعش من الخوف بينما يراشها من الترك والمسيحين والأرمن واليهود يحضنون جسدها .

وكان الخادم العريبى سليمان يحضر الأرمينية الساحرة كلما أحس الباشا بالضيق حين يعنفه الوزير لسبب ما .. بعدها كان الضيق ينتهي ويؤزل .

وسأله سليمان مرة ثانية :

- هل أبحث لك عن المرأة الأرمينية ؟ ..

ويصق الباشا في تقزز وصاح :

- يارجل .. أنا لا أريد أية امرأة .. المتناقون مثلهم مثل الفس - يسبون لي الغثيان ، بستة عشر أو سبعة عشر عاما لم أفعل غير ذلك ، وأنا الآن أتهد لأننى أصبحت عجوزا .. ولأن تركيا أصبحت هي الأخرى عجوزا .. نحن الاثنان نضى حثيثا إلى الشيطان .. على أية حال ما اسم هذه البنت ؟ ..

- جاروفاليا -

- فليتغن جسدها ! قل لباربارانيس ان يحضر إلى هذا المساء ليسليني ، إن قلبى مثقل يا عزيزي سليمان .. أفندينا قادم هو الآخر -

وضرب بقلبيونه على الحجارة وغمغم لنفسه فى صوت خفيض حتى لا يسمعه سليمان : « إنها تحبني .. إنها لاتحبنى .. الله جعلنى كذابا ، ولكننى واثق من أن تركيا هى أيضا قد وصلت إلى مرحلة أصبحت تقول فيها : إنها لاتحبنى .. املا غليوبى واشعله يا سليمان ولا تتكلم ! .. »

ومر فارس بالقرب منها : فارس مهيب المنظر تختفى جبهته تحت عصابة عصب بها رأسه ، يلبس فرسه بسوط ، ويتهب الأرض مثل البرق الخاطف حتى اختفى فى المحول عبر بوابة المستشفى وتساأل الباشا فى دهشة :

- من يكون هذا الكافريا عربى ؟ إنه دائما يستعرض نفسه فيما يبدو ! ترى أين رأيتاه قبل هذه المرة ؟

وحدق العربى بعينييه مأخوذاً بشبح الفارس الذى كان يدور فى تلك اللحظة حول التحصينات .

وعاد الباشا يسأل وهو يشعل غليوبه :

أين فطنتك يا غنى ؟ .. ألم تسمع سؤالى ؟

- تسألنى من يكون يا أفندينا الباشا ؟ .. ألا تذكر إذن استدعاهم إلى القصر فى العام الماضى وتجريده من ثيابه لسخريته من ثورى بك ؟ إنه لم يفتح فمه يوماً ليعتذر وحين خرج فقد أمسك بالسلم وكاد أن ينتزعه من مكانه .

وغمغم الباشا :

- الكابتن ميخائيليس !

وأستغرق فى التفكير لحظات .. ثم قال :

- اسمع يا سليمان ، سوف آقف يوماً ما بالقرب من الأقباء الثلاثة أمام

كل الناس من أتراك وبيونانيين ، وأدعك تصارعه وتطرعه أرضاً .. ثم ... من منه بعدها .. هل تسمعنى ؟

وتطلع العربى إلى البحر .. وكان يبيض عينيه شديد الاصفرار تشويه حمرة معروفة .. ولم يجب ..

وأشار الباشا .. فتوقفت الطبول ، ونهض ثم استدار مرة أخرى نحو مادامه وقال :

- إذا كنت تخاف من هذا الكافريا عربى .. فقد انتهى أمرك .. انتبه جيداً إلى ما قلت .

ولم يقل شيئاً آخر ، ولكنه ظل طوال ثلاثة أيام يفكر فى المرأة ذات الثوب الأحمر ، وفى قلب تركيا المريض .. وما هو اليوم - صباح الاثنين - يستيقظ وقد استبد به الهياج من حلم سييء رآه تلك الليلة ، فى وسط السوق كان هناك وحشان يصطرعان : كابتن ميخائيليس والعربى سليمان . كان الاثنان عازبين يكسو الشحم جسديهما ، وليس فى يد كل منهما سوى فأس . وقد تجمع حولهما أبناء ميغالوكاسترو ، على الجانب المشمس تجمع المسيحيون ، وعلى الجانب الآخر - فى الظل - تجمع الأتراك كانوا يفتقون ليشاهدوا ما يجرى دون أن يتكلم واحد منهم .. كلهم كانوا يشاهدون مايجرى بوجوه شاحبة وأفواه مفتوحة . وكان هو نفسه يجلس القرقصاء تحت مظلة حمراء ، وقلبه يرتعش مثل قصبه فى الهواء .. إذا فاز الكابتن ميخائيليس سقطت تركيا ، وإذا فاز سليمان العربى سقطت المسيحية .

وتصارح الاثنان وهما يزاران واهتزت الأرض تحت ثقلهما وامتلأت تكويب الأرض بدمائهما حتى غربت الشمس واختفى المسيحيون والأتراك فى الظلام ، ولم يعد الباشا يرى سوى الوحيين وهما يزاران ويتعثران ويعودان فيقفان على أقدامهما من جديد وقد حثلت جسديهما خيوط الدم التى كانت تنبثق تحت ضريكت فأسيهما .. وفجأة صاح الباشا فى ياس : « الله ، الله ، إنه مجرد حلم ، وسوف أطلق صرخة توقظنى من نومي حتى لا أرى النهاية .. »

وأطلق الصرخة .. واعتدل فوق سريريه العريض فى حزن وأغرق فى التفكير .. ثم مالبت أن صفق بيديه فيبرز سليمان !

- أخرج وابحث لي عن الكابتن ميخائيليس ... !

لم يكن يعرف ماذا يريد منه - ولكن - لا بد أن يحضر اربما تقلت منه إهانة واحدة .. بعدها يثور غضبي واتخذ قرارى ! لا ينبغي أن يرتكب حماقة فى مملكتى ! .. أنا الباشا ! وهو يتهب الأرض بفرسه وأنا اسمع موسيقى الجنود !

وحك العربنى رأسه وهو يقول :

- الكابتن ميخائيليس ! ؟ ولكنى علمت يا أفندينا الباشا أنه نزل إلى القلوب مع صحبته الأغبياء يشربون ويسكرون .. -

- وماذا لو كان يشرب ! ؟ سوف يفيق .. ويحضر إلى هنا !

وتردد العربنى .. وقال فى صوت خفيض :

- يا أفندينا الباشا .. هل تريد أن تغرق كريت فى الدماء ! ؟ هل لديك أوامر من القسطنطينية ! ؟

ووضع الباشا يديه كليهما فوق رأسه الاصلح وهو يحس بالدوار وقال :

- ماذا ! ؟ .. -

- حسن .. افترض أنه قال لى : لا .. لن أحضر .. لماذا تقترح إذن أن تغرق به ! ؟ هل ستبعت الجنود فى طلبه وتمنحه فرصة شربهم ! ؟ إنه ليس بشرا عاديا ، وخاصة حين يشرب ، إنه يصبح حينئذ أكثر من زلزال ، حينما يسكر فى العام الماضى ، ألم يقتلع بيديه بوابة العيناء ؟ ثم ماذا لو أنك أعدت كل شيء بحذق واستطعت أن تقتله .. إن تشتعل النار فى كريت ! ؟ دعه يذهب إلى الشيطان يا أفندينا الباشا ..

- دعه يذهب إلى الشيطان ، لأنه Polikase وهى دعها تذهب إلى الشيطان لأنها سيئة محترمة - نعم .. فأى صنف من الباشوات إذن أنا ! ؟

ثم صمت قليلا .. وفكر فى الاحتمالات الممكنة .. لو أن الجزيرة المترامية الأطراف ، اشتعلت بالنيران ، وقدم إليها جنود جدد من الاناضول ، وقدمت إليها المدافع والمشائق والباشوات الجدد ، فسوف يتدخل الفرنجة فى الامر ، اللعنة عليهم هم أيضا ! وذلك كله لن يعود إلا

السرور على - الامر ببساطة مزيد من المتاعب ..

اخيرا صباح وهو يبرم شاربه فى غضب :

- أسرع وأحضرنى إثناء من القشدة والسكر واحش غليونى أيها العربنى المسريس .

- والكابتن ميخائيليس ! ؟

- غلبخطفه الشيطان !

فى الوقت الذى كان الباشا يتحدث فيه عن الكابتن ميخائيليس ، كان هذا صوف طلوع النهار من خلال نافذة القلوب الصغيرة وقد تثلثت عصابة رأسه على كتفيه وبدت جبهته كالبرونز تلمع فى الضوء .. وشعر رأسه ولحيته برق وعتيائه السوداوان المستديرتان العميقتان لا تتحركان وهما تحدقان عبر النافذة .. لم يتم طوال الليل .. ولكنه ظل يربب .. ويسمع .. ويشرب وما أكثر ما حاول قلبه أن يهدأ .. وفى كل مرة كان يصرخ فى ضراوة وحرارة فيعود القلب ليضطرب من جديد ، ماذا أريد بحق الشيطان ! ؟ .. كان يسأل نفسه مرة ومرات ، ضاعت هدرا كل الخمر التى سكبها فى جوفى : أنا إذن اسلب بطرس لانقد يولس .

لم يكن شملا ، وقد كان بينه وبين نفسه يفخر بأن الخمر لا يمكن أن تؤثر فيه . كان يقف من حين لأخر يذرع أرض القلوب جيئة وذهابا ثم يعود فمراس .. كان يحترق هؤلاء الذين تسكرهم الخمر ، فيترنحون ويتعشرون ويكسفون عن أفكارهم أو يبدؤون فى النباح .

ولسطة ما .. استدار إلى ، بيثروودولوس ، وسأله فجأة :

- من هذه العفرية التى كنت تتحدث عنها ! ؟

- سيدموية يا كابتن .. ابنة أحد أمراء البندقية .. كان شعرها اشقر بلون العسل ، ملفوفا ثلاث مرات حول رأسها مثل التاج الملكى ، وكانت يدها خضراء مثل الزيتونة الصغيرة ..

- أكلت ..

- وهكذا ، يا كابتن .. ولا داعى للتفاصيل .. فإن هذه الأميرة الرقيقة -

وما اعجب النفس الإنسانية - احببت رجلا مغربيا ضحنا عملاق الساقين والذراعين .. ولكنه - وحتى يكمل الشيطان لعبته - كان رجلا غيوراً .. واه لو علمت كيف حدث أنها احبته ؟ في إحدى الليالي جلس الوفد الكبير إلى جوارها يحكي لها عن حياته - وكأنه كتاب فحرك فيها احساسها ، واحسب بعطف بالغ نحوه من كثرة ما عانى . وبدأت تبكي وقد ارتدت فوق كتفه وقالت : اواه ايها المغربي العزيز لاتحنن - سوف اعوضك وارسم البسمة فوق شفرتك ..

يزفر بترودولوس ، بعد أن فرغ كأسه .. وصاح الكابتن ميخائيليس بامرارة أخرى :

- أكمل -

- معذرة يا كابتن .. لقد فرغ رأسي ..

واخذ يحك راسه العذبة وكأنما يستحضر ذاكرته .. وأخيرا صاح بصوت مرتفع :

- وحدثت أشياء مذهلة .. لم يمكثا في البندقية ، ولكنهما سافرا إلى قبرص حيث تزوجا على ما أتذكر . وكان لأحد الضباط البيض ذوى الأشرطة الذهبية صلة بهذا الامر .. وأخيرا أه ، نسيت مرة أخرى ! الحكاية تتعلق بمنديل .. !

- منديل ؟ ها أنت تعود فتتذكر يا بترودولوس ؟ ..

- كلا .. كلا .. أنا لم أتذكر يا سيدي . منديل .. نعم منديل ولكن ربما كان مسموماً أو مسحوراً .. كيف لي أن أعرف - أه .. تلك الليلة أعادت إلى ذاكرتي كل شيء - وضع المنديل داخل قم ديدمونية و وأنتابه بكاء ... فخلع وشاح عنقه وجفف دموعه وجبهته ثم صاح ..
- وخفقها .. !

وانفجر الأربعة السكارى ضاحكين بعد أن كانوا مشرثبي الاعناق يتخسئون .. ولكن الكابتن ميخائيليس صاح بغضب : « هدوا ! » ثم استدار نحو بترودولوس وقال :

- ليس الخطأ خطأك أنت .. إنه خطأي أنا إذا سألتك ..

ثم اسند راسه إلى الحائط وأغلق عينيه - لقد كان المغربي على حق .. هكذا كان يفكر .. إنه فعل ما كان ينبغي أن يفعله ..

أما الآخرون حوله فقد نسوا تماما أحزان الغرباء ... وقال فوروجاتوس :

- لاتيك يا صغيري بترودولوس ... إنها مجرد قصة من قصص الجنيات ! ونحن فقط .. الحظيلة - هيا يا فيندوسوس ، اعرف على فيبارتك ، سألتي تهتران تريدان أن أرقص ..

وكانتما الغيثارة ذات الاجراس كانت سكرى هي الأخرى ، فما لبثت أن فطرت فوق ركبتى و فيندوسوس و كامرأة تفيض حياة .. أو عروس زلت انورها . وتتهدد كاجابيس بهمق وهو ينظر إليها ويسند رأسه التي استبد بها السكر إلى راحة يده . وبدأ يزفر ترتيما متصلة طويلة ..

أما أفندينا ذو الرأس الاجرب المطوق بأوراق الخرشوف والمعدة المستفخة بالنيبذ ولحم الخنزير ، فقد صفق بيديه وجلس منتصباً كالشجرة ثم فزع فجأة وطوح ذراعيه ليحيط بكتفى فوروجاتوس . وبدأ يرقص تالجبون - وليذهب التعلل إلى الجحيم ! ..

وقال له فوروجاتوس : متوسلاً :

- انقلب مسيحياً يا أفندينا .. انقلب مسيحياً تدخل الجنة راكباً ظهري حمير !

واجاب أفندينا محتزواً :

- لا أستطيع يا رفاقي ، لا أستطيع .. ولتسامحوني ايها الاصدقاء ، أنا واثت تركيا وسوف أموت تركياً ..

وكان البيض قد نفذ هو والمحاربات وكل ما كان موجوداً من طعام . وسرب الكابتن ميخائيليس أنية البيض الفخارية بقبضة يده وقدم حطامها اسيفو ليأكلوها .. وتعلك بترودولوس الذعر وأمسك بقطعة وقذف بها إلى برميل بجواره وهو يلهث بينما عيناه تحدقان في قرع إلى الكرئيتين عند

أقدامه يقضون القطع التي في أيديهم ويحسفونها حتى تصبح رملا
وحصى ثم يبتلعونها وهم يحسكون ضحكات مكتومة .

وبدا بتروبولوس فيلسف الأمر نفسه في هذه : هناك ثلاثة أصناف من
الرجال ، هؤلاء الذين ياكلون البيض بدون قشرة ، هؤلاء الذين ياكلونه
بقشرة .. أما الصنف الثالث فهم الذين يلتهمون البيض وقشر البيض
والإباء الذي يحمل البيض ! . وهم الذين يسمون بالكريئين ! أه يا كونت ما
نجياقون . ترى ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ ! .. قالها لنفسه وهو يتطلع نحو
الباب !

ومع غيب الفجر كانوا جميعا قد أرخوا أزرعهم . بعضهم انكمش على
نفسه فوق الأرض وقد علا غطيطه . وآخرين استندوا برؤوسهم إلى
البراميل وقد استبد بهم الانهالك فأخذوا يئنون وهم يتقيأون كل ما في
أمعانهم .. بينما كان بتروبولوس قد انتهى من القىء ووجد ماء يقتسل به ،
ثم دفن رأسه في عباته ولها حول جسمه مرتين وتمدد في ركن من العكان
كدجاجة ابثت بالعام وانتثر ريشها حولها في كل مكان .

أما الكابتن ميخائليس - برغم كل ما شرب - فقد كان رفع الرأس
منتبها . يحدق عبر النافذة في الصباح الذي بدأ يطلع .

وبدا الضوء يتسلل إلى القبو ويكشف عن نفايات الطعام وبرك النبيذ
والقىء . واستدار الكابتن ميخائليس وحدث في الخمسة العملي
المهزومين وكأنما يراهم لأول مرة . وأحس فجأة بأن قلبه بدأ يشعره
بالاحتقار . أزهق أذنيه . وسمع صوت زوجته في الفناء وكانت قد
استيقظت من قبل وبدأت ترقع الماء من البئر . وسمع صوت صياح الديكة
عند الجيران .. وبدأت أصوات المخلوقات البشرية والحيوانات ترتفع من
فوق سطح الأرض .. وصهلت الفرس في الفناء وهبأ « شاريوس »
ليحضر لها دلو الماء البارد والعلف . وارتفع الصهيل ليملا الجو كما يطؤه
الندى منعشا كماء الربيع .. وأحس الكابتن ميخائليس بروحه تنتعش في
الأخرى .. وغغم يقول لنفسه :

« لقد بدأت أظن أنني لا أصلح صديقا إلا للجبياد . نعم ، إذا كان في
كريت ذئب وخنازير .. فالأسميون يبديون في نظري كما لو لم يكونوا سوى
حفرى يستحقون الرثاء . »

ونفس واقفا وأخذ يتمطى حتى قرعته عظامه . ثم ركل كل واحد من
رفاهه وسكب نبيذا فوق رؤوسهم وصاح :

- هيا .. انهضوا .. إلى الأمام ! .. إلى العمل !

واستمر الاحتفال طوال اليوم الجديد والليله التالية .. وكان السوط
يذرع كلما حاول أحد أن يسترخى ، بينما « شاريوس » يسعد السلم
ويهبطه حاملا مائه وطاب . وأخذ كل من أفندينا وبتروبولوس - كالأخوة -
يحبسو أحدهما معدة الآخر ! ويديران دهشتهما لأنهما وقد عاشا سنين
تلوية في ذات المدينة .. لم يعرف أحدهما الآخر ويحببه إلا الآن فحسب ..

قال بتروبولوس :

- وسوف أعلمك العرف على « الجيتار » ، وسوف تتسنى معه متاعيك ،
- سوف تلعب على أوتاره وتشق طربك في الشوارع دون أن تهتز فيك
شعرة ..

وقال أفندينا :

- وسوف أعلمك كيف تحمل المشاعل معك يا عزيزى بتروبولوس فتبترد
بها !

كان الكونت قد بدأ يالف الجو الكريتي ويسعد بأن يحب ويحتضن
الجميع . ولكنه كان يستحي فقط أمام الكابتن ميخائليس . لقد كان - وهو
رجل « زانتى » المرعج - يحس أحيانا برغبة في أن يطلق فكاهة وهو معه ،
ولكنه لم يكن يثبت أن يحس بالحرج فلا تنفجر شفاهه عن كلمة ..

واستدار إلى « فيندوسوس » وقال :

- نحن الاثنين .. يا سيد فيندوسوس - ترى هل أدركت ذلك من قبل ؟ -
نحن الاثنين لسنا رجالا .. إنما نحن فئانان ..

- فئانان ؟ .. وماذا تعنى هذه الكلمة بحق الشيطان ؟ !

- نوع من السلائكة . ليس هكذا بالضبط ، هناك فرق بسيط سائر

لك
هناك في المخلوقات صنف الحيوانات - كالحمير والبغال - وهناك

ادميون . وفوق هذين الصنفين يوجد الفنانون .. وتعرف هؤلاء تجسء
الملائكة . ونحن الاثنىن يا عزيزى فيندوسوس .. من الفنانين .

- وبعد ... ١٢

- وبعد ، فإنيك إذا مت فى هدوء وسلام ، فلا تنسى أن تصطحب معك
قيثارتك إلى القبر ملثما سأسطحب لنا الجيتار . نعم ، فلنمت سويا يا
فيندوسوس ، يا صغيرى فيندوسوس ! إن الملائكة هى أيضا تعزف على
القيثارة والجيتار ، وعلى باب الفردوس سوف نهدي معزوفة للمايسترو الذى
يسميه الذين لا يفهمون الموسيقى ... الله ، أنا سأعزف « الكانزوني » ..
أما أنت فأعزف « المانتينادا » الكريتيية حتى يخرج المايسترو ضاربا على
الصنح .. ويسمح لنا بالاتضمام إلى جوقته الخالدة .

وضحك فيندوسوس وقال :

- كلمات ضخمة هذه يا صغيرى بيتروبولوس ، كيف تتصور أن تعزف
أنت على قيثارتك ، وأن أعزف أنا على جيتارى بلا أيدى .. بلا أصابع ! ؟
ألا ترى منقطع الأيدى والأصابع على وجه الأرض ! ؟

وصرخ الكونت وهو يلم أطراف عيامة ويحكمها حول جسده !

- هدوءا أيتها النفس ! أنت تجعل شعر رأسى يقف ! ... هل تعنى أنه
حتى الأبدى التى تعزف على القيثارة ؟ ...

- كلها ، كلها . يا صديقى فى سوء الحظ . كلها

وصاح « فوروباتوس » وهو يملأ الأكواب :

- حسن ، فلنشرب إذن حتى نسكر ، ما دامت لنا أيدى ورقاب !

ثم قال :

- والنساء يا فيندوسوس ؟ هل يتحوان هن أيضا ؟ ...

- كلهن .. كلهن ..

- حتى واو كن جميلات كالشمس ! ؟

- حتى إذا كن كذلك .. ولكن ماذا جرى للكابتن ميخائيليس ! ؟

كان الكابتن ميخائيليس مقطعا جيئته .. ثم مالبث أن قال :

- الأفضل أن تتكلم يداك بدلا من فمك يا فيندوسوس ، ... وأن تتكلم
فمك يا فوروباتوس .. ولتكنف السنكتما !

- امرك ، يا كابتن ميخائيليس ..

وقفز فوروباتوس واقفا على قدميه ! .. ترى ماذا بقى ليسال عنه ! ؟

وقفز فوروباتوس واقفا على قدميه ! .. ترى ماذا بقى ليسال عنه ! ؟
ورضع فيندوسوس فيثارته فوق ركبته اليمنى بينما رفع « كاجابيس » يده
إلى خده وبدأ يرقص .. وبدأ الغناء مرة ثانية .. وكان اليوم قد بدأ خارج
القبر والشمس ترتفع حرارتها ، ولكن الحياة - حياة الرفقة البشوية -
كانت تمارس وجودها داخل القبر ، وجاءت الظهيرة ، واختفت الشمس .
وحل الليل مرة أخرى ، وفى وسط المائدة وفوق البراميل أوقدت الشموع
الغليظة ، ومع انبلاج صبح آخر كانوا لايزالون ممددين فوق الأرض صفر
الوجوه فى لون الزعفران .. فى إعياء كالنساء الحوامل اللائى أجهضن !
ومرة أخرى ثولت الحواش . واختفت ملابسهم تحت بقع الضمر والدهن ..
وارتفعت الرائحة الكريهة من أفواههم وشعورهم ..

وكان الكابتن « ميخائيليس » يراقبهم دون أن يتحرك من مكانه ، وعندما
بدينق الفجر كان يدير رأسه نحو النافذة الصغيرة حتى لاينظر إليهم وقتا
أطول ، لم يكن يفكر فى شىء ، بل كان يحس فقط - ولمدة يومين وأيامين -
بألماعه تتلوى وترتعث ويأته لم يعد يقف على أرض ثابتة تماما ! .. جلس
عكزا صباح الثلاثاء ، ورأسه مستند إلى الحائط . وأدهشه أنه ينام
المسلمات خاملة .. خاملة لا أكثر ! ولكنها كانت كافية لأن يسيطر عليه فيها
غفريت من الجن ، وبدأ له لأول وهلة بأنه يسير وسط سحب ربيعى بارد
ظل بداخله وهو مخطوف البصر من أثر الحرارة والخمر والإرهاق ، وأحس
كما لو أن هذا السحاب يعانقه ويحتضنه ، ثم يحويه تحت ذراعه ويرفعه ،
ويدفعه فى حنان جسده ، ولكن هذا السحاب مالبث أن تحول ببطء ،
فأصبح كثيفا .. ثم استحال إلى وجه : فى البداية تكونت شفتان ، ثم تلاها
« ريق عينين وحشيتين مخزيتين مليئتين بالخبث ، والازدراء .. ثم تكون فى
النهاية جسداً حمراوان ويدان بيضاوان كالثلج ، وتحركت الشفتان ..
ووز صوت مثل خورير العمياء :

ونفس الكابتن • ميخائيليس • نفسه من الحلم بانتفاضة انقلبت لها المائدة فقد خرج كل شيء كان فوقها • الاكواب والاطباق • والشموع وسناديق الطبايق • وقفز الخمسة النيام ... واقتمح ضوء الصباح القوي • ونظر بعضهم إلى البعض الآخر ثم حدقوا في الكابتن ميخائيليس الذي كان قد نزع السوط من فوق الحائط ثم اندفع نحوهم وهو يصيح كالممسوس :

• اخرجوا ! - اخرجوا ...

ثم ضرب الباب ففتحه على مصراعيه .. وغاد يصيح • اخرجوا ... ! • وكان • كاجاييس • اول المصفيين للامر • ففر خارجا مشطفا عتمة الباب بحركة واحدة واندفع عبر الفناء إلى الباب المؤدى إلى الشارع • وفي ثوان .. اصبح خارج الدار • الصباح الثالث فحسب ا كانت • جاروفاليا • ثامنة ولاشك • اطلق ساقيه للريح متجها إلى العتاء • أما الاربعة الآخرون فقد اندفعوا متعثرين ادهمهم في إثر الآخر خارج القيو وهم يتشبثون في جدرانها • وعندما اصبحوا في الشارع بدت على وجوههم الملونة المفضنة سفرة مشوية بالأخضرار • واتجهوا عبر الفناء نحو البئر انصاف سكرى .. ثم منه إلى عريشة الكرم ثم إلى الباب الخارجي حتى إذا اصبحوا في الشارع • لم يندروا إلى أين يذهبون .. وتحرك • فوروجاتوس • ... وسار مهوما وشاربه مرتج وهو يحاول جاهدا أن يصلح حزامه • ولكن حزامه ظل يوبق من وسطه منزلقا إلى الأرض حتى أن • فيندوسوس • الذي كان يتبعه وقبائره فوق كتفه .. كان يندوس على طرفه بقدميه .. وظلها سار • أفندينا • واحد يديه تمسك ثوبه الذي تقطعت حمالاته • والآخرى تحاول في ضيق أن تمسك بظهره بالي الرفقة • وهو يصيح :

• قفوا .. قفوا أيها الحمقى ! إلى أين تذهبون ؟ ! إن الكابتن يمزح • سوف يطلب منا العودة حالا • عدوا فحسب إذا كنتم تعتقدون في الله حقا • الثلاثاء • الأربعاء • الخميس • الجمعة • السبت • الأحد • ستة أيام .. لانزال أمامنا ستة أيام ! ..

كان يحس بأنه من الظلم أن يطردوا هكذا بسرعة • وهو لما يكذب يعرق

من الضخامة إلى أدنيه .. إن الضحايا هي وحدها التي تجلب الرضا الحقيقي عندما يمارسها المرء كما ينبغي .. حتى أدنيه ! وقتها فقط يبدأ المرء في الاستمتاع بها • ثم لا يلبث بعدها أن يجد شيئا يندم عليه • إن الضخامة تسمى أن تكون جبلا من لحم الخنزير لا بد من الاحاطة به .. وبحيرة من المرز يسبح فيها المرء - وليس مجرد قطعة مقطعة .. أو نقطة لقطعة !

وظل يعد الأيام على أصابعه مرة بعد أخرى : الثلاثاء • الأربعاء • الخميس • الجمعة • السبت • الأحد من المؤسف حقا أن يضيع بانه هذا العدد من الأيام • لا • ليس هكذا يا كابتن ميخائيليس • لا نعلمنا هكذا • مرنا بأن تعود ! ..

وحل إليه أن أحدا يتأديه • وإن بدا لسته • لابد أنه الكابتن ميخائيليس ! واستدار في سعادة • ولكنه كان • بتروبولوس • الذي يضبط على كتفه وهو يسير متعثرا متحميا ..

• يا عزيزي أفندينا • لقد نسيت كيس نقودي هناك • هلا عدت فجننتي به ؟ ..

وكان • فوروجاتوس • قد أدرك الباب المؤدى إلى الشارع وحزامه لانزال ينزلق عن وسطه وهو يجربه خلفه • وكان يحس بأن يديه وقدميه تدبلة كما لو أن شللا قد أصابها فاستعصت على خدمته ..

• سوف أذهب لأحضر زوجتي لكي تقوم بتدليك أطرافى • إلى اللقاء يا أصحابى • لقد انتهى كل شيء بسرعة !

وصاح • بتروبولوس • :

• إلى أين أنت ذاهب ! لا تتركني وحدي يا فوروجاتوس ! .. انتظرنى !

ولمأل • بتروبولوس وهو يحيطه بذراعيه :

• تعال يا صغيري بتروبولوس • أنت تستدنى • وأنا استدك !

وتدلق المايسترو بالحزام المشلى .. وهو لانزال يتوسل :

• لقد نسيت كيس نقودي •

وتكذب • فوروجاتوس • تظاهر بأنه لم يسمعه .. وكانت الشمس قد غمرت

الطرقاء . وتناهى صوت « باربايانيس » من بعيد وهو ينادى على **his sulepi** وكان الفلاحون ينادون على ما تحمله ظهور حميرهم من أخشاب الوقود . ومر الاثنان بمخبز « تولوياناس » فتوقفا . وكانت هناك سبتيتان مليئتان بالكعك المكسو بالسمسم عند فتحة الفرن .

وتطلع « شرودولوس » إلى الكعك وقد أصابه الشلل ! .. وبس « فوروجاتوس » يده في جيب صدرته وأخرج عملة صغيرة واشترى كعكة ..

- خذ .. كل . لا أريد شيئا لنفسى ..

كان يفكر في المجنومين .. وأحس بالغبثان ..

وكان أفندينا يتعثر خلفهما ورأسه تدمى من أوراق الخرشوف متجها إلى النكية . متسللا كاللص حتى لا تراه أمه فتضربه .

وانته فيندوسوس إلى بيته والقبائرة فوق كتفه وقد تقطعت أنفاسه وأصفر وجهه . وهرعت زوجته لاستقباله وهي تستنده بذراعيها . وهرعت ابنتاه أيضا لتساعدها . وتعاون الثلاثة في وضعه فوق الأريكة . ومسحوا وجهه بزيت من مصباح أم الكروم المقدسة .. وترنم الثلاثة وهم يدورون بالبخور فوق رأسه . ودرثوا جسده بكل ما يملكونه من أغطية لأنه كان يرتعش . ثم هرعوا إلى جاريتهم العجوز « فلا ميورياريتا » وسألوها أن تحضر لكي تحجمه بالكاسات .

أما الكابتن ميخائيليس فكان قد سرج فرسه . وبس الشئ ذا العقبض الأسود في حزامه . وخرجت زوجته إلى الغناء لتسأله عن وجهته ولتذكره باحتياجات البيت . ولكنه عندما رأت وجهه خائفتها شجاعته بينما استدار نحوها الكابتن ميخائيليس وسألها في هفظة ونفسب :

- ماذا تريدين ؟

- هل أعد لك بعض القهوة ؟

- أنا ذاهب الآن إلى المقهى . وسوف أتناول قهوتي هناك . ادخلي وعادتي . كاترينا . إلى المطبخ وقد أصابها الرعب . وكان « رينيو » قد ذهب ليعد القهوة . فقالت أمه :

- إنه ذاهب أسرج الفرس . وسوف ينطلق به إلى الحى التركى . إنه وحش مفترس . مؤكد . إنه وحش مفترس خال من المشاعر ..

وصحك « رينيو » وقال فى فخر :

- إنه ذاهب إلى مقاهى الأتراك مرة ثانية ..

ثم سكت الاثنان وأرهاقا السمع . وتناهى اليهما صوت أقدام الفرس على صبة الباب .. ثم صهبله فى الشارع ..

وتنمتت الأم وهي ترسم علامة الصليب :

- لعن الرب يبسط عليه يد رعايته .

وقال « رينيو » ضاحكا :

- هل رأيت كيف يهرب منه الحمقى ؟ .. كنت أطلع من خلال النافذة .. وكان الواحد منهم بعد الأخر يصرخ ويجرى . بينما أبى واقف هناك .. واعيا .. هازئا . رافعا السوط بيده ضاربا به الهواء . لماذا تتنهدين يا أمى ؟ ! كنت تريدان زوجا مثل « شرودولوس » أو « فيندوسوس » ؟ ! .. يدعى أن تسعدنى بحظك يا أمى ! ..

- من الممكن أن يكون العمرة زوجا متزنا . وكسيسيا . دون حاجة إلى أن يكون أحقق مثلها ! ..

وقال رينيو وقد عيس بوجهه :

- نعم .. ذلك ممكن . ولكنى لا أحب « الكسمية » **earners** ولا الحمقى . أنا أحب من كان « كابتن » مثل أبى ..

أوسع . كابتن بوليكيكسيسيس . الخطى مارا بنافورة « ايدومينا » وخلفه . على أمها . بالسلة المثقلة على كاهله التي كان يجمع فيها هدايا عريس ابنة أخيه « فانجيليو » ومنذ يومين . كان « الكابتن بوليكيكسيسيس » مضطربا كأنما قلب عقله زلزال . كان لا يكف عن الجرى فى الشوارع . ولم يكن يتناول طعاما أو شرابا .. وإنما كان يكفى بالتدخين وهو يخوض من وقت لآخر مثل الجاموسة المريضة . وكان تجواله ينتهى به دائما إلى باب الخضرة . توقف . وقلص ارتفاع الحائط بنظرة سريعة . ثم شب على الأطراف

أصابع قدميه كما لو كان يريد أن يطير فوقه .. ولكنه مالبث أن استدار وعاد
إدراجه .

ومن أجل أن يزيل الشك لدى الجيران (فقد كان يحسب حساب
الشمطانات والسنتهن الحداد الخبيثة) . قام بزيارة النملسان التركي في
الحي واشترى قدرا في المرة الأولى ، وطبق غسيل وه ككتة ، قهوة أو
طاسا وأقداحا وفناجين للقهوة في المرة الثانية ، ولم يكن يعرف في البداية
ماذا يفعل بها ، ثم مالبث أن تذكر أن ابنة أخيه سوف تتزوج . ومن ثم فقد
ملا السنة بالأتاوى النحاسية واثقل بها كاهل ، على آغا ، ثم اتجه إلى حي
الكابتن ميخائيليس ، حيث بيت فانجيليو .

وبيما هو يمر بجوار نافورة ، ايدومينا ، . لاح الكابتن ميخائيليس
معتليا صهوة فرسه ، والسوط معلق في رصفه . وأطراف عصابة رأسه
تغطي عينيه .

وتوقف الكابتن ، بوليكسيجيس ، في دهشة ، لأنه كان يعلم أن الكابتن
ميخائيليس ، كان قد بدأ صباح الأحد أسبوعا آخر من أسابيع السكر !
ولكن ، ها هو ذا في يوم الثلاثاء معتليا صهوة فرسه مرة أخرى ، وكان
وأضحا أنه الآن في طريقه إلى الحي التركي مندفعا إلى فوهة المنفع !
وهز الكابتن بوليكسيجيس رأسه وهو يفكر في يوم ما من الأيام يدفع فيه
الكابتن ميخائيليس حياته ثمنا لهذه الجسارة . وينهدم ركن من أركان
المسيحية في مجالواسترو . ولكن من ذا الذي يستطيع أن يريه إلى
صوابه ؟ لا الله ولا الشيطان ! إن الرجل الذي لا يخشى الموت - يخشاه
حتى الله ! ..

واقترب الكابتن ميخائيليس ، ووقع بصره على الكابتن بوليكسيجيس
فوكز فرسه .. لأنه لم يكن مستعدا للنقاش معه ، إن تأنفه وحديقته ومكانه
السحيق وأسلوبه المستهين في الحياة .. كل ذلك يثير أعصابه . إنه واحد
من هؤلاء الرجال الذين يصفرون ويفنون كل صباح عندما يستيقظون ..
وهم صنف لا يرتاح له الكبتن ميخائيليس ومع ذلك ، فقد كانا صديقين
شريفين عندما يجد الجمد وينتفض المسيحي لكي يخلقوا شجارا مع
الإتراك ، ثم ان الأثنين كانا من الغادة .. وكلا منهما كان يحس بأنه
مستول . ولكن ما إن تهدأ الأحوال حتى يفترق الاثنان كل في طريق مضاد

الطريق الآخر . كان الكابتن ، بوليكسيجيس ، يرى أن الكابتن ميخائيليس
يشبه الدب المتوحش ويقول لنفسه دائما ، أنا لا أخيه . .. وكان الكابتن
ميخائيليس يقول لنفسه عن الكابتن بوليكسيجيس : . إنه حلاق ، وليس من
دوفي . - وهكذا فقد حث الفرس حتى يتجاوزه نون أن يكلمه ..

واكأن الكابتن بوليكسيجيس أدرك حين رأى ذلك الوجه الكالح ، أنه
داس إلى مالا تصمد عقباه . وأن النتيجة لن تكون سوى متاعب
للمسيحيين . ومن ثم فقد استجمع شجاعته وصاح :

- إلى أين يا كابتن ميخائيليس ؟ !

ثم عد إدراجه كما لو كان يعترض طريقه .

ودعهم الكابتن ميخائيليس :

- ابتعد عن طريقي إذا كنت تريد الا يطاك الفرس يا كابتن
بوليكسيجيس .

ولكن الكابتن بوليكسيجيس وقف في وسط الطريق وإدراعه معدودتان
ولم يتزحزح ..

- بحق المسيح يا أخى ، لا تهبر فورتك . أنت ركن من أركان المسيحية ،
إن كريت تحتاج إليك ، إن حياك ليست ملكا لك ، انها ملك لكريت وقد
تحتاج إليها قريبا ..

ولكن الكابتن ميخائيليس لم يشعر بإدراء لهذا ، الكابيتايتو ! . مثلما
شعر في تلك اللحظة . بالأمس هرب فوروجاتوس من القبولسطة خرج فيها
إلى الباب المؤدى إلى الشارع لعجود أن يستنشق الهواء . وفي تلك
المنطقة تبادل بسع كلمات مع جارتهم .. زوجة ، كراسوجوريس ، وسمع
عن نهب الكابتن ، بوليكسيجيس ، في الحي التركي . وحين عاد إلى القيو
فس ما سمعه على مسمع الكابتن ، ميخائيليس ، وتظاهر هذا بأنه لم
يسمع ما قال إلا بالكاد ولكن ما سمعه كان أشبه بضربة عنيفة لقلبه .

ولم يعد يحتمل الآن ، فانتحنى من فوق فرسه وبدات شفاه ، تغلفان
بالحمم .

- اذهب ومارس إعراضك على من تعرف من النساء . ا . ودعنى وحدي

اتجه أولا إلى مقاهى الأتراك .

والصبر وجه الكابتن بوليكسيجيس وأجاب في تحد :

- عندما تكون في سلام فانا أغرى الهوانم . وعندما تكون في حرب فانا أقفل الأعتاق . وتلك طبيعة الرجل في رأيي .

ثم استدار نحو . على آغا . وقال :

- احض من فورنك إلى بيت فانجيليو وأفرغ حمولتك .

ثم دفعه بيده حتى انطلق . ثم تقدم خطوة .. ووضع يده فوق عنق الفرس الساخن وقال في صوت خفيض :

- كابتن ميخائيليس . استسلمك بمسيحيته . ما الذى يخيفك منى ؟ انا لا احب نظراتك هذه اليوم . إنها تخترق جسدى كما لو كنت اثنى تركى --

- ابتعد عن طريقي إذا كنت لاتريد أن يطاك فرسى .

- قل لى .. ما الذى تأخذهُ على ؟ لماذا تدير رأسك على هكذا ؟

وصاح الكابتن ميخائيليس للمرة الثالثة :

- ابتعد عن طريقي إذا كنت لاتريد أن يطاك فرسى .

- هكذا أنت دائما .. لا أحد يستطيع أن يتحدث معك . لا أحد يعرف كيف يتعامل معك وصاح الكابتن ميخائيليس في غضب .

- يا ذكائك .. يا كابتن . هنومة . ا .

وهمز فرسه .. فرفع سالفه الخلفيتين عاليا حتى أنها لخطات الكابتن بوليكسيجيس بمقدار شعرة .

وتتم الكابتن . بوليكسيجيس . وهو يعض شاربه :

- ماذا أفعل لهذا الرجل ؟ ! .. إنه بعد كل شيء .. مسيحي .. وفارس ..
ولو لم تكن كذلك لعرفت كيف أعاملك أيها المعجوتين ا

ثم بصق ثلاث مرات .. كما لو كان يريد أن يتخلص من هذا اللغاء الشرير ثم تابع سيره إلى بيت ابنة أخيه .

دانت . فانجيليو . تجلس إلى نولها وقد انتهت لتوها من العمل في آخر قطعة القماش الحنطية المزودة العرض والتي ستصنع منها سراويل العريس وملابس نوم العروس . وبست الكوك وسط القماش في عجلة .

كأن في عجلة من أمرها لأن موعد العرس اقترب وأصبح يواجهها كحيوان أسود ضخم . كما أنها هي ذاتها كانت تتحفظ كالحَيوان - كذب منتفخ -

لكن تجمى نفسها منه .. من ذلك الحيوان الكريه . لأن ذلك الزواج كان يبدو كذلك بالنسبة إليها - بذلك العريس المتعب المتوهك - half helping بعونياته . وبصوت القسيس (الكاهن) ذى الطراوة المقرزة ..

الرخيصة .. أولدت هي من أن تكون من نصيب هذا الجزء من رجل ؟ أمن أجل متعته كانت تسمن نفسها سنين طويلة حتى امتلا صدرها وأردافها .

وحتى طال شعرها ليصل إلى ركبتيها ؟ كل هذا من أجل . تيتيوس ؟ ا .
و تروجه هكذا همس عمها . بوليكسيجيس . في أذنها . قولى نعم يا

فانجيليو . إن الزوج وسادة ذات رغب downy تبعث الدفء فيك
أه . أين الله . حتى ينطلق صوتها ليخرق السموات السبع وهي تصيح :

أنا لا أريده . أنا لا أريده ؟ فكم سنة أمضتها وهي تحلم في نومها بشاب يظلم متشح بعباءة من الصوف حول كتفيه .. شاب مهضوم

الأرداف . عرييد يحب الخمر والنساء والشجار . ويبيع أمواله في علمه .. شاب لا يبارى مثل شقيقها . يامانديس . ا ... أه .. كم مرة

وبالأخرى كلما أشعلت المصابيح مع مواجهة حرم الايقونة . iokon shrinck التي كان يتوجه إليها والداه - كم مرة توجهت بالصراعة إلى

القديس نيكولاس . راعى البنات البتيمات . وإلى القديس . فاموريس . الذى يجيء بالعرسان . حتى يهبها زوجها مثل شقيقها ! .. نعم مثل شقيقها

وأيس مثل عمها . بوليكسيجيس . هذا الثرثار الضئيل الكلال . وليس مثل الكابتن ميخائيليس الذى تعرق أنفاسه برائحة الكبريت . والذى ترتعش

أمانه حتى كلاب الجيران ينبغي لحسب أن يكون مثل شقيقها يامانانديس . جسدا مثل شجرة السرو . ووركان مثل وركى كلب من نوع البوكسو أو مثل وركى ملاكم Boxer وصدر مثل القلعة . وإلا فإنه من الأفضل لها أن

يبقى بلا زواج . وأن تصبح عجوزا تعيش مع شقيقها . هو أيضا ينبغي أن يبقى بلا زواج - أن الزوجة سوف تدمر كل هذه الرقة فيه . أه لو مانا معا في نفس اللحظة .. ودفنا معا في قبر واحد تنمو على جانبيه شجرتا سرو . واحدة منهما نحيلة رقيقة مثل شمعة . والثانية انثوية متفرعة الأغصان ا

ولكن .. ها هو ذا العم بوليكيبيجيس ، قد جاءها ليقول إن عليها .. أن تغلب ، تيتيروس ، شقيق الكابتن ميخائيليس ، زوجها لها . فتصبح بذلك زوجة رجل من عائلة ذات قدر .. رجل يعولها بعد أن يبدد ديامانديس أشجار الزيتون وحقل الكروم التي خلفا لهما والداهما . ولم يعد باقيا لها سوى هذا المنزل .. وهو ، اللوحة ، البتيسة التي أصبحت تملكها .. ولكن .. ! قد لاتمضي شهر قليلة قبل أن يأتي عليه هو الآخر تلك الشقيق الأصغر الشره .. فمأذا بعد ؟ ..

وتعمتد في عناد وهي لاتزال تنسج على نولها : « الخطأ كله خطأ بوليكيبيجيس هو الذي أوصلي إلى هذا كله ! هو الذي اغرائني بأن أقبل ، ولكن الله عدل ، ولسوف يعاقبه على ذلك . وإذا لم يفعل ، فإني زفرت الرجل الأعزب سوف تنقض على بوليكيبيجيس مثل الرعد .. ولعلها أن تحرقه ! ..

وضرب الكابتن بوليكيبيجيس الباب الخارجي ففتحه ودخل ثم استدرا نحو ، على آغا ، الذي كان ينتظر بالخارج وأشار إليه أن يدخل ويترك حمله ، وقال له في يشاشة وهو يلقي إليه بقطعة من العملة القضية .

- جوزيت خيرا يا على آغا ، فلتنقض وقتنا طيبا بهذه القطعة .

وتلقى على آغا قطعة العملة وأمسك بها في قبضته بشدة كما لو كانت طائرا سوف يطير بعيدا عنه ثم انحنى ليقبل اليد الكريمة .. ولكن بوليكيبيجيس سحبا وهو يشكك قائلا :

- أنا لست أبا أو إماما يا على آغا .. إلى العلتقى !

ثم اخترق فناء الدار فقفز الكلب في الركن الذي كان يقبع فيه وهو يشتمهم .. ثم غالب أن انزوى في مكانه بعد أن عرف القادم الجديد ..

وعبر باب المنزل المفتوح رأى الكابتن بوليكيبيجيس النول - ذلك الحيوان العنزي الأليف ذا الأقدام والسيقان واليدالات والريش المعدني والاسن والامشاط والصوت الرقيق إذ يلف ويدور وكأنه صوت سفينة تنشق الماء ..

واستدارت ، فانجيليو ، ورات عمها ، فاستجمعت كل قواها لكي تبسم اسلمة ترحيب ، ولكن من بين شفقتها ، وانفها وثقتها بدا أن الابتسامة لا لمحرج إلا سعا ! كان الحال قد انتهى بها إلى أن تصبح جامدة قليلة الكلام بصفة دائمة ، تحس دائما كما لو أن دورة مستترة تنهش أشعاعها ، وبدات السفره تكسو وجهها وبدا صدرها يهبط ويرتخى ..

ورأت على آغا خلف عمها ومعه السلة .. وأدركت كل شيء ، فقالت وهي تحس نظرة إلى السلة ، ورات مبادئها من الأواني المعدنية .. وأضاء وجهها للحظة ..

- أنت شديد الإسراف يا عمي جورج .

وضحك الكابتن بوليكيبيجيس وهو يحاول أن يعيد الدم إلى وجنات أبنه أمه .

- ، لا بد من يوم يتزوج فيه كل امرئ ، يا فانجيليو ، وإذا كان حقل الكروم قد ضاع .. فلا ياس .. الناس يقولون إنه ليست هناك متعة أكبر من الزواج .

وانفجرت فانجيليو :

- ، الناس يقولون

ثم سكنت فجأة :

وحلس الكابتن بوليكيبيجيس فوق الأريكة الصغيرة ورفع عن رأسه طربوشه (فقد أحس بالحرارة) ووضع على إفريز النافذة ، بينما انحنت فانجيليو على ركبتيها وبدات تخرج ما في السلة من أوان معدنية واحدة بعد الأخرى .. وأمتلا البيت بالأوعية والأطباق والأباريق .. وبدات تشع عن وجه فانجيليو حمرة الدفء وهي متحنية تخرجها كلها ..

وقالت يتصف قلبها ! :

- جراتك الله خيرا يا عمي ، أنت في مكان الأب بالنسبة لي .

.. أنت تقولين ذلك بنصف قلبك يا فانجيليو ! أنت ستزوجين ، ورغم ذلك أنت يا طفلي تكادين أن تيكى ، ارفعى هاتين العينين وانظري إلى

عيا .. ابتمسى .. ابتمسى ولو مرة واحدة .. اطلقى ولو صيحة واحدة
تسرع بعدها انفاسك أكثر ! عندما تسجع العرائس أخر قطعة من شياهن ،
فإنهن يعنين وهن يفعلن ذلك فتتهنن بيوتهن - نعم ، بل إن الجيرة نفسها
تهنن كما أن زازالا أصابها - إنها تسمى أيام العرس ! ولكنك تتصرفين كما
لو كنت تنسجين كفتا لا ثياب عروس !

وامتاجت فانجيليو . كلمات كهذه تثير الغضب من رجل نال كل ما يريد ،
بعادت لخطتها فى خطيبها . او كان من الممكن حقا أن تعنى به من أجل
هذا الوجه الشاحب ؟ وأحسست بطعم غريب داخل فمها . ويأتها على وشك
أن تنفجر مرخية العنان لنفسها .. ولكنها تردت .. ماذا كان يمكن أن
تقول ؟ ! إن الأمر سيان على أية حال .. إذا كان المرء سعيدا ، فلماذا إذن
يصيح ؟ ! وإذا لم يكن سعيدا .. فلماذا أيضا يصيح ؟ ليس بمقدوره أن
يعبر من قدره شيئا . والأفضل إذن أن يبقى ساكنا ..

ولكن الكابتن بوليكسيجيس لم يستطع أن يتحمل تلك الشكوى الخرساء
من ابنة أخيه . كان يوم العرس يقترب . فى عيد الفصح سوف يكون
الاكليل . وقيل أن يأتى ذلك اليوم كان لابد أن يوضح الأمر لابنة أخيه ،
كان يحس بأننا ننظر إليه بعينين رافضتين كارهتين منذ أن أتم خطبتها ،
لابد أن يدعها تعرف - قبل أن تتزوج - إن الأمر كله شيئا يفرى به
عريسها حتى يقبل الزواج منها لقد كان مترددا حتى أخرج لحظة ، واضطر
الكابتن بوليكسيجيس يوما إلى أن يفتح حافظته لقرده ويخرج منها خمس
جنيهات ذهبية ويعطيها له وهو يقول : * خذ .. يا مدرس ! .. واعتبرها
بوطة إضافية .. ولا داعى لأن تخبر أحدا - ولا حتى الكابتن ميخائيليس أو
العروس .. أو شقيقتى .. ها أنذا أطلق ابنة أخى بالذهب .. وأعطيتها
لك ! .. هكذا استطاع أن يدبر الأمر .. فلماذا حدث ؟ ! الأنسة العروس
تشبح بوجهها كما لو كانت تلمررب الكينين ! إن عريسها مفرز لها توريد
نفسها أميرا من الأمراء ؟ !

وخرجت فانجيليو من المطبخ وبيدها صينية مستديرة فوقها أقداح
القهوة وكوبيا من الماء البارد وبعض الكرز المحفوظ . ووضعتها فوق مقعد
فى مواجهة عمها .

- استمعى إلى يافانجيليو .

ثم اتقى بنظرة نحو الباب ...

- ألم يعد دياماندس بعد ؟ ! الأيزال شقيقك هذا السليم فى جولات
العاسة ؟

وردت فانجيليو فى اعتزاز :

- إنه شاب .. ووسيم .. وذلك من حقه .

- من حقه ؟ ماذا ؟ هل من حقه أن يسبب لك الخراب يا
فانجيليو ؟

- بسبب لى الخراب ؟ ! ولكن .. لو لم يكن معى .. إذن لكنت قد مت ..
ماذا كان لى بعد لى أحيا من أجله ؟ دعنى أقل لك يا عمى ، إننى أعتنى
عنى الآن .. وأقبل القيد الذى وجدته من أجلي . أقبله حتى إذا ماتتزوجت
لم أجد شيئا يفرقنى عن شقيقى ، وإلا .. فليخطف الشيطان تيتيروس !

وابتلع . بوليكسيجيس ، الماء البارد .. وكنم غضبه ، وتعمد أن يقضى
وقتا أطول فى مضغ حبات الكرز المحفوظ كيما يمنع نفسه من أن يعد
سخاليه فيمسك بابنة أخيه من شعرها ويطوح بها عرض الحائط ..
وأخيرا .. بدأ يبرم شاربه وهو يقول :

- اللعنة ! .. إنه شقيقك وليس حبيبك . هو أيضا سوف يتزوج ويكون
أسرة .. ويومها لن يعود فيفكر فى الحانات ... !

وقفزت فانجيليو واقفة وقد توجهت خداهما وصاحت :

- ادعوا الله ألا يكون هذا مكتوبا .. فإذا كان مكتوبا . فإننى أدعوا الله
أن يمسه ! ..

وصاح بوليكسيجيس وقد استبد به الدهول :

- ماذا هناك يا فانجيليو ؟ ! اتحمينه أكثر من زوجك ؟ ! ولكن هذا أمر
شائن ! أهد كل الجهود التى بذلتها ..

وصاحت فانجيليو وهى تيصق بين أسنانها فى حق :

- انت بعتنى بقطعة خبز ...

ولم يعد في مقدور الكابتن بوليكيستيس أن يسيطر على نفسه بعد ..

— بقطعة من الخبز .. اللعنة ١٢ .. ربما يبدو لك الأمر غامضا يا اميرتى ؟ يا لذلك ١ .. وملا باله يمكن أن يجد العريس ليرقيه فيك ١٢ الشهاب ١ الخصال ١ الثروة ١٤ .. لقد بلغت الخامسة والثلاثين وتجد وجهك مثل غيب الثعلب الجاف وأصبحت عجوزا بشارب ١ وهذا الكلب السلاقي - أخوك - قد نهك فلم تعودى بعد أكثر من خرقه بالية ١ من الذى سينظر إليك الآن - بل من الذى يمكن أن يرغب فى النظر إليك أيها المسكينة ٢ ؟ لقد أعشى الله عينى تيتوريوس - فقبل الزواج منك ..

ودفنت فانجيليو وجهها بين يديها وبدأت تبكي دون أن تتحرك .. واهتز قلب الكابتن بوليكيستيس ، كيف خرجت هذه الكلمات من فمه ١ ؟ وماذا يمكن أن يفعله الآن ١ ؟ كيف يمكنه أن يهدىء الهمة المسكينة ١٢

وضع يده فوق شعرها الكثيف وقال :

— كلنى كلنى يا عزيزتى فانجيليو .. كلنى بكاء ، سوف يكون كل شىء على مايرام بدمية الله - إن رجلا طيبا سوف يرعى شؤونك - ثنى من هذا - ما أسرع ما تزهر هاتان الوججتان ويشيح فيهما الاحمرار وتعودين صغيرة من جديد ١ وعندما يصبح لك أطفال طرفاء

وقالت فانجيليو فى احتقار وهى تمسح الدموع من رموشها ..

— هر ١ ، تيتوريوسات ، صغيرة ١

— ربما لا يسبحون مجرد تيتوريوسات ، صغيرة ١ سوف تجرى فيهم أيضا دماؤنا نحن ، وربما يصبح أطفالك مثل شقيقك ١

وأصابتها الدهشة ١ ... وأحسبت بالدماء تجرى فى عروق صدرها الخامس .. وقالت وهى ترتعش .. ١ أسكت ..

ونهض الكابتن بوليكيستيس ، واقفا .. ومد يديه ليحتضن ابنة أخيه ولكنها ابتعدت عنه .

— حسن .. سوف نتحدث فى يوم آخر يا فانجيليو ، سأخرج الآن لبل أن يعود شقيقك السكر ، فليست لدى رغبة فى رؤيته هنا ..

وزعم طربوشه فوق رأسه واتجه نحو الباب ، وفى نفس اللحظة تتعاضد فيرون حمار ثعلب ، وفتح الباب الخارجى بعنف وظهر الشقيق على منتهى الأذى منها وقد وضع خلف إحدى أذنيه منسلوخ حبل لسفر .. وخلف الأذى الأخرى سيجارة .. بينما تدنى معلمه متهدلا حول كتفيه ، وعندما رأى منه عسى وجهه وزعم شفثيه ، هنا مرة ثانية .. هذا الشاغبة ١٢ ؟ فلهيتمسه الشيطان ١ .. وتماسك ١ ورفع قبعتة وأجهاز القناء ودخل دون أن يرى الأذى المعدنية فوق الأرض - فتمشأ فيها وسب ولعن ١

وانشاح الكابتن بوليكيستيس بوجهه متقززا .. وقال فى احتقار ١

— الناس يشربون النبيذ .. ولكنهم لا يسكرون ١ خذنى انا مثلا .. الناس يشربون وراء النساء ولكنهم لا يهينون أنفسهم ، وخذنى أيضا مثلا ..

وسخر ديامانديس ، باحتقار .. فلم يكن يحتمل كلماته معه .. وكان أيضا يعرف نقاط الضعف فيه .. وخرج لسانه عن سيطرته - فاندفع بهدم -

— نعم الرجال يشربون النبيذ ولا يسكرون ، وهم أيضا لا يعضون إلى فرائشهم - ولكنهم يمتطون صهوات جياهم ويركضونها - لانحو حى الاتراك جريا وراء إحدى الهوائيم ، ولكن نحو مقاهى الاتراك بحثا عن الاوقات .. خذ أنت نفسك مثلا يا عسى .. خذ مثلا فى الكابتن ميخائيليس ١

واخترقت الكلمات قلب الكابتن ميخائيليس - فقد أحس بأن هذا الشقيق السكر كان على حق ..

— اللعنة عليك أيها الزائف ١ أنت تصلح فقط فى توبيد دبوقة أختك فى الضرع والنساء والساعات والسلاسل .. لو أنك فقط تصب حسبا للرس ١ .. ولكنك لاتصلح لشىء من هذا أيها الفاضل ١

ويصاح ديامانديس .. وقلز فوق الأذى والادح يريد أن يسلك بخناق معه - ولكنه تعثر وسط فوق الأرض محدثا صوتا داويا ..

وشحك الكابتن بوليكيستيس فى احتقار وقال وهو يجتاز عتبة الباب ..

— أرجو لك أن تسعدى بشقيقك الصغير يا فانجيليو ١

- يعلم الله أنتى سائل سعيدة به حتى آخر يوم فى عمرى ..
وانحتت تساعد شقيقتها على النهوض من وسط الأوانى النحاسية
المبعثرة واجلسته فوق الأريكة ووضعت وسادة خلف رأسه وربتت عليه فى
رقبة ..
وفى منتصف النهار عاد « تراسوس » من المدرسة فى اضطراب شديد
وصاح وهو يطوح فى الهواء بقبعته الحمراء التى صنعتها له شقيقته :-
- ماما .. فرس أبى يثير الشرار بوقع حوافره على الأرض ! .. رأيت
بمتمنى صهوته على طول الشارع العريض وأصحاب الدكاكين والاسكافيون
واقفون يشيرون لىه . قال بعضهم أنه قادم من الحى التركى . وقال آخر .
إنه متجه لىه . ووقفت أنا هناك وزفقت قبعتى ولوحت له . ولكنه لم يلتفت
لئى ! كان الشرار يتطاير من حوافر الفرس !
وقالت الام وقد أفرغها إعجاب ولدها بأبيه ..
- كان السيد باراسكيفاس هنا يشكو لى . قال لى إنك انت واصداقك
أختطفنا ابنته أول من أمس .. الا تخجل من نفسك ! ؟
وضحك « تراسوس » .
- لماذا فعلت ذلك ؟
وهز الصبى الوقح كتفيه .
- أحببنا أن نعمل ذلك . وبالأمس كدنا نعمل شيئاً بتيتيوس ! دبرنا أن
نختبئ خلف الباب ومعنا حبل .. ونلقى انشوفة حول عنقه عندما يدخل
كما يفعلون عندما يسكنون بجواد برى وكما عرفنا منه هو نفسه أول من
أمس .. كنا نريد أن نلعب لعبة مروضى الخيول !
وصاحت الام :
- أشرار ! وماذا فعل بكم هذا الرجل الطاهر ؟ لماذا تريدون قتله ؟ ؟
- قتله .. ؟ ؟ نحن ! ؟ .. ولكننا نحبه . كانت مجرد لعبة فكرنا فيها . ولم
يكن فى نيتنا أن نجذب الانشوفة بسرعة . كنا نريد فقط أن يخيفه لترى
كيف ينصرف !

ثم أخرج من تحت إبطه حبلاً كان الفسيل ينشر فوقه فأعادته لى
مكاته . ثم عيس بوجهه وشدت قبضته كما يفعل أبوه !
... وفى الدقيقة الأخيرة خاف الآخرون . كانوا كثيرين جدا . وكان
منهم كثيرون من الجبناء . ولكن لاياس .. مرة أخرى سوف انتقى أنا
ببغى . أقل عدد منهم وأكثرهم استعدادا . وربما فعلتها وحدى ..
ودق الباب .. وظهر « على آغا » ..
- بالله عليك يا سيدتى . أفندينا أصابه الجنون من جديد . إنه يجرى
وسط الحى اليونانى قادماً إلى هنا . أغلقى الباب ولا تدعيه يدخل .
ولم يتم كلماته حتى اندفع أفندينا يعوى إلى داخل الفناء .. وتألعت
« كاتيرينا » لمنظره . لم يكن يبدو على المخلوق المسكين مظهر بشرى .
كانت ملابس المصنوعة من الخيش ممزقة تهدلت منها شويطها . وكانت
عيناها حمراوين منتفخين من البكاء . وكان قد خلع عمامته ولوثر فروة رأسه
بملبسة كثيفة من روث الخيل . وركع فى منتصف الفناء وبدأ يصرخ معولا :-
- لقد دنست نفسى . لقد أكلت لحم الخنزير وشربت الخمر وتقرهت
بكلمات دنسة .. أبها الرجال والنساء .. سامحونى ! وصسى الله أيضا أن
برحمنى ويقفر لى ! سيدتى . إذا سالك الرب غدا . فقولى له إن الكابتن
ميخائيليس هو الذى دفعنى إلى ذلك بالرغم منى ..
وزحف على ركبتيه نحوها ليمسك بيدها ويقبلها .
- كونى رحيمة بى يا سيدتى . أنا فى عجلة من أمرى .. أريد أن أشر
لذابى وعارى . وما قد بدأت بك أنت . ويعددها سوف أهرع إلى باب الباشا
وإلى بيوت الأتراك الآخرين . لايد أن ييوا فروة رأسى .. لايد أن يعرفوا
خطيئتى .. لايد أن ييصفوا على . ولكننى أضع ثقتى فىك أنت . إذا سالك
الرب غدا . فقولى له أن الكابتن ميخائيليس هو الذى أجبرنى على فعل ذلك
على الرغم منى ..
وضحك تراسوس . وكان قد أخذ حبل الفسيل خفية . وجعل منه
انشوفة . بينما خرجت « رينيو » من المطبخ ووقفت تنظر إلى أفندينا
بضمحكة فى الأخرى .. ولكن « كاتيرينا » احست بعينها تبللها
الدموع .. وقالت فى رقة ..

- قف يا أفندينا .. قف .. سوف أفعل ما تريد ، سوف أشهد أمام الله
أننى رأيت بعينى رأسى كيف أجبرك الكابتن ميخائيليس على ذلك ضد
مشيئتك ..

- جزاك الله خيرا يا سيدتى ! والآن .. أسألك أن تقدمى لى معروفا ..
هلا بصفتى على ؟

- لا .. لن أفعل ذلك يا أفندينا ، قف وادهب مع بركات الله السميع ..
- إذا لم تصفقى على فلن أخرج ..

ثم استدار نحو على أفا ..

- وبورك أنت بعدها يا على أفا - نعم أنت .. كسليم مؤمن .. وبعدها
يجىء دور ميخائيلوكاسترو كلها .. قبل أن أفادرك التكية ، نهض جدى من
قبره وبمسق على ، وابتدأ أيضا يا سيدتى لايد أن تفعلنى إن كنت تؤمنين
بالله !

واستدارت زوجة الكابتن بعيدا ..

- لا أستطيع لن أفعل .. أنصرف .. وإلى الملتقى !

وصاح أفندينا فى الم :

- لن أنصرف ، نعم ، بحق الرسول محمد سوف أبقى هنا حتى تصلى
على وجهى .

وقالت الزوجة وهى تعود إلى المطبخ ..

- سوف أفعل ما أريده أنا لا ما تريد أنت يا أفندينا .

وصاح أفندينا باكيا ..

- فسوف أبقى إذن راکما فوق هذه الحجارة حتى يطلع الفجر .

ثم بدأ يضرب رأسه فى الحجارة وهو يرفع صوت بكائه ويعبى مثل
الكلب ..

وأشار « ثراسوس » إلى شقيقته ، ففهمت ما يريد منها وأخذت مكانا

قربا منه خلف ظهر أفندينا ، وبينما كان أفندينا يضرب على صدره بقبضة
يده ويعبى وعيناه معلقتان بالمطبخ ، القى « ثراسوس » الأناشودة حول
منه وامسكت « رينيو » هى الأخرى مطرف الحبل ، وجذبه الاثنان ..

وانطلق أفندينا صيحة مخوفة ، وهوى إلى الخلف وقد علت الزرقة وجهه
وجحنت عيناه .. وطوح ببديه يريد أن يمسك بالأناشودة حتى لا يفتنق .
وإن بديه كانتا عاجزتين من شدة الرب .

وصاح ، على أفا :

- بالله عليكما يا اولاد .. انتما تخنقان هذا المخلوق البائس :

وسمعت زوجة الكابتن صرخة المسكين فعدت تجرى ، وجذبت الحبل
من أيدى ابنتها .. وأرخت الأناشودة ، ثم دفعت بأفندينا نحو الباب
المؤدى إلى الشارع وقالت :

- أخرج .. أخرج أيها النفس .. أخرج ! أخرج مع أطيب تمنياتى !

ثم دفعت بشدة فانكفا على أرض الشارع ، وأغلقت دونه الباب .

وانفجر ثراسوس ورينيو بالضحك ، وقال الاول :

- أرايت يا أماء !؟ .. هكذا يمسكون بالجناد ..

ثم عاد يقول وهو يعلق الجبل مرة أخرى بالقرب من مرجل الفسيل :

- الآن .. لن يستطيع تيتيروس الإقلاات !

اندفع الكابتن ميخائيليس كالعاصفة داخل الحى التركى وهو ممتد فرسه
ولم تستطع الفم أن تغطى على ذهنه بسحابها ، وضغطت ركبتاه بقوة
على جانبي الفرس وهو يحس بقوة لاحدود لها فى أطرافه وعضلاته ، قوة
كانت أغلب فى تأثيرها عليه من الخمر التى معها ، قوة لم يكن يعرف كيف
يطلق نفسه من أسارها ..

لم يكن يستطيع أن يميز بوضوح أولئك الرجال الذين كان ينطلق بفرسه
بعذائهم وبدت البيوت أملمة كما لو كانت اقصر .. وبدت الشوارع أضيق
وسمعت (الجوارى) صوت فرسه ، فاندفعن إلى الطاقات ينظرن من

خلالها ، كن يعرفن الكابتن ميخائيليس ولكن الشمس كانت تخطف
أبصارهن فلم يستطعن تمييز وجهه جيدا لئلا تكن من أنه هو نفسه ،
وتساعت ، أجلاجا :

- ما الذى يتويه هذا الدب فى هذه الليلة العمرة ؟ .. ! .. !
سكرانا ؟ .. !

وقالت : « ناليا » وهى تحرك انفها كما لو كانت تتشمم شيئا :

- انظرى جيدا .. هناك شيء ما يحدث هنا .. لماذا ظل الكابتن
بوايكسيجيس يتشمم داخل حينا منذ أمس ؟ لقد رأيته فى نفس اللحظة
التي بدأ فيها الزلزال عندما اندفعت ، أمينة ، إلى الخارج وقد تظاهرت
بالاغما .. ليست صدفة عجيبة حقا أن يظهر فى نفس اللحظة ؟ .. ! ..
أكانت صدفة حقا ؟ .. ! أم أنها كانت مرتبة من قبل ؟ وهكذا افانقت من
أغماحتها على يديه ... ! ومنذ ذلك اليوم تلطخ حينا بالفسل ! وما قد جاء
دور الكابتن الدب اليرى .. هذه الخنزيرة الملعونة ! إن كلا الفاسقين
يستطيع أن يشم رائحتها على بعد ميل كامل ! ..

وقالت : « فروسين » :

- حسنا ! حسنا ! .. أسمعون سهيل جواد نورى بك ؟ .. !

وكان صوت الجواد المعطم النبيل يتناهى من الـ **Konak** التركى
يحبى الفرس الشهوان .

وقالت : « ناليا » وهى تقهقه :

- أمينة تتأوه ! ..

ولكن سرعان ما احتبس لسانها داخل حلقها .. بينما صرخت
شقيقتها ، فعندما سمعت الفرس سهيل الجواد الفحل ، تراجعت كما لو
كانت تريد أن تبدأ فى الرقص .

وصاح الثلاثة معا :

- سيقتل الكابتن ميخائيليس !

ولكن الكابتن مالبثا أن ضغط بقوة على ظهر الفرس .. وغرس المهمازين
فى جسدها ، فأحسست بسيدتها القاسى فوق صهوتها ، فأحسنت رأسها
وعدت تتحرك من جديد .. وغنم الكابتن وهو يضرب رأسها يقبضته :

- اللعنة عليك ، وعلى هذا الدم الخار الذى يجرى فى عروقك !

وعندما أصبح قريبا من البحر ، أرخى لها العنان لتتطلق حرة على طول
الأسوار الحصينة ، وأحس بهواء البحر يعلل صدره ، وهو يقتحم بها
المناريس التي كستها الأشباب .. وبدا يحدق فى البحر الأزرق العميق
المريد تلعب صفحاته تحت أشعة الشمس .. وأطلق ذاته خلال الصباب إلى
الشمال فى اتجاه اليونان .. وتنهى وهو يحدث نفسه :

- يا للهى .. بك أنت سبحانك .. أستطيع أن أتحمل هذه الحياة .. بك
أنت .. وليس بالناس .

ثم تابع سيره .

كان لايفتا يجادل ربه كلما تذكر « كريت » التي تخلى عنها الكل ..
وكانت عبارات الكفر تقترب من طرف لسانه .. لم يكن ينوح أمام الله ، بل
كان غاضبا منه سبحانه ، لم يكن يطلب الرحمة ، ولكنه كان يطلب العدل .

وارتفعت من جهة الجنوب سحابة قائمة لاتزيد فى حجمها على حجم
زحاجة ماء .. ثم مالبتت أن أصبحت أكبر فأكبر حتى حجب السماء
ومنفت الشمس وجاءت ريح رطبة ناعمة من جهة البحر مست وجهه
الشاحب .. فرجع بصره إلى السماء .. ودمدم فى حلق :

- ولكننى لا أستطيع أن أحارب بك أنت سبحانك .. فسوف أحارب إذن

والناس ..

وغرس كعبيه فى جنبى الفرس ثم اندفع مرة أخرى عبر الشوارع
العريض وكانه البرق .. ووقف الكريتيون لكي يروه جيدا ، ومضى هو لا
يلوى على شيء حتى بلغ « بوابة كانيا » حيث المقهى التركى الكبير
والاعوات الأتراك العرموقون يسترخون بداخله .

من هذا المقهى كان الأتراك يتبادلون الرأى والمشورة كلما لاحت فى
الاذق ثورة .. ومنه كانوا ينطلقون إلى المذبحة والعدى بين أسنانهم وفى

الامسيات الربيعية . وعندما تغيب الشمس : كانت ارضه تستقبل قطرات المطر .. فتشيع في الجو رائحة الرطوبة ..

في هذا المقهى كان يجلس وجهاء الشباب التركي في حلقة فوق مقاعد مرتفعة وهم ينشدون اغانيهم الرثية . وفي ليالي الشتاء . كان قضاصوهم الموهوبين يضحكونهم .. وكان المؤذن هو الآخر يتردد على المقهى .. يمتحن الشباب التركي وينصت إلى اغانيهم الرثية ويشاركهم في امانتهم وحنينهم . ويختلط عليه الامر في النهاية فلا يدري ما إذا كانت هذه هي الجنة أم مجرد مقهى . لم يكن هناك شيء ينقص المقهى ليكون جنة على الأرض . الطبايق الجيد للتارجيلة . والتسائم الرقيقة من الحديقة المحيطة .

كان النهار قد جاوز نصفه . وكان الاغوات قد انتهوا من طعامهم وجلسوا القرفصاء في استرخاء فوق اسطة من القش فرشت بها ارض المقهى . وهم يدخنون التارجيلة . ويعيونهم نصف مغلقة من النعاس .. ويحسبون القهوة في سعادة .

كان كل شيء قد رتب نفسه من اجل ان يمنحهم هذه السعادة الفعند اجيال بعيدة . كان اباؤهم الأول قد قسموا كريت فيما بينهم .. واصبحت كرومها وزيتونها وارضها الخصبة تركتهم لابنائهم . بينما تركت الأرض الجرداء لليونانيين . وبين الحين والآخر كان الكريتيون يرفعون رءوسهم . ولكن جنود الاناضول كانوا يتصدون لهم ويجبرونهم على الانحناء بالقوة الطاغية .

ويظهر نوري بك حليق الذقن . اثيقا رشيقا مثل الاسد يشاربه الدقيق الاطراف المصبوغ بالصبغة السوداء . المسحوب كالحديد وهو يتحنى يمينيا ويسارا في تحية صامتة . ثم اتجه إلى داخل المقهى ليجلس إلى جوار المائدة التي تهيأ فوقها بضاعة المقهى .. ليكون وحيدا ..

ومنذ ذلك اليوم الذي تعثر فيه جواده وسط المقابر .. وظهر امامه شيخ ابيه بشعره الاشعث الاحمر الكالدم . لم يكن نوري بك يهنا بنوم او طعام او حديث . كانت دماء ابيه تصرخ طالبة النار . وكان ابناء القاتل واخوته واحفاده لا يزالون على قيد الحياة .. يتزوجون .. وينجبون . ويختلفون ويمرحون . بل إن واحدا منهم تجرأ منذ وقت ليس بالبعيد على أن يدخل

جمارا إلى صحن مسجد القرية ! إلى متى يا ترى يمكن أن تحتمل هذه الاعانات ! .. وإلى متى يتلأب ابوه بهيم عارى القدمين بين الارض والسما . لقد أن الأوان لأن يتخذ قرارا .. إذا كان رجلا حقا ..

وقال لصاحب المقهى :

.. هات تارجيلة يا حسين ولا تدع أحدا يقترب مني .

وسمعت جلية كالرعد على بعد .. وادار الاغوات وجوههم تجاه الباب كالثب السماء مغطاة تماما . ولاح برق أصفر وأخذت الريح تصفر وقال أحد الاغوات :

.. الحرارة هي السبب . سوف تمطر السماء .

وقال آخر :

.. من حظ المحاصيل .. وقال ثالث :

ومن حظ اشجار الزيتون واللوز - الحرارة تعجل بتضجها

ثم اتجه ناحية الباب يراقب الطقس .. وما إن بلغ عتبة الباب . وقبل أن يرفع يده ليحمي نفسه .. قفز إلى الخلف في دعر بينما ظهر الكاتبين بهيبليس فوق صهوة فرسه على مدخل المقهى وهو ينحنى ليرى الاغوات حاسمين في استرخاء يدخنون التارجيلة وهم شبه نيام . واندفعت الدماء إلى رأسه .. ودارت الدنيا أمام عينيه . قهمز قهزمه . فتراجعت لحظة ثم اندفعت داخل المقهى ..

ولم تكن هذه أول مرة يفعلها . وكانوا هم يعرفون نزوات هذا السن .. الملائحت الفرس بعدة مقاعد فحطمتها .. وقلبت إحدى الموائد . وتحطمت بعض الاواني الصينية . ثم اندفعت نحو المكان الذي كان يجلس فيه نوري بك . وحيث كان يقف صاحب المقهى كعادته أمام الفحم المشتعل يضع اولاني القهوة أو يرفعها .. ثم توقفت :

وساد المقهى اضطراب .. وطوح الاغوات التارجيلات جاتيا وهبوا واقفين . الاكثر جراءة منهم تحسبوا بسرعة خناجرهم تحت احرمتهم الحمراء . بينما رفع الشيوخ منهم اياديهم صائحين :

- احذر يا كابتن ميخائيليس ، لانثرتها مذهبة !

ولكنه لم يتحرك .. وطرق بسوطة في الهواء وهو يصيح :

- اخرجوا جميعا .. اريد ان اشرب قهوتي وحدي !

ورغم ان المؤذن كان رجلا مسنا ، إلا انه قفز من حيث كان يجلس
الفرغصاء .. وصاح بأعلى صوته :

- لن تجدي لعبتك هذه المرة يا كابتن ميخائيليس ، لن تسخر منا كل
عام . هذه المرة لن تخرج من هنا حيا أيها الكافر !

وتقدم تركي جيسور يحضى المؤذن وقد أسف لحاله ، ثم استل من
منطقته خنجرا ذا حدين وأندفع نحو الفارس ، ولكن الكابتن ميخائيليس
ألتحنى وأمسك برسفه حتى شلت يد الشاب التركي وأفلتت الخنجر فدهسه
الكابتن في جيبه ثم رفع سوطة من جديد وصاح :

- إلى الخارج .. إلى الخارج !

وصاح الرجل المعجوز :

.. والله الله ! ..

ولم يدر لحظتها ماذا يفعل هل يبعث رسولا إلى الباشا يطلب جنودا ، أم
يبتلع المرارة ويستسلم تجنبيا لمذبحة ١٩٠٩ .

ولم يتحرك نورى بك ، وظل يدخن نارجيلته وقد ألتحنى رأسه ، ولكنه كان
يمسح المقهى بطرف عينه حتى غاب كل شيء أمام بصره ، لم يكن يرى
لحظتها سوى صدر الفرس ويطنه الذين يتصيب منهما العرق .. وحذاء
الكابتن ميخائيليس .. وكانت أولى قطرات المطر قد بدأت تتساقط في
الخارج .. وزعدت السماء ، وأز رجاج الأبواب .. وصرخ المؤذن :

- ، إذا كنتم تؤمنون بمعهد فدعوني أمزقه إربا كالسردين ! ..

ولكن بعض كبار السن أمسكوا به من وسطه ومن أسفل أبطيه
وأبعدوه ..

وظل نورى بك كما كان ، ينفث دخان النارجيله من أنفه .. ها قد جاءت

الساعة ، لقد وعدت أبي ، ولقد كنت أصلى من أجل ان تحين فرصة
أوبه .. وما هي قد لاحت هذا شقيق القتال .. أبي نفسه هو الذي دفعه
إلى هنا ، ألقى ، أمام فوهة غدارتي .. الآن نعم ! ..

ولكن يثق أكثر .. تعتمد ان يثير غضب قلبه :

.. الآن تحرك يا قلبى اتحرك .. واضرب ام تراك خانقا ١٩٠٩ .. وألصق
بفمستي يدي تكادان ان تحترقا كما لو كانت قد أصابته حمى ، ورفع
بصره .. ورأى الكابتن ميخائيليس يحدق فيه مباشرة ، ووضع نورى بك
جانبا أبواب النارجيلة ، ووقف في بطنه وتناقل ثم اتجه إلى الفرس فأمسك
برمائها ، ثم استدار نحو صاحب المقهى الذي كان قد اختبأ تحت
العائدة .. وقال :

- حسين .. هات قهوة للكابتن ميخائيليس وسوف أدفع أنا الحساب ..

ورفع يده في أسلوب أمر .. وأشار إلى الشباب التركي الذي كان يحيط
بالفرس ان ينصرفوا .. وقال الكابتن :

- نورى بك ، اريد ان اشرب قهوتي وحدي ، لا اريد صحبة ، أخلوا
المقهى تماما ، وقال نورى بك وهو يحاول ان يرسم الرقة على وجهه :

- اليس لي انا الاخر ما اريده ١٩٠٩ .. طلب بسيط يا كابتن ميخائيليس ! ..
طلب واحد .. لاتحاول إهانتى ..

وانزلقت العصابة البيضاء من فوق رأسه ، فالتحنى برفعها ووضعها
مذارجحة فوق رأسه .. وانتشرت في جو المقهى رائحة المسك ، وارتعشت
على الفور خيالنسيم الكابتن ميخائيليس وتضخمت عروق رقبته .

وتسللت رائحة المسك في أحشائه مثل السكين ، وأربكته ، الليل ،
سياج الليمون ، الحجل ، الضفصكات خلف الشباك ، صرير درجات السلم ،
ثم فجأة .. جسد داخل إطار البيار ، جسد يتمايل ويملا الهواء بأريج
المسك .. وهذا الدورى نفسه .. وأطلقت عينها الكابتن ميخائيليس بريقا
كالشرار .. وأزاح نورى جانبا ، ثم همز فرسه وتحرك إلى وسط المقهى
وصاح كالمنسوس :

- اخرجوا .. اخرجوا .. أخلوا المقهى ! ..

وأحكم نوري بك العصابة حول شعره ، وعض شفثيه بقوة حتى أسال دماغها ، وكان الاغوات قد غادروا أمكنتهم وأحاطوا به وبينهم لثان متحفران خلف الباب وقد أمسكا بخنجريهما بينما تسلس كبار السن خارج المقهى الذي بدأ يخلو ..

وأحس « نوري بك » بالخجل .. وقال للأغوات في هدوء :

- أخرجوا .. إنه سكران ، فلا تجادلوه ، سوف أبقي أنا حتى أطمئن إلى أنه لن يتمادى وحتى أطمئن إلى أنه لن يرتكب ما يخلجنا ..

ولم يتحرك واحد منهم . وكان سليم أغا اعقل الأتراك لم يتحرك من مكانه حتى تلك اللحظة ، وظل يدخن نارجيلته دون أن يتكلم .. ولكنه الآن نهض وأقفا ، كان شيقا وهبه الله الثراء والعلم والأسرة الطيبة .. والأولاد .. وسيما نفس وسامته في شبابه .. أشار إلى الأغوات وقال في لهجة وثيقة :

- لا تقعدوا سيطرتكم على أنفسكم ، لن يخدم شيئا أن تستحم كريت بالدماء ، سوف تأتي الساعة حتما - إننى أراها رأى العين - حين تدفع اليونان الثمن .. وأستطيع مقدما أن أرى رأسه معلقة بالمسامير أعلى باب الباشا .. صبرا .. وهيا بنا الآن ..

ثم اتجه نحو الخارج في خيلاء .. يتبعه الاغوات .. وأصبح المقهى خاليا ..

وبرم الكابتن ميخائيليس شاربه وهو ينظر إلى نوري بك ، وضحك وبرزت أصابعه المتخلمة .. وبق قلبه فرحا ، وأستدار نحو صاحب المقهى الذى كان قد بدأ يطل من خلف العائشة .. وقال :

- حسين .. ضع الاتاء على النار .. وأصنع لى قهوة .. بلا سكر !

كانت العاصفة قد انتهت ، وأسقطت السماء حطها ، وبدأت ميجالوكاسترو ، كأنما قد ارتفعت قاصبتهم جزئا من السماء ، وغمرت مياه الأمطار الشوارع وأظلمت الدنيا إلا من خطوط البرق هنا وهناك ، تبدو حول المانين ، وفي الشوارع العريض كان يلعب وجه الكابتن ميخائيليس فيبدو عبوسا جريئا وهو يمضى إلى بيته والفرس من تحته يلعب صدرها الذى بلله العرق والماء .

وكانت « نوة » من ذلك النوع الذى لايدوم أكثر من نصف الساعة ، ثم لذها ربح قادمة من الجبال تحمل سحائب متفرقة تيدد من خلالها زرق السماء الداكنة ، وأشعة الشمس فى مولدها الجديد تتحدد فوق المدينة التى بللتها الأمطار ، وبدأت كأنها تضحك ، وأخذت فوق الأسطح تضرب أجنحتها العيلىة بينما المدينة تخرج من العاصفة نشيطة شابة من جديد ، وأربيع أزهار العسل والحبق يغمر الجو .

وفتح « الكابتن ميخائيليس » الباب بضرية واحدة ، وسأقت زوجته الفرس إلى خطوته دون أن تتكلم بينما اندفع هو إلى الحجرة وعلق الخنجر اللزكى فوق مذبح وأمام أيقونة « القديس ميخائيل » .

كان الكابتن ميخائيليس يغنى بالخجل والعرق والمطر .. وأحضرت له ملابس جافة ارتداها فأحس بالانتعاش وتمدد فوق فراشه وقد أغمض عينيه ، وسرعان ما عانقه نوم هادئ شقوق .

وبينما كان هو يستريح ، كان أبناء « ميجالوكاسترو » يتجمعون ، أتراكا وكريتيين ، مبكرين فى بيوتهم ذلك المساء ، كان الرجال يتهايمسون ، وكانت النساء يجلسن وهن يستمعن ويتنهدن ولا يقلن شيئا ، ترى - أقدر لكريت - التى تخلى الجميع عنها - الا تستريح ؟ ! أتعود المذابح من

جديد . ونعود نحن فنفتقد رجالنا ١٢ .. كذلك كن يفكرون . وأين ذهبنا نحن ؟ مرة أخرى بأطفالنا وأولادنا وأوعيتنا وثيابنا فوق الظهور ؟ أما الكريتيون الحذرون من أصحاب الحوانيت وحقول الكروم فقد كانوا يلعبون الكابتن ميخائيليس وانتهاكاته السكرية التي تجر معه كثيرا من الرجال إلى المتاعب . وأما الآخرون - المعامرون - فكانوا على العكس .. فخورين بهذه الاثارة الجديدة لتركيا ..

وتجمع الأثراك من ناحية أخرى . بعضهم في النكايا . والآخرون في قصر نوري بك . كانوا يلعبون ويهددون دون أن يعرفوا كيف يسفلون الالهانة ، وأخذ المؤذن يحرك النار الكامئة في صدورهم بينما كبار السن الأكثر تعقلا يحاولون أن يخذلوا هذه النار . أما نوري بك . فقد جلس في الركن .. يفكر .. دون أن يقول شيئا . وأخيرا تعبوا من الضجة ومن نبح الكريتيين في مخيلتهم . فاشتاتوا من بينهم ثلاثة ليتجهوا في صباح اليوم التالي إلى الباشا . ليطلبوا منه أن يشد وطاته على الكريتيين . أهو باشا . أم قطعة من الـ Halva ؟ كم مضى من الزمن منذ أوقف شئق الكريتيين على الشجرة الجرداء أو وضع رءوسهم وأيديهم في خشبة التشهير ؟ إذا استمر على ذلك فسوف يجرو هؤلاء الكفار إذن على كل شيء وسوف يجرو هذا الكابتن المجنون - وليعاقبنا الله إذا كنا نكذب - على اقتحام المساجد ذاتها بجواده ليخرج الناس منها بسوطه . يجب أن يشق أو يوضع في خشبة التشهير حتى لو كان ذلك لمجرد تحذير أتباعه ووضعهم على الجادة . هكذا ينبغي أن تصرف تركيا ! ولكن هذا الباشا يعالج الأمور مع هؤلاء الكريتيين بأسلوب ناعم . إن هذا المخلوق الضعيف يتحدث عن العدالة ! إنه يلعب الدالمة مع المطران . ويشرب معه المصطليكي ويأكل البقلارة . ويجلس الاثنان طوال الليل وهما يتهاसान بالأسرار !

وفي صباح اليوم التالي . اتجه الثلاثة إلى القصر وإذا بهم لا تزال يدوي فيها طنين التعليمات التي حملها إليهم الآخرون . سار المؤذن في الوسط . وإلى يمينه سليم آغا . وإلى يساره - غارقا في أفكاره - سار نوري بك . كانت خطواتهم كأنها مسجوبة . ولم يكن أحدهم يتحدث إلى الآخر . فقد كان كل منهم يحاول أن يتسج خيوط أفكاره - ما الذي سيقوله للباشا .. وكيف ! ؟ ..

كان سليم آغا . صاحب دخل سنوي كبير من الزيت والقمح واللوز والحبس . ومن ثم فقد كان إلى جانب السلام ! وكان المؤذن يمتصن القرآن إلى صدره .. وكان نوري بك موزعا لا يستقر على رأي . كان أبوه قد ظهر له مرة أخرى في نومه وهو لا يزال في الثياب المهلهلة وقد كسته الأقدار ووسع تحت وصادته خنجره الشمين ذا المقبض الأسود . ولكنه حين استيقظ في الصباح لم يجد شيئا . كان قلبه على وشك أن يتحطم . إن الرجل العجوز لا يبقى بي . لقد كان ينتهد . وأخذ الخنجر مرة أخرى . إنه يخشى إلا أشرف هذا الخنجر .

وجلس الباشا عابسا متوكم المزاج ينتظر الثلاثة في الديوان الكبير . متاعب جديدة ! الكلاب والقطط سوف تنتقل من جديد هؤلاء الكفار . يربدون الحرية - عليهم اللعنة ! والآخرون يدفعونني إلى ذبح كل الكفار - عليهم اللعنة هم أيضا ! إن العبودية يا كفار يا محترمون . أمر قرره الله ! إن عبيدي - اغتواي - هم أيضا شيء قرره الله . إنهم يحركون الأرض . وينظمون أمور التجارة . ويجمعون الضرائب . فمن ذا الذي يريد أن يذبح الدجاج الذي يبيض ذهبا ! ؟

وظهر الخادم المغربي : لقد وصلوا يا أقدنينا الباشا ..

ورد الباشا بصوت مرتفع : فليدخلوا ..

ودخل الثلاثة واحدا إثر الآخر . وانحنوا .. ثم أخذوا أماكنهم في الديوان دون أن يتكلموا .. جالسين القرفصاء ..

وكان المؤذن أول المتكلمين . فتح فمه الواسع وأخذ يتكلم ويتكلم . كان ذا وجه رخواني العظام . بصدغين غائبين ولحية بيضاء شعناء كحزمة منس . وتؤول بين حاجبيه في حجم ذباب الخيل يكسوه الشعر ويبدو كأنه

من ثالثة في وجهه . أخذ يتكلم ويتكلم . وكلما سمع صوته زاده حدة . ثم أخرج القرآن من صدره وأخذ يدفع به إلى الامام وإلى الخلف وهو يقرأ . وأحسن الباشا بشيء كالرداء . فرقع غليونه عن فمه وقال :

يا أقدنينا الشيخ . أنت أصبتي بالدوان . تكلم ببساطة حتى أستطيع أن أفهمك . أنا من الأناضول . بطيء الفهم ! في كلمة واحدة ! ماذا تريد ! ؟ ..

وقال المؤذن وقد وقف شعر تؤلوله :

- أريد عملا ..

وتنهى الباشا واستدار إلى سليم أغا ..

- و أنت يا سليم أغا .. ما رأيك ؟ هل ترى ذلك أنت أيضا ؟

وإجاب الملك ذو الشعر الرمادي :

- نحن نريد السلام يا أفندينا الباشا ولا نريد مذبحه ! إن عامنا هذا عام طيب . شهر مارس قد جاء بمزيد من الأمطار . منحت المحاصيل قوة . الزيتون أيضا يبشر بخير وسوف يكون لنا محصول طيب وزيت وفير هذا العام والحمد لله على ذلك كله . السلام مطلوب إذن يا أفندينا الباشا ! كريت . هذه . وحش ضار . فلنحرص على ألا نوقفه من جديد - إنها وحش يفترس الرجال ! وماذا إذا كان مجنون قد اقتحم مقهانا ؟ ثم إنه كان ثلا . فلنغلق عينينا - فإن من مصلحتنا أن نغفل ذلك . نحن إن يادلنا ضربة بضرية مثل الخنازير . فسوف نضيق . إن تناطح الخنازير ينقلب في النهاية إلى مأساة يا أفندينا الباشا . المتح سجلاك وضع فيها اسم هذا الكافر ! إن اسمه . الكابتن ميخائيليس . وسوف تجر حتما ساعته . أنت الباشا . و أنت الذي تطلع الروس ..

ثم استدار إلى المؤذن وهو يقول :

- ذلك هو رأيي يا أفندينا الشيخ . ومعدرة إذا قلت لك : أنت لا تملك أشجارا . ولا كروما ولا حقولا . وإنك لاتعرف أحزان الأرض والرجال والنساء . ولكن سلتني أنا .. هل الأشجار والزرع . أتراها تريد مذبحه ؟ ! كلا .. إنها لاتريد إلا السلام ..

وصاح المؤذن وهو يشير إلى القرآن ..

- أنا لا أسأل الأشجار والزرع ولا أسأل الناس . ولكنني أسأل الله سبحانه !

ثم عاد فأخرج القرآن وفتحته . ولكن الباشا رد يده وهو يقول :

- تستطيع - مادمت تقصد - أن ترى لكل سؤال جواب في القرآن -

تريد مذبحه ؟ افتح المصحف وستجد - مادمت تقصد - تبريرا لها . وإذا فدحه سليم أغا فسوف يجد كلمات أخرى عن السلام .. وكلا الأمرين من عند الله .. كلاهما من عند الله .. فاهدا إذن ..

ثم استدار إلى نوري بك :

- و أنت يا نوري بك .. ماذا ترى ؟ مذبحه أم سلاما ؟ ..

وحك نوري بك سابقه عدة مرات بقبضة يده . وهو يلكر في إجابة سديده . وكان قد استغرق وقتا طويلا لكي يصل إلى رأى . لم يكن يقطع يريد السلام . فقد صيرت تركيا طويلا . وازداد اليوناني وقاحة . وقد جاءت اللحظة التي ينبغي أن تقصل فيها رأسه عن جسده . ولكنه هو أيضا لا يريد مذبحه - فلم يكن شرها للدماء . ولم يكن شيئا يقرأ القرآن ويعسف فيه القار ..

وضايق انتظاره الباشا :

- حسن ؟ ! إننى أسالك مرة أخرى . أتريد السلام أم تريد مذبحه يا نوري بك ؟

وقال نوري بك وهو يحاول أن يكسب مزيدا من الوقت :

- لقد ضاع منا الطريق المباشر والسهول يا أفندينا الباشا ..

- إنه لم يضع يا رجل . ولكننا نحن الذين أصابنا العمى فلم نعد نراه . أم ترى وجدته أنت ؟

- أعتقد ذلك يا أفندينا الباشا .

- أرجو ذلك ! تكلم إذن وأطلقنا من إسار هذا العمى .

- لا سلام .. ولا مذبحه .. العذبة يدفع وحده الثمن ..

- الكابتن ميخائيليس ؟ .. هل تقصده ؟ !

- امتحنى الحرية يا أفندينا الباشا في الأناكر من يكون هذا الذي اتقصده . أنت الباشا . وإن أنت تدخلت فسوف تتكلم الأسلحة وسوف يسبح في الدماء . دعنى أنا أخذ بالثأر نيابة عن تركيا ! وقريبا .. سوف

تعرف من يكون المذنب .

- هل سنقلته ؟

- سوف افعله .. نعم ، ولكن ، لن يعرف احد من يكون القاتل ، ثقيبي .

وقفز المؤذن في غضب وهياج وصاح :

- ليس المذنب رجلا واحدا ! .. إنهم الوب ، وكلهم يستحقون المشهورة ، هذا فقط هو الذي يعينه الحفاظ على السلام ! إن اليوناني لا يفهم غير ذلك أقطع رأسه إذا أرتب ، وبعدها - وبعدها فقط - سوف يهدأ ! ..

ولكن عقل ، سليم ، اغا ، كان مليئا بالاشجار والكروم ! .. فقفز هو الآخر وبدا يصيح .. وأصبح صوت المؤذن كالجرس - فكيف يوقفه ؟ وتحول الموقف بينهما إلى ضربات يتبادلانها ، وحال « ثوري بك » بين الاثنين بينما ظل الباشا جالسا فوق الديوان لا يتحرك .. إن هؤلاء الأتراك الكرزيين يديرون رأسه ، كلهم على حق .. وكلهم على باطل ! وأنى له إذن أن يدرك الحقيقة ؟ .. ثم إنه - وهذا هو الأهم - يحس بحاجة شديدة إلى النوم ، فلم تكن ليلته طيبة - لقد أكل وشرب أكثر مما ينبغي أن يأكل ويشرب ، وأصبح من الضروري الآن أن ينتهي من هذه الحكاية ، ومن ثم فقد نفخ عن نفسه التعب وصاح :

- انتم ! ! ! الا تخجلون من انفسكم ؟ كلوا عن الشجار ، قلت لكم كلوا ! ثوري بك .. أنت على حق ، تلك طريقة الجمال ، الطريقة المثلى ! افعل إذن ما يلهمك به الله سبحانه ، إنني امنحك الحرية في أن تفعل ذلك ..

والتقط ، سليم ، اغا ، عصا رأسه البيضاء من فوق الأرض ثم استدار نحو ثوري بك قائلا في ضراعة :

- إنني إباركك فيما أنت مقدم عليه إن أنت تصرفت بحذر ، وقلبت بحكمة ، لانثر علينا وحشية اليونانيين وأحفظ السلام من أجلنا .

وصاح المؤذن :

- لن ادع قاتوني يوبلا بالأقدام ، سوف أخطب في المسجد وأوقف تركيا !

وانكز كلماته اعادت الحياة إلى الباشا الذي رفع قبضته وصاح :

- يا شيخ ! انا هنا مسئول عن « ميغالوكاسترو » بحق النبي الأشرف لابنك كرامة مثل الكلب المسعور ! اسمع ! لن تكون هناك مذبة - فامرح هذه الفكرة عن رأسك - طالما أنني لم أثق أوامر من القسطنطينية -

ثم وقف وادار رأسه جانبا (لأنه احس بتعب في معدته) وعاد يصيح :

- انهبوا ، فأنا مشغول ، افعل ما اتفقنا عليه يا ثوري بك ، ولكن كن حريصا ، الحرص يا اولادي ، لأن هؤلاء يونانيون .. اللعنة عليهم ! ولولا وجودهم في طريقنا لكنت تركيا قد ابتلعت العالم كله .

ثم صفق بيديه فبرز الخادم العفريي -

- أوصل البكوات إلى الخارج .

وبينما كان يجري هذا اللقاء ، كان هناك ثلاثة اخرون يارتدون - يونانيون هذه المرة - يبحثون الخطى في طريقهم إلى المطران : هادجيسيفاس ، والتابنثي اليس ، والعجوز ما فرويس الشهير باسم « البقة الوردية » .

كان الأول اعرج شاحب اللون متأنقا ذا لحية رمادية علتها صفرة دخان التبغ ، سافر في شبابه إلى فرنسا ليصبح طبيبا ثم عاد وقد دارت رأسه ، وأصبح مجلونا بالتلقيب عن الآثار حيث ينقد العمال ليجفروا الأرض من امله في الأماكن التي توجد بها الاطلال أو في أماكن مهجورة من الساحل ، وحتى في كهوف « بسيلوريتيس » . ولقد ظل يحفر ويحفر ، وعثر على ابياد وأقدام من الرخام وأطباق غطتها كتابات غريبة ، وأوان فخارية .. كان ينقلها جميعها إلى مقر الأسقف حتى ملا بها حجرة ضخمة ، ولكن الحجر لم تعد تتسع لهذه الكنوز ! ومن ثم فقد بدأت تخرج إلى ساحة الكنيسة وهدد المسيحيون بأنهم لن يرسلوا زوجاتهم أو بناتهم إلى الكنيسة حتى لا يشاهدون هذه التماثيل القديمة المخجلة .. العارية تماما ! ... لقد كانت نصيحة طيبة تلك التي تلقاها .. هادجيسيفاس ، الكبير بالأرسل انه إلى فرنسا حتى لا تتلف روحه هناك ، وما قد ثبت بالفعل أنها كانت

نصيحة في محلها ! فقد عاد الابن بمعمل معه أخذ يحفره ويحفر ويحفر .
ولقد قيل أنه كان يبحث عن الخنزيرة الذهبية ذات الثمانية أولاد ، ولكن
كيف له أن يجدها وقد انفق كل ما يملكه أجورا للعمال ؟ ها هو ذا يجري
الآن في ردائه الشاحب وبخذائه البالي ، يحدث نفسه في الطريق ، وعن
قريب ولاشك ، سوف يقذف الناس بالحجارة . والوحيد الذي كان يحترمه -
وتأمل ! - هو المطران الذي أعطاه مكانا بالقرب من مكانه هو بالكنيسة ،
والذي يقدم له خبز التضحية قبل أن يقدمه لأي شخص آخر . وهكذا ، فإن
المسيحيين في الجزيرة كانوا يختارونه متحدئا باسمهم لدى المطران
والباشا .. وعندما حدث مرة وألقت بعض السفن الأفرنجية مراسيها في
الميناء ، كوجه هو إليها وظل يثرثر مع الفرنجة طويلا دون أن يفهم
الكريتيون كلمة واحدة مما قال ، هذا المسكين ! - أم أنه كان حقا يتكلم
بلغات أجنبية ؟ !

أما الثاني فهو الكابتن « إلياس » الذي كان من تذكارات عام ١٨٢١ ! ..
إنسان متغض الوجه .. طويل كبرج بلا نافذة أو باب ، ذو جسد جعلته
طلقات الرصاص مثل الغربال ، عريض المنكبين ناتئ العظام صوته مثل
قصف الرعد - إذا قال لأحد « طاب يومك » فكأنه يلقي إليه بصاعقة !
وكانت عينه اليسرى قد انتزعت من محجرها بشوكة على يد أحد الباشوات
الأتراك ، ولكن اللجنة الوطنية الأثينية بعثت إليه بعين زجاجية - أول عين
زجاجية تراها كريت ، وكان الكابتن يستخدمها بديلا عن عينه المفقودة ،
فيتطاير منها الشرر إلى هؤلاء الذين لا يملك لهم ضرا ، وكان يخلعها في
المناسبات الرسمية ويبقيها داخل كوبة من الماء ويمثل بحضرة المطران أو
الباشا بعين واحدة ليذكرهما بعام ١٨٢١ ، وكان الاثنان الآخران قد جعلوا
مكانه بينهما .. وسار معهما منحنيا فوق عصاه في طريقه مرة أخرى إلى
المطران بعين واحدة ..

وأما الثالث - « مافروديس » العجوز .. البقة الوردية - فقد كان أعزب
مشاكسا كريها وبائسا ، جائعا طوال الوقت .. فإذا تناول طعاما ظل يئن
ويرتعش من البرد ويلعن ويسب إذا ارتدى معطفا يدفئه ، وكم من أرامل
ويتامى ألقى بهم في قارعة الطريق عندما كانوا مدينين له ببعض النقود ،
كان يجمع المال ويجمع : الذهب والجنيهاات ومزارع الكروم والحقول

والبيوت والسفن البخارية ، وحين يسأله أحدهم ، لماذا لايتناول وجبات
منتظمة ، كان يقول :

- « وماذا أكل ؟ وأين أكل ! لا شيء من هذا كله لي ، كل شيء ملك
الامة ، وليس من حقي أن أقسى شيئا منه » .

وعندما اندلعت ثورة ١٨٧١ ، توجه إلى المطران ومعه وثيقة مختومة
وقال « سيدى الأسقف ، خذ هذه الورقة ، أننى أهب كل ثروتى لمجلس
شيوخ ميغالوكاسترو ، إن الثورة تحتاج إلى أموال ، فبع إذن كل ما أملكه
وحوله إلى أسلحة » .. وسأله المطران والدموع فى عينيه : « وأنت يا
مافروديس ؟ كيف ستعيش » .. « ولماذا تقلق على يا سيدى الأسقف ! !
سوف أطرق الأبواب وأتسول » .. واهتم به المطران بعدها وجعل له
مخصصات شهرية ، ولكنه مالبت أن بدأ يعود كعادته إلى الحرص ، فكان
لا يأكل ولا يشرب ولا يرتدى ثيابا لائقة .. وبدأ يقرض الناس بالربا
الفاحش وينمى رأسماله من الأرامل واليتامى حتى كون ثروة جديدة ، وها
قد أصبح عجوزا .. إحدى قدميه فى القبر ! .. وقد كتب وصية جعل فيها
امواله مرة أخرى للامة ، ولكن عقله كان مثل الفأس فى حدته ، فإذا
ادلهمت الأمور أخذ ينبش يمينا ويسارا حتى يجد المخرج ، ومن أجل هذا
بعث به المسيحيون لكى يكون متحدئا باسمهم .

كان المطران ينتظر الثلاثة جالسا فوق ديوان مريح فى مقر الأسقفية
وأمامه انجيل مفضض فوق قاعدة من خشب السرو على هيئة ملاك بأسطر
جناحيه ، وفوقه علقت ثلاث صور : إلى اليمين صورة بطريرك
القسطنطينية ، وإلى اليسار صورة القيصر ، .. وفى الوسط صورة مسجد
ايا صوفيا ، وكانت الشمس تتسلل خلال ألواح النوافذ الزجاجية الملونة
وتلقى بأضواء زرقاء وبنفسجية على الحائط المكتظ بصور المطارنة
والأساقفة الموتى والأحياء بلحاهم البيضاء كالثلج أو السوداء كالقار ،
وبقلنسواتهم وتمائمهم وعصيتهم التى يتوكأون عليها ، وكان البعض منهم
يبدو بشوشا ذا عينين سمحتين ، كثيف الشعر مثل كبش لم يجز صوفه ،
بينما كان البعض الآخر يبدو بشعا بعينين جاحظين وفم واسع ورقبة غليظة
يمسك بعضا .. كما لو كانت عصا شرطى ! وكان من بينهم أيضا المطران
الحالى أيام كان أرشيماندريتا فى « كيبف » .. كم كانت نظراته أيامها

تمسك القوة والنبل ! هذا البطل الصغير .. يبدو في الصورة وكان الله سبحانه قد خلقه لكي يصبح قائدا عظيما أو نبيا . او لكي يصبح رجل دين مرميا في اقباله على الحياة ! ولكن المسيح قد اختاره لنفسه بكلمات كانت بالنسبة اليه لكثير عبودية من العسل المصفى .. وقاد خطاه على مهل لكي يصبح ما وصل اليه - مطرانا .

والتي بنظرة إلى صورته وهو شاب .. ثم تنهد وقال :

- لقد تقدمت بي السن ، وعظمتي الصخرة مثل الكرنبة . واقترب اليوم الذي سوف أقف فيه أمام مقعد الحق ويبدأ فارغتان . كم من مطارنة لكريت سوف يقفون أمام القاضي الأبدى الأزلي يحملون في أيديهم عدة الشهادة - المدى والغفوس والسياط والخوازيق ، وأنا وحدي الذي سيقف خالي اليدين .. يا إلهي .. امنحني شرف أن أموت من أجل شركك . ومن أجل شرف ابنتك المسكينة !

ودخل ، مورزولوس ، بوجه شاحب :

- لقد وصل الكبار ياسيدي ، وهم ينتظرون .

- فليدخلوا . وخذ أنت الصينية الفضية الكبيرة وأدرها عليهم ، أنهم سادة .. كما تعرف ..

وتردد ، مورزولوس ، لحظة على عتبة الباب . ونظر إليه المطران في رهشة :

- هل هناك شيء آخر يا مورزولوس ؟

وقال مورزولوس ووجهه يعكس القلق :

- سامحني ياسيدي .. سامحني على ما فعلت يا سيدي .

وابتسم المطران وقال :

- هون عليك يا مورزولوس ، سوف يسامحك المسيح . فاعتمد على رحمته !

- إن ذنبي كبير ..

- ولكن رحمته أيضا واسعة .. اذهب الآن !

ودخل الثلاثة الكبار ، وقبلوا يد المطران .. وجلسوا فوق الديوان ، وأخرج كل واحد منهم مسبحة وانتظروا حتى يكون المطران هو البادئ .. بالتلام .

وتكلم المطران ، وهو ينظر عبر النافذة :

- الطقس رائع يا أولادي ، يا لها من أيام طيبة ! يا لروعة الشمس ! إنها سبة خاصة من الله ! الربيع ! القديس جورج ! كيف حال المحاصيل الآن يا مورزولوس ؟ -

- الحمد لله ..

وقال الكابتن الياس :

- حال المحاصيل طيب يا سيدي ، ولكن حال الرجال سيء . أنا مع العمل البطولي حين تكون هناك حاجة إليه . فإذا لم تكن هناك حاجة إليه .. فهو حماقة !

وقال هادجيسافاس :

- كبار السن يقولون ...

ولكن الكابتن الياس رفع يده في غضب وقاطعه قائلا :

- دع كبار السن في حالهم يا هادجيسافاس ، لقد ماتوا وانتهى أمرهم ، نحن نتحدث عن الأحياء . في هذه اللحظة يعقد الأعراس الكبار مؤتمرا مع الماشا . والله وحده يعلم ما انتهى إليه ، الكلاب حتى الآن . فلنكن إذن على حذر .. ما رأيك أنت يا سيدي المطران ؟ ! -

وقال المطران :

- أنا أيضا سمعت بانتهاكات الكابتن ميخائيليس الجديدة ، ولكنك أنا أسف على هذا الفاس .. أسف من أجل هذا الرجل . لسوف تحطمه الحجر ..

- وأسوف يحطمننا هو ! ينبغي أن نكبح جماحه وإلا ..

وقال هادجيسافاس :

- لا تتوروا بحق الله ! إن إيماننا الكثير لكي نفعله في كريت - إن الأرض مباركة وتخطى من الكنوز أعظمها - تماثيل - صور - قصور ملكية - فكيف بالله يستطيع أحد أن يواصل اكتشافاته وسطوثة ؟ .. يتبعني علينا إن ..

وقال الكابتن إلياس مقاطعا :

- قلت لك دع أناس الماضي في حالهم ، فلتختطفهم الشياطين ! دعهم يتركوننا في سلام ! تكلم يا مافرويس - إن عقلى المسكين لا يستطيع أن يصل إلى حل .. أما أنت فعقلك مثل العانس .. قاطع حاد ، قاطع لنا إن حل .. !

واسعدت هذه الكلمات البقة الوردية ... فضحك وقال :

- إذا سمح لي سيدي المطران ..

وقال المطران :

- ما الذى يضحكك بحق السماء ؟ إن عقلك مثل عقل المرأة ، إن مصلحة مملكة المسيح تعمل الآن عملها ..

وأجاب مافرويس الجوز :

هللويا .. مزمر قصير يا سيدي المطران ! انهض الآن يا سيدي وانهب إلى الباشا ، إنه رجل طيب ، وأناضولى على خلق ولا يجب المتاعب ، قل له كل ما يرضى الله به على لسانك كذبا كان أو صدقا ، كن معه ناعما ... اطلب منه أن يسامحننا لأن الكابتن ميخائيليس كان ثملا ، وإننا نحن سنجزبه على أن يلزم النظام وأنه لن يعود إلى مثل ما فعل . واحمل له معك شيئا من الهدايا أيضا ، صندوقا للطباخ مثلا .. أو قطعة كبيرة من العنبر من أجل غلبونه الطويل ، إن الاستغنية لديها من مثل هذه الأشياء الكثير يصلح لهذه الأوقات السعبة ! اعطه شيئا .. إنه مثل الكلب ، القى إليه بعلمة ليعض فيها ما شاء له العوض ! وسوف يكف معنا عن النباح .. أما محاربنا الشهير هنا .. فسوف يكون له حديث مع الكابتن ميخائيليس ، وعسى الله أن يكون معه وهو يؤدى هذه المهمة !

وصاح الكابتن ، الياس ، وهو يهز رأسه :

- على باب الأعم .. تستطيع أن تدق ما شاء لك الدق ، فإنه لن يستمع - إنه مثل الحائط ، ولكننى سوف أحادثه على أية حال ، أنا رجل عبور حاربت عام ١٨٢١ ، وربما ينصت إلى ما سوف أقوله له .. ويصرف النظر عن ذلك يا سيدي المطران ، فإنا ظن أن مستشارنا المحترم يصدر في رأيه عن عين العقل - خذ عصاك واذهب إلى الباشا .. وبسرعة ! .. بسرعة قبل أن تنزل الضربات !

وجاءت الصيدية الفضية المستديرة ، القهوة ، والكحك والمربى ، وصحت الكبار .. وتناهت عبر النافذة رائحة أشجار اللبون المزهرة ، وطارت نحلة وجومت فوق الرووس الأربعة .. ثم اختفت حين أدركت أنهم ابتسوا لشجارا مزهرا ، وبدأ الثلاثة الكبار يشربون قهوتهم في جرعات صغيرة وهم يصنعون شفاهم ، لقد انهوا مهمتهم بسرعة ، ووصلوا إلى فرارهم بسهولة ويسر .. وها قد جاءت القشدة في موعدنا المعتاد تماما ! وسال هادجيسافاس ، المطران أن يسمح له بأن يلف لنفسه سيجارة .. وفعل الاثنان الآخران مثله ، وما لبثوا أن بدأوا يدخنون ويهونونها نصف مغلقة .. وبدأت سحائب الدخان ترتفع - وتحجب صور البطريك والقيصر وأبا صوفيا ..

وعد المطران يده وفتح أحد الأدراج ثم قال :

- يا أولادى .. سوف أطلعكم على صورة هامة ، لاتنهبوا بعيدا ، فإنتم تعرفون صديقنا موروفولوس ، إنها من صنعه ، إنه شديد الخوف ، ولكنه جامع الخيال أيضا ، إنه يرى أشياء لا يستطيع نحن أن نراها - ليس لأنها غير موجودة .. ولكن لأن الله سبحانه أسدل على عيوننا أستارا كما نفعل نحن بالخوبل حتى لا نتحرف بعيدا أو يسارا وحتى تبقى مثبتة في وجهتها إلى الإمام فحسب ، ولكن الله سبحانه - وهو وحده يعلم السبب - قد رفع الحجاب عن أمثاله من أصحاب الرؤى ..

ثم أخرج من الدرج صورة ملفوفة في قطعة من الكتان الأبيض ، وعد بها يده إلى المتحدثين الثلاثة .

وتناولها الكابتن ، الياس ، وأسندها فوق ركبتيه وحدث فيها بعينه الواحدة .. ثم قال :

- إنها صورة الصليب .. الصليب . ولكنى لا أستطيع أن أميزها جيدا
وانحنى « مافروديس » لينظر .. ثم صاح :

- سامحنى الله .. إن عيني ترتعشان .. ولكن ... ؟

وصاح « هادجيسافاس » وقد أخرج من جيبه عدسة مكبرة :

- شيء مذهش ! .. إنها فكرة رائعة ! بارك الله فى يديك يا
مورزوفلوس ! إنه الصليب . واقسم بشرفى . لو اننى كنت أسفقا لعلقتها
فى مذبح الكنيسة .

ويضحك المطران بمرارة وهز رأسه الطيب الذى يشبه رأس أسد .

وقال « مافروديس » العجوز :

- يا إلهى .. ولكن الذى فوق الصليب ليس هو السيد المسيح ! لقد
أخطأت . إنها امرأة تحمل أحمرة من الرصاص وغدارات فضية وقال
المطران بصوت هزته المشاعر :

- إنها كريت .. كريت يا أولادى .. وهذا الصليب يرتفع فوق كومة من
الجماجم والعظام . السماء ملبدة بالغيوم السوداء .. وثمة برق تكشف
أشعته الدير فى خلفية الصورة إلى اليمين . انظروا إلى برج الدير ..
وانظروا إلى طواحين الهواء امامه وإلى الفياض والحواسط ذات الأبراج
حولها . إنها « أركادى » . وهى هى نى « كريت » مصلوبة على صورة أم
معدبة ترندى السواد ويتساب دمها إلى أسفل فوق بقايا عظام أبنائها .
وإلى الأسفل من الصليب - وعن يمين ويسار - يقف اثنان من الفرسان .
واحد منهم ذو شعر أشيب رمادى . والآخر فى شوخ الرجولة يضع فوق
رأسه طربوشا . عريضا ..

وقال « مافروديس » العجوز :

- هناك كلمات تخرج من فمها .. إنها تقول ...

وتسأل الكابتين الياس وهو يتحنن أكثر إلى الامام ليفرا :

- ماذا تقول الكلمات ؟

« حرك » هادجيسافاس « عدسته المكبرة فى بطنه وقرا : « إلى .. إلى .. إلى ..
أما شفقتنى » .

وقال المطران مترجما ...

- يعنى ... إلهى .. إلهى .. لم تركتنى ..

وظل الأربعة صامتين وهم يحذفون فى صورة الصليب الجديد وأخيرا
صاح « مافروديس » وقد ففر فمه :

- اليست هذه خطيئة يا سيدى ؟ .. كريت كأنها المسيح ؟

وقال المطران وهو يتنهد :

- إنهما واحد .. إنهما واحد .. ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

- ولكنها تستحق ذلك ..

قالها المطران وهو يحذف فى المرأة المصلوبة .. كريت ..

وكم كان « مورزوفلوس » رائعا حين رسمها . المعاناة التى ترسم على
وجهها ! خداهما المثلومتان ! عيناها السوداوان المعدبتان ! .. شفاتها
الديقتان المثلويتان تكادان أن تسمع الأناث منهما قدماهما العاريتان اللتان
شارت بقع الدم فوقهما .. وفى أسفل الصورة يبدو خذاؤها فى لون
الفسدة ! ...

وفجأة . طوح الكابتين « الياس » بطربوشه جانبا فى حركة عتيفة -
وكانما قد وصل إلى قرار بالغ الأهمية - ثم رفع الصورة وقربها من
شفتيه .. وظل هكذا لحظات طويلة وكأنهما لا يستطيعان الفكاهة ! بينما كان
صدره العريض يعلو ويهبط فى عنف . ولم يستطع « مافروديس » العجوز
أن يحتل أكثر من ذلك .. فقد اختطف الصورة ودموعه تنحدر من عينيه
وانحنى فوقها يقبلها وهو يتنحب . بينما كان « هادجيسافاس » يجفف
الدموع من عينيه هو الآخر . ويقف ناظرا عبر النافذة إلى أشجار الليمون
المزهرة .

وأخذ المطران الصورة .. ورسم علامة الصليب وقال وهو يقبل القدمين

العاريين الداميتين .. قدمي كريت :

- إننا نقدر عذابك هذا ..

ثم استسلم الأربعة لأحزانهم ...

وكان المطران أول من تماكب نفسه . فلف الصورة بقطعة القماش ووضعها في مكانها داخل الدرج ثم استجمع قواه وتهض واقفا . وقال :

- انصرفوا محقوفين بالبركة .. والله يبسط فوقكم يد العناية ..

وقال الكابتن الياس :

- ينبغي علينا نحن أولا أن نيسط هذه اليد يا سيدي . إذا لم يبد الله سبحانه يدا بشرية تمتد . فلن يمد هو يده لأحد .. تذكر ذلك !

- صدقت .. صدقت يا كابتن الياس ! سوف أتعب الآن لأقابل الباشا على الفور . وأسأل الله أن أجده معتدل المزاج !

وانضى الثلاثة يقولون يد الباشا السمينة البيضاء . وأخذ الكابتن الياس . عصاه واتجه نحو الباب وخلفه زميلاء . وسار الثلاثة عبر فناء الكنيسة .. وهز الكابتن رأسه وهو يرى أرض الفناء مكدسة بالأبدي والأرجل والرؤوس من بقايا التماثيل المصنوعة من الرخام . وبالاطباق التي رسمت عليها صور ساذجة وقصم في غضب :

- الرجال القدامى .. الرجال القدامى !

وانضى . هادجيسافاس . ويبدأ يقرأ فوق الصخور . فصاح الكابتن الياس . في زميله الأثنيبي :

- دعهم في حالهم .. إنهم السبعة والسبعون حماقة ! سوف أمضى الآن إلى الكابتن ميخائيليس . أما أنتم فلكم أصمقاؤكم الأتراك .. ووه سليم أغا . بالذات .. تحدثوا معي الآن وعلى الفور .. وأسأل الله أن يجنبنا ثورة أخرى قبل أن يحين موعدنا المناسب . إن كريت قد خسرت كثيرا . وهذا يكفيها الآن !

وعلى باب المطران وقف . باريابانيس . ينتظرهم وقد وضع على الأرض سلته المليئة بالثلج المنقوش بالقش والصفيفة الملاى بالشراب وهو يصيح

بين القينة والفينة وكلما مر به أحد :

- يا زار كالتجج .. يارد كالتجج اشتر شراب الجنة ! ..

كان رجلا عجوزا بانسا ذا رأس أصلع وعينين مستديرتين رماديتين مسفورتين براقتين . وعنق طويل ملاتها التجاعيد والكهوف . وصوت حاد يحرق آذان الناس . وكان الأتراك والمسيحيون يرونه مجنونا لأنه لم يكن يحشى هؤلاء أو أولئك . ويقول ما يعتقد بصراحة . بلحن ويكفر مرة في حق المسيح وأخرى في حق محمد وثالثة في حق السلطان . وقد حدث مرة في أحد أعياد الفصح قبل بضع سنين أن وقف أمام مسطوى باشا ذلك الرجل الدموي يعد له شرابا مثلجا لينعشه . وفي تلك اللحظة بدأت روحه تساب بما تصاب به فجأة من اختلاط ! فأخذ يندب قنطى الكريتين في أركاضه . ويقفز في الهواء كأنما تلمسه النيران ولحظتها كان الباشا والأفندية الجالسون معه في الكشك القريب من الأفياء الثلاثة يمشون غلابينهم الطويلة .. كانوا جميعا يستمتعون بتلك التسلية ! أما الذين سمعوا ذلك العمويل فقد أسرعوا بالهرب .. كريتين . واتراكا .. وذلك سايقه ! فأنحى والتقط عصنا أخضر أخذ يلوح به في الهواء في جنون وكانه يمسك بسيف في يده . كان يريد أن يثير الباشا ويخرج عينيه من محجريهما . وأن يتوعده .. وفجأة بدأ يغنى بصوت حاد : إيه يا سيفي اللامع المطيع .. لسوف تذيب كل الأتراك ... !

وأصاب الذهول الكريتين والأتراك معا . ولم يعرفوا لمثلها ماذا يفعلون . وظلوا يحدقون في الباشا وكأنهم يستلهمونه مايمكن أن يفعلوه . ولكن الباشا - لدغشتم - صفق بيديه وقد انفجر ضاحكا . يالها من تسلية - هذا الحطام الأدمى الذي يتوعد الأتراك بغصن أخضر !

صاح الباشا :

- يرافو كابتن باريابانيس . تعال هنا ...

وانفجر الأفندية ضاحكين هم أيضا .. وبدأ الناس يشاركون بدورهم في الضحك . بينما تابع باريابانيس . رقصه وغناؤه وصياحه ..

وصاح الباشا :

- هذا يكفى .. أنت الآن فعلت بنا كل شيء . وها هي ذى تركيا ملقاة

فوق الأرض ! تعال هنا .. قلت لك تعال هنا أيها الفارس الأحمرق .. أنا أحبك ، وسوف أهديك سيفا حقيقيا وأضع فوق صدرك وساما .. فأصغ إلى الآن جيدا ، سوف أمثلك الحرية كل عيد فصح في أن تتصلق بسيفك وتضع الوسام فوق صدرك وفي أن تخطر في شوارع ميغالوكاسترو مثل الباشا من أول ، كانيا ، وحتى بوابة المستشفى .. ومن الجديدة حتى بوابة الميناء ، ولك الحرية كل يوم في أن تقول كل ما يتفق عنه رأسك الأحمرق .. وحتى في أن تلغتي أنا .. فأنت أحقق .. وكلماتك لا قيمة لها .. منذ أعوام يا باربايانيس وأنا لم أضحك مثلما ضحكت اليوم .. ومن أجل هذا فإنتى أشكرك ..

ومنذ ذلك اليوم زادت جوة باربايانيس ، وأصبح الأتراك يتحملونه في نفس الوقت الذي يجدون في تصرفاته التسلية ؛ وهكذا أصبح باربايانيس هو الرجل الوحيد الحر في ميغالوكاسترو ، وكان هو أول من يشم رائحة المتاعب إذا بدا أنها مقبلة . وكان هو الذي يصيح بأعلى صوته مع الشراب في الصيف والساليبي في الشتاء ، بكل ما يدور في أذهان الكرتيين ولا يجراون على الإفصاح به ، وعندما كان يتماذى في ذلك كان يتلقى أحيانا لكمة فوق أذنه . وربما يقذفه الأتراك بقشور اللبون والطماطم الفاسدة ، ولكن ذلك كله لم يكن يمنع لسانه عن العمل .

ومنذ أمس .. بدا باربايانيس يشم في الجو رائحة البارود ، وقد رأى الكبار الثلاثة يتجهون إلى مقر المطران في الصباح الباكر . وذلك أمر يدا معه وكان برغوثا يلعب في صدره ، ومن ثم فقد حذر حاله هذا الصباح أمام باب مقر المطران .. وانتظر .. لا بد أن يعرف ماذا يجري ! .. لقد اقترب عيد القصح ، وسوف يتمتلق بسيفه ويصنع فوق صدره الوسام إياه وينقت كل غضبه هناك بالقرب من الأقباء الثلاثة عندما يجلس الباشا والأفندية ليستمعوا إلى الفرقة الموسيقية .. ولحظتها سوف يكون في مدفوه أن يمنح بعض الرضا والراحة لهؤلاء الكلاب المساكين الذين لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد !

وعندما رأى الإثنين الكبار يظهران ، رفع سلة الثلج بيده ووضع السفينة تحت إبطه وتقدم نحوهما ، وقال :

- طاب يومكما يا كبار ، انتظر لحظة حتى أعد لكما شرابا يشكمنا .

وقد حار وقال الكابتن ، الياس :

- دعنا في حالنا يا باربايانيس ، فنحن لا نريد شرارك .

- لا تكن وقحا هكذا يا كابتن الياس ، فأنا لا أخاف منك ، أنا أحقق كما تعلم ، ولست أخاف من الباشا أو حتى من السلطان ، فكيف أخافكم أنتم أيها الأعيان والفرسان وأنتم تتبولون في سراويلكم ؟ يا باربايانيس معه سيفه - ومعه أيضا خطاب حرية ، وكل الذي يدور في أذهانكم يستطيع هو أن يقوله بلا خوف .

- وقال ، البقة الوردية ، في رقة :

- أرجو أن تكون بخير يا باربايانيس ؛ إكبح لسانك فالوقت لم يحن بعد ، والله يا باربايانيس بركة مثله :

- ومضى سيعين الوقت ؟ أريد أن أعرف :

- ورفع الكابتن الياس عصاه .. فجمع باربايانيس بضاعته وأبتعد .

وضع العطران التعمية الذهبية حول عنقه ، جانب منها يمثل الصلب مصنوعا بالعمياء الملونة ، والجانب الآخر يمثل القيامة - ووضع في جيبه صندوق الطباخ الفضي العتيق المصنوع في أشهر محال ، جانيئا ، حيث مطرانها الذي أهداه آياه .. صندوق له ، ثم التقط عصاه واتجه نحو مقر الباشا سائرا على قدميه يتبعه لحد الشماسية .

وكان الباشا في ذلك الحين قد استسلم للنعاس ، وتمدد فوق بعض الوسائد اللينة ، وبدا يحلم : رأى أنه يسير داخل حديقة بيته في مدينة ، بروسيا ، والأشجار تعد فروعها المثقلة فوقه وقد أزهر بعضها وبيدت الأخرى محملة بالثمار ، وخيل إليه وهو يدخل غلبيونه الطويل ويتجول داخل الحديقة أنه في الجنة وأن الرسول محمدا سوف يرحب به في أي لحظة .

ولكنه رأى لنفسه فجأة في جانب آخر حيث شجرة زيتون عارية أحرقتها ساعة ومالت بها وجردتها من أوراقها وبراعمها ، وقد علقته بغصونها ثلاث شعرات لفاكهة غريبة ، بنادق ورمصاص وخناجر وعصايات للرأس سوداء .. يالها من شجرة زيتون ملعونة تلك التي تحمل السلاح بدل الفاكهة ؟ ، وصاح الباشا فرعا وارند إلى الخلف ليعود إلى داخل حديقته

الزهرة المثمرة ، ولكنها كانت قد غاضت بعيدا ولم يدرى حوله سوى
سحراء موحشة ، وصخور تكسدت خلفها أحراش من البنادق والفدارات
الفضية ..

وضرخ الباشا وهو يصحو من نومه منتفضا :

- كريت ! .. كريت !

وفى نفس اللحظة فتح ، العربي سليمان ، الباب ، وقال :

- أفندينا الباشا .. باشا اليونانيين الكبير قد وصل ، وهو الآن يصعد
الدرج وقال الباشا وهو يمسح العرق البارد عن جبهته :

- لقد رايت طعاما سيئا ..

- هل أخبر هذا الوحش الكبير بأن ينصرف ! ؟

وانتبه الباشا وقال :

- كلا .. دعه يدخل أيها العمى ، أئمة الكفر هؤلاء أحسن من يفسر
الإحلام .. وسوف يفسر لي حلمي .. دعه يدخل ..

ودخل المطران .. وتبولدت الشحية .. والتقى الرجلان ذوا المكانة في
ميجالوكاسترو .. كانا أشبه بمكئين أشبيين داخل هذا المجتمع .. ولكل
مملكته ، هذا الحي التركي ، وهذا الحي اليوناني وكلاهما يلحن الآخر ،
والهلال والصليب مرتبطان ..

جلسا جنبا إلى جنب فوق الديوان العريض ، وأشعل الباشا غليونه بينما
أخرج المطران مسبحته وبدأ يلعب بحياتها الإبتوسية السوداء وهو يفكر
كيف ينبغي أن يبدأ الحديث ، ومن خلال النافذة المفتوحة بدت مبانى
الحرس إلى اليسار .. وإلى اليمين ، بدت الشجرة العتيقة الجرداء إلا
الأوراق الصغيرة ، وعلى مقربة منها بدت النافورة الفينيسية الشهيرة
بأسودها المصنوعة من الرخام ..

وتسلى الباشا وبدأ :

- إنه الصيف يا أفندينا المطران ، يا الله ! .. ما أسرع ما تمر الأيام !

أها عمدة ولا تتوقف عن الدوران ونحن معها تدور ، يجىء الصيف فيقول
المرء ، ما أشد حرارته ! .. أنتنى أختنق ! .. ولا يكاد المرء ينتهي من
هذه التلمات حتى تهب الزوايع وينهمر المطر ويدفن المرء نفسه في عباته
عازلا يقول ذيك عن هذه الأمور الغريبة يا أفندينا المطران ! ؟

وقبل أن يجيب المطران .. عاد الباشا يسأل :

- هل تؤمن بالأحلام يا أفندينا المطران ! ؟ من أين تجيء ! ؟ ومن الذى
يبعث بها ! ؟

وأجاب المطران :

- بعضها يبعث به الله .. والبعض الآخر من الأرواح الشريرة ،
- وكيف يفرق العره بينها ! ؟ أى منها من الله ! ؟ وأى منها من الأرواح
الشريرة ! ؟

- لا بد أنك حلمت يا أفندينا الباشا ، إن الحلم لا يزال ياديا على جفنيك
وإستطيع أن أراه ،

- بلى .. من أجل هذا أسألك ..

- عسى أن يكون خيرا يا أفندينا الباشا .. دعنى أسمعك منك ..
- هل تعرف شيئا عن الأحلام ! ؟

- أحيانا يلهمنى الله سبحانه .. حسن ! ؟

وتنهذ الباشا .. وقص حلمه .. وأضاف بعض الزخارف حول شجرة
الزيتون ، فقد ذكر أنه كانت هناك زعوس عدة معلقة على قصبتها !
وأخى المطران رأسه ، فقد كان يفكر فى طريقة يستخدم لها ذلك الحلم
لئلا يهدم هدفه ..

وتسائل الباشا قلعا :

- أهو من الأرواح الشريرة ! ؟

وأجاب المطران :

- بل من الله .. ولكن كيف لي ان افسره يا افندينا الباشا ؟ قد يقلقك هذا التفسير ؟

وضاح الباشا في دهشة :

- فانت لتعلم إذن ان المسلم الحق لا يهزه شيء ؟ .. إنه يعرف ان كل شيء يحدث في هذه الدنيا مكتوبا من قبل .. وأن احدا لا يستطيع ان يرفع هذا المكتوب . ولو ان الباشا ارسل إلى الآن فرمانا يطلب فيه راسي لما هزني ذلك او ضايقني .. ربما اعول وانتحيت . بل إنني كنت سافعل ذلك بالقطع . ولكنني لم اكن لاهتز او اتضايق . فذلك يكون هو ايضا مكتوبا ومقدرا من قبل . فهل اعترض على مشيئة الله ؟

تكلم إذن بلا خوف يا افندينا المطران . ولكن حذار من الكذب . قل الحقيقة كلها .

واستجمع المطران نفسه لحظات ثم قال :

- الحقيقة التي رأيتها في العلم هي قلب الرجل الطيب .. إن قلبك هو الحقيقة يا افندينا الباشا . وهي مفتوحة بالليل لتدخلها وتجوس خلالها . والذي رأته في نومك هو الاجابة على طبيعتك - أن تجوس في طعائنته . وسلام وسط الأشجار الموزقة المزفرة في بروسا .. المدينة التي وادت فيها .. ان قلبك حقيقة . ولكن المكتوب والمقدر هو ان تصيح باشا وأن تتولى هذا المنصب في كريت ...

وتشهد الباشا وقال :

- ماذا أقول لك يا افندينا المطران ؟ هذه هي الحقيقة .. كأنك تقرا ما يقلبي . ولكن اكمل ..

- عندما تكون قوية المره امامه يا افندينا الباشا . فإنه لا يحتاج إلى دليل يقوده إليها . اشجار الزيتون المثقلة بالأسلحة - تلك التي رأيتها في العلم - هي كريت .. وأنت ذهبت ووقفت تحت الشجرة العارية المحترقة فأظلم وجهك . وهنا بدأ مصيرك يضطرب .. وأنه لأمر مثير للشفقة حقا انك استيقظت دون ان تعرف ما حدث بعد ذلك . ولعل الله قد كتب لك بعد ان

بمسك سبحانه حريتك من الآن لتفعل ما ترغب فيه . فالمستوية الآن إذن مسئوليتك أنت ..

وقال الاناضولى الطيب :

- نعم .. لعل الامر ما تقول يا افندينا المطران . واقسم بالشمس التي تسير فوقنا إنه يمكن للمسيحيين والأتراك ان يعيشوا كالأخوة .. اليونانيون يعملون والأتراك يتكلمون .. والأتانن معا يعيشان عيشة سعيدة ..

وضاح المطران وقد وجد لنفسه نقطة البداية التي كان يريدتها : - وذلك امره في يديك أنت ! بمقدورك ان تهير الحب لهذه الجزيرة . إن الله جعلك تحلم بهذا الحلم في الوقت المناسب !

- ماذا تعنى بذلك يا افندينا المطران ؟ استأفهم !

- أنت سمعت ولاشك ان المسيحيين والأتراك في ميغالوكاسترو قد بدأوا يستجيبون للآثاره لأن فارسا عملا - كما قالوا - اقتحم بجواده مقهى تركيا ..

وضاح الباشا وقد برقت عيناه :

- وهل يبدو لك ذلك الامر تافها ؟ هذا الكافر قد أهان تركيا !

وقال المطران بلهجة حماسية :

- إن تركيا لاتهان بهذه البساطة . إنها دولة قوية يا افندينا الباشا .. دع جانبها هذا البطل السكير . فقد كنت تسألني عن حلمك . واعتقد ان الله سبحانه يلهمني ان افسره لك .. ولكن إذا كان ذلك يضايقك ..

وقاطعه الباشا في ابتهاج وهو يضع يده على ركبتيه :

- كلا .. واقسم لك بالذي ا .. فأكمل بحق ما تؤمن به ..

- إن السموات السبع فتحت . وقد جأك الرب في منامك يا افندينا الباشا وأراك الطريق .

- أي طريق ؟

- الطريق الذي تختاره . هناك طريقان ، واحد أخضر .. والآخر أحمر ..
وبمقدورى أن أراهما معا فى ذلك الحلم ، وبمقدورك أنت أن تختار بينهما
كما تشاء .

وقال الباشا معترضا :

- لا .. ليس كما أشاء أنا . بل كما يشاء الله ..

- ولكن ربما يكون الله سبحانه قد منحك حرية الاختيار فستطيع من ثم
أن تختار الطريق الأحمر فتبدأ عمليات الإعدام وتحيل كريت إلى شعلة من
الذهب . أو أن تختار الطريق الأخضر فيتحول كل شيء إلى لبن وصل ،
يصبح الأتراك والمسيحيون أصدقاء مرة أخرى ، وتبارك الدنيا اسمك .
عليك الآن أن تختار !

وقال ذلك وهو يخرج من جيبه صندوق تبغ شبيثا حتى لا يدع للباشا وقتا
للتفكير .. ثم قال فى رقة :

- أنت خبير يا أفندينا الباشا وتعرف الشيء الكثير عن التحف ، وهذا
الصندوق من روائع مدينة « جانيئا » .. على جانب منه نسر نو رأسين ،
وعلى الجانب الآخر هلال محفور بغير رفيع ، وكانما يرمز إلى نفس ما تعمل
أنت من أجله المسلمون والمسيحيون يعيشون معا إخوة .. ولأنتى أعلم ما
بقلبك ، فقد أردت من زمن أن أقدم هذا الصندوق هدية لك ، وما قد جاء
الوقت .. وعسى أن يمنحك الحظ السعيد !

ثم وضع الصندوق الفضى فى راحة يد الباشا المعدودة ..

وقال الباشا وهو يبدى إعجاباه بالهدية :

- والله إن اليونانيين هؤلاء .. جنس خالد .. أنتم تصيدون الذباب .. مرة
بالعسل ، وأخرى بالخل !

ثم اتحتى وريت بأصابعه السمينة على الصندوق بركة :

- نعم .. دعنى أقل لك يا أفندينا المطران ، لقد أمطر هذا الصندوق من
« جانيئا » قلبى سعادة ورقة .. كانت زوجتى الأولى - وعسى أن تكون
سعيدة فى عالمها الآخر ، حيث هى الآن - على قدر فائق من الجمال وكانها

« السيدة فروسين » .. وكانت هى أيضا من « جانيئا » ..
ثم تنهد وقال :

- ولكن .. كيف يمكن أن تفهم ذلك ؟ فانت لم تعرف النساء فى حياتك .
وسأد صمت .. وأخذ المطران يداعب حبات المسبحة وينظر من خلال
البافذة إلى الشجرة العارية الضخمة التى بدأت فى بطء تحرك أوراقها
نحت السماء الزرقاء ، وأخيرا فتح فمه ليعيد الحديث مرة أخرى إلى
الأرض :

- إن المحاصيل تبشر بخير يا أفندينا الباشا ..

واتزع الباشا نفسه من الماضى العذب .. وعاد إلى ميجالوكاسترو !

ووقف المطران ، ووقف الباشا أيضا وقد عد يده .

- إلى اللقاء يا أفندينا المطران ، كلانا امرؤ يخاف الله . وقد قسمنا
كريت فيما بيننا بحكمة ، فلتحكم قبضتك على المسيحيين ، وسأفعل أنا
نفس الشيء مع الأتراك ..

ثم سكت لحظة .. وقلزت إلى طرف لسانه عبارة ، فسعل ، وحك رأسه ..
وقدر فى النهاية أن ينطق بها :

- إن الضجة فى وقت الأعراس أمر مألوف ، ولكن .. حتى إذا سمعت
فى الأيام القادمة صوتا يبدو معه وكان هناك عملية قتل .. فتظاهر بأن
هذا الصوت لم يصل إلى أذنيك ..

- قتل ؟ ! قتل يا أفندينا الباشا !

ثم قال وهو يحدج التركى الاشيب ينظرات حادة :

- إن الله ينهى عن القتل !

- لا تهتم ! .. فلعل تركيا سكبيرا هو الآخر أن يقتل فارسا يونانيا .. مثل
هذه الاشياء يمكن أن تحدث ! .. إن العالم ملءه بالحقى .. ولكن ، عليك
أنت يا مطران أن تتصرف كالأطرش .. تماما كما تصرفنا نحن كالعريان
عندما لم نر يونانيا بعينه يقتحم مقهى تركيا ليهيئنا ، الآن تتصرف أنت

كلاطرش يا لقدنينا المطران ، مع اطلب تمنياتي !

وأحس المطران لحظتها كان ثعبانا يلتق حوله .. ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم ..

- الله كبير .. وهو يحاسب حتى السلاطين والباشوات ..

وقال الأناضولى العجوز وهو يتسم بخبت :

- ... ويحاب المطارنة أيضا يا اقدنينا الباشا ..

وافترق الاثنان الكبار فى مجالوكاسترو .. افترقا قبل أن يحتدم بينهما النقاش ..

ومضت الأيام .. وأدرك أبريل منتصفه . وبدأت الأشجار تكتسي ببراعمها وأزاهيرها بينما كان بعضها يهب ثماره . وتبعثرت مجالوكاسترو تحت شمس الربيع . وبدأ الرجال والنساء يقاسون داخل جدران بيوتهم . فقد وقعوا فريسة عصابتين غاضبتين لكل منها إله . وكان الرجال والآلهة يشحذون مداهم ! لم ينتبه واحد منهم إلى البحر الرطب البارد الذى كان يتسبب مثل الدراق . ولا إلى الشمس التى كانت تزدهر كل صباح مثل عباد الشمس .. ولا إلى النجوم ..

وعاد الكابتن ميخائيليس ، إلى مكانه صامتا منقبض الصدر . ولأول مرة عجزت الخمر عن أن تبهج قلبه . فقد نهض بعد كل ما شرب وهو يحس بالتوتر ويجرد من الغضب . ومن ثم قد تجنب الشرب من جديد وبدأ يكتب بكلمة من الخبز سرعان ما يقادر المائدة بعدها . ولم يعد يفتح فمه فى البيت طوال اليوم .. وامتنع أيضا عن النوم .. كان يجلس طوال الليل فوق سريريه وهو يمدن ويتطلع من خلال النافذة الضيقة .. ويظل هكذا مفتوح العينين لأنه كان يعلم جيدا إن نام فسوف تقحمه الأحلام المهيبة .. لا حلم واحد لا يتغير ، ... شيطان واحد لا يتغير يأتيه كل ليلة .. ألم تعد الخمر كافية لأن تقهر هذا الشيطان وتقهر معه مهاتته ؟

ولم يكن ثورى بك هو الآخر قادرا على أن ينام ليس لأن فكره غسل إهانة تركيا والانتقام لأبيه كانت تنهش جسده فحسب ، ولكن لأنه كان أيضا قلقا على زوجته . فمعت ذلك اليوم الذى جاء فيه الكابتن ميخائيليس إلى بيته ..

وأمية ترفض أن تضمه بين ذراعيها . كانت تقول له فى عناد : « لقد اهداك . لقد اهداك الكابتن ميخائيليس ، ومن ثم فسوف أهدك أنا أيضا . لك من العادة بين النساء التركيات » ..

وانتقل ثورى بك إلى ضيعة الريفية عسى أن يلهم نفسه عما يستبد به . وكان الملصق دافئا . ولعل الهام أن تخرج كعادتها كل عام لتقضى فصل الصيف وسط الحدائق والمياه الجارية .. ولا شيء يستعصى على الله سبحانه . فلعلها كذلك أن تتغير أفكارها وينمو حبها بانعا من جديد ! من أجل ذلك كله كان يستحث العمال كيما ينتهوا من طلاء الأبواب والنوافذ . وينشئوا مظلة من الأخشاب .. ومن أجل ذلك أيضا أمر بشراء مجموعة من طيور الكناريا من « سميرنا » .. وعدد من البيفارات من الاسكندرية لكى تسلى « أمينة » .. ولعل ذلك أن يرقق مزاجها !

ولكن أمينة ظلت ملازمة لوسائدها الناعمة خلف ستائر الشرفة المطلة على الشارع .. تشرب « الشربات » وتمضغ اللبان وتتطلع إلى العارة لا فرق بين يونانى وتركى .. فكلهم بالنسبة إليها رجال فحسب !

وسألت مربيته العجوز :

- وما المسلم أو المسيحي أو اليهودى يا مارييا ؟ هناك فقط صلفان من الرجال : عجوز وشاب .. ذو لحية بيضاء وذو لحية سوداء . وأنا أحب الصنف الأخير ..

وفى كل أسبوعية وحين تغيب الشمس وتبدأ الأزقة فى الاظلام . كان يمر رجل يونانى يضع فوق رأسه طربوشا ضخما . ويتنقل حذاء برفية طويلة . ويقترب من المكان .. ويلقى بنظرات الحب من خلال ستائر الشرفة ..

وفى أحد الأيام سألت « أمينة » مربيته المغربية :

- من يكون هذا اليونانى يا مارييا ؟ ترى أين رأيته قبل الآن ؟ يبدو لي أننى رأيته فى أحلامي !

وأجابته المرية :

- إنه الرجل الذى اهداك من اغمامتك يوم الزوال .. كابتن بوليكميجيس ..

- إنه يبدو وسيعا ! ويحق روجي ! إن على وجهه ترسّم امارات الزهر .
إنه يضاميل .. ويشرب .. ويشرب الأرض بحذائه ! .. اسمي ! .. إن
المسكين يتنهد مثل العجل !

وشمكت . أمينة . وهي تمضغ اللبان وترشف . الشراب . وقد انتابها
شغف نخوة . وأغمضت عينيها بأهدابها الطويلة ثم ابتسعت في سعادة
وهي تقول لنفسها :

- سوف أعمل ما أريد .. وإذا أردت . فسوف أدخله إلى فراشي .
وإذا أردت فسوف أبقيه في الشارع يتسكع فيه مثل الكلب .. ألسنت
امرأة ؟ سوف أعمل إن شاء ما أريد ..

وهي منتصف ليلة من الليالي وقد خلا الشارع من المارة . أخذ الكابتن
« بوليكسيجيس » مكانه المعتاد أسفل الشرفة . وكان القمر ساطعا
بضوئه . ورائحة الياسمين وزهر العسل تعبق الجو . والبلابل في حديقة
نوري بك تطلق أغاريد أشياق يائس للحب . وصوت أمواج البحر تتناهي
من الميناء وهي تتنهد هي الأخرى وتمسح صدرها بجدران القلعة ..

ولم تكن أمينة ليلتها قادرة على النوم . كانت تصب بالحرارة . فخلعت
ثياب النوم وتسللت إلى الخارج .. فرأت الرجل تحت ضوء القمر مضطربا
مستندا إلى أحد أعمدة الباب الخارجي . وعرفته على الفور . وأغرقت في
الضحك وهي تلحز المربية التي تكومت نائمة مثل الأرنب .. وقالت :

- المسكينة ! تعالي واتقي نظرة ! يكاد أن يغشى عليه . وأنا أريد أن أنزل
لكي أبقيه من أعماه تماما مثلما فعلت معي ! مارايك يا ماريأ ؟ ! إن نوري
بك في الضيعة الآن !

- يا طفلي أمينة .. تلك تكون خطيئة كبرى ..

- أنزلي إليه واطلبي منه أن يصعد ..

وقالت المرأة في توسل :

- أمينة ! .. يا طفلي ..

- تأكدي أولا من أن المغزيب الذي بالباب نائم ..

وتنهدت « ماريأ » وهي تقول :

- إنه نائم .. لقد سمعت شخيره ..

- والكلب ؟ .. هل هو موق ؟ هيا .. اسرعي أيتها الدجاجة الحمقاء ..
لا ترتعشي وأظهري شيئا من الحماس وأنت تؤذين عملا ! إن الله خلق
الرجال والنساء من أجل هذا أيتها مخلوقة التسعة ! .. ما أروع القمر
هذه الليلة .. وما أذفا الريح ! الياسمين مزهر .. والبلبل مجنون ! هيا ..
قودي إلى هنا .. لقد طالما كنت أقول لنفسي : يوسع المرأة أن تكون
محترمة في الشتاء .. أما في الربيع ... ؟

وانحنت « أمينة » إلى الامام ورات أن الكابتن « بوليكسيجيس » لا يزال
في مكانه يحدق إلى الشرفة « لا يهمني الآن نوري .. ولا يهمني والكابتن
ميخائيليس صعب المنال .. ويكفيني الآن هذا الرجل ! .. وأسرعت إلى
مشطها ومراتها لتصلح شعرها في لهفة .. وعطرت أبطيها بالمسك .. ثم
دفعت المربية بيدها : « قلت لك ذهبي ! .. »

وأسمكت المرأة المغزبية براسها بكلتا يديها وهي تتعثر هابطة الدرج ..

ونثرت « أمينة » ما تبقى من المسك فوق جسدها . ووقفت لتجذب
المصباح خلف الباب وهي تعغم : « كنت أريد رجلا آخر .. ولكنه متوحش
وصعب المنال . لا يهم .. فهذا الرجل يلائمني .. »

وأرغفت السمع . وتناهى إلى أذنيها صوت الباب يفتح ببطء . وتبع
الكلب مرة واحدة .. وبدأ وقع الخطوات يصيح وأضحأ في الفناء .. ثم في
مكان الرجال .. ثم فوق الدرج .. وانحنت إلى الخلف فوق وسائدها وهي
تنهيا لا تراءى ثياب النوم . ثم مالبت أن حنرفت النظر . فتركت ضوء القمر
يسبح بلا عائق فوق صدرها وجسدها . واقتربت بخطى وتناعت إلى
خياشيمها المرتعشة رائحة رجل ألهبت بلسانها شفقتها عدة مرات .
وأغمضت عينيها .. وانتظرت .

ووصل الكابتن « بوليكسيجيس » .. وأصبح على عتبة الباب . وحدقت
أمينة من خلال أهدابها الطويلة . ورفع هو يده إلى عينيها وكأنه أصيب
بالدوار . وبدأ قلبه يدق في جنون . وبسخت الشركسية لأراضيها . واستلقت

على ظهرها ، وكانما كانت تلك هي الإشارة المتفق عليها ، فقد ففز الكابتن بوليكمسيجيس نحوها قفزة واحدة ... وأطلقا المصباح .

اقترب ابريل من نهايته ودخل المسيحيون أسبوع الالام وهم في خوف شديد ، ولم يكن في مملكة المسيح مثل الكريستيين من يشاركون في عمق وديمومية وبأسلوب خاص في الام السيد المسيح ، كان المسيح وكانت كريت يعتزجان معا داخل قلوبهم ، فالألمها واحدة ؛ اليهود صلبوا المسيح ، والأتراك صلبوا كريت ، وكان الكريتيون يحسون في أعناقهم كيف كانت الام المسيح تعظيم يوما بعد يوم وهم يحسون بالضعف أكثر وأكثر من شدة ما يعانونه من الصلاة والصوم حتى بدأ ينمو في قلوبهم اتهام غاضب يحدث لنفسه عن مخرج بالقوة .. كانوا يتطلعون إلى الأتراك بنظرات وحشية ، وكانوا يمنعون أنفسهم بصعوبة بالغة من ضرب اليهود القلائل - من الصاغة والمرابين - الذين تزدهم بهم حارة اليهود بالقرب من العيناء ، والذين كانوا يغلغلون أبوابهم على أنفسهم في ساعات مبكرة أثناء الأسميات المقدسة والخطيرة في أسبوع الالام .

وكان الجو العام في ميجالوكاسترو في هذه المرة أكثر خطورة وتهيدا من ذي قبل ، لأنه - في مواجهة المسيحيين الغاضبين - كان هناك الاتراك الذين لم يتسوا بعد الجرح الذي أصابهم به الكابتن ميخائيليس والذين تجمعوا ليلاً أمام كنيسة ، القديس ميناس ، حيث كان المسيحيون ينتحبون من أجل المسيح ، وكانوا في تجمعهم هذا يرفعون عقائدهم بالسباب واللعنات ويحاولون بالفناء المرتفع أن يهينوا الكريتيين ويحقروهم . أما هؤلاء فكانوا ينتظرون كل ساعة ليعرفوا متى وكيف سيضرب الاغوات شربتهم ، ومن ثم ، فقد بدأ يرتفع وبميض النار تحت الرماد .

وهكذا حرت من الأسبوع المقدس أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء .. وكانت ساعات المساء ناعمة سماوية تفتحت فيها زهور البنفسج فناء كل بيت ، وفي الجمعة السعيدة خرجت الفتيات يظفنها ليضعنها في باقات من ورود آخر ابريل فوق - قطعة القماش التي تحمل صورة المسيح - وأغلق المسيحيون حوانيتهم بمجرد أن برزت شمس اليوم التالي وانتفضوا على اللحوم والأسماك والزيتون وحساء السمسم والخس والخرشوف ، واخذوا يذرعون ساحات بيوتهم ، يتصتون ويتظنون ، وقد جرس كنيسة ، القديس

يوهانس - في تردد وتحيب مع الشفق الشاحب .. ذلك الكلب يعرف أننا في أسبوع الالام .

وقال « ديمتروس » وهو يتهدد :

- هذا محض جنون ! أو نحن الآن مقبلون على الوعوف في وجه الباشا ؟ ..

اصرب البيضة بالحجارة تذهب إلى الشيطان .. والحرب الحجارة والبيضة تذهب البيضة أيضا إلى الشيطان .. هذا رأيي ..

وطوال تلك الأيام كان الكابتن ميخائيليس بعيدا عن الكنيسة . كان يعبد الله ويصلي له ، ولكنه لم يكن يحتمل القسوس ، وكانت عادته أن ينتظر حتى تخلو الكنيسة من القسس ورايبتهم والنساء وثيابين والرجال وسراويلهم .. وحين كان المكان يخلو تماما من كل هؤلاء ، كان هو يقوم بالزيارة ويشعل شمعة ، ولكنه كان يدخل الكنيسة صباح كل خميس القران قاصدا أو بدون قصد حتى لم وجود كل هؤلاء وكان يرسم علامة الصليب ويفتح فمه ليتلطف جسد المسيح ودمه فيحس بأن نارا تتأجج بداخله .

ولكنه - ولأول مرة في هذه السنة - خرج مستطيا صورة قورسه بلا هدف ، وانطلق إلى مقربة من ضيعة « نوري بك » .. ثم توقف وعاد وهو يستنشق هواء البحر بقوة .. ولكنه لم يعد إلى العشاء المقدس وظل يردد لنفسه مرة بعد أخرى : « طالما أن هذه الروح الشريرة لاتزال في اعماقي .. طالما أن هذه الروح الشريرة باقية بداخلي .. فلن أعود إلى العشاء الرباني » ..

لم يكن هناك في السنة أطول من يوم الجمعة السعيد : لقد كان يمتد طوال خمس اسميات ، ورسم المسيحيون علامة الصليب وفتحوا أبوابهم واندفعوا صامتين خاشعين في أزقة ميجالوكاسترو ليتعلموا مرة أخرى في هذه الأسمية كيف يقاسم الرب على أيدي البشر .

وحين كان أسبوع الالام يمضي أزداد اضطراب الكريتيين فعندما بدأت ترامة ديوس الانجيل الإثني عشر يوم خميس القران وبينما كان المطران يتبعه البابا مانوليس ثم الشماس يقران في أصوات خشنة قصة يهودا

وكيف خان المسيح . كان الأثر يشتد عليهم فيحسون وكانهم يلهثون خلف المسيح من . أناس . إلى . فيافا . إلى . بيلاطس . .. تماما كما لوث . غير قريونى . وهو يجرى إلى مصطفى باشا وإلى السلطان يطلب العدل .

واستمعوا فى صبر نافذ إلى الدروس السبعة الأولى ثم مالوا أن انطلقوا إلى فناء الكنيسة حيث أقيمت دمية من القش والخرق القذرة المهلهلة تمثل . يهوذا . اندفعوا نحوها يسلكينهم ومشاعلمهم ليمزقوها ويحرقوها . ومنحهم ذلك بعض الراحة التى استطاعوا بعدها العودة إلى الكنيسة لسماع باقى الدروس .

وفى صباح الجمعة السعيد بدأت الأجراس تدق دقاتها الحزينة . ونشرت قطعة القماش التى تحمل صورة المسيح فوق القبر المقدس الذى يتوسط الكنيسة . . . وقتحت أبواب الكنيسة على مصاريحها . . . وظل الكريتيون يندفون ويخرجون . . .

ووقف . مورزوفلوس . فى ساحة الكنيسة وقد أرقه الصيام والصلاة . . . وحوله وقف . ديميتريوس . وه . كاهابيس . وه فيندوسوس . والسينيور . ه باراسكيافس . ه الحلاق . وكانوا جميعا قد أحنوا روعسهم وهم يستمعون إلى كلمات . مورزوفلوس . وهو يحكى لهم كيف أن الباشا قد بعث أسس بخادمه سليمان إلى المطران وهو يحمل معه أرنبا . هدية منه إليه . وكيف أن المطران غضب وأعاد الأرنب مع الزنبول وحمله إلى الباشا رسالة تقول : . نحن فى أيام الصيام . إن اليهود قتلوا المسيح . . ونحن نكبه . .

وقال باراسكيافس :

- لم يكن ينبغى أن يعيده إليه . . إنها إهانة . .

وقال . كاهابيس . :

- بل كان ينبغى أن يفعل ذلك . إن هديته هذه هى الإهانة . ألم يكن لم يكن هناك نهار فى السنة كلها أطول من نهار الجمعة الكبيرة . لقد طال بما يزيد على خمس مرات . وحل طريقه . وتوقف لا يريد أن يتحرك . يأخذ خطوة إلى الامام وخطوة إلى الخلف كأنما لا يريد أن ينتهى إلى

مساء . . وأحسن المسيحيون الذين أضعفهم الصيام بمزيد من الضعف وهم يهرون بروائح المخايز وكانت النساء يؤدين أعمال البيت وكانهن ممسوسات . كئن ينظفن الحجرات ويقيمن النار مشتعلة . وكانت ساحات البيوت مهياة . . وكانت القلوب تدق . . . كان الكل ينتظر غروب الشمس . ويتربص حلول الليل الداكن الزرقة كيما يهتف من أعماقه : . المسيح قام . .

وظلت زوجة . كراسوجورجيس . تتطلع إلى الشمس وهى تصعب الوقت . وبدأ لها كأن نجم التبريك لن يظهر فى السماء . وكانت رائحة الدجاج المطبوخ وفتائر . الكسترد . تؤدى بها إلى الإغناء .

وكانت . بيثوب . قد بدأت فى تلوين البيض منذ خميس القربان فخرج من بين يديها كأجمل مايكون . وبدأت الآن تعد المساء فى المطبخ . بينما السيدة . ديميتريوس . يجرى بناء على أوامرها حاملا الأوعية والأواني بين البيت والمخيز : . أسرع يا عزيزى ديميتريوس ! تجلد يا بهلى العزيز ! المسيح يقوم هذا المساء . وسوف أحتاج إليك هذا المساء يا كثرى ! هل تسمعنى ؟ كل هذه اللحوم وهذه الفتائر لا يبقنى أن تضيق سدى . . .

واستجاب الله لدعاء زوجة . كراسوجورجيس . . . وغربت الشمس . وغمرت رائحة الفصح ميجالوكاسترو كلها فى الفصح . وامتلات أحياء المسيحيين بالفضة والبهجة وبدأت النساء فى تجهيل أنفسهن . . حتى . فانجيليو . بدأت هى الأخرى تهندم نفسها ثم جلست فى الفناء تنتظر أخاها . ترى هل سيأتى ؟ أم أنه لن يأتى ؟ ترى . . ليصبحها وحدها للمرة الأخيرة إلى احتفال الفصح ؟ فى العام القادم سوف يكون معهما . تيتروس . . .

واقترب الليل من منتصفه . وبدأ المسيحيون يتجمعون فى ساحات بيوتهم ينتظرون دقات الأجراس . فالمسيح كان قد بدأ يتحرك من قبره ويستجمع فواه ليحرك الصخرة الثقيلة . وقفوا جميعا على أطراف أصابعهم فى ساحات بيوتهم إلى نوافذها وقد أرفلوا السمع وانتظروا . . إثنان فقط فى ميجالوكاسترو كلها لم يكونا مع الله فى أفكارهم تلك الليلة . واحد منهما كان فى تلك الليلة المقدسة يحضن المرأة الشركسية . والآخر كان يجلس فوق سريره وسط الظلام يدخلن سيجارة أثر أخرى وأفكاره كانت تجرى مثل

الكلب خلال أزقة المدينة .. وتتوقف لتتبع امام باب اخضر ..

وتجمع المسيحيون في الفناء الامامى للكنيسة ، وهم يحرقون في مطرانهم ولما يشعلوا بعد شموعهم .. وكان المطران قد صعد إلى المنصة المزخرفة تحت شجرة الليمون المزهرة وقد ارتدى ملابس عيد الفصح ، وفتح الاتجيل الفضى ، وتوهجت الجبهة والوجوه وقد داعيتها انفس الليل الرطب .. وفجأة انطلقت الاصوات كالرعد : « المسيح قام » .. واشادت الشموع : وقام المسيحيون كلهم مع المسيح .. وأطلق البعض رصاصات فدارتهم الفضية ، وبدأ « موريلوس » بكل البهجة والفرحة يدق الاجراس الثلاثة - القديس ميثاس ، والحرية والموت .. وكأنها تتمايل جميعا لتقول : كريت لم تمت ، كريت حية لاتموت اء ..

وامسك « بارباينيس » بسيفه الطويل ، ووضع وبسامة المستوح من الصفيح ! وبدأ يروح ويجهى والاثراك والمسيحيون ينحنون له ساخرين ضاحكين ، ليرد هو على كل تحية بيمامة الباشوات ! وكان قد استاجر صبيا من الشارع ودهن وجهه بالسخام : الآن أصبح له عيد يتبعه خطوة خطوة !

وانطلق « شاريلوس » بشاربه المدهون حديثا بالشمع .. يزور الناس راكبا عربة وواضعا فوق رأسه قبعة من الفس اشتراها له البعض اخيرا من اثينا ، ومسندا ذقنه على عصا رأسها رأس أسد .. ومعتلعا إلى الناس بنظرات حاكمة ، فلن يكن يعقودوه أن ينسى أن لهم اجسادا صهيحة ليس له مثلها ..

وعندما اقترب المساء خرج المسيحيون رجالا ونساء وقد ارتدوا ثياب الفصح يدورون حول « الاقياء الثلاثة » ، وتطارت الضفائر الحميرية في شعور الفتيات ، وإلى الشمال ، كان البحر هادئا في حمرة الورد ، إلى الجنوب كانت الجبال تتألق وأشجار الزيتون تتوهج فضية اللون وفوق الجميع ألقت السماء سترها البنفسجي الحريري الناعم ، ثم مالبت الظلال أن امتدت .. وابتدت وجوه أبناء ميجالوكاسترو المغداة جيدا .. أمنة مسالمة وهي تجول من أجل غداؤها .. وفجأة تألق كوكب الزهرة في سحابة منتصرة .. عاليا عاليا فوق الرموس ..

الفصل السادس

استيقظت عائلة « الكابتن ميخائليس » تلبية مع الفجر في القرى الأربع التي ضربت فيها بجذورها منذ عهد الاسلاف - « بيتروكيفالو » ، و « اباني » و « كروسون » و « البرج الأحمر » - واتجهت كلها إلى ميجالوكاسترو لتحضر عرس الشقيق الأصغر « تيتيوس » . تجمعت كلها في القرية الأم للعائلة - « بيتروكيفالو » - حيث يعيش الكابتن « سيفاكاس » الجد الأكبر والبالغ من العمر مائة عام ، بعضهم جاء راكبا بفلته والبعض الآخر جاء ممتطيا صهوة جواده وكلها محملة بالثياب الحمراء ويهدايا العرس : خراف مشوية ، وختازير رضية وجبن من كل صنف ورقاق من الجلد لحفظ النبيذ والزيت ، وأوعية ملأى بالعسل - وبالزبيب - والتين .. وحقائب من اللوز ..

وظهر الكابتن « سيفاكاس » على عتبة الباب في لحسن ثيابه الصوفية الثقيلة وقد انتعل حذاءه الأسود ، ببرباطه الأسود الطويل وعصاه ذات المقبض المزروح ، وتدأت لحيته لتغطي كل صدره ، وبرقت عيناه تحت حاجبين كثيفين ، وبرزت من الاكمام الواسعة لقميصه الابيض الناصع - ذراعان نحيلتان معروقتان كساق شجرة زيتون عتيقة ، وجال ببصره حوله ، فرأى الشارع كله مزدحما بالابناء والاحفاد وابناء الاحفاد .. فأحس بالسرعة ..

وصاح فيهم وهو باسط ذراعيه :

- مرحبا بكم ألف مرة يا اولاد ! حقل على « بالزهور والاعشاب » ..
- وأجابته صبيحة فرح واحدة من كل الجمع البشرى الخارج من صلبه :
- نحن سعداء برؤيتك ! ... فلتسعد في مملكتك أيها العجوز ! ..

وتقدم اثنان من أحفاده بفارس ليمتطيه وقد أمسك واحد منهما بزمامه وأمسك الآخر بالركاب ، وأوقفا الفرس قريبا من حافة النافورة القائمة في الفناء ليسهل عليه امتطاه . ولكنه أزاح بيده الحفيدين ضاحكا وهو يصيح :

هل تظنون أنني هزمت فلا أستطيع إن أمسك بالركاب ؟

ثم قبض على ناصية الفرس بيده .. وبقفزة واحدة أصبح فوق السرج .. وضاح الجميع ..

متعك الله بالصحة والسعادة يا كبيرا ! فلتعش ألف سنة ! ...

ورد العجوز ذو اللحية الرمادية وهو يثبت عصاية الرأس :

تلكي خمسمائة سنة !

كان قد أنجب اثني عشر ولدا وأربع بنات .. وكلهم وحوش مفترسة ! كان الشارد وحده هو الشاذ . فهو نحيف هزيل يعجب المرء كيف خرج من صلب هذا الرجل .. ولقد بحث مع زوجته مرة حال هذا الولد :

« إنه لن يصلح راعيا ، فليست لديه القدرة على التسلق . ولن يصلح فلاحا ، فليست لديه القوة على حرك الأرض . ولن يصلح بحارا ، فالبحر يسبب له المرض . إنه لن يصلح لشيء على الإطلاق !

وقالت المرأة العجوز التي كان الابن الأصغر اثريا لديها :

يمكن أن يكون قسيسا .

قسيسا أو معلما . ولدينا قسيس في القرية . ولكن ليس لدينا معلم بعد ..

وبعث به إلى ميجالوكاسترو ليتعلم . وهكذا أصبح ابن الكابتن سيفاكاس ، هو المعلم « تيتوريوس » ..

ولقد استراح الكابتن سيفاكاس ، وأخروجه من البيت بعيدا عنه . فقد كان ينجل أن يدعو بابنه ! وظل في مزرعته مع وحوشه العشرة الآخرين الذين كان يفخر بهم فيقول دائما :

« عندما يتناول أولادى طعامهم يهتز البيت حتى ليسأل الغرياء : أهدوا ززال ؟ ! كلا .. إن أولاد سيفاكاس يتناولون طعامهم فحسب !

ولكن ملك الموت جاء ووقف على عتبة البيت وأجال بصره حوله . هنا يبدو المكان مزدهرا بالفرسان أكثر من اللازم ! وهكذا أخذ ملك الموت نصيبه منهم : بعضهم أخذه أخذة شريفة وبأساليب مختلفة في الحرب ، والآخرين اختطفهم في خيول وهم فوق أسرهم . ورغم ذلك فقد بقي عدد الكلاب منهم كما كان يعتقد « سيفاكاس » . فقد أنجبوا له أحفادا وأنجب الأحفاد أولادا . إن الواحد يترك خلفه مئة . والمئة تترك خلفها ألفا حتى القناري . بهم كريت . ترى . كم سيختطف منهم الأتراك ! مهما بلغ عدد من يخطفونه فسوف تبقى منهم على أية حال خميرة يعلو بها العجيب .

ورجع سيفاكاس . يده وقال :

باسم الله يا أولاد .. إلى الامام . حتى تزوج الابن الأخير ..

وفي مقدمة العوكب كان الرجل العجوز .. وخلفه قليلا وإلى اليمين وإلى اليسار منه ركب أكبر أولاده الذي تقدمت بهم السن ولكن ما تخطت منهم القوة . « مانوساكاس » الفلاح الثائر أبدا من « إيانى » . وه « فانوريوس » قائد حرب العصابات وراعي القطعان . ذو الوجه القاسي والذي تفوح منه رائحة رائحة الجبن والماعز . وكانت مملكته هي كل جبال « لاسيشي » . وعندما كانت وحشة الجبال تضايقه كان يهبط من القمم الجرداء إلى السهول ويبحث عن الثور الذي يملكه « جاجي نيكولاس » من « بيثروكيغالو » . فإذا عثر عليه أطلقه من وثاقه إلى شجرة الزيتون العتيقة ومضى يصارعه حتى ينتهي ما ينتابه من الضيق .

ولكنه - بالرغم من ذلك كله - كان يخاف من وحش واحد في هذه الدنيا . زوجته « ديسبوانيا » ! كانت امرأة صقراء البشرة زرقاء العينين لو أنك نغخت فيها لسقطت إلى الأرض . ولكن « فانوريوس » المتوحش كان يرتعد أمامها . وفي كل مرة كان يهبط فيها إلى القرية ليقتضى بشعة أيام في بيته وينجب من زوجته طفلا .. كان يتصرف أمامها برفقة ويتمثل السلوك الانساني ! كانت الرغبة في الشراب يستبد به . ولكنه لم يكن يشرب ! كان يود لو انطلق على سجيته في السياب . ولكنه لم يكن يفعل . وكان يشعر

بالرغبة في أن يمسق في الحائط كعادته ، ولكنه لم يكن يمسق ! فكان يضيض اعصابه وينتظر إلى أن يحل الليل وإلى أن تتوجه زوجته إلى فراشها ، وبعدما كان يخرج مخلبه من النافذة ويجذب أي رجل عابر بالسدفة من قفاه ويبدله إلى الحجرة ثم يجلس في مواجهته يشرب معه على «هل ، ودون أن يحدث أدنى صوت ، فإذا مر آخر كان تسيبه كاللؤلؤ ، يجلس معهم .. ويضع كل منهم أصابعه على حواف كاسه حتى يضموا إلا تحدث الكؤوس أصواتا وهم يمسكون بها .. ويظنون في شرب متصل حتى يقرر « فانوريوس » أنه قد اكتفى ، فإذا به يمسك بهم من أفتقتهم ويعيدهم إلى الطريق بنفس الاسلوب الذي أدخلهم به ، وعندما فقط يزود زوجته في فراشها ، وهكذا - وبهذه الطريقة - اتعب اولاده الكثيرين !

وارتفع الغبار في الطريق عاليا تحت حرارة الشمس ، وكان الكاهن « سيفاكاس » يدير وجهه المتهرب إلى الخلف بين القينة والقينة ليلقى نظرة خاطفة إلى الركب الذي يتبعه .. خلفه يحيى « مانوساكاس » وه فانوريوس .. ، وخلفهم يحيى الاحفاد - الرجال منهم - وبعضهم كان متزوجا ، وخلف هؤلاء يحيى أبناء الاحفاد وقد نبتت لحى بعضهم ، وإلى البعير خلف كل هؤلاء يحيى موكب النساء يقاقرن !

ثم عاد ينظر امامه في اتجاه « ميغالوكاسترو » دون أن يخوض في حديث مع اولاده ودون أن يتشم وكان يحس بالرضا والطمأنينة ، في مكانهما المناسب . ولم يكن يحتاج بعد لشيء أو لآحد ، وكانت الكلمات في الأيام الأخيرة تبغى محبوسة في اعماقه ، فإذا أحس بسر يقبله ، وينهش في داخله لم يفرض به لمخلوق .. ولكنه كان يفرض به لله وحده .

والحق أنه منذ زمن ليس بالبعيد كانت تنتاب تفكيره تأملات غريبة ، لأول مرة بدأ ، سيفاكاس ، العجوز يفكر في الموت لقد اقترب اليوم الذي سيفقد فيه أمام الله ، وقد كان العجوز يرتعد كلما فكر في ذلك .. كان الموت في تصوره أشبه بجبل أسود تحيط به أمواج مندفة يشده إليها العطرش ، ويحوش مفترسة يشده عنها الخوف ، وتذكر كيف أنه انزل مرة في إحدى الثورات فوق « الجبل القاسى » خارج « ميغالوكاسترو » ، وأمضى هناك ليلة واحدة والأتراك منتشرون حوله .. وكيف تقدم في بطنه وهو يتسائل محتنيا والسكين بين أسنانه ، حتى تناهت إلى سمعه أصوات خافتة ، ولمح بريق سجانر مشتغلة ، وسمع أصوات قفعة الأسلحة ورأها تلمع وسط

الظلام .. وتذكر كيف ظل يتسائل هاربا وسط الظلام وهو يرتعش .. الآن ،

كانت « فانجيليو » قد عادت لتوها من حمامها الساخن وأخذت « رينيو » بصف لها شعرها بمشط عاجى اعطاه لها عمر أباهما « إيدوميناس » وتضع الأحمر فوق خديها ليخفى الصفرة التي تلوعها ، والمساحيق فوق أنفها حتى يبدو أقل طولاً ، بينما العروس ضامته أمام المرأة ، وكانت « بييلوب » وروحة « كراسوجورجيس » تقومان بتزيين سوبر العريس وهن يرددن أسيات الزواج وينثنون أزاهير الليمون فوقه وهن شمالات بعض الشئ .. وكانت الزوجتان .. وبقا البيت الحادقتان - « كاتيرينا » زوجة الكاهن « سيخايليس » وه « كيريسانتى » شقيقة « بوليوكسيجيس » .. تجهزان لذ أنواع الطعام بينما « على آغا » يعد الاطباق والسكاكين والشوك يعد أن يجمعها من الجيران .

ودخل « ديامانديس » وقد علق عيائه فوق كتفيه في غرور ، وألقى بقية نائمة ، ثم حرق في البيت بعينيه الواسعتين المستديرتين ، وهو يزم شفطيه ويلعب بسلسلة ساعة في عصبية ، لم يكن مرتاحا لكل هذا الذي يجري ، فقد تم كله على خير وجه دون الاستعانة به ، وهو شقيق العروس ! لماذا يحق الشيطان يحيى هذا المخلوق ذو المعطف الطويل والعوينات المتناقلة يلتحم حباتهم ؟ وصعد الدرج في خطى متناقلة ، ونظرت إليه زوجة « كراسوجورجيس » نظرات ذات مغزى ، كانت تعلم أنه ما اشترى الساعة إلا ليستعرض بها ، فلم يكن يعرف بعد كيف يحدد بها الوقت ، حتى لقد كان اصداقاه يتندرون معه بذلك .. وهكذا سالكه في سخرية ..

- كم الساعة الآن يا ديامانديس ؟ !

وانتقت خلفه في غضب وقال :

- لقد توقعت الساعة يا امرأة .. إنها لاتعمل ..

- لقد توقفت الساعة يا امرأة .. إنها لا تعمل ..

ثم ابتعد عنها .. ورأى كيف يدلون شقيقته ، يدلون الضحية ويعودنها للنضحية ! ونهيا للنزول ، ولكن شقيقته أحست به فأتجهت نحوه وقد

امتلات عينها بالدموع .

وتدخلت « بينيلوب » :

- نحن نزين العروس . فالرجال الآن في الطريق إلينا ..

وجذب الرجل الانيق شعرة من شاربه وقذف بها فوق السرير وهو يقول :

- عسى أن تجلب الحظ ..

ثم هبط الدرج متأقلا وهو يتنهد .

ارتفعت أصوات الصهيل وقهقهة السرج في المساء . وامتلا الشارع الضيق بالفرسان ، فقد وصل الكابتن « سيفاكس » وقطاره خلفه . وقتحت أبواب بيت « فانجيليو » على مصارعها وملات الجو على الفور رائحة الرجال والأجساد التي بللها العرق متمتجة برائحة اللحوم المطبوخة والجبن .. وأخذ الرجل العجوز « فانجيليو » بين ذراعيه وقبلها . واندفع إليها كل أقاربها الجدد يقبلونها بدورهم ويفرقونها في رائحة العرق والماعز . والانفاس الضمورة .. وزال الطلاء من فوق خدي العروس من كثرة ما مسحته الشوارب واللمى التي لامست وجهها . فأسرعت إلى غرفتها لتطليهما من جديد بالأحمر والمساحيق .

ولم يكن المكان ليتسع للضيوف في حجرات الطابق الأسفل . ومن ثم فقد ذهبت النسوة إلى غرفة النوم . بينما ذهبت البعض منهن إلى المطبخ ليضعن الهدايا . أما غالبية الرجال فقد انتشروا في ساحة البيت .. وساد الطنين المكان ..

وساح الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يصعد ويهبط محييا ابنة أخيه :

- لا تحدثوا هذه الفوضى يا اولاد .. لاتحدثوا هذه الفوضى . نحن هنا في ميجالوكاسترو .. ولستنا في الجبال !

وتخلص « تيتيروس » وه « إيدومينياس » من العناق والتحية . وودا الاثنان يتهامسان وقد جلسا إلى ركن من الأريكة . وأخير « تيتيروس » سراب زوجته في حماس وأخلاص كم من تقاليد الزواج القديمة لاتزال تحيا بين هؤلاء الناس . هؤلاء اليونانيون جنس خالد لا يموت .. وكان سعيدا .

لأنه سيتزوج . ولكن لأنه سيتزوج وفقا للعادات القديمة . وأخبره « إيدومينياس » بأنه قد بعث بالأمس أنذارا إلى ملكة إنجلترا . وأنه سوف تأتي بلاشك ردا على هذا الإنذار بعد أيام قليلة . ثم قال في اطمئنان :

- الله نسال ياولدى أن يكون يوم زواجك يوم فاك حسن . وأن تتحدر

كربت .

وظهر الكابتن « ميخائليس » الذي رفع قبعته في احترام وانحنى يقبل يد أبيه ثم صافح أشقاه وأبناء عمومته . وتظاهر بأنه لم ير الكابتن « بوليكسيجيس » . ثم دخل البيت وجلس إلى جوار أبيه وانحنى العجوز ليهمس في أذن ولده .

- تبدو لي نظرات العروس حزينة بامبخائيليس .

وأجاب الكابتن ميخائيليس :

- لتناسب نظرات العريس !

وهز العجوز رأسه وضحك ضحكة جافة .

ولكن حديثها صادف من يقطعه . فقد دخل القسيس بجيوبه الواسعة . والشماس يلحيتة التي تشبه لحية دب وحشى . و « مورزوفلوس » بمبخرته الفضية . ونهض الجميع واقفين .. ونزالت العروس مع عرابها الذي أمسك بيدها . وملا « مورزوفلوس » مبخرته .. وبدأ الترتيل . وأحنت العروس رأسها وقد وقف أفراد العشيبة الوحشية كلهم بأنفاسهم ودمانهم الحارة وشواربهم - وقفوا بالقرب منها يحدثونها بنظراتهم . هذه المرأة النحيلة سوف تدخل عشيرتهم وسوف تمتزج دماؤها بدمانهم . اتكون النتيجة طيبة ؟! كلهم رعاء وفلاحون ويعرفون جيدا عن العاشية : أى جدى أو ثور يناسب هذه العنزة أو البقرة ليخرج نتاج قوى يثرى القطيع . وكانت النساء يعرفن كل شيء عن الديوك والدجاج والأرانب . ويقيمن الزوجين الصغيرين .

- إن العروس نحيلة جدا . وصدرها ضامر . كيف يمكن لملل هذه أن

ترى أطفالها ؟

- لاتتزوجى . سوف تدرلينا . هل تذكرين - العام الماضى - تلك العنزة « مافرادا » . كانت جلدا على عظم . ولم يكن أحد يرى ضرعها إلا بالكاد !

ولكنها اتجبت ، واسبحت تعطي في "الحلبة" الواحدة - قد
 لاتصدقين - ربح جالون من اللبن !
 - ليست لها ارباح - كيف تحمل هذه طفلاً ؟

- لاتترعبي ، سوف تسمن الآن - كلون يسمن بعد الزواج -
 وهكذا عصت النساء ، فهسمن بينما القسيس "مانوليس" يرد كلمات
 العرس : "رقص اشعباً"

وعندما انتهت المظفوس ، تولى العراب استبدال التاجين وانذع الأقارب
 مرة أخرى نحو العروسين يتمنون لهما حياة طويلة وشيخوخة كريمة .. ثم
 بدأ القمص والنهش حول المائدة الموسوقة بالمطعم - ولم يذكر العريس بعد
 ذلك كيف حدث ذلك كله - فقد غطت افكاره سخابة فلم يعد يذكر إلا أنه كان
 يميز بصعوبة تلك الوجوه والاصوات - واباه وهو جالس وقد أمسك بيديه
 خنزيراً مشويماً اسنده إلى ركبتيه - والى يمينه الكابتين "ميخائيليس" وإلى
 يساره الكابتين "بوليكسيجيس" - واخيراً تذكر ان "ديمانديس" شقيق
 زوجته دخل دون ان يحسن اهدأ وقد ارتضى لمبعته إلى عينيته ، ثم إتجه
 مباشرة إلى المطبخ ليشرب ويحتفل بداخله - وان الكابتين "بوليكسيجيس"
 قفز من مكانه وخرج ، ثم ما لبث الجميع ان سمعوا اصوات تقاش حاد
 وزجاج يحطم .

وجز الكابتين "ميخائيليس" على اسنانه وكاد يقفز من مكانه هو الآخر
 ولكنه عدل عن ذلك وظل جالساً ودملؤه تقلى بينما جامته ايته "رينيو"
 بالمطبخ وقدمت له شراب كرز ملازجاً احس بالهدوء بعد ان شربه - فتنقلص
 على الفتاة بنظرة وودوه وهو يحس بأنه رأى هذا الوجه من قبل في مكان ما
 .. من تكون يا ترى ؟ لقد ظلت طوال المساء تخدمه دون تطفل وتحضر له كل
 مايزيد : الماء ، والتبنيذ - والمطعم والسجائر ، وتسرع في احضار ذلك كله -
 وأشار الي زوجته التي كانت توزع اللحم على الضيوف وسألها وهو يوسم
 بصره إلى "رينيو" :

- من تكون هذه البنت اللطيفة ؟ لقد رأيتها من قبل في مكان ما .. ولكن
 أين يا ترى ؟

ونهدت كاثيوتينا :

- إنها ابنتك !

واعنى الكابتين "ميخائيليس" رأسه ولم ينطق بعدها .

وعاد الكابتين "بوليكسيجيس" غارفا في عرقه - واتجهت كل العينين اليه
 ودأول هو ان يرسم على شفتيه ابتسامة وهو يقول !
 - إنه سكران ، فاعذروه

ثم جلس إلى جوار الكابتين "ميخائيليس" وكانما يريد ان يتقرب اليه
 - حتى تصرف ابن اخيه - واهلزت خياشيم الكابتين "ميخائيليس" بالزغم
 منه رائحة المسك نفوح من صامبه - ولكن الكابتين "بوليكسيجيس"
 حتى في محاولته تخفيف حذته - فتمتد أيام وهو يصده نجفاء - لماذا ؟
 وبعد ان شرب عدة كنوس من النبيذ لتمتحة الشجاعة - انفجر معاتباً في
 انهام :

- ماذا فعلت يا كابتين "ميخائيليس" حتى تكرهني هكذا ؟

وجاءت الاجابة :

- اشم فيك رائحة تركية !

وتسائل "بوليكسيجيس" وقد احمر وجهه خجلاً :

- وكيف عرفت ؟

وحقق الكابتين "ميخائيليس" مباشرة في عينيته ، واحس بقلبه فجأة يقفز
 إلى حلقه حتى ليكاد يخنقه - فقد فهم - وسفط بقدميه على السفد الذي
 احضرته له "رينيو" ليضع قدميه فوقه حتى سمع صوت صرير ثيابها
 الخشب ووصلاته - وقال من بين اسنانه :

- الآن اعرف - الا تحس بالخجل ؟ .. ومع امرأة تركية ؟

وقال "بوليكسيجيس" :

- سوف تصبح مسيحية

وقفز الكابتين "ميخائيليس" وقد احس بالبيت يدور امام عينيته -

- ويدلا من ان تصبح هي مسيحية ، لماذا لاتصبح انت تركية ؟ إذن

لاستطعنا أن نتخلص منك .

... ثم اتجه إلى الغناء ليشم الهواء النقي .

وكان اليوم التالي قد بدأ يتسلسل ، ولكن الجميع كانوا لا يزالون ياكلون ويشربون وارتفعت اغنيات الحب على انغام آلات بدأ البعض يعزفون عليها . بينما راح البعض الآخر يرقص رقصة الصفوف الخمسة وهو يغنى . اما العروسان فقد جلسا صامتين غائبتين على حافة الأريكة دون أن يحس أحدهما بالرغبة في النهوض إلى سرير العرس المزين بالورود . وتعدد نجد العجوز بالقرب منهما وقد أسبل جفنيه دون أن يتنام . ولكنه كان يستمع إلى ضجة أحفاده حوله . وإلى كل الأصوات والأغنيات والضحكات الصاخبة . وكان يحس بالسعادة وكأنه شجرة ضخمة من أشجار السهوب تسقط فوقها الأمطار وتمتص جذورها السعيدة الماء .

وبعيني ناعستين أشار الكاتب "ميخائيليس" إلى زوجته :

- هيا بنا !

وجاء يوم جديد . وسطعت أشعة الشمس فوق ساحة العرس فكشفت عن اكوام من العظام وفتات الخبز والرجال التائمين المتكومين بلخاهم وعباءاتهم الصوفية الواسعة . وارتفعت فوق "ميغالوكاسترو" حيث اليوم يوم الثلاثاء التالي للصبح . وسوف تفتح الدكاكين أبوابها ويتمنطق أصحابها كل بعثرته . ومست أشعتها في رقة أشجار الزيتون والحقول وتوقفت عند ضيعة نوري بك وكانها تتهيج لمرأى النوافذ المظلمة حديثا والياسمين المزهر . اليوم أيضا قد وصلت من الأسكندرية أربعة بيغاوات : اثنتان داكنا الخضرة . والأخران في لون خضرة البحر وفي صدورها صفرة . كما أن نوري بك كان قد استقدم "الإبراهيمي" . ذلك الطبيب الاعشى الذي قد يعجب أمينة هانم . وها قد مر أسبوعان لم يعد فيها نوري بك إلى "ميغالوكاسترو" .. وظل يعد فيها - كطير عاشق - العش الذي ستقتبس فيه وليفته فصل الصيف . كان مشتاقا إليها . وكان قد بعث إليها أول أسس برسالة يقول لها فيها إنه قادم إليها وإنه لم يعد يحتفل فراقها أكثر من ذلك . ولكنها أجابت العريس الذي حمل إليها الرسالة . بأنها تشك في أنها حامل ! وأن نوبات الألم تنتابها وأنها من ثم لاستطيع أن ترى

أحد أسوي "حميده" العجوز الحكيمة التي تتردد عليها وتمارس معها فنون العلاج فنحس بعدها بالارتياح . وأنه إذا كان يحبها حقا فعليه ألا يعود قبل أن تنتسج حملها .

ولكن ذلك وحده لم يكن مصدر قلقه : أن يظل بعيدا عن محبوبة أكثر مما ابتعد . فقد أرسل إليه الباشا عشاء أس خازمه العربي يخبره فيها أنه مر وقت أطول من اللازم .. ولم يف بعد بوعده . وأن الأمانة لم تسلم بعد . وأن الأغوات يتهاوسون وأنه مهما كانت طبيعة الأفكار التي تراوده فإن عليه أن ينتهي من هذا الأمر على الفور .

ثم إن أباه أصبح الآن يزوره في نومه بانتظام دون أن يتكلم ودون أن يرفى ملويلا واقفا أمامه . كان يكفي بأن يمر إلى جواره بقدميه العاريتين وفي خطوات متتالفة ووسط أسعاله المهلهلة دون أن يستدير لينظر إليه . ثم لا يتنقى . بل يظل موجودا طوال الليل بوجهه الحزين .

ولقد تصادف في ذلك الصباح أن تلك القبيلة اللعينة التي قتلت أباه مرت بحداء ضيعته وهي في طريقها بعد عودتها من العرس . وقد أغلق باب الضيعة بعنف وصعد إلى الطابق الأعلى .. ودخل غرفة نومه واتجه إلى النافذة يحدق من خلال ستائر الخشبية في العجوز ذي العانة عام . رب الأسرة التي تسير خلفه في فخار .. جيش كامل !

وبينما كانوا يسيرون بحداء باب الضيعة . جذب "مانوساكاس" عنان فرسه وأخرج غدارته الفضية وأطلقها في الهواء وهو يصيح :
- إنني أطلق النار على درك يا نوري بك ..
وخلف النافذة كان نوري بك يعرض شفثيه دون أن يقبل التحدى وأستدار "مانوساكاس" إلى زفائه وصاح :

- إن الكلب آثار الضجة لأنني أدخلت حماري إلى المسجد مع العصلين . حسن بعد غد يجيء عبيدكم الأكبر . ويحق نقى في أن أسعى هو "مانوساكاس" لسوف أدخل هذه العرة خنزيرا !

وارتفعت صيحات ضيوف العرس وضحكاتهم .. ثم خفتت ومنطسحابة الغبار .

وأحس نوري بك بالدم يملا عينيه ، فهبط الدرج وفتح زجاجة ثم جلس في الخارج أمام الباب ليهدئ من ثورته بالشراب . ولكنه لم يستطع أن يظل هكذا حالسا . ولاحظ الفوضى التي أثارها تلك البغال والخيول اللعينة في الأرض أمام الباب ، فأتجه إلى وسط الطريق ورمى ببصره نحو الشمس حيث كان اعداؤه قد اختفوا وسط سحابات الغبار . وأمال الزجاجة وأسأل منها قدر خمس أو ست جرعات على الأرض وهو يفعم قائلًا :

- فليهدر دمي هكذا إن لم أفعل ما قررت في هذه الساعة إن أفعل . ثم أحس عنقه إلى الخلف وظل يشرب حتى بدأت الريح تشتد ، فعاد إلى الداخل ووضع غدارتيه فوق الوسادة وحشاها وأطلق طلقتين اطمان معهما على أن غدارتيه تعملان على مايرام ، وأخرج خنجره ذا الحدين من عنده واختبره في رسنه فوجداه قاطعا كحد المومس . وظل طوال نهاره يروح ويحيى داخل البيت أو يقتفي آثار البغال والخيول على الطريق ثم يعود وقد تجدد غضبه وهياج . وعندما حل الليل ذبح أرنباً وأمر بإعداده على الطريقة المفضلة لديه . ثم مضى يلثمه بشهية مفتوحة ، حتى إذا انتهى من الطعام جمع حفنة من زهور الياسمين نثرها فوق وسادته . ولأول مرة منذ زمن طويل راح في غيبوبة نوم هادي لا يقطع هدوءه شيء . كما أن آياه كذلك لم يبرز في تلك الليلة .

واستيقظ في الصباح منتعشا ميتهجاً وأخذ يصغر بجمه . وكانت الديكة قد استيقظت هي الأخرى وبدأت تحيي شمس الصباح . وتساقط الضوء من السماء فوق أوراق الشجر ، وأخذت النافورة المقامة في مواجهة الباب تحدث أصواتا شبيهة بأصوات النجاج . وخرج الجواد من حظيرته يستقبل النهار بصمويه وكانها قد رأى مهراً أمامه . وكذلك كان نوري بك يتهلل للنهار الوليد .

نزل إلى فناء البيت فاستقبله كلبه العجوز "كارتسوميس" بالنباح مرحباً ، وأتجه إلى الفرس فربت عليه وأمر بأن يغسل جسده بماء دافئ ، وأتجه هو بنفسه ليملا له دلوا من البئر ليشرّب منه كما أعد له كمية من العلف ثم عاد إلى الداخل قامر الطاهي بأن يعد له بعض الأصناف الطيبة من الطعام وأن

يدلا له زجاجة من شراب الليمون .. وبسرعة .. لأنه سوف يخرج على الفور قبل أن تشتد حرارة الشمس .

وسألته المرأة العجوز :

- هل أنت ذاهب إلى ميخالوكاسترو ؟ وهل ستحضر معك سيدتنا ؟
ونون أن يجيب على سؤالها أتجه إلى غرفة النوم ونثر بعض الصبغة السوداء فوق شرابته ثم ارتدى ملابس الرسمية وطيب شعره وأذنيه بالمسك . ثم ناس الغدارتين الفصيتين والخنجر ذا الحدين في جيبه ونزل إلى فناء البيت مرة أخرى ووقف عند الباب مشعاً متألماً كالشمس .

وتقدم إليه تركي عجوز يحمل كيساً فوق ظهره : كان مصطفي بابا ، الذي يجمع الأعشاب ويعد العراهم لعداوة الجروح . والذي يعالج البوقان والقوية ويشفي من الرقي الشريرة . وينقل بين القرى اليونانية والتركية وهو ينادي : "طب ممتاز ، وأدوية مفعولها لاخييب .. وحياة ملوية !" ثم يخرج من كيسه - حسب نوع المرض - حيويب العور ، والخريق الأخضر ، والسذاب ، والشمية والماندراجورا : كان رجلاً مباركاً ينقل مداوي دون أن يأخذ على عمته أجراً سوى أن يأكل كسرة خبز أو يشرب جرعة ماء ويكتفى بهذا من الحياة .

وعندما أبصر نوري بك ، أمام الباب ، توقف وأخذ ينظر إليه بفزع وسأله نوري بك ، وهو يبعد الكلب ويشده من سلسلته المربوطة بعنقه .

- ماذا أصابك يا مصطفي بابا ؟ لماذا تنظر إلى هكذا ؟

وأنحى الرجل العجوز وقال في إعجاب :

- أنت اليوم غاية في الأناقة يا نوري بك ..

ثم أضاف في صوت خاشع ..

- أكثر من اللازم

وضحك نوري بك ، فقال الرجل العجوز :

- لا تصحك يا بك ، إن هناك حدوداً للرجال والنساء ، وخرق هذه الحدود خطيئة ..

- أنيقة فاتحة ، عطف بالغ ، وشرف مكين .. هل ذلك كله خطيبته ؟
وتتهد الرجل العجوز :

- إنها خطيبته يا بك .

- كيف ؟ لست أفهم ذلك يا مصطفي بابا ؟

- ولا أنا يا ولدي ، ولكن هكذا قانون الخلق ، كن حريصاً يا نوري بك
ومرة أخرى رفع يده إلى صورة ثم إلى شفثيه فجيته وقال :

- الى اللقاء يا بك .

وتراجع بضع خطوات .. ثم توقف ، وضحك نوري بك .

- هل تريد شيئاً يا مصطفي بابا ؟ هلا تناولت الإفطار على مائدتي ؟

- لست جائعاً يا نوري بك .. معدة ، ولكن فقط ..

- ولكن ماذا ؟ تكلم بصراحة يا مصطفي بابا ..

- أود أن أقول شيئاً ، ولكنك ستضحك .

- أنت رجل مبارك ، تكلم فلن أضحك .

- لطبخ وجهك بالخمران وارتد ثياب كل يوم وانتعل حذاء مرقعاً اكان لديك

حذاء مرقع .. ودع جانباً غداً ربك الفضيتين .. خفف من أناقتك يا نوري بك

وانفجر بك ضاحكاً .. وارتسم الأسف على وجه الرجل العجوز التحيل ،

وغمغم يقول :

- طالما أن الله فوقك ، فلا تضحك يا نوري بك !

ثم انحنى مرتين .. واستأنف سيره .

وعاد نوري بك ثياباً بنفسه إلى الفناء حيث كان جواده ينتظره ، وكانت

الخدّام العجوز تمسك بحقيبة سرح مليئة بالأطعمة وشراب الليمون ، وأحال

نوري بك بصره حوله ورأى البيت يتلألاً كأنه حديث البناء ، وأشجار

الزيتون واللوز والرمان مثقلة بالثمار ، وأشجار التين تنتشر عريضة

بأوراقها الداكنة الخضرة ، والبيعاوات تنفض ريشها في أقفاصها وسط

عرائش الكروم .. ولا هبة ربيع واحدة .

وتردد قلب نوري بك لحظة .. إلى أين سيذهب ؟ ولماذا ؟ لماذا يتروك

وراءه كل هذه الهبات الإلهية ؟ كانت ضيعته جنة لا ينقصها شيء ، ثم ان

.. آة سوف تلين وترقى ، وسوف تعود .. وسوف يردد الفناء اصداً
سمعاتها المتألقة ، وسوف ينضج الرمان وتزداد خلابة التين وتضع
البيعاوات بيضها في حجم اللوز لتفقس أفراخاً ذوات أجنحة صفراء
مشدء وردية .

وتتهد أورات الخادم العجوز سيدها . كانت تتبعه كظله يوماً بعد يوم
وساعة بعد ساعة . لقد تربى على يديها ، وهي لم تتزوج ولا عرفت في
حياتها رجلاً .. ولكنها لم تندم يوماً على ذلك ، فقد كان هذا الرجل بالنسبة
ليها زوجاً وأبناً .. وكان بالنسبة إليها ابناً .. إنها لم ترفع يوماً بصرها
لنساءه ، فكل ما كان يفعله هو الصواب ، وكل ما كان يأمر به هو الحق ..
والسعادة كل السعادة في أن تطيع وليس أمامها سعادة أفضل من ذلك .
ولكن قلبها اليوم مثقل ، عادت تسأله :

- إلى أين أنت ذاهب يا سيدي ؟

واستدار نوري بك في دهشة .

- ماذا حدث لك يا أمي الصغيرة ؟ لماذا تسألين ؟

ثم وضع أطراف قدمه في الركاب وقفز فوق السرج ، ووضعت المرأة
العجوز يديها المعروقتين فوق عنق الجواد وتغمضت في فرح :

- إلى أين أنت ذاهب يا سيدي ؟

وأجابها :

- اهتسى أنت بشؤون البيت !

ثم نفض الجواد بالهماز .

- كان الله معك يا ولدي ..

ورأت سيدها ينضج جواده مرة أخرى ويخشى وسط أشجار الزيتون
فضية الأوراق ، وأحست لحظتها بغصة في حلقها .. ولكن قلبها زغم ذلك
كان صلباً كالجمارة . وقالت بصوت مرتفع وهي تغلق الباب بالمزلاج :

لقد شرب ماء الخلود .. وهو لا يعرف الخوف !

بعد أيام الفصح عاد "مانوساكس" إلى الحظائر القائمة على سطح

جبل "سيلينا" . وكانت الحرارة شديدة ، وقد بدأ جز الصوف ، وكان ذلك يعنى إحتقلاً رائعاً فى الجبال : كان الرعاة يجزون اصواف المعاز والأغنام ويطلقون النكات وهم يقومون بعملهم . وكانت النساء يصعدن الجبل ويشعلن النيران لتسخين الماء الذى ينظفن به الصوف . وكان "مانوساكاس" هو اولاده والرعاة الصغار قد اقاموا فى ذلك اليوم حفرة خارج الحظيرة وضعوا فيها حملاً ميتاً بكل جلده وغطوها بكمية من القمح المتوهج .. وانتظروا حتى يتسخ اللحم داخل الارض .

وامسك "مانوساكاس" كيشاً ضخماً وضعه فوق ركبتيه وأخذ ينزع خصلة إثر خصلة من الصوف الملبد وإلى اليمين منه أكثر من عشرين من الخراف التى انتهى جز صوفها وإلى اليسار منه خراف لم يجز صوفها بعد وإمامه كومة الصوف تتوح منها رائحة الدهن . وكان "مانوساكاس" يندن وهو فى رائق الببال . وهبت ريح باردة من الجبال .

كانت سنة طيبة ، فقد ازداد عدد القطيع . وكان ولاده الاكبريان "تودورس" و"ياناكيس" يعدان الجبن داخل كوخ قريب من الحظيرة ويضعانها داخل جزار عميقة من النحاس توضع بعد ذلك إلى جوار أكياس من الجبن الجاف والطرى محفوظة داخل مخازن الجبن الرطبة .. والشكر لله .. فهناك أسفل السطح فى "أيلاني" تنمو المحاصيل والكروم .. كما أن فرسه قد وضعت مهراً صغيراً .

واستراح "مانوساكاس" قليلاً وجال ببيصره حوله .. ثم إلى أسفل فى السهل : بلى .. الأرض مثل الأبنية ، دائماً حيلى فالحيوانات فيها حيلى ، والأشجار حيلى ، والنساء حيلى .. كريستينا اكووى فتاة لطيفة واحسرى لى شيئاً من شراب الليمون أبرد به جسدى !

وكانت زوجته كريستينا تطلب النار وسط الحظيرة . كانت لاتزال إمزاة قوية العضلات ثابتة المفاصل والعظام .. ولكنها كانت زاوية مبهفة !

ولم يكن فى مقدورها بعد أن تتجيب أطفالاً .. ومن أول ذلك كانت تشكو إلى الله ، فالتساء لا يستطيعن الانجاب إلا بعد أن يتعدين سن السبعين !

كانت تردد ذلك وهى تشكو إلى الله . وقد تريد واحدة من النساء أن تتجيب .. تتبين من أطفال حتى يهدأ بالها ، وتستتبان من الأطفال عدد يكفى ! مشروب ولداً ، وأربع بنات ، وعندما يصبح لها أول حفيد ، ينتابها شعور أشبه بدعرة النوم ، وترسم علامة الصليب وتبتهل : ياإلهى .. اه لو كنت إلى جوارك وأنت سبحانه تخلق هذا العالم ! إذن لكنت قد كشفت لك عن أسرار لايعرفها إلا نحن النساء .

وسمعت صوت زوجها .. وأجابته على الفور :

- بكل سرور ياعزيزى "مانوساكاس" . هل تريد شيئاً تأكله ؟ لقد أعددت بعض لحوم الضأن .
- هاتيتها معك .

وبدا يأكل وهو سعيد بالدنيا .. ثم ماليت أن سمع وقع حوافر .. وصوت حجارة تتدحرج .

عن ياترى يأتى إلى الجبال فى هذا الوقت معتلياً شهوة جواده ؟ ونهض "مانوساكاس" فى نعشة وقمه لايزال ممثلماً بالطعام ونظر عبر الحائط الحجرى للحظيرة وهو يحجب بيده ضوء الشمس عن عينيه .. ورأى جوارداً أسود يتسلق الجبل فى خطوات قصيرة والحجارة تتطاير إلى الحائنين منه .

وقفز "مانوساكاس" وهو يغمغم :

- عافيتى الله إذا كنت أكذب ، ولكنى اعتقد أنه هو نفسه الكلب فتورى ! ثم اتجه متدقفاً إلى الحظيرة وتوقف عند مدخلها .
- إنه يريدنى !

ويقفرة واحدة أصبح داخل الحظيرة وأخذ حقيقته من فوق الحائط ، وكانت زوجته قد عاتت نتحتى فوق الوعاء وهى توجج النار تحته . ولم تلاحظ شيئاً .

وأخرج هو من الحقيبة سكيناً قصيرة شتتها إلى وسطه ، وشد الحزام جيداً ثم جذب عصاه المصنوعة من خشب البلوط وعاد ليقف عند مدخل الحظيرة .

وكان الفارس في تلك اللحظة قد تجاوز السديانة الضخمة ذات الأوراق
الكثيفة والتي تقف داكنة وحدها . وكان يضع حول رأسه عصاية رأس
بيضاء والغدرتان تلمعان تحت أشعة الشمس ولم يستطع مانوساكاس أن
يميز جيداً وجه نوري المستدير المتألق بشاربه الأسود .

وعاد يقول :

- انه يريدني ! مرحباً إذن بالكلب . إذا كان قد جاء لهذا ونادى زوجته
- كريستينا ! أعدى المائدة فقد جاءنا ضيف !
وتناهى إليه صوت زوجته من الداخل وهي تسأله في دهشة :

- من ؟؟

وأجاب "مانوساكاس" :

- شيطان ! قلت لك أعدى المائدة !

وتقدم ليستقبل الفارس . وراء "نوري" قرع يده .. ومن بعيد تنهى
صوته المتقطع الساخر :

- طاب يومك يا كابتين "مانوساكاس" .

- مرحباً يا كابتين "نوري بك" .. من تريد ؟

وأجاب "نوري بك" ضاحكاً وقد برقت أسنانه وانقبضت وجنتاه :

- أريد الكابتين "مانوساكاس" .. هل تعرفه ؟؟

وبرقت عيناً "مانوساكاس" في غضب .. ولكنه تماك نفسه وقال :

- ومن ذا الذي لم يسمع عن أعماله البطولية ؟

وحاول أن يضحك ولكن شفته العليا وحدها التي تحركت وكشف عن
أسنانه .. ثم استطوف يقول :

- منذ أيام قليلة مضت فحسب . ادخل حماماً إلى المسجد ليشارك
المصلين .

- أنا أيضاً سمعت بذلك . أخبرني به طائر نحس . وقد جئت خصيصاً
لأرى هذين الكتفين اللذين حملنا هذا الحمار .

- ولكنك لن ترى كتفي يانوري بك . فلا تفكر في ذلك . مانوماساكس
لا يكشف عن كتفيه .

وضحك نوري وهو يقول :

- عندما يرى الخطر محققاً به فسوف يكشف عن عجزه وليس فقط عن
ضعفه !

ثم الهب بسوطة اذن الجواد فتراجع مستجمعاً قوته وقرع نحو
مانوساكاس الذي لم يتحرك من مكانه ولكنه أحس بالدماء تجري في رصغيه
وشت مكانه .. إن نوري بك قادم لزيارته . فصبواً إذن ! وشد قبضته . ولم
يستطع أن يكبح جماح لسانه :

- لم يستطع كلب بعد أن يعرضني إلا إذا كان مجنوناً يانوري بك .. فانتبه
جيداً لنفسك .

- ولكنني وحش مفترس يامانوساكاس . ومن ثم قلت أحب أن أتغنى
بمدائح عن نفسي .. إنني أطل صامتاً .

- حسن ؟؟ فلماذا جئت إذن إلى مملكتي ؟؟ ماذا تريد ؟؟

وعض نوري بك شاربه ولم يقل شيئاً . وظل "مانوساكاس" ينظر إليه
بدوره وهو واقف مكانه دون أن يقول شيئاً . ولكن قلبيهما كانا يدقان ..
ويكادان يقفزان خارج صدريهما .

وأخيراً قال نوري بك بصوت هادئ بطيء يرن كل كلمة :

- مانوساكاس .. أنت أهنت تركيا إهانة بالغة .. ويجب أن تدفع الثمن .

- كنت أسلى نفسي ! فدع إذن جامع الضرائب يحضر وحدد أنت
ما يجب أن ادفعه له .

- لقد حضر بالفعل .

- أنت ؟؟

- نعم .. أنا . تركيا التي أهنتها . هي التي أرسلتني . ومن العالم الآخر
تلقت رسالة من أبي الذي اغتالت قبيلتك . هناك حساب ضخم سوف
تسويه مع قبيلتك يامانوساكاس . منذ يوم أو يومين اقتحم أخوك مقهى
تركيا وأخرج منه الأغوات . أن ميغالوكاسترو تصرخ طالبة الثأر . وربما لا
أمس أخاك بسوء - فهو شقيقي بالدم - ولكنني سامسكك أنت .

وتحسس مانوساكاس حزامه وإطمأن على الخنجر . وقال :

- فلنبتعد قليلاً عن هذا المكان ، حتى لاتسمعنا الزوجة .. ثم إن ابائى أيضاً داخل الكوخ .

وترجل نورى بك ، فقد رأى انها ليست رجولة منه ان يظل منتظماً صهوة جواده بينما عدوه راجل على قدميه . ولف زمام الجواد حول ذراعه - هيا بنا ..

وتحرك الاثنان .. وأخذ الجواد يصهل بشدة وهو ينثر الحجارة وضربات حوافره .

كانت السكينة تلف الجبل ، والشمس فى كبد السماء . وكان أبناء مانوساكاس خارج الحظيرة مع الصبية الرعاء قد كشفوا الحفرة وأخرجوا الحمل المشوى الذى كان قد نضج تماماً ، وأحاطوا بهم : بعضهم جلسوا القرفصاء والبعض الآخر اجتمعوا على ركبتيه ، وبدأت أسنانهم تعمل كالطواحين . والوعاء الخشبي يدور من قم إلى قم ولا أحد منهم يعير الجبل اهتمامه - حتى الأغنام التي تخلفت من الصوف ، كانت هي الأخرى قد انتشرت فى الظل وقد خرجت السننها وأخذت تحرق فى دهشة فى أصوافها المحروزة .

وتوقف الرجلان عند شجرة السنديان الطويلة كثيفة الأوراق ، والقرى كل منهما ينظره خاطفة إلى الأرض المنبسطة حول جذعها الضخم .. وقالوا معاً :

- المكان هنا يصلح ..

وربط نورى بك جواده إلى شجرة سنديان أقصر من الأولى وإلى جانب منها فى مكان لا يستطيع الجواد أن يرى منه شيئاً مما سيجرى . أما "مانوساكاس" فقد نظف المكان من الحجارة والأغصان الرقيقة المتساقطة ، وحين عاد "نورى بك" أسعده أن يجد المكان نظيفاً وقال :

- لقد أحسنت تنظيف المكان فأصبح الآن كافياً .

- نعم .. إنه كاف جداً . ونستطيع أن نقيم فيه واية إذا نحن أردنا . ونستطيع أيضاً إذا نحن أردنا أن يقتل أحدنا الآخر ، فأيهما تختار

يانورى ؟

وأجابه نورى بهدوء :

- أن تقتل ، فالشرف يطلب ذلك يامانوساكاس .

- نعم .. فإين أحدهما لايحب الآخر .

وردد نورى بك بهدوء :

- هيا تقتل ..

- كما تشاء

وبشد حزامه أكثر حول وسطه . وشمر أكمامه ، بينما شد "نورى بك" عصاية الراس البيضاء ، وأخرج مسدسه من جرابيهما الجلديين وعلق أحدهما فوق أحد أغصان الشجرة ، بينما أمسك بالثانى ، وكان "مانوساكاس" يراقبه .

- علقه جيداً ، فأنا أحب هذين المسدسين ، وسوف أخذهما لنفسى بمجرد أن أقتلك .. كنتذكار !

وأعد نورى بك مسدسه للإطلاق ، ووقف "مانوساكاس" فى مواجهته دون أن يتحرك - وقال "نورى بك" :

- مانوساكاس .. بالأمس عرت قبيلتك بضيعتى وتوقفت أنت وأخرجت مسدسك وأطلقت فى الهواء وأنت تقول لى : إننى أطلق النار على ديك يانورى بك ! وما أنذا القبل التحدى .. ولو تخطفنى الموت !

وأطلق رصاصة عرت فوق راس "مانوساكاس" ثم شب واقفاً على أطراف أصابعه وعلق المسدس بجانب الآخر .. والدخان لايزال يتصاعد من فوهته .

أوخذ كل منهما مكانه فى مواجهة الآخر وقد باعد ما بين ساقيه .. وغطى الدم فى عروقهما .. وانتظرا . وحاول كل منهما أن يثير الآخر بالسيب والتعريض ، ولكن ذلك لم يكف لتهدئة الإثارة الكافية .. وأخيراً قال "مانوساكاس" :

- قد يحضر إلى هنا الكابتن "ميخائيليس" ليتعامل معك ، هل تذكر كيف أمسك بك يوماً من حزامك ووقعك فوق السطح ؟ ولكننى أنا أيضاً سوف أذهب بك الآن بنفس الطريقة .

واندفع إلى الامام ليمسك الآخر من وسطه ، ولكن "نورى بك" راغ منه ، وخطا خطوة إلى الخلف ثم اسفل خنجره ذا الحدين ، وأخذت عينا الاثنين وهما ترعيمان بالشعر :

- كافر !

- كلب !

وففز نورى الى الامام رافعا خنجره ، ولكن "مانوساكاس" انحرف جانباً حتى كاد نورى بك يسقط على الأرض ، واندفع مانوساكاس متحنياً نحو نورى بك وضربه فى بطنه برأسه ضربة كادت تفلقه وعيه ولكنه تماسك واستجمع قوته . وبينما كان غريمه لايزال متحنياً ، دمع بالخنجر عميقاً فى جسده .. وطقطت العظام ! وانثق الدم غزيراً ليلوث "نورى بك" وهو يخرج الخنجر من جسد "مانوساكاس" وأطلق نورى صيحة فرح طاع وهو يلعق حد الخنجر بشراهة حتى كسا الدم شفتيه وأحيت :
- هذه من أجل والدى - إننى أثار لدمه .

وانحنى "مانوساكاس" وهو يتمايل مستنداً إلى جذع الشجرة ، غغم ويقول :

- كلب ! .. لقد نلتنى .

وأجاب نورى

- لقد أنتهى الحساب .

ثم بدأ يقترب فى خطوات وثيدة متعرجة مثل الأسد . وقد أخذت خياشيمه ترتعش .

وغغم "مانوساكاس" .. وهو يحس بأن قواه تخور وتمنعه من الارتفاع إلى خصمه .

- اقترب من هنا .. اقترب من هنا ..

وأثار صوته نورى بك .. فاقتراب أكثر وقد رفع خنجره ثم صاح هادراً :
- وهذه أخرى .. ضربة أخرى فى القلب ياكافر ، من أجل تركيا التى أهدتها أنت وأخوك الكابتن "ميخائيليس" .

وعندما أصبح أكثر قرباً منه ، ففز كالبرق ليغرس الخنجر فى قلب عدوه . ولكن "مانوساكاس" انحرف جانباً فاصطدم الخنجر بجذع الشجرة وتحطم

.. واستجمع مانوساكاس ما تبقى لديه من قوة ودفع سكينه القصيرة عميقاً فى الجسد الآخر .. وإلى الأسفل .

وصرخ البك مثل الثور .. ولكنه غالب الالم ، وانتزع السكين من يد عدوه التى كانت قد شلت تماماً .. ثم صاح وهو يفرسها فى قلبه :

- من أجل تركيا !

واتهار مانوساكاس اسفل جذع الشجرة .. وممرت بخاطره كالبرق الخاطف صورة زوجته كريستينا" وصور أطفاله ، والحظيرة والقطيع .. وفجأة غطت عينيه سحابة سوداء داكنة ، لم يعد يرى شيئاً ، وتهاوى وسط بحيرة من دملته .

وتوقع "نورى" بجانبه والدم يتفجر من سرواله ويسيل إلى الأرض إلى جانب رأس "مانوساكاس" وأحس فجأة بالأم رهبة تعذبه ، فوضع كفتا يديه فوق خصتيه الداميتين وهو يهدد ويحيل البصر حوله ، وكانت الشمس تميل إلى المغيب والجميل قد إمتلا بأصداء أجراس القطنان .. وهبت الريح .

وصاح نورى وهو يحاول النهوض على قدميه :

- يارب .. يارب ، ساعدنى على الوصول إلى جوادى لكن ابتعد عن هذا المكان !

ونشبت بجذع الشجرة ، ووضع غدارتيه الفضيتين فى منطقتة ، وتناول عصا مانوساكاس ليستند إليها ، وألقى عليه نظرة وهو يحاول أن يركله بقدمه . ولكن الالم منعه عن ذلك فلانتهى بأن يصق عليه وهو يقغم :
- لقد بررت بقسمى ، ولكنك أنت أيضاً تلمتى أبها الكافر !

ووضع يده اليسرى بين فخذه وهو يثرن :

- كان الفضل لى لو أنك طعننت قلبى أبها الكافر !

وفتح مانوساكاس إحدى عينيه الداميتين الكابيتين ، وتحركت شفاهه داكنة الزرقة يحاول أن يتكلم ، ولكنها تجمدتا وبقيتا مفتوحتين ، واتجه نورى إلى جواده متعثراً يئن من شدة الالم ، وتناهى صوت أتيته إلى سمع الحيوان فاستدار وقد برق بياض عينيه .

أه لو أنتي استطلعت أن امتطى صهوته وابتعد . مصطفى بابا لديه من الاعتشاب ما يشفي .

ورسم الدم خلفه خيطاً . وبدأ القلام أمام عينيه حالاً بعد أن ادرك جواده . ثم انهار بجواره . واحنى الجواد رقبته يتشمم سيده . عنقه وشعره وظهره . ثم مالئث أن رفع رأسه الذكي وسهل كأنما يطلب المساعدة .

وحاول نوري أن يرفع قدمه إلى مستوى الركاب . ولكنه لم يستطع وكان الألم يعيب به عن وعيه . وتهاوى قريباً من قائمى الجواد الذي تطلع اليه برأس خفيض . ثم مالئث أن ادرك ما يريد سيده . فحرك إلى الامام ثم ركب بقائمه فوق إحدى الصخور . وعاد ينظر إلى سيده الذي أخذ يتعثر . ووجهه في المقدمة حتى استقرت ذراعا حول عنق الجواد . وبدأ يتحامل حتى استطاع أن يرفع جسده وساقيه فوقه ويستقر فوق السرج . وظل يجز على أسنانه لكي يكون قادراً على تحمل الألم . ولكنه لم يستطع أن يفتح ما بين ساقيه حيث الجرح الدامي . ومن ثم أخذ فوق ظهر الجواد وضع السيدة حين تمتطى صهوته . وبدأ يربت عنق الجواد وهو يغمغم :

- إنهنس .. إنهنس باشقيقى ! ابتعد عن هذا المكان .. على مهل .. على مهل ..

وتحرك الجواد وهو يراقب الأرض في عناية وحرص حتى لا يتعثر . ويتجنب الحفر . والامانكن المتحدرة وهو يهبط التل في غيبش السماء . كانت الشمس قد غابت خلف الجبل حمراء دامية . وثة بضع نسوة يصعدن الجبل ليزين رجلهن . وعندما ابصرهن نوري جز على أسنانه ورفع رأسه عالياً . ولكن الدعاء كانت تسيل فوق السرج وتتحدرو إلى بطن الجواد ثم إلى الأرض الصخرية لترسم أثراً فوقها دامياً .

كانت ساعة مباركة زالت فيها الحرارة وأصبح لديم الأرض أكثر انتعاشاً ولاحت نجمتان أو ثلاث في كبد السماء . وترافقت ذبابة مصباح من كوخ عند سفح الجبل . وثلاث منه اغنية . ثمة لم تهدد طفلها في رفة لكي ينام . وكان نوري بك قد اغمض عينيه فلم يعد يرى شيئاً . ولكنه كان يسمع

لدين الحشرات عالياً كالاجراس .. تشبث بزمام الجواد . إلى أين ؟ إنه يعرف طريقه . وسيده على ثقة كاملة به .

وتوقف الجواد أمام باب بيته الرفي . وفتح نوري عينيه وساح . وهرع الخدم وحملوه إلى الداخل . ومدده خادمه العجوز فوق الأريكة التي سرعان ما اكتسبت ملامحتها بالدماء .. وحرك نوري يده وهو يهمس :

- مصطفى بابا .. مصطفى بابا ..

ثم تهاوى مرة أخرى إلى الوسائد .

وكان الليل قد أوغل قبل أن يصل مصطفى بابا إلى البيت لاهث الانفاس وهو يحمل فوق كتفه كيساً مليئاً بالاعتشاب والعزاهم . وجاء الخدم بالمصابيح والشموع . وانحنى مصطفى بابا فوق نوري بك وهز رأسه . وظل نوري بك ممدداً فاقد الوعي مقلق العينين . ووضع الرجل العجوز بضع قطرات من خل الورد داخل انفه . ومسح صدغيه . وفتح البك عينيه ونظر إليه وسأله في صوت مرتعش :

- هل سأعيش ؟

ولجابه الرجل العجوز :

- أنت بين يدي الله .. وهو قادر على شفاك .

وسأله نوري في رغب :

- ومن ايضاً ؟ الا يستطيع احد ؟ الا تستطيع أنت يا مصطفى بابا ؟

- الجرح بالغ يانوري بك .. وفي مكان حساس .

وصاح نوري بك :

- اللعة !

وقال الرجل العجوز :

- لا تكفر .. إن الله هو الذي وجه السكين حيث أراد سبحانه أن تستقر

وهمس البك في تعاسة وهو يحدق في الرجل العجوز في ذعر :

- لماذا .. لماذا .. لماذا ؟

ولكن الرجل العجوز لم يجب . لقد كان يحس بأن شيئاً ما سيحدث منذ أن رأى البك في الصباح وانفقا في لالنة امام مدخل البيت .

- لا تتحرك .. ولا تنسى . إذا كنت تريد أن يتحسن حالك .
وغسل الجرح وأوقف النزيف ووضع الأريطة . ثم أخرج من كيسه
قبضة من الأعشاب أعطاهم للخادم العجوز لكي تغليها . وكانت تلك جرعة
لبنام ثوري بك . ثم صرف الخدم جميعا وفتح الكيس مرة أخرى وأخرج
زجاجة وبعض المراهم .. وكانت الخادمة العجوز تراقبه وهي تبكي .
- مصطفى بابا .. هل جرح سيدي خطير ؟ إن يشفى ؟
وغنم الرجل العجوز : - يمكن أن يشفى .. لكن ماذا سيصنع
بالحياة بعد ؟

- ماذا سيصنع بالحياة ؟ .. لماذا تسأل هذا السؤال يا مصطفى بابا ؟
ويظهر الرجل العجوز حوله ثم قال بهدوء :
- إن يصبح رجلاً بعد اليوم .
وصرخت المرأة العجوز وهي تغطي وجهها بكف يديها .

وفي اليوم التالي . وقف الكاتب ميخائيليس أمام مدخل دكانه والشمس
في مطلع شروقها .. وظل يحدث تجاه بوابة الميناء وكانت السفن لاتزال
تشحن وتفريغ بينما أمواج البحر حمراء داكنة الحمرة . ولكنه لم يكن يرى
شيئاً . كانت نظره مقصورة على ذاته هو . كان جسده قد ازداد ارتخاء في
الأيام القليلة الأخيرة . وفمه مغلقاً مليئاً بالمرارة . وكان المارة من الأتراك
يحدثونه بنظرات شديدة . وكان كثيرون من أصدقائه المسيحيين يتجنبونه
. كانوا يعرفون أن قوة سوداء تمك عليه أعماقه . ولم يكن أحدهم ليجرؤ
على الاقتراب منه .

وأخرج الكاتب ميخائيليس صندوق الطباخ من حزامه وهو يحس بأنه لا
الخروج في جولة فوق سهوه فرسه .. ولا الحمر نفسها يمكن أن يعيدا
الهدوء اليه .. ولا حتى سجاثره النعسة . أشعل سيجارته . وجذب بضعة
أنفاس ثم يسق في ثوره . انها لتسهم فمه أكثر وأكثر . وألقى بها إلى
الأرض وسحقها وهو يفعم : إلى الجحيم أنت أيضاً .. ثم استدار ليدخل
الدكان ويجلس هناك حتى ينتهي اليوم فيقلقه ويهرب .

وجذابة ظهر "تيودوروس" الابن الأكبر لعماتوساكاس . وقد كساه الغبار

بأسبب عرقه والجم الرعب لسانه . وتوقف أمام عمه فأغر القم وأخذ يحدث
فيه وهو يحاول عينا أن يتكلم .. ولكن قلبه كان مثقلاً .. وأنفاسه لاهتة .
وحديه الكاتب ميخائيليس من ذراعه وهزه يعنف وهو يقول :
- تكلم !

وانحنى فوقه وقد قفزت إلى خاطره صورة أخيه ماتوساكاس .
- لقد قتلوا أبي يا عمي !
- من ؟ .. من قتله يا ولد ؟
- ثوري ..

وترك الكاتب ميخائيليس ذراع ابن أخيه . ودفع بيدهما بين أسنانه
بعنسا في ضراوة حتى ليحس بملوحة الدم فوق شفتيه .
- متى يا ولد ؟ وأين ؟ استرجع أنفاسك !

واسترجع "تيودوروس" أنفاسه وأخبره وسط دموعه ولعناته أنه عثر
على أبيه في العساء ملقى تحت شجرة البلوط الضخمة . وقد أصيب
بجرحين غائرين . أحدهما في جنبه والآخر في القلب تماما . وأن إمرأتين
سعدتا للجبل في مساء الامس - زوجة "حاجي جورجوس" وابنته - وقالتا
إتبعنا قائلنا "ثوري" متشبهاً بجواده شاحب الوجه مرهقاً . وأنهما وجدتا
أثار دماء على طول العمر الجبلي .

وظل الكاتب ميخائيليس صامتاً يضع لحظات وبدون أن يتحرك من مكانه .
وليث يحدث فحسب الأرض وهو ينصت إلى مايقوله ابن أخيه وأحس بأنه
يستطيع أن يرى شجرة البلوط الضخمة في الفراغ وقد تمددت عند جذورها
جثة ضخمة مهيبه ملطخة بالدماء . وعندما اكتملت تلك الصورة أمام عينيه .
رفع رأسه . وجذب ابن أخيه من كتفه وقال : هل أنت امرأة حتى تعوى
هكذا ؟ الأبواب لاتزال مفتوحة وأمامك وقت كاف لأن تعود إلى القرية . قل
لهم : انتظروا .. ولاتفوتوه وأنا قائم .

وعندما خلا إلى نفسه . عاد إلى الدكان وأخرج منه "شاريتوس" فلم
يكن يريد أن يراه أحد في تلك اللحظة . وركل بقدمه المقعد الذي تعود أن

يجلس فوقه فتتأثر حطاماً .. وارتمى فوق لفة من الحبال وقد ضلعت راسه بقبضتيه . وضاعت معالم الدكان من أمام عينيهِ بل وضاعت "ميغالوكاسترو" كلها .. ولم يعد منتصباً أمام ناظرية سوى شجرة البلوط . داكنة .. برافة تحيط بها الأشواك ، ويتعدد عند جذورها جسد أخيه "مانوساكاس" . لم يكن ميتاً أمام ناظرية ولم يكن دماً ذلك الذي يسيل من جسده .. ولكن كان خمرأً ! .. كان يسقى بيديه ويعنى : قريبا سوف يحضر الموسكوف !

وهز راسه ثم نهض واقفاً وقد استقر على رأى . اغلق دكانه وبس المفتاح فى حزامه . ولم يسر فى الطريق العريض . ولكنه اتجه عبر الأزقة الضيقة فى الحي اليونانى التى ماثبت أن قادته إلى الحي التركى . وكانت العوانس الثلاث بعيداً لحظتها عن ثوب الشمس .. فلم تره واحدة منهم وتوقف أمام الباب الأخضر . وسرد نظره كالصقر الى أعلى الدار الى الحوائط العمياء .. ثم اخترقته نظرتة الشرقة الصغيرة يستأثرها المسدلة . ولكنه مالم يد أن اشاح بصره عنها وقد انتبه الغضب والتقرز وكانما أحس بأنه قد دس نفسه .. وعاد بصره الى الحوائط السماء . لم يكن مهتماً فى ذلك السماء بالنساء والشرفقات . ولكن روح اليازى فى صورته كانت تجوم فوق رأس "نورى" وهى تتلف على أن تشبب مخالبتها فى عينيهِ ورأسه .

وملاء فجأة سرور وحشى . وأحس أن روحه انطلقت وتحررت . وأن جسداً مختلفاً تماماً قد احتل كيانه .. جسداً رجل . جسداً لايتزين ولا يتألم ولاينضح برائحة المسك .. جسداً ينضح برائحة عرق الرجال - واتجه الكابتن ميخائيليس إلى بيته وعيناه قدحان شرراً .. وظل يغمغم طوال طريقه : أحمى .. مانوساكاس أحمى مانوساكاس .

وهبط الليل .. وثلاث النجوم . وتالق قمر نصف فى كبد السماء . وغلقت البيوت فى "أى جاني" أبوابها .. وانطلقت المصابيح فى الدور واحدة إثر أخرى .. وغرقت القرية فى الظلام . ولكن باب بيت "مانوساكاس" ظل وحده مفتوحاً على مصراعيه .. وظلت المصابيح يداخلة موقدة ولعوق نعيش فى وسط الغرفة الرئيسية . كان جسد رب البيت معدداً

من أجل حفل الجنائز . كان قد تم غسله بالنبيذ . وكفن بالكثان .. ورسم بالشمع صليب فوق شفتيه . ووضعت أيقونة صغيرة "الشمس" فى يديه المسلوطين . وكان ثمة مسيحيان كبيران مضامان . أحدهما عند قدميه .. والاخر عند رأسه . وكانت عيناه مفتوحتين تبهوان كالزجاج . فلم يكن هناك وهما من يسيل جفنيه وهما لا تزالان العائنين وقبل أن يستعصى ذلك .

وبعد الصباح . كان الأقارب والأصدقاء يتوافدون . ومع العويل والتحبيب . وقت الأجراس تعلن حضور الموت المفزع . ومن "أى جاني" ومن "بيتروكيغالو" .. ومن كل القرى المجاورة كان المسيحيون يتوافدون ليقلوا الجسد .. ويودعوا "مانوساكاس" .

وكانت زوجته "كريستينا" قد ارتعت فوق الجسد تشحب وتضرب صدرها بيديها . وكانت الجارات قد جتن أيضاً - الأامل - والأمهات التى سبق منهن ملك الموت أبناءهن . والفتيات اليتيمات - وكلهن أعاد الأحران إلى قلوبهن مرأى الزوجة المكومة .. فأسدان شعورهن وشاركن فى المصيبة . وجاء "سيفاكاس" العجوز من "بيتروكيغالو" سائراً على قدميه مدججاً بالسلاح كما لو كان ماضياً إلى الحرب . كان يحمل غدارات من طراز عتيق وسكيناً ذات مقبض أبيض . وشاحن البارود الذى كان يملكه أبوه يفتحته الواسعة . وتوقف عند مدخل البيت بلا حراك وقد رأى ابنه سحى فوق نعشه .. ثم تقدم نحوه ماداً يديه الضمختين ليمسك بيدي الرجل الميت .. ويقول :

- كل شيء على مايرام يا "مانوساكاس" . ولكنه جعلت .. كان الدور دورى لنا .. فأحلم سلامى إنسان إلى من سبقونى - قل لهم إننى قادم أيضاً .

ثم جلس عند مدخل البيت لحظات .. وقف بعدعاً . وعاد صامتاً . بعينين جافتين .. متجهاً إلى قريبته . وهذا العويل والتحبيب شيئاً فشيئاً . فقد بدأت أجساد الناهيات تحس بالتعب . وبدأت كل واحدة منهن تجد السكنية والراحة فى الكلام والإعياء

.. وتسلل ، واحدة إثر أخرى .. كل إلى بيتها لتأكل وتنام ! كن لايزن أحياء
 ، وغدا ينتظرن عمل شاق جديد . وحدث الآخرين هو في البداية والشهامة
 حدث الآخرين وحدهم ! بل لعله أن يكون أحياناً مصدر سعادة حين يشرب
 القدر شربته فيوجهها للجيران دونهم ! وهكذا فلم يعد باقياً داخل بيت
 "مانوساكاس" سوى أصدقاء ثلاثة فحسب . أخوه "فانوريوس" رجل
 المرعى ، وابنه بالعماد "سترايتس" ، رجل قوى الجسم في الخامسة
 والثلاثين من عمره ، من سلالة صحيحة البنية .. لوالية مديبة وشفتين
 دقيقتين وجبهة عريضة - كان غريباً من "كيسامو" يبحث في مقاطعة
 "لاسيثي" عن سوق "كروستالنيا" . وهناك كان القدر قد هيا له في
 الانتظار فتاة من "أى جانى" وأما ترقص فأحبها قلبه .. وتزوجها ووضع
 "مانوساكاس" يديه الكليل الزواج فوق رأسهما .. وبعد تسعة أشهر
 أنجبت الزوجة طفلها الأول وتم تعميده . وهكذا أصبح "مانوساكاس" أبا
 وأخاً في العماد . أما الثالث فكان "باتاسموس" عازف القيثارة آخر سلالة
 من عائلة مستها المسخرة ! كان أبوه قد أنجب تسعة من الأولاد ، وكان هو
 أخوهم - أنجب في شيوخته . ولكنه كان رجلاً يتحرك بداخله سخط الله .
 لم يكن في مقدور أحد أن يجاربه حين تبدأ مساجلات الهجاء في الأسواق
 .. فما إن يصيبه أحدهم بشربة فوق معصمه حتى يبدأ أشعار الهجاء .
 وكان يعرف كل أسرار الآخرين وأوجه الضعف فيهم . ومن ثم فقد كان
 الذعر يستبد بالرجال والنساء عندما يتوسط حلقات الرقص ويضع القيثارة
 فوق ركبتيه . ثم يسرد نظراته إلى الواحد منهم بعد الآخر قبل أن يفتح فمه
 ويبدأ في الانشاد . وكان يعيش بغيره كغارس عجوز .. من أن يهتم به أحد
 . كان الأول والأفضل عند كل سوق أو عرس أو حفل تعميده أو شراب ، وكان
 الجميع يتسابقون في دعوته إلى الولائم والمجالس حتى يسلم من لسانه .
 وكان يعرف باسم "باتاسموس" أو "بعلزبول" (كبير الشياطين -
 المترجم) و"الحربة" و"الدبور" ! وكان قد وصل بالأمس إلى "أى جانى"
 من أجل تعميده الابن الثالث لـ "سترايتس" ، ولكن الذي كان في انتظاره
 هو الشر والموت الذي كان يقيم بدوره هناك .

كان "باتاسموس" صديقاً لمانوساكاس لايفارقه . وطالما أفرغاً سويلاً

فإن الخمر .. وأحلام الخراف المشوية إلى هياكل عظمية . كان يحبه .. ولم
 يحاول مرة أن يسخر منه أو يهجوّه .

أحشى ينظر إلى الجسد المسمى .. ثم تنهد وقال :
 - حقاً .. إن الرجل ليس أكثر من مائة - تنتفخ وتنتفخ ، ثم فجأة -
 يورف .. تتفجر وتذهب إلى الشيطان ... أقصد .. إلى الجنة .

... قالها بسرعة يصحح كلماته ! فقد أحس بالهزل أمام الجسد وأحشى
 "سترايتس" رأسه دون أن يقول شيئاً . بل أخذ منديه وأخذ يهش به
 الذباب بعيداً عن أنف الميت وشفتيه . أما "فانوريوس" فقد وقف وأسمعاً
 ذراعاه حول كتفى "كريستينا" يساعدها على الوقوف .. ولم ينس طبعاً أن
 يرفع باليد الأخرى بقية الحاضرات :
 - إلى الخارج يانساء .. هذا يكفي ! إلى الخارج والزمن الصمت
 يا شقائق النخس - نحن الثلاثة سنحرس الجنة طوال الليل .

وانفجرت النسوة متحدات في صرخة واحدة محاولات المقاومة . ولكن
 الراعي رفع مخالبه وساقهن مثل القطيع إلى ركن داخلي بالبيت . ثم عاد
 وجلس إلى قدمي الرجل الميت .

وظل الثلاثة يجذقون في جسد القتيل دون أن يتطرق أحدهم بكلمة . فقد
 كان كل منهم يفكر - سترايتس في زوجته .. وفي بخلته التي ابتاعها أول
 أمس واتضح له أنها غاية في الوحشية . ترفس دائماً .. وقد نقلت أحد
 أولاده يوماً ما . أما "باتاسموس" فقد كان ينشئه في ذاكرته قصيدة
 جديدة ، ترنمة هي مزيج من الحقيقة والكذب .. كيف أن "مانوساكاس"
 صارح سبعة من الأتراك وقتل منهم ستة !

وأما "فانوريوس" فقد كان الجوع يستبد به - وكان قد رأى فوق حائط
 حجرة الكرار في منزل شقيقه بعض نقائق لحم الخنزير معلقة في الركن إلى
 جوار "حمدانة" صغيفة من شراب الراكي . كما أن كريستينا كانت قد
 أعدت أمس خبزاً لايزال إلى اليوم طرياً في السلال ينشر رائحته اللذيذة

... وإمتلا قمه بالعاب وعبناه لاتزالان مثبتتين على الجسد وعقله مشغول
بالتفكير كيف يدير الحديث في اتجاه النقائق والراكى ؟

كان الليل قد انتصف ، وثمة ربيع شمالية بدأت تحرك أوراق اشجار
الليمون فيسمع لها حفيف في فناء الدار وتبرد اجفان حراس الميت . وكانت
النسوة قد أخذن إلى الهدوء . وبدأت بومة فوق السطح تنفق ، كما بدأت
كلاب الجيران تنبح وهي تتشمم رائحة الموت .

وكان "فانوربوس" قد بدأ يحس بوخز الجوع في أحشائه ، ولم يكن قد
استطاع أن يصل بعد إلى طريقة يدير بها الحوار نحو النقائق والراكى .
وفجأة انفجر صرخاً :

- يارفاق ... مارايكم ؟ لقد وقع بصري على بعض حبال النقائق وعلى
"جمانة" من الراكى في الكرار . مارايكم في أن نشرب من أجل خلاص
روحه ؟

وتسائل "باتاسموس" وهو يحك بطنه التي بدأت تضطرب :

- ولم لا ؟ الموتى وحدهم هم الذين لا يشربون . هيا يا "فانوربوس" والله
معك ! هيا إلى الكرار ! مارايك يا "سترايتس" ؟

- أمام الجسد ... اليس ذلك خطأ ؟

- أولاً .. نحن سوف نشرب خارج الحجرة ، لا لشئ إلا لكي يمتحنا
الشراب القوة حتى نواصل حراسة الجثة إلى الصباح . ثم إننا سوف
نشرب من أجله هو ... هيا يا "فانوربوس" .. اسرع إلى الكرار بالله عليك !

وكان "فانوربوس" قد نهض بالفعل . وأمسك بالمصباح الذي كان
يضيء عند قدم الميت واتجه نحو الكرار ... ثم مالبت أن عاد يحمل في
يديه حبل النقائق وجمدانة الراكى . ويعلق أيضا في حزامه ثلاثة اقداح .
وقفز "باتاسموس" وقطع يضع أطوال من حبل النقائق واتجه بها إلى
ساحة الدار حيث أوقد ناراً ليشويها ... وأصبحت رائحة الدنيا أحلى !!

وقال "باتاسموس" وهو يلف القطع المشوية اللذيذة في أوراق
الليمون :

بإسديتك الله أن تعلق الأبواب يا "فانوربوس" حتى لاتشم النسوة
الرائحة وكان "فانوربوس" قد علا الاقداح حتى الحافة . بينما اتجه
"سترايتس" إلى الكرار ليحضر رغيفاً من الخبز .

وأمسك كل منهم بقدحه .. وتلامست أصابعهم بدلاً من الاقداح خشية
أن يحدث تلاقحها صوتاً .

وقال "سترايتس" : بارك الله روحه ..

وقال "باتاسموس" : في صحته ياأصدقاء ! ونحن أيضا !

وقال "فانوربوس" : اشربوا في جرعة واحدة . لقد أرسل الله الجمدانة
من أجلنا - ملأى التي نصفها . وداعاً يا شقيقنا "مانوساكس" .

وشربوا حتى آخر قطرة . ثم بدعوا بإتقان النقائق . واستل
"فانوربوس" مدية الرمي وقطع الرغيف إلى ثلاث قطع .. وكانت الشهية قد
أصبحت مفتوحة تماماً . فبدعوا يشربون البقية الباقية من النقائق بينما
أحضر "فانوربوس" جبناً أبيض من الكرار . وأخذ يداعب الجمدانة وقال
"باتاسموس" :

- فلنشرب في صحة الأرملة . كم أنا حزين من أجلها . وسوف أنظم
قصيدة لها .

- في صحة الأرملة !

وشربوا وقال "سترايتس" :

- وفي صحة الكابتن "ميخائيليس" ! هو الذي سوف ينتقم لدم أخيه .
في صحته !

وقال "فانوربوس" :

- هيا يا أصدقاء . هيا نشرب في صحة كل من نعرفهم . سواء أكانوا
موتى أو أحياء !

وشربوا في صحة الأقارب ، ثم الأصدقاء ، ثم الموتى من الآباء . ثم في
صحة الجيران .. وبعدها بدعوا يشربون في صحة مقاتلي كريت العظماء -
كوزاكس . حاجي ميخائيليس . كرابريس . داسكالويانيس ... وشربوا
وبعدهم شربوا ثلاثة اقداح في صحة دير "أركادي" .. ثم مالبتوا أن

رجعوا إلى عام ١٨٢٧ وشربوا في صحبة "لوسولوترويس" و"كاريسكاكيس" و"ميوليس" و"أديسوس أندروفوس" وفرغت الجمادة أو كادت وقال "باتاسموس" مستنداً إلى قليل من التعليم :

- فلنشرب في صحبة هيلاس القديمة

وقال "فانوريوس"

- نخب كئيب

وقال "سترايتس" معارضاً :

- هذا غير صحيح وحق المسيح .

- بهدوء .. بهدوء ، وهمس وإن يسمعنا أحد ، هكذا ثم بدأ يقلد

حركة قوس الرباب في الهواء .. وهو يقنن في رقة :

- يا عديمة الوقاء ، فيك ..

تتلاها حمرة الشفق

وردد الاثنان وراءه بسرعة :

- تتلاها حمرة الشفق

حينما قبلت ، وحين قلت لي

الوقت ليل .. والليل وقت الحب

وصاح "سترايتس" بعد أن أغلق فمه وتوقف عن الغناء فجاءه :

- أهذا هو الشعر الذي نظمت في الأرملة ؟ ألا تخشى الله ؟ .. ألا تعرف

أغنيات مقدسة ؟

- تريد أغنيات مقدسة ؟ بكل سرور !

واستدار إلى الرجل الميت .. ورسم علامة الصليب . ثم بدأ : فلم إلى

القيلة الأخيرة .. وما كان يبدأ حتى غلبهم البكاء .. وانهاروا جميعاً فوق

الجسد .. يقبلونه وسط دموعهم .

وردد البيت أصداء ترنيمات الصلاة . وفتح باب أطل منه رأس امرأة

معبس . ولكن "باتاسموس" أشار إليها غاضباً .. فاخفتت على الفور .

ثم أحس الثلاثة أن التحبيب طال بما فيه الكفاية ، فنهضوا وأقبلين صفاً

أمام الرجل الميت ينظرون إليه وقد أحسوا بأنهم أكثر راحة . وبأن قواهم قد تجددت بفعل "الراكي" والنقانق .. والبكاء . ويصق "فانوريوس" في راحتيه . وقال وهو يشير إلى عيني الرجل الميت :

- ياصدقاء .. هلا قفزنا من فوقه ؟

وصاح "سترايتس" و"باتاسموس" معاً :

- نعم الرأي ! هيا نقفز من فوقه !

ويجذب كل واحد منهم أطراف سرواله حتى تصبح سيقانه حلقة . ثم

رفعوا النمش ووضعوه في ساحة الدار ليتسع المكان أكثر ..

وقال "فانوريوس" :

- أنا أولاً .. فهو شقيقي !

واتخذ مكانه بالقرب من الباب المؤدى إلى الشارع . ثم عاد يبيصق في

راحتيه ويتنطق بعدو حتى إذا أصبح قريباً من جسد الميت . ففز ففزة

واسعة حتى ارتطمت رأسه بخشبية الباب العليا دون أن يحس هو بذلك .. ثم

توقف في منتصف الحجرة . وقال مزهواً :

- لقد قفزت من فوقه .. هذا دورك يا "سترايتس" !

وانطلق "سترايتس" بعدو بجسده الممشوق وقفز فوق الجسد ثم استقر

على أطراف أصابعه .

- جاء دورك يا "باتاسموس"

ولكن قلب "باتاسموس" اهتز .. وظل يحدق في النمش .. كيف بحق

الشيطان يمكن أن يقفز المرء إلى هذا الارتفاع ؟ .. وقال في خوف :

- لن أقفز ..

وصاح "فانوريوس" :

- ألا تخجل من نفسك يا كابتن "ديور" ! أنت كريتشي أم لا ؟ أقفز !

- لن أقفز .. قلت لكما . أنا عازف قيثارة محسب .

- ليس لديك إحساس بالشرف أمام الميت .. أبها الوثني ؟ إنها إهانة !

أم أن هذه هي كل حدود صداقتك و"مانوساكس" ؟ أقفز حتى ولو سقطت

فوق الأرض ميتاً .

وحك "باتاسوس" صلته ، وتذكر كم كان يحب "مانوساكس"
واستيقظ فيه الإحساس بالشرف ، فصاح :

- حسن ، سوف ألقز ! هوب ! هوب !

قالها يحاول أن يمنح نفسه الجراحة ! ثم بدأ يعدو ليصل إلى أقصى
سرعة مطلوبة ولكنه ما أن أصبح قريباً من رأس الرجل الميت حتى خيل
إليه أن النعش قد ارتفع فأصبح يطاول السقف ! وتعثرت ساقاه في قوائم
النعش .. وانتقلت قوة اندفاعه إلى الجسد المسجي فتدحرج إلى الأرض
وراءه "باتاسوس" نفسه .

وقال "فانوريوس" :

- لقد اغتنتنا - قم إذن واحلق لعبيتك .

ثم ركله بقدمه وهو يصيح :

- "ستراييس" ! .. تعال وساعدنى !

ورفعا جثة الميت وأعادا لها في أكفانها من جديد ، ثم وضعها داخل
النعش المفتوح بعد أن لبثا الأيقونة مرة أخرى في يديه .

وقال "فانوريوس" وهو يعد بيده على شعر أخيه ولحيته :

- يا أخى .. مهما كان الأمر فانت الآن ميت ، ولم يلحق بك ضرر من هذا
الذى حدث .

ثم اتسنى والنظف الجمعدانة ورفعها إلى شفتيه ، وكانت لاتزال بداخلها
بقية من "الراكى" ، وشرب الثلاثة ، وعادوا فجلسوا حول جثة الميت ..
وبدأت رعبهم تميل إلى سدورهم ، واجفانهم تسيل شيئاً فشيئاً ، حتى
احتضنهم النوم .

وهي اليوم التالي - وقيل أن ترتفع الشمس كثيراً - كان الكابتن
"ميخائيليس" قد وصل إلى ساحة دار "مانوساكس" وقد ارتدى قميصاً
أسود ، وانتعل حذاء أسود برفية ، وعصب رأسه بعصابة سوداء وكانه
ملك الموت ، وأزاح النساء جانباً وهن مجتمعات حوله يتعجبين . ثم اتجه إلى
الداخل وقبل الرجل الميت وظل واقفاً أمامه يحرق فيه فترة طويلة . وكانت

النساء من الجارات قد أحضرن من الحقول في ذلك الصباح ، زهور اليازلاء
والحنق والتغناط والمرجريت وعطين بها الجسد المسجي .

وظل الكابتن "ميخائيليس" واقفاً يحرق في أخيه دون أن يتكلم ، وكذلك
كان الرجل الميت يحرق في الكابتن "ميخائيليس" بعينين مفتوحتين . بينما
وقفت كريستينا وأولادها وبناتها ، و"فانوريوس" و"ستراييس"
و"باتاسوس" والجارات .. في دائرة حولهما ينظرون جميعاً إلى الأخوين
كيف يتحدثنان معاً بلا كلمات .

واستغرقت تلك المحادثة الصامتة الفريدة لحظات طويلة ، حتى إذا
أسس الكابتن "ميخائيليس" بأن أمرانه اشقت ، دخل إلى المنزل واجتاز
المطبخ إلى الساحة ، وزار الحظيرة ، ولمس قطيع الرجل الميت وفرنسه ، ثم
انجه إلى غرفة نومه ورأى السرير العريض وطعم السلاح والصور المقدسة
- ثم اتجه بصره عبر النافذة إلى أسطح القرية التي تقوم في وسطها
كنيسة القديس جون الصغيرة وورامها ثلوح "بتروكيغالو" قرية أبيه التي
تقع في حوض الجبل الساق - كان الكابتن ميخائيليس يحتمس أخاه من
كل جانب .. يحتمسه في خياله .. ويستحضره في مخيلته في أعماق نفسه
وبدا يهمس مرة بعد أخرى خلال تجوال بصره : وداعاً يا أخى
"مانوساكس" .

وجاء القس ورفع النعش .. وتشيبتت به النساء يحاولن منع الخروج به
وتهاوت "كريستينا" إلى الأرض مفشياً عليها . وبينما كانوا يحضرون
الماء والعطر لأماتتها من أعماقتها ، كان حاملوا النعش قد اجتازوا عتبة
الباب .. واقتربوا من المدافن الخضراء في أقصى القرية .

وتوافد الرجال والنساء من "بتروكيغالو" والقرى الأخرى المجاورة -
الرجال مسلحين بالسلاح ، والنساء في السواد - ليلقوا نظرة الوداع على
كبير القرية الذي هوى - وغادر الأتراك قرى المنطقة يوم الدفن . وأخذت
النساء يحرقن شعورهن ، ويحكين الحكايات عن فضائل الرجل المقتول
بينما وقف "سيفاكس" المعجوز قابعاً الرأس العذوج لعصاه .. ثم سار
خلف رأس الرجل الميت وقد جفت الدموع في عينيه . كان يردد تعاماً
مايقصده ملك الموت ، فليس هناك مايدعو إلى التوسل إليه وهو الذي

الفصل السابع

لا يملك أن يجدى المخلوقات تفعلاً . فهو الموت . جامع الدين . الدواء الذى يبعث به السلطان . الذى يجلس فى السماء ويمسك بسجلات الضرائب ا . وهكذا فقد سار فى طريقه بلا كلمة او دعة . ضاربا بعصاه الحجر . حتى توقف امام حفرة القبر بلا إحساس .

وردد القس الكلمات الأخيرة امام القبر فى عجلة . ثم رفع يده ماتحاً البركة وتناول قبضة من التراب اتقاها فى القبر انزل الجسد بعدها .. وانحنى الجميع ليتناول كل منهم بدوره قبضة من التراب يهليلها داخل القبر .

وتقدم الكابتن ميخائليس الى حافة القبر .. وقال فى صوت خفيض وقد برقت عيناه دون أن ندعما : وداعا يا أخى "مانوساكاس" ولتسمع جيداً ما سأقوله لك . لاتزرنى فى نومي لتتعمى وتثيرنى . أنا أعرف واجبى جيداً . فلا تقلق .

ثم صمت لحظة يفكر ... ولكنه لم يجد شيئاً جديداً . فعاد يقول :
- أنا أعرف واجبى .. فلا تقلق وكُن صبوراً !

وأحس فجأة بأن قلبه قد ثقل .. فصاح :

- وداعا "مانوساكاس" !

وقبل أن ينفض الجميع . كان هو قد عاد وحده الى دار "مانوساكاس" . وهناك امتطى صهوة فرسه . وفى ذات اللحظة أسرح نحوه "نيودورس" الابن الأكبر لـ "مانوساكاس" ولحق به عند الباب المؤدى الى الطريق .. وسأله وهو يتشبهت بزمام الفرس :

- الديك اراد ان ياعمى !؟

وانحنى الكابتن "ميخائليس" قليلاً وهو ينظر اليه .. فعاد يسأله :

- أقصد .. كيف أثار دمه ؟

- كم عرك ؟

- سبعة عشر عاما ..

- فأبق إذن فى عشك ا

ثم إنطلق عبر الطريق الرئيسى العريض .. متجهاً إلى

"ميجالوكاسترو" .

ومضى ابريل بما حمل من متع ومخاوف بشرية وبأعياد المسيح . وجاء مايو بما يحفل به من محاسن تنضجها الشمس - البليخ والكرز وعناقيد الكروم المنتفخة وتلك التى لاتزال قطافاً لم تنضج بعد . وارتفعت حرارة الجو . وسال عمق الاتراك والكريستين معاً ... وجفوا عرقهم فى السمات الباردة . ونقل "نورى" طريح الفراش وحبيس الامة . ونقل "مانوساكاس" مغبوا فى قلب الكابتن ميخائليس . وكانت الثورة فى "ميجالوكاسترو" كوميض النار خلل الرماد . وفى الليل كان كبار السن يجتمعون فى المطرانية ليتناقشوا حول الموقف الذى يتهدد اليونانيين بالخطر . بينما يجتمع البكوات ورجال الدين المسلمون فى قصر الباشا فى الظهيرة .. يدرسون انجع الوسائل لسحق اليونانيين .

ومرة أخرى أصبح قدر كريت معلقاً بشعرة .

وفى يوم من آخر ايام مايو - فى التاسع والعشرين على وجه التحديد - بدأت الاجراس تدق فى رتابة وحنن وسط غيش الشفق . واستيقظ المسيحيون من النوم - لقد عرفوا دائماً مايعنيه هذا اليوم من غم للمسيحية - واتجهوا إلى الكنيسة . وفى وسط الكنيسة وفوق صينية ضخمة . استقرت كعكة تذكارية طلق على جانبيها مصباحان كبيران مجلنان بالسواد . ورسوم على طبقة السكر الرقيقة التى تكسوها باللوز والقرعة إسم رجل ميت : قسطنطين باليولوجوس . فقد كان ذلك يوم ذكرى وماته . وفى صباح يوم مظلم كهذا قتله جنود السلطان وسقطت القسطنطينية فى أيديهم .

وأحاط المسيحيون بالكعكة وهم يستمعون الى الموسطة الجنائزية

وتجمع أشهر أبناء ميخائيلوكاستروفي ذلك المكان . فقد كان هناك الثلاثة الكبار - الكابتن إلياس . وحاجي سافاس - وبقه الورد . معهم الكابتن بوليكسيجيس . وشاريلاوس القزم . والمثقف ايدومينياس . وستيفانيس قبطان البحر . وكاساهاكيس الطبيب وارسطوطاليس البقال . وخلف هؤلاء وقف الأقل أهمية : ديمتريوس . وكراسوسوچورجيس . وماستراهاس وكاهابيس وليندوسوس . وفوردجانوس وبترودولوس . والسبتور ياركيفاس الحلاق .. وقد وقف معهم الياقون : العامة .

حتى الكابتن ميخائيليس كان موجوداً - ولكنه لم يدخل الكنيسة . وإنما إكتفى بالوقوف في الفناء مرتدياً قميصه الأسود .. وفي حنايا أضلعه قلب أسود . فهو لم يتكلم إنساناً منذ شيعت جنازة أخيه . وكانت دمازه لاتزال تعلقى . وكان عقله لايزال بالصفية بدير آلاف الاساليب ويفكر في آلاف الفرض التي يستطيع أن يفتنص بها "نوري بك" ويثار للجريمة التي اقترفها . فلم يعد نوري بك بالنسبة اليه شقيقه بالدم . فقد استحال ذلك الدم الي ماء وانقطع الخيط الاحمر الذي كان يربط بينهما . وكان قد عرف أن نوري بك اصيب بجرح بالغ وانه لايزال في شعبته الريفية يغالب الموت . وكان قد ارسل "علي آغا" إلى هناك ليتجنس ويوافيه بأخباره بعد أن يسترق السمع بين الخدم ويعرف ما إذا كان جرحه خطيراً حقاً وما إذا كان لايزال طريح الفراش . ولقد عاد اليه "علي آغا" في ذلك اليوم لاهت الانفاس يحمل آخر الأنباء : "تلك هي الحقيقة ياكابتن ميخائيليس . إن الرجل المسكين مصاب بجرح خطير" .. "أين ؟ .. وكيف عرف ذلك ؟" ... "في الخصيتين ياكابتن . ويبدو أن اشك قد طعن في هذا المكان . وقد دهن مصطفي بابا الجرح وضعمه ولكن الالم يعذبه حتى ليظل يئن ليلاً ونهاراً . وقد سمعت انينه بنفسي وأنا بالباب الرئيسي ياكابتن" واصيب الكابتن ميخائيليس لحظتها بخيبة أمل . فهو لن يسهه بسوء ظالما هو على هذا الحال . وعليه أن ينتظر إذن حتى يستعيد نوري قوته . ترى هل سينتظر طويلاً ؟ إنه كفى عجلة .. ولهفة ا وإنه ليعذب عقله كل ليلة . وحين سمع تحبب الاجراس في هذا الصباح قرز أن يذهب إلى الكنيسة "سوف يلقى تيتوريوس خطاباً ويجعلنا اشموكة امام الناس" . وارتدى ملبسه في

عنه واسدل ذوايت عصابة رأسه فوق عينيه فلم يكن يريد أن يرى أو يسي احدًا . ترى ايمن أن تكون لدى هذا المدرس الصغير - قطعة الجين - ادنى فكرة عما يعمله سقوط القسطنطينية وعن معاني البطولة والنضال ؟ .

واستند الي نافذة بالمداخل يستطيع من مكانه عندها ان يرى المطران من فوق رحوس الحاضرين وهو يجلس مرتدياً الملابس السوداء وقد لف حول قبعته وشاحاً اسود طويلاً .

وفجأة انتهت طقوس الاحتفال بالذكرى . وأشار المطران الي "تيتوريوس" وازداد قلق الكابتن ميخائيليس وهو يرى اخاه يعطلي المنصة المرتفعة ويخرج من جيب سترته الداخلى حزمة من الأوراق .

ويدأ "تيتوريوس" يتكلم . تتفتح وسعل في البداية حتى اصبح صوته سموماً بالكاد . ولكنه مالئث ان "سخن" شيئاً فشيئاً وامتلاً صوته بالقوة والتعبير حتى كانت ابراج القسطنطينية تستجيب لآعين السامعين واصوات اجراس "اياسوفيا" تتناهي الي اسماعهم في نوسل مشير . وحتى كاد الحاضرون يرون المعركة الاخيرة راي العين ويتابعون تقاسيلها : المعركة التي ملات قبور المدينة الواسعة بالدماء . ويدا كما لو كانت رأس الاميرالمور قسطنطين الدامعة تتوح من خلال سحائب البخار حول الصينية التي تحمل الكعكة . كلهم رأوها ا .

وجقف الكابتن ميخائيليس دموعه التي سالت فجأة . واخذ يتطلع الي اخيه في ذهول : كيف يمكن أن يختلي هذا اللهب خلف هذه العينات الزجاجية . ولوق هذه السراويل الضيقة .. وتحت هذه الاكتاف المعقوفة ؟

وعندما انتهى "تيتوريوس" من إلقاء خطابه مسح عينونه وأجال بصره في النسوة الحاضرات واللائى كن يقفن خلف الرجال . باحثاً عن زوجته "فانجيليو" وحين تأكد من انها ليست بينهم جلس وهو يتهد بعق .

واتجه الكابتن ميخائيليس الي اخيه بعد أن انتهى الحفل وقال :

- أنت لم تجلب لنا العار
 ولم يسمع "تيودورس" جيداً ما قاله أخوه . فقد كان اللهب لا يزال
 مستعراً في قلبه ... فسأله :
 - ماذا تقول يا ميخائيليس ؟
 وجاءه الجواب :
 - لا شيء .

وسار الاثنان بسبع خطوات . وكان المدرس متعباً وهو يسير في بطنه في
 الطريق الى بيته بينما الكابتين ميخائيليس ينظر اليه بطرف عينه . كم تغير
 منذ أن تزوج ! فقد زاد انحناء ظهره كما بدأت ساقاه تتقوسان .
 وسأله في رقة :
 - كيف الحال في البيت ؟

ولم يجبه "تيودورس" على الفور . ولكنه ما إن سمع السؤال حتى احس
 بأن اللهب في صدره قد زال ... واخيراً قل :
 - انها ليست حياة ابداً يا ميخائيليس .
 - لماذا ؟ ماذا يفعلان بك ؟
 - لا شيء . انهما لا يتبادلان معنى الحديث . ولا يلتفتان الى ... ولا يقولان
 شيئاً . وعندما ادير لهما ظهري اسمع ضحكتهما .
 - الست اذن سيداً في بيتك ؟ اى صنف من الرجال انت ؟ اذف به الى
 الخارج !
 - إذا انا فعلت ذلك خرجت هي معه .

ووصلا إلى بيت "تيودورس" . وتوقف الكابتين ميخائيليس وهو يسأل :
 - هل هما معا بالداخل ؟
 - إنهما لا يفتراقان ، انه لم يذهب الى الكنيسة وهي ايضا لم تذهب . اهذه
 حياة يا ميخائيليس يا أخي !
 واحس الكابتين ميخائيليس بالأسى من اجله .
 - اسمع يا مدرس : سوف ادخل الآن واعرف للاثنين لحناً ستري كيف
 يترافقان عليه !
 وصاح المدرس في هلع :
 - بحق السماء لاتفعل . إذا انت فعلت ذلك ضعت انا اصراراً قليلاً ...

وسوف افعل انا شيئاً .. وسترى بعد ما يكون .
 - وماذا ستري ؟

وادار "تيودورس" راسه بعيداً وقال :
 - سوف ترى
 ثم اتجه نحو الباب وامسك بمطرقته . وصاح الكابتين ميخائيليس في
 دهشة :

- ماذا ؟ اليس معك مفتاح ؟
 - كلا .. إنما لم يسمح لي بذلك

وانتزع الكابتين ميخائيليس المطرقة من مكانها بجذبه واحدة . ثم طوح
 بها في عرض الشارع وهو يقول
 - اريد ان ارى معك مفتاحاً ابتداء من الغد ..
 ثم اتجه في خطوات متثقله نحو بوابة الميتماء

كان الكابتين بوليكسيجيس ينتظر في حانوت الكابتين ميخائيليس . وقد
 وصل الى هناك بمجرد ان انتهى الحفل التذكاري ليتحدث معه . وكان
 موضوع الحديث يبدو امامه صعباً للغاية حتى لقد ظل يذرع العكان جيئة
 وذهاباً . وكان قد ارسل "شاريتوس" ليحضر له قشاً من القهوة . كيف يمكن
 ان يبدأ دون ان يتوقع غضبه متفجرة من غضبات الكابتين ميخائيليس ؟ انه
 ليحبه ويحترمه .. وانه لحرص على الا يفقد صداقته . بل على العكس من
 ذلك انه ليحرص على ان يلقى اواصر هذه الصداقة . ومن اجل ذلك
 سيتحدث اليه اليوم . وكان قد ربط قطعة قماش حريرية سوداء بطروشه
 علامة الحداد على قلعه ابن عمه "مانوسكاس" ..
 - اسرع يا "شاريتوس" الى البيت وانظر ما إذا كان عمك هناك . قل له .

وقبل ان ينتهي . كان الكابتين ميخائيليس عند مدخل الحانوت .. كانت
 ظلمات "تيودورس" لانزال تعمل ارها في صدره . ولكن كان يثيره اكثر هو
 حكاية المفتاح الذي يرفضان ان يحمله أخوه !
 وحدث في الضيف المبكر غير المتوقع وزم شغبه ... ثم قل في برود :
 - صباح الخير ياكابتين بوليكسيجيس .
 - سعيد لرؤيتك ياكابتين ميخائيليس .

والقى الكابتين ميخائيليس جانباً بعصابة الرأس . وخلع معطفه ثم امسك

يدفتر حسابات كان ملقى فوق المنضدة . واتخذ منه مروحة لنفسه .. ولم يقل شيئاً .

وقال الكابتن "بوليكسيجيس" وهو يحاول ان يكسر الصمت :
- بالشدّة الحرارة ... !

ولكن الكابتن ميخائيليس لم يقل شيئاً . ولكنه اخرج صندوق العلبات من حزامه وبدأ في بظه وبرود يلف سيجارة . كما لو انه ليس مستعداً لسماع الآخر . والقى الكابتن "بوليكسيجيس" بعيداً سيجارته .. وسعل وهو يزيح مقعده إلى الخلف .

- كابتن ميخائيليس - اريد ان الاول لك شيئاً .
- انا منصت ..

- اننى اتوسل إليك باسم صداقتنا القديمة ياكابتن ميخائيليس . ان تنصت في صبر . قد يطول حديثي حتى تفهم كل شيء .
- انا منصت ...

- لقد حاولت ان الاول لك ذلك من قبل ولكنك كنت تنفجر في كل مرة ولاندعنى اكمل حديثي . ولكن الامر اصبح الآن هاما ... فانصت إلى في صبر ياخي

- قلت لك اننى منصت .. فلا داعي إذن للمدمات .

وصاح الكابتن "بوليكسيجيس" في محاولة للتخلص من الصبي الشرير الذي كان قد اعطى لغة الحيال .. وارهف اذنيه الكبيرتين !
- شارنيوس - اسمع ايها الرجل الصغير .. اذهب واحضر لي بعض العلبات وورق السجائر .

وتزحلق شارنيوس في تالف من فوق لغة الحيال .. وخرج .
- لدى شيء اريد ان اخبرك به ياكابتن ميخائيليس .

- حسن .. فهاتة إذن .
- عن اميتة !

- كف عن هذا الحديث المعجل ياكابتن بوليكسيجيس فانت تعرف انه لايعجبني . إن حكايها الحب وحديث النساء هو شانك انت وليس من شائي . لقد جئت إلى هنا فانا إذن لا استطيع تركك . ولكن عليك ان تغير الموضوع .

- انا لا اخجل من الحديث في هذا الامر . ارجوك ان تهدي ياكابتن ميخائيليس دعوى اكمل حديثي .. اميتة تريد ان تصيح مسيحية .

واللقت الكابتن ميخائيليس حبة لوز كانت ملقاة بالصدفة فوق المنضدة .. وسحقها بين اصابعه .

- لو انك كنت من الفرجة لحوالت هي كذلك . ولو انك كنت يهودياً لحوالت هي إلى اليهودية . حتى المسيحية تجعلها موضوعاً للهزة !
- ولكنها تريد ان تكون مسيحية . وسوف اتزوجها .
- لتزوجها !

وتحرك في تشنج وهو ييضق على الأرض كما لو كان احس فجأة بالعرض ورفع الكابتن "بوليكسيجيس" طربوشه - وقد جعله الغضب يحس انه كبير كبير ! وسحق الطربوش بين يديه وهو ينظر إلى الكابتن ميخائيليس الذي كان لوز وجهه يتغير .. "فلتتر زوابعك بداخلك ايها الدب العجوز .. سوف تسمع ما اريد ان اقله سواء اردت ام لم ترد" .

ووقف الكابتن ميخائيليس وكأنه يعطى إشارة الخروج لضيفه . ولكن هذا لم يتحرك .

- انا هنا ياكابتن ميخائيليس لاسالك ان تبعد العروس .

وامسك الكابتن ميخائيليس بلحيته وهو يقول :

- انا ! انك لتجعلني اخجل من هذه اللحية ! عليك "بالفنديتا روث الخيل" فهو الذي يصلح لهذه المهمة .. إنه يتناسبها تماماً !

وقفز الكابتن بوليكسيجيس واقفا فلم يعد يحتمل اكثر من ذلك . ووضع طربوشه مثلاً فوق راسه وامسك بالمقعد وضرب به الأرض وهو يصيح :

- لقد تماديت ياكابتن ميخائيليس . انت رجل .. هذا صحيح . ولكنني انا ايضاً رجل . انت قاتلت في الحرب . وانا ايضاً فعلت ذلك . انت تتقدم مقاهي الاغوات وانت فوق صفوة فرسك . وانا اقدم بيوتهم . والجرارة متوافرة إذن في المعلمين ! وإذا كنت لانضحك ابداً فذلك لايعنى انك رهيب قلس ! وإذا كنت انا اضحك فذلك لايعنى انني مهزار . وعندما اكلمك عن المرأة التي اتوى الزواج منها فإني اتوقع منك ان تظهر ولو شيئاً من الاحترام .

وكبح الكابتن ميخائيليس جماع نفسه . وحقق في قوة في عيني الكابتن بوليكسيجيس وهو ينصت اليه . ولم يحاول ان يرفع يده ليفلق فمه . ولكنه ظل ينصت . وكلما انصت اكثر .. قلت حدة احتقاره له . لقد كان ينس في البداية انه يود لو امسك به من قفاه والقى به إلى الخارج مع سيل من الالهاتمات لو انه استمر يتوسل اليه ويصفه بأنه اخوه .. ويتمسح في قطعة

الفتاى الحزبية السوداء في طربوشه ليستمليه . اما وقد بدا الان يتكلم
كالرجال في قوة - فان احساس الاخوة القديم نحو هذا الكاتب المتهور
استيقظ في صدره . وعادت امام عينيه ذكريات يوم القتحما صفوف الجنود
الأتراك دون ان يلتفت واحد منهما الى الخلف ليرى ما إذا كان احد يتبعه .
ثم انهما لم يكونا شبيهين من قبل ابدا . ورغم ذلك فقد اصبحا صديقين وقد
قال له الكاتب بوليكسيجيس يوما وهو يضحك : " انت تريد ان تحرر كريت
بالزئير ، وانا لريد ان احزرها بالفتاء " .. ولكنهما افرقا بعد الحرب ، وكان
الكاتب ميخائيليس إذا رآه من بعيد ادار وجهه او شتمه . ولكنه يراه اليوم
والفأ رأسه عليا .. يلقوم .. ومن ثم فقد عادت الصداقة من جديد . فرفع يده
وامسكه من وسطه باصبعين وقال :

- كاتب بوليكسيجيس .. انت محارب . وانا اعرف ذلك جيدا ، لابس اذن
. انا لا اريد ان ائتلمج معك .
- ولا انا يكاتب ميخائيليس ، ولكنك في بعض الاحيان تكاد تجعل روحي
في انفي - حتى لاكاد اخرج
- لا بأس الاّن ..

ثم دفعه بذات الاصبعين نحو الباب - في رقه - ولكن في حزم
وصاح الكاتب بوليكسيجيس .. وهو يتشبهت بالأرض
- انت تطردني !!

ولم يكن مستعداً للخروج . فقد احس بان هناك شيئاً لم يقله بعد ويقفز
الى شفاهه :

- مازال عندي ما اريد ان اقله لك يكاتب ميخائيليس . شيء واحد فقط لم
اخرج .

- حسن .. فله اذن واسرع ..
- امية نفسها هي التي ارسلنى لاسالك ان تتفضل بتزيتها .
وانجزر الكاتب ميخائيليس
- في نفسها ، هذه الـ

والحس بالتركز . فانشب مخالبه في صدر الكاتب " بوليكسيجيس " وقد
اصبح صوته فجأة عميقاً رهيباً .
على ا قلت لك على ا ولا كلمة واحدة !

وكتأ والغين بالباب ..

وقال الكاتب " بوليكسيجيس " :
- ادعو الله ان تدم على هذا اليوم يكاتب ميخائيليس !
ثم رفع رأسه إلى السماء التي كانت تتوهج ببيضاء ناصعة في اشعة
الشمس .

وبينما كان سكان المدينة في مساء ذلك اليوم يعلقون ابوابهم ويتحلفون
مواد العشاء . كان ثمة سيدة تقرب في خطى ثابتة وهي تمسك بمعلقة
مفتوحة من باب قصر " توري بك " - تدقه . وفلحت المرأة المغربية الباب
الذي كانت تخفي خلفه .. فتحته على الفور وسمحت لها بالدخول .

وقالت العوانس الثلاث اللاتي كن خلف ثلوق التلصص " امية لانزال
بريضة ، فقد جامتها الان حميدة مولا لتعودها " .

وتقدمت المرأة المغربية واجتازت الساحة وهي تحس بالبهجة
والانطلاق . كانت روحها في حديقه . فقد كان الحارس هناك في الضيعة
الريفية يخدم سيده " توري بك " وكان المصباح الاخضر الاحمر بالتالي
مظلا وكنت الورود والفاكهة تنشر عبقها وسط الظلام بينما السيدة
المغربية ترقص من البهجة لان سيدتها قد اختارت المسيحية . ولسوف
تدخل الجنة يوما ما . وإذا كان الرب رحيماً بها فسوف ينظر اليها هي
الآخري بعين العطف ويدخلها من ذات الباب الذهبي حتى تستطيع ان
تخدم سيدتها في الأبدية .

والقت السيدة الأخرى عيانتها . ورفعت الغلالة عن وجهها . وعلقت
بالمعلقة ... وكشفت عن نفسها . وإذا هي الكاتب بوليكسيجيس !

وقالت المرأة المغربية :
- سيدتى بالطابق الأعلى تنتظرك في شوق يكاتب ، ولديها شيء ممتع
تريد ان تخبرك به .

ولكن الكاتب بوليكسيجيس لم يكن طيب المزاج في تلك الليلة . في
ليل أخرى كان يمزح المرأة المغربية ويداعبها بمجرد ان تفتح له الباب
ويجعل لها شيئاً يكون قد احضره خصيصاً لها . متدليل راس حريزي او حزام
مطرز او حتى صندوقاً مليئاً بالحنوى التركية . او كعكا معجوناً باللوز .
ولكنه في هذه الليلة خلى اليدين .. لا يتكلم .

وصعد الدرج في بطنه - وكان من قبل يلفز كل ثلاث درجات منه في خطوة

واحدة - وتتبع راحة العسك لتقومه إلى سرير عشيقته الصغير ..

وسمعت أمينة وقع خطاه وهي مسترخية في الحر الشديد نصف عارية فوق الديوان وقد فتحت النافذة المظلة على الحديقة لتجني نسمة هواء . ترى كيف كان جواب الكابتين ميخائيليس .. هذا الدب المفزع ؟ كان الجواب يخلقه ثم ضحكت فجأة وهي تذكر الإنبياء التي حملها إليها مصطفى بابا في الصباح : " لن يصبح بعد رجلاً . سوف يظل حاملاً لحبته . ولكنه رغم ذلك لن يكون رجلاً . لقد فقد رجولته . لقد تحول نوري إلى نوريانا " ولم تستطع أمينة أن تكتم الضحك وسوف يتحول صوته إلى صوت نسلي بامصطفى بابا ؟ .. وهل سيصبح له مع الزمن نوريان ؟ " ربما " قالها الرجل وقد ادهشه ضحكها " ولكنه على أية حال لن يصبح امرأة " مسكين نوري بك .. صائد النساء الرابع ، أسد تركيا .. بالمصاحبه " .. ثم صاحت ضاحكة : ما سيصبح " .. بفل " .. ونظر إليها مصطفى بابا في فرح . ثم التفت كيسه الصغير وانطلق خارجاً .

وأصبح الكابتين بوليكسيجيس " امامها الآن ..

وصاحت أمينة وهي تهز كتفها المعطرين :

- مرحباً بكابتين .. بانجم مسائى ! .. مرحباً يازوجى . عندى شيء ممتع سأشارك به .
- وأنا أيضاً لدى ماأقوله لك .

ثم استلقى إلى جوارها ويحتضنها في حرارة ويتشقق عطر صدرها العارى ، واختلعت الدنيا . ولكنه كان قليلاً وجافاً ، وانحست المرأة بقلقه .. وتمربت . ودفعت راسه في رقة . وقالت :

- أريد أولاً أن أسمع مائديك من اخبار . كنت عيوساً عندما قدمت هل رفض ؟

وابتعد بوليكسيجيس " عنها . وعادت الدنيا من جديد .. بكل متاعبها .
- نعم .. رفض

- هذا الدب المتوحش الملعون ؟ ولكن لماذا ؟

- لم يقل لماذا . فقط مرق دفتر حسابات كان مسكاً به . ثم أمسك بي من خصرتي والتي بي خارج الحانوت . ولكن الغضب جعلنى أقول له كل ماأريدت ان أقوله . ولم أتركه دون ذلك .

وضربت أمينة الأرض بقدمها المخضبة بالحناه وهي تصيح :

- هذا لاينكفى لا يموليكسيجيس " . هذا لاينكفى . كان ينبغي ان تقاتله .

وقال الكابتين بوليكسيجيس " في رعشة :
- اقلته " ..

- بالطبع نقاتله ! هكذا يفعل الرجل . لا تكفى بان ترد الإمانة بالامانة
النساء يفعلن ذلك . اما الرجال فيقتلون !

- الكابتين " ميخائيليس " ..

- وهل هو إله ؟ إنه وحش مفترس . وانت تخشاه .. الا تخجل من نفسك ؟

ثم أمسكت بقعص نومها .. ومزقته من اعلاه إلى اسفله بحركة واحدة . ولعم جسدها الملفوف المشقوق في ضوء المصباح . وبقرب خيط من العرق بين ثدييها .

وقالت في هس وقد انفجرت فجأة في البكاء :

- هكذا أريد ان أمزقه . ياإلهى !

وتألم الكابتين بوليكسيجيس " وحاول ان يحيطها بذراعيه ليهديء من غضبها . ولكنها تصلبت بذراعيها ولم تدعه يقرب منها . وتكومت في ركن الحجرة مثل الوحش المفترس . وكانت قد كفت عن البكاء وبدأت الضحكات العالية الجافة تهز جسدها هذا .

ثم بدأت تضرب الحائط بقبضتي يديها الصغيرتين وهي تقول :

- بوليكسيجيس " . لقد احتكرنى نوري منذ اليوم الذى رايت فيه الكابتين ميخائيليس يكسر كأس الراكى التي تصفين ياصعبيه . الأمر الذى لم يقدر نوري على الاتيان بمثله .. فحذار .. فحذار ان تدفعنى إلى ان أسامك . إن الرجل الذى يحتضنى لاينبغي ان يكون له شبيهه .

- أنا لا أريد .

- بل انت لا تستطيع .

- لا أريد .

وأصبح هو الذى يديق الأرض بقدمه وقد تحول لون وجهه وهو يسرد إلى أمينة نظرات حادة كالسكين ..

ورأت المرأة ثوبه فأحسست بالسعادة . وانسابت رائحة نفاذة من عرق الرجل وجسده المهتاج . وارتعشت خياشيم أمينة في بهجة .

- ياغارسى . ياكنزى . دق الأرض واغضب .. فهكذا أريدك دائماً ..

وفتحت له ذراعها ..

ومع الكاتبين "بوليكسيجيس" انتهزت الدنيا كلها فوق صدر أمينة . وعندما نهض الرجل مرة ثانية بعينين مفلقتين وشعر ميثل .. كان كأنما خرج بانفاسه المتقطعة من قرار بحر مظلم .

وقالت "أمينة" في تودد وارتياح وهي تربت على جسده :

- يا حبيبي .. يا زوجي .. يا بطلي

وتمدد الكاتبين "بوليكسيجيس" مستنداً بظهره إلى الحائط وهو ينظر إلى المرأة بعينين نصف مفلقتين مترعنين بالنشوة ويسمع في نفس الوقت ضجة المدينة وياح الكلاب وأغنيات مسافري الليل . ولحظتها قال لنفسه : "لا شيء في هذه الدنيا يعادل المرأة" . وأحس بالسعادة وشكر الله على أن هيا لجسديهما معا مثل هذا التوافق . وضحك في ارتياح وهو يذاعب ذراعها الملقوفة ويقول :

- "أمينة" لاتقلقي سوف نعتز على رجل آخر أفضل ليتولى تهريبك .

- ولكنك لم تسألني عن الأنياب التي أريد أن أخبرك بها . هل نسيت ؟

- وكيف يمكن أن أتذكر وأنت تتمددين هكذا أمامي والنهار يوشك أن

يطلع ؟

وضحكت "أمينة" ثم همست في أذنه بيبضع كلمات صاخ "بوليكسيجيس" على إثرها وعيناه محذقتان : "يا إلهي بالتسكين !"
ولحظتها أحس بالانشقاق على الرجل السرم الخط . وبران ضحكة "أمينة" ضايقة . ونهضت "أمينة" وأطلقت المسيحاح .

.. ولكنه نهض جالساً في مكانه .. وظل يحدق في الظلام .

كان السيد "إيدومينياس" في طريقه إلى بيته بعد أن انتهى التحفل الكنسي . وكان قد ارتدى في هذا اليوم ثيابه السوداء ووضع شريطاً أسود حول فبعته وأخر عريضاً بعض الشراء حول كم سترته . كان في حداد .

وكان الوقت يقترب من منتصف النهار حين وصل إلى بيته وجلس إلى مكتبه وقال لخادمتة "دوكسانيا" : "لن أكل اليوم .. لا الآن ولا في المساء

.. أنا صائم . ثم أمرها بالخروج من الحجرة والتقط قلعه وأخرج ورقة .. وبدأ يكتب وهو يتهدد بعمل . وكانت رسالته اليوم مكتوبة كلها بالحروف الكبيرة وبالعمير الأحمر . فالجنكام في المدن الكبيرة يكتبون أيضا بالعمير الأحمر . وهو اليوم كأنما يكتب باسم "قسطنطين بالايولوجوس" الذي أتيت من أجله احتفالات اليوم بالكنيسة .. وإلى الملكة "فيكتوريا" ملكة إنجلترا .. ابنة عمه العزيزة "فيكتوريا" ..

لقد مرت أربعمائة وست وثلاثون سنة منذ أن قُلت .. وأنا الآن في الشراب مدفون أنتظر العدالة على يد الملكة المسيحية للعالم العلوي . فرأى متى سأنتظر يا عزيزتي فيكتوريا ؟

وانحدرت دمعتان كبيرتان فوق الورقة .. وأوقفته عن الكتابة - لا يمكن أن يرسل إلى الملكة رسالة كهذه ! وأخرج ورقة أخرى . وكتب بيد . بينما كانت اليد الأخرى تمسك بمغذييل يجفف به دمعه ويمسحها من التساقط فوق الرسالة . وظل يكتب .. ويجفف دموعه .. وهو صائم ..

وعندما حل وقت النوم . جاءه صديقه "نيتيروس" الذي مر به نهار كنيبه هذا اليوم .. فعندما تركه الكاتبين "ميشيليس" وجد هو زوجته وشقيقها جالسين في فناء البيت وقد أعدا المائدة وبدأ يتناولان إبطارهما المكون من القهوة والخبز وبعض بسكويت الفصح .. ويضحكان .. وحيامها . ولكنهما نظرا إليه دون أن يردا التحية . ولم تنهض زوجته .. ولم تحضر له لندماً . وبدأ الأخ وأخته يفمرزان أحدهما للآخر ويضحكان .

وأغلق "نيتيروس" على نفسه حجرته . لا بد أن تكون هناك نهاية لذلك كله . وإنه ليحس بالشجاعة بعد تلك الخطاب البطولي الذي القاه اليوم في الكنيسة . ولابد أن يخرج الآن اليهما في نشاط ويطرده هذا الطفيلي "هذا البيت هو القسطنطينية بالنسبة لي . وهو الأثران .. وأنا قسطنطيني" ! .

وأسرع في ضجة يهبط الدرج إلى ساحة البيت . وبدأ يصيح وذبقة ترتعش :

- علام تضحكان ١٩ .. كفا عن الضحك !

واستدارت المرأة وهي تضع يدها فوق فيها حتى لا تنفجر مرة أخرى بالضحك ونظر اليه الاخ نظرة جانبية وهو يتنأى . وكان لا يزال في ثياب النوم عارى القدمين لم يخلق نفثه بعد . وسأله في استهزاء :

- وهل الضحك ممنوع يا مدرسي ؟؟

ورد المدرس :

- لا يحق لك هنا أن تتكلم . أنا سيد هذا البيت !

وتملكته الشجاعة .. فأخذ يبق الأرض بقدمه وهو يقول :

- .. وأنا أريد مفتاح البيت ، فسيد البيت هو الذى يحتفظ بالمفتاح وقال "ديامانديس" في دهشة وهو يعد ساقيه ويضعهما فوق مقعد أماته :

- هيه ! وماذا أيضا يا مدرسي ؟

ثم استدار إلى أخته وهو يشير بإبهامه إلى المدرس الذى كان واقفاً خلفه وقد امتقع لون وجهه .. وقال :

- انظري الى هذه الذباية !

وأمنت "فانجيليو" على كلماته بسبيل من الضحكات ، وصاح "تيتيروس" وهو يندفع نحو زوجته ليغلق فمها :

- علام تضحكين أيتها المخلوقة التى لا تحجل ؟؟

ولكن الاخ ، ركل المقعد جانباً ولفقز ليساعد أخته وهو يهدر :

- انزل مخالبك يا مدرسي وإلا رميت بك الى الأرض .

ثم لوح بقبضته فوق رأس "تيتيروس" الذى تراجع وعاد "ديامانديس" يلوح بقبضته متوعداً وهو يصيح :

- أخرج من هنا ! أخرج وإلا عجنتك عجنأ . باللوامة ! تريد أن تعطل دور السيد وتطلب المفتاح ؟ أنت أيها الثعبان ذو العيونات ؟ أنت يا هزلي ؟

.. أخرج من هنا وإلا أعطيتك السيقان التى تجرى بها !

ثم خذ به من سترته وأخذ يهزه يعنف . ثم دفعه إلى الحائط بينما أسدلت "فانجيليو" شعرها الطويل وتناولت مشطها العاجي وبدأت تمشط شعرها فى شهوانية وهي تبتسم وتنتظر الى أخبها فى إعجاب وتلا عينيها

بعرأى صدره العريض المكسو بالشعر من خلال قميص تومه . وجسده

المشوق كشجرة سرو - وتنتظر فى ذات الوقت باسْتِقرار واثْمُنْزاز إلى زوجها العليل .

وتخلص "تيتيروس" من بدى شقيق زوجته وأسرع الى الباب المؤدى الى الشارع . ولكنه صاح فى زوجته قبل أن يفتح الباب :

- ليست هذه أبدا حياة .. ولابد أن تكون لها نهاية .

وقال "ديامانديس" وهو يبرز صدره الى الامام

- نعم .. لابد أن تكون لها نهاية . فإنا لم اعد امتلك يا "تيتيروس" . لم اعد احمّل تمركز بقدمى صباحاً وظهراً ولبلاً إن البيت لا يسعنا جميعاً .. لا يسعنى انا وانت .

ثم استدار إلى أخته وقال :

- اختارى بيننا يا فنانجيليو !

وكانت انفاس "تيتيروس" أن تتوقف . وحقد فى زوجته . وانتظر . وكانت "فانجيليو" تمسك لحظتها بأسانها شريطاً أخضر حريرياً . وتمهلت

قبل أن تجيب .. مرت بيديها على شعرها تتأكد من نعومتها . ثم ربطته وهزته حتى اسدل فوق عنقها وإلى ركبتيها . ثم قالت :

- أنا لن افترق عن أختى . حتى ولو كان ذلك يعنى نهاية العالم .

وقال "تيتيروس" :

- هذا يعنى أننى

ثم توقف ...

وهزت فانجيليو كتفها وضحك "ديامانديس" ضحكة جافة ثم عاد يمد ساقيه ويضعهما فوق المقعد وهو يقول :

- لقد قالت كلمتها .. وصرفتك إليها التافه . ألم تخرج بعد يا مدرسي ؟؟

ولم يهدأ "تيتيروس" بعدها إلا لمرأى البحر ، جلس فوق صخرة قريبة من الحائط وأمضى بضع ساعات هناك بلا حراك . يمدق فى امتداد المياه .

وكانت الشمس قد غابت عندما نهض "تيتيروس" من جلسته وتأمل حاله فى دهشة . كان الغضب قد زال .. وكانت دموعه قد جفت . كان ملوأل

تلك الساعات يحدق في البحر دون أن يفكر في شيء . ولكن شيئاً ما بداخله كان يتحرك . ويوصل أخيراً - بدمه وأبليس بتفكيره - إلى قرار . لقد كان عاجزاً عن أن يجعله صريحاً واضحاً ، ولكنه أحس .. بأنه في أمان في نطاق إصراره وثقلته .. ولحظتها همس لنفسه : "كل شيء سيصبح على مايرام . أنا سيد البيت" .

ثم نهض واستدار متجهاً عبر الأزقة الملتوية بالقرب من الميناء ، وأحترق الحى اليهودي ثم توقف عند مكانه الخاص في المدينة في مواجهة منزل "إيدومينياس" الكبير وكان ثمة ضوء لايزال يلوح من نافذة سديقه . لايد أنه يكتب رسالة أخرى إلى الملكة أى ضياح للورق ! سوف ادخل وأتبادل معه الحديث بعض الوقت ، فذلك سوف يهدئني ويهدئ هو أيضاً .

وطرق الباب ، وارتسمت السعادة على وجه العجوز "دوكسانيا" حين رآته .. وقالت :

- إنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح ، حاول أن تقنعه بتناول شيء من الطعام حتى يبارك الله لك ! إن الله قد أرسلك الآن !
وكان السيد "إيدومينياس" كذلك سعيداً لرؤية ضيفه ، فقد كان فرح لثوبه من كتابة رسالته ووضع فوق المظروف خاتمه - اثينا المسلحة ، وغدا تكون الرسالة في طريقها إلى لندن .

... وقال وهو يشير بفخر إلى الخطاب المختم :

- البعض يحاربون بالأسلحة ، أما نحن الاثنان - وثالثنا في ميغالوكاسترو هو "حاجي سافاس" - فإبتنا نحارب بعقولنا ، وسوف نحرق كريت .

وهز المدرس رأسه . فلم يكن يصدق أن كريت يمكن أن تتحدر بكتابة الرسائل وبقايا الرخام ، وغطس فوق مقعد مرتفع متعباً وجامعاً . ثم تسأل وهو يتنهد :

- ومن ذا الذي سيحرقنا نحن يا "إيدومينياس" ؟

- من ؟ كريت هي التي ستحرقنا بمجرد أن نحرقها نحن يا مدرس ! إن

سعادتنا الشخصية مرتبطة تماماً بذلك . فنحن في تضالنا لتحرير كريت . إنما نتاضل أيضاً من أجل تحرير أرواحنا .

ولكن المدرس هز رأسه وهو يمسح عيناته من رزاز أمواج البحر ، وظل "إيدومينياس" يذرع الحجرة وهو يؤكد رأيه :

- هل ترى طريقاً آخر للسعادة ؟ ولكني تتأكد من صدق رأيي فإنتى أسألك : ما فائدة حديثي معك الآن ؟ أنت حديث الزواج .. ولا تزال غارقاً في الشنوة ، ولكن سرعان ما ستزول هذه الشنوة .. وبعدها سوف تتبع أي طريق آخر .. أقول لك : إنه ليست هناك للرجال أمثالا سعادة شخصية ، فنحن لانجد مثل هذه السعادة إلا في سعادة المجموع .

ثم توقف وأحس برغبة في أن يلف لنفسه سيجارة . ولكنه تذكر أنه اليوم سائماً وفي حداد .. فعاد وأزاح صندوق الطباخ جانباً وهو يستنهد السعادة من تضحيته في سبيل المجموع . ورفع وجهه الطيب المتعش في اعزاز وهو يقول :

- هذا هو السر يا مدرس ! وأنا الوحيد الذي أعرفه في ميغالوكاسترو .. وربما "حاجي سافاس" أيضاً .. وسوف تفهمه أنت كذلك فيما بعد ..

ثم توقف مرة أخرى وإن كان قلبه يخالج في صدره . اليوم يتبغى عليه أن يتكلم .. فالיום يفرض عليه ذلك ، ولايد أن يعرف صديقه السر الذي ظل يحتفظ به في صدره سنين طويلة :

- هل تعرف لماذا أظل أكتب للملكة ؟ لماذا أظل حبيس هذا البيت الكبير الذي كان يملكه أبي - وكأنتى جثة حية - وأظل أصرخ ! إن كريت هي التي تصرخ بأفواهنا نحن . أنت ربما تلومنى وتقول : "أنت تصرخ ولا فائدة ولا من مجيب" .. ولكننى أقول لك : إن الصرخة لايمكن أن تضعع هياء ، فالصوت يسبق الأذن التى تسمع ، والأذن ثم تخلق إلا لتسمع النداء والصراخ يا سيدى المدرس ! وسوف يسمعون يوماً ما كل الملوك والأقوياء . الذين أكتب اليهم وإذا لم يسمعوا هم فسوف يسمع أبناؤهم وأحفادهم .. وإذا لم يسمع هؤلاء ، فإن الله سوف يسمع . وإلا فلماذا يوجد الله ؟ .. إنه موجود ليسمع ! لا تضحك . نعم . نعم أنا أعرف أن الكل يتهمنى

بالجنون .. وإنتى لاسمعهم بيها مسون من وراء ظهري : "أى ضياع الورق ؟" فليقولوا إذن مايشاؤون ، فما الذى يعرفه هؤلاء عن الله وعن كريت وعن واجب الرجل ؟ إنتى لئادى واستصرخ الله من وسط هذا الحطام ، واسوف يسعنى يوماً ما .. واسوف يتطلع يوماً ما من عليائه الى كريت حجلان من تركه إياها فى العبودية كل هذا الزمن ، واسوف يسألنى - أنا "إيدومينياس" - العفو وجماعة ، سنشق أجراس القديس "ميناس" عاليا .. واسوف ينطق المسيحيون كالمجانين فى الشوارع المغروشة بالرياحين والغار ، واسوف تنطلق النساء الى الميناء ليحيين ابن ملك اليونان . واسوف يقلل الناس بعضهم بعضاً وهم يصيحون : "كريت نهضت من جديد ! حقا لقد نهضت من جديد ..

ثم جفف عينيه اللتين بللتها الدموع .. فقد أراح قلبه ولكن أفكار المدرس كانت بعيدة عنه ، ولم تمس قلبه شعلة صديقه . - ويومها ، ستكون أنا وأنت يا صديقى أوراقاً ذابلة جافة .. وسوف تموت بعيداً ولاندرك هذا اليوم .. يوم الخلاص .

وضحك "إيدومينياس" .. وقال لصديقه فى إشفاق : - أنت لاتزال عاجزاً عن أن تفهمنى ، ليس شرطاً أن أرى وأن أعان لكى اتخبر . إنتى أصبح حراً حتى فى ريق العبودية حين استمتع بحرية المستأبل .. حرية الاجيال القادمة ، وعندما أقاتل فى سبيل الحرية طوال حياتى ، فهنتى ساموت إذن رجلاً حراً .

وقال المدرس الذى كان يفكر فى زوجته وفى أميها الذى يبغله العار وفى مفتاح البيت الذى طالب به ولم يحصل عليه :

- حقا .. أنا لاسطيع أن أفهم . ولكنك ستفهم قطعاً فى يوم من الأيام . ربما تشدك الآن وتستأثر باهتمامك بعض الأمور الصغيرة التى تغتدى بأرواح الرجال . إن الروح ليوثة ، والمناصب هى القفل فى جسدها ! ولكنك سوف تتخلص يوماً ما من هذه الأمور الصغيرة .

وظهرت "دوكسانيا" على عتبة الباب وأشارت الى المدرس بينما كان

"إيدومينياس" يوليها ظهره ، لابد أن يكون الآن راجعاً فى الأكل ... فقد أمضى اليوم بطوله دون أن يعضغ بأستائه شيئاً . وقال "تيتيوريوس" : - إن الدب الجائع لا يرقص ! .. أنت تتحدث عن أفكار عظيمة ، ولكن دعنى مشغول بالطعام . منذ الصباح وأنا لم أرق طعم الأكل ، ولقد أمضيت الليلة الماضية يطولها وأنا اكتب .

وقال "إيدومينياس" : - أنا أيضاً لم أرق الطعام ! فأى ضرر فى ذلك ؟ إن الطعام هو أيضاً قله .

وضحك المدرس وهو يقول : - ولكن اللبوة يمكن أيضاً أن تموت جوعاً لو افتقدت هذا القمل .

وصفق "إيدومينياس" بيديه ، وبرزت "دوكسانيا" على الفور وقد بدا السرور على وجهها .

- المدرس جاثع يادوكسانيا ، أعدى صبيحة مما لدينا وأحضريها . وصاحت دوكسانيا وهى تسرع : - بكل سرور .

وقال المدرس : - سوف نأكل معاً ، ليس كذلك ؟ لا استطيع أن أكل وحده ، قد تتحمل أنت الصيام . ولكن ينبغى أن تثبت أيضاً أنك تستطيع أن تتحمل الطعام إن الصيام والحياة المرهقة والزهد .. هى أيضاً نوع من القمل .

وضحك الصديقان .. وقد خفف ما بهما ذلك المزيج من الكافة والأفكار العظيمة . وجاءت الصبيحة ، وأرتسمت البهجة على وجه دوكسانيا المتعشى ، فعدت أن غربت الشمس و"إيدومينياس" الجائع بحث بقسمه وهو يسئلى صديقه حتى أصبحت شهيتها معاً جاهزة فأنكب على الطعام ، وشربيا بعض النبيذ المعتق من قنينة مخزونة بالبيت من زمن طويل .

وصاح الاثنان وهما يقرعان كؤوسهما :

- تحب الحرية !

وعندما ساد الظلام في الخارج ، عادت أفكار المدرس تحوم حول بيته .
وساله صديقه :

- لماذا أنت مهموم ؟

- ولم يرد "تيتيوس" .. فعاد يساله :

- كيف ترى حياتك الجديدة ؟ أمن السهل أن يعيش الرجل مع امرأة ؟
واتجه المدرس نحو النافذة وهو يقول :

- الليل اقبل .. ويتبغى الآن ان اعود .

كان القمر قد اختفى .. القمر المضمض الذي تزوج "تيتيوس" تحت
ضياءه ، واقتربت من نهايتها أيام الحداد الأربع عشرة على "مانوساكاس"
والتي أمضاهما ولد "نيودورس" في غضب هستيري داخل تلك القرية
العنيفة جدرانها . لقد أهانه عمه الكابتن "ميخائيليس" إهانة بالغة حين
علمه وكانه لا يزال صبياً لا يقدر على استخدام مديته ولا يقوى على قتل
الأتراك "كم عمرك الآن؟" - "سبع عشرة سنة" - "فالزم إذن عشك !"
اليس السبع عشرة سنة تكفي في نظر الكابتن "ميخائيليس" ؟ إنه الآن
رجل قادر على استخدام المخزات والشيران وقادر على فلاحه الأرض - وإنه
قادر كذلك على تحدي "عسين" ابن شقيق "نوري بك" .. الفارس التركي
الصغير في "بيتروكيغالو" .. فهو يطرحه أرضاً عندما يتصارعان -
ويستطيع بالتالي أن يفرس مديته في عنقه .

وقال لأمه "كريستينا" التي كانت ترتدي ثياب الحداد :

- لقد أهانني عمي ..

... وكانت أمه قد توجهت إلى قبر زوجها والصقت رأسها بالأرض
وأخذت تبكي وتتحبب كعادتها منذ أن دفن زوجها قبل ثلاثة عشر يوماً ..
وتناديه وهي تبتش التراب بأظفارها .

ولجابته أمه :

- أنت لاتزال صغيراً يا "تيتيوس" ، فدح النار لعنك .

- ولكن متى ؟ حتى يأمي ؟ غداً يكون قد مر على قتله أربعة عشر
يوماً ونحن لاتزال نأكل ونشرب وننام ولا نتفعل شيئاً ! ألا يظهر لك أبي في
نومك ؟ ألا يشكو لك ؟ إنه ليحيرني كل يوم يا أمه .

وأف العصابة السوداء حول رأسه واتجه ببصره نحو سفح الجبل حيث
تقع القرية الأم "بيتروكيغالو" وحيث تستحم بضوء الشمس الساطعة التي
لوتت جسده القوي ... القرية التي تمتلئ بالسادة الأتراك وبالمسيحيين
المتسحقين . وكان ثمة شعر قد نبت على صدغيه وصدرة البارز . لقد عاش
وسط هذه الجبال مع قطعان أبيه وقلما كان يذهب إلى القرية ليرى الأدميين
ولكن حياة الوحدة بدأت منذ العام الماضي تثقل عليه . ومن ثم فقد كان
يتوجه إلى كنيسة القرية يوم السبت من كل أسبوع حتى يرى النساء . فقد
بدأت دعماؤه هي التي تدفعه . ومنذ مقتل أبيه وهو يلزم البيت ولا يذهب إلى
الجبل ، بينما بقي هناك أخوه "كوستانديس" الذي يليه في العمر . أما هو
فقد انتغل حذاء أبيه وسرته وعصابة رأسه . واستخدم كذلك صندوق
الطباقي الخاص به وعصاه المصنوعة من خشب أشجار البندق . ومضى
إلى "أي ياني" .. وقليلاً ما كان يذهب إلى "بيتروكيغالو" .. في حزن
ومسعت .

ونفض من فوق قبر أبيه وهو يمسك بالعصا .. وقال :

- أنا ذاهب ...

- إلى أين يا ولدي "تيتيوس" ؟

- إلى بيتروكيغالو . ألم تقولي إنك في حاجة إلى بعض حب الرمان
لتنزيره فوق كعكة الجباز ؟ سوف أحضر لك ماتريدين . فهناك بعض الرمان
فوق سطح بيت جدي .

ثم أخرج من خزانه مدية أبيه التي كانت لاتزال ملوثة بالدماء . ولقد
أرادت أمه يوماً أن تنظفها ولكنه رفض وهو يقول : "إن الدماء لاتفسلها
المياه يا أمي ، بل تفسلها الدماء مثلها" . ولقد كان يحتفظ دائماً بهذه
المدية قريبة منه حتى ليضعها بالليل تحت وسادته . وكانت أمه تتوسل إليه
دائماً : "أعطني هذه المدية يا ولدي ، فطالما هي هكذا تحت وسادتك فإن
أباك سيجيء ليعذبك أثناء نومك" - وهذا هو بالضبط ما أريده يا أمه . أن
يعذبني" ... ثم رسم علامة الصليب .

وانطلق في طريقه ممسكاً بالعصا .. يبق بها الأرض الصخرية وصاحت
فيه أمه وهي تراه يبق الأرض يعنف :

- كن حذراً يا "تيتيوس" .. دعواتي وبركاتي لك !
 ولكن الابن كان قد اختفى عن بصرها . وانطلق ارتب من الحظيرة .
 فأتبعه "تيتيوس" عصاه وامسك به من ارجله . ثم ضرب راسه في صخرة
 فحطمه وهو يقول :
 - سوف اخذه معي هدية لجدى ، ولعلها علامة طيبة . فالارتب يجلب لى
 الحظ . وهكذا سوف امسك بحسين واضرب براسه الصخور . ولكنه ليس
 ارتباً على اية حال . اقصد ان يكون بيننا صراخ قاس .

وكان قد تحذاه قبل يومين ، وجاء "حسين" على صوت الصفيير الذى
 أطلقه "تيتيوس" بقمه .
 - حسين .. بعد غد يكون قد مر اربعة عشر يوماً على ابي الذى قتله
 عمك "نورى"
 - القار والكبريت على جسده !

ثم ضحك ضحكة قصيرة .. واصفرت عينا "تيتيوس" وهو يرتعش
 بالغضب :
 - لماذا تضح في باكافر ؟ لماذا تصفر ؟ هل عميت عينك ؟ الا ترى اننى
 مشغول بالتذرية ؟
 - اذا كنت حفاً فمرساً ففعال وصارعنى . وسوف اموت تركياً إن لم اجعل
 ظهورك هذا يتمرغ في التراب !
 - ظهري انا ياخائن ١٤ .. متى واين ١٥
 - فى نفس المكان الذى قتل فيه ابي - عند شجرة السنديان - بعد غد
 فى يومه الرابع عشر . وفى الصباح الباكر حتى لايرانا احد .
 - هل تحضر المدى ١٤
 - نعم ..

ثم افتراق "حسين" يتابع عمله . و"تيتيوس" عائداً الى بيته . وهناك
 اتخى عند مفخل البيت وأخرج المدية من حزامه وشحذها دون ان يغسل
 الدماء الجافة من فوقها ثم اعادها مكانها واتجه نحو شجرة السنديان
 الضخمة حيث جلس مستنداً يظهره الى جذعها .

وعند مدخل "بيتروكيغالو" رأى فتاة بالقرب من البئر ، فاحمر جسده
 على الفور . كانت تمسك بحجرة فى يدها وتنتهب ارفعها فوق كتفها . وعندما
 رأت "تيتيوس" قادماً من بعيد وقفت فى مكانها لا تتحرك .. وتنتظر
 بالفتاة الرائعة التى تشع جمالاً ! ان جسدها لمستود . وان كان لا يزال ابن
 الاعطاف - وفوق عينيه اللوزتين المشعيتين اهداب كأنها المدى . كانت
 اشبه بحيوان اشتمت خياشيمه رائحة فهو يختبرها بإمعان .

وتعلق بها بصر "تيودوروس" من بعيد . كل شيء اليوم على مايرام
 وأحس بقلبه يقفز داخل صدره : "إنها فروساكى !"
 وأدار بصره حوله - لا احد .. كانت الفتيات الأخريات قد ابتعدن
 بجرارهن عن البئر . والفلاحون فى الأجران يقومون بدراس القمح وتذريته
 وغربلته . لم يكن فى الدنيا كلها امامه سوى "فروساكى" والشمس ترتفع
 فوقها كالتاج فى كبد السماء .

أحس بضعف لذيق فى ركبتيه وهو يتوقف امام البئر . وقال فى صوته
 مرتعش وقد أرشى بصره :
 - نهار سعيد ..
 وتللا رسفها تحت اشعة الشمس التى تدفقت فوقهما .. ومسحته
 بنظرتها فى جراحة وهى تضحك فى سخرية :
 - لماذا تحمل هذا الارتب يا كابتن "تيودوروس" ١٤ .. هل أصبحت
 تصطاد الارتب ؟

ورد الشاب وهو يرفع عينيه ا
 - بل اصطاد الأتراك .
 وظلت نظراتهما لحظات تتساجلا كالشناجر . حتى عاد الشاب فحفض
 راسه وقد زاد اضطرابه .
 وسدت الفتاة جرتها بغطاء خشبي وجالت بصرها حولها فى سرعة . ولم
 يكن هناك احد : "هل أنت عطشان يا "تيودوروس" ١٥ ؟"
 - نعم . انا عطشان يا فروساكى - ولكنك انت التى ستقدمين لى انا -
 الابن اليتيم - الماء الذى يبل عمتشى .

وخفضت الفتاة بصورها في صمت ، وإن كانت الحمرة قد كست عنقها وأذنيها وهمس "تيودورس" .

- غدا يكون قد مر على وفاة أبي أربعة عشر يوماً ، تعالي غدا الي بيتنا وساعدي أمي في صنع كعكة الجناز ، وسوف تحضر أيضا فتيات كثيرات من القرى المجاورة .
- سوف أحضر إذا سمحت لي أمي .

ثم قالت بعدها على الفور :

- وحتى لو لم تسمح ، فسأحضر مادمت أنت قد دعوتني . إن أحدا لا يستطيع أن يرفض رغبة الكابتن "تيودورس" !
قالت في ضحكة تخفي بها انحطافها نحوه .. وظلت تنظر اليه وهي تكاد تبثلمه بنظراتها . لقد كانت تظل كل ليلة مستيقظة تفكر فيه . وتود لو كانت أرضاً تبسط نفسها تحت قدميه ، ولكن ها هي ذي تضايقه وتثيرة وهي تراه أمامها بلحمه ودمه - إنها للحس الآن برغبة في أن تمشيه .. وتؤديه .

وأسد "تيودورس" ذهنه إلى عصاه وظل يحدق في الأرض وهو يتذكر كيف أن عليه غدا أن يصارع حسين . ثم قال :

- اه .. فروساكي .. هل تتيكين إذا حدث لي شيء ؟

ولم يعد في مقدور الفتاة أن تضبط أعصابها أكثر . وانحدرت الدموع فوق خديها وهي تهمس :

- ليس لي في الدنيا سواك يا "تيودورس" !

وصاح الشاب في فرحة وهو يرقع رأسه :

- حسن ! .. فأعلمي إذن يافروساكي أن سواها لا يمكن أن يلحق بي !
وبلغرت فئاتان تحمل كل منهما أزيقا ، وأسعدت فروساكي تجفف دموعها وترفع ابريقها فوق كتفها وتتظاهر بانها تتطلع إلى بعيد ، ولكنها لم تستطع أن تطمان من اختلاج صدرها . وأسرع "تيودورس" بجرى في اتجاه القرية وهو يصغر بغمه ويؤرجح الأرنب الميت بيده .

وفي اليوم التالي - الأحد - عندما انتهت فترة الحداد وبذات مراسم حفل الذكرى من أجل روح "مانوساكس" ، اعطى الأب "جرجورس"

المنصة التي اقيمت في الفناء الأمامي للبيت ، ووقف إلى جواره صني راع أسود اللحية يحمل طبقاً ثقيلاً فوقه كعكة الجناز المكسوة بطبقة من السكر يزينها اللوز وحب الزمان وكتب فوقها اسم "مانوساكس" بمسحوق القرفة . وصر الفلاحون واحداً اثر الأخر وكل منهم يبسط راحته ليملاها الأب . فيتمتم : "رحم الله روحك" ثم يتحرك ليخفي بعد ذلك وجهه بين مخالبه ليبتهم القطعة بشراقة ويلوث شاربه بالقرفة والسكر .

ولأن الأيام الأربع عشر قد انتهت - والحقيقة أنها تمضي فحسب من حياة الرجال والنساء - فإن فضائل "مانوساكس" بذات تلقى مديحاً خاصاً وغريصاً . ولقد ظهر شخصياً للعجوز "كاترينيو" - أم حارس الحظيرة - وهي هائدة في الليلة الماضية إلى القرية : كذلك فإن كتبها - هو ايضاً - رأى "مانوساكس" فقف شعره : ولقد حاول لحظتها أن يذبح . ولكن فمه ظل مفتوحاً ولم يستطع حتى الآن أن يلفظه .

وقال واحد من الرجال العسنين وهو يرسم علامة الصليب : "إن القدي أصبح يتجول شعباً ، لقد قتل في قمة قوته .. ولايزال كأنه بيتنا ، إنه يستعصى على الموت" .

وقال آخر : "إنه يريد نعام ، لعاداً تاخر الكابتن "ميخايليس" كل هذا الوقت ؟"

وبيتما كانوا لايزالون يثرثرون ، إلتحم الساحة "كوكولويس" حارس الحظيرة وقد تدلى لسانه ، وهو يمسك بوقه بيده المرتشعة . كانت الكعكة قد انتهت . وكان الأب يقادر المنصة . وكان صبية الرعاة لايزالون يلعبون العطيق .

واتجه الأب نحو الحارس بيتما تجمع الباقون حولهما :

- ماذا بك ياكوكولويس ؟ النقط انفاك . هل لديك أخبار سيئة أخرى ؟

اللهم اشفئنا بزجعتك !

- حسين . ابن شقيق نوري بك ، وجد مقتولاً !

- أين ؟

- تحت شجرة السديان الضخمة ..

- من ... ؟

- علم ذلك عند الله - "بيتروكيفالو" تعلق . وقد اغلقت البوابات وبدأ
المسيحيون يتسلجون بينما وضع الأتراك الجثة في حوض المسجد وأخذ
كل واحد منهم ينحني أمامها . وقد أخذوا يطلقون النار ويهددون بحرق
"أى - جاني" !

- كيف نتحمل ذلك !!

- يقولون إن القاتل لابد أن يكون من "أى - جاني" - واحداً من عائلة
"مانوساكس" . وهم يطلبون يد "تيودورس" !

وأصدر الأب أوامره :

- ليمضى أحدكم على الفور ويخبر الأرملة ، لابد أن يهرب "تيودورس"
إلى الجبال ! بسرعة !

ولكن "تيودورس" كان قد أخذ بتدقية أبيه وغدارته القسيتين وملا
غمرارة بالخراميش . وفتح صندوق أبيه وأخرج العلم اليوناني من قاعدته
المزدوجة فطواه وانطلق إلى الجبال دون أن يفصل الدماء من يديه وصنّده
ومر في طريقه بالحظيرة وأعطى تعليماته لشقيقه "كوستانديس" وترك معه
رسالة لأمه حين تذكر أنه لم يودعها . قال لها فيها أن كل شيء على مايرام
وسألها أن تمنحه بركتها ، ثم وضع في الغرارة قطعة من الجبن وانطلق
يتسلق "سليينا" - أعلى قمة في جبل "لاسيثي" . وكان ثمة رعاة كثيرًا ما
كان يسرق أغنامهم ويسرقون أغنامهم - وذلك جعلهم اصدقاء - ! وقد
"تيودورس" أن يتألم في حظيرتهم ، فإذا أدركه الجنود رفع العلم ووقف
على رأس الرعاة وحارب وهو يعتف : "في سبيل الوحدة مع اليونان" !

وقبيل المساء ، جاء الأرملة اثنان من الاغوات المسلحين فدقا بابها ،
دون أن يجيب أحد . وتابعا البق يعتف . ولا أحد !

واتجه نحوها تركي عجوز كان قد صعد الجبل لجمع الأخشاب وقال :
- مرحبا بالسادة . هل تبحثون عن "تيودورس" ؟ لقد طار الطائر !
انطلق إلى الجبل "

- أنتبه جيداً لما تقول ياابراهيمس ! هل رأيت بعينيك !!

- نعم .. وأقسم بمحمد أنني رأيت بعيني . كان الكافر يجرى كما لو كان

حصاناً .. ولقد ارتفعت فوق الأرض في ذعر . وعندما رفعت رأسي لانتظر .
كان قد اختفى .

وصب الاغوان اللعنت وهما يضربان الباب بخناجرهما . والتفيا في
طريق عوبتهما - وعند الوادي الذي يفصل بين الفريتين - بالعجوز
"كانتيرييو" التي ظهر لها شبح "مانوساكس" وكانت تجمع بعض الخس
والأسبرجس الذي تملأ به غرارته الصغيرة قبل أن تنهيا للعودة راضية
لنعد العشاء لأبنائها .

واندفع نحوها الاغوان .. واغتاها بقسوة ..

وبدا الصدام بين الأتراك والمسيحيين في القرى المجاورة . واستمر
القتل بينهم . يعثر الناس في مرة على جثة مسيحي في قاعة الطريق .. ثم
يعثرون بعده على جثة تركي مخبأة في حديقته أو مقلعة في بئر مهجورة
نصب ملؤها . وارتفع الدد في سرعة خاطفة واشتعلت القرى واحدة بعد
الأخرى حتى بدأ المد يصل إلى "ميجالوكاسترو" ذاتها .

وفي الظهيرة ، كان سليمان - خادم الباشا الغربي - قد استبد به السكر
- ليس برغبته ، ولكن الاغوات كانوا قد ارتعوا له كنوس .. الراكي " ثم
أطلقوه بعد أن سكر في الحن اليوناني وقالوا له : " اجتهد أن تعثر على
الكابتن "ميفاييليس" وتقتنى عليه - إذا كنت حقا رجلا" .. وأخرج هو
المتعجر الذي كان الباشا قد منحه اياه في عيد الاضحى السابق .. واندفع
يهذر عبر شوارع اليونانيين والمسيحيين يهزحون بأطفالهم إلى بيوتهم لدى
رؤيته .. ويطلقون ليوابها على أنفسهم .

وصلحت النساء في قرع وهن يحكن اغلاق ابوابهن بالمزالج :
- العربي ! العربي !

وحين راه بعض المسيحيين وهم في طريقهم إلى دورهم لتناول الغداء .
فلفروا ينشلون اول باب يفتح لهم .. وقال بعضهم لبعض في غضب احيانا
وفي قرع احيانا : "كزيت التي هجرها الجميع .. تشتعل من جديد" !
واندفعوا جميعا الى صناديقهم التي اخفوا بها اسلحتهم .. وأخرجوها
ليزولوا الصدا من فوقها .

وتوقف العربي عند نافورة "إيدومينياس" وقد اشتغل رأسه بحرارة الراكى وشمس الظهيرة وتصيب العرق من حاجبيه وعنقه وسيفائه . ودفع برأسه تحت النافورة ليبرد وهو يهدر كالثور . وأصابت الرعدة الحى كله وبينما هو يتحنى تحت ماء النافورة أصر بين ساقيه بالكابتن "ميخائيليس" يقترب قادماً من آخر الشارع ، فصاح صيحة وحشية وهو يسئل خنجره ويندفع نحوه .

وتوقف الكابتن "ميخائيليس" . وخطر بباله للحظة أن يعود ادراجاً ، ولكنه خجل من أن يفعل ذلك . وفتح باباً عن يمينه وأطلت برأسها زوجة "كراسوجورجيس" مسدلة الشعر .

- ناشدتك الله ياالكابتن "ميخائيليس" أن تدخل .. لماذا تلقف هكذا ؟
ولكنه كان قد أخرج منديله العريض ولفه حول قبضة يده .. وفتح كذلك باب بيته هو . واندمعت "كاتيرينا" نحوه وهى تصيح .
- ميخائيليس ! .. كابتن "ميخائيليس" ! أرحم اولادك .

لقد رأت العملاق يواجه زوجها .. تريق أسنانه وتدور عيناه ويصيح وقد رفع الخنجر فى يده :

- أنا قادم لتمزيقك ياكابتن "ميخائيليس" .. ياكافر !
وحاولت الزوجة أن تغدس زوجها بأن تقف أمامه . ولكنه كان قد استجمع قواه فى قبضة يده وغرسها فى بطن العربي الذى سقط وهو يخور . ثم انحنى يستخلص الخنجر من بين أصابعه . واستدار إلى زوجته :
مكانك فى البيت .. عودى !

ودخل بيته وخلفه زوجته التى أحضرت له قميصاً جديداً أحس وهو يرتديه بأن جسده بدأ يهدأ ، فابتسم من تحت شاربيه الكث وهو يحدق فى الخنجر المشحون .. وقال :

- يازوجتى .. أعط هذا الخنجر لأبنيك "ناراساكى" ليبرى به قلعه .

وفى ذات المساء ضرب شابان تركيخان - ابنا المؤذن - "بتروودولوس" المسكين ووطأ بقدميهما قبعتة المصنوعة من القش . وكانا على وشك أن

يمزقا عباة لولا أنه صرخ فانطلقا هارين . وفى صباح اليوم التالى . وجد المؤذن مشدود الوثاق إلى الشجرة الضخمة وهو عار تماماً ويكاد يتجمد من البرد . فأطلقوه ولبكوا ساقيه وسقوه شراباً ساخناً . وحين استطاع أن يتكلم وصف لهم كيف أن اثنين من المسيحيين - واحد منهم ذو شارب مثل لحية جدى جبلى . والآخر أعرج - أمسكا به وجرداه من ثيابه وربطاه إلى الشجرة بحبال المشنقة . وكان فى نيتهم أن يخلقوا له لحيته لولا أنهما نسيا الموس . ومن ثم فقد اكتفيا بعد ذلك بأن يصفوا فوقه وأسرعوا نحو الميناء .

وكان اليانسا ينقسمه إلى جواره . وأمر بأن يقبض على كل أعرج فى ميجالوكاسترو ويودع السجن . وبدأ البحث أيضاً عن الكابتن "سيفلاكاس" ولكنهم لم يعثروا عليه . وألقت الشرطة القبض على كل أعرج فى المدينة وأودعته السجن وأجبرته على تجرع زيت الخروع . ولكنهم تصرفوا جميعاً كالفرسان ولم ينس احد بيئت شفه . وبعد ثلاثة أيام كان اليانسا قد اكتفى بما أكلوه وتجرعوه من زيت الخروع (وكانوا ثلاثين تقريباً) فأمر بإطلاق سراحهم .

ولكنه أمر بوضع سلميخان العربي فى القيدو المدينة عندما سمع بفشله .

ومر يومان أو ثلاثة .. وهبت ريح جنوبية شديدة قادمة من الجزيرة العربية خلخلت ألواح جدران البيوت . وتسلسل الغبار الكثيف الحار إلى أنوف الناس وأذانتهم وأفواههم . وأصبحت "ميجالوكاسترو" تنتن كالصمغ . وكانت الكلاب تتقوقع فى الظل والمواهاها مفتوحة . وكان الرجال والنساء يلعبون وهم يلزمون دكاكينهم ويحركون الهواء بمراوح من القش ويحصدون الشراب البارد . وكان "باربايانيس" يقف فى قمة مجده أفقد كان يجرى هنا وهناك فى القيقظ الشديد . يبيع المشروب المثلج - ولقد كانت نار الصيف وصفح البرد بالنسبة له سواء - فإذ أرباحه تبرده فى الصيف . وتدفقه فى الشتاء . وهكذا يظل باره الأعصاب طوال السنة .

وكان البطيخ قد انتفخ فى الحدائق حتى ليكاد ينفجر . وفى كل صباح

كانت هذه الحدائق تنقل الى الميدان الرئيسي بالغرب من الشجرة العارية
والى الاقباء الثلاثة جبلاً من البسيط وتلاها من الخيار . وكانت يواكير العنب
تلوح وسط التكايب في الوانها الاولى . وكانت بشارت اللين في طريقها الى
الاسواق . كانت الارض تتفجر بخيراتها - فكيف كان يمكن لزبانن الفاكهة
ان يسبقوا سيل ماتخرجه هذه الارض ؟! كان الاثراك والمسيحيون يقفون
امام اكوام الفاكهة . وكان البائعون يفتون على بضائعهم بملء افواههم ..
وحينما يقبل المساء يتكئون كل ماتبقى في مكانه فيندفع الاطفال والعجائز
والنساء المحتاجات من كل جانب ويجمعون كل مايقدرون على جمعه .

وعندما تغيب الشمس - تتلفس الارض .. وتبرد ، وتتشر الظلال الحانية
فوق "ميجالوكاسترو" ، وترش ريات البيوت ساحات بيوتهم ثم يتجمعن بعد
ذلك في بيت إحداهن ليتبادلن الاحاديث . ولكن قد تجمعن يوم الأحد في
ساحة بيت زوجة "كراسوجورجيس" يسلمن انفسهن ويأكلن ويتبادلن
الفاكهات عندما اندفعت "بنيلوب" فجأة إلى داخل الساحة وقد شحبت
وجهاها وجمدت نظراتها وهي ترتدى ملابس البيت التي كانت تغطيها البقع
.. وتحصن باكياً . وقفز الجميع من اماكنهم . وقدمت لها زوجة
"كراسوجورجيس" بعض عصير الكرز فشربته وهي تنتحب وتئن .
- ماذا حدث يا "بنيلوب" ؟ ولماذا تبكين ؟!

وابتلعت بنيلوب البقية الباقية من العصير .. ثم صاحت :

- ديميتريوس .. ديميتريوس !

- يحق الله ... ماذا حدث له ؟ هل هو مريض ؟!

- لقد ذهب ..

- ذهب ؟ إلى أين ؟!

- واخذ معه العظلة !

- إلى أين يا عازيرتى ؟!

- إلى الجبال مرة ثانية ..

- ولكن لماذا ؟ لماذا يا بنيلوب ؟ ما الذى اسابه ؟!

- أنا قلق عليه .. لقد خرج ومع العظلة .. لقد هرب منى مرة من قبل

ومعه نفس العظلة ايضاً .. خلال أحداث عام ١٨٧٨ .

وصاحته "كريسانتى" شفيقة "بوليكسيجيس" وهي تدق بيدها على
ركبتيها :

- هذا امر يندّر بالسوء . وانتبهن جيداً الى ما اقول يا عازيرتى .. هذا

يعنى أحداثاً جديدة - عاقبني الله إن كنت كاذبة -

- لا تقولى هذا يا عازيرتى ! عسى أن تكون اذان الشيطان صماء الآن !

وعادت كريسانتى تقول :

- عاقبني الله إن كنت اكتب ! اتعرفون كيف يحس الفار بالزلزال

فيهرب ؟ هكذا فهل ديميتريوس .. أحس بالأحداث فهرب ومع العظلة ..

وهعصت بنيلوب :

- وليس مع نقود ، ومن الذى سيطهو له طعامه ويغسل له ثيابه ويرتقها

ويعد له فراشه ويديره بالليل ؟! أنا اعرف انه سيعود إلى مثل المرة الأخيرة

والنقوب تملأ سرواله !

- لا تحدثنى كل هذه الضجة يا عازيرتى . فقد بدأت أحس بالقرف من

زوجى وأردافه السمينة الثقيلة !

ولكن بنيلوب لم تهدأ ، وعادت تفتح فمها لتستأنف العويل ولكن سيدة

البيت نست في فمها ملحقة مليئة بمزجى اللوز . ثم تسامت فجأة وهي

تحاول أن تغير مجرى الحديث :

- ما أحر انباء الكاتبين "ميخائيليس" ؟! منذ ايام طويلة وأنا لا اراه !

وقالت زوجة الكاتبين :

- بخير والحمد لله . ولكنه يغادر البيت في ساعات الفجر الاولى ولا يعود

إلا في الليل . فكيف تتوقعين أن يراه أحد ؟

ثم تنهدت .. واخذت إلى الصمت .

والحق ان الامور بالنسبة للكاتبين "ميخائيليس" كانت تسير على مايرام

وإن كان العالم كله يبدو بالنسبة اليه ضيقاً وكانه السجن .. كان يصلصل

القيود التي تكبله . ويمتلئ صهوة قوسه متوغلاً بها عبر الحقول إلى بيت

"نورى بك" الزيفى الذى تحيط به أشجار الزيتون والسرو .. فيحس بقلبه

يختلج داخل صدره ويغمغم قبل أن يعود أدراجه
- الصبر ... الصبر ياقلبي ، لاتكن هكذا عجولاً ، انتظر حتى تتحسن
حاله .

وفي الليل كان يأتيه "على آغا" معفر الوجه والثياب قادماً من بيت
"نورى بك" الريفي يحمل لخر الأبناء :

- اليوم .. حاول أن ينهض ولكن الألم غلبه فعاد يتدحرج فوق فراشه -
اليوم ... نهض ، وساعده خادمه المغربي على الخروج إلى الفناء ، وقد
ولفت انا في الركن خلف البئر وانا اشاهده .. بحق ديني يكاينتن إننى لم
اعرفه لأول وهله . إنه صاحب الوجه .. نحيل ! أين نهيت هذه الخدود وأين
ذهب الشارب المشذب الأنيق ؟ إن النجاعيد لتملا بشرته - اليوم ، خرج
إلى الفناء دون مساعدة الخادم المغربي ، وقد وقع بصره على فاتجعت
نحوه أحبيه ، ولكنه صرفنى - لم يكن يريد أن يتكلم . وقد خرجت لتوى -
اليوم ، غابته خادمه على أن يعتلى صهوة جواده وخرج معه فى نزعة وكان
الخادم يجرى خلفه حتى يتلقاه إذا هو أغمى عليه وسقط من فوق السروج
... وكان الجواد يسير فى حرص شديد كأنما يفهم كل شيء .

وأخيراً - وبعد أيام وأسابيع - جاء "على آغا" إلى الكابتن
"سيخايليس" وهو فى دكانه وكانه ينتظر وسط الظلام ، وقال الرجل
العجوز :

- إنه بخير الآن .. فقد غادر "مصطفى بابا" البيت وقال لنورى بك إنه
لم يعد فى حاجة إليه ، إن الباقى بين يدي الله . وقد خرج اليك بعد ظهر
اليوم فى جولة فوق صهوة جواده دون أن يصابحه الخادم المغربي .
- وكيف يبدو ؟ صحيحاً معافى كما كان ؟ قويا ؟ خطاه ثابتة ؟
- إنه لا يزال صاحب الوجه يكاينتن .. اصفر كالليمونة .. مكتئب . صامت
دائماً إنه لا يتكلم - قالت لى المربية العجوز إنه لا يشرب ولا ينام .. يتهدد
دائماً .

وعندما سألت الخادم العجوز أمس عن موعد عودة أمينة هانم إلى
الصيغة تثبتت بالدرابزين حتى لا يسقط فى إغماءه . وظل يحدق بالخادم

العجوز دون أن ينطق بكلمة .
- انت تتكلم كثيراً يا على آغا .
ولكن "على آغا" ظل واقفاً حيث هو .. يريد أن يقول المزيد ، ولكنه
تردد :

- لماذا تهرش رأسك ؟ ألا يزال لديك المزيد ؟

وانفجر "على آغا" من جديد :

- إنهم يقولون يكاينتن ...

- تكلم ياغبى ! .. علام انتقدك أجرك إذن ؟

- إنهم يقولون إن المسكين أصبح خصياً .

- ماذا تقصد ؟

- إنه لم يعد رجلاً ، وقد علمت بذلك أمينة هانم .

- أخرج ...

واستدار "على آغا" يتعثر بين حبال السفن وأوعية الطلاء وخرج من
الدكان .. ثم مالبت أن اختفى .

ونهض الكابتن "ميخايليس" واقفاً .. ثم سحاح وهو يروح وييجى . وبسط
ظلام الدكان :

- لا يجب أن يكون هذا صحيحاً ! - أنا لا احتمل ذلك ! .. ليس هذا
ممكناً .

لم يكن يتصور أن رجلاً يمكن أن تصيبه هذه المصيبة ، وظل يردد
لنفسه ويعيد وهو يعرض على شاربه فى تشنج :

- مستحيل ! ولكن ماذا لو كان هذا صحيحاً ؟ ماذا لو كان صحيحاً ؟

كيف إذن يمكن أن أخذ بثأرى من رجل خصى ؟ أى صنف من النار يكون
هذا ؟ وماذا يمكن أن يعنى الموت بالنسبة إليه ؟

وفجأة وصل إلى قرار : سوف أذهب لأرى بنفسى !
وانتظر بضعة أيام . فلا بد أن يستريح الرجل فترة أطول ليستعيد قوته
القديمة .

وفي صباح يوم من أيام الأجداد ، امتطى صهوة فرسه وانطلق عبر السهول العمتد والمستورخى تحت وطأة قبض الصيف ، وحقول الكروم مثقلة بالعناقيد ... والشمس تتوهج في كبد السماء وهمس الكابتين : "الصيف - والكروم ، والحرب ... " - "اه ياأمانا التي تعانى!"

كانت روحه تحضن كريت في إشفاق بالغ .. كان يحب كريت كما لو أنها مخلوق حتى داهيء يتكلم أمامه بغمه ويعينيه الباكيتين ، كان يحب كريت التي لا تتكون فحسب من الصخور والسحب والجزور وإنما تتكون أيضا من آلاف الأسلاف من الآباء والأمهات الذين لم يموتوا أبدا والذين يتجمعون في الكنائس أيام الأجداد تمتلئ صدورهم بالغضب يوما بعد يوم ، فيرفعون لواء يندفعون من خلفه الى الجبال : لواء تتحنن فوقه الأم التي لاتموت .. يكتبون هم على صفحته يشعروهم الأسود والرمادى والأشيب في لون الثلج .. كلمات هي أيضا لاتموت :

الحرية .. أو الموت

واغرورقت عينا الكابتين "ميخائيليس" بالدموع - فحين يكون وحده .. فالبكاء لا ينجله وهمس لنفسه - آيتها الأم التعمنة الحظ ... ويريق من خلال أشجار الزيتون البيت الريفي لليك .. واستحث الكابتين "ميخائيليس" فرسه .

فتح الباب ، ودخل الكابتين .. وترجل عن فرسه ثم أجال البصر حوله ، ما أسرع ماتمضى السنون هنا في هذا الفناء بالقرب من شجرة الزيتون هذه المثقلة الاغصان ، ركع الرجلان معا وسالت دماؤهما ، كانا قد اختارا بين الموت والأخوة .. فاختارا أن يمسيحا أخوين . وها هو ذا يعود إلى ذات الفناء بعد سنتين طويلة وكانما عارض الله ما فعلاه .. وعليهما أن يفلت كل منهما صاحبه ..

وهرع خادم تحوه : مرحيا بالكابتين "ميخائيليس"

- أين اليك ؟

- بالطابق الأعلى

- إذهب وأخبره اننى اريد ان اراه .

واشتم جواد "نورى بك" رائحة الفرس ، فأطال يرأسه النبيل خارج باب الحظيرة وبدأ يسهول ، ولكن الفرس لم تستجب له .. فقد كانت حاملا . وعاد الخادم :

- يقول اليك : مرحيا بالكابتين . هلا تفضلت بالانتظار حتى يرئدى ملباسه ؟ ... هل أقدم للفرس بعض الحشائش ياكابتين ؟
- كلا ..

واتجه نحو الناقورة ورفع الكوب النحاسي من الضطاط المعلق فيه .. وشرب وكان ثمة كتابات باللغة التركية حول حافة الكوب - ذات الكوب الذى امتزجت بداخله دماؤهما ، وكان نورى بك قد ترجمها له يومئذ "ارفع رأسك ليها المسافر واشرب - حتى المساجح يرفع رأسه عندما يشرب .. ويشكر الله على نعمته !"

وبرز الخادم مرة أخرى :

- هلا تفضلت بالدخول ؟ - اليك في انتظارك

وشد الكابتين "ميخائيليس" عصابة الرأس حول جبهته وأخفى مقبض خنجره .. ودخل .

كان نورى بك يجلس فوق الجانب الظليل من الديوان وهو في كامل أبهته كعريس في ليلة زفافه ، وكان يعرف الغرض من مجيء زائرته اليه ويشعر بالخجل من أن يبدو أمامه شاحبا مهيبا . لذلك فقد صبغ شاربه ووضع مسحوقا أحمر فوق خديه .. وبعض الكحل في أهداب عينيه كيما تجلوان بريقهما . وكان هو الآخر قد أخفى خنجره في حزامه ..

قال وهو يمد يده :

- مرحيا بالكابتين "ميخائيليس"

ولكن الكابتين كان قد دس يديه عميقا داخل حزامه ، ولم يلمس اليد التي قتلت أخاه - وعاد "نورى بك" يستند إلى الحائط في خجل . ولم يجلس الكابتين "ميخائيليس" بل ظل واقفا يحاول أن يقبس القوة التي بقيت لنورى بك ويبن على أساسها كلماته .

- هل أنت في عجلة من الأمر ياكابتين "ميخائيليس" حتى كنتل واقفا هكذا ؟ وهل قطعت كل هذه المسافة ..

وقاطعه الكابتن متسائلاً :

- الا تستطيع انت الوقوف يا نوري بك ؟ إن الامر الذي جئت من اجله إلى هنا لا يسوى من فوق الدوابن .
- اعرف هذا ، فلماذا تذكرني به يا كابتن "ميخائيليس" ؟ لا تكن عجولاً .
فلنشرب القهوة أولاً .. ثم ندخن سيجارتين .. ونحدث معا قليلاً .. وبعدها يحدث ماتريد يا كابتن "ميخائيليس" ..

كان صوته ينطق بالثعب والمرارة :

- لا بأس يا نوري بك . مادمت تريد ذلك فلن أتعبل الامر .
ثم جلس في مواجهته وهو لا يزال يشمن في وجهه .. بينما تراجع نوري بك اكثر في الجانب الاشد إظلاماً .
- قالوا إنك قد جرحت يا نوري بك - جرماً بالغا ..
- انا بخير يا كابتن "ميخائيليس" .. تماماً كما كنت من قبل . فلا تقلق .

ثم استطرد في تحد :

- مازالت عظامي حيث ينبغي أن تكون ..
- ذلك يسعدني

ثم ساد الصمت ..

وجاءت القهوة . ولف كل منهما نفسه بسيجارة وهما لا يزالان جالسين وسط الصمت .. وقد احنيا رأسيهما . "لقد جاء ليقتلني ويتنقم لآخيه"
كان نوري بك يقول ذلك لنفسه دون أن يخلج له جفن . "إنه يريدني السواد مثل ملك الموت . محيا به ! أى معنى للحياة الآن ؟! إن الحياة والعار سواء الآن" .

ثم قال فجأة بصوت مرتفع :

- مرحباً .. لقد انتظرتكم يوماً بعد يوم ..
وأنا شربت قهوتيكم .. ودفعت سيجارتي يا نوري بك .. ولم يعد لدينا ما نحدث فيه . قف إذن !
- كما تريد .

ووقف البك في صعوبة بالغة وهو يغالط الامم . ثم اتجه نحو المدخل المؤدى إلى الفناء وهو يعرج عرجاً خفيفاً . وسطعت فوقه اشعة الشمس .
وحينما راه الكابتن "ميخائيليس" في ضوء الشمس أحس بالارتياح !
اهدأ هو نوري بك الوسيم : شبيه القمر . اسر تركيا ؟ كانت وجنتاه غائرتين .. وعيناه كابتيتين ، وشفته السفلى متقلصة تنبئ عن ألم رهيب . وخلف الصبغة والمساحيق الحمراء كانت تلوح دلائل الموت . وطلب الكابتن جيبه . كيف يمكن أن أقاتل كسيحاً ! أى عار ! وتوقف في مكانه وقال :

- نوري بك ، انت لا تزال مريضاً .

- هل ابنو امامك شاحياً ؟ .. كسيحاً ؟ تعال ! وسوف تتضح الحقيقة فوق أرض الجرن .

وتقدم يعرج بركبتين مرتعشتين من شدة الألم حتى إذا أصبح في وسط الفناء استدار ، وكان الكابتن "ميخائيليس" لا يزال واقفاً في مكانه يراقبه .

وأحس نوري بك برعدة تملك عليه جسده . إن الكافر يخترق جسدي بنظرته .. ويرفضني ! وحاول عينا أن يتكلم في قوة ولكن صوته ظل كما هو .. حزيباً .

- كابتن "ميخائيليس" .. لقد انتظرتك طويلاً ! - أنت وحدك لاغيرك ..
فهل تريد بعد أن جئت .. أن تعود أدراجك ؟

ولم يقل الكابتن شيئاً .. بل أحس نحوه بإشفاق أكثر ..
- لماذا تنظر الي هكذا ؟! إن المرض قد غاض بوجنتي حقاً .. ولكن قوى لا تزال كما هي . لا تصدق أقواليل الناس يا كابتن "ميخائيليس" . إن قوتي لا تزال كما كانت . تعال وامض معي .

ولكن الكابتن ميخائيليس لم يتحرك .

- هل امرهم بإحضار جوادى حتى ترى كيف استطيع أن امش على صوته ؟!

هل اطلق غدارتي على هدف .. فارسم إذن دائرة .. وسوف أصوب رصاصي إليها .. تعال معي إلى أرض الجرن وسوف ترى هناك من الرجل .

ودفع عصاها رأسه إلى جانب .. ووضع يده فوق غدارته متحدياً .. ولكن العرق البارد تصعب من جبهته .. وأحس بأحشائه تضطرب وامتلا قلب الكابتن "ميخائيليس" بالاشفاق .. وقال في هدوء :
- ثوري بك .. الكلام بصوت مرتفع سوف يتعبك .. عد إلى الداخل .

وفجأة إنحدرت دمعان ثقيلتان من عيني ثوري بك وهو يستدير متجهاً نحو الباب الخارجي ليخفي ألمه "إنه حزين من أجل .. كم انحدرك الحال يا ثوري بك .. أنت لا تشي الآن إلا الشفقة !
وعاد الكابتن "ميخائيليس" يقول :
- عد إلى الداخل .. ولنؤجل الأمر إلى وقت آخر ..

وكف ثوري بك عن التظاهر ، وهمس لزارته في نظرة واجمة :
- كابتن "ميخائيليس" .. لقد جئت لتقتلني .. فلماذا لا تقتلني ؟
- هيا إلى الداخل يا ثوري بك .. أخشى أن بسمعا أحد .
ثم اتجه إليه . وأمسك بذراعه فأحس لحظتها كيف يرتعش جسده الواهن . وعاد ثوري يقول في أنين :
- أنت شقيقي بالدم . لا تنسى ذلك . نحن مرنجان دماغنا هنا في هذا البيت . وإنني لأتوسل إليك الآن أن تسدي إلى معروفاً ! افتتني .

وأجاب الكابتن :

- لا تغضب يا ثوري بك .. يوم آخر .. - أنت تشعر نحوي بالأسف ؟
ثم جلس فوق الديوان .. في الجانب الأكثر إنظلاماً . وعاد يسأله :
- أنت تشعر نحوي بالأسف ؟

ولكن الكابتن "ميخائيليس" لم يجيبه . فلم يعد يحتمل بلواه أكثر من ذلك . إنها لتشده بعيداً . ماذا بقي لديه ليفعله في هذه الإقطاعية التركية ؟ ليس هناك الآن حساب . يمكن أن يسويه مع هذا المخلوق العنسى . وماذا يمكن أن يعنى الموت بالنسبة له الآن ؟

ونفض وافقاً وكانت الشمس قد غابت .
- إلى اللقاء يا ثوري بك .. أنا ذاهب الآن ..

ويرد المكان صوت البك وكأنه قادم من مكان سحيق .. يقول في شك :
- معك حق يا كابتن "ميخائيليس" .. في رعاية الله .

ووقف الكابتن لحظة يتطلع إلى الرجل ويتذكر وسامته السابقة .. وقوة احتماله البطولية وسجايه .. وضربات حوافر جواده التي تطلق الشرر وهو ينهب به الطرقات تهباً ..

وعاد صوت البك يتردد مرة أخرى :
- كابتن "ميخائيليس" . إذا رأيتني رجلاً في يوم من الأيام فأمد لي يدك .. وإن لم تكن .. فوداعاً .

ومد الكابتن "ميخائيليس" يده .. وشد .. في رفق حتى لا يؤذييه - على اليد الممتدة إليه . وقال :
- في رعاية الله يا ثوري ..

- ربما يعنى ذلك وداعاً إلى الأبد يا كابتن ميخائيليس . هل تفهم ما أعنيه ؟
- أفهم ..

ثم اجتاز المدخل . وأحس هذا الوحش المفترس فجأة بتصلب شديد ومؤلم في عنقه .

وانتظر ثوري بك وهو جالس في مكانه من الديوان . يرهف السمع إلى وقع حوافر فرس "الكابتن ميخائيليس" فوق الصخور .. حتى ساد الصمت . وكانت أشعة الشمس الغارية تتسلل إلى الصخرة وتلون جدرانها باللون الذهبي .. ثم مالبت أن اختفت .. وساد الظلام .

وانسل في بطنه متجهاً نحو المرأة حيث اغتسل أمامها بالصابون المعطر بالعسك . واستبدل قميصه بأخر نظيف . ورش ثيابه كلها بزجاجة صغيرة من عطر اللاوندا . وأمضى وقتاً طويلاً يصف شعره . ثم خرج إلى الحظيرة وظل يربت جسد الجواد في رقة .. وأحس الجواد عنقه ومريقه في اشتياق فوق رأس سيده وعنقه . ثم أخذ يصهل في بهجة

الفصل الثامن

في الصباح الباكر من اليوم التالي ، وعندما فتحت بوابة "كلنيا" وصلت إلى المدينة أثناء سواد . لقد وجد "نورى بك" ميتاً في بيته الريفي ، وبدأت المقاهى التركية تبع بنطين كلنين النحل ، وأكد البعض في صباح مرتفع أن اليونانيين هم الذين اغتالوه ، بينما قال البعض الآخر إنه انتحر . وأقد أدى هذا الحادث بالمؤذن في المسجد إلى أن يفقد أثراته في حديثه ، كان كل ما استطاع أن يفعله هو أن يصيح بقم بلاؤه الزبد - "مذبحة الكافر ! .. محمد ا" . أما اليونانيون فقد تركوا أعمالهم وبدأوا يتداولون الأمر في بيوتهم طوال اليوم في مجموعات من اثنين أو ثلاثة .

كان الأمر يندّر بالسوء ، والوجوه مضطربة ، وكان الجنود يحملون أسلحتهم فوق اكتافهم ويجوبون الشوارع والأسواق في صفوف - ويظهر الباشا شخصياً في المدافن لكي يشهد دفن "نورى بك" . وسار المؤذن خلفه ، ووراء الاثنين جمع صاحب من الأعوات المسلحين ، حتى العربي "سليمان" كان حاضراً يرافق الباشا الذي أطلق من قيوده الحديدية بعد أن اكتمل بصراخه وصياحه . وحمل الخدم الجثة إلى القبر . وتبعهم جواد "نورى بك" يبطاً الأرض في خفة وهو يسهل وقد فتح عينيه على اتساعهما وأخذ ينفث الهواء بمخاريبه .

وتجمع الأتراك في مكان الدفن ، وتلا الإمام كلمات الأخيرة في صوت رتيب وهو يودع الميت العالم الآخر ، ونزع المؤذن عصاها الرأس البيضاء الملوثة بالدماء عن جبهة الميت ودسها في ملبسه ، وأستودع الكل في خشوع "نورى بك" الذي دفن إلى جوار أبيه . ثم أعطى الباشا إشارة

وتغمم اليك وسط دموعه :

- وداعاً باطللي العزيز .

والمرتقا - وعاد هو إلى حجرة نومه ، وأخرج ورقة وبدأ يكتب :
"حينما أموت - فإننى أطلب أن يقتل جوادى فوق قبرى" ... ثم وضع خاتمه أسفل الورقة .

وانحنى فوق ركبتيه فوق السجادة الانضوية الأثرية التي كان أبوه يصلى فوقها سبع مرات في اليوم متجهاً إلى "مكة" ، واتجه ببصره عبر النافذة إلى السماء المتلألئة بالنجوم ، وهبت لحظتها ريح قوية .. وعوى كلب في الحظيرة ، ومن بعيد تناهت أغنية لسانق عربة يث فيها حديثه إلى زوجته .. ولحظتها فكر نورى بك في "أمينة" ، وأغلق عينيه .. وتنهى بعمق :
- أيتها الدنيا الخائنة .. وداعاً !

ثم أخرج خنجره ذا المقبض الأسود ورفعه في الهواء عالياً .. وبكل ماتبقى في جسده من قوة .. غرسه في قلبه .

ليقتربوا بالجواد من القبر وهو يحمل في يده الورقة التي سلمها اليه خادم
"تورى بك" .. وقال :

- "ايها الاغوات ، في يدي الآن ورقة مكتوبة ومعمورة تحمل اخر وصية
للमित - فاستمعوا جيدا !"

ورفع الورقة ليقرأها في الضوء : "عندما اموت ، فإني اطلب ان يقتل
جوادى فوق قبرى"

وذهل الاغوات ، وظلوا يحدقون في الجواد الذي اخفى راسه فوق القبر
حتى لامس عنانه الأرزق الأرض ، وهو يتشمم التراب .. ثم يبدأ بعد ذلك
بنداء سيده الذي وورى التراب في سهيل حزين .

وسمعت اصواتاً من كل ناحية : إنه عمل لا يرضى عنه الله ولا الناس !
وقال الباشا معترضاً :

- ايا كان الأمر ، فهذه وصية الميت . إن الأمر يمرق قلبي أنا ايضاً -
والله يعلم ، ولكنها وصية الرجل الميت - أن يذهب جواده معه - ولو كنت
مكانه لافعلت نفس الشيء - من منكم إذن يقضى قلبه ويستل سكينه ؟

ولم يتحرك واحد منهم من مكانه وكانهم جميعاً تحولوا إلى تماثيل من
الحجارة .. وظلوا يحدقون في دعر وإشفاق بجسد الجواد الممشوق الذي
يلمع تحت أشعة الشمس - إنه ليس رجلاً يونانياً ولا توراً أو خروفاً سهيل
ذبحه هكذا لقد كان زينة الدنيا وفخر ميجالوكاسترو ، وكان الخبراء يأتون
من "ريشمو" و"كانتيا" ليشيدوا معه - فمن ذا الذي يستطيع ان يرفع
سكينه على هذا العنق ؟

وزفر الباشا في غضب :

- من منكم على استعداد لأن يستل سكينه ؟

وكرر السؤال مرة أخرى وهو ينظر حوله .

ولكن أحداً لم يتحرك من مكانه ، بينما كان الجواد قد تقوقع فوق القبر
وهو ينخر في فزع وصهيله يرتفع كما لو كان صوتاً أدسياً ينبد إنساناً
ميتاً .

واستدار الباشا إلى خادمه العربي :

- سليمان .. أنت الذي ستذبحه !

واستل العربي سكينه وتقدم إلى الامام خطوة .. ثم تعثر وسقط على
إحدى رجليه بينما نهض الجواد وحدث فيه دوتماً صوت . وتردد العربي :

وصاح الباشا أمراً .. والدموع تجول عينيه :

- تشجع يا سليمان .. أعلق عينيك واقفز فوقه !

وركز الجميع نظراتهم فوق العربي ، وانغمم واحد منهم وعيناه تطلقان
الشعر : "إذا ذبحه ، فإني اقسم بجسد أبي ان أسحقه .

واقترب العربي من الجواد وقد رفع سكينه وبدأ يطلق اللعنات ويتوعد
حتى يبيث في نفسه الجزاء - ومرة أخرى اخفى الجواد عنقه وصهل في
أسي . وسقطت ذراع العربي إلى جانبه .. وصاح في فزع :

- لا استطع يا الفندينا الباشا .

وارتفعت صيحات الاستحسان والارتجاج :

- براقو يا سليمان .

وعاد العربي يصيح :

- لا استطع .

وصاح الاغوات :

- خذ الجواد لك أنت يا الفندينا الباشا ، ابق على حياتك إذا كنت تؤمن
بالله !

وقال الباشا وهو يحدق في الجواد الشهير ياشتيق :

- لخاف الرجل الميت ..

ورفع يده ليربت على ظهره ، ولكن الجواد تعهر مهدداً .. ولم يدع أحداً
يقترب منه ، وقال الباشا :

- فللذهب إذن ، ودعوه حتى يهدأ حزنه فوق القبر . فإن له روحاً مثلنا -
وبعدنا لا تفلتوا ، فسوف يستبد به الجوع . وسيبلى خادم المرحوم

المعزى قريباً من هنا ليراقبه ويقدم له العلف والماء ، وعندما يهدأ ..
فسوف يحضره إلى ..

وتحرك الكل تجاه المدينة وفي مقدمتهم الباشا وهو يحس بالارتياح ..
لقد كان الله عظيما وكريما وصديقا للباشا ! كم كان يتوق الى هذا الجواد !
لكم اشتاق الى ان يعتمر صهوته بين ركبتيه ويتذكر ايام الشباب ! ولو
وهو كل نساء ميجالوكاسترو وخيروه بينهن وبين هذا الجواد لاختار
الجواد نوبتهن جميعا . ولتذهب النساء جميعا الى الشيطان " وها انت يا
إلهي .. ياما اكرمك ! انت قتلت نوري بك .. وقدمت لي هذا الجواد هدية
منك !

واجتاز الجميع التحصينات القديمة خارج ميجالوكاسترو حيث زرعت
المنطقة بالخضراوات وأشجار الفاكهة - ولاح تمثال لاسد فينيسي احمر
فوق القلاع الصخرية .. يريق تحت اشعة الشمس .. وكان شمة سرب من
الغربان عائد في صمت من مسيد يوم ليستقر ظل اطلال الأبراج .. ويدت
ميجالوكاسترو في سكون المساء .. وتناهت من بعيد اصواتها المنتظمة
بزئير البحر .

وتوقف الباشا . وقال للأغوات الذين تجمعوا حوله :

- تذكروا جيدا . إن مصير كريت يتعلق في شعره . إن نوري - واقسم
بالله - هو الذي قتل نفسه . فلا تجعلوا منه لواء ترفوعونه إيداناً بحملة تركية
لا تعنى سوى بداية جديدة لمذبحة - واقسم بالنبي إنني سوف لا أشق
الكفار وهدم فوق الشجرة العارية - وانتبهوا الى كلماتي جيدا -
المسلمون ايضا سوف اقبل بهم نفس الشر - فحذار !

ثم صاح - " هيا ياسليمان "

وتابع المسير وهو يتنفس بعمق .. وإلى جانبه خادمه العربي
وهو المؤذن راسه - وتبادل الكبار نظرات خاطفة - إن الباشا رجل لا
اصل له - يوناني ابن زنا - فإني مصلحة له إذن في كريت ؟ وهل هناك عرس
اناضولي لاتدبح فيه بعض الخراف ؟

ولم يكن الباشا قد اختفى بعد وراء بوابة القلعة حين أخرج المؤذن من
ثيابه عصابة رأس نوري الملونة بالدماء .. ورفعها فوق طرف عصاه
وصاح :

- سحقاً للكفار ! بالولادي . الا سحقاً للكفار !

ومع هذه الصيحة المحمومة جعل نفسه على رأس هذا الجمع من
الأغوات . وكان شمة رجلاً مسيحيان في الخندق يخرجان الماء من النافورة
ويسلان مواشيهما - وصاح المؤذن :

- هلكم اثنان منهما .. إليهما يا فرسان !
واستل اثنان من الأغوات
خنجريهما .. وعاد المؤذن يصيح :

- وبركاتي معكم !

وانحدر الاثنان عبر زهور عباد الشمس حتى وصلا الى النافورة .
وأسكبا بالعجوزين الضئيلين . وأحنيا راسيهما إلى حافة النافورة ..
ومالبت الرأسان أن تدرجرا إلى داخلها .

وصاح المؤذن :

- إلى الامام يا اخواني !

ورفع عصاه .. وانتفضت الراس الدامية برياح البحر .. وانفدعت
الجماعة داخل ميجالوكاسترو .

أما المسيحيون الذين تناهت الى اسماعهم اصوات الجنائز العائنة ..
فقد بدأت قلوبهم ترتعد بشدة . فأسرعوا بإغلاق نكاكينهم ومتاجرهم
ومرعوا إلى بيوتهم يستمون خلف أبوابها .

ووقف المؤذن امام المقهى التركي عند بوابة "كانيا" .. ورفع عصاه
وهو يصيح :

- يا الله .. يا الله ! .. دع الكفار يذوقون طعم خناجرك !
ولكن العجوز .. "سليم آغا" . وبعض العقلاء من اصحاب الاملاك .
انخلوه إلى المقهى وطلبوا له قهوة وحلوى تركية ونرجيلة لكي يهدتوا من
ثأرتة . ثم مالثوا أن أرسلوا في طلب "الفندينا" واجلسوه فوق مقعد في
منتصف الحجرة ليبدأ في حكاية عن النساء والصبية نوري الملاحة - حتى
يصرفوا ذهن المؤذن عن الدماء والمذابح .

ومرت بضعة أيام .. في كل ساعة منها يرتعش الكريتيون من فكرة أن يبتئوها يوماً في الظهيرة فيجدوا أن بوابات القلعة قد أغلقت وأنهم أصبحوا كالصيد في الفخ .. ولم يكن ثمة كثيرون منهم . وكان يعقود الأتراك بأغلبتهم الساحقة في المدينة أن يبدهم عن بكرة أبيهم .

ثم ما لبثت أن بدأت أحداث جديدة . فقد اقتحم الأتراك أبروشيه "أجاراڤو" وقتلوا "أبوت أجاتانجيلوس" الشجاع . هبطوا عليه كالليل وهو ينام فوق سطح الأبروشيه بعد أن عاد من "ثراساموس" ليفتح كنيسة ويباركها .. وبعد أن أكل وشرب كثيراً . نام فوق السطح نوماً عميقاً لم يستيقظ منه أبداً . فقد فصلوا رأسه عن جسده وهو نائم . وقادت جريمة إلى أخرى . فبعد أربعة أيام . هبط ابن عم "أجاتانجيلوس" - وهو قسيس من "فرونديزي" الأبروشيه المعروفة عند سفح جبل "سيلوريتيس" - .. هبط إلى قرية "سيروس" التركية وقتل الأغا التركي السفاح الذي كان قد انتهى لونه من ربط اثنين من المسيحيين إلى رأس البئر في حديقته ليديرا جعلتها .

وسرى الرعب بين الأتراك في القرى اليونانية . وحملوا حميرهم وبغالهم بكل ما أمكنهم حمله من الأهل والبضائع - الملابس والخناص والأواني - ومن الحرير والأطفال والرضع في ثيابهم الغالية .. وأسرعوا هاربين في اتجاه ميغالوكاسترو ليكفوا في حماية الجنود الأتراك . كذلك فزن المسيحيين المسالمين والمذمورين فرعوا هاربين بدورهم إلى أسرهم وأموالهم في الجبال .

وكانت نهاية فراسة الباشا . لقد وجد نفسه لأول مرة أمام ثورة كريتيّة . ولم يكن بالرجل الذي يستطيع أن يواجه مثل هذه الزلزلة . كان انشغولياً طيباً من "بروسا" يجب للوهو والطعام ويعشق النوم . فلماذا بحق الشيطان يتشاجر هؤلاء الكريتيون ؟ ولماذا الآن بالذات .. وبعد أن وضع يده على جواه "نوري" الشهير ؟ كان يريد أن يطعمه السكر ويسقيه الماء بيديه حتى يألفه . وما هي ذى الملعونة "كزيت" ثنور ! ولم يكن يدري ماذا يمكن أن يفعل .. ولقد ذهب إلى المطران وقال متوسلاً : "يا أفندينا المطران .

اعن الصيام . وقل إن الذي يقتل رجلاً تركياً فلن يجد السلام في قبره" .. ثما ما لبثت أن اتجه إلى القرى التركية : "لاتهوريا وتركوا ميوتكم أيها الحمقى" وصاح فيهم بأعلى صوته : "أقسم لكم إن أنفاً واحداً من أنوفكم إن بدسى . لقد بعثت بتقرير إلى القسطنطينية ولن تلبث القوات التركية أن تسفل لإقرار النظام" .

ولكنه لم يتمكن من إيقاف النار بهذه الكلمات . ففي ذات الأحد . وصلتته أبناء جديدة : "لقد أشعل الكابتن تيودورس ظهر اليوم النار في قرية تركية بمنطقة لاسيئي" .. وانطلق الأوغوات الكبار ثائرين مدججين بالسلاح . إلى الباشا : "يا أفندينا الباشا . إن العصيان ينتشر . وقد فقد الكفار كل إحساس بالحيول . إنهم يحرقون قرانا . هل علمت بما حدث في لاسيئي ؟"

وقال الباشا وهو يداعب حبات المسيحة في ضيق :
- ومن يكون هذا الكابتن تيودورس ؟ .. إنها أول مرة أسمع فيها باسمه .

وقفز آغا بيتروكيقالو :

- إنه مجرد غلام من جنس ملعون ! إنه ابن مانوساكاس الذي جعل نوري خصباً ! وعمه هو ميخائيليس . الكابتن الذب الوحشي . إن هذا الغلام قد بلغت به الوقاحة إلى حد أن يهاجمنا ! وإذا لم تقبض عليه وتقطع رأسه . فسوف نقوم نحن بدورنا بحرق الحي اليوناني في ميغالوكاسترو . هذا ما تريد أن نحيطك به علماً يا أفندينا الباشا . وفكر كيف ستوضح الأمور بعد ذلك للسلطان !

وصاح الباشا :

- بحق الرسول لاترتكبو هذه الحماقة أيها الشباطين ! إن رأسي يدور ! وإذا سمع السلطان بما فعلتموه .. فهي نهايتي !
- فاقبض إذن على تيودورس وضعه في آلة التشهير . فإن لم تفعل أحرقنا نحن ميغالوكاسترو .
- وكيف أقبض عليه ؟ أين هو ؟
- في جبال لاسيئي . أرسل الجند وراءه .

وارسل الباشا الجند الذين بدعوا ييوسون خلال المنطقه - وانتهى امر محاولتهم إلى تيودورس الذي جمع أصدقائه حوله وكلهم من الفتيه الصغار الذين استبد بهم التماس . وكان تيودورس قد بدأ يغير ياغوات "بيتروكيغالو" ويسحبهم خلفه من جبل إلى آخر .. كانوا قد قسموا على أن ينالوه لينتقموا لدم "حسين" . وكان هو وحده في أغلب الأحيان .. وأحياناً كان يحيط به بضعة من رفاقه نوى الجرامه .. وكثيراً ماكانوا يبدلون في إطلاق النار . فإذا انقلبت الأمور في غير صالحهم هربوا إلى القمم . وكان تيودورس قد حمل معه يندقية آبيه وانتعل حذاءه وعصب رأسه بعصايته التي كانت لاتزال تحمل اثار عرقه . وكان يحس بأنه هو وابوه الشهير شيء واحد . وإن رجولة آبيه قد انتقلت اليه عبر ثيابه وأن آباءه بالتالي قد عاد من جديد . الأب والابن أصبحا الآن شخصاً واحداً .. وأصبح هو مع الأيام - تيودورس - أشد صلابه وأكثر نضجاً وأصبحت لكلماته وزنها .. وأصبحت لأعماله هي الأخرى وزنها .

ويوما بعد يوم ازداد التفاف اليونانيين حوله .. وخاصة في تلك الأيام القاسية التي كان الجنود فيها ييوسون خلال الجبال . كان ثمة عشرون فارساً قد استجابوا لندائه .

صاح تيودورس :

- إن تركيا تريد دعائنا من أجل هذا أتاديكم ياخوتي ! هل تعرفون ماذا حدث !؟ إن الشرارة قد انتقلت من القرى إلى ميجالوكاسترو . ولسوف تنتقل من هناك إلى "ريثينو" ومنها إلى "كانيا" وأن هو إلا زمن قصير حتى تشتعل كريت كلها . فلا تقفوا شجاعتكم ! تذكروا فقط أن هؤلاء الكلاب لا يقتفون مجرد اثر قاتل - وحتى لو أنهم استطاعوا الإمساك به . فإنهم لن يلقوا بعد ذلك بأسلحتهم . إن فريستهم هي المسيحية ذاتها ! ولقد كان أجدادنا وأباؤنا يعرفون ذلك . والان جاء دورنا نحن - قبل أن اهرب . فتمت خزائنه آبي وأخرجت منها راية كتبت عليها : "الحرية أو الموت" ... من أجل الوحدة مع اليونان ! ..

ثم نشر الراية .

وعندما سمع الباشا بذلك انتابه الغضب الشديد . وأسرع يبحث عن المطران . لايد لأب هؤلاء الكفار من حساب يسوى معه . واصطحب معه خادمه العربي وظل يفكر في خطه السوء طوال الطريق . لم يكن قلقه على كريت هو كل شيء .. فقد حملوا اليه صباح اليوم خبراً سيئاً . لقد جاء خادم ثوري بك يلهث .. قادمأ من المقابر : "ياأفندينا الباشا . الجنود ميت فوق قبر سيده !" - "الم تطعمه وتسقيه ؟" - "بل قدمت له الطعام والماء بأفندينا الباشا . ولكنه آبي أن يلعس شيئاً . أراد أن يعوت ياسيدي .. وقد مات .."

وارتفعت الشمس في كبد السماء . واشرب الموزن بعنقه من فوق المنارة وأذن للصلاة . وكان المطران ساعتهما يجلس فوق الديوان العريض ومسبحته بين أصابعه يتحدث إلى "حاجي سافاس" في صوت خفيض وهو يفكر في أيام الشباب أيام كان "أرشميندريتا" في "كريف" وممثلاً للمصريح المقدس .. كان رأسه الذي يشبه رأس الأسد .. يفكر في روسيا . كم كانت بلداً باركة الله - أي غلال . وزيد . وسماك ملح . وكأقبار ! ثم هذه القباب المذهبة في قمم الكنائس .. وهذا المذبح الفضي وذاك . واللاكيه والياقوت تزخرف الأناجيل ! "إنني لا أخشى شيئاً يا حاجي سافاس .. طالما أن روسيا قائمه . ولسوف تفتح فمها يوماً وتبتلع تركيا . ويومها سوف تزي كريت الحرية . لا أمل لنا في غير ذلك .."

ولكن "حاجي سافاس" كان ينظر عبر النافذة غائباً الذهن . وهبت ريح حارة .. كان قد هبط منذ أيام إلى أرض آبيه بالقرب من "أجا - أيريشي" على مسافة ساعة من ميجالوكاسترو .. وقفزت الي ذهنه فكرة - لعلها كانت أشبه برسالة من الله . ولعلها فقزت فحسب من خلال الأيام الخوالي التي كان يدرس فيها - ... فكرة تقول ! إن هذه البقعة من الأرض تخفي تحتها آثار مدينة قديمة شهيرة . وهناك . في الحقل والي شفة غدير . كان يندس الأرض بظرف عصاه الحديدى .. وتكشفت الأرض فجأة عن شيء يتدحرج .. عن خاتم ذهبى ! ..

ولقد اطلع العطران على الخاتم . وكان ثمة نقش فوقه : إمرأة ذات

أرداف ثقيلة تمسك بيدها فأسأداً رأسين . وإلى جوارها رجل عار ممشوق القوام - مثل أبناء كريت في هذه الأيام - وقد رفع قدمه وكأنه يرقص . وفوق الاثنين كان ثمة قمر في نصفه .

قدم الخاتم للمطران وهو يقول :

- بحق الرب ياسيدي إلا أخفيت هذا الخاتم . لا ينبغي أن يعلم أحد بأمره . كم من الكثور لا يد وإن الأرض هناك تخفيها ، وكم من حلى ذهبية للأقدمين ! ولكننا عبيد . ولو أننا كشفنا سرها لسرقها الأتراك . فلتصير إذن . وما إن تتحرر كريت حتى يجرء يوناني آخر ليقب عن المدينة القديمة ويحظى بالشهرة .

وهذا المطران رأسه . ذلك كله كان شيئاً طيباً . ولكن ما أكثر الأرواح التي هو مسئول عنها . وماذا تمه هذه الأشياء التي تدفنها الأرض منذ آلاف السنين ؟ كان يستمع إلى "حاجي - سافاس" في أدب . ولكنه كان يحاول أن يدير دفة الحديث مرة أخرى إلى كريت الحاضرة .. وإلى موسكو .

وقال "حاجي - سافاس" :

- تياقنكم تنتظرون الحرية من موسكو ؟ .. ولكن الناس هنا ينتظرونها من فوهات البنادق .. ولنا انتظروها من هذا الخاتم الذي تحتقره أنت ياسيدي .

وفتح "موريفلوس" الباب .. وقال :

- الباشا .. ياسيدي المطران .

وضحك "حاجي - سافاس" بشده :

- ألم يعرف هذا الأناضولي الكريتين بعد ؟

ثم قبل يد المطران واختفى عبر باب جانبي .

وصاح الباشا في غضب بمجرد أن دخل

- يا أفندينا المطران .. الحق أنني لا أفهم ! إن الكريتين قد رفعوا الأعلام يطالبون بالحرية . أية حرية ؟ أنا لا أفهم . إذا كنت حقاً تطيع الله الذي تؤمن به وتعمل بما يأمر به ، فهل ترفع علماً وتطالب بالحرية ؟ .. بالطبع لا .. لا ! . أوليس ذلك يصدق أيضاً على ظل الله في الأرض ..

السلطان ؟! أية لعبة شيطانية هذه التي تجرى إذن في كريت والتي تسلبني الراحة والسلام ؟!

وسأله المطران بدوره :

- وماذا يحدث إذن يا أفندينا الباشا إذا كنت تطيع إلهاً لا تؤمن به ؟ إن أبناء كريت لا يؤمنون بالسلطان . من أجل هذا فإنهم يشعرون بأنهم عبيد .. ومن أجل هذا أيضاً يبحثون عن الحرية .

ويضع الباشا يديه فوق خاضرتيه - لم يكن قادراً على أن يفهم ذلك ، فضرب الباب بقدمه وخرج . وهناك - في بيته - جلس إلى جوار النافذة وظل يحدق من خلال منظار مقرب صغير في اتجاه البحر ليبري ما إذا كانت السفن التركية التي تحمل الجنود .. قد ولت . ذلك وحده كفيلاً بأن يجعل الأمور كلها واضحة ويأمن بعيد النظام .

انتظر الكابتن "ميخائيليس" خلف الباب وقد حبس أنفاسه وهو ممسك بعذارتيه . كان يبحث بزوجه كل مساء وهي تحمل طفلها في يدها .. ومعها "ثارساكي" و"ريتو" ليقتضوا الليل عند زوجة أحد الجيران . ويبقى هو وحده داخل البيت . ولكنه قال "لثارساكي" بعد بضعة أيام : "سوف تبقى هنا معي ، فلا بد أن تعتاد ذلك" . وهكذا كان الأب والأبن يبقيان معاً . وظل اليهود سائداً بضعة أيام أخرى .. وأصبح في مقدور الكابتن "ميخائيليس" أن ينام فوق سريره .. بل إنه كان يستمتع بالراحة في يوم الأحد ذاك . وبينما كان مستغرقاً في تأملاته .. تناهى إليه صوت ضربات ثقيلة فوق باب الدار . وأحس بأن أحداً قد دخل ، ثم مالئت الصراخ والعويل أن ملا المكان .. وعرف على الفور صوت العجوز "مارجورا" إحدى القريبات ..

وكان "تيتيروس" قد استقدمها من الريف لتساعد زوجته في شراء ما يلزمها من السوق وفي الطهو ، فقد كان يحس بالارتياح لوجود شخص من اقربائه داخل البيت . وأطل الكابتن "ميخائيليس" من النافذة الصغيرة . وكانت العجوز "مارجورا" تقف في وسط ساحة الدار وتصرخ وتشد شعرها . وصاح امرأ :

- مارجورا .. ما هذا الصراخ ؟! إسعدني !

وقفت "مارجورا" امام سرير الكابتن "ميخائيليس" .. فكافها يرتعشان
وحاولت ان تتكلم ولكن الكلمات اخنقت في حلقها .

وصاح الكابتن "ميخائيليس" :
- ماذا تقولين ؟! .. ديامانديس ؟! .. ماذا حدث له بحق الشيطان ؟!

وقالت المرأة المذعورة :

- لقد مات .. وجدناه الآن فقط فوق سريره . جامداً . إن فانهيليو تصرخ
وتضرب صدرها . لقد هزته .. واخذته بين ذراعيها ، وبيلكت جسده بالزيت
وماء الورد والخل . ولكنه ظل متيبس الجسد ! لقد مات مسموماً .. مات ..
- مسموم ؟! وكيف عرفت ذلك ؟! ومن الذى سمه ؟!
- إن وجهه الأخضر الداكن يؤكد ذلك ..
- إذعبي ..

وقال لزوجته وهو يتهيأ للخروج :

- لاتتبسي ببنت شفة عن ذلك !

ثم اجتاز الباب الخارجى .. وتبع العجوز "مارجورا" .

وعند نهاية الشارع ، وقريبا من نافورة "إيدومينياس" .. كان بيت اخيه
. وبلف من الباب الذى كان مفتوحاً ، وسمع صوت فانهيليو تصرخ وتضرب
صدرها .. أما "تيتيروس" فقد كان في الحجرة السفلى جالساً فوق الديوان
في الركن واسنانه تصطك .

وبخل عليه الكابتن "ميخائيليس" ورفع المدرس عينيه .. ثم مالبت ان
خفض رأسه .

وقال الكابتن "ميخائيليس" :

- انظر الى يامدرس !

ورفع "تيتيروس" رأسه . وبرقت عيناه المذعورتان خلف عوينانه وهمس
الكابتن "ميخائيليس" :

- أنت قتلته .. أنت فعلتها !

- أنا ؟!

- نعم ! لو ان رجلاً آخر هو الذى قتله .. لكان فعلها يسكين . ولكن انت
قتلته بالسم .. فعل الجبناء

- لم اكن أستطيع ان احتمل ذلك اكثر مما احتملته .

- اسمت الومك على قتله أدنى لوم . ولكننى الومك لأنك قتلته على طريقة
النساء .. بالسم ! لاتستطيع ان تنكر ذلك .

وعاد المدرس يقول :

- لم اكن أستطيع ان احتمل اكثر مما احتملت . ولم يكن في مقدورى !
اقطعها بطريقة اخرى . لقد كان هو الاقوى

- وهل تعرف زوجتك ؟!

- ربما ، إنها لاتخاطبني . وعندما اصعد إليها فإنها تدفعني بعيداً . وهما
أنا جالس انتظر .

- تنتظر ماذا ؟!

- لاشيء .. انتظر فحسب .

وخرج الكابتن "ميخائيليس" إلى ساحة البيت . وكان يحيد فوسجيه -
يتناهى رتبياً مثل صوت الماء الجارى .. وعاد الكابتن "ميخائيليس" إلى
الداخل :

- ماذا تنتظر إذن ؟!

وأحس "تيتيروس" فجأة بالبهجة :

- فليحدث ما يحدث ! .. ليحدث ما يحدث ! فلم أعد أخشى شيئاً
- ولكن زوجتك قد تشكوك .

- فلتفعل ما تشاء . لقد فعلت أنا ما أردت . والأمر الآن متروك لها .

- إنهنس . والتزم الهدوء . إذا هي اتهمتك فقل الحقيقة . حتى ولو كان
ذلك يعنى أن تسجن مدى الحياة . فإن لم تفعل .. فلا تقل أنت شيئاً !

ولاجعل الرجل الميت يتقل على ضميرك ! هل تسمعنى ؟! إن الرجل
السوى يقتل مرة وإلى الأبد ! إنهنس !

واوقف أخاه وهو يقول :

- هيا نعد للجنائز !

وعندما حملت الجثة خارج البيت فى صباح اليوم التالى . لم ير أحد وجه الرجل الميت . فقد كانت مغطاة بالزهو التى أفرغت منها "فانجيليو" حديقته الصغيرة . كما أن زوجات الجيران كن قد بعثن إليها بالكثير من باقات الورد وزهور البارزلاء وكان الكابتن "بوليكسيجيس" - عم الميت - هو الوحيد الذى أراح الزهور جانب والى نظرة على وجه الرجل الميت . وحين رآه منتفخاً أسرع فغطاه من جديد . ثم حذج "تيتيروس" بنظرة حادة وهو يلقف فى مواجهته .

وعندما أبصرت "فانجيليو" بالقسيس داخلًا . نزلت من غرفة نومها بشعرها مسدلاً . وقلت بنفسها فوق جسد أخيها . ومنعت الكل من الاقتراب منه . وظلت هكذا بلا حراك دون أن تبكى أو تعول كما لو كانت نائمة . وحين تقدم الأربعة الذين سيحملون التعش وأمسكوا بها . لم تبد أدنى مقاومة . بل وقفت وقصت شفاثرها وجذلتها فى شفيرتين كبيرتين وعقدتهما حول يدي الرجل الميت . ثم تركت الأربعة يحملونه فى هدوء .

وحين اجتازوا به عتبة باب البيت رفعت يدها ملوحة بالوداع . ثم عادت إلى داخل البيت وأحضرت كل ثياب أخيها وجعلتها فى كومة واحدة بالفناء وأشعلت فيها النيران . وبعدما قامت بتنظيف البيت . وأصلحت من حالها وجلست فى فناء البيت وعينها تحدقان فى النيران .

وبعد أن انتهت مراسم الدفن عاد عنها الكابتن "بوليكسيجيس" وجلس إلى جوارها وتناول يدها وسألها عما إذا كان أحد يشبه فيمن يكون القاتل . فنظرت إليه دون جواب . بل اكتفت بأن هزت رأسها بيميناً ويساراً وهى تضغط شفتيها فى تحد .

وخشى "تيتيروس" ليلتها أن ينام فى بيته أو فى بيت أخيه . فأغمس ليلته عند صديقه "إيدومينياس" . وظل الاثنان يتحدثان عن الموت والمخلود والروح . قبل أن يستسلم الاثنان للنوم .

ومرت أيام ثلاثة لم تكن "فانجيليو" خلالها تعبيره أى اهتمام حين يمر إلى جوارها وكأنه شبح داخل البيت . وكانت تغلق على نفسها حجرة أخيها

ونضيبه مصباح الميت وتضعه إلى جوار كوب تلوته بالماء الفواح حتى ترتوى روحه إذا أصابها ظمأ . كانت تحلم أن روح الرجل تحوم حول بيته طوال أربعين يوماً . وكانت تحس بهذه الروح فوق شعرها وعنقها ويديها الراعشتين . وكانت تحس بها فى الليل وكانها فراشة فوق شفتيها . ولم تمنحها الدنيا من قبل شيئاً فى مثل ذلك الجمال .

ظلت ثلاثة أيام لاتنطق بكلمة . نظراتها جامدة وعيناها بلا دموع . وهى ترتدى ملابسها السوداء إلا من شريط أصفر تعقص به شعرها .

ولقد توسلت إليها عمته "كريساتى" أن تصحبها معها إلى بيتها الرفيى الصغير القريب من البحر - فقد تغير ذلك من حاله - ولكنها هزت رأسها ... وعادت لتحبس نفسها فى حجرة أخيها . ولم تذهب إلى فيه أبداً كانت هادئة تماماً . وفتشت فى صندوقها وسط دولتها الهزيلة . ثم عادت تنظف البيت وكانها تتأهب لرحلة .

وفى مساء اليوم الثالث قالت للمجوز "مارجورا" :
- اعدى المائدة . وأخرجى العفريش المنقوش . والأطباق والسكاكين والشوك . وقولى لسيدك إننى سأتناول الطعام مع هذا المساء . ولا تضيبنى أبة مصابيح فيما عدا اثنين . مصباحى الموت .

وكاد المدرس يسقط مغشياً عليه من شدة الخوف حين رأى مصباحى الموت مضامين . وجلس فوق حافة المقعد دون أن يجرق على النظر فى عيني زوجته التى جلست فى مواجهته شاحبة جامدة كالجثة وهى تتذوق الأطباق دون أن تنطق بكلمة وقد غطت بشرتها بطبقة كثيفة من المساحيق البيضاء كالطباشير وارتدت ثياب العرس ووضعت زهور الليمون فى ثنايا شعرها .

وظلا جالسين هكذا وقتاً طويلاً يواجه أحدهما الآخر دون أن يصدر عنهما صوت . وكان "تيتيروس" يفتح فمه أحياناً ليتكلم . ولكن الكلمات كانت لاتتلى أن تحتبس فى حلقه بينما العرق يتصبب من وجهه . وبدات نسمات المساء تهب عبر النافذة فترتعش لها زوايا لهب المصباحين .

وفجأة مدت المرأة يدها وملأت كأسين إلى حافتهما بنبيذ "كيساموس"
الأحمر والذي كان هدية يوم عرسها من مانوساكاس .. يرحمه الله .

ورفعت كأسها .. ودفعتها في عنق نحو كأس "تيتيروس" فحطمتها وهي
تقول في صوت عميق أجش كصوت الرجال دون أن ترفع كأسها إلى
شفتيها :

- إنني أشرب نخبك أيها القتال !

ثم نهضت .. واثجعت إلى فناء البيت وظلت فيه لحظات قبل أن تصعد
إلى غرفة أخيها لتلقفها عليها . وفي الليل ، لم يسمع أحد صوتاً ، وفي
الصباح وجدوا "فانجيليو" معلقة من عنقها بحبل خشيل يتدلى من سقف
الغرفة .

ووصلت الأنباء إلى الكابتن "بوليكسيجيس" وهو داخل حجرة "أمينة" في
الصباح الباكر . كانت الأملة قد تهيأت لكي تنتصر .. ولكنها فضلت أن
تنتظر حتى يسود الهدوء كبريت ، وحتى لا تثير الاغوات .. وكانت سعيدة
بأنها ستصبح نصرانية يتاح لها أن تخرج لتسير في الطرقات بدون حجاب
وأن تحرق حولها وهي داخل الكنيسة .. وأن يراها الناس ، وأن تداعبها
الشمس ويداعبها الهواء في حرية . وأن ترتدى الثياب اليونانية وأن تظهر
شعرها الأسود لتستمتع الدنيا بمرأة ! كان المسيح بالنسبة إليها باباً تقفحه
وتعبر من خلاله إلى الطرقات بلا حجاب !

وبينما كانت تتأمل وهي مسترخية فوق سريرها إلى جانب الكابتن
"بوليكسيجيس" .. في كل فواید الحياة كيونانية . افتحمت خادستها الباب
مشعثة الشعر ، كانت قد هزعت إلى العواصم الثلاث لتعرف آخر أبناء اليوم
.. ثم ها هي ذى الآن تعود وقد شمل لسانها .

وقالت وكلماتها تتعثر :

- كابتن .. ! ابنة أخيك "فانجيليو" شنتت نفسها .

وترك الكابتن "بوليكسيجيس" يد "أمينة" ونظر إلى المرأة :

- شنتت ١٩ .. متى ١٩ من قال لك ؟

- العواصم الثلاث . الليلة الماضية في بيتها . بحبل الفسيل .

وكانت "أمينة" أثناء ذلك قد تناولت مراتها الدائرية الصغيرة من فوق
الوسادة .. وأخذت تتفحص لسانها وأسنانها ورموش عينيها . ثم قالت :

- وووو ! لساني أحمر هذا الصباح . أين اللبان ياماريا !

وقالت المرأة وهي تبحث عن اللبان :

- يقولون إنها تركت زوجها وثبتت أخاها .

ولحظتها كان الكابتن "بوليكسيجيس" يفكر وهو يتنهد بعمق :

- يالسلطان وما أصابها ! ولا أطفال عندي .. !

ثم انحنى فوق "أمينة" التي كانت تتعلم من جمالها في المرأة ..
وتحسس جسدها في رقبة وهو يقول :

- سوف يكون ولدنا نصف كريتي ونصف شركسي . اعني أنه سوا
يكون خالداً !

ولحس بأن صدره يمتلئ بالثقة وكأنه أدرك تلك الحقيقة لأول مرة .
ونهب ليخرج . ولكن ركبته كانتا ترتعشان .. ومن ثم فقد عاد يفوس في
الفرش . لابد أن ينجب ولداً تجرى في عروقها الدماء الشركسية ..
ليستطيع الوثوب إلى صهوة الجواد قبل أن تمسك بصفتة إلى الأرض !

كان قد حكم منذ زمن طويل بأن هذان الأخ والأخت ، ليسا من جنسه .
كانا أحط من أن يكونا من هذا الجنس : فالأخ سكير عريبيد لا يصلح لشيء .
والأخت امرأة مشاكسة عقيم . ولم يكن هناك أبناء أخ أو أخت غيرهما ..
كان خيط العائلة يوشك أن ينقطع . ولكن هذه الشركسية التي تجلس الآن
وهي تمضغ اللبان وتتظفر في مراتها .. والتي تقوح رائحة المسك من قمها .
سوف تمنحه الولد .. الذي سيصبح رجلاً خالداً - والذي سيبقى على سلالة
الكابتن "بوليكسيجيس" إلى الأبد .

ولكنه عاد فتذكر كلمات المرأة البربرية .. وأحس بالخجل .
فغمغم يقول : "أمينة .. يا مفلتني .. يجب أن أخرج الآن" .. ونهبض

واقفاً وتمتلق بحزامه ووضع طربوشه فوق راسه .
ورفعت "أمينة" ذراعها العارى ، فطوقت مفاصلها ، وقالت فى ضيق
"أذهب" ..

ثم نظرت إليه بعينين ناعستين .. وتناجبت .

وخلال الأيام الثلاثة التى انقضت بين موت "ديامانديس" والنتحار
"لأنجيليو" . جرت أحداث عنيفة فى كريت . ففى القرية ، اغتال
المسيحيون كثيراً من الأغوات وأحدأ بعد الآخر ، وفى ميغالوكاسترو فعل
الأتراك نفس الشيء مع المسيحيين . ففى مقابل كل رجل اغتيل فى الزيف
على يد المسيحيين كان يسقط اثنان من اليونانيين فى نفس الليلة ووسط
أزقة المدينة . وبدا أن الزمام اقلت من يد الباشا . ولم يعد أمامه سوى أن
يسك بمنظاره المقرب ويتطلع من خلال النافذة يفتش فى البحر عن حملة
تركية قادمة .

وفى اليوم الثالث ، وعجأة عند الظهر - اغلقت بوابات القلعة .. ولم يعد
يقدر أحد أن يدخل إلى المدينة أو يخرج منها .

ومع ذلك اليوم بدأ شهر رمضان . وصام الأتراك عن الطعام والشراب
والشغين طوال اليوم . وعندما كان الليل يحل ويتلا أول نجم فى السماء ،
كان كل شيء يحل لهم . وكان ثمة طيلة ضخفة أمام بيت كل تركى من
الاغنياء . وكانت تدق دقات كثيفة وعنيفة كأنها إشارات بدء الحرب . وما إن
كان المسيحيون يسمعونها حتى يتجمعون فى بيوتهم وهم يرتعشون خشية
أن يخرج الأغوات إلى الشوارع بعد أن يتناولوا إفطارهم ويقتحموا عليهم
الأيواب .

وكان الجيران كلهم يتجمعون كل مساء فى بيت الكابتن "ميخائيليس"
يلتسسون الحماية فى القرب منه . وكانوا يسترخون فى الفناء - فالوقت
صيف - أو فى الشرفة ، بينما النساء منهم يتعددن فى حجرات النوم وكان
الكابتن "ميخائيليس" يظل داخل حجرته الصغيرة يراقب الموقف . وفوق
راسه بندقية معلقة على الحائط .

وفى إحدى الليالى كان ثمة تجمع بين المتحدثين وقادة المسيحيين فى

ميغالوكاسترو عند المطران فى مقر المطرانية . وكان الكابتن "ميخائيليس"
واحدأ من بين المجتمعين . كما كان من بينهم أيضاً ذلك الدب البحرى
"ستيفانيس" الذى كان يتعلق حذاءه البحرى كما لو كان متاهباً للقيام
برحلة من رحلاته . كان يفكر فى تلك الأيام الخوالى وكانما نسى أنه أصبح
اعرج .

وتحدث المطران فى إيجاز ولكن فى اهتمام وحذر . إن كريت تمر من
جديد بأيام مظلمة لايعرف أحد مايمكن أن تسفر عنه . وإن مملكة المسيح
لغى خطر .

وعاد "البقة الوردية" يدلى من جديد باقتراح :

- سيدي المطران : .. امض لفورك الى الثينا" وقابل الملك . لايد أن
يبعثوا إلينا بالموءن والذخائر ، فلسوف تضيق إن هم لم يفعلوا ذلك . ولكن
أذهب إلى هناك بنفسك ياسيدي . فإن وجه الرجل هو سيف .

ولكن المطران هز راسه وقال :

- أنا لا ادع غنمى فى الساعة التى تتعرض فيها للذئاب . فليذهب
الكابتن "إلياس" .
ولكن الكابتن "إلياس" قال غاضباً :

- إن زهرى لايزال قادراً على أن يتدحرج أنا لست عجوزاً ا وفى
مقدورى أن أقود فى الحرب ، أنا لن أذهب .. فليذهب حامل القلم "حاجى -
سافاس" .

ثم استدار إلى "حاجى - سافاس" الذى كان حاجبها الكثيفان لايزالان
مشدودين من القيد .

وقال المطران :

- لاتورطوا أمتنا التحيسة المسكينة .. اليونان معنا فى هذا الأمر . وذلك
لايعنى سوى الدمار لها . ولنتلق بالقوى الكبرى وفى مقدمتها روسيا التى
تؤمن بالحق مثلنا .

وقال الكابتن "ميخائيليس" :

- فلنلق في القوي الصغرى - قوانا نحن - هذا رأيي .

وصاح الكاتبين "إلياس" :

- ورأيي أنا أيضا .. اماذا خلق الذئب بعنق قوي ١٢ .. لكي يسحب فريسته بنفسه !

وقال السيد "إيدومينياس" :

- فلنسلك أكثر من طريق ..

ولكن أهدأ لم يستمع اليه ، وتفرقوا جميعاً قرب منتصف الليل دون ان يصلوا إلى قرار .

وتتابعت الايام .. ليلة إثر نهار .. وكلها يملؤها الغزع . كان الأتراك الجوعى يؤمنون المساجد بالتهار تلبية لأذان المؤذن .. ويندفعون خارجين منها بعين كأنها زجاجية .. أو كأنهم قوم من العساكر .. وفي الليل ، كانوا يهربون بعد أن شبعوا أكلاً وشرباً إلى المقاهي .. ويجولون الأجزاء البيروانية من المدينة وهم يظلمون النار في الهواء ليزعجوا أولئك المتوقفين خلف أبوابهم المغلقة .

وكان "علي آغا" يتسلل بحذاء الجدران كل ليلة بينما الأغوات الأتراك لايزالون على مواضع الإفطار .. متجها إلى بيت الكاتبين "ميخائيليس" ليجيطة علما بأخبار الأبناء .. هذا ماقاله الإمام اليوم في المسجد .. هذه هي الكلمات التي تردت في المقهى ، المؤذن حرضهم على العنف ، ولكن هذا اليك أو ذاك عارضه - أبناء طازجة ساخنة .. أولاً بأول .. وكل مساء .

وسمعت ثلاث دقات ناعمة فوق باب البيت .. ودخل "علي آغا" مهتماً ليجلس فوق مقعده بالقرب من الحوض بينما تحلقه الجيران كلهم . ثم قال وهو يتنهّد :

- هذ "الثلغراف" الملعون ! إنه كلب رأسه في كريت ؟ وذيله في القسطنطينية .. إن أحدهم ليشد الذيل في القسطنطينية فلا يابث الرأس أن يعوي بعد ساعة واحدة فقط في كريت .. ثم تبدأ المتاعب .

وسأله كراسوجورجيس " في قلق :

- المتاعب ياغلي آغا ١٢ تكلم بوضوح ! ماذا تقصد ١٢

- لقد تلقى الياسا برقية اليوم تقول إن الجنود سوف يصلون غداً الى ميخالوكاسترو ! .. ومعهم المدافع ، والفرسان يحملون علم الرسول الأخضر .. هكذا يقولون .

وصاحت "هنيلوب" وهي تدفن رأسها بين ركبتيها المنتفختين :

- أه يا ديميتروس ! .. أي جحر سوف تزحف اليه حتى لا يدركك الجنود ! وبدأ "علي آغا" يصف الاحتفال الذي جرى في المقاهي ، وكيف قرروا هناك أن يتجهوا غداً الى الميناء وهم مدججون بالسلاح ليكفوا في استقبال راية الرسول ، وكلما استرسل في حديثه .. اختفى الأس في بالتدريج ؛ كان قد ارتفع كثيراً ! لم يعد ذلك الرجل المسكين المتواضع الذي يقبع في الزكن فلا يلتفت اليه أحد .. بل أصبح رجل الأحداث !

وقال "ماستراهاس" وعيناه الطيبتان يملؤها الذعر :

- فلندخ الكاتبين "ميخائيليس" ولنسمع مايقول . أنا لن أطأ بقدمي أرض الشارع غدا .

وقالت "كريسانتي" :

- ولا أنا .. ولا حتى لزيارة السماء . وليسامحني الله .

كانت تحل كل مساء في بيت الكاتبين "ميخائيليس" لتتمس حمايته مثل باقي النسوة الجارات ، فأخوها يقضي كل ليلائه مع أمينة .. وبدلاً من أن تسمح في مسيحية .. فقد أصبح هو تركياً .. هكذا كانت تقول لنفسها .. دون أن تجرؤ على التصريح به بصوت مسموع .

ونام الجيران تلك الليلة مثل الأرناب وهم لا يلاحظون يقدرين على النوم .. ويفكرون كيف يمكن أن يقتحموا أسوار سجنهم لينطلقوا هاربين منه .

وتناهت في الصباح دقات العطول في الميناء .. ووقف الأتراك : طربوشاً إلى جوار طربوش ، فصبغوا الحوائط باللون الأحمر . وصعد "تاراساكي" - الذي كان قد هرب من البيت - إلى قمة الصخور المطلة على مدخل الميناء وظل يجول بنظرات عينيه . وكانت الباخرة الصندة قد الفت مراسيها .. وبدأت تخرج من جوفها أناضولين منتفسي الأوداج ذوى وجوه مجدرة .

ومدافع وجياد . تبعثهم أسراب من الدراويش في ثيابهم الخضراء الزاهية .. ويقبعاتهم البيضاء المديبة ، والخناجر في أحزمتهم ، ومالبثوا أن سعدوا إلى رصيف الميناء ونشروا راية الرسول الخضراء في مواجهة بوابة الميناء وبدعوا يرقصون حولها في بطء وهم يصفقون بأيديهم .

واقترب "ناراساكي" أكثر .. وفجأة بدأت رقصة الدراويش تصبح أكثر عنفاً .. وبدأ كل واحد منهم يدور حول نفسه وكأنه الدوامة .. حتى لقد أصبحت ثيابهم تصبح في شكل الأجراس .. وبدأت عيونهم تحمر .. وانزعوا خناجرهم وبدعوا يجرحون بعضهم البعض حتى لقد تناثرت الدماء حولهم وهم يصرخون في ضراوة - ثم بدأت الرقصة تعود إلى بطئها وهدوئها .. وعادوا يدسون خناجرهم في أحزمتهم .. وبدأت صرخاتهم تصبح تصف حديث .. ثم كلمات واضحة ثم همساً .. ثم تحيياً ناعماً رقيقاً .

وعاد "ناراساكي" في الظهيرة وقد أثاره ما رآه .. وقص كل شيء على مستمعيه الذين استمدت بهم الدهشة .

وسأله أبوه عابساً :

- ألم يستبد بك الخوف ؟

- لم أخف من الجنود .

- من الدراويش ؟

- ولا من الدراويش .

- ممن إذن ؟

وتردد "ناراساكي" ...

وحته أبوه على الكلام وهو يرفع ذقنه إلى أعلى :

- .. هيا .. تكلم ..

وقال ناراساكي :

- من الراية الخضراء .. يا أبى !

فرقت "ميجالوكاسترو" في الظلام وسادها سكون عميق في الأيام القليلة التي أعقبت وصول فصائل الجنود . وكان المسيحيون من الكبار يخرجون إلى مقر المطران ويعودون منه . وفي ذات الوقت كان الأغوات

يعقدون اجتماعات في مقر الباشا أو في التكنات العلوية بالصخب والضجة . وفتحت بوابات القلعة الثلاث ساعة واحدة كل يوم .. وبغيرها . تدفق الفلاحون الأتراك بحريمهم وأمتعتهم وقد بدأ عليهم الاضطراب والخوف . وإمتلات بهم المساجد والتكايا .. وبدعوا يفتحون بيوت المسيحيين بعد أن يندفوا بسكانها إلى الخارج .

ويعد المطران بالسيد "هاجى - سالاس" إلى اثنا يحمل رسائل تهيب بالأخوة اليونانيين أن يبعثوا بالسفن لإتقاذ الكريستيين المسيحيين من الخناجر التي استلها الأتراك وشحذوها .

وفي إحدى الأمسيات ، جمع الجيران في بيت الكابتن "ميخائيليس" ليتدبروا أمرهم ويصلوا إلى قرار . ولم يتخلف منهم أحد . حتى الكابتن "بوليكسيجيس" و"إيدومينياس" ، و"تولوهاناس" الخياز وكوليفاس حفار القبور ، والدكتور كاساباكيس وزوجته الفرنسية .. كلهم كانوا موجودين . لم يتخلف سوى "أركوندولا" وشقيقها الأصم رغم أن الدعوة وجهت إليهما . لقد كانت تعيش في حماية الباشا . ولم يكن ثمة ما يدعو إذن لأن تكون حاضرة . وكان يترك ناقذته المطلة على الشارع مفتوحة عمداً حتى يظهر المارة إعجابهم بصور الباشا المعلقة على الحائط في إطارها الذهبي .. وكانت الصورة طبق الأصل من الباشا .. لم تغفل شيئاً من تفاصيلها ، حتى ذلك التؤلؤل في أنفه .. أو تلك الشعيرات في أذنيه والتي تشبه شعر الخنزير .. لم تغفلها الصورة .

كان التجمع هذه المرة داخل البيت وليس في فناءه حتى يامنوا المتلصصين . وكان الكابتن "ميخائيليس" يبدو عبوساً . فقد ضابطه أن يكون بين المجتمعين .. تلك المرأة الشركسية ... مع الكابتن "بوليكسيجيس" .

وكان "ناراساكي" يجلس مع الرجال : فقد قال له أبوه :

- أنت تجلس معنا .. فانت رجل .

وساء الصمت طويلاً لأن رب البيت لم يتكلم . وضاق الكابتن

"بوليكسيجيس" بهذا الصمت ولم يعد يستطيع أن يتحملة أكثر مما تحمله
فقال موجهاً نكاراته إلى أخته التي جرته إلى هذا الإجتماع
- هل حضر كل الجيران ؟

لقد ذكرت له أخته أن الجيران سوف يقررون ما يفعلونه لينقذوا انفسهم
من ايدى الأتراك . ولكنه هو لا يستطيع أن يقرر شيئاً بدون "امينة" . وكل
ما سيفعله المجتمعون الآن لايهمه إذن في شيء .
وكاد الكاتبان "ميخائيليس" أن يرفع رأسه ويقول : "لماذا انت هنا
يا بوليكسيجيس" بك !! إن جيرتاك يستكون في الحى التركى .. وبينك
هناك حيث الباب الأخضر" . ولكنه تمالك نفسه . إن الرجل ضيفه على اية
حال . وليس من السلوك الطيب أن يفعل ذلك معه . ومن ثم فقد لزم
الصمت .

ودخل تيتيروس . وكان قد أحس بالقوة والشجاعة منذ ان ماتت زوجته .
ولم يعد يشعر بأنه القل من غيره من الرجال . لقد اثبت انه يستطيع ان يقتل
.. وأن يقتل ببراعة حتى ان القليل لم يزره في الليل ! كذلك فإن زوجته
الميتة لم تضايقه يوماً أثناء نومه . وكان التلاميذ هم اول من جرب فيهم
تيتيروس قوته . فلم يعد يسمح بأن يستتيروه كما كانوا يفعلون من قبل ..
وكان يضربهم بقسوة - وهكذا بدأ يتكلم بدلاً من سقيفه .
- لقد اجتمعنا لكي نقرر مايمكن أن نفعله لإنقاذ انفسنا من ايدى الأتراك .
وامامكم حل من ثلاثة حلول . إما أن نظلوا داخل بيوتكم .. وربما نتجنبون
بذلك المجازر . وإما أن نهرب عبر يوانات القلعة وننتشر في القرى .. وإما
أن ننتظر حتى تصل السفن اليونانية التي ارسل المظفران في طلبها من
اليونان . دعونا الآن إذن نختار واحداً من هذه الحلول .. ايها أكثر أملاً لنا
وبعدها نحزم امينا والله يساعدها .

وطرقت مفاصل المقاعد .. وانحنى الرموس .. وكل واحد يزن الكلمات
لكي يقول رايه . ولكنهم جميعاً راوا العقبان في طريق كل واحد من هذه
الحلول ... ومن ثم فقد كان القرار صعباً .

وكان اول الذين كسروا حاجز الصمت .. كاساباكيس الطيب .. ذلك السمين
ابن الريف المجرد الوجه . والذي يعد به ابوه الى باريس ليدرس الطب .
وهناك ظل طيلة ثلاثة اشهر يواظب على حضور محاضرات في القانون وهو
يظنها محاضرات في الطب ! وعندما اكتشف خطأه .. وبعد ان اتى تماماً

على حقوق ابيه . عاد إلى ميجالوكاسترو وهو يضع على ارسه قبعة عريضة
الحواف ومعه ابنة صاحبة الفندق الباريسية التي كان يسكن عندها .
وافتح بقالة في المدينة وما هو الآن يتكلم بعد تيتيروس
- هناك حل رابع ايضاً يامدرس ! ان تلجأ إلى قنصليات الدول الكبرى !

وعقب كراسوجورجيس مسألاً :
- وهل هناك متسع فيها لنا جميعاً يادكتور !! انت تتكلم عن القنصليات
وتبدو سعيداً . ولكن حتى القنصليات .. هي مجرد بيوت بحواض اربعة
لكم من الناس تتسع ؟ لعائلتين على الأكثر .. فماذا يفعل الباقون !!
وفتح ماسترايس . الرجل المقدس - فبه يتكلم ولكنه سرعان ما أغلقه
من شدة العصبية والقلق .

وصاح فيه تيتيروس مشجعاً :

- تتكلم ايها الجار
- كما ترون ..
قلها .. وقد إحمر وجهه .

ووقف كراسوجورجيس بمعذته المليئة وجسده الذي يحتاج للاغسل
فقد عرق في عرق اللق والاضطراب طوال اليوم واصبح جسده بيعث بكل
الروائح التي يمكن أن تنبعث من الرجل .. ونظرت اليه زوجته في القنصر
زهو : كانت تعشق زوجها حين يكون مضطرباً هكذا ..

وسأله تيتيروس :

- كلنا اذان صاغية ياكراسوجورجيس .

- فاستمعوا إذن إلى ما افكر فيه .. إن افضل المارق إلى الأمان هو الطريق
إلى القرى . ام أننا سنظل محبوسين هنا كالقنصران في المصيدة !!
كثيراً ماأبج الأتراك اليونانيين قبل هذه المرة . فعلمنا ننتظر السفن ؟ ام
اننا ننتظر المعجزة ؟ اننا لا اثق في الدنيا . هم يطمنون ولاشك ان يساعدونا
ولكنهم لا يستطيعون لانهم يخافون تركيا ويخافون الفرنسيين . كم مرة كان
اليونانيون

وقاطعه كولياس :

- ولكن .. كيف الهرب يا جارنا ؟ هذا هو المهم ! إن معنا كومة من
الابنطال .

فقال كراسوجورجيس :

- أنا لا أتق بالينا .. ولكننى أتق بنفسى .. أتروا لى القيادة وأنا ألقم
بالخير الذى لكه اننى سوف أؤدكم جميعاً الى الجبل - أنتم وزوجاتكم
وأطفالكم وكل امتعتكم !

وعلت الهمهمات .. واقترب الجميع من كراسى جورجيس الذى صمت
لحظات وهو يراقب فى زهو أثر كلماته على جيرانه .. انظروا ! لقد كانوا دائماً
يحتفونونه لانه مختل عاطل ينتعل حذاء مرفوعاً .. والآن سوف يعرفون
قهره !

وقال الطبيب الذى كان قد ساءه الا يعبر احدهم اهتماماً لما طرح من
حلول :

- فلنسمع إذن خطتك ! إن ماعده به امكبير يا جارتنا .. وتست أرتاح لذلك
- ولا أنا يا طبيب .. ولكن اسمع ! إن عائلتى طيبة بالجنود الذين يحرسون
بوابة المستشفى .. لاتسالونى كيف ولماذا ! .. عملية تهريب صغيرة -
جداً تتن أو ثلاث من الراكى .. صندوقان أو ثلاثة من الطبايق ، خيط أو
خيطان من المنطق ... أشياء تعودت أن أقدمها لهم كهدايا حتى يعلفوا
عيونهم ... لا داعى الآن لمزيد من التفاصيل .. المهم اننى سوف اشحم
العجلة من جديد .. وبعدها سوف نترلق جميعاً دون أن يمسنأ لى ..

وصاح كوليس :

- عشت يا كراسى جورجيس ! .. إننى اثنمتك على اولادى بكل سرور ..
وقال ماستراباس وهو يختلس نظرة إلى زوجته ليرى ما إذا كانت توافقه
- وأنا ايضا ..

وفى تلك اللحظة .. سمعت ثلاث دقات ناعمة على الباب

وقال تيتيروس وهو يتجه الى الباب ليفتحه

- على اغا !

ولكن الكابتن "ميخائيليس" رفع رأسه وقال :

- اذهب به إلى الخارج !

وفتح تيتيروس الباب وقال :

- على اغا .. لا تخضب منا .. نحن مجتمعون هذا المساء .. فعد غدا ..
ولكن على اغا ظل بالرغم من ذلك واقفاً عند الباب

- جئت أقول لكم إن الاغوات يدبرون قتلكم

- متى .. بحق الله !

- قريباً .. أثناء احتفالات عيد الفطر
- اخط

وبدخل الرجل العجوز واستند إلى الباب من الداخل وقال فى نبرات
متعالية :

- عمت مساء ايها الجيران ..

كان يحمل انباء مخيفة تستحق ان يفتال الآن بها ! ولكنه اجطل حين وقع
بصره على الكابتن "ميخائيليس" .. فقال :

- معذرة .. أنا فى عجلة من امرى .. ولكن .. كان لا بد ان اجيء .. إذا كنتم
تؤمنون بالله فحانثروا ايها الجيران ! إن الاغوات يعدون العدة لمجزرة قبل
عيد الفطر .. وقد قسموا بالفعل مختلف أجزاء المدينة .. وقد عهد بهذا الجزء
الذى يسكنه الكابتن "ميخائيليس" إلى افضل فرسانهم ..

وقال الكابتن "ميخائيليس" وهو يشير بيده :

- حسن .. فانصرف الآن

ولكن ماستراباس قال :

- حاول أن تحرف كل ما يمتك ان تحصل عليه من معلومات يا على اغا
واقدم علينا بها مساء غد .. إلى اللقاء !

واجتاز الرجل العجوز ساحة البيت إلى الخارج .. وما إن أصبح فى
الشارع حتى اسرع متجهاً نحو المقامى التركية

ووقف الكابتن "بوليكسيجيس" :

- معذرة لى مشاغل هذا المساء .. وسوف تخبرنى شقيقى بكل ما
يستقر عليه راىكم .. كل ما يريد أن اضيفه هو اننى سوف اذهب إلى الجبل -
فلذلك مايتطلبه الشرف ..

فقال الكابتن "ميخائيليس" :

- جميل أنك تذكرته !

واسرع الكابتن "بوليكسيجيس" بحث الخفى .. كان الوقت متأخراً و لابد
ان "امينة" قد اوت إلى فراشها .. وانها تعضف الآن اللبان حتى لاتستسلم
للنوم وهى تنتظر عودته ..

وانجه الكل باصراهم إلى الكابتن "ميخائيليس" ليرى مايقول .. وكان
هو قد احس بالارتياح بعد أن خلا الجو من رائحة المسك ورائحة تركيا
ورفع يده وقال :

- ابها الجيران ، كلنا هنا رجال ومعنا سلاحنا . إننى لأحس بالخجل إن
أنا غادرت كريت وتركتها في مثل هذه الأيام الصعبة . فلنخرج النساء
والاطفال . لقد تكلم كراسوجورجيس وكان كلامه طيباً . أما بعد ذلك فليس
أماناً إلا حل واحد : سلاحنا أنت أيضا يا مدرس سوف تكون معنا .. وكذلك
أنت يا سيد إيدومينياس كلكم !

وكان العجوز تولويانس لاحظتها يداعب إبهامه بعصبية وقد أحس رأسه
مفكراً في ولده الذي لم يعد في وجهه انف أو ذن أو شفة .. أين ذهب هذا
يا ترى ؟ ومن الذي يرضى بأن يصحبه معه ؟! إن منظره أصبح بشعاً . وقد
يعدى من يلعبه . وقد جاءت الشرطة أول أمس لتأخذه إلى قرية المخذومين
فصرخت أمه واضر الرجل العجوز إلى أن يدس بضع عملات فضية في أيدي
الجاوليشية ليعودوا إراجهم .

وبالرغم منه . افلتت عن صدره تهديفة عميقة حتى لقد استدار نحوه
الجميع وسأله في دهشة :
- ماذا حدث يا جارا ؟!
وقال والدموع تجول في عينيه
- لأشئ .. لن أذهب معكم .. إلى أين أذهب ؟! ومن الذي سوف يرضى
بإيوائى ؟!

ونفض واقفاً . ولم يرفع واحد من الحاضرين يداً تمنعه . ونظال يتعثر في
مشيته حتى وجد طريقه في الشارع .. واختفى .
وقال تيتيروس :
- اتفقنا ... وصلنا إذن إلى قرار . مارايك يا سيد إيدومينياس ؟ أنت لم
تفتح فمك حتى الآن .
- أنت تعرف رأيي .. كلكم تعرفونه . ولقد عبرت عنه مراراً كل ماتقولونه
وتقولونه ليس إلا زبداً وجفاءً ... طامعا بقى خليج "سودا" ..

وصاح الطبيب وهو يغالب الضحك :
- اتفقنا !
ثم أمسك بقبعة الضخمة متعباً للإصراف . فقد أوشك الليل أن
ينتصف .

وقال الكابتن "ميخائيليس" :

- يا طبيب .. سوف تكون معنا في طريقنا إلى الجبل ..
- ولكن ..
- ليس هنا ولكن .. سوف تصبحنا .. لهذا أصبحت طبيباً . وسوف يكون
هناك جرحى .

ونظر الطبيب إلى زوجته التي كانت تجلس إلى الطرف الآخر من الديوان
وهي لتأفهم بالضبط مايدور وماقال . وضغطت على فمها بمتديها وسعلت .
كانت المسكينة قد تفضتت وأصفر جسدتها . وكانت تتلطف على أن ترى
السك الحديدية الكريهة تمر ببناها وتنهز عنبات الدار . لم تعد باريس الآن
سوى اسطورة بعيدة عنها كل البعد .. أه .. لو كانت تستطيع أن تستقل
بأخرة أو زورقاً أو حتى محارة - أى شيء لتهرب بعيداً . أى شيء لتهرب
بعيداً ..

ووقف الكابتن "ميخائيليس" وقال قبل أن يصعد إلى عرقته الصغيرة :
- ما قلناه الآن ... سوف ينفذ .
.... لقد تكلم كثيراً .. وأحس بحلجته إلى أن ينفرد بنفسه .
ونفس الجيران يارتيح . وانحلت عقدة الألمن .. حتى النساء شاركن
في الحديث . وبخلت رينيو بأطباق الراكي والعرنى والقهوة .

وقال كراسوجورجيس وهو يرفع رأسه محبباً زوجة الكابتن "ميخائيليس"
- في صحتك ياسيديتى .. معك اله بمن تحبين .. وفي صحتك أيضاً
يارينيو .
وقرعت الكؤوس . وشرف الجميع . وعادت رينيو تملأها من جديد .. كان
الجميع سعداء .

وصاح كراسوجورجيس وهو يرم شفتيه في قبلة إعجاب :
- ماراوع ماتفعله فطرة شراب واحدة ! كأس واحد من الراكي ليس أكبر
من الكشتبان .. روى فداء . ولكن تركيا كلها تفرق فيه ! نعم .. أستطيع أن
أرى في قاعة السلطان نفسه .. غارقاً .. ميتاً !

وقال تيتيروس :
- ليس ذلك مايفعله الراكي .. بل ماتفعله الصحة .
وقال ماسترايس وقد بدأت عقدة لسانه تزول بتأثير الشراب .
- معك حق يا مدرس ! إن الرجال مثل الأجراس . الموت نفسه لايقهفها أو
يفزعها إذا كانت تدق .

وكانت اذنه حساسة للغاية . ففي الصيف الماضي لم تكن يستطيع النوم في قريته في الليلة الاولى . فقد كانت اجراس احد قلعان الاغنام في الجبل لا تتلق جميعاً في انغامها . ولقد ازعجه ذلك لدرجة انه غادر فراشه في عيش الفجر . وصعد الجبل . وبحث عن القطيع حتى اذا وجدته اصلح الاجراس وضبط انغامها . ثم عاد إلى بيته . ونام في ارتياح .

وعاد يكرر ما قال :

- الرجال مثل الاجراس سواء اكانت خشبية او نحاسية . او اجراس كنانس ، صغيرة او كبيرة - كل واحد منها له صوته الخاص . وما أشد سعادة القطيع عندما تكون قنات جرس سيدها منتظمة ! .. بعدها لايعين أن تخشى الذئب نفسه .

ولكن السيد ايدومينياس هز رأسه . كان يقول لنفسه : "ما الذي يدعوني إلى البقاء هنا ؟ وأي معنى لهذا الحديث ؟" ونهض واقفاً وقلب موجهاً الحديث إلى تيتيروس :

- هيا ياولدى .. ثم معي في البيت وكُن في صحبتي .

كان قد احس بحاجته إلى حديث أكثر ارتفاعاً في سنوئه . ويستطيع الاثنان أن يتبادلا الحديث معاً حول النجوم أو حول خلود الروح . فلم يكن هناك أمر يحيره في الدنيا سوى هذين الأمرين ! .. ولسوف يكون هناك بجواره خليج "سودا" فحسب .. أما ماعدا ذلك فضجة ودخان .

وتفرق الجميع .. عاد إلى بيته كل من منحه شراب الراكي بعض الشباعة . أما الآخرون فقد استلقوا في ساحة البيت وفي شرفته . أما النساء فقد دخلن غرفة النوم . وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل .

وكان ثاراساكي قد استمع إلى كل مدار من احاديث دون أن ينبثق بكلمة . ولكن الإيماءات التي صدرت عن الجيران كانت قد انطبعت تماماً في ذهنه - الخلفين منهم - والأكثر تماكلاً لأعضابهم - ثم - بعد الراكي - السعداء الفرحين . وكان أكثر ما الرقيه هو ابوه الذي ظل محتباً رأسه طوال الوقت .. ولم يرفعها إلا للحظة واحدة حين قال كلمة أو كلمتين .. ثم عاد فاحتاها من جديد . كان ذلك يعني أنه لم يبق إلا بقدر الروس الأخرى الزثرارة حوله . ومن خلال كل تلك الاحاديث والمناقشات كان ثاراساكي يزداد تفضلاً .. ويدلف إلى الرجولة دون أن يدري .

كانت المدرسة قد اغلقت ابوابها . وكان هو يستغفد من نومه مجترأ لينضم إلى أبيه في الدكان ويظل يتابع بعينيه كل انفاسه . وكان قد بدا

شيئاً فشيئاً السبب في أن اباه لا يكثر من الإشارات والإيماءات - ولا يتكلم أو يضحك ... وفي أنه يحترق الرجال والنساء جميعاً . ويعرف أيضاً انه سوف يصبح مثله تماماً في يوم من الأيام وليس مثل الكابتين "بوليسبيجيس" أو كراسوجورجيس أو تيتيروس . وبينما كان كله يدور في أعماله اتجه نحو الميناء . وهناك تناهت إلى سمعه صيحات ولعنات . فأوسع الخطى حتى إذا أصبح امام محل حلالة السنور "پاراسكيفاس" . رأى جمعاً من الأتراك والفين يبلبه . وقد تحلقوا الحلاق المسكين وهم يسبونهم ويصفلون عليه . ويرفعون خنجرهم في ايديهم . وكان المسكين يقف وسطهم وهو يرتعش وقد شمرق قميصه ولطخته الدماء واكتسى وجهه بالثر البيض الفاسد والطمائم . وهو يؤكذ للترك انه سوف يهرب عائداً إلى "سيرا" . وأنه لن يطا كريت بقدميه مرة أخرى . ويتوسل إليهم كي يرحموه ويرحموا ابنته التي يجب أن يجد لها زوجاً .

واحس ثاراساكي بالاسى من اجله . واسرع عائداً إلى أبيه الذي كان يجلس إلى المائدة وقد انحنى يكتب رسالة لابن أخيه "كوزماس" الذي أصبح فرنسياً : "إذا كنت رجلاً حقاً . وإذا كان لا يزال فيك بقية من خجل . فإترك ارض الفرنسيين وفكر في بلادنا نحن . إنها تحتاج إليك . فقد حانت الساعة . من أي مادة ولدت ؟ ولماذا تنتسب إلى كريت ؟ إحضر فوراً - واحمل السلاح مثلما يحمله غيرك من الشباب . هناك شيء آخر ينبغي أن اقلوه لك يا ابن اضى"

... وهنا اقتحم عليه "ثاراساكي" المكان وقد بدا عليه الاضطراب الشديد .. وصاح :

- أبي ... إنهم يحاولون قتل پاراسكيفاس - امام دكانه .. انقذه ياأبي !

ونفض الكابتين "ميخايليس" واتجه إلى عتبة الدكان ليرى ما يحدث . كان جمع من عمال الميناء قد شدوا وثاق پاراسكيفاس . ولم يكن ثمة مسيحي واحد في الشارع وكان معظم المسيحيين قد أغلقوا دكاكينهم واختفوا . واستطاع الكابتين "ميخايليس" أن يلمح الخنجر تلمع تحت اشعة الشمس .

- أبي ... ! ... أنت لست خائفاً ؟

وحقق الكابتين "ميخايليس" البصر امامه . وكان عدد الأتراك ضخماً .. والهجوم عليهم يعني الموت المؤكد . ولكنه أحس بالخجل امام ابنه . ولم يكن الكابتين "ميخايليس" متهوراً .. بل كان يكره التصرفات المنذفة . أما الآن

وعاد ابنه يسأله :

- ابن تذهب يا ابني ؟ ... هل أنت خائف ؟

- بل سأذهب ..

.... ثم اقترب من الجمع ..

سار في بطنه وهدهده ، ووجهه لا يلمع عن غضب أو خوف .

وعندما لبصر به الأتراك قادماً نحوهم ، وقفوا ساكنين . ماذا يريد هذا

الكافر ؟ ألا يخشاهم ؟

وحين وصل الكابتن "ميخائيليس" ، رفع يده مشيراً إليهم بأن يدعوه
يدخل وسطهم ، وتحركوا جانباً وهم في ذهول ، ماذا سيفعل بأترى ؟ حتى
أشدهم غلظة خفض خنجره .

واتجه .. الكابتن "ميخائيليس" نحو السناتور باراسكيلاس وجذبه من
أذنه وقد بدأ الاحتقار على ملامحه ، ولوى الأذن وهو يهزه بعنف ويقول
بلهجة قاطعة :

- سر أ إلى البيت ! لاتدع بصرى يقع عليك مرة أخرى !

وأخفى باراسكيلاس رأسه بين كتفيه وسار متعثراً مع الكابتن
"ميخائيليس" الذي كان لا يزال يلوى أذنه - وتركهما الأتراك يوران دون
اعتراض .

وعاد الكابتن "ميخائيليس" يقول في احتقار :

- عد إلى بيتك ! بسرعة .

وبدا باراسكيلاس يعدو ، حتى اختفى في أول منحني قابله . بينما وقف
الأتراك يحدقون في الكابتن "ميخائيليس" دون أن يفعلوا شيئاً .. وهو يسير
ببطء بنفس الطريقة الهادئة حتى وصل إلى مكانه .

وأخذ ثاراساكي يتابعه ببصره في دهشة وهم بأن يوجه إليه سؤالاً
ولكنه ظل ساكناً بينما أبوه يعود فيجلس إلى المائدة ويمسك بالقلم ..
وينحني لينتهي الخطاب الذي كان يكتبه ..

"..... يا إلهي أذى .. وهو أن عمك مانوساكس"

الفصل التاسع

إنتهى شهر الصيام .. وجاء الاحتفال بعيد الفطر ، وارتدى الأوغوات
أحسن ملابسهم وأمتلات بهم المعاهي حيث كانوا يجلسون متوجين فوق
الوسائد الطرية القاعمة . وأخذ الصبية المراد الأتراك يلويون اعناقهم
ويغنون الحانهم ذات النغمات الطويلة الرتيبة . وطلب پاريايانيس - نظراً
للحرارة الشديدة - أن يجعل إليه الشج من سيلوريتيس ثلاثة حمير وبدأ
يجري هنا وهناك حاملاً صفيحة البيوتزيرة ويقدم للأوغوات الشراب البارد
المنعش .

وبدأت الطبول في التكنات القريبة من الأقباء الثلاثة تدق منذ الصباح
الباكر . كما بدأت المدفعية تطلق طلقاتها تحية بهذه المناسبة . وأخذ
الباشا مكانه بين المصلين في المسجد الجديد ومع الضباط في ثيابهم
الرسمية المزركشة . وظلت دوائر المصابيح مضاءة فوق المآذن . وفي تكية
"حميدة مولا" اكتسى ضريح ولي الله بالورود وزهور اليازلاء . بينما جلس
أفندينا أمامهم متربعا يقرأ القرآن وهو يهز نصفه الأعلى إلى الأمام وإلى
الخلف .. والمصلون من المشايخ حول الضريح يركعون فوق حصرهم وقد
أحضرهم معهم أراجيلهم يدخلونها بعيون نصف مغلقة .. وينسحبون إلى
القرآن ويهمهمون له استحساناً في أصوات تشبه طنين النحل .

كانوا سعداء .. فقد دخلوا الجنة وهم لا يزالون أحياء . لم يكونوا
يفتقرون إلى شيء طيب في الحياة . ومن خلال الشقوق في الباب . كانت
تنتهي ضجة ميغالوكاسترو وصخبها في رقابة متصلة كأنها حفيف الماء ..
ومن البحر ، كان يتناهي صوت هديره من بعيد . وكانت العجوز حميدة مولا
تجري حافية القدمين هنا وهناك تقدم الطوى للأتراك - أو تحمل جمرات

مشتعلة من الفحم تنعش بها هذه النارجيلة لوتك في حرص ، حتى تظلم
تطبيق في بهجة مثل حمامات تهدل حول ضريح الولي .

وبينما كانوا غارقين في غيبيتهم الغردوسية ، سمعت فجأة صيحات
عالية وأصوات أيواب تصفق بونساء تصرخ .. وطلقات غدارات تمزق
الهواء . وطارت البركة المقدسة .. وقفز المشايخ واقفين .

ووضع افندينا القران فوق كومة الزهور . ثم اندفع نحو الباب وفتحه .
وإذا به يرى جمعاً من الأتراك وقد وضع كل منهم سكينه بين أسنانه وهم
يهيرون مارين بحذائه وقد ثلثت صدورهم وأسلحتهم بدماء الكفار .

وكان على رأس هؤلاء : سليمان . خادم الباشا العربي . عاري الصدر
والقدمين إلا من برنس أصفر اللون حول كتفيه . وعيناه تفتقان بالشرر ..
والزبد يكسو شفثيه الغليظتين .

وكان يلوح بسيفه المعقوف في عنق فيحدث في الهواء صفيراً ..
ويصيح هادراً :

- فليسقط الملاحين ... ! فليسقط الكفرة .. !

وأشراب افندينا بعنقه خارج الباب وصاح :

- إلى أين أيها الآخرة ؟!

وصاح العربي :

- لنذبح هذا الشقي اللعين ونشرب من دمه !

- من تقصد ياسليمان ؟!

- الكابتن "ميخائيليس"

وصاح افندينا وقد امتلح وجهه من الألم :

- ألا تخاف الله ؟

ولكن صوته ضاع وسط الهدير الذي كان يرتفع من ساحات بيوت
المسيحيين . فقد اقتحمت أيوابها . وهرعت النسوة إلى الأسطح . بينما
لقى بعضهن نفسه من الذعر وأطفالهن بين أيديهن . وأسرع الرجال إلى

أسلحتهم للحظات - ولكن مالبثت المطلقات والضربات والصيحات أن خفت
ثم أبعدت .

وكان الكابتن "ميخائيليس" لحظتها يقف خلف باب بيته قابضاً على
سلاحه . بعد أن أمر أسرته بأن تصعد إلى غرفة النوم وإن كان قد أبقي
مع ابنه تاراساكي .. وقال له :

- اقترب .. واستمع جيداً إلى ما سأقوله لك .. إذا حاولوا أن يفتحوا
الدار ويشقوا طريقهم إلى داخل البيت بالقوة ، فسوف اقتلكم جميعاً حتى
لا تقعوا في أيديهم ، وستكون أنت الأول ياتاراساكي .. هل فهمت ؟!

- فهمت يا أبي ..

- وهل توافقني ؟!

- أوافقك

- فلا تخبرهم إذن .. فهن نساء .. وسوف يستبد بهم الذعر .

- لن أخبرهم .

وصعدت الرجلان .. ووفقا يسدان الباب من خلفه وهما ينصتان في
استفراق شديد للأصوات في الطريق .

وكان ثمة جيران قد هربوا في الأيام السابقة . كان أولهم
"كراسوجورجيس" و"مستراناس" و"كوليفاس" ومعهم كل أطفالهم .
وفي اليوم التالي هربت "بنيلوب" و"كريسانتي" شقيقتا بوليكسيجيس

اللذان تخفيتا في زى الهوانم التركيات . كذلك هرب "تيتيروس" الذي
ارتدى ملابس تركي فضفاضه ووضع على رأسه عمامة بيضاء وأخفى
عويناته في صدره وانسل من بوابة المستشفى . أما "تولوياناس" فقد بقي

هو وابنه . وأما الطبيب فقد رفع علم فرنسا فوق داره . بينما أعلن
"إيدومينياس" أنه لن يهرب . وثبت أعلام القوى الكبرى فوق النافورة .

وكان تاراساكي يتوق إلى الخروج إلى الحقول والجبال . وقد سال أباه
بالألمس :

- ومتى نخرج نحن ياأبي ؟!

- سوف نكون آخر من يخرج بعد كل الجيران .

- ولماذا ؟!

- ابحت بنفسك عن الجواب .

قالها .. ولم يقل بعدها كلمة اخرى !
كان الوقت ظهراً ، وكانت صرخات ميخائوكاسترو تحت وطأة خناجر
الأتراك وسكاكينهم .. تملو فزعة مرعبة شيئاً فشيئاً . واعطى المؤذنون
مأذنهم ليعلموا حلول موعد صلاة الظهر .. ولكي يعلنوا الشكر لله والحمد .

... وفي ذات اللحظة كان ثمة خمسة او ستة من عمال السبائك الاتراك
يعبرون إلى حديقة "بيرقولا" ويكفون باب بيت السنيور باراسكيافس
بفضيب من الحديد . ثم يندفعون إلى الداخل ليجدوا ابنته تخبئه تحت
الديوان .. فيسحبونها بعنف ويطرحونها على ظهرها بينما اتجه
اثنان منهم ليخرجوا الحلاق التمس من وراء بعض الجرار . جذباً من العنق
إلى عتبة الدار .. ثم يذبوه ذباً وبعدها ، يحلون معهم بيرقولا المسكنة
التي كانت تنزف دماً ... ويندفعون بها إلى الخارج .

وسمع الكابتن "ميخائيليس" اصوات الطلقات من ناحية نافورة
إيدومينياس عند نهاية الشارع . وغصم وهو يعد بندقيته :

- ها قد وصلوا ..

ثم استدار ينظر الى ابنته ويقول مرة اخرى

- ها قد وصلوا ..

وقال ثاراسكي وهو يعد غدارته الصغيرة :

- ها قد وصلوا ..

... وكان ابوه قد علمه في الايام القليلة الاخيرة كيف يطلق النار ..

وقال الاب وهو يحدق طويلاً في ولده :

- يبدو انك لست خائفاً ..

- ولماذا أخاف يا ابي ؟ لقد تعلمت كيف اطلق النار .

وبعد مائتين ساعة شيئاً اقتداه في صلابة فوق صفوح ساحة الدار ...
وانتظر ...

وبدأت الطلقات تخفت شيئاً فشيئاً ، كان الاتراك قد أسرعوا نحو

النافورة ، واندفعوا يضربون باب الدار باكتافهم حتى هوى الباب الصدىء
القديم .

وكان السيد "ايدومينياس" يجلس منذ الصباح الباكر إلى مكتبه يديج
رسالة وجهها الى القوى الكبرى .

"... يا اقوياء العالم ! في هذه اللحظة ، وأنا اكتب هذه السطور فوق
الورق ، يجري ذبح أبناء ميخائوكاسترو المسيحيين . ومرة اخرى يمثلوه
الجو بطلقات الرصاص ، ويتقدم عصابات الاتراك بيوت المسيحيين ..
يقتصبون نساءهم ، ويقتلون الرجال ويلقون بالاطفال فوق الارض
ويسحقون رؤوسهم" .

"إنني ارفع صوتي .. انا لاشيء .. رجل لاقيمة له ، ضائع عند اطراف
أوروبا . بعيد عنكم يا اقوياء الأرض ! ورغم ذلك فإن الله متى قريب ! إنه
غاضب . يهز الحجرة التي اكتب فيها رسالتي هذه ، إنه لايتكلم .. ولكنه
سبحاته يضم شفته وينتظر جوابكم على رسالتي . وينبغي أن تعرفوا -
أنتي لن ابعت برسائل مرة اخرى بعد هذه المرة ، فقد صحت وصرخت في
البرية بما فيه الكفاية .. وإذا أنتم لم تجيبوني هذه المرة .. فسوف اتجه
إلى الله و...."

وهنا ، توقف "ايدومينياس" ، فقد سمع صوت الطلقات فاشرباب بعنقه
بتطلع من خلال النافذة ، وراى الاتراك وهم يضربون باب البيت باكتافهم ..
وصاح :

- ماذا تريدون ؟؟ ... هل اصابكم العمى ؟؟ الا ترون اعلام القوى
الكبرى فوق النافورة ؟؟

وارتفعت الصيحات الساخرة ، ومرق حجر ليصيب اذنه وذقنه . ثم
ليحطم بعد ذلك حراء فينسيية قديمة كانت معلقة خلفه فوق الحائط .
وقفز إيدومينياس إلى الخلف ووضع يده فوق اذنه الدامية . وصيغ كفه
بالدماء ثم ضغطها فوق الخطاب الذي كان بعده للقوى الكبرى !

وصاح :

- هكذا .. هكذا .. هكذا .. ينتهي هذا الخطاب . ولعل دماء كريت ان تقع فوق روسكم وروس اولادكم واولاد اولادكم في انجلترا وفرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وموسكو !

وقتح الباب بعنف . واقتحم الأتراك ساحة الدار والخناجيريين أسنانهم . وطرحوا "دوكسانيا" العجوز أرضاً بينما كانت تقف عند عتبة الدار تحاول ان تسد طريقهم بذراعيها الممدودتين .. ثم داسوها بأقدامهم واندفعوا يصعدون الدرج وهم يصيحون . والمنزل كله يهتز من أساسه .

وسمع إيدومينياس أصوات الجمع الهمجى يقترب .. وأحس بأن اللحظة تقترب . لايد أن تشرف نفسك ياإيدومينياس !
وينظر حوله - كان يريد أن يختار محض إرادته الأسلوب الذى يموت به - لم تكن هناك أسلحة معلقة فوق الحوائط . فلم يكن يحتاج إليها . لقد كان يناضل بعقله وليس بالسيف . كان القلم هو سلاحه . واتخذ قراره : "سوف أبقى ثابتاً هنا فى موقعى" .. ثم ضرب المائدة بقبضة يده "هنا سوف أحارب . هنا سوف أموت !"

ثم جلس .. وأمسك بالقلم ..
واقترح عليه الأتراك الباب ... ثم مالبنوا أن وقفوا ذاهلين . فقد وجدوا "إيدومينياس" متحياً فى هدوء فوق ورقة ملونة بالدماء .

وصلحوا :

- ياكافر ! ... أين تخشى أموالك ؟

ورفع "إيدومينياس" رأسه وأشار إلى جيبته .. ثم قال بهدوء :
- هنا ...

وضحك واحد منهم :

- وهل رأسك خزانة نقود ؟

وصرخ آخر :

- فاقسمه إذن نصفين ياإيريناس - حتى نرى ما بداخله .

وقبل ان يتمكن "إيدومينياس" من الرد . كان التركى قد ضرب الرأس بسيفه .. قشقه من الحاجب إلى الحلق .

واندفع الجمع كالعاصفة داخل حجرات البيت . وطوح بالملابس القديمة والمهلهلة ... وبالمقاعد والموائد والنشاي .. إلى الشارع -
وعندما أصبح الجمع عند ركن الدار . التقى به سليمان العريى الذى كان مع عشرة من الدماء حفاة الأقدام فى طريقهم إلى بيت الكابتن "ميخائيليس" . وسأل سليمان وقد توقف يلهث :

- من أين أنتم قادمون ؟

- من بيت إيدومينياس -

- دعوا الكابتن "ميخائيليس" ولا تقربوه . وإلا شربت من دمانكم . إنه محجوز لى لنا !

ثم اتجه إلى النافورة .. ورش جسده بالماء . وشرب بشراهة وكأنه ثور استبد به العطش . كما شرب رفاقه العطشى . ونظر أحدهم عن خلال الباب المفتوح على مصراعيه فرأى امرأة عجوز ملقاة فوق أرض ساحة الدار تنتحب وتندب العيت وتشد شعرها . وسأل باقى الرفاق :

- هل نقلها ؟

- إنها امرأة كثيبة يأمصطفى !

وصاح العريى :

- هيا بنا ... !

واندفعوا يطوحون بسيوفهم فى غرور وخطرة .

وخلف الباب . كان الكابتن "ميخائيليس" ينصت إلى الجماعة وهى تقترب ويميز من بينها صوت سليمان الوحشى .

وقال لنفسه :

- إنهم قادمون من أجلى !

وركع خلف حوض الماء مستخدماً أياه كسائر . وجذب ثاراساكى ليركع إلى جواره - ثم همس وهو يرسم علامة الصليب :

- المسيح سوف يتنصر ..

ثم استدار إلى ولده وقال :

- تشجع ياولدى ..

وكانت أول مرة يسمع فيها ثاراساكي أباه وهو يتكلم بركة .. ويناديه
بـ "ولدى" ! ... واحمر وجهه من فرط السعادة .

وكان الجمع قد أصبح أمام الباب تماماً ، وأخذ سليمان يصدر
توجيهاته :

- رجل يتسلق الجدار معتبياً ظهور زملائه ليقفز إلى داخل ساحة البيت
.. بينما يقتحم الباب رجل آخر : ولكن .. حذار أن يمس احدكم الكابتين
"ميخائيليس" .. إنه ملكي أنا ! لقد اعاننى .. وسوف ألتقم منه .. سوف
اسمعه سحياً إلى الشجرة العارية ، وامزقه إرباً إرباً .. واقدف بلحمه إلى
كلاب ميغالوكاسترو !

- وسمع ثاراساكي ذلك التهديد .. ونظر إلى والده الذى كان فى نفس
اللحظة يصوب بندقيته باتجاه أعلى الجدار .. وبسأله :

- هل سمعت يا أبى ؟

وهمس الكابتين "ميخائيليس" من بين أسنانه .. دون أن يلتفت :

- صمغاً .. !

وفى الخارج ساد الصمت بضع لحظات .. وسمع صوت حفيف على
الجدار .. وانفاس ثقيلة .. كان احدهم يشلقه ، واخفى الكابتين
"ميخائيليس" تماماً خلف حوض الماء ، ولم تظهر سوى ماسورة البندقية
وبيده اليسرى دفع ثاراساكي إلى الخلف منه .

وفجأة برز رأس كك الشعر من أعلى الجدار ، وبين أسنانه يلغم سكين
عريضة النصل . ونظر الرجل من مكانه متلصصاً ، وإمادت يد .. وضغط
الكابتين "ميخائيليس" على الزناد .. واستقرت الرصاصات فى الراس بين
الحاجبين تماماً .

وكانت زوجة الكابتين متوقفة فى غرفة النوم خلف النافذة ترضع طفلها ،
بينما كانت رينيو تراقب أباهما وأخاهما ثاراساكي وهما فى الساحة .. وعندما
رات رأس التريكي تخفى ، إرتعتش بالفرحة .. وهمست فى إعجاب بالغ :

- بوركت يداك يا أبى !

وقالت زوجة الكابتين :

- رينيو .. باطلقتى المسكينة .. حياتنا الآن معلقة بشعرة .. هل تعرفين
قيم يفكر أبوك الآن ؟

- إذا دخل الأتراك فسوف يقتلنا بيديه .. وهذا عين الصواب .

وقالت الام وهى تنظر إلى ابنتها فى فرح :

- الا تخافين ؟

- الموت حق يا اماء .. كلنا ستموت يوماً ما .. فلنمت الآن دون أن نلوث
شرفنا ..

وانتهى حديثهما ، ولكن ما الذى كان يحدث فى الشارع فى تلك
اللحظات ؟ اندفاع عنيف هنا وهناك . مزيد من الطلقات ومزيد أيضاً من
اللعنات .

وقالت "رينيو" وهى تفتح الشباك بحذر ..

- أليس هذا هو صوت "افندينا" ؟

وكان هو صوت افندينا بالفعل .. حين رأى الجمع العرى الهائج يندفع
فى اتجاه بين "الكابتين ميخائيليس" ، احس بقلبه يتخلع .. كان يحب
"الكابتين ميخائيليس" رغم انه كان يرغبه مرتين كل عام على أن يرتكب
المعصية .. بل ربما كان يحبه من أجل ذلك بالذات ! وكيف يمكن أن تكون
حياة "افندينا" بدون هذا الوحش اليونانى ؟ "أى سعادة أولدة فى الدنيا
يمكن أن أحصل عليها انا البائس التمس ١٩ إن أمى تشرينى ، وسكان
"ميغالوكاسترو" كلهم - أتراكا ومسيحيين - يرجعونى بقشر الليمون ،
واست امك تقودا .. ولا زوجة . وليست امك شجاعة الاطفال .. لاشىء . لا
شىء سوى "الكابتين ميخائيليس" . إننى لأعد الايام والشهور أنتظر المتعة
حين تعود فتجىء كل ستة أشهر .. وانتظر معها المعصية والخطيئة .. ومن
يدرى ١٩ إن الله واسع الرحمة ، وهو سبحانه عظيم السخاء .. ربما أصبح
أنا الآخر - بعد موتى - ولياً من الأولياء ، فيشيدون لى ضريحاً لى جوار

شريح جدى .. بارك الله "الكاتبين ميخائيليس" اكانت سستنج لى
الفرصة كيما اصيح وليا .. لولا "الكاتبين ميخائيليس" ١٤ .

وتبض قلبه بالغضب :

"لا .. لا .. لن ادعهم يقتلون "الكاتبين ميخائيليس" ! كم هو نبيل
وهمام ! وما اروع ضميره وكعكاه ! وما احدى المقاتل عنده ! وما لذ الدجاج
والخنازير السمينة !"

واحسن يرأسه كان يحترق ، ففقر مندفعاً فى اثر العربى .

ونسى ان الشوارع تصيح امامه كالترع ، واجتازها دونما تردد لينتقد
صديقه . واعترضه عند "الشارع العربى" جماعة من الاتراك يحملون
الاسلاب .

- الى اين يا الفدينا ١٤ .

وكونوا حاجزا يعترض طريقه .

وتوقف "افندينا" لاهت الانفاس .. فى حيرة لا يدري ماذا يقول او
يفعل . لايد ان العربى الان قد وصل الى البيت - ولعله الان يحطم باب
البيت .. بل لعله يقتل "الكاتبين ميخائيليس" .

وصاح "افندينا" منتحيا .

- الا تعرفون ربا فوقكم ١٤ دعوتى .. انا فى عجلة من امرى يا
اخوتى !

ومرقت بشاطره فكرة .. ونظر من فوق اكتافهم . ثم صاح :

- القديس ميناس !

وانفجر الاتراك ضاحكين .

- ايها الملحدون .. لماذا تضحكون ١٤ الا تسمعون وقع حوافر جواده ١٤

لقد رأيت يخرج من الكنيسة - ففزعت - الا تسمعون ١٤ ها هوذا ! .. ها هو
ذا !

وقف شعر رؤوسهم . هل سمعوا حقا صليل عده القربى ١٤ اكان هناك
حقا فارس يقترب ؟

- هذا هو !

ولكن الاتراك لم يستديروا لينظروا ، فقد اطلقوا سيفانهم للريح ..
وعندما راهم "افندينا" يعدون ! وقف وقد استبد به الفزع .. ابلغ من قوته
وتأثيره ان جعلها حقيقة واقعة ١٤ .. ما اعجب ! - ولكن ؟ ألم يره حقيقة فى
الانتفاضة الاخيرة وهو يطارد الاتراك الذين كانوا يحاولون اقتحام الكنيسة
عنة ١٤ .. واحسن بالعرق البارد يتصيب من جسده .. الان يستطيع
بوضوح ان يسمع وقع الحوافر .

وصاح وهو يلم اطراف ثيابه ويندفع عدوا .

- الله .. الله !

وعندما اصبح بجذاء نافورة "ايدومينياس" رأى جمع الغوغاء على وشك
ان يدفعا باب البيت ليقطعوه .. فاندفع نحوهم وهو يصيح :

- انتبهوا يا اولادى ! سوف يلتهمنا ! .. انه قادم على ظهر جواده !
وصاح العربى هادرا :

- من تقصد ايها الايله ؟

- الجار .

- اى جار ؟

- القديس ميناس .. ها هو ذا !

واستدار الجميع .. وبدأ كل شئ يتراقص امام اعينهم .. ولم يعودوا
قادرين على تمييز الاشياء .

وصاح "افندينا" وهو يتشبث بباب بيت "الكابترن ميخائيليس" وكان به
مس .. وكما لو كان يريد أن يختبئ حتى لا تقع عليه عينا القديس القادم
بجواده .. لا بد أن يكون قد مر بنافورة "إيدومينياس" إنه لقادر على أن
يعيظه بوضوح بمرآة الذي لا يتغير والذي يبدو في صورته المرسومة فوق
الايقونة : وجه لوحته الشمس . وشعر ابيض ولحية بيضاء .. فوق ظهر
جواد احمر - أرجواني ذي سرج ذهبي .. ان الغشاء كله حول نافورة
"إيدومينياس" ليمنته تماما بذلك الشعر الأبيض .. والجواد الاحمر
والسرج الذهبي .

وهمس في ذعر .. وفكاه يرتعشان :

- ها هو ذا .. انه ملء البصر .

- اين هو ؟ اننى لا اراه بوضوح !

- احقا لا تراه ؟ ها هوذا ! اسود ذو شعر ابيض فوق سهوة جواد
احمر .. لقد وقع بصره علينا ، إنه قادم نحونا !

وقفز بعيدا عن الباب مندفعا في اتجاه الميناء .. وخلفه اندفع الباقون
يلهثون بأقصى ما يستطيعون من سرعة ، هم ايضا سمعوا صوت الجواد -
وإنه ليعود خلفهم - اما العربي سليمان ، فقد استدار لحظة .. واستطاع
أن يعيّر جوادا .. وفارسا .. فصاح :

الفرار يا اولاد .. الفرار .

وانزلق "البرنس" من على كتفيه وسقط فوق الأرض ، ولكنه لم يجد
الوقت لينقله !

وحين وصلوا الى الميناء .. لا هنى الانفاس ، خلفوا عرقهم وانكشوا
في الظل وقد نادت الستهم وأخذوا ينخرون كالكلاب .. بينما تهافت
"افندينا" إلى الأرض ووجهه الى الأرض . وهو يتلوى .

بدأت "ميجالو كاسترو" تنن تحت سكاكين الاتراك ، ورفع المسيحيون
أيديهم الى الله في توسل .. ورسم المطران علامة الصليب ، فلم يعد

يستطيع أن يظل جالسا هكذا يستمع الى اثنين رعيته وسط المذبحة ،
وتنهض واقفا وهو يفهم : "الله معي" .. ثم صلف بيديه ، فظهر
"مورزوفلوس" .

وقال المطران :

- سوف اذهب الى الباشا ، احضر لى روائى العظيم .

فساله "مورزوفلوس" :

- وتخرج الى الشوارع ياسيدى ؟ إن الاتراك فى هياج . انا قادم إذن
معك ؟

- سوف اذهب وحدى يا "مورزوفلوس" ، فساعدنى على أن اضع
الرداء .

وثبت الرداء على كتفيه ، ووضع القلنسوة فوق رأسه الذى يشبه رأس
الأسد ، وامسك بعصاه الطويلة .. ذات الانشوجة المجدولة .. وقال "باسم
الله"
وظل "مورزوفلوس" يحدق فيه بيمصره فى اعجاب بالغ : هذا المظهر
الرائع ، والجسد السالمق ، واللحية البيضاء .. وهاتان العينان البراقتان
المليئتان بالخير .. هذا هو النموذج الذى سوف يكون امامه حين يرسم
لوحة الله .. الأب ، تحيط به سحائب ذهبية وهو يهبب فوق "ميجالو
كاسترو" ليضع نهاية للمذبحة .

وفتح باب مقر المطران .. وكان ثمة كلمات مكتوبة بحروف سوداء
ضخمة فوق الرخام الذى يطويه : "فى هذا المدخل ، شقق الاتراك مطران
"ميجالو كاسترو" عام ١٨٢١ . تقدست ذكراه إلى الابد" .

ونغمم المطران وهو يجتاز عتبة الباب : "تقدست ذكراه الى الابد" .

وجالت الدموع فى "مورزوفلوس" وهو يقول فى صوت مرتعش :

- الله معك .. والقديس ميناس معك ياسيدى .

واجابه المطران وهو يشير الى الكلمات المكتوبة :

- لا تبتس يا "مورزوفلوس" : لست الاول .. وان اكون الاخير .

وعبر ساحة الكنيسة .. واحضى راسه تحية "للفديس ميتاس" . حين مرَّ ببابه . ثم اوسع الخطى في اصرار متجهها الى مقر الباشا .

وتابعه "مورزوفلوس" ببصره وهو يتجه وحيدا الى معركته مع الموت .. واخص بالشغل لانه تركه يمضى وحده : "هذه هي اللحظة التي ترى فيها يامورزوفلوس ما اذا كان هذا الذي بداخلك روح .. ام مجرد معدة .." .
ورسم علامة الصليب . وانسل في اثر المطران .

كان الطنين يلف المدينة : المسيحيون يصرخون . والترك يتهدرون ويشحكون . ومن خلال هذا الطنين كان بمقدور العره ان يميز اصوات التحية فوق جثث الموتى .

وتابع المطران السير وقلبه يتفطر لما يسمع .. وظل يتهدد : "إلى متى يظل الهلينيون مشدودين الى صلبانهم ؟ نحن بشر يا ايها المسيح .. ولينا الهة ! لا قبل لنا بهذا العذاب .. فهات القيامة إذن !"

كان يوسعه ان يحس بالمدينة بكل جدرانها وبيوتها وبكل البشر فيها .. وكانها هي ذات جسده .. وبأن قلبه يتعرق مع كل باب في المدينة يتهاوى ومع كل امرأة تضرب صدرها تنعى قتلاها .

وكان ثمة جمع من الترك السنكاري الذين لوئتهم الدماء . يقتربون قادمين من ساحة السوق .. وحين وقعت ابصارهم على المطران بشبابه المذهبة توقفوا في ذهول وهم يصيحون : "من يكون هذا الوحش القادم هناك ؟ إلى اين هو ذاهب ؟؟ .. ابتعدوا عنه .. الله المستعان عليه : الا بطانا باقدامه" .

وكان المطران يسير الى الموت في خطوات ثابتة وعيناه الممثلتان بالاسى والغضب والهلعة على الاستشهاد لا تكادان تبصران شيئا حوله :

لا الشوارع .. ولا الناس ولا حتى - إلى اليمين منه والبسار - دكاكين اليونانيين ثمة شيء واحد كان يحفل تفكيره . "ياالسعادتي ، حين أقتل في سبيل ان يتحرر قومي ! .. هذه الكلمات التي نطق بها المسيح وهو فوق صليبه .. كلمات الالم والمعاناة ؟؟ .. إلى .. إلى ! .. إنها لتعنى يلهفة الفداء "السعادة" ! .. المعاناة" .. وهمس المطران بذات الكلمات وهو يوسع الخطى أكثر كلما اقترب من الحرم الباشوى . وخلفه كان يسير "مورزوفلوس" كالكلب .

ووصل المطران الى حيث تنتصب الشجرة العارية . مهيبة وسط الخضرة الرطبة وحفيف الاوراق . وجذعها يبدو مرقشا كجلد الفهد .. وتراقصت عينا المطران وكأنه يرى آف مسيح يتدلون من اعصانها .

واعترضه عند بوابة الحرم الباشوى جنديان .. واسرع "مورزوفلوس" الذي كان يجيد اللغة التركية وتحدث اليهما فسمحا للمطران بالدخول .. واسرع "مورزوفلوس" ليفتح الابواب .

وعندما وقعت عينا "الباشا" على المطران : تجهم وجهه . لقد كان مستندا الى النافذة يسمع نجيب "ميجالو كاسترو" على موتاهما .. كان هو ايضا - رغم كونه انشوليا طبيب الاصل - قد اصبح متوحشا . ربما كان ذلك بسبب الظمأ التركي الازلي لدماء اليونانيين .. ربما كان هذا هو الذي ايقظ فيه وحشيته . ورغم ذلك ؟ فقد كان يحس بالخجل من انه - وهو الباشا - لا يجد في نفسه الشجاعة على ان يأمر بوقف المذبحة .. وأن يستل العدى والخناجر من ايدي الاغوات .

ووقف المطران يملا فتحة الباب .. وصاح :

- ألا تخاف الله يا باشا ؟؟

ورد الباشا في غضب ..

- لماذا ارضيت هذه الثياب ياقسيس الكفرة ؟ هل تظن انك تفرعنى

بها ؟؟

وعاد المطران يصيح وهو يشير بأصبعه الى السماء :-

- ألا تخاف الله ؟ ألا تهتك هذه الدماء المسفوفة ؟ أتعرف غلام سنقع هذه الدماء ؟؟ على رأسك أنت !

- اسمع يا مطران .. لا تصرخ هكذا .. وتذكر أن الشجرة العارية ليست بعيدة عنك !

- والله ايضا ليس بعيدا عنى يا باشا .. لست خائفا .

واستدار نحوه الباشا مبتهما عن النافذة . واخذ يذرع ارض الحجرة جيبة وبهايا .. ثم توقف فى مواجهة المطران وهو يتخصصه من قمة رأسه الى الخمص قدميه دون أن يعرف كيف يتعامل معه . وتصوره لخطتها بكل هذه الثياب اللالامة معلقا فى الشجرة العارية .. ولكن الربح منه . ولكن يبقى أن هذا الغم اليونانى الوقح لا يد أن يوقف عند حده ! فهو لا يحتمل ! .. وصاح هادرا :-

- لا تجعلنى افقد اعصابى . اخرج ! إننى اقولها لك من مصدر الرحمة بك . أنا لا تخاف احدا !

واضطر المطران الى أن يدع "الله" جانبا . وأن يحل "السلطان" محله !

- حسن .. أنت لا تخاف الله . ولكن .. ماذا عن السلطان ؟ أنت تعرف جيدا أن كريت تسبب له القلق دائما . وانه يريد أن يسودها السلام .. ولعله من أجل هذا قد بحث بك إلى هنا . فما فعلت أنت ؟؟ سمحت بأن تحدث مذبحة ! والمذبحة سوف تؤدى الى ثورة .. والثورة سوف تلتفت انتباه موسكو .. معذرة يا "افندينا الباشا" . ولكننى استطيع أن أرى رأسك على وشك السقوط .

وجمد الذعر الباشا .. فهو ايضا رأى رأسه على وشك السقوط .. وتسائل فى خوف :-

- وماذا استطيع أن افعل ؟؟

- لا تضع لحظة واحد .. مر الجنود بأن يدقوا طبولهم إشارة بوقف المذبحة أصدر أوامرك ! .. هدد ! أنت الباشا ! فاثبت ذلك إذن !

وضغط الباشا رأسه بيديه كما لو كان يحتاج الى من يسند . ثم ما لبث أن صاح :-

- لعن الله الساعة التى وجدت فيها نفسى فوق هذه الجزيرة الشيطانية !

ثم نظر مثضوعا الى المطران :-

- سيدى المطران : "لماذا تقفون هكذا على عتبة الباب ؟؟ تفضلوا واجلسوا حتى نرى سويا ما ينبغى أن نفعله لوضع نهاية لهذا الامر .

وبينما تتناقش وتتكلم .. سيكون هناك مزيد من المسيحيين الذبايح ! أنا لا استطيع أن اجلس .. استدع جنودك لولا واصدر اليهم أوامرك ! ولن اجلس قبل أن اسمع دقات الطبول .. كما اننى ايضا لن اغادر هذا المكان قبل أن اسمعها .

- فليأخذكم الشيطان جميعا .. اللعنة عليكم جميعا ايها الكوييتين .. الصالح منكم والظالم .. جميعا !

واتجه فى هياج إلى القاعة المقابلة . وارتفعت صيحاته واقسامه .. كما سمعت اصوات الضباط وهم يهرعون بسيقومهم وجرابهم .

وتنهذ المطران فى ارتياح : "إن الله قد رأى اننى لا استحق أن أشتق على باب المقر . لا بأس ؟ يكفى أن ينقذ المسيحيين" .

وعاد الباشا وقد عقد ما بين حاجبيه . وقال :-

- سوف نسمع الطبول الآن .. اذهب .. كلفانى من هذا الامر ما كان .. ولا اريد أن أرى الآن مخلوقا .. اهى ارضى هذه التى اقف فوقها .. ام يرميل بارود .

وفي نفس اللحظة استدار "الكاتبين ميخائيليس" الى "تاراساكي" الذي كان راكماً بجوار ابيه يرهف السمع الى ماكان يجري في الشارع - المدينتا يصيح ، والعربي سليمان يبس ويلعن ، وخطوات الرجل تتباعد .. ثم سكون مفاجئ . ساد الحي باكمله إلا من النحيب في بيت "إيدومينياس" .

- هل انت جائع يا كاراساكي ؟؟

- نعم .. انا جائع يا ابي .

- فأطلب إذن من امك ان تنزل وتعد لنا طعاما .. اعتقد ان الحكاية انتهت بالنسبة لهذا اليوم .

واسند بندقية الى حافة الحوض وتناول صندوق الدخان واعد لنفسه سيجارة .. وحين عاد لسمع النحيب ! توقفت اصابعه عن الحركة .. وارهب السمع .. "لقد قتلوا إيدومينياس ، وهذه خادمته العجوز تنحب" .

وهز راسه . وهل كان إيدومينياس رجلاً ؟! انيكن ان يكون قد ابدى ادنى مقاومة ؟! لاشك انه استسلم للذبح كما يستسلم الحمل في عيد الاضحى .

وحين وضع السيجارة بين شفتيه ، سمعت نقات الطبول .. وبدأت تتناهى اصوات خطوات منتظمة .. ووقف "الكاتبين ميخائيليس" وفتح الباب في حذر وراى قرابة العشرين جندياً يهرون في الشارع واسلحتهم فوق اكتافهم في دورية وامامهم مناد يصيح : "السلام .. السلام .. اخرجوا من بيوتكم ايها المسيحيون" !

وفي اليوم التالي اصدر الباشا امرا : "مأحدث .. فقد حدث وانتهى .. إن الغدر شاء ان يموت ذلك ! ولكن السلام يجب ان يسود الآن . لن يخدش الآن انف واحد ! وسوف تفتح بوابات القلعة ، ويستطيع المسيحيون من ثم ان يعودوا من القرى .. ويستطيع الفلاحون المسلمون ان يعودوا الى القرى . ويجب على هؤلاء الذين خرجوا الى القرى لقائهم .. ان يضعوا اسلحتهم ويعودوا الى اعمالهم ولن نمس شعرة واحدة منهم ! السلطان

رحيم يعفو .. ايها المسلمون .. ايها المسيحيون . استمعوا جيداً الى كلمات الباشا ، فالشجرة العارية لاتزال في مكانها .. "الانشوطة تنتظر اعناق العصاة" .

ومسح الاتراك خناجرهم .. وعادوا يجلسون في مقاهيم يدخنون التوجيلة ويستمعون بعيون ناعسة الى الصبي التركي غليظ الراس وهو يطلق غناهم ذا الالمان الرتيبية ، في صوت نسائي ، وخرج المسيحيون من بيوتهم وبدعوا يجمعون جثث قتلاهم ، ويعثوا في طلب "كوليفاس" من قبرينه ، واشترك "مورزوفلوس" و"كاجاييس" و"فيندوسوس" و"فوروجانوس" وآخرون بمعاولهم في حفر خندق عميق بأرض المقابر بالقرب من بوابة "كاينا" .. بينما حفر آخرون قبوراً لموتاهم في ساحة كنيسة سيناء للقديس "ماثيو" .. بالقرب من البيروفلا .

وبدا الاب "مانوليس" يجمع الموتى خمساً قحماً .. وقد شعر عن ساعديه .. وبعث بهم الى السماء في صلوات قصيرة متعجلة .

وعلى ثلاثة ايام كان الرجال يحفرون القبور .. وكانت النساء ينظفن عتبات الدور ويحرف النوم من آثار الدماء .. وينتحن في صمت حتى لاسمعهن الاغوات فتثور ثأرتهم من جديد .. حيث كان لا يزال في نظراتهم ماينم عن رعشة ما بعد المنذحة .

وفي اليوم الرابع : استدعى "الكاتبين ميخائيليس" ابنه "تاراساكي" الى غرفته الصغيرة وقال له :

تاراساكي .. لقد حان وقت الثورة ! ليلال الباشا ما يريد ، فهو اتاضولى لا يفهم شيئاً اكريت حينما تشتعل فيها النار .. فليس من السهل بعد ذلك اخذها .. هل تفهم ؟!

- افهم ياوالدي .. ليس من السهل بعد ذلك اخذها .

- اول شيء تفعله في الغد . ان تخرج النساء والاطفال من مجالر

كانترو .. وسوف اكون انا في المقدمة ، وانت ستكون في المؤخرة .
مفهوم ؟

- وهل احتفظ بقدراتي ؟

- ماذا ؟ وهل تتصور اننا لن نكون مسلحين ؟ نحن ذاهبون الى بيت
جدك ، فأخبر امك بان تستعد .

وفي المساء ، امتطى "الكابتن ميخائيليس" سهوة جواده متوجها الى
بوابة المستشفى حتى وصل إلى فندق الأرملة ، فترجل وأرسل في طلبها ..
فاطلت سميئة .. منحنية .. تتعثر .

- سوف اترك مهزتي هنا هذه الليلة .. اطعمها جيدا وسوف اعود
لاخذها . في صباح الغد . واعدي لي ايضا ثلاثة حمير .

وقالت الأرملة في بطنه وهي تشد وسطها في دلال :-

- معنى هذا ان العنيزة لم تنله بعد ؟

فأجابها وهو يستدير بلا ابطاء متخطيا الحائط :-

- بل انها تبدأ الآن .

ثم اوسع الخطى نحو باب اللقعة الذي كان لايزال مفتوحا .

كان الوقت ضيقا ، وثمة ريح جنوبية تهب قادمة من الصحراء الليبية ،
تثير الغبار الذي يعنى الإحصار ، واتجه "الكابتن ميخائيليس" صوب البحر
ليبتدئ قليلا ، واستطاع من مكانه على الشاطئ ان يرى جزيرة "ديا"
المهجورة .. غارية تماما .. حمراء اللون .. تبدو وكأنها سلحفاة بحرية
تسبح في مياه البحر . لقد ابهر اليها يوما من الايام عندما احس
بالضيق .. استقل زورقا واتجه إلى الجزيرة فوصلها بعد بضع ساعات ..
وحده .. وهناك القى مراسيه عند ميناء "كل القديسين" الصخري
الصغير ، وتسلق ارض الجزيرة صوب الجهة الاخرى منها تحت وطأة

الشمس المحرقة .. والصخور امامه تلعب .. والهواء يرقص .. ورأى ثمة
خليجين صاخبين يمتدان منحدرين في روعة .. والارانب الجبلية تمرح بين
الشقوق وتحقق فيه يعيونها .. واتجه "الكابتن ميخائيليس" الى القعة ورمى
ببصره : سكنون شامل .. الجزيرة كومة من الصخور يحيط بها البحر من كل
جانب داكن الزرقة وحشش الامواج . والهواء تقى لم تلوته انفاس بشر ..
ولحظتها قال لنفسه : "هنا اتمنى ان اعيش .. فوق هذه الصخور .. لقد
سئمت الماء العذب والحشائش الخضراء والبشر جميعا" .

وحدث الخطى عائدا الى بوابة اللقعة واجتازها ، وكان ثمة بضع جنث لا
تزال ملقاة في الأزقة ورائحة العفن تتصاعد منها . وتوقف عند بين
"قويوجانوس" الصغير ، ودفع باب ويخل "الزرية" النعسة وجال ببصره
وهو ينادي : "هل هناك احد ؟"

وتناهى اليه من احد اركانها صوت ضعيف كأنه صوت طائر من
الطيور .. ومن خلف جذع شجرة غليظ منتفخ .. برز "بيترودولوس" عارى
الرأس .. مذعورا .. يسأل كما لو كان لايرى احدا .

- من هناك .. من هناك ؟

- لا تخف ياسيد بيترودولوس .. إنه انا .

عرف الرجل "الكابتن ميخائيليس" .. وعاد قلبه إلى مكانه ، فتقدم نحوه
رافعا يده كما لو كان سيرفع قبعته تحية له .

- مرحبا بسيدى النبيل ..!

- هل انت مريض ياسيد بيترودولوس ؟ اسنانك تصنك ، هل اصابك
برد ؟

- كلا يا كابتن .. انما انا مذعور .

- الا تخجل من نفسك ؟

- كلا يا كابتن ..

ثم تدثر بمعطفه وجلس مستندا إلى الحائط ، ورسم علامة الصليب وهو يقول :

"كبرى اليسون" لقد مر بخاطري سؤال .. كيف يمكن لاتيمان ان يرفع سكينه ليقتل انسانا آخر لا يستطيع ان يفهم .. إننى لا اقوى على ذبح حمل ، هل قلت "خجل" ؟ .. لا .. هل تصدق ياكابتن ان قطع خيابة .. يجعلنى ارتعد ؟

- أين "فوروجاتوس" ؟ -

- يحميه الله ياكابتن .. ماذا اقول ؟ انه قلب من ذهب .. عندما بدأت المذبحة جاعنى يبحث عنى واخذنى معه . لم اكن استطيع السير من شدة الربح . فحملنى بين ذراعيه . ووضع قيثارته فوق كتفه وخرج الى الشوارع التى امتلأت بغوفاء الأتراك . اى شوارع ياكابتن ا واية اقدام ا خبات وجهى داخل عباى حتى لا أرى شيئا .. ولم يزلنى هو من فوق ذراعيه إلا عندما وصلنا الى بئر الماء فى الساحة حيث اندفعت زوجته نحونا ثم صاحت عندما وقع بصرها على : "إنهم يحاولون قتلنا وانت تعمل القيثارات ؟" .. لقد عدتتى انا ايضا من القيثارات ا ولكن الله كان رحيمنا بنا ، فقد هربت فى اليوم التالى الى قريتها فتحصننا منها .

ويظهر "فوروجاتوس"

مرحبا "بالكابتن ميخائيليس" فى هذه الحظيرة البائسة .. انا اعرف ماتريده متى ؟ فقد جئت لتوى من بيتك . متى ؟

- غدا .. وادع "فيندوسوس" و"كاجابيس" ايضا ان الحرب هى ايضا وليمة وانا ادعوك اليها .

وقال "فوروجاتوس" وهو يشير الى بيترودولوس :

- حسن يا كابتن . ولكن ماذا عنه ؟ -

ركاب "بيترودولوس" يستمع وعيناه مفتوحتان جيدا . وفهم فيم يتحدث

هذا الكريستيان : فى البنادق والجبال وامانكن الاحتباء . ويدات اسنله تصطك من جديد .

ونظر "الكابتن ميخائيليس" الى الرجل العجوز ذى الاصل الطيب . والذي كان قد اشفى نفسه تماما داخل عباىته . وقال :

- سوف تاخذنا معنا هو ايضا .. رجل واحد لن يضرنا ، سوف يكون ضيفنا ، اطل الكونت برامه وقد وقفت الشعرات الخمس او الست العتيقة فى رأسه . وصرخ :

- فى الجبال ١٢ والبنادق ١٢ .

وقال الكابتن :

- لا .. بل مع النساء والاطفال .. تنسيهم كل شيء بحكاياتك وثرثرتك .. ثم اتجه نحو الباب وهو يقول :

- حتى نلتقى مرة اخرى .

وسأله "فوروجاتوس" :

- واين سنلتقى ياكابتن ؟ -

- هناك فى "سليينا" اعلى "بيتروكيفالو" فى حظيرة اغنام "سيفاكاس" .. وخرج يسير بيده وسط الأزقة ، بينما كان "ياربايانيس" منتجها اى بيته وهو يحمل صفيحة البيرونية الفارغة مجهدا مهموما ، وعندما رأى "الكابتن ميخائيليس" توقف وقال :

- يا كابتن .. لقد سألت دماء كثيرة .. فلنفكر إذن كيف ننتقم لها .

واكّن الكابتن اراحه بيده . فلم يكن يعمل الى البلهاء . وانصاف البلهاء . وتابع صميدا مارا للمرة الثانية ببيت الكابتن سنيبايس . وكان هذا القبطان المعتد برأيه يجلس وحيدا فوق اريكة صغيرة يرتق ثيابه . فقد كان - كغارس قدم - يجيد كل اعمال النساء . وكان يكس بيته الصغير كل صباح

كما لو كان البيت سطح سفينة .. ويملا مصباح "القديس نيكولوس" بالزيت بالرغم من أن القديس لم يعره التفامة حين غرقت السفينة "داردانا" وهبطت الى قاع البحر .. "المسكين" .. إنه لا يستطيع - بالقطع - أن يهرع لاتقاذ كل السفن التي تصادفها المتاعب في البحر . ومن حقه على أية حال أن ازود مصباحه دائما بالزيت . ذلك ماكان يقوله كل صباح وهو يملا المصباح كل صباح .. وحتى حالته ..

رفع رأسه من فوق الأبرية ، وقال وهو ينحنى :

- مرحبا "الكابتن ميخائيليس" ، أى ريح وحشية التت بك هنا ؟!

وحقق فيه "الكابتن ميخائيليس" فى صمت .. فقال "ستيفانيس" :

- فهمت .. أنت تستعد للخروج الى الجبال وقد جئت لتصنعنى معك . ولكن إذا كنت تفكر فى إضافتى الى قائمك . فلا تفعل .

لنت ايضا تريد أن تخرج الى الجبال .. هذا ما اعتقده . فتعال إذن معى ياكابتن "ستيفانيس" .

- قلت لك اخرجنى من قائمك .. انا لا اصطحف فوق الأرض .. فالأرض تتطلب سيقانا .. وأنا كما نعرف .. اخرج .. انا ذاهب الى "سيريا" .. الى "اللجنة الكريتية" .. فسوف احصل منها على سفينة . ثم استدار الى الأيقونة :

- هل تسمعنى ياقدوس نيكولاس ؟ لا تخدعنى هذه المرة .. كما فعلت فى آخر مرة !

- الى اللقاه إذن ياكابتن ستيفانيس .. واغفر لى إذا لم ارك مرة ثانية .. وعسى الله أن يفكر لك .

وضحك ذئب البحر :

- هذا بالضبط ماقله لى بوليكسيجيس قبل يومين . ايها الاحمق . انا لى اموت فلا داعى للوداع إذن .

ثم برقت عيناه المعجوزان الساخورتان وهو يتأدى "الكابتن ميخائيليس" الذى كان فى طريقه الى الباب .

- كابتن ميخائيليس ! لقد سبقك اليها بوليكسيجيس ، فقد رفع اللواء وأعد مقر قيادته فى قرية تركية تدعى "كاستيلى" . واصطحب اليها معه - كما يقولون - إحدى الهوامم الصغيرة .

وتوقف "الكابتن ميخائيليس" وقد تجهم وجهه وتراقصت الدنيا امام عينيه وحوله . وشدد قبضته على المزلاج الحديدى حتى تهاوت المسامير التى تشده الى الباب . واحس كأن البيت يتهاوى قبل أن يقفز مندفعاً الى الطريق .

- هيه .. كابتن ميخائيليس .. ايها الاب المغفوس ، يجسبك أن تتأدى ! "امينة" ! .. وسوف تخرج اليك على الفور .

وبدا الثلاثة فى الصباح الباكر من اليوم التالى : سار الكابتن ميخائيليس فى المقدمة وغدارته وخنجره سارت زوجته منتصبه القامة بلا خوف وقد حملت طفلها بين ذراعيها والى جانبها ابنتها "رينيو" وبيدها قطعة من القماش تضم فيها اصغر ثيابها وحلى أمها . وفى المؤخرة سار "تاراساكى" وهو يشرب بقامته ليبدو أكثر طولاً . اما على افا فكان قد سبقهم يتقدمهم بساعة من الزمن .. يقود حمارين ينتظر بهما عند الاقباة الثلاثة .

وكان الجنود يقفون بوجوه متجهمة يراقبون بوابات القلعة وقد وضعوا اسلحتهم فوق اكتافهم . بينما جماعات من الفلاحين يجتازون القباة البوابة يحدون ضجة وعلية كثيفين الى جانب سهيل ونهيق حيواناتهم . ورفع "الكابتن ميخائيليس" عيانه ووضعها امام وجهه كما لو كان يتلقى الغبار المتصاعد . ثم انسبل لثيوه وسط الزحام بينما صاح "تاراساكى" فى النساء : "اسرعن ! اسرعن" .. ثم اندس هو الآخر بين الجموع يلعب ويغنى ويصغر بقعه فى لاميالة .

وقرب المساء ، وصل الجميع إلى المزرعة الأم .. مزرعة الكابتين "سيفاكس" الجد .

وامام ساحة الدار رأوا جمعا كثيفا من الاحفاد من الذكور والاناث . كانوا قد توافدوا على المزرعة خلال الايام الدامية في "ميجالوكاسترو" ليجمعوا محصول العنب ويشعروه داخل محصرة ضخمة داخل الساحة . وكان ثمة شباب اقوياء عراة حتى خصورهم يعطرون العنب باقدامهم وقد انتشوا برائحة العصير .

وارتعشت خياشيم "الكابتين ميخائيليس" في بهجة وكانتما هذه الرائحة هي في عذوبة الدم بالنسبة اليه . وصاح : "تحياتي ايها الاحفاد" .. واستدارت زوجته نحوه في دهشة .. فقد بدا لها - لأول مرة - ان صوته يحمل رنة البيهجة .

وسار الاثنان في وسط الساحة بينما تقدم الجد نحوهما مرحبا وهو يمد ذراعيه يا اولادى ويا احفادى .. كلوا واشربوا .. فكل شيء لكم .

وقال "الكابتين ميخائيليس" :

- سوف اسلمك زوجتى واولادنا .. فانا ماشى الى الجبال .

لا باس يا ميخائيليس ! لقد كنت دائما مورا نافرا منذ طفولتك .. ولم تعرف الحذر حتى اليوم .

- سوف اعرف الحذر .. فقط . عندما تتحرر كريت .

فقال الجد مازحا :

- من الافضل إذن ألا تتحرر . فلو انك اصبحت حذرا . فسواء إذن ان تحيا او ان تموت .

وهكذا - في عاطفة خياشيم - كان حديثهما حتى وضعت المائدة الضخمة داخل البيت .. وتركه يتأمله واحفاده مع ابناؤه الاحياء منهم

والاموات . وتحركوا هم في كل مكان حتى امتلأت بالاسرة ارض المنزل والساحة وغرف النوم في الطابق الاعلى والاسطح . فقد تجمعوا في تلك الايام الخطيرة قادمين من القرى المجاورة كيما يعيشوا في كنف العجوز الشهم وحمائته .. ومعهم حميرهم وبغالهم ومواشيهم وكلابهم وقطعان اغنامهم . وانضم اليهم اخيرا فرس "الكابتين ميخائيليس" .

ولقد اثار مقدم "الكابتين ميخائيليس" القرى المجاورة . وفي اليوم التالى امتلأ هو صهوة فرسه . في جولة قيادته لتحريك الثورة . وكان يصيح في وسط كل قرية :

- يا اخوتى .. لقد سال دم عزيزى "ميجالوكاسترو" دم عزيز .. إن الشرف ينادينا بان نتقدم له .. إلى الامام الى السلاح" . ثم غادر القرى ساعدا جبل "سيلينا" حيث غرس رايته امام حظيرة - ابية - قطعة من القماش الاسود كتب عليها باللون الاحمر : الحرية او الموت . ثم بعث بفارسين إلى قمة الجبل ليشعل نارا . ولم يعد الفارسان إلا بعد ان بعثوا بالاشارة الى مختلف القم في الشرق والغرب حتى انتشرت الرسالة .. وانتشرت النيران .

وسمع "تيودورس" من حراسه ان عمه قد وصل . وعندما قابلته بادره بان قبل يده .

- ايها المجنون "تيودورس" ! .. الم اقل لك ان نثزم عشك !؟ ولكنك تعجلت وعصيت امرى . انزل رايك وخيبتها في صدرك . ولا تخرجها الا اذا انا قتلت .

ورأى الفرسان في شرقي كريت إشارة الشطر . وادركوا مضمون الرسالة .. وتجمعوا في حظيرة العجوز سيفاكس .. وبعث "ميخائيليس" إلى ابية يسأله ان ياتن له في ذبح خرافه لاطعام القادة .. واجابه ابوه :

- إنه لحظ كبير لخرامى ان تكون طاعما للقادة .. ولكن لا تقرب الكبيش الاسود ذا الجرس . فإني ابقى عليه ليذبح عند موتى .

في الخامس عشر من أغسطس - موعد الاحتفال الملكي برؤية العذراء - جلس الفرسان معا في صف واحد في ساحة الحظيرة بينما كانت الخراف تدار على السفائيد ، وصعد الجند إلى الجبل ليشارك في الاجتماع الوطني .

كانوا اربعة عشر فارسا لكل منهم تاريخه الذي يحيط به كازيج الزهور ، وكان ثمة ثلاثة خالدون بينهم أعد لهم خصيصا عرش مزفوع من اريكة مغطاة بفراء الاغنام . وجلس إلى اليمين واليسار منهم الشباب الاصغر ممن هم تحت سن السبعين .

جلس الجند في منتصف اريكة : رجل في المائة من عمره كالأسد العجوز . يلحيته المسدلة التي تغطي صدره المكسو بالشعر والملء بانثار جراح الثورة الكبرى ، وحاجبيه الكتيفين المنقوشين الذين يظللان عينيته حتى انه ليزيحهما بيده حين يريد ان يرى شيئا - وعلى الرغم من احواله المائة ، فإن خديه كانا في حمرة اللهب ، وكان الدم يكار يتجر من صدغيه عندما يغضب ، كانت شرابيته قد اصبحت بيضاء كالطباشير . وهي تسقى ذلك الجسد العجوز ، ولكن هذا الجسد كان دائم الظمأ .. تهما الى ان يشرب ويرتوي وكانما لم يشبع من الدنيا ، كان يلمسها ويراهها ويسمعها ويشمها ويتذوقها بنفس الاستيقاق الذي لدى شاب في العشرين من عمره ، وكان يرى الرجال والنساء مخلوقات ضئيلة تجوس حول قدميه .. ويأسف لحالهم ويرفع يده فوق رؤوسهم ليثبت الشجاعة في صدورهم ، ولم يكن يسعده ان تسيل الدماء البشرية ، ولكن الضيق كان لا يلبث ان يضطرم في عينيه عندما تتطور الامور إلى القتال .. وينسى ان الاتراك هم ايضا من البشر - فلا تتعب يداه بعد ذلك من ذبحهم .

كان الفلاحون يكرمونه كسدياته شامخة ، ويجمعون في ايام الاحاد والاحتفالات في ساحة القرية ليجلسوا عند قدميه ، فكانه - بسنيه المائة - يشبه واحدا من الالهة القديمة الخالدة - وكانوا يحيطون به عندما يتداولون في امر الحرية او العوت .. وعندما يبدأ واحد من فرسانهم في الحديث كان يوجه الحديث اليه هو .. لا يحول عنه بصره .

وعلى يمين الجند - في هذا الاجتماع - جلس وحشى آخر ادنى هو الكابتن "مانداكاس" بشعره ولحيته القصيرتين وعنقه الغليظ وقوامه الفظ ووجهه الملء بانثار سيوف الاتراك . كانت احدى اذنيه مفقودة ، فقد قطعها احد الاتراك في سنة ١٨٢٦ . وكان ثمة اصبعان مفقودان من يده اليسرى ، قطعهما هو بالفاس حينما لدغتهما حية سامة . وكانت سعادته الكبرى في ان يرى دماء الاتراك تسيل ، وكان يندفع كالاعمى نحو الجنود الاتراك كلما حملت كريت السلاح من جديد ، وتتحم القرى التركية كالعاصفة يسلب وينهب ويحرق .. ثم يهرب . وكان يقتل النساء التركيات ايضا ، ولكنه لم يكن يمسهن رغم انه اشتهر بانه زئير نساء . فقد كان يفرض على نفسه ان يتعد عن النساء ايام الحروب .. حتى امراته ، لم يكن يلمسها طالما كان يحمل بندقية ، وكان اذا ابصرها قادمة من بعيد تحمل اليه الطعام او الذخيرة صاح فيها : "لا تقتربي بعلتك الله ! لا تتثريتي ! اضعي كل شيء في طبق وانصرفي انتا" وما إن تنتهي ايام الحروب ، حتى يندفع في هذيان ممتع من قرية إلى قرية . ومن حضن الى حضن ! .. والآن ، وقد اصبح عجوزا ، فإن المتعة الوحيدة التي بقيت له ، كانت في ان يسير مختالا في طريقه الى اجتماع لبعض الفرسان وهو يزهو بفدائريته الفضيضتين وبانثار الجراح في صدره .

والى اليسار من الجند جلس الكابتن "كاستيرماس" القرصان .. طويلًا نحيلًا مثل صاري السفينة . حليقا ، لوحث الشمس وجهه ، ولم يكن يحظى بالمظهر الملوكي كالجد .. ولا ببطولات الكابتن مانداكاس . كان رجلا صعب العراس يتهم الله كثيرا .. وبمرارة ، وقد تعود طوال حياته ان يعمل منفردا يعتمد على نفسه فحسب ، ولكن قوته الآن كانت قد ذهبت .

اما الفرسان الأحد عشر الآخرون ، فقد جلسوا في صف واحد فوق الصخور . كانوا لا يزالون صغارا - في السبعين فقط او اقل - وكان احدهم راهبا في دير السيد المسيح .. ذا عينين زرقاوتين ولحية مرسلة . وكان من بينهم ايضا مدرس من بلدة "إمبارو" : مسخا مشوه الجسد لا يملك الناظر اليه إلا ان يتسائل "وماذا يفعل هذا الأرنب وسط هذه الوحوش الضارية ؟" .. ولكن ، على هؤلاء ان يروه فقط اثناء المعركة حينما تلتهب

روحه . ان في مجلس شراب عندما يلعب بقبائره فيجعل الصفوف ذاتها
توتض . ويجعل السامعين يتהלون الى الله "هبتى عشرة اذان كيما اسمع
عزله كما ينبغي !"

وكان الكاتبان "بوليكسيجس" هو الآخر موجودا وسط الجمع : سعيدا
تتألفا . يدارتبه القسيسين ويشاحه الحبريين الذي ينضح برائحة السمك
والذي كان هدية له من "امينة" . وجلس الى جوار "الكاتبين ميخائيليس" .
وتلاقت عيناها . دون ان تبادل احدهم الآخر حديثا .

وقال البعض : إنه كان ينبغي ان يدعى "ثيئروس" الى حضور هذا
الاجتماع . فقد اصبح هو الآخر وحشا مفترسا . لقد هجر الكتب وبدأ
يسبح في القرى ليتحدث الى الناس في الكنائس ايام الاحاد . وينهب النار
في صدورهم . ولكن الجد كان لا يزال يقول : "إنه ان يفعل شيئا في حياته
سوى الكلام" . . وكان يقول ايضا : "إن عمل الفرسان شاق . ثم إن هناك
اموا لشد يصعب الموقف بالنسبة له - فهو لا يزال صغيرا"

واتجهت الانظار الى الجد . فوقف مادبا ذراعيه التحدثين في اكمامها
البياض . وارتفع صوته المنهجم :

- مرحبا بكم في جهالي . هناك شيئاان يملكهما الكريتي ولا يملك
سواهما : الله . والبندقية . فيا سم الله ويا سم بنادقنا لفتح هذا اللغاب .
وعلينا مرة اخرى ان نتحدث عن كريت . فلينهض إذن كل واحد منا ليقول
رأيه في حرية . وليكن أول المتحدثين . راهب السيد المسيح . ليتخطا
البركة .

وكان الراهب قد ارتدى شيايه الكهنوتية . ووقف فوق صخرة مرتفعة امام
الجمع كانت لا تزال في حناياها بقايا مياه الامطار . وانحنى قليلا وقطع
عسلوجا من السعتر برش به الماء المقدس . ثم بدأ يتلو صلواته . ووقف
الجميع وقد رفعوا رؤوسهم عن الطرابيش وعصايات الراس . يستمعين
دون ان يفهموا تماما كلماته باللغة الكنسية . الله . والنصر على البرازة .
والعدل والرحمة . لم يكونوا في حاجة الى مثل تلك الافكار . لانهم كانوا

بدون "كريت" داخل حظيرة الكابتن "سيفاكس" - راي العيزر : أما
شوح . عارية القدمين . جائعة : دامية الجسد . ورفعوا ايديهم الى السماء
وهم يتهلون من اجل اولادهم .

ورسم كل واحد منهم علامة الصليب . ثم عاد يجلس في مكانه . وساد
الصمت لحظات . وكل منهم يحس بان حلقه منتفخ . وان الكلمات لا تزيد
ان تنطلق . ومرة اخرى كان الجد اول من رفع يده وهو ينظر الى يمينه
ويقول :

- كابتن "ماندا كلس" انت كنت تطعم البارود بملعقتك وانت لا تزال
مفللا . انت قائلت طوال جيلين اثنين . وربما كانت زوجك في البداية
طائشة . ولكنها ازدادت ثباتا واستقرارا مع السنين . تكلم إذن . ودعا
نرى ما تريد ان نقول .

- ينبغي ان يتكلم في البداية من هم اصغر مني .

واستدار الجد الى اليسار :

- ماذا عندك لتقوله يا كابتن "كانسيرماس" ؟ انت ايضا كما قائلت
طوال جيلين اثنين رايت خلالهما وعانيت الكثير . ان رايتك ذو ثقل واهمية ؟
فتكلم إذن .

جاء الجواب في اکتتاب :

- ليس لدى ما اقله . فليس لدى المرء مايقوله حين تذهب قوته .
الصغار اقدر إذن على الكلام .

وصاح الجد وقد بسط يديه فوق غدارتيه متهيئا للاستماع .

- حسن . فلنتكلم الصغار إذن .

نهض راهب "السيد المسيح" بقامة القصيرة الريعة . وقد ظهرت اثار
الطلقات والسيوف فوق خديه . وجبهته وذراعيه المقولتين ورشيته . واتجه
ببصره نحو "الكاتبين ميخائيليس" قائلا :

كابتن ميخائيليس اعتقد أنك انت الاحق بالكلمة الاولى . فانت الذي جئت بنا . وانت الذي استلمت ان تهرب من المذبحة . وانت الذي وجهت اليها الدعوة . فمأذى لديك إنن لتقوله لنا ؟ .

ونهض "الكابتن ميخائيليس" ودمأوه تغلى . واستند الى بندقيته :

- يا اخوتي الفرسان . انتم تعرفون جيدا اننى لا اجيد تدبير الكلمات . لهذا . فسوف تكون كلماتي جافة وجزئية ووزنية . فمعدرة . مرة اخرى تضيق الانشوطلة حول عنق كريت . لقد قدم الجنود وال دراويش بالسفن . وازدادت ضراوة الاتراك وبدعوا يذبحون اخوتنا فى "ميجالوكاسترو" نحن لسنا قطعيا من الحملان . إن دماء القتلى تصرخ فىنا . ثوروا ايها الفرسان . الحرية أو الموت . ثم جلس .

وهز الفرسان رؤوسهم . وبدعوا يتداولون حول كلماته فى جماعات من اثنين أو ثلاثة . وانهض العجوز "كامباناروس" اكبر الباقين . وساد الصمت . كان "كامباناروس" معروفا بتعقله . ويأنه يقيس الامور فى ثرو .. وما إن نهض واقفا حتى قطب كل ذى رأس جار جبينه وهو يتوقع الماء البارد الذى سوف يقدمهم به .. بينما عاد الثلاثة الكبار المعوقون .. يتهدون .

وصاح "كامباناروس" وهو يجرح "الكابتن ميخائيليس" بنظرة قاسية :

- اقتل الملك .. ولكن لا تهدده ! متى بحق الله نتعلم الفطنة ؟ كم مرة هددنا وتوعدنا دون أن نجد القوة على أن نحقق تهديداتنا ونطرد السلطان من كريت ؟! اللعنة عليه ! ولكن .. نحن فى النهاية الذى ندفع الثمن . الرجال والنساء وحقول الكروم .. كلها تدفع الثمن فى كل مرة تتوز فيها النار داخل صدورنا . والزعماء هم الذين يتحملون مسئولية آلاف الارواح ! إلام تهدف هذه المرة ايضا "ياكابتن ميخائيليس" ؟! هل نقتل بكرت مرة اخرى الى حمام من الدماء ؟! أنت رجل زكى . فقل لنا إنن : كم شحنة سفينة من البنائى والخزيرة والطعام والخيما والخيول .. حصلت عليها ؟! كم مدفعا نتحمم به القلعة ؟ قل لنا من فضلك : هل تقامعت مع اليونان

وموسكو حتى ننقض جميعا على السلطان بضرية واحدة ؟ اعطنا حقائق يا "كابتن ميخائيليس" : واكشف لنا عن اسرارك حتى تبعث البهجة الى قلوبنا !

واستدار الجميع نحو "الكابتن ميخائيليس" . ولكنه لم ينهض من مكانه ليبر على ما قاله "كامباناروس" . وبقل جالسا وهو يمشخ شاربه . اى اسرار هذه التى يريد هذا الرجل العجوز أن يكشفها له ؟! إن الموسكوف لم يبعثوا اليه بشيء . ولا اليونان ! هو الذى جاء بنفسه . وهو وحده الذى قرر أن يجيء "كريت" وحدها هى التى ارسلته . باكية معولة فى حنايا صدره . وقفز المدرس .. وبدأ يهدر :

- إن الكابتن "كامباناروس" يطلب حقائق ثابتة قبل التحرك : سفن ومؤن وسلاح . وجنود يرسلها الموسكوف لتدعى وجهوهم . وان تشترك معنا امنا المسكينة "هيلاس" بفرقها العسكرية الثلاث ! ولكن متى كانت الاعمال العظيمة تحدث فى الدنيا بالضممان والحقائق الثابتة ؟! ومتى كانت "الفطنة" هى التى تحفز الرجال الى هجر بيوتهم وممتلكاتهم وإلى اللجوء الى الجبال بحثا عن الحرية ؟! .. تلك هى حرفة الفرسان : إن يثوروا بلا ضمان . إن روح الرجل . ياكابتن "كامباناروس" ليست محاسبا .. ولكنها مقاتل . نحن - ابناء كريت - مقاتلون ولسنا اصحاب حوانيت . إن قلب كريت سفينة محملة "بالبارود" .. ننطلق نحو اسطول السلطان لننصفه نسفا . الى الامام إنن على بركة الله . وراء "الكابتن ميخائيليس" . الى السلاح يا اخوتي ! .. هذا ما اردت أن اقوله لكم ايها القواد . فليسمع من كان له سمع !

وغمغم الراهب وهو يرفع يده اليمنى باتجاه المدرس كما لو كان يباركه .
- بركاتى يامدرس .. بركاتى لك . إن روح الرجل لا تحمل كفتى ميزان . بل تحمل سيفا . انت على حق .

وقال الكابتن "تريالونيس" من "جيرانترا" ناصحا :

- إن ساعة واحدة من الحياة في ظل الحرية : أفضل من أربعين سنة من العبودية والسجن .

وهو "كامبانوس" المعجز راسه المملء بالفتنة .

وكان الفرسان قد نهضوا واقفين جميعا وقد استثارتهم الكلمات والكلمات المضادة ، وبدنوا يثربون ويتجادلون في جماعات اثنين وثلاثة وخمسة .. كان الحدوث اسحاب الفتنة ، هم الاقلية ، وكان الفرسان - اولئك الذين يجازفون بكل شيء - يهوقونهم عددا . واخذ الكابتن "كانتسيرماس" يراقب في غضب .. عصابة الفرسان الذين يرغبون ويبيدون حوله كالبهر ، بينما كان الكابتن "ماندكاس" يتنهد وهو يتذكر ايام الشباب : "اه ! هؤلاء الناس يمسكون بالورقة وبالقلم ويحسبون المكسب والخسارة .. وكنا نحن على اسمنا لا نعرف إلا صيحة واحدة : "الحرية او الموت" .. وكانت عقولنا تدور مثل البكرة ، وكنا نهجم اسوار "كاسترو" لتحدث فيها الثغرات ، لقد تلف الرجال وتضاطوا ياكابتن "سيفاكاس" ولكن الجيد كان ينظر في تعاطف حار الى الرجال الاصفر سننا الذين كانوا يحيطون به ، ثم يبتسم ويقول لنفسه : "كل شيء على مايرام : وأنا على ثقة من ذلك ، إن التراب يورث القديم" ثم يعود مرة اخرى خارج التراب وقد اصبح خلقا جديدا ، إن كريت خالدة لا تموت .

ثم نهض واقفا وصاح :

- يا اولادي ، هذا اجتماع كبار ، وليس مدرسة يهودية ، اجلسوا ودعونا نصل الى قرار ، الكابتن "كامبانوس" في جانب ، والمدرس الكابتن في الجانب الآخر ، هناك طريقان ، ولقد التقينا اليوم في هذه الجبال لكي نقرر اي الطريقين نختار .

ونهض الكابتن "بوليكسيجيس" وهو يقتل شاربه الاشقر الذي تفوح منه رائحة المسك ، وانحنى محييا الثلاثة الكبار وكان قميصه مفتوحا . يكشفت أثراً أحمر في رقبة البيضاء .. لعضة من فم امينة ! ونظر الى الفرسان في بروء ، وتوقف لحظات وهو يتطلع الى "الكابتن ميخائيليس" الذي وقعت عليه نظراته الحادة كتظرات عجل من الفحول .

وقال "بوليكسيجيس" :

- ايها الاخوة الفرسان ، بإقادة كريت الشرقية ! إن على من يتكلم في حضرتكم أن يزن جيدا ما يقول ، ولقد حرصت انا على ان ازن كلماتي هذه استمعوا لي ايها القادة ، نحن اذا انتظرنا ياكابتن "كامبانوس" .. حمولات السفن التي تتحدث عنها ، وانتظرونا "الرب" حتى يحرك ساقيه ويبعث الينا بالعين من الشمال ، إذا نحن فعلنا ذلك فلن نحرر انفسنا ابدا ، ليس هذا فحسب ، بل اننا سنكون - والله يسامحتني على ما اقول - غير جديدين بالحرية .. وإذا كان لي أن اتحدث بواقع خبرتي في السنوات القلائل التي عشتها وتمنطقت فيها بهذا الحزام .. فإنني اقول إن الحرية ليست ابدا كعكة تهبط الى افواهنا من السماء فنبتلعها .. ولكن الحرية قلعة لا بد من أن نقتحمها بأسياقنا ، إن الذي يتلقى حرية من الآخرين ، يظل عبدا الى الابد ، فليكن ان النار ستلتهم القرى ، وأن الفئوس ستقتلع الاشجار .. وأن الرجال سيسقطون في سلحات الحرب وأن انهيارا من الدموع والدماء ستسيل ! وليكن اننا سوف نتساقط .. وأن جماجمنا ستسحق سحقا ، ثقا أن رجالا آخرين سوف يأخذون اماكننا ، إن على "كريت" أن تنتظر اياما طويلة من الاسبى والمحب ، ربما مائة سنة أو مائتين ، او حتى ثلاثمائة .. لا ادري ، ولكن : يوما ما - لن يكون هناك طريق آخر .. لا تستمعوا الى اناس مثل الكابتن "كامبانوس" ، واقسم بهذه الشمس التي تغمرنا بأشعتها إننا - يوما ما - سوف نرى الحرية .

وكان الكابتن "بوليكسيجيس" قد رفع طربوشه وبدا شعره الاشقر متوهجا تحت اشعة الشمس ، واثارت كلماته اكثر الفرسان الحاضرين فصاحوا في حماس : "الحرية او الموت" ! .. واتجه "الكابتن ميخائيليس" الى "بوليكسيجيس" ومد اليه يده بقلب مفتوح هائر :

- كابتن "بوليكسيجيس" : شمة شيطان كان بيننا يحاول أن يفرقتنا ، ولكن كريت هي الباقية ! .. هذه يدى ! .

واجاب الآخر :

- احدى .. "كابتن ميخائيليس" .. وهذه يدى انا ايضا ، وليذهب الشيطان الى الشيطان .

وارتفعت ضحكته ، ولكن "الكابتن ميخائيليس" كان قد احسن بالذم ،
وعاد يجلس حيث كان يجلس ، وقد تغيرت اسارير وجهه مرة اخرى .

وامتد الاجتماع ساعة اخرى ، ناقش فيها الجميع مكان اللقاء واين
ويكيف ، حتى يحتلوا عقارب الطرق ويحاصروا القرى التركية . ويجمعوا
الجماعير في الاديرة القائمة في قمم الجبال .

واديرت الكتوس ، ورشيت الخمر فوق الارض ، واقسم الجميع ، ونهض
الثلاثة الكبار .. وكانت الشمس تغيب وراء الافق مع نهاية اللقاء .

باسم الله ! تفرق القادة كُلُّ الى مملكته ليصدر لوامره الى اتباعه :
واخذ الصغار والكبار يخرجون اسلحتهم من تحت الارض او من
الاسقف ... تشكيل من اسلحة عام ١٨٢١ .. بدعوا ينظفونها ويزيلون
الصدا من فوقها ويهيئونها للاستعمال . وبدأ الفقراء منهم يصنعون
الهوروات ويضعون الخطط لاصطياد الجنود الاتراك وسلب اسلحتهم .

وفي ساحات الاديرة : اخذت الفتيات والنساء يعزفن الاوراق القديمة
والمخطوطات ليصنعن منها صناديق للخزيرة . وبدأ الرهبان الحاذقون في
طحن واعداد المراهم والادوية لعلاج الجراح ، او في اذابة رصاص اينية
الكنائس لصنع طلقات الرصاص ، وتحولت "كريت" كلها الى مصنع يعمل
للحرية .. ليلا ونهارا .. ويزرع قمر اغسطس : وبدأت حرارة الشمس
تخف ، وبدأت اشعتها تمس كريت في حثان ، وتمنح الحياة للحظة ،
والشعير ، والارز ، والعنب .. وبدأت كريت تتربص المطر مع تجمع السحب
في بداية الخريف - بياض مثقلة تدفعها رياح خفيفة حتى اذا تجمعت
القت حملها رفيفا ليكسو وجه كريت .

كان العصير يتخمر في الدنان ، ولكن من ذا الذي يشربه !؟ وكان
الكريتيون يسألون انفسهم : من الذي سيعد الخبز من محصول هذه
السة ؟ من الذي سيقدر له ان يعيش ليحتفل براس السنة ؟ كانت
الامهات يحدقن في ابناهن الإبطال ، وكانت الزوجات يطلن النظر الى
ازواجهن ، والشقيقات الى اشقاتهن .. إن ملك الموت ليحوم الآن حول

اكتافهم ، ولكنهم لم يكن يقلن شيئا ، كن يعلمن جميعا انهم كريتيون ،
وانهم ولدوا من اجل ان يموتوا في سبيل كريت .

وكانت "امينة" هي الاخرى تشاركه الكريتيين وتساعد في صنع طلقات
الرصاصة في ساحة كنيسة "كاستيلي" وهي سافرة الوجه مثل النساء
المسيحيات ا .. وكانت تجمع صناديق الخزيرة ، ولكن افكارها كانت تشرح
بعيدا .. لم يكن يزهها في لليل او كثير مصير كريت ، او الكابتن
"بوليكسيجيس" ، او المسيح او كل القديسين .. وانما كانت تحلق في
الجبال مع الرجل الذي نذر نفسه للصيد هناك ، وكان تعميدها سوف يتم
في خلال اسابيع قليلة - في الرابع عشر من سبتمبر - يوم الصليب
المقدس ، وكانت "كريسانتي" تتحرك في تناقل داخل اقطاعية "على
انما" التي استولى عليها الكابتن .. تعد اللحوم المحصرة استعدادا للعيد
العظيم الذي تتحول فيه امرأة مسلمة الى المسيحية .

حتى الفرسان ! كانوا سيحضرون في رفقة اتباعهم بصفتهم غرابيين ،
ولابد ان "تيتيوس" سوف يلقي خطابا في المناسبة ، وان ابناء القرى
المجاورة سوف يحضرون في جماعات ليشهدوا باعينهم تعميد زوجة
"توري" فقد كانوا يريدون في ذلك فالأ طيبا - ان تتحول تركيا الى
اليونان ! .. وكان الجميع سعداء بان يشبعوا المرأة المسيحية الجميلة
الجديدة اما "امينة" فكانت تتقبل كل شيء بلياسة .

ويوم ان اجتمع الكبار ا .. كانت "امينة" تجلس بالقرب من النافذة
تنتظر عودة صديقها بعد ان استجمعت ومشقت شعورها وصبغت حاجبها
المحترقين ، كم كانت تود لو انها كانت معه لتلقي نظرة على هؤلاء الفرسان
الاربعة عشر كالنسور فوق القمم ! ولتقابل ذلك الفارس المتوحش غليظ
العنق .. "الكابتن ميخائيليس" ا .. وحين وصلت بخيالها الى هذا الجد ،
اهتز جسدها في اشتياق ، لماذا بحق الله كانت تفكر فيه ؟ ما الذي كانت
تجده فيه ؟ لم يكن رجلا ، بل كان وحشا مفترسا ، وحيدا ، قبيحا .. وانها
لتكرهه ! ولقد احسنت حين اختارت الكابتن "بوليكسيجيس" ذلك الرجل
الرويق المثير والمتحدث اللق العذب ، وبالرغم من ذلك ، فكم كانت تشتاق
الى ان ترى "الكابتن ميخائيليس" هناك في الجبال .. ولو للحظة
واحدة ! ! .

ورفعت عينيها العائنتين الى قسم "سيلينا" الوردية . كان "نورى بك" قد اخفق تماما من ذهنها ومن جسدها كما لو انه لم يكن حيا في يوم من الايام ، او كما لو انه لم يكن عظيما كالاسد .. وكما لو لم يضعها ايدا الى صدره . كان جسدها مثل الحجر . تستطيع السفينة ان تتساقط على صفحته تخدشها للحظة ثم تعود لتلتئم .. وكيف لها ان تتلذذ وتذكر ذلك الباشا المشوه العليل الذى اشتراها من ابيها ؟ كانت تلك تجارة ابيها التى يتعيرش من ورائها .. لقد انجب اجمل البنات ، فاطمهن وسمنهن ، ثم عرضهن ، وباعهن .. بل وكيف كان لها ان تذكر ذلك الفارس الشركسى الشاب الذى هبذ عليها ذات ليلة من ليالى الصيف وهى فى حديقة على ضفة النهر ، ثم طرحها ارضا وسط زهور عباد الشمس الياسفة ؟ كانت تظن لحظتها انه يريد ان يقبها .. فقاومته ، ولكنه لم يفعل ، فقد اصبح وديعا بعد العناق وهو ينحني فوقها ويبتسم لها ويسألها : "ما اسمك" ؟ .. "اسمى هو" .. وكيف يمكن ان تتذكر اسم ؟ كل هؤلاء الرجال - وغيرهم كثيرين - قد انسايوا فوقها وقد غابوا عن الوجود . والدور الان دور الكابتين "بوليكسيجيس" ! إنه هو الذى ينساب فوقها الآن .. ولكن واسفاه .. انها لتحص ذلك من الآن .. لسوف يبتعد عنها فى ذات يوم عرسها .. وسوف تبرز فجأة من وراء الافق سفينة قراصنة ذات صوار ثلاثة واشرعة سوداء !

وبينما كانت امينة تنتهد ، وهى تحرق من خلال النافذة ، كان "الكابتين ميخائيليس" معظما صهوة فرسه وحيدا .. فى طريقه الى بيت ابيه ، وقلبه يدق بعنف ، والتجمل الغامض يأخذ كل جسده : "ايها الاحق ، انت تحارب فى سبيل الحرية بينما انت لا تزال عبدا .. ان شفنى تقولان شيئا ، بينما ايدان تقولان شيئا آخر وقلبي يقصد شيئا ثالثا .. لماذا تترثر يا "كابتين ميخائيليس" .. ايها المنافق ؟ ولماذا تخفق قلبك من اجل كريت ؟ ان شيطاننا قد انتسب مخالبه فى حنايا صدرك . وملك عليك ارك .. انت ايها الرجل الذى فقد شرفه ! .. وحتى لو انك سقطت صديقا فى المعركة .. وحتى لو انك اقتحمتم "ميجالو كاسترو" وحررت كريت ، فسوف تظل بلا شرف . ان قلبك موصول بشيء اخر مختلف تماما .. وإن اغراضك تكمن هناك .. فى مكان اخر!"

كان قد ارسل احسن فرسانه : "تيتوريوس" : يحمل الراية بينما استغرقه هو جوار داخلى مع ذاته ، لقد رأى "بوليكسيجيس" مرة اخرى .. والتقط انفه رائحة ذلك المسك التركي الملعون ، واستطاع ان يلمح تلك العضة الحمراء فوق رقبته ، ولحظتها ثارت الدماء فى عروقه : "اللعة عليه .. اللعة على الكابتية" .. إننى افتقد شرفى طالما هى على قيد الحياة" وكانت ثمة صورة لا تريد ان تفارق حديقته ، صورة العريس وهو يبحث عن القرابين لثناء الاجتماع ، ثم وهو يدعوهم لحضور يوم الاكليل .. ثم وهو يقترب منه ثم يرتد امام نظرتة ، ووجد نفسه يصيح : "لم اعد احتمل .. هذه ليست حياة .. ولا بد ان اضع لها حدا" ..

كان الكابتين "بوليكسيجيس" لا يزال مع "لمينة" و"كزيسانتى" الى المائدة يتناولون جميعا طعام العشاء : حين دق الباب .. وبخل "تيتوريوس" وهش "الكابتين بوليكسيجيس" . فهو لم يكن قد رأى المدرس منذ ذلك اليوم الذى لقي فيه ابن اخته "ديامانديس" وابنة اخته "فانجيليو" ميتتهما السريعة . ولقد كان غاضبا منه فى البداية لانه كان يشك فى انه هو الذى دس السم لديامانديس بدافع الغيرة ، ولكنه ما لبث ان غير رايه ، فلم يكن من المعقول - فى تصوره - ان يقدم هذا الحمل على قتل احد ، ومن ثم فقد القى التبعة على القدر والمكتوب .. ولم يعد هناك إذن ما يصدر عن المدرس ، وإنه ليسمع الآن عن سفراته ورحلاته فى القرى ليثير الحماس فى صدور الرجال . لقد نسى تلك الحكاية إذن تماما ، واسعدته ان يراه الآن بلا انتظار ، وضاح وهو يتحرك ليفسح له مكانا :

- مرحبا يا مدرس ! -

وحياه المدرس فى ابتهاج وهو يجلس القرفصاء ، فيسقط ضوء المصباح على وجهه ويتطلع اليه "الكابتين بوليكسيجيس" فى دهشة وهو لا يكاد يصدق عينيهِ ، اهذا هو "تيتوريوس" - العليل ذو العوينات والسرراويل الضيقة والظهر المحدوب ؟ إن الذى يجلس الى جواره الآن رجل مختلف تماما !

والحق إن "تيتوريوس" اصبح بالفعل خلقا آخر - فمنذ ذلك اليوم الذى

اغتال فيه ذلك المخلوق اللفظ .. بدأ يتحول في صورة واضحة ومطرودة ..
فقد اصبح اكثر جرأة وشجاعة .. وادرك ان سر الرجولة كله لا يكمن في
قوة الجسد فحسب .. بل في قوة الاصرار والعزيمة ! إن ذبابة ذات اصرار
وعزيمة تستطيع ان تصعب في قوة الثور ، إن للرجولة هي الروح وليست
الجسد .. ومنذ ادرك هذه الحقيقة ، بدأ يتحول الى رجل مختلف تماما ، بل
ان جسده ايضا بدأ يكتسب القوة شيئا فشيئا ، فلم يعد محدوبا .. وكان
يأكل في شهية ويشرب بشراهة .. وبدأ اللون الأحمر يجد طريقه الى
خديه ، ليس هذا فحسب ، بل انه - وهذا اغرب ما في الامر - اصبح يحس
بالتاز في جسده فيجربى خلف النساء ! وما هو ذا يحمل جواله على ظهره
وينتقل من قرية الى اخرى يتحدث عن الوطن الام ويجعل من نفسه عرابا
لاطفال كثيرين ، ويعقد صلات وثيقة بعائلات هؤلاء الاطفال ، ولقد حدث ان
واحدة من هؤلاء الاقارب الجدد كانت زوجة لرجل غائب .. وكانت مرحة
ولعوبيا ، وفي احدى الليالى ، وبعد حديث مرح ؛ وجد الاثنان - دون ان
يدريا كيف حدث ذلك - انهما اصبا معا فوق الفرش وقد احتضن كل منهما
الآخر ! .. ومنذ تلك الليلة .. اصبح "تيتيروس" يزور "كاستيلي"
كثيرا .. وينام الى جوار قريبته الجديدة التي كان يرجو من الله ان
يحميها !

وقال "الكابتن بوليكيسيجيس" وهو يملا له كأسا :

- سمعت انك انت ايضا اصبحت تحارب ! إن دراستك ياكابتن قد بدأت
تتحول وتحمل معها راية مطرزة بحروف الهجاء !

واجاب المدرس ضاحكا :

- وأمل ان استطيع قريبا حمل البندقية ، إن حروف الهجاء ليست اكثر
من مشبهات ، اما الطعام .. فهو تركيا !

واستندت "امينة" خدها التفاحى الى يدها وهي تحديق في المدرس
وتأمل : "هذا هو شقيق الكابتن ميخائيليس .. مدرس .." وهاولت عبثا
ان تكتشف في وجهه تلك الملامح العابسة القاسية التي عرفتها في الآخر .

وتهافتت "كريسانتى" وخرجت ، فلم تكن تحتمل النظر اليه ، فقد كان
شمة جثتان تنهضان من تحت التراب ، وتقفان الى المائدة في مواجهتها
وعند "الكابتن ميخائيليس" يتسائل :

- لعلك تتلطف يا مدرس ، فمتحضر حفل التعميد يوم الالكليل ؟ سوف
نعمد "امينة" ويصبح اسمها "إليني" ، وسوف يكون عرسنا في نفس
الساء .

- ذلك هو بالضبط ما جئت من اجله ياكابتن . لقد كان العجوز
"مافروولياس" يحفر في حقله بالقرب من "كاستيلي" فعثر على حوض من
الفخار الرائع وطلب مني ان القى عليه نظرة ، وهو يعتقد انه اثناء الثرى ،
والحق ان الله وحده يعلم كم الف سنة مرت وهو مطموبر تحت الأرض ، وشمة
نقوش فوق جداره من الخارج - نقوش لاغاب من الصدف لا أعرف ما
تعنيه على وجه اليقين .. ولقد عثرت في قاعه على حفنة من الفول المصرى
تحولت من الزمن الى ما يشبه الفحم .. واكاد اجزم بان هذا الاناء يعود
الى ايام الملك "ميناء" !

وتسائل "الكابتن ميخائيليس" :

- حسن .. ثم ماذا ؟

- الا ترى معنى يا كابتن ؟ إنه حوض المعمودية ! إن القسس لم يصل
بعد الى راي بالنسبة للاناة الذى سيجرى فيه تعميدها ! إن حوض الكنيسة
صغير الحجم ، وما قد وهبنا الله - وفي اللحظة المناسبة - حوضا رائعا
يؤبر لنا من تحت الأرض ، ولعلها تكون فالأ طيبيا ياكابتن ! واقسم بدينى ،
ان القسطنطينية سوف تعود مسيحية مرة اخرى !

ثم وقف .. فقد كان في عجلة من امره ، لقد كانت شقيقته في العمد
تنتظره على احر من الجمر .. وقد هيات له المائدة !

وقال "الكابتن بوليكيسيجيس" ضاحكا :

- إن رأسك حبلى يا مدرس ! تلذ الافكار النيرة ، ما رايك يا امينة !

ولكنها لم تقل شيئا . ظلت فقط تحديق في المدرس .. بينما يوحها تتحرر من جسدها وتسبح بعيدا .. بعيدا عن المسيح .. وعن الاخوان .

كانت المرأة قد اعدت المائدة وملأت زجاجات النبيذ . وجلست تنتظر اخاها في العمد ! كانت امرأة مسترجلة . ربة الجسد .. اسنانها طويلة بيضاء .. ذات شارب اسود كثيف ! وكان وجهها العريض مليئا بانثار الجدرى . ولقد كان قبحها هذا هو ذاته الذى شد اليها المدرس . عالم غريب حقا ! لو لم يكن هذا الشمس في وجهها لما استطاعت ان تلهب دماء المدرس .. ولظل زما طويلا اخجل من ان يضم الي صدره امرأة ! .

وحياها المدرس تحية المساء . وكان ابنه بالعماد طفلا صغيرا لا يزال ثامنا في مهده . وكان ثمة طفل اخر ينام فوق اريكة صغيرة . اما النوج فقد كان ياتعا متجولا يوجب القرى .. كان وحدها مع "تيتيروس" .. وكانا في عجلة من امرهما . سرعان ما فرغا زجاجات النبيذ . ثم رسم كل منهما علامة الصليب . وغطيا الايقونات المقدسة المعلقة حتى لا تنتظر اليهما .. وقدفا بنفسيهما فوق الفراش .

وفي صباح اليوم التالى اصطدم المدرس بجمع في ميدان القرية امام اشجار الحور الثلاثة الملتفة . وكان الفلاحون يندفعون خارج بيوتهم حفاة الاقدام وقد تنهات الي اسماعهم صيحات هذا الجمع . ثمة راهب كان قد وصل لتوه عارى الصدر لاهت الانتفاص . تسيل الدماء من قدميه . واخذ يصيح :

- ايها الاخوة .. لقد ارسلنى اباؤنا دبير المسيح . ان القائد "حسن بك" خرج زاحقا من "ميجالوكاسترو" على رأس قوة من الجنود الاتراك . ولقد حاصروا الدبر ! اين قائد هذه القرية ؟ .. النجدة يا اخوتي ! الى السلاح .

وكان "الكابتن بوليكسيجيس" لحظتها بين احضان الشركسية . وحينما تنهات الاصوات الي سمعه ففر لتوه . ولم يكن من العقبول - وهو الفارس - ان يخرج بدون سرواله ! .. ومن ثم فقد ارتدى ثيابه ودرس غدارته في

حزامه الجلدى . واندفع ناحية الضجة .. ثم امسك بالراهب من ذراعه وهو يقول :

- لا تصح هكذا ! لا تزعم رجالي !

ثم جذبته جذبا حتى ادخله البيت واغلق الباب .. وقدم له بعض الطعام والشراب .. واسترد الراهب انفاسه .

وقال الكابتن "بوليكسيجيس" في لهجة امره :

- الان تستطيع ان تتكلم . ولكن حذار ان تعود الي هذا النحيب اليسوا اكثر من اتراك ايها الراهب الاحمق . وسوف يتخطفهم الشيطان !

وأطلع لك النهر ، ولمست مشاعل الضوء المرتفعات ، وانحدر الضوء الى السفوح حتى اتصلت فوق جسد كريت المعذب ، ولو ان الله لحظتها شاء ان يلقى نظرة على كريت ، لاحس بالأسى والاشفاق لمرأى البيوت المحترمة والنساء اللاتي يعولن ، والأطفال اليتامى عند أقدام الجبال العارية الجوعى ، والرجال - الذين صرفتهم القساوة عن الصلاة - وقد أزموا العمرات ، والقمم وهم يحملون مرقا من القماش طرز عليها رسم الصليب ، واندفعوا الى المعركة عارية اقدامهم ، بلا خبيرة ولا ذخيرة ولا شيء سوى بندقية بائسة ، كم مرة - وعلى مدى اجيال طوال - دفعوا ايديهم ضارعين الى الله فلم يثبثت ليسمع ضراعتهم ! كانت السماء صماء ، وكان الله قد بدل المقادير .. ومن ثم فقد امتدت ايديهم هذه المرة الى ينادقهم .

ومع اشعة الصباح الاولى كان الكابتن "بوليكسيجيس" مشغولا بالخروج الى الحزب - يسرح قرسه ، وكان قد بعث برسول في المساء السابق الى "الكابتن ميخائيليس" يحمل آخر الانباء : الأتراك يحاصرون الدير المشهور ، فلترتفع الآن الراية ، الحرية او الموت ! لم يعد هناك مكان للكلمات والخطب : .. الذى يجب ان يتكلم الآن فقط هو قريت الحقيقى : البندقية .

ولقد اضاف الى رسالته : "الآن ياكابتن ميخائيليس الى الجحيم كل حزازاتنا واهتماماتنا الصغيرة ، فقد اكلت منا بما فيه الكفاية ، إن احدهم سأل الأسد يوماً : ما الذى يخفيك اكثر ، الفيل ؟ النمر ؟ الثور ؟ .. فاجابه قائلاً : بل القملة هي التى اخافها ، ان القملة قد عضتنا كليتنا

ياكابتن ميخائيليس ، وكنا نسميها السعادة مرة .. ومرة اخرى كنا نسميها الحرص ، ولكنها كانت القملة دائماً ، فلتذهب الى الشيطان فإن كريت تنادى : عد الينا يدك يا اخى !"

وخرجت "امينة" واستندت الى قائم الباب ، وقد احاطت بعينيها هالتان من الزفة وبدت شفتاها متورمتين ، واستدار اليها الكابتن وهو لا يزال يفكر فى الكلمات الرفيعة التى بعث بها مساء امس الى "الكابتن ميخائيليس" .. ووجهه يحمل الجد والقسوة .

وسالته الشركسية فى ضراوة : "اين تسرح افكارك ؟ إننى اقف امامك دون ان تعيرنى ادنى اهتمام"

وكان هو لا يزال يعلق بالسرح حقية ذات جانبيين مطرزة بمختلف الالوان وقد ملا جانباً منها بذخيرة بندقية . ويمرّق القماش المبلل بالزيت ، وبالمرامح ، ووضع بالجانب الآخر رغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن الطرى وزجاجة شيبذ بماذا ياترى يجيب هذه المرأة التى تقف بالباب وترقبه وهو يتهيأ للرحيل ؟ انه منذ ان كتب تلك الكلمات مساء امس لرفيق السلاح الوحشى وهو يدرك جيداً - وكما لم يدرك يوماً فى حياته من قبل - الى اين تنتمى النساء .. والى اين تنتمى كريت ، وماهى الواجبات الحقيقية للرجل .

وعادت الشركسية تتكلم : "لا بد ان اكشف لك سرا" .. ثم اتجهت نحوه ، وريثت على عنق الفرس وقد احنت رأسها حتى تهدل شعرها فوق عنقها كمعروفة الفرس ذاته ويكاد يلمس الارض .. بينما عمرت الفناء رائحة المسك .

وتوقفت بدا "الكابتن بوليكسيجيس" وثقلت فى الهواء بلا حراك وهو يسأل :

- سر ؟

- بلى .. وانا الآن اقوله لك حتى لا تدعى بعد ذلك اننى لم اكشفه لك ..

إننى اتلقى فى بعض الأحيان أخباراً من "ميجالو كاسترو" ، إن اقرباء "تورى" سوف يهبطون على "كاستيلى" .. يوماً ومعهم الجنود لياخذونى ، وإن أنا لم اعد الى دىنى فسوف يقتلونى .. فأذهب انت اذن الى دير السيد المسيح ولكن .. فكر ايضا فى زوجتك ياكابتن "بوليكسيجيس" !

وظل الكابتن واقفا للحلقة فى حيرة بينما تناهت ضجة من الخارج حيث الزوجات يودعن أزواجهن ، والنساء العجائز ييكنن والرجال ينظفون انفسهم من احضانهم وهم يصيحون "الى اللقاء" .. ثم يتجمعون الى القرب من شجرة الصور فى قلب ميدان القرية .. حول راية "الكابتن بوليكسيجيس" .

وعندما رأت الشركسية صامتا ، قالت : "إن المرأة هى ايضا قلقة .. لا بد من الاستحوال عليها" .

ولجأها الرجل فى النهاية : "ولست انسى ذلك .. الى اللقاء" ثم احتواها بين ذراعيه فأحس بجسدها القوى وهتاجت مشاعره ، إن الدنيا كلها تصبح كثيفة لولا أن هذا الجسد المثير بين ذراعيه ! وانغلت المرأة عينيهما واشربت فى رقة تحاول أن تصل الى شفتيه .. وتهاوت لحظتها ركبته ! ووصلت الفرس ، والمحاق الكابتن من غيبوبته واستند الى قائم الباب ، وأبعد المرأة فى رقة وحرر نفسه من شفتيهما ، ثم أمسك بعنان الفرس ، وفى قفزة واحدة اصبح فوق سهوته .

وقال : "الى اللقاء" .. ثم انطلق عبر الباب الخارجى دون أن يدير رأسه .. واتجه الى ميدان القرية .

وفى ذات الصباح الباكر ، كان "الكابتن ميخائيليس" - محوطا بأفضل فرسانه داخل ساحة الجند الفسيحة فى بتروكيفالو - يعهد الى "ثودوريس" برأيته قطعة القماش الأسود وقد علتها الكلمات باللون الاحمر ، وكان يقف الى جواره فى سلاحهم صنحة الشراب : "كاجابيس ، وفوروجاتوس" ، اما فيتروسوس فكان قد ذهب ليعد امرته ، بينما بقي "بيتروودولوس" الى جوار زوجته ، واستدار "الكابتن ميخائيليس" الى زوجته التى كانت تقف عند المدخل وقد بسطت ذراعيها :

- الى اللقاء ايها الزوجة -

- الله معك ياكابتن ميخائيليس -

ثم اضافت وعينها ترمقان فى حنان رفائق السلاح الشباب المحيطين بروحها "الله معكم يا فرسان" .

وخرج الجد وقد اكتسحا خداه بالحمرة مع اشعة ذلك الصباح الباكر ، وصاح وهو يرفع صخيه الثقيل :

- الى الامام يا اولادى ومعكم بركاتى ! الله يبارككم ! انكم تحاربون من اجل كريت وليس ذلك بالهزل ! سعيد هذا الرجل الذى يهب حياته لخدمة كريت !

ثم صعد لحظة : وعاد يقول :

- وفى هذا اليوم ينيق الان صباحه ، فإننى احس - ولا ادري لماذا - بأنه أفضل لى أن أقتل فى خدمتها من أن اعيش فى خدمتها !

وتناهد الضجة الى "كاراساكى" النائم ، وادرك ان أباه يخرج فى تلك اللحظة للحرب .. فقفز من فراشه ليظهر فى لحظة عند عتبة الدار وقد تدثر بسجادة حمراء مطرزة ، ونظر ابوه الى الصبي الذى كان لا يزال نصف نائم وهو يتعثر بين جده وامه - واستغرق فى الضحك ثم قال وهو يقفز الى ظهر فرسه :

- الى اللقاء ياناراساكى ، الى اين تكبر فيما فيه الكفاية !

ثم رسم علامة الصليب وهو يقول : "باسم الله" !

وتحركت الراية فى المقدمة .. وخلت القرية من الرجل .

كان دير السيد المسيح قد تأسس فى الأزمان القديمة قبل أن تسقط القسطنطينية وقبل أن يجيء البنادقة الى كريت .. وأيام كان الأباطرة البيزنطيون لا يزالون يحكمون الشرق وجانباً كبيراً من الغرب .

وتقول الروايات إن الذي بنى الدير هو الامبراطور نيكيفوروس - ذلك الانسان الاسود الروح الذي اغواه جسد جميل لامرأة .. والذي اقلت من الجحيم بمقدرا شعرة ، ولكنه تشبث برحمة الله ، وغفر الله له واحله منزلة في الجنة مع غيره من الاباطرة الخاطئين والذين عذبوا ابشع عذاب .

وكان نيكيفوروس هذا يفرض سيطرته على الدنيا .. ونزل "كريت" حيث هزم العرب واسقط الهلال وركز فوق الحقول المحروقة والمدن المنهوبة رايه المسيح ، وفي احدى الاسميات - هكذا تقول الروايات - كان يسير في احد الوديان حين نام تحت شجرة ليمون ، وحين اصبح عليه الصباح تابع السير في اتجاه "شاندانكا" (وكان ذلك اسم ميجالو كاسترو ائذ) ، وكان ذلك في مايو - والقمر في تمامه والقضاء ثرن فيه انعام عندليب يعنى ، ورأى الامبراطور السيد المسيح يقترب ، وقدماء عاريتان يكاد ان يعنى عليه من نصب السير الطويل ، توقف عند شجرة الليمون دون ان يرى "نيكيفوروس" ، وتمدد فوق الارض وهو يتشهد ، ثم اتخذ وسادة من حجر .. وقال : "كم انا متعب" ثم طوى لراعيه .. واغلق عينيه .. وراح في سبات عميق .

واחס الامبراطور طوال الليل بسعادة حلوة لا توصف ، ولم يكن ذلك لان القمر كان في تمامه .. ولا لان العندليب يعنى . ولا لانه ارتاح في نومه ؛ ولكن لانه كان قد دخل الجنة !

وعندما استيقظ "نيكيفوروس" مع فجر اليوم التالى .. قال : "هذه الشجرة ، حيث نام المسيح ، قد تقدست" ثم امر بان يبني ديرا حولها . وهكذا - كما يقولون - تأسس دير السيد المسيح .

ومات الامبراطور البيزنطى ، واستولى الاتراك على القسطنطينية وعاد البنادقة الى كريت .. ثم احتلها العثمانيون ، وتحطم "السيد المسيح" .. واعيد بناؤه من جديد .. ثم تحطم مرة اخرى .. وهاهو ذا الآن محاط بالاتراك من كل جانب .. واجراسه تدق في انين وتصبح باعثة بالرسائل الى ارجاء كريت : "ياكل المؤمنين .. هلم ساعدوني ا" .

وكان رئيس الدير يسلم نفسه داخل الكنيسة ، بينما الرهبان يحفرون ما تحت المحراب المقدس ليخرجوا ينادقهم .. وركع رئيس الدير امام ايقونة المسيح وصاح بصوت مرتفع ليسعه الجميع .

- يا سيدى المسيح .. اغفر لى خطاي ، انا وحدى الملووم ! وها قد اقبل الكلاب ليثاروا لدمهم .

وكان في الحقيقة هو الملووم وحده ، ففي اليوم الاول من سبتمبر - بداية السنة الاكليريكية ، كان في طريقه عائدا من "ميجالو كاسترو" بعد ان اتى باعترافه امام المطران ، وبعد ان ركع امامه وهو يقدم هبات الدير السنوية ، وسأله ان يشعل الدير بحمايته ا فيفضل باستخدام نفوذه مع الباشا ليعم الاتراك من مهاجمته مرة اخرى ، كم مرة اخرى سوف يحرقون هذا الدير ؟ " ارحمنا لقد امنت بى العمر ياسيدى المطران ، وجراحي اصبحت تؤلمنى ، ولم يعد فى مقدورى بعد ان ادافع عنه ا "

واجابه المطران ضاحكا :

- وهل تظن ان العمر امتد بالله ١٢ ومع ذلك فبانه لا يزال يلقي باعباء جديدة على كواهل عشرة من القديسين ! اذهب مصحوبا ببركاتى ولا تقلق .

وحمل رئيس الدير بركات المطران معه في الطريق الى بلده ، وقاد بقلته عبر بوابة المستشفى خارجا منها ، وتحت الشمس الغاربة اخذ يتطلع الى زرقة الجبال المتوهجة امامه والى الحقول بعد حصادها والكروم الغنية بالعناقيد واشجار الزيتون المثقلة بخيراتها حوله .. والى البحر .. واحس بقلبه يقفز من بين ضلوعه .. وغشم يقول :

- جميلة هي هذه الدنيا الزائفة .. كم هي جميلة كريت ! إن كريت هي الله .

والترنم الشاطيء في طريقه ، واخترق الرمال الحمراء على ضفاف النهر ، وشرب "الراكى" في فندق الامله .. ثم اتجه نحو "الجبل

والتي كانت قد بدأت تتمطى وهي تستيقظ من نومها بعد سبات عميق على أصوات باعة اللبن والصحف والخضراوات .. وبدأ يخرج من مبنى مدرسة مهجورة - من حجراتها ومخازنها - اللاجئين الكريتيون وهم يحملون في أيديهم علب الصفيح ويقفون أمام باب مفتوح يمكن للمرء أن يرى خلفه ساحة أقيمت فوق أرضها بعض العواجز الضخمة . ويتنظرون ساعة أو بعض الساعة ليحصلوا على بضعة ملاعق من حساء العدس . كانوا في البداية يحسون بالخجل لأنهم لم يعتادوا من قبل أن يمدوا أيديهم بالسؤال . ولكن الجوع بعد ذلك كان كغليلا بأن يذهب الخجل .

كانت هيلاس الأم - والموت يدلها هي الأخرى - تقطف لقيمات تعطىها للكريتيين الجوعى . وفتحت ربات البيوت التعميسات البائسات أكياس النقود .. وضعى الأزواج الجدد بهدايا اعراسهم . ورفع القسس أيديهم إلى السماء في ابتهاج . وخربت سفن من أماكن مختلفة على الساحل تهرب الذخيرة والطعام والمتطوعين إلى كريت .

وهي ميناء "سيرافا" . كان الكابتن "ستيفانيس" يذرع الأرزقة الخلفية الصغيرة للمدينة وهو يهرج في سيره . ويمد يده في توسل :

- سفينة من أجل أيها المسيحيون ! سفينة من أجل كريت !

وهي ذات اليوم . هيا الله له امرا . فقد كان ثمة اثنان من الزعماء ممن كانوا اصدقاءه - يوما ما - يتجهان إلى دير السيد المسيح . واستطاع "الكابتن ستيفانيس" أن يقفز إلى ظهر سفينة عهد بها إليه ابطل "سيرافا" محملة بالذبيح والاحزمة والضمادات وذخيرة البنادق .

ورسم الكابتن "ستيفانيس" علامة الصليب وأخرج ايقونة "القدوس نيكولاس" وثبتها فوق مقدم السفينة وهو يهمس لها : "إننى اضعك فى مقدمة السفينة فرالى الامام إذن ياقدوس نيكولاس . فان عينيك تريان افضل ماترى اعين رجلين معا . لا تقل بعد ذلك إنك كنت داخل السفينة لاترى شيئا" ! ونظر اليه قدوس البحر ذو اللحية القصيرة .. فى سكوت . ثمة سفينة كاللعبة على سطحها رجال صغار .. هي فى قبضة يده التى اكلمها

الملح .. وكان يتقسم ! وانحنى فوق الكابتن ستيفانيس .. وقبله .

ولاحت سحابة صغيرة فى السماء الى الجنوب وكانت سحابة من الدخان مالبت ان تتبعها سحابت صغيرة اخرى كانتا تأخذ طريقها خلفها تدفعها ربح جنوبية ساخنة . وكان راعيا هو الذى يرفعها . وعند الظهر كانت السماء قد غطتها السحب . وبدأت قطرات اول امطار الخريف تهطل . وبدأ اول هزيم الرعد يصفق .

وأدار الكابتن "ستيفانيس" عينيه اليراقطين فى اتجاه الجنوب وانبسم وهو يقول : "هسى يارياح الجنوب ياسيدة البحار . وصيبي فيضك حتى لا تظهر الشمس ولا يلوح القمر .. وحتى الح أبواب كريت الى أرضها فى سواد كسواد القار" .

وسمع "فيندوسوس" بدوره هزيم الرعد فتسلق الجبل . وراعه ما رأى ليرفع رأسه الى السماء المظلمة حوله وغمغم يقول : "انتظري ايها السماء حتى اصل الى ابي بالمعمودية - جورجاروس .. ثم اعطى بعدها ما تشائين" !

وحدث الخطى فى طريقه الى "انابولى" القرية الجبلية ليستال اياه المعمودية ان يعنى بزوجه وبأبنتيه حتى يسود السلام "كريت" من جديد .

ووصل الى القرية فى الظلام الحالك . وقرع الباب ولا من يجيب اوعاد يقرع الباب من جديد حتى فتح له ابوه بالعماد وعيناه حمراوتان وشعره اشعث ووجهه اصفر شاحب . وقال "فيندوسوس" : "سلامى يا ابي جورجاروس" . هل استطيع ان ابيت عندك الليلة ؟ وقال الاب : "سلنى رأسى اعطها لك .. مرحبا !"

ودخل "فيندوسوس" ولم تظهر الزوجة بينما تناهت من اعلى - فى غرفة النوم - اصوات حزينة خافتة مالبت ان اختفت .

وسال "فيندوسوس" :

- واين امى ؟

- اجدها ياولدى "فيندوسوس" . إنها لم تكن على مايرام فى الايام
الأخيرة . انها تبعت اليك بتحباتها وترحب بك .

واعد الاب بالعماد .. المائدة .. واحضر الطعام والخبز واشعل مصباحا
آخر . ثم قال :

- اغفر لى ياولدى . ليس عندى الكثير لاقدمه . فلم اكن اعرف انك
ستمنحنى شرف حضورك هذه الليلة . غدا اذبح لك ذباجة يابن الله .

وعصفت الريح الجنوبية .. وهطل المطر بشدة .. وقال "فيندوسوس" :

- غدا سوف اعود يا ابنى يابن الله . فقد وعدت "الكابتن ميخائيليس"
ومن العار ان اخلف وعدى . لقد جئت فحسب لاسالك معروفًا .

وهز "جورجاريوس" راسه وهو يقول :

- كل مافى وسعى .

- عسى ان يكون عندك مكان لاسرى .. حتى يصمت السلاح .

وعب "جورجاريوس" جرعة من النبيذ وكان خلقه فى حاجة الى مزيد من
الاتساع . وقال وقد خفض راسه :

- لقد خلت غرفة بالصدفة .. فى الايام القليلة الماضية فقط ... خذها
يا "فيندوسوس" ياولدى !

ثم نهض والفتا . وفتح الباب .. وخرج الى الغناء . ثم مالئ ان عاد وقد
بلاه المطر .

- الشكر لله . ان السماء تمطر وسوف تكون الارض مهيأة للحرب .

ثم ازاح المائدة جانبًا واعد لابنه ميخائيليس .

- ثم ياولدى فطريقتك كان طويلًا .

وفى صبيحة اليوم التالى جاءه "جورجاريوس" برعاء من اللين . ورغيف

جاف وقطعة كبيرة من الجبن . وكانت السماء صحوًا والديكة تملأ جو
القرية صياحًا وهي فوق اسطح بيوتها . وقال "فيندوسوس" :

- صياح الخيريا ابنى . كيف استطيع ارب جميلك ١٩ الله وحده يكافئك .

- الله يكافىء عما يستحق المكافأة ياولدى . فلا تشغل بالك .. الى
اللقاء يا "فيندوسوس" .

وبدت الصخور المغسولة بالمطر .. لامعة فى ضوء الصباح . وبرقت
حبات المطر فوق اقصان الاشجار . وهرب "فيندوسوس" هابطا الجبل
وهو يصغر بغمه فى سعادة . فقد وجد الحماية لاسرته فانزاح عن صدره
كاتبوس ثقيل الامر الذى يجعله الآن يحمى فى طريقه عائداً الى "الكابتن
ميخائيليس" و"كاجاييس" . و"فور جاتوس" .

وفتح باب لببيت من بيوت القرية وبرز رجل عجوز على عتبة فعرفه
"فيندوسوس" على الفور . انه العجوز الحائق "زخارياس" عم
"جورجاريوس" الذى يقلم الاشجار ويداوى الرجال والنساء . والذى يحمل
فى ايام السبت وعاء من الفخار وبعض الصابون وزوجًا من الشباشب ا
وموس حلاقة ثم يتخذ مكانه بالقرب من الكنيسة جالسًا فوق مقعد صغير
ليخلق من الروميس مايتيسر له . والى جواره جوال صغير يملؤه له زبائنه
بالخبز والخضراوات والعشب والزبيب . وجرتان اجداهما للنبيذ والاخرى
للزيت . فاذا ما انتهى من اعمال الحلاقة جمع الشعر المتخلف فى كومة
واشعل فيه النار فارتفع الدخان وتغطى المكان حوله . وناداه "فيندوسوس"
وقد توقف :

- طال عمرك يا عم "زخارياس" .

واجابه الرجل العجوز :

- مرحبا بعازف القيثارة اما الذى يجرى فى هذه الدنيا ياولدى ا ولى

ابن هل تمضى ؟

- لا تهتم يا عمى . الى الشيطان هذه الدنيا .

- وائت ١٩ .

- أنا ذاهب معها - وهل فى مقدورى أن أفعل غير ذلك ؟ لقد أمضيت الليلة الماضية عند أبى المعمودية "جورجاريوس" ولقد تحدثنا سويا حديثا طويلا .. وهانذا عائذ ادراجى ..

ورجع العجوز بيديه الى السماء وهو يغمغم :

- عند "جورجاريوس" اللهم ارحمه ! من اجل ذلك إذن ارسل يطلب منى ألا يذهب احد الى بيته لينوح على الميت ١٢ .

- ماذا تقصد يا عمى ١٢ ينوح على اى ميت ١٢ .

- ألم تلاحظ شيئا ١٢

وما الذى كان يمكن أن الاحظه ١٢ .

- لقد قتل ابنه صباح امس . وكان جسده فى حجرة النوم ا-

وغشى "فيندوسوس" وجهه بيديه ولم يبال شيئا .

وصاح العجوز :

- لا تبك يا "فيندوسوس" يا ولدى ! الوداع .. كلنا سلموت ا-

وكانت السماء قد امطرت طوال الليل ابدا حيث نيز السيد المسيح . وبدت وجوه الرهبان منتعشة برغم ان ثلاثة ايام مرت . وهم راكعون خلف متاريسهم ينتظرون الاتراك كان ثمة اثنان وثلاثون منهم . ومعهم قرابة العشرين من الفلاحين الذين حجلوا من التلظى عن "السيد المسيح" وسط نعرهم . فعندما سمعوا نقات الاجراس العاصفة هرعوا بزوجاتهم واطفالهم الى كهف مرتفع جعله الله قلعة من القلاع . ثم زدوا الدير بالعوذ - خراف واماز وجمال مملوء بالبستويات .

وكان الوقت من الظهيرة قريبا عندما وصل الكابتن "بوليكسيجيس" بفرسان الى قمة المعرويدا يقترب من الدير عبر الوادى . وتناهت اليهم من

بعيد اصوات طلقات الرصاص ودقات طبول الاتراك الذين اسرع بعضهم باتخاذ مواقفه فى قمة المعمر ليصمى مؤخرة الباقين .

وروقف الكابتن "بوليكسيجيس" وقدماء فى الركاب .. واطلق طلقة من غدارته وهو يصيح : "ادوا لهم التحية يا اخوتى ا" .. ثم استدار الى اسماحه الذين كانوا يلهثون وراءه وقال : "فليتلقوا الآن تحياتكم يا اولادى ا ولكن لا اريد ان تخرج طلقة واحدة هباء ا" .

ثم اشار الى كتلة ضخمة من الطرايبش الحمراء المملوءة تحوم بالقرب من الدير . وانطلقت فجأة خمسون رصاصة نحو الاتراك من الخلف . وسقط قرابة العشرين جسدا وهم يعدون .

ورد الدير صدى صيحات الترحيب "مرحبا يا اولاد ا" وتشتت "ايلاريون" العجوز يحمل الجرس وبدأ يدهق فى حماس .

ونار الاتراك . واتجهوا بأبصارهم ليرى وسط الضباب ان قمة المعرقد احتلها اليونانيون الذين يحتمون بالصخور . وعلا هديرهم : "الله .. الله ا" .

وظل الجانب الاكبر من الاتراك فى مواقفه ليحكم قبضته على الدير . بينما اندفع الآخرون نحو المعمر .

وبدا المطر يهطل بعنف . واختفت قمة المعمر وسط السحاب بينما المطر يضرب وجوه الاتراك ويحجب عنهم الرؤية وصاح "بوليكسيجيس" :

- الله معنا .. اعطوهم رخة اخرى .

وا رادوا الكرة .. واطلقوا غداراتهم فارتفعت الصيحات واللعنات . ولكن السحابة كانت قد هبطت واصبحت تخفى الاتراك ايضا فلا يكاد يبدو منهم سوى لون طرايبشها وخراب بناديقهم .

وعندما لاحظ رئيس الدير ان الاتراك قد انفسموا . صاح فى رفاهه :

- إلى الامام يا اولادى ! لقد اتقسم الاتراك ، فلتهجم إن عليهم لنخفف من قبضتهم .

وقفز الرهبان والفلاحون بينما ندى العجوز بجرسه دقات الهجوم .. وتجمع الكل فى الفناء .. وانطلق رئيس الدير امامهم بفتح الباب الكبير .. وانطلقوا جميعا خلفه وهم يصيحون .

واصاب الحيرة الاتراك للحظات نتيجة الهجومين المفاجئين ، وحاول بعضهم فى هجوم مضاد أن يردوا الرهبان على اعقابهم داخل الدير ، ولكن الاوامر مالبثت ان صدرت اليهم وهم فى منتصف الطريق ، بالانسحاب بعيدا الى الوادى يتعقبهم الرهبان .

وفجأة ارتفعت دقات احدى الطبول ، وتوقف الاتراك ، وفجأة دقت من خلف الرهبان طبلية اخرى .. وصاح احد الرهبان لقد احاطوا بنا .. لقد وقفنا فى الفخ ! إلى الخلف ياسيدى !

وصاح راهب آخر : "لقد اقتحموا الدير" !
وس رئيس الدير غدارته فى حزامه ، واستل خنجره دون أن يتكلم واسرع نحو باب الدير .

وأدرك الكايتن "بوليكسيجيس" على الفور طبيعة الخطر الجديد ، فاندفع بفرسانه كالعاصفة بينما اشتد هطول المطر ، واختفت الشمس تماما خلف السحب واتسع افق الشفق .

وكون كل من الاتراك عذبة ضخمة من الرجال المحاربين ؛ كل يهاجم ويدافع فى نفس الوقت ، وصاح رئيس الدير : "اتبعونى ا" .. كما حث الكايتن "بوليكسيجيس" هو الآخر رجاله واندفع بهم نحو الباب .

وكان ثمة عدد قليل من الاتراك قد اقتحم بالفعل فناء الدير متجهين نحو الكنيسة وهم يقذفون يمزق الفساش الملتصبة فى كل اتجاه .

وارتفعت اصوات عاصفة خلفهم "ايها الكلاب الملاعين ا" .. وكان

رئيس الدير مع الكايتن "بوليكسيجيس" قد اجتاز عتبة الباب واندفع نحو الاتراك بينما أجبر بعض هؤلاء ممن جاؤوا بعدهم على التقهقر الى حائط الكنيسة حيث ذهبوا بأيدى الرهبان والفرسان الذين كانوا قد اقتحموا الدير بدورهم .

وامكن تقادى الخطر حين اعيد غلق باب الدير مرة اخرى ، وهبط الليل وانفصل المتحاربون .. وساد الصمت ، وصاح "بوليكسيجيس" :

- فلنعد الى المعرا وسيكون الله معنا ايضا فى الغد .

واحصى المسيحيون خسائرهم : ثلاثة قتلى وعديد من الجرحى من بين الرهبان والفلاحين ، اما ايلاركوس قارع الاجراس فقد كان مفقودا ، اما جماعة الكايتن "بوليكسيجيس" فقد قتل منها اثنان وجرح الكثيرون ، وتم دفن الموتى اثناء الليل عند قمة المعرا : فارسان ياسلان من "كاستنلى" ، عم وابن اخيه ، والتقط الكايتن "بوليكسيجيس" لمصورين جعل منهما صنليا غرسه فوق قبرهما ، ثم غصم وهو يستدير نحو اصحابه :

- سوف نعود .. والان يا اولاد ا فلنأكل .. فلا زلنا احياء ، ونحن جائعون ا واوقدوا نارا .. وطبخوا .. واكلوا ، وكانت المعركة المثيرة تمتل مكان الصدارة فى حديثهم ، ثم قام بعضهم بالحراسة طوال الليل بينما تمدد الياقون فما لبثوا ان عرفوا فى النوم من فرط التعب .

والى اسفل منهم كان الضوء يلوح من الكنيسة حتى منتصف الليل حيث كان الرهبان يمجدون الرب الذى بسط يديه وانقذ الدير من النار والموت ، بينما انهمك العجوز "فوتيس" فى مزج المراهم وتنظيف الجروح والعناية بالجرحى طوال الليل .

وبين الجانبين من المسيحيين ، كان الجنود الاتراك يدفعون هم ايضا موتاهم ويدأون جرحاهم ويفكرون وهم يحدقون فى صمت حول نيران المضيم : فى زوجاتهم واطفالهم هناك بعيدا فى الاناضول ، من ياترى يحزن الآن حقولهم هناك ويجمع الكروم ويوفر الخبز لاسرهم ؛ كانوا هم ايضا اميين .. ولم يكونوا ايدا كلابا كما يصفهم المسيحيون .

ومع اول ضوء لآح في السماء : هرع الجانبان الي اسلحتهما . واخذ
اثنان من الدراويش - احدهما يحمل طيلة والآخر نقيرا - يقفزان هنا وهناك
بين جماعات الجنود ليبتأ في صدورهم ويوجعا الثيران .

وكان الرهبان بدورهم قد اتخذوا مواقعهم . وكان رئيس الدير قد عصب
جرحه الذي كان لا يزال يسيل دما يتساقط فوق لحية البيضاء . وعلى
الرغم من ذلك فقد ركع امام الكوة وظلت عيناه تحومان كعيني نسر حول
مواقع العدو وهو يطلق رصاص غدارته على كل رأس يرتفع فلا يخطئه ..
بينما يقول لنفسه : " إنه الشر يعينه ان تقتل رجلا .. ولكنه ليس خطانا ..
يا الهى . حررتنا حتى نعيش في سلام "

وعند قمة العمر . كان الكابتن "بوليكسيجيس" يتفقد الرجال ويصدر
الوامر بينما اخذ كل منهم مكانه خلف سائر وهو يصوب بندقيته الي
طربوش احمر . ولكن الكابتن "بوليكسيجيس" كان اكبر من ان ينحس ا
فقد ظل منتصباً يتنقل من رجل الي رجل بينما رجاله يصيحون فيه :

- استر ياكابتن ولا اصابوك ا .

وكانت الرصاصات قد بدأت بالفعل تصفر حول رؤوسهم . ولكن الكابتن
"بوليكسيجيس" ضحك وهو يقول :

- اود بالفعل لو اننى استترت . فانا ايضا خائف - يعلم الله - ولكنى
احس بالخجل حين اقول لنفسى : المست تريد ان تلعب دور القائد ياكابتن
"بوليكسيجيس" فادفع الثمن إنن .

وصاح فتى طويل ذو لسان حاد :

- انت تعمل معك شنتلة من الصليب المقدس - ولهذا فانت لا تخاف ..
والغضبيت الكلمات الكابتن "بوليكسيجيس" فصاح :

- ايها الاحمق "نيكولوس" : إن شطبة الصليب المقدس هي روح
الرجل . ولست اعرف غيرها .

والى اسفل من العمر . كانت المعركة قد بدأت تحتم . فقد اخذ الاتراك
يتقدمون واصبح الدير مرة اخرى في خطر .

وصاح الكابتن "بوليكسيجيس" :

- انهضوا ! انهضوا ! .. المسيح سوف ينتصر ! اهبطوا نحو الاتراك
وبفر الفرسان من مواقعهم خلف الصخور واندفعوا هابطين الجبل
والحجارة تهوى خلفهم - وبدا كان الجبل كله يتحرك .

وبعد ان قلت البنادق كلمتها : بدأت الخناجر تؤدى دوما .. بدأ ليد .
كذلك خفت اصوات البنادق داخل الدير : ولم يعد ممكنا التمييز بين
المتقاتلين . واصدر رئيس الدير اوامره الي حفنة من رجاله الاشداء
بالتجمع وسط حلبة القتال المتلاحم بينما ظل الباقون خلف العتاوريس
بحرسون الدير . ولكن الاتراك كانوا في اعداد فائقة - سبعة منهم مقابل
واحد من المسيحيين . واخذ رئيس الدير هو و"الكابتن بوليكسيجيس"
بثيران حماس رجالهم .. ولكن موجة تلو اخرى من الاتراك المهاجمين كانت
تهبط عليهم حتى بدأ الارهاق يستبد بهم عند الظهرية . وبدا الشمس
كانها مشبة مكانها في كبد السماء .. وبدا كان الليل المتقد بعيد بعيد ا
وظل المهاجمون يواصلون ضغطهم في قوة متزايدة .. وتبادل رئيس الدير
الانظرات مع "الكابتن بوليكسيجيس" دون ان يقول احدهما شيئا . ولكن
كلا منهما رأى في نظره الآخر ان الدير سيحترق .

وفجأة . نوت دفعة واحدة من الرصاص في الوادى .. ورأى
المسيحيين وسط دهشتهم . راية سوداء ترتفع شيئا فشيئا ليبدو معها فيما
بعد حشد من الفرسان الهاديين ينقدون من ثنية وسط الصخور الي
اخرى . وعلى رأسهم "الكابتن ميخائيليس" بعصابة الرأس السوداء . وهو
يطلق غدارته ويصيح فيهم :

- مرحى يا اخوتى ا .

ثم استدار نحو الاعداء وقال :

- اخيرا وقعتم يا كلاب ا .

وفي ذلك اليوم .. وفي اليوم التالي : ظل الجرحى من الجنود الاتراك ومن غيرهم من الاتراك المتطوعين يمدون الي "ميجالو كاسترو" في تتابع سريع .

صاح الباشا وهو يشد لحيته في قهر :

- ماذا حدث للدير ؟! الا يزال قائما ؟! الا تتحلون ؟!

- كان كل شيء يسير على مايرام يا افندينا الباشا : حتى هبط علينا هذا الملعون "الكابتن ميخائيليس" .

كانوا متعبين يستند بهم العرش : فطلبوا شرابا من "باربايتيس" .. كما بدأ "افندينا" يتلو آيات من القرآن لتخفف من الهمم . وهناك من حصن بالشجرة العارية كان يشدلى قارع الجرس الأصم المسكين "ايلاريون" الذي اخذه الاتراك حيا قبل يومين . وكان لا يزال ممسكا في إحدى يديه بقطعة من حبل الجرس ورفض أن يتخلى عنها مما اجبر الاتراك فيما بعد على أن يفصلوا قبضته عن ذراعه .

وفي المطرانية : كان المطران يرفض خلع ثيابه الكهنوتية بالليل أو بالنهار . فقد كان يتوقع في كل لحظة أن يقتحم عليه الاتراك المكان ويقتادوه الي المشنقة . ولم يكن يريد أن يقوم بهذه الرحلة وهو بثياب النوم عاري القدمين . وكان قد بعث الي "ياشوموس" الزاهد يستدعيه من دير "كادوماس" القائم على شاطئ البحر اللبني كيما يذلي امامه باعتراقه . فقد كان خريصا كل يوم على أن تكون روحه مستعدة في أية لحظة . وكان "مورزوفلوس" يقبع الي جواره لا يفارقه كالكلب الامين .. فإذا نام .. نام عند عتبة باب حجرة النوم حتى لايفصل بينه وبين سيده شيء . إلى أن تمسح روحاهما الي خالفهما .

وأخيرا هبط الليل على الدير . وافترق الطرفان - المسيحيون اوقدوا النيران على حافة الجبل ، والاتراك اوقدوها على مقربة من حوائط الدير . بينما الدير ذاته غارق وسط ظلام عميق . والتقى "الكابتن ميخائيليس"

- "الكابتن بوليوكسيجيس" ليناقشا الموقف : وانتهيا الي قرار بالتنسبة اسكان واسلوب هجوم الغد .. ثم افترقا دون أن يتبادلا كلمة رقيقة واحدة .

وتوقع "الكابتن ميخائيليس" وحده قريبا من واحدة من النيران الموقدة غارقا في حوار عميق في نفسه .. ولف سيجارة وهو يحس بالانقباض . لقد كان يقاتل ويقتل . ويواجه الموت في كل لحظة من اجل كريت . ويرغم ذلك لمان عقله لم يكن مع كريت . وعندما امتطى صهوة فرسه . واندفع الي الامام وهو يصيح "اتبعوني ايها الزملاء !" كان هو ذاته يشك في ايمانه في قرارة نفسه . وعندما هبط الليل وانفرد بنفسه لم يكن يفكر في حرية كريت كما كان يفعل في الماضي .. ولكن روحه كانت تحوم حول مكان اخر . ويصق على النيران وهو يغمغم :

- "يا للعار ! اي حضيض انحدرت اليه ياكابتن ميخائيليس ؟"

وفجأة - وبوسط مزاجه الممورور - سمع وقع خطوات خفيفة خلفه .. وسعالا . واستدار فرأى "فيندوسوس" الذي لم يكن قد اشترك في المعركة الذي كان قد سمح له بأن يذهب ليؤمن أسرته . هاهو ذا الآن يعود لاهت الانفاس . ووقف "الكابتن ميخائيليس" وسأله :

- ماذا حدث يا "فيندوسوس" ؟!

وهمس "فيندوسوس" في اذنيه وهو في شك مما يعتل في صدر الكابتن :

- كابتن .. كابتن : امينة

وانتبه الكابتن . وجذب "فيندوسوس" من ذراعه يقربه اليه .

- اخفض صوتك !

- لقد هاجم الاتراك "كاستيلي" هذا المساء . وحملوها معهم .

ويست "الكابتن ميخائيليس" يديه فوق النار وهو يبحث عن ألم محرق ثم

استدار بعد لحظة صمت قصيرة :

- إلى أين ؟؟

- في اتجاه "ميجالو كاسترو".

- متى ؟؟

- هذا المساء بعد الغروب .

وانفجر "الكابتن ميخائليس" :

- هلم معي ولكن هادئا .

ولكن "فيندوسوس" قائم :

- لعلك لا تعنى انك ستترك موقعك ؟؟ هب ان الاتراك قاموا بهجمة ليلية .

- اغلق فمك !

ثم انتقى عشرة من اشد فرسانه حماسا :

- هلموا معي ! سوف نقوم بغارة .

ثم استدار الى باقي رفاقه وقال :

- سوف اعود قبل الفجر ، فخذوا حذرکم حتى اعود .

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، وكان المسيحيون المجهدون على اطراف الموقع قد غرقوا في نوم عميق . بينما اتحنى الرهبان المستنون ودخل الدير او المحراب يدعون اليه ان يبسط على الدير يد حمايته . اما رئيس الدير فكان قد ضمد جراحه بقطعة من القماش مبللة بالزيت وظل متكوبا في موقعه وهو يراقب الجنود من المرغل الضيق وهم جالسون حول الديران ويكاد يسمع قرعقة اسلحتهم " لم يتم الكلاب بعد ! انهم يضمرون شرا ! "

كانت السماء صافية تماما والنجوم تبدو متألقة والنسمات الباردة الحادة تهبط من الجبال لتلهب الرجال .. وكان ثمة شهاب قد لامع في السماء .. فرسم رئيس الدير علامة الصليب وهو يفغم ..

- لايد ان مأساة رهيبية تقترب ياإلهي ! . لعلمها تكون بعيدة عن الدير !

وبينما كانت عيناه متجهتين الى السماء في ابتهاج ، دقت الطبول فجأة .. وارتفعت الصيحات " الله .. الله " ! وانحدرت موجات كثيفة داكنة من الرجال تهاجم الدير ، بينما انحدرت موجات اخرى عبر الممر لتهبط فوق المسيحيين النائمين .. وفي ذات اللحظة كان ثمة جنود اخرون يضمعون السلالم الى حوائط الدير .

وجمع رئيس الدير رهبانه معا :

- ايها الاخوة ، لقد انتهى الدير . انصتوا اليّ جيدا . انتى انا وحدي الملموم . انهم يريدوننى انا ليثاروا لدمائهم . ولذلك فقد قررت ان اسلم نفسي اليهم ، فوداعا !

وصاح "فوتويس" الراهب العداوى :

- ايها الاب المحترم ، سوف يقتلوك .

- وماذا بوسمهم ان يفعلوا اكثر من ذلك ايها الاب فوتويس ؟؟ بالطبع سوف يقتلوننى . ولكن ذلك سيحمى الدير نفسه .

- سيقتلوك ولكن الدير لن يفلت ايضا .. إن الاتراك غدائرون يا ابي .

- ولكننى ساقفل ما يعليه على واجبي وليكن مايبكون ! إن الله فوقنا فلنكن مسيئته .

وامسك بعصاه وربط قطعة من القماش الابيض . واتجه نحو الحائط ملوحا بها وهو يصيح بصوت مرتفع ، وصاح فيه تركى كريئتى .

- ماذا تريد ايها الراهب الشيطان ؟

- من قاشدكم ؟ اذهب اليه وقل له ان رئيس الدير سلم نفسه ، وانه يستطيع ان يفعل بي ما يشاء ، بشرط ان يعد بالا لتعرض بسوء للدير .

وترددت الاصوات من الجانبين .. وانظر الطرفان .. وعاد الصمت من جديد لا تتخله سوى صيحات الديكة فوق اسطح الدير .. كان الصباح يقترب ثم مألوث ان تنأى صوت القائد التركي "حسن بك" .

- انقروا جميعا باسلحتكم واخرجوا - وسوف لا يتعرض الدير لسوء .

وصاح فيه رئيس الدير :

- اقسم .

ثم اشار بيده الى السماء في اتجاه الشفق الذي كان قد بدأ يتألق .

- بلى اقسم يا محمد .

وهبط رئيس الدير من فوق الحائط ! والتف حوله الرهبان وهم يريثون على كتفه مودعين ، بينما الآخرون يقبلون يديه .

- وداعا .. وداعا ايها الشهيد العظيم ! .

واقترب رئيس الدير من الكنيسة واتحنى يقبل عتباتها وهو يهمس :

- وداعا ايها المسيح .

ثم جال ببصره حول الفناء ، والكنيسة ، والصوامع والمخازن والاسوار ورفع يده بها جميعا :

وداعا .

ثم اختار عتبة الباب الخارجى فتلقته ايدي الاتراك وما لبث ان اخفض وسط زحامهم ، وفي نفس اللحظة اندفعت جموع الاتراك الى الداخل ، وهي تصيح .

وصاح الكاتبين "بوليكسيجيس" :

- لقد اشعل الكلاب النار في الدير !

وكان ثمة جراح في راسه من اثر بلطة تركية .. لها بضامة .. ويجهد شديد غالب الامه وهو يصيح :

- اين "الكاتبين ميخائيليس" !

ثم وكز فرسه منحدرًا نحو الدير .

ولكن "الكاتبين ميخائيليس" لم يكن قد عاد بعد . وكان "ثودورس" قد اخذ مكانه في العبادة .. واندفعوا جميعا يهاجمون الاتراك من الاطراف بينما كانت السنة النيران تتصاعد من الدير ، ومزيد من فضائل الاتراك بطرايبشهم الحمراء يقتحمونه وسط غيبش الفجر .

وقذف الرهبان الصغار بانفسهم من فوق حوائط الدير واندفعوا مع الجماعات المتقهرة الى الجبل .

وعاد "الكاتبين بوليكسيجيس" يصيح :

- اين اخطفى "الكاتبين ميخائيليس" يا "ثودورس" ؟ .

وكان قد وصل الى قمة الممر وقد اكتسى وجهه وخدره ورقبته بالدماء .

- لست ادري ! لقد خرج في غارة قرب منتصف الليل .

- غارة ؟ اين ؟

- قلت لك لست ادري .

ووقف المسيحيون عند قمة العمر يتطلعون الى الدير تلتهمه النيران وبخاتها يتصاعد ويحجب الشمس .. وقف "الكاتبين بوليكسيجيس" معهم وقد تمتلكه حيرة شديدة . كان قد نسى الامه تماما - فلم يعد يهتم بان يمسح الدماء عن وجهه .. وكانت الدموع تنحدر من عينيه .

وقال واحد من الفرسان :

- فلننسحب يا كابتن : أنت مصاب ، فلا تظن واقفا هكذا تنظر الى
الدير ، لقد انتهى كل شيء وتلك مشيئة الله ، ونحن قد قمنا بواجبنا ،

ثم تنهد في حسرة . :

- فقط .. لو كان "الكابتن ميخائيليس" معنا .

ثم جذبوه بالقوة بعيدا ، واتجهوا نحو "كاستيلي" .. اما جماعة
"الكابتن ميخائيليس" فقد اتجهت نحو "بييتروكيڤالو" تستقبلهم انباء
مريية ، حتى اذا وصلوا كان العويل على الموتى في انتظارهم .

وكان ثمة كشاف قد تركوه فوق السور ليرقب ما يمكن أن تفعله الفصائل
التركية ، وعاد الكشاف مع جماعة "الكابتن يوليكنسيجيس" قرابة
الظهيرة ، وتعدد فوق ارض قاع نهر جاف تحت مجموعة من الاشجار
العارية يستريح في ظلها بينما الراهب المداوى "فوتيس" ينظف جراحه
ويساله . :

- ماهى الانباء يا "جاكوميس" ؟

كان "جاكوميس" قرمزا لوحت الشمس وجهه ، ساقاه رفيعتان وعيناه
جاحظتان شهدتا الكثير من الميئات العنيفة واستمتعنا بالكثير من الولاتم
وابسرتنا الدنيا احيانا تقف على رأسها ، حتى لم يعد هناك شيء في هذه
الدنيا يمكن أن يرتجف له يده أو يبتهج له قلبه ، وكان دائما يقول : "الدنيا
عجلة .. عجلة دائمة الدوران" .. وحين كان البعض يسأله : "ومن
يدبرها يا جاكوميس ؟" كان يقول : "الله احيانا .. والشيطان احيانا
أخرى ، دلاتنان متحالفان ، أحدهما يخرّب والأخر يبني .. وإن تجد واحدا
منهما إلا وهو مشغول بعمله" .

وقال "جاكوميس" :

- عسى أن نلتئم جراحك بسرعة .. لا تبتس .. لقد سقطنا هذه المرة .

وسوف تصعد في المرة القادمة .. لا تطلق فالعجلة دائمة الدوران .

- ماذا حدث للدير ؟

- وماذا كنت تتوقع ؟ .. لقد أخذته الشيطان .

وصاح الأب "فوتيس" وهو يرسم علامة الصليب :

- يسس الله لسناك أيها الملحد .

- كنت اعنى لحسب انه اصبح كما كان عليه قبل أن يبني .. وماذا ا

- والكلاب ؟

- أخذوا رئيس الدير معهم ، وانثبه الى كلامي جيدا .. سوف يجعلون من
حجسته صندوقا للطباق ! .. هؤلاء المذنبون المساكين بدوا بداية طيبة

والحق ، انه بينما كان الكشاف يتكلم ، كان الجنود الاتراك يدفعون
رئيس دير السيد المسيح بحرابة ينادفهم نحو "ميجالو كاسترو" يحيطون
به حتى يمنعوا المواطنين المسلمين من الفتك به في هياجمهم طلبا للثأر .
وكانت الاوامر قد جاءتهم بضرورة احضاره الى الباشا حيا .

وكانت الشمس لا تزال في الافق ، عندما دخل الجنود "ميجالو
كاسترو" بلبولهم ، وخرج الباشا في سعادة الى الشرفة وهو يحييهم بينما
رئيس الدير امامهم .

وصاح الباشا :

- اركع ايها القس الكافر !

وكانت الدماء الغزيرة تسيل خلال لحية رئيس الدير ، ولكن عينيه كانتا
تألقن وهو يحدق في الباشا وفي الاتراك الصاخبين حوله والسماء فوقهم
جميعا .. والشمس تميل الى العقب .. واحس لحظتها بجسده خفيفا ،
وبأن وخرأ يشد بكففيه وكأنما جناحان يحاولان أن يخرجها منهما ويرتقا

به الى ما وراء هذه الدنيا .

وصاح الباشا :

- الست خائفا ؟ لماذا يضيء وجهك هكذا ؟ ما الذى يدور بخلدك ؟
اين تحملك افكارك الان ؟

واجاب رئيس الدير :

- الى الجنة .

واشدت هياج الباشا ، فلم تكن اول مرة يرتطم فيها بصخرة من كريت
وترتد سكبنة فوقها ، فصاح هادرا :

- انت لست فى الجنة ايها الراهب الشيطان ، انت تواجه الشجرة
العارية !

وقال رئيس الدير :

- المعنى واحد يا باشا .

وصاح الباشا والزبد يخرج من فمه :

- خذوا هذا الكافر الى الشجرة العارية .

وجذبه العريبي وآخرون من الجنود وأخرجوه من الساحة ، بينما كانت
جموع الدهماء تملأ الشوارع وهى تصيح ، ولم تكن الشجرة بعيدة عن مقر
الباشا .. بل كانت قريبة ؛ تقف قاسية على مقربة من النافورة الفيبيسية
واسدعا المصنوع من الرخام .

وقبيل الغروب مباشرة ، كان ثمة سرب من الطيور قد حط فوق اغصان
الشجرة العارية ليخلد اليها طوال الليل .. وارتفعت شققته المرحية .

وجيء بقاعدة خشبية اوثقوا رئيس الدير فوقها ، ثم استعدوا الحلاق
التركي الذى مالبث ان حضر يحمل الموس والمقص والحوض النحاس ..

وعندما رأى رئيس الدير صاح ضاحكا :

- انت فارس شجاع ، وسوف اطلق لحيتك بلا رغوة !

ثم جذبه من شعره ، وبدأ ينتف له لحيته ، وهو يعض شفتيه حتى لا
يصرخ من شدة الالم بينما الاتراك المحتشدون حوله يضحكون ، اما
سليمان فكان قد اعد الجبل وبدأ يشحجه .. وفى نفس تلك اللحظات كان
ثمة مسيحيون يختبئون فى دورهم المواجهة ويتابعون المشهد من خلف
نوافذهم المغلقة وقد حبسوا انفاسهم ، وكان الباشا قد غرق فى مقعده
الوثير يراقب ما يجرى .

وعندما انتهى الحلاق من عمله ، ظهرت آثار الجراح القديمة على
جبهته ، فقد ازال الحلاق شعر رأسه من جذوره .

وصاح الباشا :

- ايها الكافر .. لقد تم تشحيم الحبل ، والعريبي ينتظر ، اعترف
بالاسلام تنقذ حياتك .

وخطا رئيس الدير خطوة فوق المنصة الخشبية ، وجذب الحبل من يد
العريبي ، وجعل من نهايته انشودة لفها حول عنقه .

وقفز الباشا صائحا :

- الا تجيب ؟

وقال رئيس الدير وهو يشير الى الانشودة حول عنقه :

- لقد اجبت !

وصرخ الباشا وقد صار وجهه ازرق من الغضب :

- اللعة عليكم ايها الكريثيون .. اشنقوه !

وحط رئيس الدير بنفسه فوق المنصة ، وشد العريبي الحبل الى غصن
غليظ فى الشجرة .

ودرس رئيس الدير علامة الصليب ونظر حوله فرأى جماعة من الآباء
القداس الذين سقطوا وهم يناضلون ، راهم - مثل المسيح - وفوق رؤوسهم
تيجان الشوك يحيونه يعيون مرحة . فصاح لى ابتهاج :

- هاإنذا قادم اليكم ا .

وكل المنضدة يقدمه .. فتدلى جسده فى الهواء .

عندما عاد "الكابتن ميخائيليس" الى الدير قرب الظهيرة لبستائف القتال
الى جوار رفاقه ، لم يجد الدير - ولا وجد فريق .

كان دير السيد المسيح يحترق ، وكانت قبة الكتيبة قد هوت ، وكان
المحراب والثياب والمزامير والايقونات قد اصبحت رمادا .. وكان الدخان
لايزال معلقا فى سمايات كثيفة فوق الوادى .

وشد "الكابتن ميخائيليس" لحيته وهو يصدق فى المشهد امامه دون أن
يقدر على أن يحول بصره عن السنة النيران .

وأخذ يشد شعيرات لحيته وهو يئن .

- كيف أستطيع أن أبتعد ؟ .. كيف أستطيع أن أبتعد ؟ .

ومر بخاطره ما حدث فى الليلة السابقة : المطاردة العنيفة بلا توقف ،
رفاقه يحثون السير وراءه سائرين على اقدامهم . ثم أخيرا - وعند الفجر -
فأح النهر الجاف العريض ، وثمة عشرون من الاتراك يسيرون خلال
الصخور الطباشيرية البيضاء ويسوقون امامهم فرسا تمتطيه سيده أرخت
الخمار على وجهها .

واقتربوا .. ثم اندفعوا نحوهم وخنجرهم فى ايديهم .. وارتفع الصراخ
والعجيج - كم استغرق من الوقت ؟ ساعة ؟ ساعتان ؟ .. لقد خيل اليه ان
كل شىء انتهى فى مثل لمح البصر . كان الوادى يتراقص حوله وقد تحول
الى غبار مثار تقف وسطه شجرة من اشجار السنط تحتمها تلك المرأة ذات
الخمار رفاعة الرأس جالسة فوق فرسها بلا حراك .. تنتظر النتيجة ومن

يكون المنتصر لثمضى معه فى النهاية .. كانت قد ادراحت رأسها تماما ..
بعيدا عن الرجال .

وفجأة ، كان الاتراك المهزومون يجرون بعيدا عن ارض المعركة وقد
القوا غداراتهم وخنجرهم واندفعوا فى اتجاه "ميجالو كاسترو" وهم
يصيحون : بينما ادار "الكابتن ميخائيليس" رأسه بعيدا حتى لا يرى
المرأة المضطحة بالمسك .. وقال لـ "فيندوسوس" :

- خذ هذه المرأة الى عمتى العجوز "كاليو" فى "كوزاكيس" . وقل لها
ان تقدم لها الطعام والشراب حتى ترى ما يكون .

وسأله "فيندوسوس" وهو ينظر اليه فى خبث :

- الا اعيدها الى كاستيلي ١٩ إن "الكابتن بوليكسيجيس" المسكين
سوف يقتل نفسه ا .

- دعه يقتل نفسه .

وهاهو ذا الآن يقبض على عنان فرسه وهو يشعر بالحيرة هل يعود
ادراجه ١٩ انه لا يريد أن يقوم .. بل انه لا يستطيع أن يقرو . ولكنه ما لبث
فجأة ان ضغط فكليه يطحن أسنانه - فقد اتخذ قراره . والهيب فرسه واندفع
كأعاصفة نحو الدير وظل يصدق فى السنة الذهب وهو يئن ويشعر شعره اثر
شعرة من لحيته .

- كان يجب الا اغادر موقعى .

ثم ترجل .. والتقط حفنة من الرماد الحار وهو يشعر برغبة شديدة فى
أن يلوث وجهه ولحيته وشعره بها .. ولكنه تماسك .. ويسط راحته فتساقط
الرماد الى الأرض وهو يغمغم :

- فليحترق ويهلك الملوم .. ويسبح كهذا الرماد .

ثم ففز الى سهوة فرسه ووخزها بمهمازه حتى ادنى بطنها .

واندلعت النار في كريت من اقصاها الى اقصاها .. وعادت الجبال والوديان ومقاريق الطرق لتضج بأصوات طلائع الرصاص والصفائح ، وغاد الرجال يهدرون وينهشون كالوحوش المفترسة . وعاد كبار السن منهم وخطر المشيب شعرهم ليذكروا أيام شبابهم ، وانطلقوا بدورهم الى الجبال : بعضهم يحمل السلاح ويشارك في القتال .. والبعض الآخر ممن منعته الشيخوخة واضعفته الجراح القديمة ، يكتفي بتقديم المشورة للفرسان الجدد في مخايبه سرية ، كانوا يعلمونهم الضد والمكائد التي كان القدامى يستخدمونها من قبلهم - كيف يعشون بالجواسيس - وكيف يلتفون حول الاتراك وكيف يقتسمون القرى التركية بالليل .

وجاء ايضا لكابتن "الياس" على ظهر بغل عجوز واجتاز الجبال واحدا بعد الآخر ، واختبأ في مكائن الفرسان ، وكان يتنهد وهو يقول : "إن الزمن القديم يهرج يا اولادى .. ولست بغادر الآن على القتال بالسلاح - ولكننى سأقاتل براسى حتى يسقط هو الآخر الى الارض ويتحول الى تراب ا"

وكان قد وصل في ذلك اليوم الى قرية "فريسيس" المتشرة الغنية بالمياه ، وكان يجلس الى جذع شجرة عجوز جوفاء تحلقه الصبية والنساء والشيوخ يستمعوا اليه وقد قفزوا الفواهم - قال لهم وهو يمر بذراعيه الكليلين على الأوراق الخضراء :

- لقد طالما ظلت هذه الشجرة فرسانا حين كان المرء لا يصدق إلا انهم عصاة على الموت .. ولكنهم ماتوا .. من كان يصدق ذلك ؟؟ عادوا الى تراب كريت واصبحتنا نطاهم باقدامتا .

ثم تنهد .. كان يحس بالضيق في ذلك اليوم بعد ان طارنيا احراق الدبر كغراب السوء ناعيا من قرية الى قرية حتى وصل الى "فريسيس" قبيل الظهر .. وهز الرجال رموسهم وغمغموا .. وبكت النساء .

وتظاهر الكابتن "اليساس" بأنه لم يرد ولم يسمع .. كان يريد ان يصرف اذهانهم عن النكبة الكبرى بالحديث عن العانس المقبضة في الماضي .

وقبحة سمع وقع حوافر سريعة : والتفت الجميع ينظرون خلا اسجار الزيتون والدباب ليرى بعضهم بيضوح والبعض الآخر في غير وضوح - فارتسا بعصاة رأس سوداء : "الكابتن ميخائيليس" .

وصاح الكل في هياج عنيف : "الكابتن ميخائيليس" واحض الكابتن "الياس" رأسه .. وضرب الارض بطرف عصاه .

وصرخت احدى النساء - وكانت قد انتهت لتوها من ارضاع طفلها واخذت تلمع اطراف ثوبها على صدرها : "انه يعود ادراجه وحيدا - اين ازوجنا .. اين زوجى ؟؟ .. لقد تخلى عنهم الدب المفترس ا"

وصاحت امرأة اخرى وهي تستشير مبتعدة حتى لا تراه : "لقد ترك الدبر وقت الخطر .. يجب ان يحرق حيا !"

وقال رجل عجوز : "لا تدعوه بلا جزاء ياكابتن الياس ، فلا احد يتوك موقعه كما فعل ا عاقبوه ، فانتهم الكبار المحترمون . اما نحن ففتحتم تهديده ولا نستطيع ان نقول له كلمة واحدة .. انتم تستطيعون ا"

ورفع الكابتن "الياس" عصاه وصاح في غضب :

- كفى .. لست في حاجة الى مشورتكم .

وهمس الكل وهم يلتصقون بعضهم بالبعض الآخر : "هاهو قد وصل !" وانفسحوا للكابتن "الياس" .

وظهر "الكابتن ميخائيليس" بملامحه الهادئة وهو يتصيب عرقا ، وعيناها تختفيان تحت رموشهما وحرارة الجو تلهيه هو وفرسه .. وعرف وجه الكابتن "الياس" بين الجمع تحت شجرة الدلب فود لو عاد ادراجه ، ولكن ذلك كان مستحيلا - فترجل وهو يهيمر نفسه لموقف صعب معه -

قال وهو يمد يده مصافحا :

- طاب يومك ياكابتن الياس .

وتظاهر الفارس الاشيب انه لم ير اليد الممدودة اليه .. وعاد ينكت

الأرض بعصاه من جديد .. ثم اجاب :

- فلنصفه إذن بأنه يوم طيب حتى ولو لم يكن كذلك يا "كابتن ميخائيليس" ...

وغلا الدم في عروق "الكابتن ميخائيليس" . فقبض على زمام قرسه وبدا كما لو كان يريد أن يمتطى صهوته ويتابع الطريق . فلم يكن من طبعه أن يسمح لمخلوق بأن يلقي الاحجار امام قدميه . وتطلع الى وجوه الكل حوله وادرك على الفور انهم عرفوا كل شيء .. فإزدادات ملامح وجهه ضراوة ووحشية .. وجذب بضع ورقات من شجرة الدلب . وقذف بها الأرض وهو يقول :

- هذا يحدث كثيرا في الحروب ياكابتن "الياس" . وانت تعرف هذا جيدا . فلطالما حدث ذلك للمسيحيين في ايامك . تذكر ماحدث في "اركادي" .

وصاح الكابتن المعجوز وعيناه - حتى العين الزجاجية منهما ! - ترسل الشر :

- حذار ان نتحدث عن "اركادي" . هل حرقنا في اركادي ام تحولنا الى الهة ؟! .. اما ما حدث بالنسبة لديبر السيد المسيح - والغفر لي قولي هذا :

ثم توقف فجأة .. وادار رأسه للنساء والشيوخ وهو يقول :

- دعونا وحدنا .. انهبوا الى بيوتكم .

واقف الكل في سكوت .. وبدوا يقادرون المكان : الشيوخ منهم يجرحون "الكابتن ميخائيليس" بنظراتهم : والنساء يصبين اللعنان المضافه وهن يتحاشينه . اما الام الشابة التي كانت ترضع طفلها فقد ظلت واقفة في مواجهته .. وسالته بشراسة وهي تنظر مباشرة الى عينيّه :

- ماذا حدث لأزواجنا ؟ اجب عنهم امام الله ! .

وصاح الكابتن "الياس" :

- ابتعدى عن هذا المكان ! واصمتى ! .

وعندما اصبحا وحدهما . استند إلى عصاه لحظة ثم انتصب وقال :

- اسمع ياكابتن . حين وصلت .. مدت اليّ يدك . فرفضتها . لقد لطخت اسمك يا "كابتن ميخائيليس" .

وقال الكابتن هادرا :

- حتى لو كنت اكبر منى سنا . وحتى لو كنت مقاتلا منذ عام ١٨٢١ . فلدى كلمات اود ان قولها لك . وانتبه اليها جيدا ! إن من يتحدث اليّ يجب ان نرى كلماته جيدا ياكابتن "الياس" !

- وانا ايضا لدى كلمات اريد ان اقولها لك . لقد لطخت اسمك اليوم يا "كابتن ميخائيليس" .

وتراقص الشر في عيني "الكابتن ميخائيليس" . ولكن الرجل الذي كان يقف امامه رجل عجوز .. عجوز مثل تلك التلال . اثر من اثار ١٨٢١ . بقية من اطلال "اركادي" لم يكن يستطيع ان يعسه بسوء .

واستدار بعيدا .. وظل يسير تحت شجرة الدلب .

- لماذا ركبت في الليل وغادرت الدير وتخلّيت عنه ؟ .. انت لا تجيبيني ؟
والى اين ذهبت ؟ لم تكن تعرف ان الاتراك يشنونك . وانهم سبهاجمونك بمجرد ان يعرفوا انك تخلّيت عن موقعك ؟! .. ولقد عرف الكلاب ذلك . ولست ادرى من ذا الذي نقل الخبر اليهم ... وهكذا فقد الدير . وانت وحدك المعلوم ! .

واحسن "الكابتن ميخائيليس" بأن جسده سينفجر . واحنى رأسه وقال فيما يشبه الهمس :

- لست انا المعلوم .

وساگه الكابتن "الياس" وهو يستند الى جذع الشجرة :

- فمن تكون إذن ؟! .. من ؟!

ولم يجب "الكابتن ميخائيليس" .. فعاد يسأله في اصرار :

- إلى أين ذهبت ؟! ولماذا ابتعدت ؟! تقول إنك لست المعلوم ، فمن يكون المعلوم إذن . وقال "الكابتن ميخائيليس" في جهامه :

- لا تسأل ياكابتن "الياس" . هذا شأني انا وحدي ، واست مدينا بالتفسير لأحد .

- بل أنت مدين ياميخائيليس ! .. مدين لأسلافك .. مدين لأسلافنا . الست كريشيا ؟! لست من تربة هذه الأرض ؟! ماذا يعنى إذن بهذه الكلمات المشرفة : انا لست مدينا بالتفسير لأحد .. ألا تحجل من نفسك .

وعرس "الكابتن ميخائيليس" مخالفه في جذع الشجرة : فقد كانت تلك أول مرة يسمح فيها آدميا يكلمه بهذه الجرأة وبهذا الاسلوب المهين ، ربما كان العجوز على حق ؟! ولكن "الكابتن ميخائيليس" لا يسلم بسهولة .. عاد يكرر في تحد :

- انا است مدينا بالتفسير لأحد .. انا مدين لنفسى فحسب ، الى اللقاء ياكابتن الياس ، أريد أن أكون وحدي لأصل الى قرار .

- ومن خلال القرار الذى ستتخذه ، سوف نعرف كم تبقى لديك من روح .. وأى نوع من الروح هي يا "كابتن ميخائيليس" ، اذهب .. تصحيك بركات السيد المسيح ولعناك .. شيء واحد ما زلت أريد أن أقوله لك - وفكر جيدا فيما أقوله لك - يا "كابتن ميخائيليس" : إن كورت لاتزال في حاجة اليك ! ولعلك فهمت ما اعنيه .

فقد خشي الكابتن "الياس" فجأة أن يقدم الرجل على الانتحار فتفقد كوريت بذلك أحد أعمدتها .

وأجاب "الكابتن ميخائيليس" :

- لقد فهمت

ثم اصبح فوق صهوة فرسه دون أن يلمس الركاب .

وبدلا من أن يستدير الى اليمين في اتجاه "بيتروكيفالو" كما كان قد قرر من قبل ؟ استدار الى اليسار في اتجاه "سيلينا" وكانت الشمس قد غربت ! وابتثق الليل من التربة .. وهبت ريح منعشة أتية من المرتفعات . يرى "الكابتن ميخائيليس" صدره المحموم ليبتد .

وفجأة توقف وهو يقغم :

- هي الملوحة ، هي .. هذه المرأة المجلة بالعار .

ورفع العصابة السوداء عن جبهته وجفف عرقه وتنفس بعمق وهو يحس بأن ههه يطفو - لقد فهم - لقد عرف الآن الى أين هو ذاهب وعن أى شيء يبحث . ولماذا يتجه الآن الى سيلينا بدلا من بيتروكيفالو ، وأحس لحظتها برغبة شديدة في أن يعود ادراجه ليشد على يدي الرجل العجوز - هاتين اللتين اذاقنا الأتراك السم - ويقبلهما ، هكذا ينبغي أن يكلم الرجل الرجل ، هكذا - وبلا رحمة !

ومر لحظتها عجوز يحمل جوالا فوق ظهره ويمسك بعصا رمي طويلة ، ولم يتعرف الرجل عليه وسط الغبار العثار .. وتاداه الرجل :

هل سمعت ما حدث يا ولدي ؟ لقد أحرقوا دير السيد المسيح .. نعم .. أحرقوه .

ثم وكز اللرس حتى يتجنب المناقشة .

وصاح العجوز رفعا عصاه الى السماء :

- اللعنة على المعلوم .

ويرد "الكابتن ميخائيليس" الكلمة وسط الظلمة : "اللعنة" .. وكان القمر نصفا رقيقا ، والنجوم في قطعان تحيط بالنجم القطبي الذى لا يتحرك وكأنه راع يقود غنمه .

ولكن "الكابتن ميخائيليس" لم يرفع بصره الى السماء ، وأبقى عينيه

مبثبتين على سفح الجبل حيث كانت ثمة أضواء خافتة تلوح ، لقد كان يقترّب من قرية "كوراكيس" .

كان منزل عمته "كاليو" يقع عند مدخل القرية ، ولابد أن المرأة العجوز نائمة الآن ، فقد اعتادت طوال حياتها على أن تستيقظ مع صياح الديكة وأن تنام حين يهجم الدجاج . كانت قد تزوجت وأنجبت أولادا ، جاؤوا بأحفاد تزوجوا وأنجبوا هم أيضا .. وأصبحت الآن عجوزا فانية محدودة الطهر صماء .. وإن كان لا يزال في عينيها اثر من قدرة على الابصار .. لقد نسيها ملك الموت طويلا !

وترجل "الكابتن ميخائيليس" ، وجلس فوق صخرة على حافة الطريق وقد ضغط رأسه برأسيه ، كانت كلمات "الكابتن الياس" تعمل في قلبه كالسكاكين "لقد لخصت اسمك يا "كابتن ميخائيليس" ! وظل يكررها لنفسه مرة بعد مرة حتى يمنح نفسه الشجاعة في مواجهة ماهو مقبل على فعله ، وكان كل شيء هادئا في القرية إلا من كلب يتبع نباحا هو النحيب اقرب وكانما يرى ملك الموت من كذب وغمغم الكابتن : "ليس لعمتي كلب في فناء بيتها ، وإن يسمعني احد .. لا احد سيخبرني .. لا احد" .. ولكن عقله في الحقيقة لم يكن يفكر في عمته .. أو في الكلب وتتهد يعمق .

ونهض واقفا واتجه ببصره الى القرية وكانت ثمة مصابيح قليلة لا تزال مضاءة ، ولكن ما لبثت أن اطفئت واحدا بعد الآخر ، وغرقت البيوت ، والغاس في النوم ، وقفز فوق صهوة فرسه ثم رسم علامة الصليب وهم يغمغم "باسم الله" .. ثم اسرع باتجاه "كوراكيس" .

وربط فرسه الى حلقة بواب البيت ، ودلف الى الغناء ، وكان يعرف تفاصيل المكان جيدا ، الى اليمين تقع معصرة النبيذ والدناك وأواني حفظه ، وإلى اليسار تقع حظيرة لبغل وحمار كانت تملكها عمته ، وحظيرة أخرى لزوج من الثيران .. ولكن هذه الحيوانات كانت قد ماتت كلها ، وقسمت حقول الكروم بين الأبناء والبنات ، واحس الكابتن وسط الظلام برائحة البلى والغناء .

وتابع السير ودس يده في فتحة الجزء العلوي من الباب الرئيسي ، ودفع المزلاج في حرس فانفتح الباب ، وارفغ السمع وقد حبس انفاسه ، واستطاع من مكانه أن يسمع صوت انفاس رتيبه أتية من غرفة صغيرة . وكان ثمة شخص ينام في جانب منها ، واختلج قلب "الكابتن ميخائيليس" ، من عسائه يكون هذا النائم !؟

واقترّب أكثر في خطى كخطى اللص وقد وضع يده فوق خزامه وقبض على خنجره ، وارتعشت خياشيمه .. لا اثر لرائحة المسك : "لابد أن عمتي العجوز" .. وعادت ضربات قلبه تنتظم ، وانحنى قليلا وتحقق من الشعر الأبيض والوجه المفضن .. ثم تراجع الى الخلف .

"لابد انها في الغرفة الوسطى ، افضل غرف البيت .. تلك التي بها المذبح" .. وعاد قلبه يخفق كموجات البحر .

ومد يده ودفع الباب الصغير للغرفة الوسطى التي كانت مضاءة بمصباح خافت الضوء امام المذبح القديم لكل القديسين وعلى جانبيه صورتان لميخائيل كبير الملائكة ، ولاستشهاد القديسة كاترين .

واستند الى حافة الباب ، واستطاع أن يميز جسدا نائما تحت الغطاء فوق سوير عمته الحديدى القديم ، وكان يعقوده وهو في مكانه أن يميز ذلك الشعر الاسود منسدلا فوق الوسادة .. وان يشم رائحة المسك .

واحس لحظتها بعينيها تغيما ، فتنفس يعمق ولكنه لم يستطع السيطرة على قلبه ، ويقفزة واحدة اصبح داخل الحجرة وهو يقبض على خنجره ذي القبضة السوداء وحبس انفاسه وهو يسير على اطراف اصابعه .. ورفع الغطاء بيده اليسرى فلمع جسدها ، ولمعت عيناها لمرأة للحظة . ولكن ما يراسه كان الدم فحسب .. في امواج متلاحقة .

وتلملمت المرأة النائمة وتنهدت ، وهمست شفتاها بكلمات غامضة ، ثم ابتسمت .

وانحنى "الكابتن ميخائيليس" : ووبرق ضوء المصباح الصغير فوق نعل

الفصل الحادى عشر

الخنجر الذى مرق فى الهواء .. ثم انغرس بعنف قاس فى الجسد الابيض .

وصرخت "امينة" . وقتحت عينها . واستطاعت ان تتعرف على "الكابتن ميخائيليس" .. وارتمت فى النظرة الاخيرة لهما : الدهشة والنشوة والالم والعتاب معا .

وان الرجل اتينا . وجسده كله يهتز بالالم .. واستل الخنجر حتى يجنب الجسد الموت .. ولكن يغد فوات الاوان ، لقد تحجرت عينا "امينة"

جلس الجد فى فناء البيت تحت شجرة الليمون العجوز ، وقد وضع فوق ركبتيه لوحا وطباشير وظل يحرق فى الجبل خلال الباب المفتوح .. ويفكر . كان الجبل يبدو متألقا وسط ضباب الغسق ، وشمع ريح جنوبية رطبة تعلن الارض بقرب سقوط الامطار . وكان الجو باردا .

وتتهد الجد وهو يقول : «الشتاء على الابواب» ..

كان يفكر فى النساء والاطفال الذين اخرجهم الاترك من بيوتهم فتمسكوا إلى الكهوف بلا طعام أو ثياب .. وبلا رجال يصمونهم . وكان يفكر فى كريت التى عادت مرة اخرى تهب اغلال عبوديتها ولا تدرى إلى أين تعد يديها طالبة العون . هؤلاء الافرنج الكلاب .. بلا قلب . اما اليونان - الامم النعسة المنسولة - فقد كانت بلا حول ولا قوة . واما الثوار الكريتيون فقد كان عددهم لا يزال ضئيلا وكان ما بأيديهم من سلاح وطعام اكثر شاعة .. فكيف كان بمقدورهم ان يمسكوا ؟ وفوق ذلك كله ، فان الله يبتليهم بالشتاء وكانه يأخذ فى الصراع جانب الاترك .

وتغمغم العجوز وقد اغلق عينيه : «انت كريتى ... وسوف تلقى جزاى» .

إن الجزيرة كلها بكل ما فوقها من جبال وفكاهة وناس ، لتبدو معلقة فى الفراغ ما بين صدغيه . كم كانت انتفاضة لها عاشها ؟ كم مرة اخربت بيوتها وانتزعت اشجارها وانتهكت نساؤها وقتل رجالها ؟ ... ورغم ذلك ، فان الله رفض دائما أن ينظر إلى كريت بعيني عطفه ..

وصاح الجد العجوز ، هل هناك عدالة ورحمة فى أى بقعة فوق هذه الارض - بل هل هناك اله ؟ .. ثم ضرب اللوح بقبضة يده ويقول : «ام انه سيحانه - اصم لا يعرف الرحمة ؟» .

ولكن حفيده «تاراسكي» قدم في تلك اللحظة خارجا من البيت ،
فاضاعت ملامح وجه الرّجل العجوز . كان تاراسكي ، هو اجابة الاله .. كل
شئ س ينتهي على مايرام ، فارتح بالا ايها العجوز : وفكر في حفيدك ..

وكانت الشمس قد لوتح وجه تاراسكي في الشهور القليلة التي
امضاهما بالجبل والتي حولته الى حيوان مفترس وجعلته يقترب حثيثا في
الشيء من ابيه : عينيه ، وحاجبيه وشفتيه - واعتداده بنفسه ، اتجه نحو
جده وتناول اللوح من يده ونظر اليه عابسا وهو يقول في حدة : « أنت لم
تكتب الابجدية بعد » .

كان يحاول طوال شهر كامل ان يعلم جده الابجدية بعد ان قرر هذا -
بعزيمة قوية لا تحسب للسن حسابا - ان يتعلم بضعة حروف حتى يستطيع
- كما يقول - كتابة اسمه . والحق ان هدفه كان ابعد من ذلك ، ولكنه لم
يفض به الى حفيده .

بيد ان العقل العجوز تأبى على تلك الحروف ، كما تأبى اليد الثقيلة التي
لم تألف سوى المعول والبنديقية .. على اصابع الطباشير التي كانت تتحول
هي واللوح احيانا الى قطع صغيرة حتى ليجز «تاراسكي» أسنانه من
الغضب .

وكان الجد يضرب رأسه بيده ويقول : «كان لدى مايشغلني يا ولدي ،
ولم أستطع .. فلا تؤنّبني » ..

- وما هذا الذي كان يشغلك ؟ لقد كنت تجلس عند مدخل البيت طوال
اليوم ، وقد رايتك بنفسى وانت متشغل ، نفسك بالنفاس مع كل عابر : انا
أعرف انك تضع اللوح والطباشير فوق ركبتيك ، ولكن أين الخطوط ؟ بهذا
الاسلوب أنت أبدا لن تتعلم .

- لا تؤنّبني يا تاراسكي يا ولدي ، فالامر صعب بالنسبة لي - إن يدي
لاتطواعني ، كيف أفسر لك الامر ؟ أحاول احيانا ان اتجه بالحرف إلى
اليمين فإذا بيدي تتحرف إلى اليسار - واضغط على الطباشير بركة ، فإذا
هو يتكسر . هل ترى ؟

- كل ما اراه انك أبدا لن تتعلم الكتابة .

وهز تاراسكي رأسه وقال :

- هات يدك حتى أوجهها .

ولكنهما سمعا في تلك اللحظة وقع اقدام ، والتفت الجد سمعيدا للغاية
بأنه سيخلص من الكتابة . واقترب شخص غريب مرهق من اللون يرتدي
الملايس الافرنجية ويحمل في يده مظلة قديمة مريوطة بالخيط .

وناداه الجد :

- طاب يومك يا صاحبي ، إلى أين ؟ اجلس وارتح قليلا واشرب
ماينمشك .. وتوقف الغريب مستندا إلى مظلته ولم يقل شيئا .

وعاد الجد يسأله :

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- أتمشى .

وصاح الرجل العجوز في دهشة :

- تتمشى ؟ .. بحق المسيح .. ألم تسمع اصوات الطلقات ؟ .. إن الدنيا
تتمرق حوذك وانت تمشى . ضع مظلتك والنقط سلاحك يارجل .. الست
كربتيا ؟

- بلى ..

- فماذا تنتظر إذن ؟ .. الق يهذه المظلة بعيدا .

وتطلع المسافر الى السماء المثقلة بالغيوم ، ثم قال وهو يقرب المظلة
اليه :

- سوف تمطر السماء .

وكان تاراسكي ، يتمعن لحظتها في وجه المسافر .. ثم مالبت ان صاح
فجأة :

- الست السيد ديميتروس ؟ السيد ديميتروس لينيتوم ، جارنا ؟ .. ان
زوجتك المسكينه «بينلوب» تكاد تجن لانها لم تعرف إلى أين ذهبت .

وسأله ديميتروس في ضيق : «أين هي .. الآن ؟ » ..

- وكيف لي ان أعلم ؟ لعلمها تجوب القرى كلها بحثا عنك ..

وبدأت تتساقط قطرات ثقيلة من المطر ، وفتح ديميتروس مظلته وتهيا
للتصريف ..

وصاح الجد :

- بحق المسيح .. انتظر واشرب كوبا من «الراكي» .. إلى أين تذهب ؟
إن السماء بدأت تمطر .

ثم سار دون أن يلتفت .. حتى غاب عن النظر .
وتسائل «ئاراساكي» :

- ماذا دهاء ؟ ما الذي يجعله هكذا متعجلا ؟ وأجاب الجد العجوز :
- زوجته .. لقد غاض به الكليل منها .. واكتفى .

ويبرز «بتروبولوس» من داخل البيت بعيامته الصغيرة وقيثارته معلقة فوق كتفه كان قد افطر «بسكويتا» مغموسا في الخل والزيت وقطعة من الجبن ، علاوة على كمية من النبيذ . وأحس من ثم بالبهجة حتى ليخرج الآن وعيناه تتراقصان ليستنشقا بعض الهواء النقي .

كان قد تعب من الحبس داخل البيت مع النساء والأطفال . يعزف لهم على قيثارته لكي يحول أفكارهم عن رجالهم الذين يحاربون في الجبال . وكانت أصوات الطلقات الهادرة تتناهي من بعيد مع الريح المواتية . فتصعد النساء إلى السطح ليتصتن . وتهرع أرواحهن طائرة إلى الجبال .. حيث أزواجهن ، وكان «بيترودولوس» هو راحتهن الوحيد حين يلعب بقيثارته ويغنى أغنيات السـ «مكثوزوا» التي اشتهرت بها «زانتى» . فيبعث في نفوسهن بقليل من الطمانينة ، ولقد قالت له أول أمس فتاة حديثة الزواج هي «مكريستينا» ابنة القس : «أن الأغنية تشبه الرجل ، فكلامها يريح المرأة المتعبة» ولحظتها . شد الرجل الطيب قامته في خياله . أصبح إن الأغنية تشبه الرجل ؟ .. وكل هذه الأعوام التي انقضت من عمرى وأنا أجهل هذه الحقيقة .. أنا أيضا ينبغي أن تكون لى زوجة وأولاد وأن أحميا كائنسان ، وسأل السيدة الصغيرة ماذا تعنين بهذا ؟ .

وقالت وهي تضحك فى خبث :

- وكيف أستطيع أن أوضح لك الأمر يا صغيرى «بتروبولوس» ؟ نحن النساء فقط نفهم مثل هذه الأمور ، ولو كنت مكانك لما أقفحت نفسي فيها . اقترب «بتروبولوس» من الجد وعلى فمه الصغير الحاد ابتسامة ساخرة :
- ألم تتجاوز حرف «الالف» يا جدنا الصغير ؟ .. ألم تصل إلى «الباء» ؟
أى صخور غارقة لاتزال أمامنا لننور حولها ؟ ..

وقال الجد وهو يلتفت الى حفيده :

- إذا كنت تريد بركاتى فلا تدع هذا السيد يجعل منك مادة للسخرية بأن يعطيك دروسا فى العزف على القيثارة .. فذلك أمر تصلح له .
«البريمادونا» وحدها .

وتنتحن «بتروبولوس» ولكنه لم يقل شيئا . وكيف يجرو ؟ منذ أيام قليلة عشت حدث أن جرو على الرء عليه . فإذا بالرجل العجوز يمستك به على الفور من تحت أبطيه ويطوح به عاليا ليستقر فوق أعلى صخور الشاطئ . ولقد صرخ لحظتها بينما استنبتت البهجة بالنساء وتجمعن حتى انزلته بالسلم . وهكذا . فقد اكتفى بأن ينتحن .. ويتوقع جالسا خلف الجد وقد ألقى قيثارته وراء ظهره .

وقال الرجل العجوز :

- تعال يا «ئاراساكي» وسوف أدريك على التصويب الجيد . فهو لعبة الرجال .. أحضر جهاز التعمير .
ولم يكذب انتهى من كلماته حتى كان «ئاراساكي» قد جاء به ووضع خلف الباب .

هاهوذا .. لقد أمضيت الأمس بطوله وأنا انظف ..

- انى أمثحك بركاتى ، وسوف تصبح أفضل من أبيك نفسه . لماذا تحق فى ؟

هذا هو المطلوب .. تبالنا أن لم يصيح الابن أفضل من الأب . إن العالم ليصير مزقا إن لم يحدث ذلك .

ثم وضع يده فوق رأس حفيده وقال :

- يجب أن نفوقنا نحن جميعها يا ولدى ، فنحن الكريبيين لسنا كسائر الناس . إن عقلنا ضعف أعمالهم . فى باقى الدنيا - وحين يكون المرء راعيا - فإنه لا يفكر إلا فى أغنامه . وحين يكون حراثا فإنه لا يفكر إلا فى ثيرانه وفى المطر والمحصول . وحين يكون تاجرا فإنه لا يفكر إلا فى البضائع . ولكن الكريتى يفكر - بالإضافة الى هذا كله - فى كريت . وكريت طاعون عظيم . طاعون يأخذ كل ما لديك .. وهو دائما على حق . وأنه ليلتلب منك حياتك ذاتها فتمنحها له وأنت سعيد .. إن كريت طاعون عظيم - وأنتبه جيدا الى كلمائى هذه .

ثم وضع سلاحه فوق ركبتيه وأخذ يتحسس كما لو كان كأننا حيا حبيبا
الى القلب . وبدأ يعمره في اهتمام فائق وهو يقول :

- هذا هو حياتي .

ثم عاد يقول :

- اختر لنفسك الآن هدفا . هناك . هذا الغراب فوق قمة شجرة السنط -
هل رأيته ؟ حسن . ضع الفناء العجوز الى كتفك .. وصوب .

واغلق «بيثودولوس» عينيه وسد اذنيه . وهدرت المplatte كالرعد وانفجع
الدخان من القربينة في دوائر .. وهوى الغراب من بين اوراق الشجر إلى
الأرض .

وقفز «ناراساكي» في بهجة . وأسرع لينتقط الطير الميت . ثم القى به
عند قدمي «بيثودولوس» ليفزعه . وتراجع الكونت المسكين فزعا . وأمك
بقيارته وعاد الى النساء يشفتين ترتعشان .

وكانت زوجات أبناء الجند . وزوجات احفاده قد تجمعن في تلك الابنية
المتجاورة بالاضافة الى جاري الكابتن ميخائيليس : «ماستراباس» و
«كراسوجورجيس» السمين الذين اتضعا اليهن مع عائلتيهما بعد ان احتل
الأتراك قراهم .. وكانوا قد هربوا لتوهم فوق ظهور دواب الحمل . والى أين
يذهبون ويجدون الأمان ؟ فكثروا في والد الكابتن ميخائيليس الذي اشتهر
بيته بأنه قلعة منيعة وبأنه هو ذاته رجل كريم لا يرد عن بيته أبداً وعندما
أصبخوا عند الباب الخارجي . رفع «كراسوجورجيس» يديه الى صدره -
وهو المتمرس بالفنفاق - وحيأ الجند الذي وقف مرحيا بهم . وقال :

- ايها النسر الملكي الاشيب . انا . و«ماستراباس» : صانع الاجراس -
جاري ابنتك الكابتن ميخائيليس . والمطاردين من الأتراك - جئنا نحتمي
بجناحك . ايها النسر الملكي الاشيب .. لا تودنا خائبين .

واجابه الجند الذي لا يعرف الفنفاق - وان كان يحب ان يتالفه الناس ..
اجاب مبسما ..

- جناحاى عزيزان ادخلا .

وظهر «بيثودولوس» هو الآخر في الفناء وحيأ القادمين الجدد بترحاب
رائد . بينما قال «ماستراباس» :

- تحياتي يا كابتن «سيفاكاس» . لقد اصابوا عندما قالوا ان بيثك دير .

ولكن الرجل العجوز رفع يده وقال :

- مرحبا .. ولكن بشرط واحد : كلاكما هنا ليحمل السلاح . فاختارا من
السلاح ما تشاءان وانحيا الى حيث يقف الرجال .. انا لا امتح طعاسي
لمرتعش او جبان . انا ارعى النساء والاطفال . فلا تقلقان عليهما .

ثم اضاف ضاحكا :

- لا تشيرا الى السنير «بيثودولوس» . انه امرأة وطفل .. انه الاثنان
معا ..

وضحك الجميع .. ولكن «كراسو جورجيس» و«ماستراباس» كانا يرمى
الوجهين .. وتجرا اولهما ليقول :

- نحن لا خيرة لنا بأمور القتال . فإذا وصل الامر الى حد القتال فقد
ضعننا .

- حسن ؟ فلو أنك لم تذهب . انن تصبح يوما .. ويصورة من الصور ؟

- كلما تأخر ذلك كان افضل يا كابتن .

- حظك سيء .

وقفز «كراسوجورجيس» :

- لا بأس . ولاتفصب يا كابتن سيفاكاس . فسوف تذهب ... وكان الله
في عوننا .

وانزل الاثنان حمولة الدواب . ونزل النساء من فوق ظهورها . وجاءت
النسوة الاخريات ليساعدنهن ويقدنهن الى البهو الامامى الكبير حيث
اعدن لهن موقدا .. واجتمع الكل في المساء الى المائدة الكبيرة .. وفي
صباح اليوم التالي أخرج الجند بندقتين من الدواب واعطاهما
لكاسوجورجيس و«ماستراباس» ورافقهما الى القسى حدود القرية . وهناك .
اسلمهما لراعى غنم العجوز «شاريديوس» وقال له :

- عمت صباحا ياشاريديوس . اصحبهما من فورك عبر العمر الى حيث
مخيا الكابتن ميخائيليس . وخذ حذرك . فالانثان جديدان في اللعبة . فلا
تقلعهما الى قرية مليئة بالأتراك .

ثم استدار الى العقائتين الجديدين .. وعد يده مصافحا

- اذهبوا على بركة الله وأديا واجيما ، كونا رجلين ، وأنا المسئول عن
عائلتيكما .. اتمنى لكما حظا سعيدا ، ولا تنسوا ان تحبوا على الجبال .

وبعد أيام قلائل ، وبينما كان الجد والحفيد يتبادلان الحديث .. اولهما
يعطى الثاني عصارة تجاربه وخبرته ، تناهت اصوات وقع اقدام دواب
قادمة من المعر الجبلى ، ولاح قرابة عشرة رجال فوق ظهور دوابهم يهبطون
المنحدر فى سرعة - ووقف ينظر وقد حمى عينيه بكتفا يديه ولكنه لم يستطع
ان يميز شيئا وسط الضباب - ومر به لحظتها منادى القرية العجوز
معا فرودس ، فتداه الجد وسأله :

- ماذا لديك من اتياء يا طائر السوء ؟ من هؤلاء القادمون ؟
- يقولون ان سفينة الكابتن مستغانيس قد وصلت الى مرفأ
اجابلاجاه تحمل اللخيرة والطعام -
ورسم الجد علامة الصليب وغمغم قائلا :
- ايها الوطن الام المسكين .. انت تحرم فمك من افضل اللقيعات وتبعث
بها اليها .. هه .. ثم ماذا ؟
- ثم ان رجال ولدك فى طريقهم بدوابهم ليعودوا بالكثير ، هاهم اولاء ،
فاستقبلهم ان احسن استقبال .

وقال الجد وهو يفتح الباب على مصراعيه : مرحبا بهم .
وكان هفيندوسوس ، دليل القوم ، فقد قال له الكابتن ميثايليس :
- انت لا تصلح للقتال ، ولكذك تعرف هذه النواحي جيدا ، كما انك
ماكر .. وسافك سليبتان ، ومن ثم فسوف اجعلك عادما .

وصاح هفيندوسوس ، وهو يقفز الى الارض :
- تحميه يا كابتن سيفاكاس ، اذا لم يكن هذا يزحك ، فسوف تقضى
اليوم فى بيتك ثم نمضى غدا ان شاء الله عند اول خيوط الفجر .

وقال الرجل العجوز وهو يمد يده للقادمين الجدد :
- مرحبا بكم يا اولادى - اشربوا اولاً فقد تعبتم .
ودخل الفرسان الى الفناء وقد بدا عليهم الارهاق وكساهم البارود ،
واسرعت اليهم النسوة يسألنهم عن اوضاعهم ، واوقدت النار ، وصفت
العائدة - واوقدت الشموع عندما بدأ الظلام يرخى استاره ، وتجمعت

الوجوه الجادة بارزة العظام .. على ضوئها وحول المائدة الحافلة - واكل
الجميع كالوحوش المفترسة - وشربوا كالجاموس ، وعلقت افواههم الطعام
طمانا .. وانتشرت رائحتهم الرجولية الحادة خلال البيت كله ، واحاطت بهم
النساء عن بعد وقد حيسن انفسهن وهن يقمن على خدمتهن فى بهجة -
ووقف الجد هو الآخر قريبا منهم ينظر اليهم فى اعجاب دون ان يتكلم :

وعندما انتهوا من طعامهم وشربهم ، ورسم كل منهم علامة الصليب ،
قال لهم :
- الان تتامون وتربحون اجسادكم المرفقة .. اه .. اه .. لو انتى كنت
صغيرا لاحمل معكم هذا الارهاق ، ولكننى اصبحت كما ترون .. هذا الشيء
المثير للاشفاق .. اننى انام فوق سريري كل ليلة ، واكث واشرب فى
الصباح والظهيرة والمساء .. ولم اعد سوى اكل لا فائدة منه ، لا يحل
السلاح ولا احد يطلق الرصاص تحوى ، اننى لا ارجو - حتى لا عداشى - ان
ينتھوا الى ما انتهيت انا اليه .

وقال هفيندوسوس ، ضاحكا :
- ندعو الله ان تنتهى الى هذا الذى انتهيت اليه يا كابتن سيفاكاس -
وقال الرجل العجوز :
- انت دليلهم يا هفيندوسوس ، وسوف تكون اخر من ينام معهما كنت
مرهقا وسوف تتبادل بضع كلمات معا .

فقال هفيندوسوس ، وهو يغالب التثاؤب :
- تحت امرك يا كابتن سيفاكاس ، فلم اصبح دليلا للا شيء -
وتعدد الفرسان واحدا الى جانب الاخر يلباسهم وسلاحهم ، وقبل ان
تنظف النساء المائدة كان صوت شخيره يملأ البيت -
واوقدت النساء النار للندفة بينما جلس الجد فى مواجهتها والى جواره
عازف القيثارة - واخذ الرجل العجوز يحدق صامتا فى لهب النار وحاجباه
يختلجان فى شغف .. ولم يعد فى النهاية قادرا على ان يظل صامتا فقال
فى همس :

- هناك شيء واحد اريد ان تتبادل حوله الحديث يا هفيندوسوس : شيء
ينزف له قلبى ، قل لى - كرجل - كل ماتعرفه ، ولا تكذب ، فقد بلغت من
العمر مائة سنة فلا احتمل معها الكذب .

وحس ففيندوسوس، السؤال مقدما .. وبدأ يفكر .. ثم قال في النهاية :
- سوف أقول الحق .. كل الحق .
وخفض الجذ صوته أكثر :
- لماذا غادر الكابتن ميخائيليس موقعه في تلك الليلة التي أحرق فيها
الدير ؟
وأخذ ففيندوسوس، يقلب النار ، ثم رجع بجسده إلى الوراء ..
وعاد الجذ يقول :
- دع النار في حالها ..
ثم أمسك بذراعه وقال :
- إلى أين ذهب تلك الليلة ؟
وابتلع ففيندوسوس، ريقه ، لو أنه أطلق العنان للسانته الآن ، فسوف
يكشف كل شيء .. وذلك مايشاءه .
- كابتن سيففاكاسه .. ذلك .. ذلك ليس من شأنى .

وصاح العجوز أمرا وهو يهزه من ذراعه :
- تكلم .. قل كل شيء ولا تحاول أن تخدعنى لماذا غادر موقعه ؟ وإلى
أين ؟ لقد جلب لى العار ، ومن أجل ذلك فهو يخجل من مواجهتى لأنه
يخشى أن أسأله ولكن أقسم بزوجى أنني قادر على أن أمضى يوما - نعم
.. غدا .. لأبحث عنه في مخبئ - ولأجمع فرسانه وأوجه إليه اتهامى
أمامهم . وإذا أنت لم تجب على الإبن يا ففيندوسوس ، فسوف أفعلها .. نعم
ويحق هذه النار ساقطها ، وإيحاو أن يظل فارسا إذا كان هذا الأسد
المفرغ يستطيع حقا أن يفعلها .. وأحس بالرعشة ، ثم قال :
- لا تثر يا كابتن سيففاكاس ، سوف أقول كل الشيء .. ومن البداية ،
فأصبر .

- أنا صابر .. فتكلم
- أنت تعرف أن نورى بك كان له زوجة شركسية ..

وقال الرجل في اثنين ، وهو يضرب صدره بقبضة يده :
- أه .. ياالعار .. أنتن ففى الأمر امرأة .

وقال ففيندوسوس - وقد قرر أن يبوح بكل شيء :

- نعم .. فى الأمر امرأة .. أنت تريد كل الحقيقة ، فهذه هى الحقيقة
أنتن ..

- نعم .. أنا أريد الحقيقة ، ثق من ذلك ، ولكن أخفض صوتك ، فالنائون
لهم أيضا أذان ، فلا تدعهم يسمعوننا . هه ؟

انها تدعى «أمينة» ، وقد راها الكابتن ميخائيليس فى إحدى الأسيرات
عند نورى بك فى ضيعته وجن بها جنونا ، وبعد ذلك أياما - وبالتحديد يوم
حدث الزلزال - راها الكابتن بوليكسيجيس أيضا وحدث معه نفس الشيء .
وظل يحوم حول المكان حتى فقد كل كرامته ، ثم مالبت فى النهاية أن
افتحم بيئتها وصارحها بما فى قلبه ونام معها على فراشها وصمم على أن
يتزوجها ، وكان لابد أن تنتصر ، وكان المفروض أن يتم تعميدها وعرسها
معا بعد غد فى ذكرى يوم الصليب المقدس .

- استمر .. استمر .. وما علاقة ذلك كله بابنى ؟
- سوف تفهم حالا فليسألمحنى الله .. ولكننى وأثق من أن جمال هذه
الشركسية قد سحر الكابتن ميخائيليس بأكثر مما سحر الكابتن
بوليكسيجيس . لقد جئت ليلة أن كان يقاتل أمام دير السيد المسيح . يانياء
تقول أن أقرباء «نورى بك» قد اقتحموا «كاستيليه» وحملوا معهم الفتاة
الشركسية .. وعلى الفور امتطى صهوة فرسه وأسطبح مع عشرة منا ،
وانطلقنا جميعا خلف اللصوص حتى أدركناهم عند «الجبل القاسى» ،
وهناك ، هبط عليهم واندك مثل السبع الضارى وبشكل بطولى لم أر مثيلا له
طوال حياتى يا كابتن سيففاكاس . أن الفضل كل الفضل لك أنت يا من
أنجب هذا الابن .. أما الأتراك فقد تركوا المرأة وركنوا إلى الفرار ..

وغطى الرجل العجوز وجهه بيديه وصاح فى ألم :
أواه . ذلك أنتن ما حدث : من أجل امرأة .. غادر موقعه مثل رجل بلا
شرف .. ياالعار وتسمى ذلك عملا بطوليا .

- لا تتعنه يا كابتن سيففاكاس . أقسم بصلب أبى أن وادك لم يرفع رأسه
مرة لينظر إلى الفتاة الشركسية . لقد قال لى : ففيندوسوس ، خذ هذه المرأة
وأوصلها لى عمتى فى «كوراكجيس» .. وأطلب منها أن تقدم لها الطعام
والشراب حتى نرى ماذا تفعل بعد ذلك .

ثم سكت .. وأخذ يحرق فى النار الموقدة ، وبعد لحظة صمعت عاد
يقول

- أما ما حدث بعد ذلك يا سيفاكاس العجوز ، فينبغي لك أن تعرفه .
ولكن الرجل العجوز لم يتكلم . وكان وجهه قد تحول إلى كتلة من
الشمع .. وبدأ هذا الوجه فجأة وكأنه استحال إلى جمجمة .

وهمس «فيندوسوس» :

- لقد وجدت ميتة ذات صباح .. وثمة خنجر مغروس في قلبها .
وعد الجذ يديه وأمسك بزجاجة النبيذ عي منها وقد أحس بشيء من
الراحة . ثم سأل في همس حتى لقد بدا صوته وكأنه صادر عن كهف
عميق :

- ومن الذى قتلها ؟

والحنى فيندوسوس رأسه . هل يقوله ذلك أيضا ؟ .. كان رأيه قد استقر
على ما سوف يقوله في هذا الصدد ..
- لا بد أنها هي التى قتلت نفسها .. لقد كانت هي نفسها تمسك
بالخنجر .. هذا ما يقوله الناس .

- دع الناس يقولون مايقولون .. من الذى قتلها ؟

ورفع فيندوسوس رأسه وهو يقول لنفسه «لو أنك وجهت فوهة غدارتك
إلى صغرى يا سيفاكاس العجوز . فسوف تسمعها» .
- وإدك يا كابتن سيفاكاس .
- لماذا ؟

وكان فيندوسوس قد التقى الآن ثقله عن صدره . وأحس بأن قلبه قد
استراح . ولم تكن هناك حاجة إذن للهروب أمام التفاصيل الأخيرة .
فاجاب على الفور :
- يدافع الغيرة .

ورفع الرجل العجوز قطعة من الخشب من فوق الأرض ، وغذى بها
النار . واستغرق في التفكير .. وأخيرا قال
- ولقد فعل خيرا . البداية سيئة . والنهاية طيبة . لقد كان ثمة تعبان
لينفص عليه امره .. ولقد فعل إذن خيرا ..
- فأنت لماذا تلومه يا كابتن سيفاكاس ؟

- انه يلام فقط لتركه موقعه . ولكنه دفع الثمن .. ولا يزال يدفعه .
واسوف يتحرز يوما ما .. اننى أثق في دمي .
- ولكن ، ماذا فعلت المرأة لتستحق ما ارتكبه ؟

- وهل تظن أن المرأة فهم ؟ كريت وحدها هي التى تهم يا عازف
البيان . قم الآن لتنام وأطلق فكك . لاتبع بشيء من ذلك كله . فلو أنك
فعلت . لقتل كل من الفارسين الآخر . ولن يكون ذلك في صالح كريت .
نظيت ليلتك . قم أما أنا فسأبقى إلى جوار النار .

وحين لاحظت تباشير الصباح ، كان الجذ لا يزال في مكانه .. وكانت النار
قد خبت : كان قد أحضى رأسه إلى صدره واستغرق في النوم . أما
فيندوسوس وجماعته فكانوا قد التهموا الكعك وشربوا بضع أباريق من
النبيذ ثم انصرفوا .. وعندما فتح الجذ عينيه لم يكن هناك سوى راحة
سجائهم وأحذيتهم وأنفاسهم المثقلة برائحة النبيذ .

وعندما انتصف النهار أو كاد ، وانتهت النسوة من اعداد الخبز .
واستطاع الجذ في النهاية أن يكتب أول الحروف . الألف والباء والجيم على
اللوحة التى كان يتشوق الي أن يراها حفيده . لاح عند الباب الخارجى
محارب صغير قادم من خارج مريت يرتدى «فوستانيللا» المعطف طويله
طويلا كثيف الزر ، ويحمل على كتفه بندقيته . وسترة . وحذاء مديبا .
ويضع فوق رأسه طربوشا ويثبت حول صدره كيس ذخيرة - ومسح المكان
بنظرة كالفسر .

وصاحت النسوة وقد امتزج في صياحهن الخوف والفرح :

- يونانى .. يونانى

ورفع الجذ رأسه وقال :

- مرحبا ، هيلين . أدخل أيها النسر الصغير ..

ورفع الرجل ذو المعطف ساقا نحيلة رشيقة واجتاز المتحل . وتجرات
النساء فاقتربن أكثر ومن مأخوذات بجسده المشقوق وهمست لحداهن :
«يا بهجة عيني أم هذا ولدها . إنه يبدو كما لو كان كرتيها» .
وتوقف البطل الصغير أمام الجذ وقال مسميا :

- وهل أنت يا سيدى هو الرجل الذى يسمونه كابتن سيفلاكس العجوز ؟
- انا هو من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، كل ما فى الأمر اننى كنت
وكابتن. يوما ما .. لما الآن فانا سيفلاكس العجوز فحسب ، وأنت ، أى ربح
طيبة حملتك الى بيتى ؟

- انا قدم من سفينة الكابتن ستيفانيس ، وأسمى «مستروس» .. وبلدى
بروميليا ، ولقد سمعت ان كريت تحارب فجتت انا أيضا لأحارب معها ،
وحين كنت فى «سيرا» قابلت رجلا يرتدى الملابس الافرنجية ويقول انه
حفيدك .. وقد حملنى رسالة اليك .. فعد يدك لأعطيها لك .
هكذا أقدم لك نفسى .

وعد الجد يده وتتاول الرسالة وتحسسها فى سعادة غامرة .. انها جاءت
من حفيدك الاثير الى نفسه .. الابن الاول لاكبر اولاده ، كوستاروس ، واول
حفيد اجلسه فوق ركبتيه .. واول من ناداه بكلمة جد ..

وقال وهو يدس الرسالة داخل قميصه :

- شكرا ايها البطل الصغير على المشقة التى عانيتها ..

ثم نظر الى ثاراساكي وقال ضاحكا :

- سوف اعطيها لحفيد اخر من احفادى .. حفيد متعلم يستطيع ان
يقراها ، ولكن ليس الآن .. ايتها النساء ، اعدن المائدة فقد جاسنا ضيف
من سلالة نبيلة : يونانى اسميل ، واحضرن له المقعد الافضل ليجلس
فوقه ..

واحضرنه المقعد القديم الذى حفرت فوق ظهره صورة تسرين ، وجلس
الجد فى وسط الفناء ووجهه يضىء بالسعادة ، وجلس فى مواجهته الشاب
القادم من روميليا مأخوذا بمرأى الرجل العجوز الاثيب والذى بدا له وكأنه
اله خالد لا يموت ..

وامسك بيد الجد وقال :

- ايها الجد .. لقد سمعت انه عشت مثل شجرة السنديان ، وانك

نفست العواصف ، وعانيت وانتصرت وناضلت وعملت طوال مائة عام .
مئيد بدت لك الحياة خلال تلك المائة من السنين ؟

واجاب العجوز :

- مثل كوية من الماء البارد يا ولدى .

- ومازلت عطشان يا جدى ؟

ورفع العجوز يده حتى اتسخر كفه عن ذراع معروفة حتى الكتف ،
وصاح وكأنه يلعن ويسب :

- الويل لهذا الذى سقى ظمأه ..

وساد الصمت لحظة ، وبدا الاثنان فى تأمل متبادل بينما وقف
ثاراساكي بينهما يحدق فى اعجاب بالغ فى الجد وفى الشاب .. وهولهما
ورف النسوة وقد ثبت لكل منهن ذراعها ..

واخيرا تكلم الجد .. تسامل وهو يشير الى السماء باتجاه الشمال :

- وماذا حملت لنا ايها المحارب الصغير من انباء اليونان ؟ لم يعد
عندكم اترك الا ان ايها المسئولون المحظوظون ..

وكان لايزال يجلس مكانه .. ويتنهد بينما الشاب يجلس فوق المقعد ذى
الظهر المنقوش .. اما ثاراساكي فقد كان لايزال واقفا بالقرب من الجد وهو
يحدق فى الشاب ذى المعطف الطويل ..

واجاب ميثروس :

- ليس عندنا اترك ، ذلك امر مؤكد .. ولكن عندنا ملاك كبار ..
ورشطة .. وسياسيون ولا تسلمنى عنهم ايها العجوز ..

وتناهت من الفناء رائحة خبز ساخن واحس الشاب بما يشبه الاغماء ..
فقد كان صائما طوال اليوم .. والذى ينظره شعرة الى الكعب الساخن ،
وامح العجوز تلك النظرة فضحك وصاح :

- اسرعن يا نساء ، فلم يعد لدينا قوة للتحمل ، احضرن بعض الخبز الساخن والخبز وايريقا من النبيذ حتى نعيد القوة الى قلوبنا ..

ثم دار بيصره عبر الغناء مستعرضا المعانين وحوض الماء الذي تشرب منه الجياد والياب الفارسي ومعصرة النبيذ ، حتى استقرت نظره مرة اخرى فوق الشاب .. وهو يصحك مرة اخرى ويقول :

- اعرف لماذا احضرت ايها الشاب ؟ اقسام ان ذاكرا الرجل تصيح اشبه بالمقبرة عندما يمتد به العمر ، ولكن .. يحدث رغم ذلك ان تتحرك حجارة هذه المقبرة احيانا ويخرج الموتى من داخلها .. بلى .. فانتى وانا ارى الفوستاتيللا في هذه اللحظات - ومرة اخرى داخل هذا الغناء - اذكرك فجأة عام ١٨٦٦ - وكيف انه في داخل هذا الغناء ذاته ، وفوق هذا المقعد ذاته .. جلس يوما ما فارس يوناني (يرحمه الله) بينما كانت زوجتى وحماتى (رحمهما الله) تخرجان الخبز من الفرن .. كان الوقت خرويقا مثلما هو الان ، وكان اليوم يوم القديس جورجيس السكير .. وكان الجميع يهينون النبيذ في القرية ويفتحون الدنان ويتذوقون المحصول الجديد ، وفي تلك اللحظات ظهر كاستانياس (رحمه الله) احد الرجال الذين كان مقدورهم ان يسابقوا الضيل - وكان بصحبة سورميليس (رحمه الله) قبطان الباخرة يانديليس الشيطان الشهير (يرحمها الله) وقلت لولدى الاكبر كوستاروس (رحمه الله) بارك الله في شياك ياكوستاروس .. هلا احضرت لنا ابريقا صغيرا من النبيذ حتى نرفعه ؟ .. وبينما كنت اتكلم ، لاح قادما من اتجاه الجبل جورجيس التنزيير (رحمه الله) - وكان اسمه ملاثما له - وكان ابري بالمعمودية ومالكا لطلعلان عديدة من العاشية وكان يحمل فوق كتفه كيشا مذبوحا ، وكانت زوجته انجيليكو ذات العيون السود (رحمها الله) تسير خلفه وهي تحمل بين يديها الجبن الطرى ، وصاح الجميع : مرحى .. لقد وجدنا شيئا طيبا نأكله ، ثم انفجروا جميعا (يرحمهم الله) بالضحك .. وسمع ضحكائنا في تلك اللحظات مانيلوس المدرس (سامحه الله) والذي كان يمر قريبا من المكان ، ففتح الباب ودخل ، وقلنا له : اجلس وانظر في اوراقك وكراريسك ريثما نأكل نحن ونشرب ، فلجأ يقول : الى الشيطان مهنة المدرس ، لسوف اكل ونشرب

وكمك لسوف ارسل في طلب (مالياريو) الزجاج حتى يمتعنا بازجاله وبقرفة واحدة اصبح خارج البيت ليبحث عن مالياريو (رحمه الله) وقبارته ، بالاضافة الى اندروايس من سفاكيا (رحمه الله) الذي كانت الحجارة تهتز حين يوقع عقيرته بالغناء .. اه .. يرحمهم الله جميعا .. ماذا جرى من شفاهم وحلوقهم وايديهم ؟ ..

ونهدت واقفا ، ولحذت الاثيوب الذي كنت استخدمه في ملء دنان النبيذ ، وادخلته في فوقة احد الدنان ، وصحنت قائلا : ايها الوحوش المفترسة وماذا تضير الاكواب؟! وهل تشرب الثيران من الاكواب ؟ .. سوف تشرب من الدن مباشرة - كل واحد منا يجذب نفسا .. وانت الذي سهدا يا كاتين ليابيس .. فانت تكبرسنا ولم اكمل عبارتى حتى كان هو قد اسك بالاثيوب وبدأ يشط النبيذ الذي اخذ يكركر داخل الدن مثل الرحيلة ، وظل رحمه الله يشرب ويشرب - وبدانا نحشى ان يشرب الدن كله ، فجلدنا الاثيوب من يده وبدأ كل منهم (يرحمهم الله جميعا) يأخذ دوره .. وانا ايضا .. والحمد لله ..

وما كان اربعة من عيد .. وكم اكلوا وشربوا يرحمهم الله جميعا .. وكم ملأوا ايديهم بالجبن وبتما تشرب وتاكل الجبن ، كان الكيش يشوى واسك ليابيس (رحمه الله) بالاثيوب من جديد بينما جاء صوت من الخارج يبدو انك تستمعون بوقتكم ايها الاصدقاء ، وكان صوت الاب نيختاريس (رحمه الله) ومعه رئيس دير السيدة العذراء (رحمه الله) وكان كلاهما اشبه بالاسفنج من كثرة ماشريا ، وبدءا يرقصان في الغناء ويرقعان ارجلها عليا ويجاران بغناء اللحن الجنازى : تعال الى التحية الاخيرة .. وفي كل مرة يصلان الى كلمة التحية الاخيرة .. كانا يقبلان الاثيوب ويجذبان النبيذ في شقطة من داخل الدن حيث كانت تتركز اخر قطراته ، ورحمهم الله جميعا .. ما اكثر ماضحكوا وغنوا وسخروا من الموت وهم يصيحون : ثبتوا اقدامكم جيدا فوق الارض التى سوف تاكلنا يوما ما .. ويثبتون اقدامهم فى قوة فوق الارض - عارية او تتعلل حذاء ، وقد رفعوا سراويلهم الى اعلى فهدت سيفانهم ، واهى عظام .. بل اى شيدان .. واهى شعر فوقها - كانه الشوك حقا ..

ثم سكت الجد .. وامسك بلحيته واستغرق في التفكير وعيناه الصافيتان
تهدقان في الفضاء وكأنهما تسترجعان كل تلك الصور .. وأحس الشاب ذو
العطف الطويل بشيء من الفزع وهو ينصت الى الكريكتي الاثيب الذي
ملا الفناء بالراجلين .. حتى لكانه يسمع الآن وقع اقدامهم فوق الارض
ويبى اجسادهم ووقت النسوة على مقربة يبتسمن . بينما ثاراساكي
يضرب الارض في سعادة بقدمه الصغيرة .. ويضحك متحديا ملك
الموت .. لما بيتروديولوس المسكين . والذي كان قد انضم اليهم ليتطلع في
اعجاب الى الفوستانيللا .. فقد انسحب الى الداخل بمجرد ان تجسدت
امام مخيلته صور الراجلين ..

وعاد الجد يتكلم وقد اغرورقت عيناه بالدموع ..

لقد بدأت حديثي ضاحكا .. ولكنني الان - وبعد ان تذكرت كل هؤلاء
الذين طوئهم الارض - احس بالحزن .. لا .. ليس الحزن . بل الغضب . نعم . الغضب .. هناك شيء ما غير صحيح في هذه الدنيا . ان الله اكمل
كل شيء صناعا فيما عدا هذا الشيء - سامحني الله سبحانه . هناك رجال
لا ينبغي ابدأ ان يموتوا .. لماذا لا صوت الجيل ؟ هؤلاء ايضا ينبغي الا
يموتوا . بل ينبغي ان يظلوا فوق الارض كاعمة تسند السموات
وهانذا .. هانذا اثبت اقدام فولك ايتها الارض الملعونة .. فلتبتعي من
تسائلين من الحمقى والمقعدين والخبثاء .. ابتلعهم جميعا .. تخلص
منهم جميعا .. ولكن .. ما كان ينبغي ابدأ ان تغلعي ذلك الكابتن ليايبس ..
وبكاستانياس وبرئيس دير السيدة العذراء .. وبولدي الاكبر كوستاروس ..

وضرب الجد الارض بقدمه .. وانحدرت دمعان ثقيلتان من عينيه ..

وصاح ثاراساكي وهو يمسك بيده :

- هيا يا جدي .. المائدة جاهزة . واليوناني جائع ..

ونظر الجد الى حفيده واحس بيديه الباردتين الصغيرتين فوق يده
الباردة العظام واصابعه الملتهبة .. فعاد مرة اخرى الى رحاب الله ..

- سامحوني يا اولادي . كنت اذكركم الراجلين .. فقدت احتمالي ..
ولكن .. نحن مازلنا احياء . فالى الامم انن .. الى المائدة .. كل الاحياء ..

وبهذه الكلمات . جالس فوق الارض وجذب المائدة لتكون بينه وبين
الشاب اليوناني . واجلس ثاراساكي بالقرب منه . ثم قال وهو يملأ طبق
الضيف بالطعام :

مرحبا بك .. باركنا الله جميعا وقرب مابيننا ..

وفي تلك الاثناء كان فيندوسوس وجماعته يقتربون من الشاطئ . وبدأ
تسيم البحر يضرب وجوههم فتتطاير معه ذوابات عصيات روسوم .
وكانت الفرحة كأنما قد اعطتهم اجنحة يطيرن بها : هاهم اولاء . سوف
يزلزون السلاح من السفينة . ويتقلون ظهورهم بالمؤن ليفذوا بها جميعا
ثورتهم . وكل هذا الذي سوف يفرغونه هو ملك خالص لهم ارسلته اليونان
من اجلهم . ومع ذلك - فهل هناك غشاصة في ان يتلقى المرء شيئا مافي
امان . ليتقاسمه مع الاخرين في عدالة وانصاف ؟ وما الذي يفعلونه مع
الزوجات ؟ ان الاباء يتفقون .. فتتهيا العروس . وتيسط المواسم .. ولكن
ذلك لا يمنع من السرقة .. ان العريس ليقتمح المكان ممتطيا صهوة جواده
ويختطف عروسه التي تتظاهر بالمقاومة . ثم هو يحملها امامه ويندفع هاربا
بها كالمسهم وهو يطلق الرصاص في كل اتجاه .. ويصرخ عاليا . وينطلق
الى بيته -

وكانت سفينة القراصنة ميابوليس التي قادها الكابتن ستيفانيس قد
قبرت ان تضدع دوريات الحراسة التركية وسط الظلام . وتجهت في ذلك ..
والقت مراسيها في مرسى اجابيلاجيا الصغير المعزول وتحت ضخوره
الضخمة . وكان البحر هادئا . ولم تنتهي القرى المجاورة الى ان هناك
سفينة محملة قد الفت مراسيها هناك على الشاطئ . وبالتالي فان الكابتن
ستيفانيس وجد امامه الوقت الكافي لكي يفرغ حمولته بلا مضايقات . وان
ينشرها فوق الصخور ..

وكانت الشمس خريفية في ذلك اليوم . واخذت الطيور تحلق فوق
السفينة او تنتشر فوق الصخور وتنتظر .. وكان الكابتن ستيفانيس قد سلك

الى الشاطئ، يتعثر فوق حنايا الصخور وقد حمل معه تمثال القديس نيكولاس .. ووضعه فوق الصخور ووجهه الى السفينة .. يتشمس .. وفي نفس الوقت ، يراقب ويحرس ..

وصاح في البحارة :

- هيا يا اولادى ، لا تدعوا فرصة للاتراك كى يسكوا بنا ، ولا تدعوا للمسيحيين ايضا فرصة ليبتهبوا الينا ويعطلونا .. والحق اقول ، انى اخاف منهم اكثر مما اخاف من الاتراك ، واسرعوا اذن يا اولادى .. ان فرسان الكابتن ميخائيليس سوف يجيئون ايا كان مكانه هو ..

وصاح ، ناضوجى ، السفينة الضبي ، والذى كان قد تسلق الصارى الى قمته ، وهو يشير الى عشيرة من الفرسان يهيطون التل فوق ظهود البغال :

- هاهم قد وصلوا ..

واستدار الكابتن ستيفانيس واستطاع ان يلحم فيندوسوس على رأس القادمين .. قصاح وهو يضحك :

واجابه فيندوسوس وهو يقفز من فوق ظهر البغال الى الارض ويحتضن الكابتن :

- ذلك قدرى .. لقد وصلت فى الوقت المناسب تماما ، لم يعد لدينا بارود .. كما ان الجوع بدأ يقلقنا .. مرحبا بك الف مرة يا كابتن ستيفانيس .. ولكن البحار كان فى عجلة من امره :

- ساعدونا اذن على تفريغ الحمولة .. وحتى نستطيع الاقلاع بمجرد ان يهبط الليل .. لقد امسكوا بى مرة .. وهى تكفى .. هيا .. تصور انك تسرق السفينة حتى تحس بالمتعة ..

وامسك به فيندوسوس من ذراعه وانتهى به جانباً وقال فى صوت محمض :

- الكابتن ميخائيليس يحييك .. واذا كانت لديك اية رسالة ..

وقال الكابتن ستيفانيس وهو يحك رأسه :

- اية رسالة ؟

- ثق بى ، فلا احد سيعرف بمضمونها سوى الكابتن ميخائيليس ..

واتحنى الكابتن ستيفانيس ، والتقط حصاة كبيرة طوح بها الى البحر .. ثم اتبعها باخرى دون ان يتكلم .. واخيرا واتته الشجاعة فقال :

- فيندوسوس .. انت عازف جيد ، ولكنى - والحرفلى ما ساقوله - لا اثق بلسانك هذا الصغير فيمجرد ان تشرب ..

وتتهد فيندوسوس ..

- واين ترائى اجد هذا الشراب ؟ لا تطلق ..

ونظر اليه الكابتن ستيفانيس فاحصا .. لقد لوحته الشمس .. واصبح جسده اكثر صلابة واخفى ذلك الدهن فى عنقه وخصيه ، واصبحت عيناه اكثر بريقا .. بشيء اخر غير الخمر ..

وقال ستيفانيس فى صوت منخفض ..

- فاعترى اذن سمعك يا ، فيندوسوس ، وانقل الى الكابتن ميخائيليس كلماتي بحذافيرها .. هل تقم ؟ لانتقص منها ولا تزد عليها ..

- لست محتاجا الى ان تؤكد على ذلك .. تكلم ..

- لست لدى انباء طيبة ابعت بها اليه ، لقد طرقت بعض الابواب المهمة ، وتحدثت الى بعض القادة والزعماء .. وطلبت منهم ان يقولوا لى الحقيقة : هل لديهم امل فى ان تحرر كريت ، ام انهم يزون ان كل الامنا سوف تضع اندراج الرياح ، بعضهم حدثنى حديثا غامضا فيه لف ودوران ، والبعض الاخر الذى خطبا عصماء مليئة بالعبارات الطنانة التى لا

طائل من ورائها ، ولكن رجلا واحدا فحسب هو الذي تحدث الى في امانة وشرف .. هل تحزن من يكون ؟ انه كوزماس ابن اخ الكابتن ميخائيليس الذي كان قد وصل لتوه الى سميرا قادما من ارض الفرنجة لقد قال لي : يجب ان تكون شجاعا يا كابتن ستيفانيس كريت لن ترى الحرية هذه المرة ايضا - وسالته انا : - انن فدمأونا سوف تضيع سدى ؟ واجابني : الدماء ابدا لا تضيع سدى ، الا تعرف ان الحرية بذرة .. وان هذه البذرة لا تنمو بالعام ، وانما بالدماء وحدها تنمو وتتبرخ . ومن ثم فاننا نبدل دماغنا الان في مكانها تماما .. لانه من المؤكد ان هذه البذرة سوف تنمو يوما ما .. ولكن هذا اليوم لم يحن بعد .. ثم اخرج من جيبه رسالة واعطانيها وهو يقول : ابحت بها الى جدى - سيفلاكس العجوز - بواسطة رجل تثق فيه ، ولقد ارسلت اليه قبل ذلك رسالة مع شاب يوناني كان معي على ظهر السفينة ، ويستطيع الكابتن ميخائيليس ان يعرف الباقي من تلك الرسالة ..

واستمع فيندوسوس وقد احتى راسه بينما اخذ يشرب الحمصى بقدمه في عنف ، وعندما انهى الكابتن ، ستيفانيس ، كلماته .. انفجر يقول : - فليس هناك اله اذن ؟ ما رايك انت يا كابتن ستيفانيس ؟

- وما الذي يمكن ان يراه مسكين تمس مقلتي ؟ اننى لا اكد اعرف ان كان هناك حقا قديس اسمه نيكولاس .. وانت تسألني عن الله .. ان القديس نيكولاس يكون موجودا احيانا حيث لا يطلب .. ويختفى حيث تشتد الحاجة اليه .. لقد عرفت ذلك جيدا خلال تلك السنوات الطويلة التي صارت فيها البحر وصارعني .. فلنكف اذن عن الحديث عن الاله ، ونرى ما يحدث فحسب ..

وكان البحر قد بدأ يكسى قتامة مع الشمس الغاربة ، وكانت السفينة قد افرغت تماما من البنادق والذخيرة والمهمات الجدية والدقيق والسبك المعلىح .. ووضع ذلك كله فوق ظهور البغال .. هدية من الله الى ابناي كريت ..

وصاح الكابتن ، ستيفانيس ، وهو يخشى القراصنة العشرة :

- سوف احضر لكم مزيدا من البارود والطعام وحين هم بان يقفز الى ظهر السفينة ، تذكر ايقونة القديس نيكولاس ..

- يا الهى .. لقد نسيت القديس نيكولاس ..

ثم انطلق يعرج فوق الصخور .. وحمل الايقونة وغمرها في الماء ليغسلها ، ثم قبل يدي القديس اللتين كانتا لاتزالان تقطنان بماء البحر الملح وقال :

- لقد احسنت في هذه الرحلة يا نيكولاس يا قائدى .. حظا سعيدا .. ولاتخيب رجاءنا في رحلة العودة ، واقسم لك بالبحر اننى سوف امر بان يصنعوا لك ايقونة جديدة في جبل ، اثوس ، المقدس : بسر اويل قصيرة ومطربوش اسود ويعنظار مقرب في يدك مثل ، مياوليس ، بطة البحر .. ان مياوليس ونيكولاس واحد - ذلك هو الاضمن ..

• ثم قفز الى ظهر السفينة ، كانت السحب تتجمع في السماء : والظلام بدأ يلف الكون .. والنسمات تهب من البر .. والمد يرتفع .. والنقط الكابتن ستيفانيس منظره المقرب .. وراى كل شيء على مايرام ، فرسم علامة الصليب وقال :

- باسم الله .. ارفعوا الخطاف يا اولادى .. ابها القديس نيكولاس .. لقد بدأنا الرحلة .. بعد ان اكل الشباب اليوناني وشرب ، استند الى الباب واخذ الى النوم .. كان البحر الهائج قد قلب معدته فقد كانت تلك اول مرة يهبط فيها جبال بيندوس ويسافر على ظهر سفينة ، ولقد ذابت شجاعته البطولية عندما تلوث معطفه الطويل ، وحتى هذه اللحظة ، كان لا يزال يحس كما لو ان الارض تتأرجح تحت قدميه وكانها ظهر تلك السفينة ، ولم يحس بشيء من الراحة الا عندما شم رائحة روث الخيل .. وكان على الراعى العجوز ، شاربيديموس ، ان ياخذ في الصباح الباكر الى قلعة الكابتن ميخائيليس .. وهو الان يستسلم للنوم وقد احس بالامان ..

وعندما سمع الجد شخير الشاب اليوناني اشار الى ، ثراساكي *

وجلس معه تحت شجرة الليمون العجوز في منتصف الغناء ، وكانت النسوة قد انهين الخبز ودلن الى داخل البيت فساد السكون الغناء ، واصبحت الفرصة مواتية لقراءة الخطاب ، وكان الجد يتوقع انباء سيئة ، لان حفيده « كوزماس » عوده الا يكتب اليه الا اذا كان ثمة شيء مهم .. واخرج الجد الخطاب وفتح المظروف وقال :

- هيا يا ثاراساكي اقرأه ببطء ، كلمة .. كلمة ، حتى افهم ..

وكانت الكتابة واضحة .. وبدأ ثاراساكي يقرأ دون اضطراب او تعثر :
ايها الجد المعظم .. لقد عدت الى الأرض المقدسة . وقد اصل قريبا الى كريت ، واقبل بيديك الكريمتين ..

وتعظم العجوز وهو يهز لحية الكثيفة البيضاء :

- انه يجيد المراهنة .. ولكن اي صنف من الرسائل هذه الرسالة ؟ انه لا يبدؤها سائلا عن صحتنا .. حسن .. اكمل يا ثاراساكي ..

- ولكن ، قبل ان اسعد بهذا ، اجد نفسي مضطرا الى ان اكتب لك هذه الرسالة التي ارجو - بعد ان تقرأها مباشرة - ان تبعث بها الى عمى الكاين ميخائيليس ، فقد سمعت انه رفع لواءه .. وانه عاد يحارب في الجبال ضد الاترك . ولعله من المناسب ان يعرف كيف تجري الامور حتى يتجلى كل شيء امامه .. ويعددها .. قليلا ما يلهمه الله به ..

- غرل طويل .. استمر .. ولكن ببطء ياتاراساكي .. هذا كلام شاب طيب ..

- وهكذا .. فانه لا امل يتبعني ان نعمل عليه بالنسبة لليونان ، انها هي ايضا ضعيفة .. بلد مسكين متسول بلا اسطول .. والاشد حرارة من ذلك - بلا ادنى دعم من الامرنج . ان كريت لقمة طيبة .. والقوى العالمية بينهما ان تبقى في طبق السلطان ، فاذا دالت دولة هذا السلطان .. واصبحت تركته نهب التقسيم .. فان كل قوة من هذه القوى تأمل في ان تكون كريت

من نصيبها .. وان لم يحدث ذلك .. وتوحدت كريت واليونان ، فانه لا الله ولا الشيطان يقدرين على ان يفصلا بينهما مرة اخرى ..
وقال العجوز وهو يئن :

- اوه .. حفيدي هذا قد تعلم كثيرا .. استمر ..

- فلندرك اذن .. ان كريت .. محكوم عليها بان تغشل هذه المرة ايضا .. اننا نستطيع ان ننجح عن طريق شيء واحد فقط : ان نبدأ في العمل على ان يمنحنا السلطان مزيدا من الحقوق .. وقد يكون هذا مجرد عظمة .. ولكنها على اية حال تجعل فوقها بعض اللحم .. فلنعضها الان حتى تجيء اللحظة المناسبة ..

- اه .. اصبحنا كلابا .. والناس يرمون البنا بالعظام .. استمر ..

- لقد تحدثت الى كثير من الرسميين سواء من الفرنجة او من اليونانيين وسوف اذهب غدا الى اثينا لمقابلة بعض كبار الشخصيات ، واذا وجدت ذلك ضروريا فسوف اجيء الى كريت لاساعد في اتقان ما يمكن اتقانه .. ولكنني اقولها : هذه العرة - من سوء الحظ - سوف يكون القلم ابعد تأثيرا من السيف .. ان حملة السيف قد ادوا واجيهم ويهدوا الطريق .. ولكنهم ان يدركوا الهدف .. الان اذن يؤدي حملة القلم واجيهم - لا تعضب مني يا جدي ..

وصاح الجد وهو يبصق :

- هؤلاء المتدخلون الكتاب .. اصحاب العوينات والسرراويل المحرقة ، والقبعات والاردايف المتشفخة والجوارب .. اف ..

ثم بصق مرة اخرى والتفت الى ثاراساكي .. وقال :

- انتهى .. ام ان هناك جديدا ؟

- جملة واحدة يا جدي : انني اقبل بيديك بوافر الاجلال والاحترام .. وارجو ان تمنحني بركاتك .. حفيديك : كوزماس ..

واحنى الجذ راسه .. كان قلبه يضطرم غضبا .. واغلق عينيه .. ورأى امامه فى وسط الفناء .. كريت : حيرى دامية .. اهذه كريت حقا ؟ .. لم انها السيدة العذراء تخرج من صليب ابنها ؟ وتساقت حبات مطر ثقيلة .. واخيرا قال الجذ :

- ثاراساكى .. باصغيري : لقد عرفت الان سرا .. وانت رجل .. فلا تقش هذا السر ..

- لا تعلق يا جدى .. لن يعرف به مخلوق سوانا نحن الاثنين - والثالث ابى ..

- والله رابعنا .. ذلك يكفى ..

وبينما كان الجذ وحفيده يتبادلان الحديث . ظهر « تيتيروس » عند المدخل وفى يده عصاه ، وفوق كتفه جوال .. وقد احمرت وجنتاه . وكان الجذ يجلس فوق جذور شجرة الليمون وقد بلله المطر وتألفت حياته فوق لحيته .. وبدا هو الاخر كجذع شجرة عتيقة تتلقى رخات المطر دون ان تتحرك .. وكانت يدها النحيلتان تتألقان .. وظل لحظات لا يكاد يتعرف على واده الذى اصبح اكثر قوة .. والذى كانت الشمس قد لوحته .. ولم يعد معنى الظهور ..

وسأله وهو يرفع رأسه ليرى جيدا :

- اهذا انت يا « ياناكوس » ؟ .. لقد تغيرت والحمد لله ، الم تعد تعمل مدرسا ؟ .. ادخل ..

وسأله المدرس فى بهجة :

- الا تعرفنى يا ابى ؟

- وكيف كان لى ان اعرفك ؟ .. انا ايضا حاولت جاهدا ان اتعلم حروف الهجاء اللغوية هذه .. ولكنها طريق صخرى .. عذاب .. تعثرت من حرف لآخر .. ولكن لى هدفا معنا .. هه .. كيف حالك انت ؟

وضحك « تيتيروس » وهو يجذب يد ابيه ويقبلها .. وقال مداعبا :

- ابى .. لقد كان خطاك انت ابنى اصبحت مدرسا .. هل تتذكر ؟

- بالطبع اتذكر .. ام انك تظن اننى قد خرفت ؟ انت لم تكن تصلح

لشئ اخر .. ولكنى اقول الحق .. لقد كنت مخطئا ..

ونظر العجوز الى « تيتيروس » بعينا ويسارا وقرصه فى ثراعه ..

وضغط على يده . وازاح شفطيه عن اسنانه كما يفعلون بالماشية .. ليختبر

هذه الاسنان .. وسره ما رأى فقال :

- انقسم ان هذا الرجل قد بدأ يصبح شيئا يسعدنى . لقد كنت ولدى

بالطبع . وكنت شغوفاً بك .. ولكن كيف اشرح لك ؟ لم تكن تسعدنى .

كنت بالنسبة لى اشبه يرغوة الصابون بكل هذا الانتكاب على الكتب ..

وبانحناء ظهرك .. انت لم تكن تلائم اسرتنا .. ان اباما جميعا ارتدوا

سراويل واسعة وانتعلوا احذية برقية .. وحملوا البنادق . اما انت فكنت

ترتدى ثيابا على الطريقة الافرنجية وتضع العوينات فوق انك وتحمل القلم

« هذا الدم » كما ارى بدأ يذهب الى الشيطان .. انت بدأت تعود الان الى

طبيعة الرجل الحق . واحمد الله على ذلك .. وان اكون « سيفاكاس » حقا

اذا انا لم اعطك سراويل فضفاضة وحذاء برقية وان لم اعلق على كتفك

بندقية .. هل سمعت ماقلت ؟ .. لماذا تضحك ؟

- هل انت نهبى يا ابى ؟ هل تقرا ما برأسى ؟ .. هذا هو بالضبط اجئت من

اجله اليوم .. واقسم لك .. فلايد ان تكون لديك حطة بين ثيابك انت او ثياب

واحد من ابنائك الذين قتلوا . ولايد ان فى مخازنك بندقية .. وسوف تحرق

الملابس الافرنجية هنا فى الفناء - سويا . تماما كما احرقوا يهودا .

وسوف ارتدى كما يرتدى الكريتيون . ثم احمل البندقية على كاهلى

وامضى الى الجبال . ان لى انا الاخر هدفا اريد تحقيقه ..

وشد الرجل العجوز على واده . وضعه الى صدره وهو يقول :

- ائى اباركك .. وسوف ادمع اليوم عزة على شرفك .. ثم نحتمل فى

عن العائلة صحيح - حسن دعوني افكر في الامر ولكن الفتاة كانت تتعجل فتحدثت في رقة وكسبت الجدل الى جانب زواجنا فقال : حسن .. انى اباركك . لكن بشرط واحد .. وانا اصبر عليه كل الاصرار : لايد ان يخلع هذا الثوب الافرنجى ويرتدى مثلما يرتدى الرجال ..

وصفق سيفاكاس العجوز وهو يقول :

- رعاك الله ايها العجوز الياس .. لقد كان الامر نفسه يقلقنى . ولكننى لم اقل شيئا . اما الان .. فالى النار هذه الثياب . ذلك اول شيء نفعه غدا ..

ونام المدرس نوما عميقا بالقرب من الصندوق الذى تعلوه ثياب العرس .. وزارته ، بيلاجا ، فى احلامه فوجد لو ظل نائما ، ولكن الجدل لم يعرض له جفن ، ونظا يراقب النافذة ويرتقب ضوء الفجر نافذ الصبر .. حتى ارسل الله للفسق وصاح الديك الاسود .. ثم تلاه الديك الابيض .. وبدأ النهار ، ولفز العجوز ، ويكز ، تيتيوس ، وهو يصيح :

- قم .. الثياب فوق الصندوق .. عسى ان تمنحك السعادة .. وهات تلك الثياب الافرنجية الى الفناء فسوف اشعل النار .

كان يكره الفرنجة .. ويعد رسالة حفيده اليه ، اصيبت الكراهية اشد ، وهبط الدرج ، ولم تكن النساء قد استيقظن بعد ، واشعل النار ، ثم ذهب ليوقظ ، ثاراساكي ، وكان يتنام داخل حوض كبير اشبه بالمهد ، وهزه ليوقظه :

- انهض يا ثاراساكي ، تعال الى الفناء فسوف نحرق يهودا .

وظهر المدرس : كريتيما من اخصص قدمه الى قمة راسه وسط الفناء ، وضبو فوقها البترول حتى يتخلفها الشيطان بسرعة ، وقدم الجدل الى حفيده قطعة من الخشب المشتعل وهو يقول :

- هيا يا ولدى .. ابعد بها الى الشيطان .. الفرنجة احرقونا .. فلنكن اذن النار بالنار .. والريح بالريح ..

وامسك ، ثاراساكي ، بقطعة الخشب المشتعلة والقى بها فوق كومة الثياب ، فاشتعلت النار على الفور ، وبد الجدل لحظتها ان يرقص ، وحينما اذت النار عملها ، امسك بقبضة من الرماد ، وفتح الباب الخارجى .. ووقف فى وسط الشارع .. ورفع يده مطوحا بالرماد فى الهواء .. وصاح فى امتقار بالغ :

- ايها الفرنجة .. ادعوا الله ان تعيش عينى اولادى او اولاد اولادى لنرى اليوم التى تحترق فيه بيوتكم ومصانعكم وملوككم وقصوركم .. وبثروها الرياح مثل هذا الرماد عسى ان تحترقوا ايها الفرنجة .. كما احرقتمونا ..

قرب الظهيرة ، وصل ميتروس الرجل ذو المعطف الطويل الى مقر قيادة الكابتن ميخائيليس ، وقد تصبب عرقا من تسلق الجبل ، وعلى قمة اعلى هضبة فى الجبل ثمة قرابة المائة محارب يتجمعون فى بضعة اكواخ من الحجارة .. واسفل منهم بعيدا فى الوادى المحفوف بالجبال .. كانت القرى تبدو وكأنها قطعان من الخراف البيضاء ، وكان ثمة اثنتان منها تحترقان ، والدخان يغطيها وسط السكون وكأنه سحابيات صديقة تهبط عليهما الحماية ..

وكان الكابتن ، ميخائيليس ، يقف ممسكا بمنظار ميدان اعطاه اياه احد الفرنجة المتعاطفين مع اليونانيين .. كان قد سعد الجبل قبل شهر ولم يطاوعه قلبه بعد ذلك على مغادرته ، وقال للكابتن ميخائيليس : والى اين اذهب ؟ لعلاذ اعود الى المدن مرة اخرى ؟ اننى احببت هذا المكان .. لقد اكلت فيه طعاما افضل .. وشربت ماء خالدا .. ورأيت رجلا كوهلاء اليونانيين القدماء .. انا ان ادعوك بالكابتن ميخائيليس ، ولكننى سأسميك .. اخيل .. وانا ادعى ايريكيوس .. وكان يضع فوق راسه قبعة تشبه خوذة من الخوذات القديمة .. ويملا جيوبه بالاوراق والاقلام ، ويشير النقاش والمحاور مع الكريستين برطانتة اليونانية الحديثة .. ويدون الملاحظات طوال الوقت .. وكان الكريستين ينضحون ويقول قائلهم : انه غشاق ويقول اخر انه يكتب للصحف .. ويسألونه : انت يا عدنى .. ماذا

تراك تغعل في كريت بدون سلاح ؟ اين بتدقيك ؟ .. وكان هو يشير الى قلعه ويقول : هاهي ..

وكانت لحيته شعراء عديبة ، واثنان من اسنانه الامامية من الذهب ووجنتاه موردين . وثمة ذؤاية نافرة من شعره مثل عرف الديك وعندما كان الكريتيون يسمعون اسمه - اريكوس - كانوا يتذكرون الذؤاية من الشعر فيقبلون اسمه الى كوكوريكوس ..

وفي يوم من الايام خاض فرسان الكابتن ميخائليس معركة مع بعض الجنود الاتراك .. وهبط هو معهم الى السهل بدون سلاح .. وهو يصيح مشجعا .. الى الامام يا اخيل .. وظل واقفا طوال الوقت يكتب ملاحظاته في انفعال .. وفجأة اندفع نحوه كريتى متوحش كان شديد الاعجاب به ، وهو يحمل رأس تركى يمسك به من شعره ويقدمه هدية له .. وكانت الدماء لاتزال تنزف من الرأس .. وما ان نظر كوكوريكوس الى الرأس حتى صرخ صرخة عالية وارتمى على الأرض مغشيا عليه .. وضحك الكريتيون ياله من رجل محشو قتلنا ، ثم القوا ماء فوق وجهه لييقظ من اغماسته . وعندما رأى الكابتن ميخائليس ذلك المشهد ، صاح في غضب هل تظنون ان الرجال كلهم كريتيون ؟ كفوا ، ثم استدار الى فوريوجانوس وقال : خذ هذا المسكين تحت الحراسة وعاونه على تسلق الجبل ..

واصابته الحمى كوكوريكوس منذ ذلك اليوم . وشحب لونه .. ولم يعد يستطيع تذوق اللحم ويدات تراوده الاحلام المزعجة .. وبدت الحياة مع اليونانيين القدامى .. قاسية بالنسبة اليه . فقرر ان يعود ادراجه .. وفي صباح يوم سالحب معطر ، ودع الكابتن ميخائليس :

هؤلاء اليونانيون القدامى .. رائعون حقا يا كابتن اخيل . ولكن من العسير ان يحيا المرء حياتهم .. انتى استاذ - مدرس - رجل طيب . ولكنه من وبق .. اما انتم فمن لحم ودم . وليس فى مقدورى ان اجاريكم ، الى اللقاء . وخذ هذه لتذكركى ..

ورفع المنظار من حول عنقه واعطاه للكابتن ميخائليس وهو يقول

- انت فارس ، وانت القائد .. ويجب ان ترى ابعده مما يراه فرسانك ..

وهكذا .. يقف الكابتن ميخائليس ممسكا بالمنظار يفحص السهل . وبدأ كما لو كانت هناك تحركات لطرايش حمره خلف سحايات الدخان فوق الفرى المحترقة .. لايد ان فصائل تركية جديدة قد جاءت من ميجالو كاسترو . ولايد انها تهين نفسها الان لمهاجمة المرتفعات .. وتقدم الكابتن : هؤلاء الكلاب لا يضيعون الوقت .. ان موقعنا محدود . وعدنا قليل . ومازلنا ننتظر الكابتن بولكسيجيس .. لايد ان ابعت اليه برسالة جديدة ..

وعندما انزل المنظار ، واوشك ان يسأل عما اذا كان فيندوسوس قد عاد من الشاطئ وقع بصره على ميتروس يرتدى الفوستانيليا ويحيى .. وفي يده الرسالة :

- تحياتى يا كابتن .. انا رسول من طرف سفينة الكابتن ستيفانيس ..

وقال الكابتن ميخائليس وهو يشد على يده محبيا :

مرحبا بك ، اذهب وانضم الى الفرسان ريثما اقرأ الرسالة ..

ثم مزق المنظوف فى لهفة ، ووجد بداخله رسالة مفتوحة وقطعة صغيرة من الورق تعرف فيها على خط ابنه ، ثاراساكى ، فاضاه وجهه الجامد للحنينة :

انا - ثاراساكى - ابعت بتحياتى ، واكتب ايضا ما طلب جدى ان انقله اليك ، اقرأ الرسالة واقبل ما يهملك به الله ان تغعله .. ليس هناك ثمة امل لنا . فتنح فى هذه المرة ايضا نخرت فى البحر . فاجعل قلبك دليلك ..

برأخذ انت قرارك ..

وردى ما بين حاجبيه - وشد شفقه السفلى حتى بدت تواجذ القب .

وسم قائل لنفسه : الله يمتع . يجب ان اجعل قلبى دليلى . لسوف يتفجر العالم ويتطير الى السماء ..

ثم فاض رسالة ابن اخيه . وبدأ يقرأها مقطعا مقطعا .. ويقفز من كلمة الى كلمة وكأنه يتسلق جبلا .. ويتمهل مرة .. ويبدد اخرى . حتى اذا وصل الى نهايتها . مزقها الى الف قطعة واشعل فيها النار . وقال وهو يملأ الرماذ بقدمه :

الرماد بقدمه :

الرماد بقدمه :

الرماد بقدمه :

.. انا وحدي الذي ينبغي ان يعلم بمضمونها .. ولا احد غيري ..

لا امل اذن .. الوطن الام ضعيف ، والفرنجية غدايون .. وابناء كريت
فيلبون .. كلا ويرغم كل شيء ، فلن اترجح عن موقعي ، لن اتخلى عن
المكان الذي اناستحيب اليه .. انه لا يمكن ان يتخلى الله عني ثم يأمرني بان
اتخلى .. ابدا .. لن اتخلى ..

ثم اسك بالمتظار مرة اخرى ونظر من خلاله ورأى مزيدا من النقط
الحمرات تتحرك عبر السهل .. ورأى مزيدا من فصائل الجند تملأ الوديان
الضيقة .. كان الياشا قد اقسم ان يسحق عصاة الكابتين ميخائيليس في
ذات وكر النسر الذي تشبثت فيه بمخالبها ، وكان الكريتيون المرهقون
الجرحي يتخلون الى السكينة شيئا فشيئا الا من طلقات متناثرة تسع هنا
وهناك والا من افراد ركبوا روسهم واعتصموا بالجمال ورفضوا الاخلاص
للطاعة ، وكان السلطان غاضبا ، وارسل الى الياشا سفينة محملة بالقيود
والسلاسل وامره بان يقبض على هؤلاء الكريتيين ويرسلهم في الاغلال الى
القسطنطينية .. فاذا لم يفعل ، فعليه ان يقبض نفسه هو ويحضر اليه
بشخصه ..

وانار الامر الدماء في عروق الياشا ، واحس بان قبعته لم تعد ثابتة فوق
راسه ، فقرر ان يتخلى الى حين عن حياته المطمئنة في ميجالو كاسترو
وان يخرج بنفسه على رأس جنوده في طلب الكابتين ميخائيليس .. وتناهت
الاخبار الى المطران ، فبعث برسالة سرية الى الكابتين .. اهرب .. استقل
سفينة واهرب .. ان الياشا قد اقسم على ان يهلك .. ولكن الكابتين
ميخائيليس قال في تحد ان اهرب ، ان هناك لنا ثقيلنا حول عنقي ، هناك
دير قد احترق ويحرق قلبي ليل نهار ، ولابد ان ادفع الثمن ولن اغادر هذا
المكان حتى لو غادره الجميع ، وافضل لي ان اسكب البترول فوق ثيابي
فاحترق كما احترقت انت يا دير السيد المسيح ..

نزل يسمح السهل بمنظاره ، ويرى مزيدا من القرى تحترق ، فعاد
يعغمم ، لقد اخبر الكابتين بوليكسيجيس .. ولكنه سوف ياتي .. لقد وعد بان
يأتي .. انها الحرب .. وانا اتق في الحرب ..

كان يحس بان الصداقة القديمة تعود منذ تلك اللحظة الرهيبة التي
برس فيها خنجره في قلب المرأة الشركسية ، وبانه اصبح يفكر في
الكابتين بوليكسيجيس بلا شعور بالعداء .. وانما بالود .. كانت اصداه
ماحدث مثلا القرى .. ولقد منعه الاصدقاء من ان يقتل نفسه حزنا ، وكان
قد ارتدى السواد من قمة رأسه الى اخصص قدميه ، وحيثما كان قتال ، فقد
كان يقذف بنفسه فوق الاتراك في اندفاع اعصى وكانه يطلب الموت .. كان
مقتنعا بان الاتراك هم الذين قتلوها ليمنعوها من التنصير ، واقسم ان يبني
فوق قبرها برجاً من جنهم ..

وفجأة ، تناهت الى الكابتين ميخائيليس اصوات .. ووقع حوافر بغال ..
وبدا يقفز في سعادة من صخرة الى صخرة حتى وصل الى الهضبة في
اللحظة التي وصل فيها فيندوسوس اليها ومعها الفرسان المثيرة المتقلون
باحمالهم واشعل بعضهم النار على القوز .. فقد امضوا اياما بطولها بالخيز
الجاف وحده واشتاقوا الى اللحم الساخن ، واتبرى البعض الاخر يحملون
السؤن ويتقلونها الى كوخ قائدهم ، وصاح فيندوسوس وهو يطلق فدارته في
الهواء : شكرا لك يا امنا .. شكرا لامنا المشولة التي ترسل الطعام وهي
ذاتها جائعة ..

وصاح الكابتين :

.. فيندوسوس ، لاتضيع الطلقات سدى ، نعال هنا ، اريد ان تفعل
شيئا ..

وانتبه اليه عازف القيثارة ، وانصت في اهتمام الى كل ما قاله ، ثم نهيا
لتعبه ما طلبه منه ..

.. هل فهمت يا فيندوسوس ؟ الامر كما ترى عاجل ، وحذ خذارك حتى لا
يقولوك وانت في طريقك الى هناك .. اما في طريق عودتك فالامر لا يهم ..

وقال فيندوسوس ضاحكا :

.. لن اسلك هذه السعادة يا كابتين .. ولو حتى في طريق عودتي .. ويحق

العدراء .. ويحق الكروم .. لاتزال بين رغبة في الشراب .. ولسوف اشرب ..

ثم يعم سطر الوادي ، ولكن فورجاتوس امسك به من سرواله حين مر به وصاح :

- فيندوسوس يا اخي ، هل رأيت صديقي بيترودولوس ؟ ماذا يفعل المسكين الان ؟ تصدق اني افكر فيه اكثر مما افكر في زوجتي ؟ شيء عجيب .. ليس كذلك ..

- انه بخير ، فلا تقلق ، لقد رأيتك عند سيفاكاس العجوز ، انه باق مع النساء ، وسوف يرتدى جنوة عن قريب ..

- وماذا عن صحبة الشراب في قبو بيت الكابتن ميخائيلين يا فيندوسوس ؟ او احلم بهم فحسب ؟

ولكن فيندوسوس كان قد ابتعد .. ولم يسمعه ..

امسك سيفاكاس العجوز بالطباشير باقصى قدر مستطاع من الرقة حتى لا يتكسر ، وقد اتحنى فوق اللوح .. وهو يخط الحروف في لهفة وقلق .. حرفا بعد حرف .. كان يحس في الايام القليلة الماضية بضعف غريب ، وكان فواء قد بدأت تخور .. وكأنما يقترب حثيثا من الارض .. كان لون وجهه قد شحب ، ولم يعد يستطيع النوم .. وبدات ركبته ترتعشان .. وبدأ يقول لنفسه :

ينبغي ان اسرع اذا كنت اريد حقا ان اتعلم .. واخذ يبذل جهدا فائقا ليحرك يده فوق اللوح .. واستطاع - بالرغم من كل شيء - ان يكتب حروفا واضحة .. وكان يقول لمدربه ثاراساكي الذي كان يستحقه :

لا تهمني الحروف الصغيرة .. استطعت ان اكتب حروفا كبيرة ..

وجلس الاثنان الى مدخل البيت ، وقال العجوز :

- اليوم يا ثاراساكي .. لن نعتقني : ان الدرس اصبح ملك اصابعي ..

انظر

٤٣٤

وملا اللوح بالحروف .. وقال في فخر :

- كل حروف الهجاء .. من الالف الى الياء ..

- مرحي .. مرحي يا جدي .. اليوم نحصل على الدرجة النهائية .. كيف استطعت ان تفعل هذا فجأة ؟

- لان الوقت يمر بسرعة يا ثاراساكي وكان لا بد ان افعل .. لقد حان الوقت يا ثاراساكي اسمع .. سوف احكي لك سرى .. هل تظن انني اريد ان اتعلم وانما في هذه السن .. لكي اقرأ .. ولماذا اقرا .. لماذا ، وقد بلغت من العمر مائة عام ؟ انني اعرف كل شيء .. ولا اعرف شيئا ..

- فعماذا تريد ان يجدي ؟

- اريد ان اكتب شيئا واحدا فحسب .. قبل ان اموت ..

- وماهو هذا الشيء يا جدي ؟

- حكمة كريتية ، ضح يدك فوق يدي لتساعدني .. ثلاث كلمات فحسب ..

ثم همس قائلا : الحرية او الموت ..

وصاح ثاراساكي :

- مرحي .. الان فهمت ..

- انت لم تفهم بعد يا ثاراساكي ، لا تكن عجولا .. ساعدني ..

وامسك الطفل بكتنا يديه .. يد الجد المعرقة ، وبدأ يعاونه في يده وصبر .. حتى ظهرت على اللوح بحروف كبيرة .. كلمات :

الحرية .. او الموت ..

كانت الريح الباردة تهب من قم الجبال التي كستها الثلوج ، وتجمدت كريت ، وعلى سخور ، سيلينا ، اسفل معسكر الكابتن ، ميخائيليس ، كان ثمة كهف كبير قاض على سمته بالنساء والاطفال ، كان الملقب المعتاد للنساء كريت في كل الثورات السابقة ، يهتمين به من خناجر الاتراك . وقد لجأ الاتراك اثناء ثورة ١٩١٢ الى قذف فتحته بالاغصان المشتقة حتى اختنق كل من كانوا بداخله وظلت عظامهم تلح داخل جو الكهف الرهيب . وبالرغم من ذلك فان النساء والاطفال يطنون الان ذات الكهف ويعتمدون فوق العظام القديمة وهم يرتعشون من الجوع ومن البرد ومن خوف القتل على ايدي الاتراك فترك عظامهم بداخله من جديد . وكانوا يتسللون خارج الكهف خلال النهار ليجمعوا قبضة من الحشائش او الجذور او ثمار البلوط يعيشون عليها كالسوامث ولا يتكفون عن النظر الى اعلى حيث بنى الكابتن ميخائيليس ، عشة حتى يمنحوا انفسهم بعض الشجاعة : فطالما انه باق هناك يقاوم ، فهم لا يحسون بالخوف .

وكان الجنود الاتراك قد يدوا يصعدون الجبل حتى اقتربوا من المعبر الضيق الذي يؤدي الى الكهف ، وانتبه الكابتن ، ميخائيليس ، على صراخ النساء والاطفال وعويلهم فاندفع يهبط من وكزه ، ونشبت معركة مدمرة ، ووجدت بعض النساء الجراة على ان يتدفعن ليساعدن الرجال بالمدى والهراوات بينما ركع الباقون داخل الكهف . ينتحون ويعولن ويجأون الى الله بالصراعة .

كان الاتراك يفوقونهم عددا ويتوالى وصولهم من السهل يوما بعد يوم تدفعهم اوامر الباشا المشافي الذي اتسم ان يبعث برأس الكابتن

ميخائيليس ، هدية الى السلطان في القسطنطينية محتفظا وملفوقا بعمامة . وبدأ الكريتيون يترنحون . وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية بعد الظهر . واطلق الاتراك صيحات الفرح التي غطت على اصوات عويل النساء .

وفجأة تدخل الله : ظهر الكابتن ، بوليكيكسيس ، هو ورجاله عند مؤخرة الاتراك واحدثوا الارتباك والفوضى وسط الطرايبش الحمراء التي كان بعضها قد بدأ يهرب متجها الى السهل .

واخذ القائدان يصطادان الاعداء معا على ظهر فرسيهما وهما جريحان - وان لم يقفنا الى ذلك وسط المذبحة - ولمى السماء ، عاد الاثنان الى قلعتهما وضعدت جراحهما الطفيفة ، وكانا لحظتها يحسان بقسوة الجوع اكثر مما يحسان بوطاة الجراح . وفتح الفارسان الكنز الذي وصل الى الفرسان مؤخرا صدقة من الله سبحانه : الخبز والزيتون والبصل والجبن .

وجلس الفارسان القرفصاء جنبا الى جنب يحتفلان داخل الكوخ الصخري الذي ارتفعت فوقه راية الكابتن ، ميخائيليس ، بينما الريح تصفر من خلال الثقوب في الحوائط غير المنظمة . ودخل ، ثودورس ، وبين يديه حمل من خشب الحريق ، فقد احص بالاسس للرجلين الجريحين الممرورين ، فاوقد من اجلهما نارا ثم خرج وتركهما ، والنقطة انه بعض كلمات تحفل من المعاني الكثير ، فادرك انهما لا يريدان الان احدا يقترب من المكان .

قال الكابتن ، ميخائيليس :

- بوركت ياكابتن ، بوليكيكسيس ، ان الله ارسلك في الوقت المناسب ، فقد كان هؤلاء الكلاب يوشكون على ان يطبقوا على اعناقنا .

وكان اثناء حديثه معه ينظر اليه في اشفاق وتأثر وهو يرتدى ثيابا سوداء ويضع حول راسه عصاية سوداء كذلك ، ويبدو شاحب الوجه قد اسن فجأة ، كان ياكل ولكن افكاره كانت تحوم بعيدا .

وقال الكابتن ، ميخائيليس ، وهو يرقع الى قمه زجاجة :

- في صحتك انت ياكابتن ، ميخائيليس .-

- في صحتك انت ياكابتن ، ميخائيليس . .. اما انا فقد انتهت صحتي .

واحد الكابتن ميخائيليس يلقبه ينيقيس : لا من اجل المرأة التي قتلها .
فقد كان لايد من قتلها حتى لاتفرق بين الرجلين .. ولقد هدا قلبه من الليلة
التي ارتكب فيها جريمته . ولم يعد يحس بالمهانة وهو منفرد بنفسه . لقد
تحررت روحه من الشركسية ، واصبح يخارب الان ولاشيء في عقله وقلبه
غير كريت ولكنه كان حزينا من اجل هذا الفارس العليل فحسب والذي كان
يدوب امسى لانه فقد المرأة التي احبها .

وبدا يتكلم :

- بوليكيبيجيس ، لدى شيء اريد ان اقله لك . واغفر لي اذا قلت لك
انه من العار ان يفكر العره في امرأة بينما كريت تسمح في دماغها . واقول
لك - بشرطى - انه لو حدث ان وقفت امرأة في طريق ادائى لواجبى ، لقتلتها
بيدى هاتين .

ورفع يده التي قتلت المرأة الشركسية ..

واجاب ، بوليكيبيجيس ، وهو يلقي بقطعة من الخبز كان يمسك بها في
يده :

- كابتن ، ميخائيليس ، .. انت وحش مفترس ، ولكننى انسان ..

واحد لحظتها كانتا انشوفة قد غلقت بخلقة ، ثم استدار ينظر الى
صديقه وهو يحس بلذعة برد مفاجئة .

واقترب الكابتن ، ميخائيليس ، يدوره من النار . وظل الاثنان لحظتا
يحذفان في اللعب صامتين ، وعاد ، تودورس ، مرة اخرى ليضع مزيدا من
الخشب ، وحين رأى الفارسين غارقين في افكارهما ، خرج وهو يسير على
اطراف اصابعه ..

وفجأة ارتفع صوت الكابتن ، ميخائيليس ، اجوف محتفقا ، يسأل ..

كأنيما من مكان سحيق :

- هل تعرف من الذي قتلها ؟

كان يحس بأنه مدفوع بالرغم منه رغبة عارمة في ان يقامر على كل
شيء .. برمية زهر واحدة او بقطعة من النقود : رسم ام كتابة .

ونال الكابتن ، بوليكيبيجيس ، يحدق فيه طويلا ، فلم يجد القوة في
نفسه على ان يسأله : « من ؟ » .. فانتظر .

وعاد ، ميخائيليس ، يسأل :

- هل تعرف من الذي قتلها ؟

- وهل تعرف ، انت ؟

- نعم ..

وامسك الكابتن ، بوليكيبيجيس ، به من ذراعه :

- من ؟

- لا تتعجل . لا تثر هكذا فانت لا تستطيع ان تمس منه شعرة . انه فوق
الموت ..

- من ؟

- قلت لا تتعجل .. ينبغي اولاً ان اغشى لك سرا - سرا بالغ المرارة ..
فاستمع الي في هدوء وبعدها - واقسم لك - سوف تحس بالخجل ولن تفكر
مرة اخرى في النساء او في قتلهن .. وحتى في نفسك انت .

وقال الاخر وعيناها تنقدان :

- من ؟

- لقد تلقيت خطابا - مزقته في حينه واحرقته - من ابن اخي
، كوزماس - ، ان مايفعله الان ياكابتن ، بوليكيبيجيس ، يضع مرة اخرى
هباء . وسوف تراق دماؤنا ههنا هذه المرة ايضا . لن ترى كريت الحرية .

ان اليونان ضعيفة والفرنجة لا شرف لهم ، والسلطان يملك كل القوة .

ولكن الكابتن « بوليكيبيجيس » لم يكن ينصت اليه نهض واقفا وهو يضرب راسه بالحائط ويمسوخ :

- من الذى قتلها ؟ من ؟ ويمدها قل ماتشاء .

ونهض الكابتن « ميخائيليس » بدوره واقفا ونظر الى صاحبه نظرة هادئة ثابتة . وقال :

- انا .. انا قتلتها ياكابتن « بوليكيبيجيس » واستند « بوليكيبيجيس » الى الحائط وقد اقترن حاجباه . وقال :

- لا .. لا .. ذلك مستحيل .. انت ؟ .. انت ؟ ..

- كان لايد من ان اقتله .. لقد كنت افكر فى كريت انت محارب قد وتحتاج اليك .. من اجل هذا قتلتها وارتاح قلبى واسوف يرتاح قلبك انت الاخر .. لا تتحسس خنجرك ، واذا شئت اغلقنا الباب واطفاننا المصباح وتقاتلنا هنا حتى يقتل كل منا الاخر . ولكن ، فكر فى النساء والاطفال الذين يحشون بالكهف ، ان حياتهم امانة بين ايدينا ، وفكر ايضا فى اسلافنا .. فكر فى كريت .. ثم افعل بعد ذلك مايدا لك ..

وترنح الكابتن « بوليكيبيجيس » وهو فوق الارض ودفن وجهه بين يديه واخذ صدره يعلو ويهبط فى عنف ، ولم يعد بوسعه ان يكتم دموعه اكثر مما فعل .

وعاد الكابتن « ميخائيليس » يتكلم دون ان يهتم بدموع صديقه :

- حين قرأت انه لا قائدة وراء مانفعل احسست كان شيطاننا ينهض بداخلى .. وبدلا من ان اترك له العنان ليضغط على ، احسست بشجاعة وحشية غير سالوفة : ذلك اذن موقفك ايها القوى الكبرى - انت ترفضين ان تمنحى الحرية لكريت : العارك .. ولكننى - انا الكابتن « ميخائيليس » - انا اللغفد الكريتى الصغبر لست فى حاجة اليك .. ولتختل الله ذاته عن

كريت اذا شاء سبحانه ولكننى لن اتخلى عنها .

ولمس فى هدوء كتف الكابتن « بوليكيبيجيس » وقال فى رقة :

- يا كابتن .. الا تخجل من نفسك ؟

وكان الاخر قد سيطر على دموعه ، ويدات كلمات القائل تنفذ اليه .

- منذ اللحظة التى فقدت فيها الامل ياكابتن « بوليكيبيجيس » احسست - وحق هذه التربة التى ندف فوقها - اننى خالد : من ذا الذى يستطيع ان يمستى يسوء ؟ ما الذى يستطيع الموت ان يفعله بي ؟ حتى لو انتقض على الترك جميعا بقضهم وقضيضهم فلن ترتعش شحمة اذنى ، انى ارى نفسى الان مثل « اركادى » ان ثيابى وشعرى واحشائى اصيحت كلها مليئة بالبارود ، وحين ارى انه ليس ثمة ما افعله غير ذلك ، فسوف انسف نفسى لاتطير ، عاليا فى السماء ، هل تفهمنى ؟

وكانت تلك هى الحقيقة - لم يكن بداخله الان مكان لغير الكبرياء وازدياء الخطر .. اكان ذلك شيطانا ، ام الها ، ام كان فكرة وحشية من قبل التاريخ ؟

هو ذاته لايعرف ، كل ماكان يعرفه بوضوح : انه مهما حدث ، فلن يلعن حظه او يندبه ، وانه مهما حدث ايضا فلن يتفق لا مع الشيطان ولا مع الله ولا مع السلطان .. لسوف ينصف نفسه ليطتير جسده عاليا فى السماء .. مثل « اركادى » .

ووقف الكابتن « بوليكيبيجيس » وجذب عصابة الرأس فى عنف وقال وهو يحدق فى الفراغ :

- لا استطيع ان انام معك فى نفس المكان ياكابتن « ميخائيليس » ولا اريد ايضا ان يقتل كل منا الاخر طالما ان بلدنا تحارب وان اتخلى عنك ساعة الخطر ، ولكننا سوف نصفى حسابنا بعد ان يسود السلام كريت .. فانت احقرت قلبى ياكابتن « ميخائيليس » .

ودون أن يرمقه ينظرة - خرج من الكوخ - ترى . ما الذى حدث
للعسجبيين هناك فى اعلى الجبل ؟ صنعت النسوة الى السطح المستوى
ليزنان افعال الجليد الخطر الذى تجمع فوقه . واخذن يحدقن فى الجبل ..
يارب .. ترى ما الذى يحدث الان هناك ؟ .. ومدت « كاتيرينا » فى الاخرى
بصرها الى القمم المعكوسة بالجليد وهى تفكر فى زوجها الذى لا يعرف
الخوف ..

ولكن الشمس كانت ساطعة فى ذلك اليوم .. وكانت السماء بافحة الزرق
والهواء باردا .. وكان الجد يجلس داخل البيت امام الموقد وهو يحدق فى
الذهب فى صمت .. كان قد امتنع عن الكلام طيلة بضعة ايام : انه يزداد
شحوبا يوما بعد يوم .. ويظل غارقا فى افكاره القاتمة ..

وعندما دخل « ثاراساكي » نهض الجد واقفا .. لقد احضروا بناء على
اوامره عربة من الطلاء الاحمر وفرشاة من « كاستيللى » وقال الجد :
- خذ الطلاء يا ولدى وهيا بنا ، وهات الفرشاة معى ..

- الى اين يا جدى ؟

- سوف تعرف حالا .. اسرع ولننتهز فرصة هطول الثلج .

ووصلا الى الباب المؤدى الى الشارع فتوقف الاثنان وهما يحدقان فى
القرية التى تستقر كالجسد الميت بكسوة الثلج المنتظم الذى يجعل كل
شيء رغم ذلك جميلا . ولم يقدر لثاراساكي لحظتها المزيد من الاستمتاع
بهذا المشهد الجديد للقرية ، فقد اخرج الجد من حزامه منديلا كبيرا
متعدد الالوان وبدأ يمسح به الباب ويزيل من فوقه الثلج ، ثم رفع غطاء
العربة وغمس الفرشاة بداخلها وهو يغمغم قائلا :

- « باسم الله .. »

- ماذا تفعل يا جدى ؟

- سوف ترى ..

ثم رفع الفرشاة وبدأ يرسم حروفا فوق الباب باللون الاحمر ، فى اثناء
وعناية . بدأ بحروف (ح) ثم (ر) ثم (ي) ..

وصاح ثاراساكي ..

- اه .. فهمت ..

وضحك الجد :

- ها انت تعرف الان لماذا تجشمت عناء تعلم الكتابة ، لقد كان شمة
مدف احققه .. سوف اخرج الان الى القرية كلها فلا ادع جدارا دون ان
اكتب فوقه « الحرية او الموت » .. حتى برج الكنيسة ومئذنة المسجد .

وكان يتعد برأسه قليلا بعد كل حرف يكتبه ، ثم يتطلع فى اعجاب الى
عملة ، دون ان يستطيع ادراك السر الذى يمكن المرء من ان يضرب
بالفرشاة خطوطا ومنحنيات ثم يجعل منها فى النهاية صوتا مسموعا - بل
جوقة ترتل : كيف يمكن لهذه الرموز ان تتكلم ؟ .. ما اعظكم يا الهى ..

وهكذا تكلم الان باب بيته .. وظل لحظة يتأمل فى اعجاب .. ثم سأل فى
قلق :

- هل احسنت يا « ثاراساكي »؟ اليس شمة خطأ ؟

وقال الحفيد ضاحكا :

- اننى امتحك الدرجة النهائية يا جدى .. رائع ..

- قهلم اذن ..

وعند ركن الشارع ، كان شمة جاثم لا يكسوه الثلج ، ومس الجد الفرشاة
مرة اخرى وظل يكتب ويكتب .. ثم تابع السير وقد انتثر الطلاء فوق لحيته
وحذائه ولوث صدرته .. ولكنه لم يلحظ ذلك كله ، فقد استبدت به شغلة
مقدسة من الحماس وكلما وجد بقعة مسطحة : جاثما كان او بابا ضخما ،
توقف ويرسم تلك الرموز السحرية فاذا بالحائط الذى كان من قبل ايكم
معملا ، يتحول الى شيء اخر جديد يعلن بقوة عن وجهه المقاتل ..

وبدأت يده تكتسب المهارة في الكتابة وتصبح أكثر قدرة على الانسياب ..
وحين وصل الى ميدان القرية حيث تقوم المدرسة والمسجد والكنيسة
وحيث يقع على مقربة منه مقهى القرية ، غمس فرشاته وبدأ العمل فوق باب
المدرسة : الحرية او الموت ..

وخرج عجوزان من المقهى :

- مرحي يا كابتين ، سيفاكاس ، .. منذ متى تعلمت الإيجدية ؟ وماذا
تكتب ؟ ما الذى دهاك ؟

وأجاب الجد دون أن يتصرف عن عمله :

- انها تحبة وداع تتذكروننى بها .

وهز الرجلان رأسيهما وانصرفا وهما يضعفان :

- لايد ان ملاكا قد زار ، سيفاكاس ، ان ملك العوت اصبح قريبا ..

ووقف الجد امام المسجد حيث كانت الحوائط قد غسلت حديثا .. وحيث
بابه مطلى باللون الاصفر .. وتابع عمله ..

وحين انتهى قال لحفيده :

- فلنعد الى البيت الان .. فقد تعبت .. ولاندع الكنيسة ليوم آخر ، فلايد
لى من سلم لانسلق برج الجرس ..

- لن ادعك تسقط يا جدى ، سوف اتولى انا تسلق البرج ..

على طول وعرض كريت : اخذ الفرسان يعزجون الماء بينيذهم
ويتشاورون ، ويتجادلون بطريقة او باخرى .. دولة ، الفوستانيلا ،
والفرنجة والموسكوف - ظلوا جميعا على تحفظهم بمنأى عن كريت .. عدد
قليل من الكباين فقط هو الذى بقى مترددا ، على ان هؤلاء ايضا بدؤوا فيما
يبدو يميلون اكثر واكثر نحو احناء الرقاب .

بيد ان البنادق لم تصمت عند قمة ، سيلينا ، حيث لم يستسلم الكابتين

، ميخائيليس ، وكانت طلفاته ترن فى القسطنطينية فتطير غضب السلطان
الذى ارسل الى الباشا فى كريت اوامره : قطع رأس الكابتين
(ميخائيليس) وابعث بها الى . والا فاقطع رأسك انت ..

وهكذا ، فان الباشا قد قفز كالمسوح يقسم : ، بشرفى ، لاسحقن هذا
الكافر ، .. وتمنطق بسيفه المعقوف واتجه الى الناقدية يتطلع عن خلالها
الى جبال ، لاسيوى ، اللعينة ، لايد ان هذا الكافر مصمم على ان يقطع
الطريق امام امدادات الطعام والماء والتخيرة : ارسل رسالة الى الكابتين
ميخائيليس رسالة ، اذهب يا كابتين ميخائيليس انت وفرسانك واسلحتك
ورايك ، واقسم بحق النبى اتنى لن امس شعرة لاحد منكم ، وعاد الرسول
يرد الكابتين « ميخائيليس » : « لن اذهب ، طالما ان فى صدرى نفسا
يتروى .. فلتخضع كريت كلها اذا شامت .. اما انا فلن استسلم وسانتف
ذقتك ..»

وغصم الباشا وهو يعيد سيفه الى مكانه : « اللعنة على كريت .. وعلى
كل ابنائها .. بل اللعنة على حظى انا ونصيبى .. كيف اسلق الجبال وسط
هذه الثلوج لاقتنص حليف الشيطان هذا .. سوف ابعث بالعزيد من
الجنود ..»

وصلق بيديه .. ويرز خادمه العربى :

- احضر لى بعض الكستناء وشرايا دافنا .. انتى احس اليوم ايضا
بالقلق .. هل عرفت برسالة السلطان ؟

وبدون ان ينطق بكلمة : احضر العربى كويا من « الراكى » وانحنى يضع
صفا من الكستناء فوق الجمرات المتوهجة فى الموقد ، بينما تمدد الباشا
فوق الاريقة :

- احك لى ياسليمان بعض حكاياتك الطريقة .. حتى ولو لم تكن صحيحة
.. اقسم بالرسول لئنى لا اهتم اليوم ..

ويدت نواجذ العربى وهو يبتسم وقال :

- اليوم .. وكعادتي يا افتدينا الباشا .. استطيع ان انقل اليك اخبارا طيبة تحيل قلبك الى حديقة .

- تكلم يا كاتب .. مع بركاتي .. هل القى الكاتبين . ميخائيليس . السلاح ؟

- ليست هذه هي الاتباء يا افتدينا الباشا .. ولكنها افضل .. لعلك سمعت عن العرافة . حميدة . التي بقاء بيتها ولي مدفون . لقد جعلتها تقذف الحبوب اليوم لتحدثني عن حظك . وقد جلست القرفصاء في وسط الفناء . واحضرت غربالا . ثم اخذت حقيبتي الصغيرة وحبوبها واصدافها وبعض الحصى وعقل الاصابع .. وهزتها جميعا في الغريال . ثم اتحت فوقها وضغمت ببيض رقى سحرية . وفجأة صاحت وقد التقت وشاحها عن كتفها وبدأت ترقص وسالقتها : « ما الذي رايت يا حميدة ؟ » ما الذي قالته الحبوب ؟ وعادت الى هذونها . وجلست مرة اخرى لتحرك الحبوب باصابعها وقالت :

« ارى طربوشا احمر يغطي كريت كلها : من جاربوسا الى دير تويلا . ارى الباشا - هذا القوقعة المينة - يتلقى فرمانا من القسطنطينية عليه خاتم ذهبي .. بحروف من ذهب . وشريط من ذهب . وارى السلطان يبعث اليه بجنبنها ذهبية .. بلى .. ليست هذه ابنته يبعث بها الي الباشا لتكون زوجة له ؟ وحق هذا الولي الذي يسمعون الان اني لارى ذلك كله . وقلت لها : « اخبريني بالضبط يا حميدة . متى تتحقق كل هذه الامور المذهلة ؟ حتى اهرع الى الباشا واخبره فانلقى منه بقشيشا صغيرا .. وانت ايضا ابنتها المرأة المسكينة ؟ وعادت المرأة تنحني فوق حبوبها وتخلطها ثم ترميها بصورة وبأخرى .. واجابتنى تقول : « على ثلاث خطوات زمنية . فقل للباشا . لانلقى . وهكذا جئت من عندها على الفور احمل اليك هذه الاخبار الطيبة .

وكان الباشا يداعب فلالته العتبرية وهو يستمع الى خادمه . واكتسى وجهه بالفرقة والدعة . واغلق عينيه لحظات وهو يرى بعين خياله رسول

السلطان يدخل . ميجالو كاسترو . تتبعه قوائم من الجمال تحمل هدية السلطان الى زوج ابنته : اكياسا ملاي بالجنبنها الذهبية والزمرد والاحجار الكريمة .. واخرى ملاي بالمسك واللوز والقرفة . وثمة فتاة صغيرة في القافة - ابنة السلطان - في ملابسها الحريرية . تهبط من فوق .. نام جعل ابيض . ثم تخطر في لين لتصعد درجات السراي وحين كف سليمان عن الكلام . اجفل الباشا وكأنه استيقظ . ثم تناب :

- هل انتهيت ايها الغبي سليمان ؟

- انتهيت يا افتدينا الباشا ..

- قضع الاناء اذن فوق النار واعد لي قهوة .. واحرص على ان تكون ذات رغوة حتى تليقني هل نصح الكسنتاء ؟

- ان ترسل بقشيشنا الي حميدة المسكينة ؟ ولكن الباشا اغرق في الضحك :

- ايها الغبي سليمان . علينا ان نأخذ حذرنا اولاً حتى لا نتخدع عقولنا .. ولكي نستوثق فسنضع خطوطين من الزمن تمران اولاً .

ونغمم العرين في مرارة وهو يضع الاناء فوق النار : « انه ليس بالاحمق الذي ظننت »

حينما اقترب اليوم من نهايه . وجه المطران منظاره المقرب في دعر نحو سطح البحر الهائج المعتلاطم على شواطئ كريت . كان ينتظر رسولا سوريا يقدم على ظهر السفينة البخارية التي تصل الي ميجالو كاسترو . مرة كل اسبوع . ويحمل معه تعليمات من اليونان . وكان الفرسان في الجبال لا يزالون يتفاوضون مع الاتراك . كانوا قد وصلوا الي قرار . وان لم يكونوا قد

القوا سلاحهم بعد . وقال الاكثر تعقلا منهم : « باسم الله .. فلتقس قلوبنا وتصبح كالحجارة . ولندفن اسلحتنا مرة اخرى . لتستجمع قوتنا حتى تستجمع الامهات النائحات قوتهن من الاخرات . وبعدها - بعد عام او بضعة اعوام . نستطيع ان نرفع اعلامنا مرة اخرى . نظاهروا الان باننا

نقبل اليد التي لانستطيع اليوم ان نقطعها ، اما الاخرون المدفعون فكانوا يصيحون : الحرية او الموت ..

وام تكن اليونان هي الاخرى قد اتخذت قرارا .. كانت احيانا توجه بعض التهديدات المبهمة الى الاتراك ، وكانت احيانا ترتدى عند اقدام الفرنجة ، ولم يعرف المطران الى اي طرف يتمازح ، كان عقله ينصحها ، فلنزل الامور جيدا ، ولنصير ، ولنستسلم ، ولكن قلبه يشجاعة المجنونة كان يصيح : الحرية او الموت .

واليوم - والحمد لله - سوف يصل من اليونان ما يهدية الى الطريق الصحيح ، ولكن الظلام بدأ يهبط ، ولا اثر للسفينة : الصير .. الله يأتي بالهدى يوما جديدا .. وغدا تصل الانباء اما اليوم ، فقد انتهى .

ثم هبط الدرج الى الكنيسة حيث صلى له حتى تهدأ صفحة البحر . ومر الليل ، وهذات صفحة المياه ، وهبت مع الفجر نسيمات اتيه من الجبال تحمل شذى الصعتر ، بينما كان ، كوزماس ، اكبر اخفاد العجوز ، سيفاكس ، يقف على ظهر السفينة البخارية ويستنشق في عمق عبير بلاده ، كانت كريت تمتد امامه بصخورها الوحشية واشجارها النائحة المنتشرة هنا وهناك .. ويقوم جبالها التي تبدو من بعيد وريدية اللون ، كان يوما ربيعيا في ، عز ، الشتاء ، وكان الله سبحانه قد رق على الطيور وعلى الناس فبسط فوقهم اشعة الشمس ، وظل ، كوزماس ، مشربيا بعنفه حتى اكتفى . لم يعد في حاجة بعد لان يعمن النظر في جسد بلاده وعظامها ، كيف غادرها قبل عشرين سنة وهو لم يبذل طفلا ازغب الخدين ازغب الروح ؟ وكيف يعود اليها اليوم ؟ والتقت ، بينما سيدة صغيرة شاحبة تقرب منه وتحقق هي الاخرى بعينين واسعتين مذعورتين - في كريت ..

وقال الشاب ضاحكا وهو يلمس كتفها في رقة :

- كريت ..

وارتعشت المرأة .. ثم قالت :

- اجل ..

وسمعت ..

وغدا هو يقول في رقة :

- هنا سوف تتجيبين لطفنا .. هذا هو وطنك الان - فلنسى الاخر ..

- بلنى يا عزيزى ، كوزماس .

ثم عاد الى الصمت ..

ونجاة ، امسكت به من ذراعه وهي تضغط عليه في زعر وكأنتها تريد ان تتأكد من انه معها .. ثم بدأت تهدأ ..

وبدأت جبال كريت تقرب .. وبدت معالم اشجار الزيتون والحدائق والكروم .. ولاحت ، ميجالو كاسترو ، في ضوء الصباح الابيض وهبت رائحة الصعتر اكثر قوة ، وانتشر ضوء الصباح ليغمر كل قمم الجبال والسفوح والسهول ، وبدات الاشجار تبدو فرادى : حتى الديكة ، بدأت تسمع اصواتها في لحظات الصباح الحلوة .. كانت الدنيا تستيقظ .

وانحنى الرجل على زوجته ، وقال في رقة :

- ارجوك .. ليكن قلبك ثابتا وانت تدخلين بيت امى : لا تخافى ، وتذكرى دائما اننى معك .. تذكرى ايضا انك تحملين طفلا فلا تخافى ان امى امرأة تخاف الله ، وسوف تضحك في حبة قلبها .. واخفى .. يجب ان اخبرك ..

ثم توقف وقد تجهم وجهه :

- عندما بلغت الثانية عشرة من عمرها اصدر اليها ابوها اوامره : لا تتعدى بعد اليوم عتبة البيت الى الشارع ، ولا تظهري امام احد بعد اليوم ازهيمى ، .. وبعدها ، ظلت المسكنة معزولة تماما عن العالم الخارجى وعن اببها نفسه .. كانت تجلس طوال اليوم تخطيط وتنسج جهاز عرسها ، وعندما يصل الاب الى البيت في المساء ، كانت تهرب الى جانب داخل من البيت

لتختبره وعندما أصبحت في العشرين لاحظت يوما بعد يوم ان ثمة شابا يمر امام البيت ويظل يراقبها وجاءتها إحدى الجارات ذات مساء تحمل رسالة من ذلك الشاب .. وبعدها زادت الرسائل .. كان يحبها ووقعت هي في حبه .. واراد ذات ليلة ان يتحدث اليها حتى يعرف كل منهما الآخر ليتزوجها فيما بعد .. واشفقت عليه الفتاة بعد عدة رسائل وقالت لجارتها ذات مساء : « سوف اقف بالباب عند منتصف الليل » ..

وتوقف « كوزماس » لحظة وقد انتلخت عروق جبينه ، وبدأ يحس مرة أخرى بان ثمة امورا قد تمتلکه - خوفا من ابيه .. واعجابا به في ذات الوقت ، اختفت كريت لحظتها امام ناظرية ، وحل بدلا منها ظل مخيف لابيه يسبح في الفضاء -

ومعست المرأة :

- اهدأ .. بكلي هذا ..

ورفعت يدها لتفلق فمه ، ولكنه تابع الحديث ..

- لا .. يجب ان تعرفي كل شيء ، هيبت الدرج عند منتصف الليل عارية القدمين حتى لا تحدث صوتا ، ولكن الرجل العجوز كان يراقبها فتسلل خلفها دون ان يحدث صوتا ، وخرجت المسكينة الى الفناء ، وفي اللحظة التي مدت فيها يدها لتفتح الباب ، اندفع ابوها نحوها .. وجذبها من شعرها ، وغرس اظفاره في لحمها ، وطرحها داخل حجرتها وقد اغشى عليها .. ثم اطلق الحجر ، ومرت سنوات لا تحرق فيها اختي على ان تتجه الى النافذة ، وقتل العجوز في « اركادي » .. ومنذ ذلك التاريخ .. مرت عشرين سنة .. غفل اختي لايزال مهزوزا ، انها تعمل بالبيت طوال اليوم : تفسل ، وتطبخ ، بل وتخبذ وتنسج جهاز عرسها ، فاذا كان الغساء ، مضت الى قراشها ، وعندما يقترب الفجر ، تفتح النافذة ، وتطل منها ، فاذا مر ادهم بالطريق .. نادته وسألته في خوف : « هل اقترب منتصف الليل ؟ »

وصعدت « كوزماس » وارسمت لحظتها صورة اخته وهي صغيرة الشعر الاشقر ، والعيان الزرقاوان ، وسدرها .. وضحكاتها ..

وسار بضع خطوات وهو ينظر الى غير السفينة حيث تمدد الجنود الاتراك .. ونغمم يقول : « كريت ياسيئة الحظ » ثم تمسس بطاقة معقولة حيث اخفى الرسالة التي تحمل المعلومات السرية .

وبعد برهة ، قال لزوجته :

- ارجوك .. لا تخافي ..

واستطاع « كوزماس » ان يرى بوضوح خلف مدينة « ميغالو كاسترو » جبل « ايونا » الشهير يتكوينه اقريب الشبه بالبشر رأس ضخم يستقر فوق الارض بين الكروم واشجار الزيتون ، جبهته عالية جسور ، وانفه حاد وفعه واسع .. وذقته من زكام الاثرية الصخور المفتحة ، رأس يقف هناك وكأنه اله من الرخام .. ميت صاحب الزفة ..

وقال « كوزماس » لنفسه : « لم يمض العملاق بعد » ثم ثبت نظرة فحياة على الجبل الساكن .. طالما انه لايزال في اعماقي حيا .. فانه لم يمض بعد .. طالما انتي حي ازرقي وافكر فيه ، فانه لن يموت .. ربما نسيه الاخرون ولكنني لن انساه لان حياته تعتمد على انا ، انه يستندني ، وانا ايضا استند .

كان يحس لحظتها كيف مد ابوه جذوره في اعماقه حتى لتبقى مستحصية على الفناء ، كان وهو في وطن اخر .. يتذكره قليلا .. وكان يرتعش حينما يتذكره .. ولكنه لم يحس يوما بان هذا الرجل الميت قريب منه كما هو قريب في هذه اللحظة . اول لغة يهدده ، انه يعرف لماذا اعود الى كريت ، ويعرف بمهنتي السرية ، اب لا يلبس ولا يهدأ .. يود لو اخلق عسى ..

واستدار « كوزماس » مرة اخرى الى زوجته وهو يحس بان اباه يسدد نظرات الكراهية الى هذه المرأة الاجنبية . ولكنه كان يحس بجمه لها يزداد قوة وجراة حتى في حضرة ابيه ، لقد ضمها الى صدره .. ودافع عنها .. وان يدعها تستسلم امام رجل ميت ..

ودخلت السفينة الميناء .. والى اليمين ظهر اسد البنديقية يبرق تحت اشعة الشمس يحمل في مخالبه الكتاب المقدس .. ومرة اخرى كان الميناء غارقا في الضجة والطنين ورائحة اللبغون والزيت والثقت العطن .. وقفر « كوزماس » فوق المرساة وامسك بيد زوجته وهو يقول في رقة :

- بقدمك اليمنى اولا .. انت تدخلين الان غابة .. باسم الله ..

وخطت خطواتها الاولى بالقدم اليمنى وقد تعلقت بذراع زوجها في اعياها ..

- احسن بالتمبب ..

وكان العرق البارد يتصبب من صدغيها ..

- البيت قريب .. تشجعي .. لقد وصلنا وتقدما .. وظل « كوزماس » يحدق في البيوت والناس والشوارع في نهم .. كل شيء قد شاخ الشعر الاسود اصبح ابيض ، والحدود تفضضت والالواح شحبت او زالت .. والحواسط تقشرت وتشققت .. والاعشاب نبتت على كثير من غيات البيوت ، وشده على يد زوجته :

- هذه هي بلادى .. ولدت فوق التراب الذى نطؤه الان ..

وانحنى المرأة والتقطت حفنة من التراب تسللت من بين اصابعها :

- انها دافئة .. يسعدنى ذلك ..

وكانت لحظتها تفكر في وطنها البعيد البارد ..

وافترقا داخل الازقة الضيقة ، وترك « كوزماس » يد زوجته واوسع الخطى في لهفة وقلبه يدق بعنف .. واحترف الى اليمين ويدخل شارعنا صغيرا ، ورأى على باب بيت ابيه .. كان مغلقا والنافذة العليا ايضا كانت مغلقة .. ولم يكن بالشارع احد ، ولا صوت ، كان اشبه بالحلم .. والقترب من الباب الدائرى القديم ذى الحلقة الحديدية الغليظة ، وكانت ركبته ترتعشان ولكنه مالبث ان استجمع شجاعته وبقى الباب ..

وسأله في رقة :

- اهذه ؟

- اجل .. زوجتى ..

واستدارت الاخت تنظر اليها في فضول .. وانحنى الام على ابنها وقالت :

- لماذا تزوجها ؟ اجنبية ..

وقال الابن في رقة وهو يقبل اليد المتعصنة :

- امى .. يجب ان اسالك معروفا ..

- انت وادى الوحيد .. وسألتنى معروفا ؟ انتى رهن كلمة من شفتيك .. مزنى :

- انتى اعهد بزواجى اليك يا امى .. احببها .. واحبب وادى ..

واجفلت المرأة .. وحدقت في ابنها دون ان تتكلم : في تسازل وضراعة ..

- بلى .. انها حامل في حفيدك ..

وارتلح الدماء الى حلقها وخديها .. ولكن رعشة مفاجئة تملكها ، فقالت في همس :

- هل استاذنت اباك ؟ .. هل يعرف ؟ هو الذى يقرر .. يجب ان تسأله ..

الى اعماق

كانت همس حتى لا يسمعها الرجل الميت ..

وسأله الابن بينما قلبه يضطرب هو الاخر فجأة :

- وماذا يوسع ان يفعل بنا ؟

- وكيف لي ان ادري يا ولدي ؟ - اما زال له جسد فعرف ابن هو ؟ ربما يكون في الغناء هذه اللحظة بالذات يتمتعها من دخول البيت ..

وصاح الابن في هياج ..

- ليس له الحق في ان يفعل ذلك .. لم يعد صاحب الامر والنهي هنا .. سوف احضرها ..

ثم اجاز الغناء عدوا وقلبه يدق غصبا وخوفا .. وردد صوته فجأة خشنا وهو يقول :

- « كريستولا .. تعالى ..

واسك بيدها واتجه بها الى امه :

- امي .. هذه هي ابنتك ..

واتحنت السيدة الصغيرة لتقبل يد الام .. ثم وقفت تنتظر ..

واعمت الام النظر .. ورات سلسلة ذهبية حول عنقها - فقالت لوزن ان تعد ليها بيدها :

- هل عدت ؟

وقال الابن :

- لقد عدت .. هذا هو الصليب - انها تحمل اسمك يا امي .. كانت تسمى « نعيلى » - واسمها الآن « كريستولا » ..

واسمك بالسلسلة وجذب الصليب من وسطها .. وامست الام رأسها بيدها في تردد وقالت : « مرحبا بها .. »

واتجه الجميع الى داخل البيت ..

وسار « كوزماس » مثقل القلب - وتجوول هنا وهناك يتحمس الابواب

والاثاث القديم والساعة الثقيلة والعدارات الفضية الموروثه عن اجداده والموضوعه الى حوار المديح ..

- وكيف حال جدى ؟

- في قريته ، بلغ المائة من عمره ولكنه عملياً حيوية ، ملك الموت لا يدنو منه ، انه يسأل عنك دائماً ..

وجلست المرأتان فوق الاريكة الواسعة العتيقة وظلت الام تنظر الى انها كيف نضح واصبح رجلاً - كان يشبه جده الكابتن « سيفاكاس » نفس العينين اللتين تنظران الى الاشياء في نفسه ورقة : نفس الجاذبية ، نفس المنطق الفصيح ، وكانت في نفس الوقت تلقى بتطورات جانبية بين الحين والآخر الى زوجته :

- ماذا افعل لها ؟ - انها من جنس آخر - خلقها اله آخر .. لا احبها - ورات السيدة الصغيرة الغناء الصخري واصص الريحان وتكعيب الكروم التنوية القريبة من الحوض .. والى الخلف من الغناء - وراء اسلاك النباتات - بدت سهول لا حدود لها يكسوها الثلج .. وغابات يكسوها الثلج .. ومدن داكنة مظلمة ، وقوراق بسيوف مشرعة يقتحمون الابواب ويهبطون فوق اليهود .. والثلج بعدها يذوب تحت حرارة الدم العراق ، والرجال والنساء والاطفال يفرعون ..

واستدارت - ورات السيدة العجوز لتفحصها وحاولت ان تبتسم ولكنها عجزت ، وامتلأت عينها بالدموع - وتأثرت المرأة العجوز وسألتها :

- فيم تفكرين ؟ في وظفك ؟ اين ولدت ؟

- بعيداً .. بعيداً .. من هنا .. في مدينة قائمة مليئة بالمصانع ..

- اي نوع من المصانع ؟

- مصانع للمدافع والبنادق والالات - ولكن امي :

كانت تريد ان تقول « ان امي لم يلوث يده بشيء » من ذلك ، فقد كان رجل

دين .. ولكنها توقفت

- ماذا كان ابوك ؟

- كان رجلا طيبا ..

وتنهدت ، ووقفت الام واتجهت الى الغناء وقطعت لخصن ريجان وعادت
به الى السيدة الصغيرة ، وسالتها :

- اكان فى يديكم ريجان ؟

- كلا ..

- لقد نبت فوق قبر المسيح ..

وكانت الانباء الطيبة قد انتشرت : واقبلت الجارات يثرثن فى سعادة ،
وامتلا البيت وبدان يتفحصن ويتشمن الفتاة اليهودية من قمة رأسها الى
اخصر قدمها وكانها حيوان غريب .

وظل ، كوزماس ، ينظر الى زوجته فى اشفاق . وبدت له لحظتها وكأنها
بجعة جريحة وسط جمع من الاوز والبط .

واحضرت ، ماريا ، صينية ملأى بالحلوى والقهوة . وكانت تبدو نحيلة
متعسفة وتضع حول عنقها منديلا اسود عريضا لتخفى منه التجاعيد ،
وظلت تحديق كريسيولا ، بنظرات الحسد . فقد كانت اصغر منها واجمل .
ثم انها هى التى اختلطت منها اخافا ..

ونهض ، كوزماس .. لقد انتهت بالنسبة اليه لحظات الفرح الاولى ،
فليس ثمة وقت عنده ليضيعه .

- سوف اخرج فى جولة صغيرة احبب فيها ، ميجالو كاسترو ، مرة
اخرى .

ثم اسرع متجها الى مقر المطران ..

وكان المطران يجلس فى قصر الاسقف ينتظر ، كوزماس ، فقد سمع

فى الصباح الباكر صفارات الباخرة وهى تدخل العيناء ، فرسم علامة
السليبا ونغمم يقول :

- لك الشكر يا رب .. صوت يحمل البشرى للمسيحية .

واسرع ، كوزماس ، عبر الشوارع وهو ينظر حواليه فى انفعال لقد
شاخت المدينة الحبيبة وناعت بانقالها حتى لتوشك ان تنهار الى التراب
الذى تحمله الرياح بعيدا .. ولكنه .. يوما ما سوف تقوم فوقها مدينة
جديدة ، وان تكون كهذه ..

و كريت ، ابنتها الحبيبة .. ان العمر يمتد بنا ..

وحين وصل الى ، اى - ميناس ، اوسع الخطى مسخرقا الساحة الامامية
وهو يحيى شجرة اللبمون العجوز حيث يحتفل المطران كل عام بذكرى
صعود المسيح تحت اغصانها المزهرة واخذ يجيل البصر حوله .. ولكن :
لم يكن ثمة وقت يضيعه .. وبدأ يصعد الدرج صاعدا كل درجتين فى
خطوة .. نحو مقر المطران .

نهض المطران فى لهفة وقال :

- مرحبا يا كوزماس .. ان الله ارسلك فى ساعة مثقلة .. ماذا حملت
الينا ؟

وقبل ، كوزماس ، يد المطران ، وقال وهو يخرج الرسالة السرية من
صدره .

- هذا الخطاب يا سيدى ..

وتناول المطران وفتحه ، وانحنى نحو النافذة بايد مضطربة . وبدأ يقرأ
فى لهفة ثم عاد يقرأ فى بطة ثم احنى رأسه النبيل الى صدره .. واخيرا ،
انتزع نفسه من مكانه الغريب من النافذة ، والقى بنفسه منهاكا فوق الاربكة
وقد دفن وجهه بين يديه .. وقال :

- كريت .. ياباسمة ..

لم يكن ثمة أمل .. هكذا قالت الرسالة : « ان الفرنجة لا يريدون ان يخاضعوا السلطان . والسلطان اذداد جرأة ويتوى ان يسحب حتى الحقوق القليلة التي منحها لكريت بالرغم منه . والقائد الذي ارسله معه من الصلاحيات مايمكنه من استخدام القوة المطلقة من اجل اخضاع كريت . فادفئوا اذن اسلحتكم . وتذرعوا بالصير . ولاتلقوا باليونان في مغامرة دموية . ان اليونان المسكونة تود ان تفعل شيئاً . ولكن الحيلة قليلة ..

ورفع المطران راسه :

- هل تعرف ما بالرسالة يا كوزماس ؟

- اعرف يا سيدي ..

- سوف ابعث رسالة الى كل الفرسان اطلب منهم فيها ان يلحقوا السلاح . فليس من الحكمة ان نسلم رؤوسنا بانفسنا . ولكن هناك فارساً واحداً اخشى منه - عمك الكابتن . ميخائيليس . ذلك الروح المتمرد مطلق العنان . لقد بعثت اليه قبل وقت غير قليل احذره . وطلبت منه ان يخرج باسلحته واعلامه . وقلت له ان احداً لن يمس شعرة في راسه . فقد اقسم الياشا على ذلك .. فهل تدري بماذا اجاب ؟ « وهل اتدخل انا في عمك ياسيدي ؟ » فلا تتدخل اذن في عملي . لن اركع امام الاتراك . وسوف انسف جسدي ليتطائر عالياً في السماء .. انت ياكوزماس الذي ينبغي ان تبحث عنه وتحدثه ..

- سوف اذهب اليه ياسيدي . وان كنت اعرف مسبقاً انه لا قائدة . انه مثل ابي وحش ضار ..

ودعت الطبول بشدة . وتناهت اصوات صهيل خيول ووقع اقدام جنود . ونظر المطران الى كوزماس في قلق . وقال هذا :

- جنود اترك .. لقد كانوا معي في السفينة اخذناهم من « كانيا » وادبهم اوامر باياداة كل شيء ..

وعاد المطران يرفع يده الى السماء

- كريت . يا بائسة . الى متى ؟

واستبدت الحيرة بالاثنتين معا وساد الصمت واخيراً سأل المطران في محاولة لتغيير دقة الافكار التي تستبد بهما :

- لقد عشت في فرتسا ستين عدداً . مليجري هناك ؟ ماذا رايت ؟ فنحن هنا نعيش في الاحراش ..

- اشياء كثيرة ياسيدي . منها الحسن ومنها السيء .. متى ابدا ؟

- هل هم مؤمنون ؟

- انهم مؤمنون باله . قائد جديد : صارم قوى .. قد يصبح يوماً ما كل شيء ..

- اى اله ؟

- العلم ..

- عقل يلا روح . ذلك يعنى انهم يؤمنون بالشيطان ..

- لقد دخلت في فترة فلكية ذات دلالات مغرقة ياسيدي - في برج العقرب .. برج الشيطان ..

- ربما بقية العالم . امان نحن الكريتيين . فاننا نؤمن ايماناً عميقاً بدموعنا وتضحياتنا وليس في الانسان . نحن لم ننفصل بعد عن الله ..

ولم يقل « كوزماس » شيئاً . وماذا يقول ؟ كان المطران مؤمناً عجوزاً ولا يعرف شيئاً اخر غير العقيدة .

وعاد المطران يقول :

- لا نحن . ولا الروس كذلك . عندما كنت في « كريف » . كنت اعرف معنى الايمان . معنى « الله » وكيف يهبط سبحانه الى الارض ويتجول ويحادث البشر . وطالما ان روسيا تعيش فاننى لا احس بالخوف ..

- سوف انصرف الان ياسيدى وادعك نرسل خطايك الى الفرسان ، لا ينبنى ان نضيع لحظة واحدة ..

- بوزكت ياولدى ، وعد غدا ، فسوف اجمع كبار السن ، ويجب ان تحدث اليهم ..

وعندما عاد فى الليل الى بيت اياته وصعد الدرج الى حجرة نومه العتيقة التى كانت له ايام شبابه ، وجد زوجته ممددة فوق السرير وهى تبكى ، واخذها بين ذراعيه وربت على شعرها ولمس ذقنها ورفع رأسها المتعب ، فابتسمت له .

- ماذا حدث ؟ وماذا فعلوا بك ؟

- لا شيء ، لا شيء ، اننى متعبة فحسب .

واستوت رأسها الى ذراعه فى صمت ثم تكلمت :

- لقد دين جنينا حولى يتشمعننى ، ثم تجتمع بعيدا على يتهمامن فيما يبينهن ، امك وحدها التى اشفتك على ، فوقفت وقالت : ياعزيزاتى .. الى اللقاء ، فهى متعبة ، الى اللقاء غدا ، ثم صحبتنى من يدى وقادتنى الى غرفتك ، وانحتت نحوى واروشكت ان تقبلنى ، ولكنها غيرت رأياها وقالت : « نامى .. ولاتعيرى اليهن اثباها هيا ونامى .. » وهكذا تمددت هنا انتظرك .

وقبل « كوزماس » شعرها المعوج فوق عنقها ، واغلقت هى عينها وايتسمت ، وارتفع القمر يضىء وجهها ، ففزع لمرأى هالتين حول عينها وفمس فى اذنانها : « نامى .. فانت مرهقة ، وامسكت بيدي وقالت : لا استطيع النوم وحدى ، ثم معى جنبا الى جنب .. واحاطت بذرعايها ، ودفنت رأسها فى صدره وغمضت ببيض كلمات من لغتها ثم .. نامت ..

وارتفع القمر اكثر فى قبة السماء .. كبيرا ساكننا بفيض عذوبة . كان

تدر شبابه فى تلك الليالى الحلوة التى كان هو واصداقاه يتناقشون فيها حول اسئلة لايجدون لها الاجابة : من اين ؟ والى اين ؟ ولماذا ؟ .. هذه الاسئلة التى تعزق الشباب فى الدنيا كلها ..

والقى ضوء القمر ما يشبه ملامة من الكتان الابيض فوق الفراش ، وانتشر شعر زوجته العسلى الذهبى فوق الوسادة يلمع كأنما يملؤه دود متوهج ، واضاء وجهها كالسمرق ، ومد كوزماس يده ليحتضنها ولكنه ردها بسرعة خشية ان يوقظها ..

« ما اشد ما احب هذه المرأة ، حتى لها فوق الوصف بقدر ما ان تأثيرها على يفوق الوصف كذلك ، لقد فتحت عيني وقلبي وقلبي ، وعلمتنى كيف احب الاجناس الاخرى التى كنت اكرهها .. وكيف اتعلم الافكار الاخرى التى كنت احاربها ، وكيف احس باننا نحن البشر ننتهى الى اصل واحد . ملاكان اروع القدر الذى قادها من يدها ذلك السماء وجاء بها الى ؟ .. » وهز رأسه وهو يتسمم « لم يكن للقدر دخل فى ذلك فاننا نفسى الذى امسكت بيدها ذلك العساء ، ولا احد غيرى ..

وتذكر لحظتها كيف انه كان داخل احدى المكتبات فى مدينة فى اقمسى الشمال يبحث عن كتاب كان يديه : اشعار صينية من عهد أسرة « سونج » ويومه لم يجد الكتاب ، وبينما هو يستدير اسفا ليتظر الى الشارع ، رأى فتاة ترتدى « بلوزة » برتقالية اللون تمر امام المكتبة وتقف للحظة وكأنما تنقف تحت دائرة ضوء كشاف .. ثم تختفى .. واحس بان شيئا ما قد شده فجأة وحتى اصماقه .. وخيل اليه لحظتها ان هذه الفتاة تملك نوعا من الجمال المعبر العاساوى .. ثم ان لون البلوزة التى كانت ترتديها هو اللون الذى يفضل على كل الالوان ..

وانتالت الافكار كالبرق داخل رأسه « لو اردت لعنوت وزاعها وسوف تصبح زوجتى واذا لم ارد ، فسوف ابقى فى مكانى ، انا افعل ما اريد ، ولكن ترى ماذا اريد ؟ ووجد نفسه على الفور مجبرا على ان يفكر فى حكاية ذلك الراعى الكريشى الذى لم يكن قد رأى « ميجالوكاسترو » من قبل تلك المدينة العظيمة كما وصفوها له . كانوا قد صوروها له جنة على الأرض

فيها كل الاشياء الثمينة في الدنيا : احذية بيضاء ذات نعال مزبوجة ..
بنادق وسيوف .. غرارات ملاكى بالحبوب والسمك المملح .. ونساء نفوح
منهن رائحة السمك .. وظلت هذه الصورة تستبد به سنين طويلة حتى كان
يوم لم يعد يحتمل فيه اكثر مما احتمل ، فعلق خذاه القديم فوق كتفه حتى
لا يبلى من السير فوق الصخور ، وبدأ يهبط الجبل ويقفز من صخرة الى
صخرة هابطا في طريقة الى « ميجالو كاسترو » وظل يسير اكثر من سبع
ساعات حتى وصل الى باب قلعة المدينة قبيل النساء ، وهناك توقفت وقد
اصيب بخيبة امل . ولعله احس فجأة بالخجل لانه لم يقاوم الاغراء ، وراح
عصاه وضرب بها الارض الصلبة وهو يصيح : « اذا شئت فسوف ادخل ،
وإذا شئت ، فلن ادخل .. ولن ادخل .. واستدار عائدا الى الجبل ..

وقعم « كوزماس » وهو ينطلق في اثر الفتاة .. وكننى سوف ادخل »
وكانت « البلوزة » البرتقالية تلمع وسط زحام البشر ، واستدارت الفتاة
خلفها وهي تنظر في رعب وهو يقول لها : « في اللحظة التي مررت بها ، قلت
لنفسى : ان اردت ، كلمتها واصبحتنا صديقين .. وان لم ارد ، فسوف
ادعها تسير .. وقد قررت بيني وبين نفسى اننى اريد ..

واجابته الفتاة في نظرة قلقة : « اما انك مجنون ، واما انك شاعر ، ولكن
لا وقت لدى ..

« تعالى معي نتحدث »

« قلت لك لا وقت لدى ، يجب ان اذهب »

« الى اين ؟ »

« وعادت هي تقول : « يجب ان اذهب »

وكان صوتها يرتعش ، واسمك « كوزماس » بذراعها في رفة ، وقال : « لا
تذهبي ، تعالى معي .. وافزعته رفة صوتها ، وهي تقول : « يجب ان
اذهب .. » وكأنها تريد ان تصيح « التوجة ..

وفجأة ، اقرن حاجبها الكثيفان المعوسان في نومة ، واحسست في
تلك اللحظة بان حياتها كلها في الميدان ، اريد .. « لا اريد ..

كان قدرها رهن هذه الكلمات .. وعاد « كوزماس » يقول : « هيا .. »
« الى اين ؟ » « الى اي مكان » « اين ؟ » وكانت تتكلم مثل طفل يخشى
العقاب : « فلنمش قليلا .. فالحياة قصيرة .. لتكلم .. طالما انه لا يزال
امامنا فسحة للكلام .. واجتد رأساها العسلى الاشقر وقالت : « لا بأس »
فلنتكلم طالما انه لا يزال امامنا فسحة للكلام .. فالحياة قصيرة .. هيا بنا »

ودخلا احدى الحدائق ، وكان الضياء قد تحول من اللون الاخضر
الذهبي الى البنفسجى الشاحب .. ثم تحول تدريجيا الى اللون الازرق
القاتم ، وتكلم الاثنان في سرعة وهما يلتهان ، وكان « كوزماس » هو الذى
يبدأ الحديث حتى يشجعها ، حدثها عن كريت : « عن الجزيرة الحبيبة
المفزعة عن ابيه ذلك التين العرب ، وعن امه تلك الشهيدة المقدسة ،
وعن قلب الفتاة وسألته في قلق : « لماذا تحدثنى هكذا في ثقة ؟ لماذا
طالما انك ستذهب بعيدا وسأذهب انا بعيدا وانه ليس امامنا مزيد من
الوقت .. في ظروف اخرى يحتاج البعض الى ستين حتى يصلوا الى
النقطة التي وصلنا اليها في فقرة واحدة »

وكانا قد جلسا على اريكة خشبية ، وسألها : « ما اسمك ؟ »

« نعيمى »

« حديثي يا نعيمى .. انا واثق ان حياتك قاسية ، تقى بي .. انا كريتى »

« كريتى ؟ ... ماذا تعنى ؟ »

« رجل ذو قلب داغى يا نعيمى ..

ولم ينهضا الا عند منتصف الليل ، وقد امتلأ صدر الشاب بالضحك
والمرارة ، هذه الفتاة الصغيرة قد شربت يؤس الدنيا كلها ، كانت كلماتها
تكشف الرعب والعار والجنون الذى يستبد بهذا العالم .. وكان يستمع اليها
وقد دفن راسه بين يديه وهو يرى بعين خياله الاشياء التي وصفها له
كيف افتتح الغوزاق المدينة ، واندفعوا داخل الحى اليهودى ، وحطموا
الابواب ، وقتلوا الرجال ، وجمعوا الشيوخ والنساء والاطفال معا ، وكيف

سار ابوها رجل الدين في مقدمة الاسرى يمضى معهم وسط الثلوج ليلالى
واياما وعددهم يتناقص يوما بعد يوم .. وعلى جانبي الطريق يسقط نساء
واطفال ، ويدات ، نعيمي ، تيكى ، واحاطها ، كوزماس ، بذراعه ، كيف
هربت ؟

- لا ادري . لقد كان كل شيء اشبه بالحلم لا تسلمنى ، .. ثم عادت
تيكى .. وتحنس ، كوزماس ، شعورها : « ان اسأل ، فاهدنى الان » وسار
الصمت وعاد ، كوزماس ، يسألها : « واين ستذهبين هذا المساء ؟ لماذا
انت فى عجالة ؟ ورفعت ، نعيمي ، رأسها وقالت هامة : « لقد اتخذت
قرارا »

- « اى قرار ؟ »

- « صديقة لى اعطتنى هذه البلوزة ، وقد غسلت شعرى وصفتها
بغناية ، وخرجت »

وصمتت : ثم قالت بعد لحظة .. وفى هدوء : « لاقتل نفسى وارتاح »
وقبل « كوزماس ، يديها وقال : « هيا بنا »

- تعالى معى يانعمي ،

- « الى اين ؟ »

- لماذا تسالين ؟ الا لتقين بى ؟ لست ادري ما اذا كنت قد احببتك ،
ولكننى لن اتخلى عنك ، الكل تخلوا عنك ، ولكننى لن اتخلى عنك ..

واحننت الفتاة رأسها ، ولم يستطع ، كوزماس ، ان يميز وجهها وسط
الظلام . وظل واقفا لا يتكلم ، كان يحس بأن الفتاة البشيمة تقلب الامر
وتنتظر جواب مشاعرها ، وفجأة رفعت ، نعيمي ، رأسها وقال فى هدوء
واصرار ، هيا بنا ، .. واعطته يدها ..

واختفى القمر .. وساد الظلام .. وكانت الام وابنتها لاتزالان تتبادلان
حديثا هادئا فى الطابق واستطاع ، كوزماس ، ان يسمع صوت امه الرتيب

الذى يشبه خرير الماء فى الليل وينبع كلب ثم ساد الصمت من جديد وهبت
من ناحية الفناء رائحة الريحان التى راافقته طوال شبابه : فقد كان الريحان
والاترج والمنثور والياسمين اعز الرفاق القداس .. وتنفس ، كوزماس ،
بعنف وهو يقول لنفسه :

- هذه بلادى ، هذا هو البيت الذى فيه ولدت ، وهذه هى زوجتى ..

وبينما هو غارق فى تأمله ، سمع صوت غرفة اخته وهى تفتح ، لايد ان
الليل قد انتصف الان ، وارهب السمع ، وتناهى صوت وقع اقدام عابرة
بالطريق .. وعلى الفور انطلق صوت يذم عن اللهفة والارتباك معا ، اليس
الوقت قد تعدى منتصف الليل ؟ .. اليس الوقت قد تعدى منتصف
الليل ؟ .. وتوقفت الخطوات ، ولكن النافذة اغلقت فجأة فى عنف ، وارتعد
، كوزماس ، ونحسف والدموع تتحدر على خديه ، « يا الهى »

ولم يستطع النوم بعدها ، فظل قاتما عينيه ينتظر غيش الفجر ، وعندما
بدأ يرى ضوء السماء وهو يزداد تدريجيا ، انسل من فراشه حتى لا يوقظ
زوجته ، وادى ثيابه وهبط الدرج وجلس فوق الاريكة فى ذات المكان الذى
تعود ابوه ان يجلس فيه ، وكان يريد لحظتها فى اصرار ان يتحدث الرجل
الميت ليطرده من البيت ومن الفناء اللذين يتشبهت بهما ، ثم يفلق الباب
خلفه حتى لايعود بعدها ابدا فيؤذى زوجته ..

ولكن المخاوف القديمة عادت تستيقظ بداخله لقد حاول عبثا وهو فى
فرنسا ان يحرر عقله من المخاوف ، ولكن قلبه لايزال حتى هذه اللحظة كهفا
مليئا بالاشباح ..

ظهرت الاخوت صفراء الوجه حزينة مكتئبة فى ضوء المصباح ، وعندما
رأت اخاهما جالسا فى مكان الرجل العجوز ، اخلفت فى ذعر كأنما رأت اباهما
الذى تحس بالكراهية له منذ تلك اللحظة التى شهدا فيها من شعورها وعزلها
عن الرجال .. الكراهية التى تبعته حتى الى قبره .. ولقد كانت تود ان يكون
حيا الى هذه الساعة ، حتى تظل تكرهه وتلعنه ، انها لتفتح صناديقها كل
ليلة وتتفقد جهاز عرسها الذى صنفته بيديها ، تميص النوم ذا الاكمام

الواسعة من الدانتيل ، والمناديل المطرزة والملاءات الحريرية . واحيانا تنص برغبة عنيفة في ان تلقى بكل شيء في الغناء لتحرقه وتصرخ . ايها الاكفان .. صبي عليه اللعنة ، وانها لتفتح الدولاب الذي يضم ثيابه وتتجيب مثل الكلبة التي لمحت فجأة جلد ذئب .. ولم تكن تمس هذه الثياب ابدا . وكانت لا تغتا تنحي بالولوم على امها لانها لم تحاول مقاومتها يوما .. لقد كانت تحب اخاها حتى امس لفظ . وحتى عرفت انه تزوج . واحسبت بالاشمزاز من زوجته تماما كما كانت تتشمنز من ثياب ابيها .. وحين قالت امها : الصبر يا ماري ، اجابتها في ضراوة : اللعنة على الصبر . افضل ان اقتل نفسي على ان اظل اراها امامي كل يوم . وعندما حياها اخوها لم تستطع ان تمسك نفسها ، فانفجرت تبكي ، واحاطها كوزماس ، بذراعه وقال :

- اهدئي يا اختي .. سوف تصبح الحياة غير الحياة ، وسوف تسعدين انت ايضا ..

وهزت راسها الذي خطه الشيب ، وقالت وهي تدفع اخاها جانبا وتغادر الغرفة :

- اجل .. فسوف اتزوج بملك الموت لكي احس بالسعادة ..

وخرج كوزماس ، الى الغناء ليشم الهواء ولكن القلق تملكه فجأة . هل ثمة احد ينتهد في الغرفة بالمطابق الاعلى ؟ واسرع يدعو صاعدا الدرج ليطمئن على زوجته ، وكانت لانزال نائمة وقد برزت قدمها الرقيقة من تحت الغطاء ، وانحني ليقبلها وريت على شعرها في حنان ، وندت عن فمها المفتوح قليلا رائحة القرنفل مع انفاسها الدافئة ..

وفجأة ، وبينما كان يقرب شفقتية من فمها احس بان احدا يصعد السلم ويان ثمة اقداما يطية تقترب ، لابد انه الرجل العجوز ، الرجل الميت ، انه ليعرف جيدا وقع خطاه ، وجلس جامدا كالسخر فوق السرير وقد حبس انفاسه وارهب السمع . كانت الخطى قد وصلت الى نهاية الدرج واقتربت من الارض المواجهة للباب ..

واحس كوزماس ، بالفزع وبسط ذراعيه فوق زوجته ليحميها من الرجل العجوز ، وتوقفت الخطى عند الباب وبق قلب الابن يعنف وهو يحس كأنما البيت كله يهتز .. ووه لو صاح : من هناك ؟ ولكن حلقة كان اشبه بالمسدود ..

وفي تلك اللحظة انتهت نغمي ، وصرخت ، وحدقت بالباب والعرق يتصبب من جسدها .. واحاطها كوزماس ، بذراعيه وقال في رقة :

- ماذا حدث ؟ .. هل سمعت شيئا ؟

- هناك من صعد السلم .. هناك من يقف خلف الباب ..

وكانت ترتعش ..

- اهدئي .. لا تخافي .. لابد انك تحلمين .. انظري لن ترى شيئا ..

وقفز واقفا .. كان يرتعش ، ولكنه كان يحس بالخجل ، وفتح الباب على مصراعيه : ولم يكن ثمة احد ، وضحك في لامبالاة حتى يطمئنها ، ويشجعها . ثم استدار اليها وهو يغطيها بجسده ويقبل ركبتيها المرتعشتين .

- لا تخافي ، هذا بيتك يا نغمي ..

وادارت السيدة الصغيرة بصورها حولها الى العائدة ، والدولاب ، والنافذة ، والمذبح الذي تعلوه ايقونات ثلاث : الخلق ، والصلب ، والقدوس ميخائيل . ثم قالت :

- بلى .. هذا بيتي وسوف اعتاد عليه ..

وحين رآها كوزماس ، تبكى ، احس على الفور بحب طامغ لا حدود له لم يحس بمثله من قبل ، حتى ولا في تلك الليلة بالخارج ، والتي نالها فيها .. وتعمد ان يترك الباب مفتوحا حتى يؤكد لها انه لا يخاف الميت . واحتواها بين ذراعيه وعانق كل جزء في جسدها ، من اطراف قدمها وحتى راسها .

ومر يوم ويومان وثلاثة ، وجلس « كوزماس » الى امه واخته ، وقال كل
منهم للاخر كل ما راى ان يقوله ، تحدثوا عن البيت وعن الاقارب والجيران
، وعن الرجل الميت الذى لا يزال يسير داخل البيت ويضيق عليهم ، وعن
كزيت .. ولم يعد ثمة جديد يقال .. لم يعد سوى العاطفة العميقة تربط بينهم
، وهكذا ساد بيتهم الصمت .

وكان « كوزماس » يتجول فى الأزقة الضيقة يتبع ذات الطرق القديمة
التي سلكها فى شبابه . هنا ، فى هذا الميدان وعند الاقياء الثلاثة ، ينهض
قلبه بالحب لأول مرة . هنا رأى اول فتاة احبها ، فى امسية ذهبية السحب ،
وهي تمسك بيدها وردة صفراء اللون وتضع فى شعرها غصن ياسمين ،
وكان الجو منعما بشذى المسك .. والفتيات اللاتي لم يتزوجن يحطن فى
ملاسيهن الحمراء والخضراء والزرقاء ، صدورهن شديدة وخطوهن سريع
وشعورهن مسدلة تتطير منها الاشرطه .. وهن يختلسن الاشارات .. كن
مثل سفائن اشترعت كل اعلامها وانطلقت الى اعماق البحار لتغزو الدنيا
كلها ، وكان الفتيان يركضون خلفهن فى خجل وذبول وهم يتظاهرون بأنهم
يفيظونهم ويتضاحكون عليهن .. بينما قلوبهم فى الحقيقة تتخلى بين
صدورهم .. وكان « كوزماس » واحدا منهم فى السادسة عشرة من عمره .

وهنا هو ذا الان يجتاز الميدان وقد ثبت نظرته الى الارض ، حتى لا تقع
عيناه او يتعرف على مديرة بيت تذكره عيناها بتلك الفتاة السمينة المبهرجة
التي عرفها فى شبابه فى تلك الامسية الضيقية .

وهناك فى اعلى ، فى « بيتروكيفالو » كان الجد يجلس طوال اليوم -
وكان يوم احد - امام النار المشوجة فى المدفأة وقد تهدل خذاه وارتعشت
ركبته ، وهو يحرق فى النار ويتأمل فى حياته .

واقتمح عليه المكان راح وحياء :

- احمل اليك انبعا طيبة يا « سيفاكاس » « كوزماس » اكبر احفادك
وصول الى « ميجالو كاسترو » من بلاد الفرنجة ، ويقولون ان معه قلما وورقا
وانه يكتب .

وانتبه الجد ، ورفع عصاه :

- وماذا يكتب ؟

ولكن الراعى كان قد ابتعد .

ولم يقل الجد شيئا بعدها ، فقد اعتبر وصول حفيده الاكبر اعلانا سريريا
عن وفاته ، ونهض واقفا وهو يغغم : « لقد حانت ساعتى .. »

ثم قال :

- « شارديموس » .. ضع السلم الكبير على كتفك ، ثم تعال معى ..

- الى اين ايها العجوز ، سيفاكاس ؟ ..

- قلت لك الف مرة لا تسالنى .. هيا .. اسرع ..

وحمل « شارديموس » السلم فوق كتفه ، وسار الجد فى المقدمة ويده
على الملاء والفرشاة وهو يحث الخطى ببغلة ، حتى اذا وصل الى ميدان
القرية اشار الى برج صغير للكنيسة ، غسل حديثا ، وقال :

- ضعه مستندا الى الحائط ، وامسك به جيدا حتى لا اسقط .. اين
« ثاراساكي » ؟

- لقد خرج مع اصحابه ومع البندقية العتيقة ..

- حسن .. بركاتى معى ..

واستند الراعى السلم الى برج الجرس ، وازاح بعض الاحجار من تحت
وامسك به فى قوة بكثا يديه ، وصعد الرجل العجوز السلم وهو يلهث ،
بينما استبد الفرح به ، « شارديموس » فأخذ يرسم علامة الصليب ويغغم
.. « كن رحيما يارب »

ووصل العجوز الى قمة السلم ، والى الزاوية الصخرية الناصعة تحت قبة
جرس الكنيسة مباشرة ، وغمس الفرشاة فى العلية ، ثم مد ذراعه وبدأ

يضع الحروف الى جوار بعضها البعض : « ا ل ح ر .. وكان قلبه يدق في بهجة : من كان يستطيع ان يتبنا لي بأن حياتي سوف تنتهي هكذا ؟ فرشاة وعلبة طلاء وكلمات فوق الحائط؟ .. وعندما انتهى من عمله - وكان لا يزال ممسكا بيده بالفرشاة - نسي انه فوق السلم .. وانحنى الى الخلف لينظر في اعجاب الى ماكتب ، فقد توازنه وسقط الى الأرض باسطة ذراعيه .

وصرخ « شارديموس » واقبل الجيران يعدون ، ووقعوا الرجل العجوز والدماء تسيل من رأسه ، وان ظل مطبقا فمه لاتصدر عنه آنة واحدة .

وقال « شارديموس » يشرح لجيرانه الامر : لقد عاد حفيده الاكبر الى كريت ، فافقده الخبر السعيد عقله ..

واهتزت القرية كأنما اصاب زلزال عمودها الاساسي .. واسرعت كل النساء بكل ما يعرفن من فنون العلاج ودلكنه بالمراهم ، وطار رسول ينطفي بقله الي ، وميخالو كاسترو ، يبحث عن مصطفى بابا .. الذي كان يعرف كل الاعشاب الطبية والذي كان رجلا غريبا يعالج الاتراك والمسيحيين واليهود بلا تمييز .. والذي كان يقول دائما :

- انهم جميعا يمرضون .. مساكين .. حتى ولو كانوا يونانيين او يهودا ..

ووصل مصطفى بابا في صباح اليوم التالي منتظيا صهوة بقله وبمعه صندوقه الصغير .. وفتح زجاجاته ، واخذ اعناقها المشروخة بين يديه القويتين ..

وفي اليوم الثالث ، فتح العجوز عينيه ، ودار ببصره حوله ، ورأى زوجة ابنه « كاترينا » .. غاوما اليها ..

- ماذا يحدث الان في الجبل ؟ .. هل سمعت شيئا عن زوجك ؟
- انه لا يريد ان يستسلم ..

- نعم مافعل :: ضعني خلف راسي وسادة حتى استطيع الجلوس .. فقد تعبت من النوم .. وابعثني الي « كوستانديس » في الحظيرة ، فانا اريده ..

ثم عاد واظق عينيه ..

وبعد ساعة ، ظهر شخص : نصف رجل ونصف عنزة ، ووقف امام الاريكة الصغيرة التي استلقى فوقها العجوز ، وظل ينتظر وقد اسند ذقنه الى عصاه .. وكانت عينا العجوز لاتزال مغلقتين فلم ير شيئا .. وكان ثمة طنين في اذنيه فلم يسمع شيئا .. وظل « كوستانديس » صابرا ينتظر وهو يقول لنفسه : « سوف يفتح عينيه يوما ما فيراني ويقول لي ما يريد مني »

ووقف الاحقاد وزوجات الانياء في حلقة حول العجوز ووصل « ثاراساكي » بدوره والبنديقية العتيقة تحت ابطه .. وكان قد صعد الجبل مرة اخرى يلعب مع اصدقائه لعبة الحرب .. وكان يقف هو الآخر : ينتظر مايمكن ان يحدث لجده ، حتى اذا اطمان على ان كل شيء على مايرام ، خرج على راس عصاية من اصدقائه الى احدى القرى التركية وتحدى الصبية الاتراك .

وقال « كوستانديس » :

- ايقظه انت يا « ثاراساكي » فإت لا تخاف منه ..

- هذا صحيح ، ولكنني اشفق عليه .. دعوه نائما ..

وسمع الجذ الهمس حوله ، ففتح عينيه ، وخطا « كوستانديس » نحوه بقدمه الضخمة ، ورمشت عينا العجوز وهو ينظر الى الدائرة الملتفة حوله ، وبدأ انه ضاق بالزحام فصاح في غضب :

- لن اموت الان ايها الورثة المساكين ، ابتعدوا جميعا ، والمقرب انت يا « كوستانديس » وانحن قليلا ..

وانتهج الرجل الاشعث نحوه ، وانحنى يتلقى تعليمات العجوز « سيفاكاس » الذي كان يتكلم ببطء ، وهو يتنفس في غير انتظام والالم يوقفه احيانا عن الكلام ، وحين انتهى قال :

- هل فهمت يا « كوستانديس »؟ ..

- فهمت ايها العجوز « سيفاكاس » ..

- ويعدنا .. ويعد ان تحيط كل القرى علما .. اسرع الي ، ميچالو كاسترو ، واذهب من فورك الي بيت ابني الاكبر - وانت تعرفه ولاشك - وزوجته ، كريسولا ، وخذ معك قلبين كاملين من الجبن وحملا صغيرا هدية مني اليها ، لقد وصل حفيدي ، كوزماس ، كما علمت ، فتأكد من ذلك بنفسك .. انظر اليه بعينيك والسمة بيديك ، هل تسمعي ؟ .. ثم قل له ، اذهب الي بيتروكيغالو فان جدك يموت وهو يريد ان يراك لينتدك بركاته .. هل فهمت ايها المعتوه ، كوستانديس ؟

- فهمت يا ، سيفاكاس .

- حسن ، فانصرف اذن .. عدوا ..

وعندما استدار العجوز نحوه كان هذا قد اختفى بالفعل ولم يسمع منه سوى وقع المسامير في نعل حدائه فوق الارض ..

وفي صباح اليوم التالي ، فتح الباب الخارجي لبيت ، كريسولا ، العجوز على مصراعيه ، بركة قدم ، ودخل شخص كثيف الشعر ، يحمل قلبين من الجبن داخل كيس ، وحملا مذبوحا تحت ذراعه .. وسار حتى منتصف الفناء عارى الصدر ، تفوح منه رائحة الثوم والبصل .. ووضع الهدايا فوق الارض واستند بذقنه الي عصاه .. وكانت النساء الثلاث يجلسن فوق الاريكة يحسبن القوة ، بينما كان ، كوزماس ، بالطابق الاعلى يتهيأ لزيارة المطران ، وكانا قد اعدا الرسالة معا . ويحث بها المطران الي الجبال تطلب من الفرسان ان يحثوا رموسهم لان وطننا الام يري ذلك .. وجاءه الرد : السمع له والطاعة .. ولكن بقي رد الكابتين ، ميخائيليس ، الذي لم يصل بعد .. فحين تلقى هذا رسالة المطران ارسل في طلب الكابتين ، بوليكسيجيس ، الفارس الثاني في ، سبلينا ، واغلق الاثنان على نفسيهما الكوخ الصخري ..

وقال الكابتين ، ميخائيليس ،

- انا لن استسلم ..

وقال الكابتين ، بوليكسيجيس ،

- ولكن وطننا الام يطلب ذلك ، فلا ينبغي ان نعترض ..

- اي وطن ام ؟ .. انا لا اتق في الرؤوس التي تحكم هناك ..

- وهل انت واثق في راسك انت ؟

- اهذا وقت المزاح ؟ .. كلا .. ولا في رأسي انا ايضا ، ولكن في قلبي ، ان قلبي يقول لي : لا تستسلم .. ومن ثم فلن استسلم .. افعل ما يأمرك به ذلك ..

- سأفعل ما قررت به بالفعل .. سوف اطبع الامر ..

- حسن ، فاذهب ، قلن يقير ذلك من الامر شيئاً ، دعني انت ايضا لقد غادرتي رفاق اخرون قبلك ، ولست في حاجة الي احد منكم ، ارجو لك بافارسي حفا سعيدا ، وريحا مواتية ..

وتردد الكابتين ، بوليكسيجيس ، ، كان قلبه يتعمر ويشور على التراجع ، ويرفض ان يترك هذا الرجل للموت ..

- انت تهلك نفسك بلا هدف ياكابتين ، ميخائيليس ،

وصاح الكابتين ، ميخائيليس ، :

- في الحرب ، لا يهلك المرء بلا هدف .. هل تشفق علي ؟

- لقد كانت هناك مخلوقة واحدة احببتها في كل هذه الدنيا ، ولقد فلتتها انت من اجلي .. كلا .. لست معجبا بك يا كابتين ، ميخائيليس ، ولكني لا احب ان اراك تهلك نفسك .. ان كريت - تحفظها الشيطان - لا تزال تحتاج اليك ..

وصاح الاخر هادرا :

- اما انا فلم اعد في حاجة الي كريت .. قلت لك اذهب ..

- الا تفكر لحظة واحدة في زوجتك ؟ الا تفكر في ، ثاراساكي ؟

وصاح الكابتين « ميخائيليس » .. وقد انتفضت اوداجه من الغضب :
- اذا كنت ترى لحياتك قيمة .. فانهب ..

ثم شرب بقدمه العوارض التي تسد مدخل الكوخ الصخري . ودفع
الكابتين « بوليكسيبيس » الى الخارج . ثم صاح في « فيندوسوس » :
- اابتعد انت ايضا يا « فيندوسوس » استخدم سائقك واسرع الى
« ميجالو كاسترو » الى مقر المطران ، وانقل تحيالي الى الاسقف وقل له
انني تسلمت رسالته واحرقتها من اركانها الاربعة . واسوف اعيدها اليه ..
انا لن استسلم ..

وقال « فيندوسوس » وهو يديس الرسالة في صدره :

- امرك يا كابتين « ميخائيليس »

- اسرع . اذا كنت ترى قيمة لحياتك فلا تعد يا « فيندوسوس » فهنا ..
الموت ..

وقال « فيندوسوس » وهو يتنهد :

أره - ان لي اطلاقا ياكابتين « ميخائيليس » وعندى ابنة تريد زوجا .. ثم
هناك زوجتى والحانة ..

- فلا تعد اذن انت « فيندوسوس » ولست اسالك شيئا ، تصرف كما
يتصرف « فيندوسوس » . واخذ معك « كاجابيس » « فورد جاتوس » ايضا ..
وانضموا هناك الى « بيتروبولوس » و« افندينا » ..

ودعم الكابتين « ميخائيليس » وادار له شهره .. واسرع « فيندوسوس »
يهبط الجبل عبر المعمر الخفي متجها الى السهل وهو يتنهد ويلعن « انت
فيندوسوس » فتصرف كما يتصرف فيندوسوس .. كانت الكلمات تلهب
ظهوره وهو يهدو . وحين وصل الى المدينة يصعد درج المطرانية ..

في تلك اللحظة ذاتها .. كان « كوستانديس » يدخل بيت ابوى
« كوزماس » ويقف في منتصف الفناء وهو يضغط بمخالبه على صدره

ويصيح : « عشتم .. عشتم ابنتها المرأة .. متعك الله بحياتك » .. وكان
سوته صوت الرجل الذي عاش حياته كلها بين الخراف والماعز ..

وقالت الام :

- مرجحيا يا « كوستانديس » .. ادخل اجلس واشرب بعض النبيذ .. اى
ابناء تحملها اليها من القرية ؟

- ان حماك الكابتين « سيفاكاس » يموت يا « كريسولا » ياسيدتى .. لا
شيء يمنع عنه الموت الا ان .. حتى الشيطان نفسه لا يفيد ..

قالها ضاحكا . ثم استطرد :

- وقد امرنى بان احمل اليك هذه الهدايا ..

ثم جلس القرفصاء وهو يضع عصاه فوق ركبتيه العظميتين وهو يقول :

- وحق الله لقد عاش حياته كاحسن ما يكون : اكل وشرب وقتل الاتراك
وملا بيته اولادا وحميرا وبغاللا وثيرانا . واحال الارض البرية الى ارض
محرثة .. وزرع الكروم واشجار الزيتون .. وبقي كنيسة من اجل خلاص
روحه .. لقد امن نفسه هناك فى عليين ايضا ، فما الذى لم يفعله اذن فى
حياته ؟ .. الا ان يرفع راية الرجل ..

وسمع « كوزماس » الاصوات ، فغادر غرفته ونزل وقل « كوستانديس »
ينظر اليه فى فضول من راسه الى قدمه ..

- انت الحفيد الاكبر للعجوز « سيفاكاس » ياسيدتى ؟ ام انتى مخطىء ؟

ثم لوى عنقه ليراه جيدا . ثم نهض ويدا يتحنس بمخالبه : اوامر
الجد ..

واجابه « كوزماس » :

- انا هو ..

- اذن . فجدك يريد ان يراك - ولكن بسرعة - حتى تسيل عينيه . اقول

لك : بسرعة . اذا كنت تريد ان تراه وهو لا يزال حيا . اقم بالشمس التي
هي فوقنا جميعا . انه ظل ينتظره ياسيدي طوال هذه السنين حتى يستطيع
الآن ان يمنح روحه لكبير الملائكة . لقد قال لي : خذ البغلة ليركبها ، ثم
قال لي : لقد امسكت انا بالفأس وامسك والدي بالبندقية . ولكن حفيدي
كما اخبروني - يمسك بالقلم . ومن ثم فلن يقدر على السير . خذ البغلة
وهاته معك الى هنا .. ان البغال في الخان تنتظر .. فهيا بنا ..

ثم استدار الى سيدة البيت . وقال :

- هذه هي الانباء ياسيدي ، كريسولا . اما عن التبيذ الذي قدمته -
فسوف اشربه حتى لاتعضي ..

وشرب النبيذ في جرعة واحدة ، وتناول قطعة من الخبز من فوق المائدة
وسم بها شفتيه وهو يضحك في رضا .. وقال :

- ثم اسمعي ايضا هذه الانباء .. ان الكابتن ، سيفاكاس ، يعث يدعو
الى وليمة .. وكانما سيمضي الى العالم الاخر مثل العريس . انها ليست
اول مرة يطلبني فيها في هذه الاربعة والعشرين ساعة ، لقد كنت راعيه منذ
ولدت . ورسوله .. لقد قال لي اسرع يا كوستانديس خذ عصك وتسلق هذه
الجبال العالية واجمع زعماء الحرب القدامى .. قف في وسط كل قرية وضع
: يا اولاد الكابتن سيفاكاس يموت .. وانتم يا من عاصرتوه وحلمتم معه
السلاح وهو لا يزال حيا - ان الكابتن سيفاكاس يدعوكم الى بيته . انه لا
يريد هدايا فلا تخافوا . وسوف يجدون الموائد معدودة ومثقلة . وسوف
تجلسون فوق كراسيه لتأكلوا وتشربوا . وبعدها فان الكابتن سيفاكاس يريد
ان يقول لكم شيئا هاما . احملوا عصيكم وتعالوا .

وكان كوزماس ينصت اليه في نهم ، وحين انتهى سأل :

- وماذا يريد ان يقول لهم ؟

وكان يفكر لحظتها في ان ابطال العهد القديم وحدهم هم الذين ماتوا
بمثل هذه الكرامة .. واحس بالفخر لانه من سلالة هذا الرجل ..

وقال الراعي :

- ماذا يريد ان يقول ؟ .. وكيف لي ان اعرف ؟ .. لقد كنت ان اسأل
واكتفي خفت - فربما صريرتي بعصاه فوق رأسي - لهذا سكنت ولم اقل شيئا
.. ويفقرة واحدة أصبحت خارج البيت وانطلقت اعدو عبر الجبال وامر
بالقرى واصبح . ولم يخرج اليه سوى ثلاثة رجال من كبار السن . الكابتن
ساندكاس والكابتن كاتسبيرماس وهذا المدرس الاعرج من ايمباروس وقالوا
لي : قل له ان ينتظر .. لا تسلم روحك قبل ان تصل .. ثم وضعوا فوق
رؤوسهم طرايشهم ذات الذؤابات الضخمة .. وتمنطقوا باحزمتهم ..

وعاد كوستانديس يضحك

- حطام ثلاثة .. مساكين رؤوسهم ملأى بالنذوب مثل الغزال ، اقدمهم
لا تكاد تقوى على حطهم . مجموع اعمارهم ثلاثمائة سنة .. لللعاب يسير
من الفواهم . وحواجبهم مهدلة .. تمنطقوا بغاراتهم القنصية وكأنيهم
ذاهبون الى الحرب . ثم بدؤوا يترنحون وقد استند كل منهم الى الآخر حتى
لا يسقطوا جميعا .. الا تضدقني ؟ فسوف تراهم بنفسك اذن عندما تصل
الى القرية .

ثم نهض واقفا وقال لكوزماس

- ضح طريوشك فوق رأسك ياسيدي وتعال معي .. ان جدك يموت .. ألم
تسمع ماقلت ؟ انه يريدك لتسبل عينيه ..

ورسعت الام علامة الصليب .. وقالت في ثقة ..

- مصيره الجنة .. لقد كان رجلا طيبا ..

وقال كوزماس :

- وابي ايضا مصيره الجنة . كلنا سوف نصل اليها . لاننا قاسينا الكثير
فوق هذه الارض ..

وهزت اخته رأسها وقالت بضحكة غاضبة :

- ان الله عادل ..

وصاحت الام :

- ان الله رحيم ..

ثم تعبت تبحث عن المبخرة لتوفد بخورا

واستدار كوزماس الى زوجته التي كانت قد نزلت وجلست الى ركن من
الاريكة تستمع في صمت :

- سوف نأتين معي يا كريسولا ..

ولكن كوستانديس تق الارض بعصاه وصاح :

- وماذا تريد من النساء بحق الله ؟ انهن وياه انت تقول : الى الامام
وهن يلقن : فقوا واحيانا يستيد الطموح ببعضهن فيندفعن الى الامام معك
ثم ما يلين ان يلين فيستنن اشفاك ، هل تستطيع عندئذ ان تتركون
خلفك في الطريق ؟ .. هذا خطأ بالغ .. تأخذهن معك ؟ تأخذ معك وياه ..
ولكنك انت السيد الامر .. انت الذي تقدر ، ولكنني قلت كلمتي ..

وقالت الام التي كانت قد ظهرت تحمل المبخرة :

- كوستانديس على حق .. لا تأخذها معك يا ولدي .. ترهقها الرحلة ..

وقالت الأخت في خبث :

- خذها معك .. سوف تتحمل ..

وارتعدت ، نعيمة ، ان تبقى وحدها بلا حماية في بيت كهذا البيت ،
واحست بتقل الموقف ، فودت لو تحولت الى شيء صغير كالحشرة حتى
تخفي تحت اخصان الريحان المزروع في الفناء .. وقالت :

- سوف اذهب معك .. اريد ان اتعرف الى كريت ..

وغمغمت الأخت : ، اذهبى .. ولا تعودى ،

لم تكن تستطيع ان تتحملها ، وكانت تحبس انفاسها كلما اقتربت منها ..

بل لقد خصصت لها بعض الاكواب والاطباق والسكاكين والشوك حتى
لا تختلط بالآخرى ..

وهمست نعيمة وهي تنهض لتستعد :

- سوف اتحمل ..

ولكنها حين نهضت ، احست بالدوار ، واحست بالبيت يدور حولها ،
فاستندت الى الحائط وقد اغلقت عينيها .. كانت طوال ذلك اليوم تحس
بجسدها ثقيلًا .. يضطرب ويختلج ..

واحست بمن يلمس كتفها في رقة ، ورات زوجها يقف امامها وفي يده
كوب ماء ، وايشمت وهي تمد يدها لتتناوله ، ولكنها تهاوت في اغمامة ،
واسرعت الام تحضّر خل الورد تسمح به وجهها وعنقها وهي تقول في
عاطفة صادقة :

- انها مرهقة ..

وقالت الأخت في لصيح :

- لا شيء .. مجرد اغمامة .. حتى انا ، يقسى على ..

واعانها كوزماس واتجه بها الى الفراش وحين افانقت نعيمة وجدت الام
تتحنى فوقها فقالت :

- سامحيتي يا امي .. انا مرهقة ..

وقالت الام وهي تربت في حنان ، لأول مرة ، على شعرها :

- نامي يا ابنتي ..

وانحنى كوزماس يقبل عنقها ويقول هو ايضا :

- نامي يا كريسولا لا تنهبي معي ، ندرعي بالصبر ، فسوف اعود
سريعا ..

وهزت رأسها .. وقالت وقد اغلقت عينيه :

- اذهب .. تصحيك البركة ..

وأسرع كوزماس الي المطران الذي كان في قمة الهياج والغضب ..

- تلقيت الان فقط رد عمك .. هذا البربري .. انه لن يستسلم كما يقول .
انه ليس من حقنا ان ندخل في شئونه ، ان المسيح سوف يباركك اذا انت
ذهبت اليه بنفسك .. قل له ان كريت في خطر بسبب خطئه .. ادخل بعض
التعقل الي جمجمته ، افعل ما تستطيع ، ذلك ضروري يا ولدي سوف افعل
مايرسعي ياسيدي .. سألته ..

وجلست نعيمى فوق السرير تنتظره وهى ترتدى قميص نومها الاصفر
وشعرها الاشقر العسلى ينسدل في خصلات فوق كتفها جلست تستند الي
ركبتيه وهى تفكر . ما اقوى الحب ، كيف قادها الحب الي هذا من اخر
الدنيا .. الي هذه الغرفة حيث المذبح وحيث صلب المسيح - وهى ابنة رجل
الدين اليهودي ؟ .. اه لو لم ار ما رايت وظلت روحى ورقة بيضاء لم يكتب
قوقها حرف .. اى سعادة هناك يمكن ان تكون هنا ؟ وتذكرت الليلة الماضية
حين تمددت فوق السرير الحديدى قبل ان تستسلم للنوم ، والريح تهب
من خلال النافذة المفتوحة تحمل اريج الريحان والاقحوان .. ولم يكن ثمة
كالب يتوج ولا خطو انسان .. وكانت الدنيا تبدو وراء النافذة تحت اشعة
القمر الناعمة ، لم يكن ثمة صوت الا صوت البحر يتناهى من بعيد كأنه
النهدات الناعمة المتصلة المنتظمة .. البحر الذى لا يستطيع مثلها ان
ينام ..

ما اعذبها ليلة .. وما اجدره بالثقة هذا الرجل الذى يردد الي جوارى ..
ويرقد داخل قلبى ..

وادخل كوزماس واغلق الباب خلفه ، وجلس بالقرب منها وهو ينظر اليها
في رقة تتناهى عن الوصف .. نظرة طويلة .. كأنها نظرة الوداع ..
وسألته نعيمى وهى تتشبه بيده ، وقد احسنت فجأة بان رأسها يحترق :

- هل ستذهب ؟

وقال زوجها فى قلق :

- نعيمى .. انت محبوبة ..

وقالت نعيمى ، وهى تضحك :

- لا .. انها ليست حصى يا عزيزى ، مجرد حرارة عادية فيما اعتقد ..
بالوفة فى اسرتى ..

ثم قالت بعدها على الفور :

- تبدو كأنما تؤدعى ..

وكانت توشك ان تقول الي الابد ..

وارتمشت وهى تكاد تبكى .. وتكاد الكلمات تتطلق من فمها : كيف
تتركنى وحدى فى هذا البيت ؟ ولكنها تعالكت نفسها .

- سوف اعود سريعا يا حبيبى .. اريد ان اسبل عيني جدى ..

وامسك بيد زوجته ، وبدت الحياة امامه بسيطة هينة ، الزمن كله تجمع
فى هذه اللحظة القصيرة التى اسك فيها بيد دافئة يد الانسان التى احبها
، كانت تلك اللحظة هى الابد كله ..

وحذقت نعيمى فى زوجها دون ان تتكلم .. ولكن كوزماس هو الذى صاح
هذه المرة :

لا تنظرى الي هكذا كما لو كنت اودعك الي الابد ..

ثم اتحنى يقبل عينيه ، واحس بحرارة على طرف لسانه ..

وقالت نعيمى وهى تريح رأسها الي الوسادة :

- بل انت الذى تنظر الي كذلك ..

وتناهي صوت كوستانديس من أسفل بين :

- أنت ياسيدي .. ان جذك يموت اسرع لقد ملات امك القرارة . احسن
الله اليها .. سوف تأكل وتشرب في الطريق ونحن ننتقل كالرياح اسرع فقد
اقترب العساء ..

وانحنى كوزماس وقبل صدر زوجته في رقة وثقة كما يقبل المرء صورة
مقدسة . وقال :

- وداعا ..

وهمست المرأة وهي تمسك برأسه بين يديها :

- وداعا ..

وظلا هكذا لحظات وهو متمن الى صدرها .. وعيناها مليتان بالركة
والغفران معا .. وعادت تقول :

- وداعا ..

وتنفض كوزماس .. وعاد يريد ان يطبع على فمها قبلة . ولكنها وضعت
يدها فوق فمها وهي تقول :

- لا .. الوداع ..

● الفصل الثالث عشر ●

وجه كريت .. محوس متقلب . فهو في حقيقة الامر تحمل في ذاتها شيئاً ما
عتيقاً ومقدساً . مرا ومتكبراً .. منح الحياة لكل هاته الامهات اللاني يعصف
بهن ملك الموت . وكل هؤلاء الفرسان .

خرج الاثنان : كوزماس ، ومكوستانديس . من ميجالو كاسترو ووصلا
الى حقول الكروم واشجار الزيتون .. كان الأول يسير في المقدمة . والثاني
يتبعه وهو يحمل عصا الرعي على كتفه . وكان الساء يقرب - وصفحة
الارض المنبسطة امامهم مرقطة باللونين الاصفر والاريجاني مثل جد
فهد . وجبال «ميلورينيس» تقف بقمته الشجيرة مؤنسة قوية مطوفة مثل
الجد . وفي المقدمة منها جبال «لاسيث» مؤنسة هي الاخرى تحت اشعة
شمس الشتاء الرقيقة . واسفل منها تمتد الحقول المحروثة حديثاً . بعضها
بني في لون القرعة . والآخر حالكة السواد . وثمة مجموعات من اشجار
الزيتون باغصانها الفضية اللون تنتشر هنا وهناك . وشجرة سرو وعديدة .
وصف من اشجار الكروم العارية من الأوراق يتدلى منها عنقود او اثنان
باعدات جافة .

وحقق كوزماس حوالية في امعان . وبق قلبه بعنف وهو يقول لنفسه
هذه هي كريت . هذه هي الارض التي اناجيتني .. هذه هي امي . عندما
كان يفكر في كريت وهو في اقطار بعيدة . كان ثمة صوت قانس ملح يدوي
يرداه . ولا يفقا يسأله : «ماذا فعلت طوال هذه السنين ؟ .. الا تنجل من
نفسك ؟ أنت تمارب الهواء وتتغير تفمك بالكلمات . ولكنك تطرح جانباً اللحم
والدم .. وتتهدى بالآوهام . لست احييتني .. وهاهوذا يدرع ارض الجزيرة .
فتمتلي . رثاء ياريج الصعتر .. الآن لا يستطيع الفكاهة منها - الآن هو
سدين لها بالاجابة . ولكن اي اجابة ؟ انه لم ينجز شيئاً . بل انه هو نفسه لم

يكن شيئاً .. كانت تلك ايدى الحماة وصدر ام انها مجرد قطع من اللحم ؟
انه اذن لسيء في جبين جنس من البشر صلب لا يقهر . والى اين الان هو
ذاهب ؟ ما احط بالدرك الذي هبط اليه : انه في طريقه لكي يدفن عملاقا من
اهله ولكي يقنع آخر بالاستسلام .. واحس بقلبه يخفق بين ضلوعه .
واستدار الى «كوستانديس» كيما يسمع صوت رجل .

- كوستانديس .. حدثني عن جدى العجوز سيفلاكس . اقرب حتى
اسمعت جيدا ..

ثم اعطاه سيجارة وضعها «كوستانديس» خلف اذنه وهو يقول :
- وماذا اقول يا سيدى . نحن احياء . بينما هو يموت . اى شيء فى
الدنيا لم يفعله ؟ اى طعام لم ياكله ؟ اى شراب لم يشربه ؟ وكى من الأتراك
قتل .. غفر الله له . انتبه جيدا الى ما اقول : لقد كان يبتلع كتلة من الجبن
فى قضعتين اثنتين حين يجىء الى الحظيرة . ثم بعدها كان يقتل بعضاه
أزديا بريئا ويقول لى : «كوستانديس .. اشوهذا الأرنبل لى .. وكنت اشويه
له فينتهى منه فى غضبة عين ولا يبقى منه ولا عظمة واحدة . لقد اكل
وشراب كما اراد . حتى فى ليلة عرسه .. قالوا انه حطم ثلاثة اسرة . لا
تخشك يا سيدى . فهذه هى الحقيقة .

ثم توقف لحظة . وخلق عصابة الرأس وجفف بها العرق المتصبب من
وجهه الداكن .. وعاد يقول وهو يشحك :

- هل سمعت بما فعله عندما تزوج من جدك .

- كلا .. احك لى يا كوستانديس .

- كان اهلهما يرفسون تزويجها منه . فقد كان فقيرا بينما كانوا هم اقوياء
اغنياء من عالية القوم . وكان هو شلعة متوحشة لا يختلف عن مكان فيه
عراك ولا يتوانى عن اقسام نفسه فى اية متاعب حين تستخدم . فيجعل
بندقيته .. ويندفع الى الجبال . ثم يكن اذن من طراز أهل زوجته المسالمين
الودعاء . ولكنه على اية حال بعث اليهم يطلب يدها . كما طلبها له ايضا
راعى كنيسة السيد المسيح . وكانت الاجابية : لا . لا .. نحن لا نزيده .
وكانت اجابية جدك ان قال : «اه .. فهذا اذن سننقلمك .. حسن . فسوف
أريكم ايها المواشى : وفى احدى الليالى . قفز فوق سهوة فرسه واندفع
بها الى قرية عروسية بلا شيء معه سوى سفينة ملأى بالنفط وعلية ثلث
بالاضافة الى شيء آخر . خاتم مخلوبة من الذهب ربط الى عصابة رأسه .

وانتحم القرية وهو يرش بالنفط بيوتها واحدا فى اثر الآخر ويصيح «ايها
الغلامون .. سوف اشعل النار فى بيوتكم . وسمع الكل صوته .. فعرفوه .
وتفن كل واحد منهم من فراشه .. وخرج اهل العروس .. يبحق الرب يا
كابتن سيفلاكس . لا ترتكب مثل هذه الجريمة . وصاح هو «علوانى ليتو» .

- «الا تخاف الله» .

- «لا تخفوا الله فى اعمالى . اختاروا .. النار .. او الخاتم اه» .
وصاح والد العروس سوف يعاقبك الله على هذا العمل ايها المجنون .

وعاد هو يصيح : «النار .. او الخاتم اه» .

- «الا تشفق على هذه القرية ؟»

- «النار .. او الخاتم اه» .

وكان الفلاحون قد تجمعوا فى تلك الاثناء وقد استبد بهم الغضب . اى
سجنون هذا الذى يريد ان يجبرهم هكذا .. ؟ الى السلاح يا اولاد . ولكن
راعى الكنيسة جاء فى تلك اللحظات .. وصاح : «خافوا الله يا اخوتى ..
وحكموا عقولكم . ثم استدار الى والد الفتاة وقال : «ايها العجوز مينوتيس .
ارسم علامة الصليب . انه زوج ابنة مناسب . فاعطها له ووقف الاكثر
حذرا فى صف القس حتى استسلم العجوز وقال : «سوف اعطيها لك ايها
المجنون . ولكن اخرج من هنا الان على الفور» .

«بل ازيدها الان . احضرها الان» .

وخرج الاب يلحن وقد احضر ابنته لتبعها امها وهى تبكى .
والسلى جدك . وحمل العروس تحت ذراعيه واجلسها فوق حلق فرسه .
ثم اطلق لها العنان .. وتساعد الغيار تحت سنابكها . والندف الفلاحين
والقسيس خلقه يلهثون حتى وصلوا الى بيترو وكيفالو عند الفجر . حيث كان
الزواج يتم . وصاح فيهم جدك « الان تعودون اندراجم . وسوف نسف
الموائد يوم الأحد القادم ونرحب بكم .. اما الان . فانا مشغول ..» .
وتناول «كوستانديس» السيجارة من خلف اذنه وهو يقول :
ثم اشعل السيجارة مستخدما قطعة جافة من «عيش الغراب» كصوفان .
ووصل الاثنان الى واد عميق ضيق تنساب فيه المياه غزيرة فوق
الصخور المختلفة الألوان . وسأله «كوستانديس» :

- هل أنت عطشان ؟

- كلا .. دعنا نتابع السير . فلليل قريب .

- أما أنا فأحس بالعطش .. قف :

وأستلقي فوق الصخور . ودفن لحيته وشاربه في الماء . وبدأ يلعب الماء بلسانه كالتمر . وخبيل الى كوزماسه لحظتها انه لن يبقى ماء يعد في الجدول . وبقل يراقب رجل الجبال المقترس . وينظر في اعجاب الى جسده المشقوق والمفتول والى شعره الاسود الفاقم المبلل بالماء . ونهض كوستانديس . واقفا في حركة واحدة . وجفف لحيته ووضع عصاه على كاهله وهو يقول :

- هنا .. على هذه الصخرة التي استلقيت فوقها وشربت . قتلت «حسين» الالباني كاره المسيحيين . جلل الله عظامه بالمطران . ولقد اقسمت يومها ان اشرب من هذا المكان كلما مررت بهذا الوادي .. سواء اذكت احس بالعطش ام لا .

وسأله «كوزماس» :

- وهل قتلته وحدك يا كوستانديس ؟

وكان «كوزماس» قد عرف بالحكاية من المطران في اليوم السابق . تلك الحكاية التي كانت السبب وراء هذه المنحة التي تعرض لها اهل ميغالوكاسترو ..

واجاب «كوزماس» :

- بالطبع .. أنا وحدي . وماذا عسى ان يكون سير ذلك ؟ رجل في مواجهة رجل كما يتم الامور دائما بين الرجال . كنت قد عرفت ان الكلب سوف يدر يهذه الناحية بعد ان اشعل النار في احدى قرانا . وسوف تراها - فقد اسبحنا قريبين منها . وكان قد قتل كل الرجال في القرية . واقسمت ان ان اقله .. فترصدت له هنا .. وقطعت رقبته . ثم تابع السير وهو يسفر بوجهه .

وكانت الظلال قد بدأت تسحب غطاما على وجه الارض . ووصل الرجلان الى القرية المكتوبة حيث لم يكن هناك سوى بيتين او ثلاثة لا تزال حوائطها قائمة . وخرجت من بين الاملال نساء مهلهلات الشباب .. وفتاة

تحاول اخراج فرج من لثاء مملوء بالزبيجان نزل كما هو وسط الاخلال . ثم انزى به الى كوزماسه . وهي تقول «مرحبيا» .

ووصلا الى ميدان القرية . فتجمع حولهما بعض الرجال المستنيرين وبينهم بضعة نساء ما لبثن ان تراجعن بينما تقدم عجوز ضخمة بلرد العظام ترفع قبعتها احتراميا وتحدث باسم الباقين في القرية .

- ليس لدينا مقعد نستطيع ان نقدمه لك لكي تجلس فوقه . وليس عندنا كوب تملؤه لك ماء لتشرب ان كنت عطشان .. وليس لدينا خبز ان كنت جائعا .. فقد احرق الكلاب كل شيء .. عسى انه ان يعرفهم بناره .

وقالت امرأة عجوز :

- وليس عندنا ايضا رجل مناسب ليتحدث اليك ..

ثم بدأت في النحيب والعيول .. وشاركتها امرتان اخريان .. فقال العجوز :

تذرعن بالشجاعة ابنتها النسوة .. ألم يحدث لنا مثل ذلك في سنة ١٨٦٦ ؟ ورغم ذلك فقد بقي عدد قليل من الأطفال استطاعوا فيما بعد ان يجدوا الحياة في القرية .. وطالما ان هناك رجلا واحدا وامرأة واحدة . فلن نعت كزيت ايدا .

ثم استدار العجوز الى «كوستانديس» وقال :

- بارك الله يدك ايها الفارس . وعسى انه ان يخلق جنته ومعك ذات السكنين التي ذبحت بها (حسين) .

واستدار «كوزماس» وقال :

- هيا .. الى اللقاء .

فلم يعد يحتمل ذلك الرعب القاتل المائل امامه .. وفي صمت .. اسند الرجال المسنون ذقونهم فوق عصبهم وهم يتابعون الاثنين بنظراتهم .. بينما مسحت النسوة العجائز الدموع . ووقفت فتاة

امام اطلال بيتها وهي تحرق باعجاب في «كوزماس» وهو يقفز في فتوة من
صخرة الى صخرة .

وكانت الشمس قد بدأت تعيب حين وصلنا الى بقعة صخرارية لا تقف
وسطها سوى بضع اشجار من السنديان تنوح . وضرب «كوستانديس»
البغل بعصاه يستحثه على السير .. وقال :

- يجب ان نسرع اذا كنا نريد ان نصل الى القرية الثالثة قبل ان يهبط
الظلام . وسوف نتوقف هناك عند «كوبيلينا» العجوز . انها خالتي .. وليس
لها منزل . ولكن قبلها كبير وذلك يكفيني . انك لن تجد بيتا قائما في تلك
القرية كذلك .. فقد اقتحمها الاشرار . لعنة الله عليهم .

وبرزت امامهم عجوز نصف عمياء تحمل فوق ظهرها حملا من الخشب ..
وسالها «كوزماس» :

- كيف الحال عندكم يا سيدي ؟
- كما هي الحال مع الكلاب يا ولدي . اه لو ان الله سبحانه لم يجعل
الانسان اكثر مما يحتمل .

- هل هاجمكم الاثراك اتم ايضا ؟
ولكن «كوستانديس» اشار الى «كوزماس» في خلف .. كي يتوقف .
- ماذا قلت يا ولدي ؟ .. ان سمعي ثقيل الحمد لله على أية حال .

- الى اللقاء يا سيدي .. فعلينا ان نتابع سيرتنا .
- هل انت كويتي ؟
- نعم .

- باريك الله .. اتجب اطفالا يا ولدي . ان كويت أصبحت خاوية ،
فانجب لها اطفالا حتى لا يقتل الكريتيون من الدنيا .. ان كويت سوف
تحتاج اليهم ايضا .

وقال مستانديس . وهو يضرب البغل : «ها بنا ..» .

وانطلق الاثنان .

- من حسن حظنا اننا لم تقذفنا بالحجارة . انها «كوستاندينيا» العجوز
ارملة ، العاج . كما يسمونها . حين ترى المسكينة رجلا تقعد اترانها وتلتقط

الحجارة وتقذف بها .. انها تظن كل رجل تركيا .
ويجمع بعض ثمار السنديان الملقاة على الارض . فاكلها بينما
«كوزماس» يتطلع اليه في دهشة .

- ليست هذه ثمار السنديان .. انها «كستناء» .. على الاقل نحن نسميها
كذلك حين يهبط الليل ولا نجد شيئا نأكله . ثم لا نستطيع ان نميز في
الظلام بين شيء وآخر .

واخيرا انتهيا الى ممر بين الجبال . فقال «كوستانديس» . وهو يشير
بيده :

- هذه هي القرية ..
ولم ير «كوزماس» سوى اكوام من الاطلال على سفح الجبل . فقال :
- اين هي ؟ اتى لا ارى شيئا ؟
- امامك .. هذه الحجارة . وبعد لحظات ترى الناس .. وهناك اجست
الكلاب بنا .

واندفعت بعض الكلاب من وسط الاطلال تنبح وقد برزت عظامها من
شدة الجوع . وقال «كوزماس» :

- ومن اين لهم بالزيت يا سيدي ؟ او النفط ؟ انهم يتجمعون كاليوم وسط
عذبة الاطلال عندما يهبط الليل .
وبرزت خمسة رؤوس اوسنة من خلف سفوف الحجارة : «الى اين ؟» .
- الى العجوز «كوبيلينا» التي ستعد لنا فراشا وثيرا في بيتها الملوكي .

واجاب «كوستانديس»
وارتفعت الضحكات .. وقال اخدهم :
- امك قضمة من طعام ؟
- نعم .. معنا بعض شيء .
- حسن . فسوف نأكل كوبيلينا العجوز ايضا . ترى هل معكم ايضا
بعض الشراب ندفء به اجسادنا ؟

- وذلك ايضا معنا .

- حسن - فسوف تدعى كوييلينا العجوز جسدها هي أيضا ..

وعادت الضحكات ترتفع من جديد . وقال كوزماس . في زهول :
« انهم يقدرين على الضحك .. وتوقف كوستانديس . وبدأ يحصى
اكوام الاطلال « اربعة » خمسة » ستة » .. « ذلك بيت خالتي . لن نتحاج
الى ان تطرق الباب .. فليس ثمة باب .. ثم صاح :

- كوييلينا .. اخرجي الى الشرفة .

خرجت من خلف الصخور امرأة عجوز هشة وسط اسمالها .

- « هو انت يا كوستانديس ؟ متى يا ترى تعرف العقل ؟ ومن هذا الذي
معك ؟

- افتح الابواب على مصاريحها . واذهبى دجاجتين واعهدى بهما الى
الخامسة لتنطقهما . تريد احدهما مسلوقة والاخرى محمرة مع البطاطس ..
وافتحى سناديكك كذلك واخرجى الملامات الحورية واعدى لنا فراشا .. ما
اسعدنا بان وصلنا .. متعك انه بملكك .

واجابت العجوز وهي تتعثر نحوها :

- سيكون كل شيء جاهزا على الفور ايها الريح العاصفة .

ورحبت بكوزماس الذي كان قد ترجل وبدأ يتعثر وسط الانقاض .

- مرحبا يا سيدي .. مرحبا يا ولدي . لا تعر سمك لهذا الاحمق

كوستانديس . لقد فرشت ركتا بالمشاش - وذلك افضل ما عندي .. تعال .

وافترشا الصخور . وجمع كوستانديس بعض الاخشاب واشعل نارا .

بينما فتح كوزماس غرارة اخرج منها كل المعون التي زودته بها امه .

وجلست العجوز التي جوارهما وبدوا جميعا ياكلون . ورسمت العجوز علامة

الصليب .. وهجمت على الطعام .

- تعالوا كل منساء يا اولادي .. كل منساء . حتى اجد انا المسكينة شيئا

اأكله . هل معكم شيء من النبيذ ؟

واخرج كوستانديس زجاجة ما لبثت الافواه ان تناقلتها . وظلت

العجوز تشرب وتشرب حتى برقت عيناها . كانت جميلة في شبابه ولا

شك . اما الآن فلم يعد باقيا سوى عيتين واسعتين لا معتين بنيتين .

وقال «كوستانديس» الذي كان قد انتشى بالشراب :

- ما رايك يا عمي ؟ .. هلا سمحتم لي بان اغنى ؟

واجابت العجوز - ضحكة ملك الموت القريبة - :

- اذنت لك .. عن ما نعت حيا ايها الاحمق !

وبدا «كوستانديس» يغنى وهو يمس الانغام . بينما خالته نصت وتقهقه

وقد انفرجت شفها عن فم بلا اسنان .

في احدى امسيات الصيف .

صحبت خالتي ثوبورا الى المدينة ..

لقد اغرقتى جمالك في دوامة ..

اه لو كنت فتاة اخرى ..

ايها الطفل الصغير .. كن رجلا واختر طريقك فسوف اصبح خالك مرة

اخرى .. يوما ما . واحسنت العجوز المأخوذة بان حياة جديدة تدب في

ارصالها . قيادات تصفق بيديها وقد احمر وجهها . واخذ «كوزماس» ينظر

اليها في ايمان وهو يحدث نفسه : «مياالقوة التي يحملها هؤلاء في حشايا

صدرهم .. هذه هي كريت» .

وصاحت العجوز وهي تضحك : «الفقر ايضا يا ولدي .. ينبغي ان تكون

له متعة . ان المعاناة تستلزم الغناء والشراب حتى لا تتعذى على

اجسادنا . ونحن لن نسمح لهذا «الزبون» الثقيل بان يجعل من اجسادنا

وجبة طعام له .. بل سوف نأكله نحن» .

وعندما نهيا الاثنان لمغادرتها في الصباح . التقطت العجوز قطعة من

الحجارة ملطخة بالدماء من ساحة البيت وقدمتها الى «كوزماس» وهي

تقول :

«هذه هي الهدية الوحيدة التي املك ان اقدمها اليك . احتفظ بهذه

القطعة من الحجارة وتذكر معها كريت دائما .. ثم اشارت الى بقع الدماء

الحمرء الداكنة وهي تقول : «هذه هي دماء ابني» .

ومرة أخرى سار «كوسنتانديس» في المقدمة وعصاه على كاهله .. يعني بلا انقطاع ، بينما «كوزماس» ورامه ينظر الى مسقط رأسه الذي يمتد حواليه والذي يمارس الآن ولأول مرة - تجربة ادراك معناه الذي غاب عنه طويلا : ثائرة ، قاسية هذه الارض .. ما اصعب فهمها . انها لا تتيج لابنائها لحظة واحدة من الراحة او الرقة او الاسترخاء . وان فيها لشيئا ما غير انساني . وان المرء ليحار في امرها . اهي تحب ابنائها لم تكرهمهم ؟ .. ولكن المؤكد انها تظل تفرعهم حتى تسيل دماؤهم .

واستدار ينظر الى ابي لكوام المسخور التي كانت قرية من قبل ، والتي كان يبدو خلالها بعض النسوة والاطفال . وتناهت الى سمعه اصوات وضججات هائفة تكمن هنا ، وباليها من نفوس . اربعة الاف سنة وهم يكافحون وسط هذه البرية والصخور .. يكافحون الجوع والعطش والتناحر والموت . ولكنهم ابدا لم يركعوا . ولم يشكوا . بل ان الكريشي ليجد العزاء حتى وسط اعرق واقسى حالات اليأس .

وعندما أصبحت قرية الجلد على مرمى البصر . كانت الشمس في كبد السماء تماما وشمة ريح جنوبية حارة تهب اثنية من جزيرة العرب والبحرقد بدأت تبين صفحته خلف الجبال .

وكان بيت مسيفاكلس العجوز يقف على اعلى ربوة في القرية . متميزا بمصارات النبيذ ومصارات الزيت والحظائر والمخازن التي تمتلئ بالجرار في صفوف والشرفات الواسعة حيث توضع البسط والوسائد في اكوام تصل الى السقف في اثناء الصيف . وغرف النوم المسيجة في الطابق الاول . وكانت الابواب مفتوحة على مصاريحها . والناس يدخلون ويخرجون بعد ان يسألوا عن احوال الفارس العجوز الذي ظل يكفاح ملك الموت سنين طويلة . وكانت زوجات ابنائهم .. وكان احفادهم . يصعدون ويهبطون وهم يحصون الجرار ويقيمون ما بداخل المخازن من الدقيق والزيت .. ويتصمون على اباريق النبيذ في قبو الخمر .. ويحصون كل شيء عددا : كم قطعة لحم معلقة في عوارض السقف ؟ كم قالبيا من الجبن ؟ وكانوا يعلنون بسوت مرتفع عن العدد من كل صنوف والذي سيره كل جانب . كانوا يرثون الجد

وهو لا يزال على قيد الحياة . ومن يعيد صباح فيهم العجوز في غضب : «احملوني الى الغناء حتى لا اسمعكم» .

واعدوا له فراشا في الغناء . فقال : مضعوني فوق الارض تحت شجرة الليمون اريد ان اللفظ اخر انفاسي هناك حيث تلمس الارض جسدي وحيث المس انا الارض . وارفعوني عن الارض قليلا بما يكفي لان ارى كل شيء حولي .

ووضعوا خلف ظهره بعض الحشايا . وجعلوا عصاه الى جانبه .. وكوب ماء ليشرب . والآن دعوني وحدي .. اغربوا عن وجهي . لا اريد بجانبي سوى ثاراساكوي . واجال البصر حوله ليرى الحظائر والعصارات والنافوة والاحواض وشجرتي السنو على يمين الباب وشعالي . وتتسم الهواء ورائحة

اوراق الليمون .. والروث . فاحس لحظتها بالبهجة وتحسس لحيته في ارتياح وسمع تنهيدة الى جانبه فاستدار ليرى شابا منتصب القامة موج الشعر يقف الى جواره وينتظر .

- حسن .. من تكون ؟

- كوسنتانديس .

- ابن من ؟

- ابن ولدك نيكوليس .

- ولماذا تقف هكذا قريبا مني ؟

- موتك يستغرق وقتا طويلا يا جدي . وانا في عجلة من امري .. اريد ان اعود الى حظيرة الخراف .. اريد ان انصرف .

- فلانصرف اذن ولا تنتظر هكذا بلا فائدة اذهب وارح خرافك جيدا . اما انا فسوف اموت على مهلي .

وانحنى الحفيد وقبل يد جده وهو يقول :

- لا .. لان اذهب الا اذا منحنتي بركتك . انتي انتظر منذ الصباح الباكر من اجل ذلك .

- حسن .. فاني امنحك اذن بركتي .. فاذهب . ولكن استمع جيدا الى ما اقوله : واذهب الى الداخل اولا ومرهم بان يحسروا المواعد في الغناء

ألمسى حتى يأكل الفرسان الثلاثة هنا وحتى أراهم وهم يأكلون . ألا يزالون يأكلون ؟

- بلى .. لا يزالون .. منذ البارحة مساء . اعنى منذ وصلوا . انقسم لك يا جدى بأن افواههم لم تعرف الراحة منذ البارحة . انهم يتألمون أحيانا للحظات فيسند كل منهم رأسه الى كتف الآخر . ثم لا يلتفتون ان يفقوا ليستأنفوا طعم الطعام يأسنأنهم . والمدرس أحضر معه قيثارته ليعزف عليها أمامهم .. والكلى لا يتكلم عن مضايقة النساء .

- ما الذى دعاك إليها الفارغ الرأس ؟ .. أصمت .. افعل ما أمرتك به . المواد تنقل الى هنا حتى أراها . وإذا لم يستطيعوا الحركة فساعدهم أنت يا كوستانتينس . ولا تسحك أنهم فرسان ويستحقون الاحترام .. هيا .. وظهر «شاريديموس» .. وكان جده قد بعث به الى الكابتن ميخائيليس ليحبل اليه اخبار احتضاره . ورفع العجوز عينيه . وراى شاريديموس :

- اى اجابة تحملها الي ؟ هل سيأتى ؟

- ايه يقول لك ، لا أستطيع ترك موقعي يا أبى . سامحنى . ولكننى لا أستطيع ان أترك موقعي . امنحنى بركتك من بعيد .. ووداعا .. وعسى ان نلتقى قريباً .

- انه على حق ، انه اخطأ مرة واحدة . وقد تعلم منها . انى امنحة بركتى من بعيد .

ورفع يده ببارك الهواء . ثم استدار الى «تاراساكي» وقال :

- «تاراساكي يا صغبرى . هل تفهم ما يجرى ؟

- نعم يا جدى .

- افتح عينيك جيداً يا «تاراساكي» لترى كل شيء بوضوح . واقفح اذنك جيداً لتسمع كل شيء بوضوح . لا يفكك شيء مما تسمع وترى .. الآن سوف يجيء ثلاثة جيال - الفرسان الثلاثة .

وبينما كان لا يزال يتكلم . ظهر «ستافرووليوس» النجار بالباب . وكان الجدى قد بعث فى طلبه ليأخذ مقاسات نعله . واقترب فى بطه وتردد . وكان الجدى قد أغلق عينيه قليلاً وتظاهر بأنه لم يره .. وانحنى الرجل وبسط لراعية فى حذر ليبدأ القياس . وتساؤل فى محاولة لتهدئة العجوز :

- كيف حالك يا كابتن سيفاكاس ؟ أنت اليوم على ما يرام والحمد لله . وسوف تهزم ملك الموت ولا شك .

ورأى العجوز كيف يحاول النجار ان يأخذ المقاسات فى حذر وهو يرتعش . فابتسم فى كفه .. ثم أخذته الشفقة بالرجل فقال :

- لا تخف يا ستافرووليوس يا أحمر . واحضر مسطرتك وخذ المقاسات .

وقال النجار فى زهول :

- ماذا قلت يا كابتن ؟

- ايها القمى . ابدأ عملك وخذ المقاسات .

وخيل الى الرجل ان العجوز يبحث عن عصاه فأجفل . وأخرج شريط القياس من حزامه ووضع بهداه الصد الضخم . وسأله العجوز :

- كم الطول ؟

- ستة أقدام تماماً يا كابتن .

- اذن فقد انكسنت . فس العرض كذلك .

وقاس «ستافرووليوس» العرض .. ثم توقف .

- هيا .. واسرع يا قمى . اريد من خشب جيد . اذيك خشب جوز ؟

- بالتأكيد يا كابتن .

واستدار العجوز الى «تاراساكي» .

- هل تستطيع تمييز خشب الجوز يا «تاراساكي» ؟

- نعم يا جدى .

- حسن .. فتأكد اذن من انه لن يفشنا . اريد من خشب الجوز ..

انصرف .

وكانت النسوة فى تلك الاثناء يحملن المواد الى الفناء ويضعن فوقها للحم المشوى والمشويات واباريق النبيذ وكنوس الشرب النحاسية . وتحرك العجوز قليلاً برأيهن . وطلعت نعلتان حول رأسه الضخم كثيف الشعر . وبدأ بعض النمل يجوس فوق صدره الذى يكسوه الشعر فيحس لذغفته بالمتعة .. وسأل :

- اين الفرسان ؟

- هاهم قادمون يا جدى .

ولاح الثلاثة يسهبون فى بطه يسند كل منهم الآخر . وقد انحرقت

رؤوسهم .. وايتلت شواربهم وتهدأت .. واتحلت أحزمتهم العريضة
الحمراء ، سراويلهم منتفخة من صوف سميك ، واحذيتهم مهلهلة .. وكل

واحد منهم يضع خلف أذنه زهرة القحوان .

وهمس واحد منهم للآخرين :

- فلنتماسك ونحن نسير يا اخوتي ، حتى لا نلجأ على أنفسنا العار .

وقال المدرس الأبرج ، وقد استنوه بينهم :

- امسكوا بي جيدا حتى لا اسقط .

كان المسكين في حالة يرثى لها من السكر ، وقد تدلت قيثارته من
كتفة ، وكانها حزام خراطيش ، والى يمينه سار الكابتن مانداكاس ،
شامخا في طوله ، بلحيته القصيرة وعنقه القوي وعظامه الملية وأذنيه
العملاقتين وقد لمعت في خاصرته عذاراه الفضيتان ، الى اليسار كان
الكابتن مكاستيرماس ، القرصان وقد لوح هواء البحر وجهه ، بوجهة
الوحش وعينيه الحولابين ، وعندما رأوا العجوز .. توقفوا .

وصاح مانداكاس وهو يزار بالضحك :

- الا نزال حيا يا سيفاكاس يا اخي ؟ ونحن الذين كنا ناكل ونشرب
ونقول : «كان الله به رحيماء» .

وقال العجوز :

- ان تأكلوا وتشربوا المزيد يا فرسان ، لقد سمعت ان افواكم لم
تسترح منذ البارحة ، فمضى ان تمثلون حتى تنسوا المعدة فستطيع ان
نتبادل الحديث كالرجال ؟

واستعد المدرس للكلام ، ولكن الكلمات تدرجت داخل فمه مثل قطع
من حجر السوان ، وغلى مكاستيرماس ، وجهه بيديه وقال : «اهدأ ايها
المدرس ، والا فسيريون الام ال حالنا» .

ثم اتجه بالحديث الى سيفاكاس ، في صوت محترم ، وهو يضع يده
فوق صدره :

- طال عمرك يا كابتن سيفاكاس ، كم نحن سعداء بأن نرورك في بيتك .
لقد اكلنا وشربنا ولسوف ناكل ونشرب المزيد في صحتك ، وبعدنا سوف
نتبادل الحديث مثل الرجال كما تريد . فلا تتعجل .

واجاب العجوز :

- لست انا الذي اتعجل ، ولكنه اخيري -

- من ؟

- ملك الموت -

وقال الكابتن مانداكاس ، وهو يفتل شاربه :

- نحن ثلاث زعماء .. وبك يكتمل عددنا اربعة ، ولابد انن ان ينتظر
وتمايل الثلاثة معا مثل وحش ذي رؤوس ثلاثة والقدم ست ، وامسكوا
المدرس من عنقه حتى لا يسقط فوق الأرض ، وكان الاخفاد وزوجات
الابناء قد خرجوا وبدووا يضحكون بصوت مرتفع لمشهد الأبطال
السكراري ، ولكن العجوز صيفاكاس صاح في غضب :

- علام تضحكون ؟ انهم فرسان ، رجال اشداء .. امسكوا بهم جيدا
حتى لا يسقطوا .

وصاح الكابتن مكاستيرماس ، هادرا :

- اذا اقترب احد مني سحقته جميعته .

وتخلص من زعمليه ثم اتجه الى الموائد بخطوات واسعة -

واخيرا وصل الثلاثة ، وجلسوا فوق عروشهم ، وملأوا اكوابهم ، ورفع
المدرس قيثارته عن كتفه ووضعها فوق ركبتيه ثم تناول قطعة من اللحم
ليقوى بها نفسه قبل ان يداعب اوتارها .

وبينما كان يتناول قوس القيثارة ، وصل مكوزماس ، فراه الجد وزوى ما
بين حاجبيه حتى يعرف من يكون .

- من هذا الهزيل الواقف عند عتبة الباب ؟

واتجه نحوه مكوزماس ، وهو يقول :

- حفيدك يا جدى -

- اي حفيد ؟

- ابن ولدك كوستاروس .. اول الاخفاد وصاح الجد مرحبا وهو يمد يده .

- مرحبا . تعال .. اقترب حتى امسكك بركتي .. أين كنت طوال هذه
السنين ؟ ماذا كنت تفعل في بلاد الفرنجة . ما الذى تعلمته هناك ؟ نعم ..
لو كان لدى مزيد من الوقت لاسالك ولتجيب . ولكن زيت المصباح نضب

والذئبا بدأت تلطم .

وانتمى مكرزماىس ، ليرتلقى البركة وظل الجد ممسكا بيده لا يريد ان يدهه بنهض واقفا على قدميه .

- يقولون انك تكتب ، فما هذا الذي تكتبه بحق الاله الذي تعبده ؟ سوف نصبح اذن مثل «كزياراس» الشاعر الذي يجوب القرى ويعبر على الناس ويبيده طبق يجمع فيه القلود .

وبدا الجد يتفحصه بعينه الصغيرتين المادتين . اى صنف من الاحفار هذا الشاب ؟ ائمة قيمة له ام لا ؟ وكيف اتفق ان بذرته اثمرت مثل حامل اللقم هذا ؟

- متزوج ؟

- نعم .

- يقولون انك اخترت يهودية .

وقال مكرزماىس ، وهو ينظر الى العجوز فى قلق .

- نعم .

- ليس فى الامر خطأ ايها الاحمق . ان لهم هم ايضا ارواحا . والذي خلقنا جميعا اله واحد .. انت اصبحت ، احببتها فاخذتها مثل فارس . لا بأس مادامت محترمة وسيدة بيت وحسلة المنظر وتتجلب أطفالا - لا نطلب فى المرأة اكثر من هذا .

- لقد اعتنقت المسيحية يا جدى . ان لها روحا طيبة وسوف تحبها .

- وهل هناك ثمة لحم ، يكسو عظامها ؟ .. فماذا ستفعل المرأة

بالروح ؟ .. الجسد هو وحده الذى تنمو فيه البذرة . منذ متى تزوجتها ؟

- منذ عامين يا جدى .

- والاولاد ؟

- ليس بعد ..

- انت اذن ، لست متعبلا ، فماذا تعلان اذن كل ليلة ، ايها

الاحمقان ؟ اننى اريد اولاد احفاد من الصلب ، طيبها ان تجيب كرتيين .. اسمعنى جيدا : كرتيين لايهود . وخذها تصبحة - اخذ الكتب .

- انها حامل يا جدى .

- بركاشى .. فلتسبه ، سيفاكاس . هل سمعت ؟ هكذا يقوم العوتى مرة ثانية . والان الذهب .. تحرك جانبا .

ونظر الى «كاثيرينا» زوج ابنة والتي كانت تقف خلفه بذراعيها مطويتين . فقال لها :

- ضعى وسادة اخرى خلف ظهري . اريد ان اجلس مستقيما حتى اتكلم ، وهاتى لى بعض زهور الليمون لاشمها . وعندما يتكلم الفريسان لا اريد ان اسمع صوتا منكم ، افسحى . فانا اريد ان اتحدث الى الكبار .

وكان الكبار فى تلك الاثناء قد انهكوا مرة اخرى فى الاكل والشرب . وكان المدرس قد اسند راسه الاسود الى جذع شجرة سمو وبدأ يقضى بمصاحبة قيثارته والدموع فى عينيه :

وراء الحمايم ... دخت طول اليوم نعدت تخيرتى .

فنظر فى النهاية .. اسعد قلبنى .

وقعت يا حلماتى ..

وسفقت الجد بيديه وصاح :

- والان الفريسان . الا تزال بطونكم النعسة تحتاج الى المزيد ؟ الان كلنى . فامسحوا لساكم واغسلوا ايديكم وشدوا احزمتكم واقتربوا .

ومن كلمات اريد ان اقولها . فمن اجلها دعوتكم . وانت ايها المدرس . ضع هذه القيثارة على كتفك ودع الحمايم والخبيرة وكل شيء . فقد كفانا منها الان .

ثم استدار الى النساء والاحفاد وقال :

- يا اولاد . احضروا لهم ماء ليقتلوا . ويضع الطيب حتى تزول هذه الروائح العفنة منهم . نطقوم . وهندموهم . يا اولاد قبل ان يقتربوا مني .

واحضرت الفتيات الطيب ورششته فوق الرجل العجوز . واحضرن خل الورد لكن يستشفه الرجال فيبقوا . وعاونهم حتى اقتربوا من الجد . واصبح اثنان منهم الى يمينه والى يساره . اما المدرس فقد جلس امامه القرفصاء .

ولفت . سيفاكاس . العجوز ذراعيه يحيى الزعماء كما لو كان يراهم لأول مرة :

- الف مرة مرحبا بكم في بيتي المتواضع .. مرحبا بك يا كابتن . مانداكاس . ايها الفرسان الشديد اليباس في اعالي البحار . وبك انت ايضا ايها الكابتن المدرس الذي حارب وسط ظلالنا والذي كتب اوراق الثورة .. وكتب ما كان ينبغي كتابته للاتراك والفرنجة ..

وقال الثلاثة وقد وضع كل منهم يده فوق صدره :

- التحية لك يا كابتن سيفاكاس ..

وازهقت الكلمات العجوز . سيفاكاس . . فتنفس بعمق . وشرب جرعة ماء . ثم عاد مرة اخرى ليتكلم :

- يا اخوتي . هل تذكرون كيف اتنا كنا نحن الفرسان نجتمع عند كل ثورة تحت شجرة سنديان او في احد الاديرة ونردد الاقسام . ويقبل كل منها الآخر لاننا كنا نخرج بعدها لنلتقى بالموت ؟ .. ان اجتماعنا اليوم شبيه بمثل هذه الاجتماعات وهو كما ترون يتم تحت شجرة ليعون العجوز . سيفاكاس . . اعلموا انني كنت منذ ايام وايام اتمنيا للرحيل . ولكنني لم ارحل بعد . لقد ادليت باعتزافي .. ولكنني لم ارحل . وان ارحل ايها الفرسان قبل ان تتبادل نحن الاربعة الحديث .. هذه ايضا ثورة . فانا

سيكون قرارنا ايها الاخوة ؟ .. هل سمعتم ماقالت ؟ هل اذعانتكم صافية ؟ هل تستطيعون الاستماع والكلام ؟ ام تراني اهدر كلماتي واضيعها عبثا ؟

وقال الثلاثة وهم يضعون ايديهم فوق صدورهم وكانهم يقسمون :

- نستطيع ان نسمع .. وان نتكلم .

- حسن . فاستمعوا الى اذن . لقد بلغت من العمر مائة عام . وانتم جميعا تشهدون جميعا بانني حازيت .. وعملت . وبانني سعدت وحزنت . وبانني ادبت واجبي كرجل . وهاقد حانت ساعتى . فالارض تفتح لى بابها .. وهى تريد كما يبدو ان تتلغنى . حسن . فلنتلغنى ولناخذ منى بنارها .. ولكنها لن تتلغنى باكملى انظروا ماذا تركت وراى .

ثم اشار الى ابناءه واحفاده وحفيداته وابناء احفاده ..

- شعب باكمله . من اجل هذا فانا لا اكره الموت . فقد قهرته . ان الشيطان قد نال منه افضل مالديه .. ولكن شمة امورا تقلقنى .

وتوقف قليلا وهو يتنهد . ثم قال فى صوت ارتعش لأول مرة :

- لى زمان طويل ايها الفرسان واننا لا نستطيع النوم . شمة دودة تصابقتنى ..

وعاد ينظر الى الفرسان واحدا بعد الآخر . ثم اخنى رأسه وسأل فى صوت مرتفع :

- هل سمعتم ماقالت ؟ انتبه . ان عينيك تتعسان ايها المدرس .

وقال المدرس فى غلظة :

- اننا متصتون . اى دودة ؟

- دودة تنهش فى لحمى يا اخوتي . انى لا استعرض حياتى وانظر الى

موتى .. وأظن أفكر وأفكر : من أين جئنا يا أولادى وإلى أين العصور ؟ ..
تلك هى البودة التى تهش فى لحمى .

وسبب الصمت .. وارتعشت شفاهه . وبدأ الغلق يساور الفريمان الثلاثة .
وحك المدرس رأسه الأضلع وفتح فمه يتكلم . ولكنه راجع نفسه .. فلم يكن
يعرف بالضبط ما الذى يمكن أن يقوله .

وعاد العجوز يسأل :

- ألم يفكر واحد منكم فى ذلك من قبل ؟ ألم تضايقكم هذه البودة أبدا ؟

وأجاب الثلاثة :

- أبدا ..

- وأنا أيضا طوال حياتى .. والله يعلم .. ولكنى لم أعد أستطيع النوم فى
الأيام الأخيرة . لمن كنت سأسرر حزائى ؟ أن أحفادى صغار - فى
الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، وعقولهم ليست ناضجة بما فيه
الكتابة . وما كان يعقروهم أن يفهموا ما أقول . لو كان وادى البكر
& كوستاروس & حيا . لكان الآن فى السبعين من عمره ولكن قد بدأ يفهم
مثل هذه الأمور . ولكنه أصبح رمادا فى & أركادى & . ومن أجل هذا قررت
أن ادعوا الى هذا الاجتماع وأن أبعث فى طلب رفاق الشباب لأتكم معهم
يا من أيديكم ملأى بالحبوب مثل سنابل القمح أيام الحصاد . ولعلمكم قد
توقعت شيئا ما حين دعوتكم . تكلموا . افتحوا قلوبكم .. ولنتشاور معا
ونبحث الأمر فلست أريد أن أموت أعمى . أنت ياكابتن & مانداكاس & الذى
ستتكم أولا . فانت الأكبر سنا بعدى . كم كان عمرك فى سنة ١٨٢١ ؟

- احدى وعشرون سنة ياخى سيفاكاس . هل نسيت ؟

- وأنا كنت فى الثلاثين تقريبا .. أكبر منك بثمانى سنوات . أنت إذن
أول من يتكلم . فانت عشت وتمنطقت بالحزام سنين عددا . ماذا
تعلمت طوال هذه السنين ؟

ورفع الكابتن & مانداكاس & يده الى فمه .. ثم أخذ يتحسس لعينه
الكثيفة فى بطنه .. واستغرقه تفكير عميق . حتى قال فى النهاية :

- أمن أجل هذا دعوتنا ياكابتن سيفاكاس ؟ ذلك يعنى متاعب حمة
بالنسبة لنا أنت تطلب منا ثمنا باهظا فى مقابل النييد واللحم الذى قدمته
لنا . مارليك انت ايها المدرس ؟
وصاح العجوز :

- دع المدرس وشأنه .. كلمنى .. ألم تتعلم شيئا من كل السنين التى
عشتها ؟ لاتف أو تدور . تكلم بشجاعة مثل الرجال .

وأخرج الكابتن & مانداكاس & علبة الطباخ من حزامه ولف نفسه
سجارة . ثم قال بعد هنيهة :

- أنت تضع السكين فوق حلقى ايها العجوز سيفاكاس . ماذا أقول لك ؟
بل وكيف أبدا ؟ لقد عشت حياتى كلها مثل رجل أعمى . تماما كما وصفت
أنت نفسك .. ولكنى لا أندم عليها . كالأعمى كنت أغشى الكنيسة وأوقد
الشموع وأركب أمام المذبح . وكالأعمى بذرت وحصدت . وطمخت وأكلت
خبزى . والآن أنت تسألنى - فهلا منحنتى فرصة أعصر فيها ذهنى بحق
الله .. حتى تخرج منه القطرات ؟ .. هل أنت فى عجلة شديدة من أمرك ؟

- حسن . سوف أصبر . فأعصر ذهك كما شاء ياكابتن
& مانداكاس & ..

- وندى الكابتن & مانداكاس & ابنه بالثبتي والذى كان يقف خلفه :

- ينانكوس .. احضر غرارتى .

وانتظر الكل فى صمت . واستدار الجد الى & كوزماس & وقال :

- احضر مقعدا واجلس حتى لاتتعبد . واستمع جيدا . هل تعلم

ما أقول ؟

- افهم يا جدى ..

- وأحضر ، ياناكوس ، الغرارة ووضعها أمام أبيه بالتبني . وبدأ العجوز
مائداكاس ، يقلب يده داخلها حتى أخرج اناء زجاجيا واسع الفوهة
ومكسوا بالجلد .

وسأله الجد وهو يشرب بعنقه :

- وماذا تضع داخل هذا الاناء ؟

وضحك الكابتن ، مائداكاس ، فقال الآخر فى غضب :

- أهذه أجابتك ؟ .. ماهذا الاناء ؟

وقال ، مائداكاس :

- بعض الناس يحتفلون فى غراتهم بالخيز والنبيذ واللحم عندما
يخرجون الى السفر . وأنا أفعل مثلهم . ولكننى أخذ أيضا هذا الاناء الذى
تراه ..

- ماذا بداخله ؟ لا أرى جيدا .

ورفع الكابتن ، مائداكاس ، الاناء قريبا من عينى ، سيفاكاس ، العجوز
وسقطت فوقه أشعة المساء .. فبدأ أحمر متوهجا .

- أمازالت لاترى شيئا ؟

وقال الجد :

- قطع من اللحم تعوم فى الماء ..

- انها ليست قطعة من اللحم أيها العجوز ، سيفاكاس ، انها اذن ،
وهي ليست فى ماء ، ولكنها فى خمر . فى ذلك اليوم من عام ١٨٢١ عندما

استقطنى أحد الأتراك فوق الأرض وقضم اذنا من اذنى الاثنتين . أسمعت
أن قطع اذنا من اذنى كل تركى اقتله ثم أضعها داخل هذا الاناء .. ولكنى
أحكى لك قصة حياتى ياكابتن ، سيفاكاس ، فانه يكفىنى أن أنظر الى اذن
يعد أخرى من هذه الاذن المحفوظة فى الخمر .. ثم أحكى لك قصتها .
هذه الاذن مثلا فى أسفل الاناء . هذه التى بنبت منها الشعر - هي اذن ذلك
الوحش صياد الكريتين ، على بك ، كان قد قتل أخى ، يانا جيس ، ثم عاد
الى ضيعته فى « ريشينو » ليقتل مع حريمه . ولقدس السبب أبقى
المصابيح مضيئة فوق البرج . وفى ذات المساء جلست أنا فى المقهى
التركى وبخنت ، النرجيلة ، وطلبت من التركي الذى يعد الفحم أن يحضر
لى بعض الفحم الملتهب ، لأن نرجيلتى توشك أن تنطفئ ثم أسرع
على الفور أضف فم النرجيلة جانيا ، وأعدو خارجا وكان جناحين استقرا فى
قدمى ، واندفعت وسط الحمول متجها الى ضيعة ، على بك ، .. وصعدت
الدرج عدوا .. واندفعت الى غرفة نومه حيث كان يرقد مع زوجته ، وألقيت
نفسى فوقه وقصلت رأسه عن عنقه . ثم قطعت اذنه ولفقتها بمندىلى .
وعدت الى المقهى فى ذات اللحظة التى كان الرجل التركى يعود فيها حاملا
الفحم الملتهب . وامسكت بفم النرجيلة وبدأت ادخن . ولم يلحظ أحد اذنى
غيبت عن المقهى . وفى اليوم التالى - وعندما انتشرت ابناء مقتل ، على
بك ، صباح الباشا ، لايد أنه مائداكاس ، ... ولكن الأتراك الذين كانوا فى
المقهى أقسموا بأن الكابتن مائداكاس كان يدخن النرجيلة فى مقهى
، حسن ، طول المساء .

ثم اشار الى اذن أخرى وقال :

- اما هذه الاذن اللطيفة الداكنة ذات الحلقة ، فهي لوأحد من المغاربة
كان يدعى « رمضان » .. وكان هو الآخر جزارا .. جلال الله عظامه
بالقطران .. واجهته ذات مساء وهو وحده على شاطئه ، تريببى ، خارج
، ميجالوكاسترو ، .. وقالت له ، يارمضان .. الا تتششى اذنى ؟ ، وأجابنى
الكلب ، بل هو الذى يخشائى . فانا رمضان .. وقلت له وأنا استل
خنجرى : « وأنا مائداكاس » .. أخرج خنجرك أنت الآخر ، - ولكن
خنجرى ليس معى ، أنت تهاجمنى وأنا أعزل أيها الكافر ، - معى
خنجران ، فأخترك واحدا منهما ، وألقيت اليه بالخنجر الذى اختاره فرمعه

عاليا ، وبدأ القتال بيننا فوق حصياء الشاطيء .. وظلنا نتقاتل ونتقاتل حتى هبط الليل . وكانت الدماء تسيل فوق اجسادنا والعرق يتصبب منها ونحن نغلى كالبركان . ثم نزلنا الماء حتى نبرد اجسادنا فصار الماء أحمر اللون . ولم نتكلم ، ولكننا فقط كنا نهدر كالثوران . ومر صديق لهذا المغربي أراد أن يساعده ، ولكن الرجل صاح فيه « سوف أقطعك كالسوردين إذا أنت اقتربت ، دعنا وحدنا وانصرف » وقلت له لحظتها « مرخي يارمضان ، أنت فارس ولاشك ، فأجابني قائلا ، وانت أيضا فارس .. ونحن الاثنان وحشيان مفترسان » - ولأبداً إن يموت أحدهما اذن .. وانفجعت نحوه من جديد صارخا ، فأجفل ، ففقت مباشرة نحو عنقه وغرست خنجرى فى قصبة الهوائية كما لو كنت تدبح خنزيراً سمينا ، ثم أخذت أذنه بحلقته .. وهامى ذى .

ثم عد أصابعه وقد ادغاته تكريات أعماله البطولية .. وتابع الحديث :

- أما هذه الاذن التي بدأ لونها يتحول الى الأخضر ، فهي اذن الجزار مصطفي . وهذه التي فى الوسط اذن رجل الباني .. أما هذه المعركة فهي لواند من الائمة .. للجنة عليه . لقد كان صوته أشبه بالجرس . وكان من الواجب على أن أقطع لسانه وأحفظه هنا أيضا . وهذه الاذن التي جوارها ، والمستديرة مثل المحارة فهي اذن « بيرتيف ائندى » ذلك الشاب الوقح .. الأنيق مثل الصورة المرسومة والذي كان يشبه القديس جورج . كان بمقدورى أن أصير عليه ، لقد كان يعتلى صهوة جواده ويتطلق فى أحياء الكريستين ويغرى نسامم . ولم تكن هناك واحدة تستطيع مقاومة سحر ذلك الكلب . وكان أمرهن يحزنتنى ، فاندفعت يوماً الى داخل بيته ، وتقاتلنا داخل حجرة تومه . وكان هو هش البناء أسففته النساء ، فلم يبد مقاومة شديدة .. ومن ثم ، قطعت عنقه الرقيق وأخذت أذنه المستديرة .

إن هذا الاتاء الزجاجى يحتوى على ثورات كريت . ولم يكن بمقدورى أن أجمع أذان الذين قتلتهم أثناء المعارك . ولكن .. ها هنا ثورون ثورات ١٨٢١ - ٣٤ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٧٨ .. اننى الآن صرت عجوزاً .. فلم تأت الثورة الأخيرة بأذن جديدة تضاف الى هذه الأذان .. والحق اننى كنت وحشياً ضارياً .. ارتكبت أفعال الاعمال ، وليسامحنى الله . كنت اندفع خارجاً من

بنتى عندما تندلع كل ثورة وادع أطفالى وحقول الكروم والأرض لم تحترق بعد .. ثم امتننى صهوة جوادى والحق بفاشى الكابتن « كوراكس » (تعنى الغربان) -

وعندما تذكر ذلك الاسم الشهير ، تنهد فجأة .. واستطرد يقول :

- لا أحسب أن الدنيا كلها سيخلق فيها رجل قوى مثله . من تكون نحن بالمقارنة ؟ مجرد أشكال مضحكة . لم يكن أحد يجزى على المزاح أمامه .. ولم يسمعه أحدنا يضحك مرة . كانت عيناه مستديرتين سوداويتين قاسيتين مثل عيني نسر ، ولم يكن يخطئ أبداً . لم يكن يشرب .. ولم يكن يسب أو يلعن ولم يكن يجزى وراء النساء .. وعندما كان يخرج الى المعركة ، كان يحترق جسده فرسه بمعاذاه ويسب رسامه فوق الأتراك . ولم يكن يدبر رأسه حوله ليرى ما اذا كان أحد يتبعه ، ولم يكن يعين النظر أمامه ليحصى عدد الطرايبش التركية . ولم تكن تمسه أية رصاصة .. الحق انه لم يكن رجلاً .. لا .. وليسامحنى الله ، لقد كان ملاكاً .

وعاد يتنهد .

- .. ولم يكن يتقصه سوى أجنحة الملاك وكان المعجزة سيفلاكس . يسمع وهو يتعلم فوق الوسائد ، ولكنه أظهر صبراً محموداً وهو يشم أوراق الليمون . وأخيراً .. لم يعد يحتمل ، فصاح فى غضب :

- ضح هذا الاتاء فى غرارتك ياكابتن « مانداكاس » فليست هناك حدود لأعمال الرجال الوحشية . أحب الآن على سؤالى : ماذا تطعت اذن من كل هذه الأذان ؟ والام وصلت ؟ طالما أنك ترى حياتك كلها داخل هذا الاتاء ، فقل لى اذن : اكان طريفك الذى سلكته صحيحاً أم أنك تندم على كل ما فعلت ؟

وصاح الكابتن « مانداكاس » وقد فقد أعصابه :

- أندم عليها ؟ لا . ولو اتبعت لى أن أبداً كل شيء من جديد ايها المعجزة سيفلاكس . فسوف أتزوج نفس المرأة ، وأنجب نفس الاولاد . وأقتل نفس الأتراك - وربما المزيد - وأرتدى نفس السراويل . وأضع نفس الحزام

ونفس الحذاء .. لن أخير من كل ما فعلت قدر شعرة . وإذا أنا واجهت الله
فدا . فسوف أحمل معي هذا الاتاء وأقول له سبحانه . أما أن تدعني أدخل
الجنة ومعنى هذا الاتاء . وأما لاندخلني الجنة على الإطلاق .

وصاح . سيفاكس . العجوز :

- أمن أجل ذلك كله ولدت ؟ .. كى تقتل ؟ أمن أجل هذا خلقك الله على
الأرض ؟

- لا .. لاتحاول أن تثوي عنق كلماتي أيها العجوز سيفاكس . أنا لست
شرها للدماء .. كلا . ولا أقتل حيا في القتل . ولكنني ..

ثم أخذ يحك فروة رأسه . وفجأة صاح :

- ولكنني كنت أحارب من أجل الحرية .

ثم استطرد وقد أحس بضرورة استكمال حديثه :

- بلى .. لقد سألتني من أين جئنا . وإلى أين المصير . وعندما بدأت
حديثي لم أكن أدرك بعد من أين وإلى أين - وأقسم بالليل الذي يوشك أن
يهبط ويلقنا - ولكن بعد أن بدأنا الحديث فتمشعب هنا وهناك . بدأ ذهني
يصغو .. ياكابتن سيفاكس : نحن جئنا من العبودية . ونمضي إلى
الحرية .. لقد ولدنا عبيدا وجاربنا طوال حياتنا من أجل أن نصبح أحرارا .
ونحن الكريهيين . لإيمكن أن نصبح أحرارا إلا من خلال القتل . من أجل
هذا قتلت أنا هؤلاء الأتراك . هذا جوابي .. أنت سألتني . وأنا أجبت .. أما
الآن . فقد تقدم بي العمر وأصبحت عجوزا : نحيث خنجرى جانبا ..
وفتحت ذراعي . الآن يستطيع ملك الموت أن يقبل .

ثم نادى ولده بالتبني

- ياناكوس .. ضح الغرارة مكانها .

وصاح الجد :

- هكذا تكون الكلمات .. بارك الله بديك ياكابتن مالداكاس . لقد درت
حولها طويلا . ولكنك أدركت الحقيقة أخيرا . هكذا تكلمت .. لقد أدركت
النهاية وأديت واجبك . ولكن . هل تعتقد أنه ليس هناك سوى طريق واحد ؟
ثمة طرق أخرى ممكنة كما سترى . الآن تتكلم أنت ياكابتن كاتسبيرماس ..
أيها القرصان - هذا دورك ..

- لاتعجبني هذه الطريقة التي تعاملنا بها ياسيفاكس .. مطلقا .. لقد
دعوتنا إلى بيتك هذا . ولأنك أكبر منا قليلا في السن . فانت تجعل من
نفسك قائدا وتأمرا بنا بأن نجيب . لا .

- لن أقول شيئا .

- لاتغضب أيها الأحمق العنيد . أنا لا أمارس معكم لعبة القيادة لأنني
أكبر منكم سنا .. ولكن لأنني سأذهب إلى باطن الأرض قبلكم فليس لدى
وقت أضيقه . من أجل هذا سألتكم . أنا لا أريد أن أموت أعشى . انش
أسألكم العون يا أولادي .. أسألكم ماينير الأمر أمامي . الا تفهم ياكابتن
كاتسبيرماس ؟

- بلى .. أفهم . فلا داعي لأن تصرخ . ولكنك لست سفينة وسط
الأخطار تستطيع أن توجه إليها وانقذها بنورتي . لقد ناضلت في البحر
طول حياتي . وذلك هو المكان الوحيد الذي أعرف طريقه خلاله . ليس في
وسعي أن أساعد أحدا في غير هذا المكان . فعادا فتوقع مني الآن ؟

وصاح الجد هادرا :

- انتى لغرق أيها القرصان .. والغريق يمسكون به من شعر رأسه .

- شعرك أنت ياسيفاكس وليس شعورنا نحن . أنت تقف الآن على أبواب
الجميع والخوف يمتلكك . أنت تسميه دودة . وأنا أسميه الخوف . من
أجل هذا أنت تسأل أصحابك : ما هذا يا أولاد ؟ إلى أين أمضى ؟ إلى أين

أولاً ؟ .. كيف لنا أن نعرف شيئاً من ذلك الذى يمكن أن يريكم ؟ لقد
عشنا حياتنا كما اتفق . وسوف نموت أيضاً كما اتفق . كسفينة بلا دفة
شراعها منتفخ بالهواء . ان الريح تهب .. ونحن نضى حيث اتجاهها . ان
الماء ليقضم علينا السفينة .. ونحن نلتصق بالمضخات نعمل عليها ليل
نهار .. ولكن الماء يرتفع .. والمضخات صدمت لاتعمل بعد .. ثم اذا
نحن فى قاع البحر . هذه هى حياة البشر مهما صرخت وصحت .. فما
واجبتنا نحن ؟ .. واجبتنا أن نظل لصيقتين بالمضخات ليل نهار . لا أن يبسط
كل منا ذراعه . ولا أن نشكو . ولا أن نئن . لا ينبغي أبداً أن نستسلم .
وأنا الذى ينبغي حقاً .. هو أن نظل نعمل بالمضخات ليل نهار .. هذا هو
الذى تعلّمته من الحياة .. ولك أن تقبله أو ترفضه .

ثم استدار بوجهه الوحشى الى الكابتن مانداكاس وقال :

.. لم أكن مثلك ياسيدى مسعرا بالأرض وفوق عينيك غمامتان لاترى من
خلالهما سوى الأتراك والمسيحيين . فقتل الأتراك وتقطع أذانهم وتحفظها
فى الكحول .. وأيس بوسعى أن أحضر الآن اناء لخرجه وأعرضه أمام
الجميع وأقول : هذه هى حياتى .. لقد قمت برحلات كثيرة ياكابتن
مانداكاس وشاهدت الدنيا كلها . لقد تمت فى أحضان النساء من كل
صنف . أوغلت فى إفريقيا حيث تنضج الحرارة الخبز .. زرت أكبر
الموانئ وأصغرها .. رأيت ملايين البشر من السود . وملايين البشر من
الصفرة .. وكانت عينائى تنظران إليهم شذرا .. كنت فى البداية أصعب أن
رائحتهم كلهم منتنة . وكنت أقول لنفسى : الكريتيون وحدهم هم أصحاب
رائحة الزكية .. والمسيحيين وحدهم من بين الكريتيين .. ولكنى ما
لبثت أن أدركت الحقيقة .. أدركتها شيئاً فشيئاً : نحن البشر جميعاً ننضح
رائحتنا بنفس الطريقة . ان كانت منتنة لوركية .. لعنة الله علينا جميعاً .

ثم القيت بنفسى الى دنيا القراصنة . وجدت أن الدنيا لاتخرج عن كونها
مجموعة من الأواني : بعضها من نحاس وبعضها الآخر من طين . وكلها
تستعمل ببعضها البعض . فإذا كنت من نحاس يا كاتسيرماس فأنت إذن
حسن الخط . والا فأناك سوف تصبح شظايا . وان أنت تضطمت فإن
شظاياك لن تلتئم مرة أخرى . سوف تنتهى . وهكذا . فقد صادقت بعض

الجزائريين . ورفعنا معا الأعلام السوداء والقينا مراسينا فى أركان البحر
لنتنفض على السفن التجارية . نقتل ونسلب ونههب ونهرب ونخسى أسلابنا
فى الجرد المهجورة . وقد حدث مرة - وأنتم جميعاً تذكرون ذلك - أننى
أمرغت فى جاريوزة سفينة محملة بالقرقة والقرنفل والمسك . حتى
تطيب رائحة كريت كلها . هل نسيت ياكابتن سيفاكاس ؟ لقد أرسلت الى
عظمتك يوماً غرارة مملوءة قرنفلًا وقرقة .

وقال العجوز :

- اكمل .. انتة الى الخلاصة . علام يشير ذلك كله ؟

- انه يشير الى ماتريد أن تفهمه . لم تكن نخشى الله أو الناس . كنت
أنا مسيحياً وكانوا هم مسلمين . ولكننا لم تكن نسمح لسفينة بأن نمر
بسلام سواء أكانت وجهتها مكة أو القدس . كنا نهاجمها ونقتل الحجاج
جميعاً . لقد كنت وحشاً ضارياً وسط وحوش ضارية . وفعلت مثلما كان
يفعل الجزائريون خلقت رأسى الا من نؤابة فى الوسط مثل ذيل خنزير .
وجمعت من الريالات التركى والبحر التركى . وكنت أختطف من كل سفينة
امرأتين أو ثلاثاً أستمتع بهن ثم ألقون بعد ذلك فى البحر . كنت وحشاً
مفترساً كما قلت لكم - أكثر منك وحشية ياكابتن مانداكاس . وإذا كنت
سألتنى ياكابتن سيفاكاس عما إذا كنت أندم على ما فعلت قلت لك . لقد
عشت حياة غبية مثل الفارس . وأست أندم عليها . لقد جعلنى الله ذنباً
فاككت الحملان . ولو كان قد خلقنى حملاً لكثت الذئاب قد أكلتنى ..
وبالحق كانت ستأكلنى . هكذا خلقت الدنيا . فهل هذا خطئى أنا ؟ .. انه
خطؤه هو سبحانه الذى خلق الذئاب والحملان .

ثم أخذ يدير بصره فى سمعت الى أصحابه وكأنه ينتظر تعقيباً . ولكن
أحدًا لم يتكلم . فاستطرد يقول :

- والان أيها الفرسان تروتنى أصبحت عجوزاً : لقد تقوس الخشب
وتفككت الرباطات وتدفق الماء .. ووهنت المضخات . وانحدر من الحال
لأعيش فوق اليابسة بالصفات الحميدة . أصبحت أدمياً . لماذا ؟ لأننى لم
أعد قادراً الآن على أن أفعل شيئاً . لقد غاضت قوتى وسقط شعرى

وأستأني . وأصبح الذئب ليجرب يعيش فيه القفل .. أصبحت أرميا . الى هذا الحال انحدرت . لم أعد أقتل . ولم أعد أعوى .. أصبح صوتي كثفاه الحملان . وعندما اجلس في القرية أمام البئر وأرى الفتيات يملأن أرائهن .. تلتهم عيناى الصيد ولكن معدتى تظل خاوية . وأحيانا تملأ الدموع عيني . وتسالني الفتيات وضحكاتهن تجلجل . لماذا تبكى يا جدنا . فأقول لنفسى : « لأننى سوف أموت . لعنة الله عليكن - وأترك ورائى فوق الأرض هذه الأجساد الجميلة » .. أقسم بالله . لو أننى كنت ملكا .. أو لو أننى كنت « على باشا » لكتكت جمعت لنفسى عددا من أجمل الفتيات فذبحتهن فوق قبرى حتى أخذهن معى .

وصاح الجد :

- أنت شره للدماء يا كابتين كاتسيرماس .. أيها الوحش الضارى .. اهدأ ..

- لقد سألتنى .. وهالقد أحببتك . لقد كان حتما أن أفتح الباب .. وقد فتحته . هل أفزعك ذلك يا كابتين سيفاكاس ؟

وسدد السأخر ذو الفم الخالى عن الأسنان .. نظراته الوحشية الى الجد .. ثم صاح :

- لقد فتح الباب المعلق وانطلقت الأرواح تسمعها .. « من أين جئنا ؟ » هكذا سألتنى . لقد جئنا من باطن الأرض يا كابتين سيفاكاس . « والى أين تمضى ؟ » هكذا أيضا سألتنى . نحن نعيش الى باطن الأرض يا كابتين سيفاكاس . وماواجبك إذن ؟ أن تأكل . إذا كنت ذئبا . وأن تؤكل إذا كنت حملا . وإذا أنت سألتنى عن الله : فهو الذئب الأكبر - فإنه يأكل الذئاب والحملان معا .

وصاح الكابتين « مانداكاس » وهو يبسط ذراعيه :

- لا تتحد أيها القربسان العجوز . لقد ذهبت الضمير بملك فلا تدرى ماذا تقول - إن الذئب الأكبر هو ملك الموت وليس الله .

وضحك الكابتين « كاتسيرماس » وقال :

- إن الله وملك الموت واحد يابن عسى . ولكن لماذا أجادك وتجادلنى ؟ إن علكك تغذى على البقول ولايعرف غير البقول .

ثم استدار الى الكابتين « سيفاكاس » :

- هذا مكان ينهى أن أقوله لك أيها العجوز سيفاكاس . ومكان يتبعى لك أن تسألنى . مرهم الآن بأن يملثوا لى قدحا من النبيذ .

وقال العجوز لأحفاده

- املثوا قدحه نبيذا . لقد اعترف .. فليسترح الآن .

وأخضى رأسه فى لحظات تأمل وتفكير . ثم قال :

- أنا لست قاضيا .. ولا أملك إصدار الأحكام . إن الله قد سمعه . فليكن حكمه هو سبحانه .

ثم استدار الى المدرس الذى كان طوال الوقت يهز رأسه الأصلع المتدبب الى الامام وإلى الخلف :

- تكلم أيها المدرس .. وارفع رأسك هذه .

ورفع المدرس قيثارته من فوق كتفه . وقال :

- طوال حياتى .. كنت أتكلم . والآن يضايقتنى الكلام . لقد سألت عن أمور صعبة يا كابتين سيفاكاس . ترى أى شيطان جعلك تفكر فى هذه الأمور التى ليس لها مكان فوق هذه الأرض ؟

وسأله العجوز وهو ينظر اليه فى غضب :

- فهل تبقى صمعا ؟ اسم . اعص . خصص . مسالم . أهذا ماتريده

لفسك ؟ ولكن هذا يعني أن يصبح الرجل مجرد رأس بهيمة أيها الأحمق .

- لاتغضب ياكابتن سيفاكس ، ان السؤال ذاته له مكانه فوق الأرض ، فك ان تسأل ماشئت طالما أنك لا تتعب من السؤال ، ولك ان تصوغ ماشئت طالما أنك لاتتعب من السؤال ، ولكن السؤال شيء والاجابة شيء آخر . وأنت تطلب منى الاجابة .

واسند العجوز رأسه وهو يقول :

- أريد جوابا .

- أنت تريد الجواب ياكابتن سيفاكس .. حسن ، فسوف يكون لك ماتريد .. سوف أجيبك بقتارتي فهي هي الحقيقي . وإذا أنت فهمت ماذا تقول فذلك خير المرام ، أما اذا لم تفهم ، فليس في مقدوري أن أساعدك ، وسوف تموت إنن أعنى كما ولدت أعنى .

وقال الجد وهو يخلق عينيته :

- اعزف على قيثارتك أيها المدرس وليساعدك الله .

وكانت السماء قد اظلمت ، وبدأت حبات المطر تتجمع فوق أوراق شجرة الليمون .. كما بدأ بعضها يداعب خد العجوز وشفتيه وجفنيه فينعشها ، وكان هو يلعبها بشفتيه في عيش .

وأمسك المدرس بقيثارته وانحنى بالقوس فوقها فأصبح معها كلا لا ينفصل ، وبدأ القوس يرقص فوق الأوتار الثلاثة ، وبدأت الأجراس الصغيرة ترن .. وامتلا الفناء بالضحكات البهيجة كما لو كان فناء مدرسة يلعب فيه الأولاد ويمطاردون بعضهم البعض خلال فترات الراحة مابين الدروس ، أو كما لو أن طيوراً فوق شجرة كثيفة الأغصان والأوراق تستيقظ عند الحجر وتغرد في بهجة وهي تستقبل أشعة الشمس .

وظل القوس يهز ويضحك ويرقص ، وأصبحت قلوب الكبار اطفالا وطيورا وجداول تترقق ، وبدأ الأحفاد وزوجات الأبناء يقتربون أكثر ، وأخذ

الشباب والمفتيات يقومون ويقعدون معا .. وتشرب اعناقهم رغم حبات المطر المتساقطة وهم ينصتون .

وأحسن الجد العجوز كما لو كان جسده الثقيل يفقد ثقله ، ويرتفع في الهواء ويسبح كالسحابة طائرا فوق شجرة الليمون وأشجار السرو كما لم يحدث له الا في الأحلام ، أو كما حدث له مرة بعد أن عاد من الحرب واغتمل من الدماء وأرتدى ثيابا نظيفة ومضى الى الكنيسة يوم الأحد ، وهناك أحسن كما لو أن جسده يصبح كالسحابة .. وحين كان في طريق عودته الى بيته أحس كما لو أن قدميه لايلمسان الأرض على الإطلاق .

ولكن صوت القيثارة ما لبث أن تغير ، أصبح ضاريا غاضيا ، وبدأت أجراس القوس ترن كهذه الأجراس التي تعلق بعنق صقر مدرج وهو ينطلق في الهواء بحثا عن فريسته . كانت الأصوات الصادرة عن القيثارة أصوات رجال ، وتذكر الفرسان أيام شبابهم والحروب وأتات الرجال وهم يموتون وعويل النساء وهن يبكين موتاهن وصهيل الجياد وهي فوق أرض المعركة مطلقا بالنساء ولا فرسان فوق ظهورها . وكان الكابتن كانداكاس ، ان يصبح ، أعدى شبابي أو كف أيها المدرس ، ولكن القيثارة ما لبثت أن تغيرت أنغامها .. فعادت ناعمة وقرافة أبهتت لها شقاء الفرسان في سعادة .

وكان الصوت خلال الجو الندي الرطب أشبه بطنين النحل أو بخيرير جدول عميق ، أو بصوت حزين لامرأة عاشقة يتناهى من خلف الجبال .. هناك على شاطئ البحر المزيد ، أو بصوت البحر ذاته ومياهه تسطدم بالشاطئ أو تنحسر عنه في أنين .. أو لعل كان أبعد غموضا وأكثر سحرا . أتيا من وراء الحياة ذاتها . من ضفة أخرى ، يحرر الأرواح من الأجساد في غدوية والم وحب ؟ أو لعل كان صوت الخالق نفسه تخفيه ظلمة الليل الرطب ، حيث سبحانه يدعو ويرفع اليه في اغراء رقيق .

محبوبه الأبدى : روح الانسان ؟

وظل المدرس يعزف كالممسوس حتى بدأ كما لو ان القوس يستصدر عن الأوتار شرارا ، وبدأ أنه يغيب أكثر وأكثر وسط الظلام ، وكان قيثارته هي

الموجود الوحيد القائم تحت شجرة الليمون .. يعزف لنا جياثزيا ولكنه في
نحيبه يبدو نداء ذا اغراء .

واكتست شفتا الجد العجوز بابتسامة عريضة . وهب جسده الخفيف
الطائر في وثبة واحدة من تحت شجرة الليمون الى اعلى سابحا في
الهواء . ليوم كالتسحية فوق البيت .. ثم ليتحول في رفق الى حبات مطر
تهبط الى الأرض لتغذى البراعم الصغيرة .

وأحسن الجد في اعماقه بأنه الموت قد أقبل .. ، انه الموت . وهذه هي
الجنة . أنا ماض الى الجنة . بل لقد أصبحت داخلها . لك التحية ياربي .

وفتح عينيه .. ولم يرسو الظلام . ولكن صوتا رفيقا ناعما ناداه وسط
الظلام .. فاجابه : « أنا قادم اليك .. »

وابقوه طوال الليل ممددا في الفناء تغسله رخات المطر وكأنه جذع
شجرة ضخمة . وركع « كوزماس » الى جواربه وقد أغلق عينيه . وتوقع
« ثاراساكي » بجانبه ينظر اليه .. ويرى الموت لأول مرة عن كثب . ظل
يحقق بعينيه راعشتين في الجد الذي احبه كأشد ما يكون الحب . وبدأ له
أن جده اكتسب قوة جديدة قائمة ومشئومة . وكأنه ينتظر فحسب كئيبا
ينفض على الرجال ويهرمهم معه الى باطن الأرض . وأحسن للحظة بالرغبة
في أن يعدو بعيدا عن المكان . ولكنه لم يجرؤ على الحركة . فظل في مكانه
وقد صعقه الرعب . . .

وظلت أسرته حوله تنتظر اليه . وبقي الباب مفتوحا . واهترت القرية حين
تناهت الأنبياء بأن « سيفاكاس » العجوز قد أسلم الروح . وبدأ الجميع
يهورعون الى البيت كئيبا يودعوه .. وكل واحد منهم بعد الآخر يمر امامه
فيقبل في سمت يده الممددة فوق الصدور .

وغسلته امرأتان بالنيبيذ . ولففته في كفن من قماش ابيض حريري من
بقايا زوجته المتوفاة « لينيو » كانت قد نسجت له من اجل هذه الساعة .
ووضعت الثنتان من زوجات ابنائه مصباحا كبيرا بجانب رأسه وأخر مثله

عند قدميه . وبدأ وجه الميت على ضوئهما وقد اكتسى تعبيرا رفيقا .

وقالت « كاتيرينا » :

- ليس من الأفضل أن ندخله ؟ ليس من المناسب أن ندعه هكذا فوق
الأرض يتله المطر .

ولكن « كوزماس » عارضها :

- أنه أراد أن يبقى هنا ويغسله المطر .

وهبت ريح جنوبية رقيقة منعشة . وانحسر الاحقاد بعض كتل الأخشاب
وأشعلوا نارا في وسط الفناء لتدفئهم . وارتفعت النيران فأجذبت
السموانات بضوئها . وأمل البغل والحماران والفرس وثورا الحرانة
يرعوسهم من الضلائل وهي تتطلع في نعشة الى ما يجري داخل الفناء .
أما الفرسان الثلاثة فقد تكوموا فوق الأرض وقد غطيهم الشراب والطعام
فأسندوا ظهورهم الى جذع شجرة الليمون وارتفع شخيرهم .

وصاحت النساء وهن يرفعن عن رأسه عصابته :

- الى الملتقى ياسيفاكاس .. حيا الميت .

وصاح الكبار وهم يسكون بيده :

- حتى نلقى ياكابتن سيفاكاس . ثمنياتنا لك برحلة سعيدة .

والقت فوفه كل امرأة يعود من الريحان حتى يصحبه معه في رحلته الى
العالم الآخر . ووضعت أم مكومية لوح ابنها الميت وقيامشيره عند رأسه
وقالت : « خذ معك هذا اللوح لايشي » اصنع هذا المعروف من اجلي . ان
اسمه « بيمتراكيس » . لقد كان من جيرانك وسوف تعرفه قطعاً . انه يضع فوق
رأسه قبة ذات شراية . وقد مات حافي القدمين .

وغلعت « كاتيرينا » وضعت لغطاء ثقيلًا فوق الفرسان الثلاثة حتى

لا يصيبهم برد . ثم أمسكت بيد « تاراسكى » .

« قم لتنام يا ولدى . إن الليل قد انصف . ولكن « تاراسكى » رفض وقال :

« إننى أحرس جدى . إن والدى ليس هنا . وأنا سأبقى مكانه .

وعلى ضوء لهيب النيران . اختلجت عيناه فى تصميم كما يحدث لأبيح . وترجعت أمه دون أن تقول شيئاً . ولم يكن ثمة ما يشير إلى أن المطر سوف ينقطع انهماره . وانحصرت « رينيو » وبقية الطفليات القهوة لتعين الجالسين على البقاء مستيقظين . وكان الضمت يسود الفناء أحياناً . ثم لا تلبث أصوات الليل المختلفة العميقة أن تسمع . صفار الحيوانات . والحشرات . وطيور الليل . والكتلاب التى لا تنفك عن النباح والماشية بأصواتها الخشنة . وفجأة . صاحت الديكة . وانبجح الصباح .

وعندما ارتفعت الشمس إلى الأفق . استيقظ الفرسان الثلاثة ورأوا الميت ممدداً فوق الصخور وسط الفناء . وارتكوا ما حدث . ولكنهم لم يتحركوا وظلوا فى أماكنهم وقد غلبهم النوم .

وقرب الظهيرة . أحضر « ستافولويس » النعش فوق كتفه . وهرع إليه « تاراسكى » كيما يطمئن إلى أنه مصنوع من خشب الجوز .

وبعد الظهيرة بساعتين . رفع الأحفاد النعش الذى يحمل جسد جدهم . وانهبوا به نحو الباب . ثم خارج الباب . وتحركوا فى بطن وهم يمشون به فى البداية حول بيوت الجيران ليودعها . ثم توقفوا به عند كل مفترق طرق بالقرية وألقت الفتيات فوق الجسد الرياح والاحوان كما لو كانت القرية كلها كما لو كانت أسرة واحدة حاضرة الرأس سائكة . وكما لو كان هو اله القرية يودعها . وسارت معه فى بطن حتى تتبج له أن يودعها فى هدونه المعتاد . . وفجأة . وحين أصبحوا جميعاً خارج القرية قريبين من ساحة القير . فتحت السماء سدودها وانهمر المطر فى غزارة .

وصاح الفلاحون فى سعادة . فقد ظلوا شهيراً يحلمون بالمطر بعد أن

هدد الحفاف المحاصيل . ورفعوا وجوههم التى لوحتها الشمس إلى السماء الممطرة يشكرون الله فى لهفة .

ونغمم عجز .

« لقد تحول الجد إلى مطر . انه يعود مرة أخرى إلى قريتنا .

وقال آخر :

« كان يعلم بما يلقنا . لقد تحول إلى ماء ليروى عطشنا .

ووصل الموكب إلى المدائن التى يلبها المطر . وبدأ اثنان من الأحفاد الأقوياء يحفران القبر . وكشفت التربة الحمراء الخصبة عن قواقع ومخارن كما لو أن تلك الجبال كانت يوماً ما قاع البحر . واستمر هطول المطر . ثم أهبط الجسد فى سلام ورفق . وبدأ الجمع المنتحب واحداً تلو الآخر يلقى فوقه حفنة تراب . ثم عادوا إلى بيوتهم .

كانوا يسرعون الخطى متلهفين إلى الجلوس إلى الموائد المثقلة ليمزقوا الكيش الأسود الذى كان الجد قد أمر بديحه عند وفاته . وليشربوا بعض السيد ويطلبوا الرحمة لروحه .

وجلس « كوزماس » فوق الأريكة العريضة وهو يحس بالضيق روحاً وحسداً . وأغلق عينيه يريد أن يستريح قليلاً قبل أن يصعد الجبل وكان قد طلب إلى « شاريسديموس » أن يبحث له عن مصباح ضد العواصف وأن يعد نفسه للرحلة حتى يصل إلى مقر قيادة الكابتن « ميخائيليس » قبل صباح الغد . ولم يبق سوى لحظات قصيرة ولكنها كانت كافية لأن يحلم بأبيه الميت . فقد رآه كلوضخ ما يمكن أن يكون . واقفاً على سلم البيت بتعباً لدخول غرفة نومه . وكان قد رفع قدمه كيما يخطو الخطوة الأولى . وأحس « كوزماس » بالرعب يتسلل إلى قلبه فقد كانت زوجته نائمة فى الطابق الأول . وهاهوذا أبوه الميت يسعد إليها وسوف يفرعها ولاشك . فقفز هو وقال : « إلى أين ذاهب يا لى ؟ واستدار الرجل الميت بشبابه المتدلى والذئبة فوق خده الأيمن . ونظر إليه فى ضراوة . وكان ثمة عصاة للراس سوداء تحيط بجميحه وتندلى منها شرابيات حمراء . وكان ثمة

قطر فوق قمة يحبس الدماء من جرح به .

وحقق في « كوزماس » وهو عابس الوجه .. كان غاضباً ولاشك . فقد كان يجر على أسنانه .. كما كان ثمة لوب أحمر يخرج من فتحتي أنفه وتمتد ذرابيه الى وجهه . ولجأة فتح فسقط القطر . وأصبح الجرح عازكاً . وصدر عنه النين وحشى وهو يتحرك في سرعة ليصعد السلم .

وصاح « كوزماس » .. أبى .. لا تؤذيها . إنها زوجتي . ثم خطا نحوه في جزة وصاح فيه للمرة الثانية : « إنها زوجتي .. فلا تلمسها . ومد يده محاولاً منع أبيه من متابعة صعود السلم . ولكن الرجل تحول الى دخان . ولم يعد « كوزماس » يسمع سوى وقع أقدام ثقيلة تصعد السلم .

واستيقظ « كوزماس » في صبيحة فرح . وفتح عينيه فرأى الضيوف على مائدة الجناز . وثمة طبق كبير يدخل اليهم والكبش فوقه يتصاعد منه البخار وقد وضع على ظهره وبرزت أقدامه الأربع في الهواء .. كله حتى رقبته وراسه وقرونه كما لو كان لا يزال حياً . وأنقض الفلاحون عليه كالصقور يمزقونه . وجاء الاخفان بأباريق النبيذ أيضاً .. وتحولت وائمة الجناز الى عيد مبهج .. ليس بسبب النبيذ فحسب . وإنما بسبب المطر المنهمر فوق الأرض العطشى . ولأن ملك الموت . وهو يقوم بهذه الزيارة لم يمس أحدهم بسوء وانكفى بالعجوز وحده . وهكذا فقد أكلوا وشربوا واستبدت بهم البهجة . وأحسوا بالخدر في سيقانهم . وبالرغبة في الرقص . كما أن النبيذ أيضاً لم يثقل أعضائهم . حتى « ستافروليبوس » النجار - ومطرب القرية - نسي نفسه وكاد أن يرفع عغيرته بأغنية حب . ولكن الجيران أسرعوا يتخلقونه ويعلقون فمه . وبادر القس - لكي يمنع الفضيحة - فتناول جرعة من النبيذ ينسج بها خلقه .. وبدأ يلقي بترنيمة .

ووقف « كوزماس » وأخذ غمته « كاتيرينا » جانبا وقال :

- وهل نعيدة الرساكن ياوادي ؟ انه ان يفعل الا مايريد . حتى ولو علق العالم كله من رقبته . عسى الله ان يهدي سبيله .

- الا يفكر في ولده ياعمشى ؟

- ثق ان « ثاراساكي » هو الشيء الوحيد الذي يحبه عمك في هذه الدنيا . ولكن ذلك لن يجعله يدبر وجهه ولو لحظة عما يريد . سوف يفعل بماصم على ان يفعله . وليس ثمة أمل ياوادي في رجل لم يفكر في نفسه .

ثم مسحت دموعها ولم تزد ..

وانته « كوزماس » الى « شاريديموس » الذي كان يشارك في البهجة ولفي يده كلاوة الكبش والدهن يسيل من لعينه الماعزية .. وقال :

- شاريديموس . لقد اكلت وشربت بما فيه الكفاية . واحتقلت جيداً بصوت جدي . فقم الآن اذن . فنحن ذاهبان .

وعيس الخادم العجوز وقال :

- السماء تمطر والسحب مثقلة . وإن أرى من طريقى الى ابيد من انفى .

وقال الحفيد الأكبر في لهجة امره :

- سوف نذهب .. يتخفى أن نذهب .

وتنهذ « شاريديموس » وهو يلعن حظه الذي يمنعه من استكمال متعته . الآن بالذات . وقد أوشك اللهب أن يبدأ .

وقال « كوزماس » :

- هيا .. هل أحضرت المصباح ؟

وكانت الترنيمه قد انتهت .. وسأل « ستافروليبوس » القس :

- هل تسمح لي بأن أغني أغنية عن لص ؟

ودون أن ينتظر الجواب . رفع عقيرته بالغناء وصوته يعن داخل البيت

حتى ياترى تخفى النجوم ؟

ومنى يجىء فبراير ؟

حتى الخط بنديقى .. ؟

● الفصل الرابع عشر والأخير

التي "شاريديموس" المعجوز الضوء من مصباح العواصف فى يده على
ممر الماعز الضيق الذى يتكوى صاعدا الجبل . ولم يكن قد أفاق بعد من
خدر النيبذ : كان يتعثر مرة بعد اخرى ، ثم ما لبث فى النهاية أن سقط
بطوله فوق الأرض . وأحس بالحجل ، فنهض وهو يحاول أن يتحسسك ..
وغمغم يقول لنفسه : بلعة الله على النيبذ . والماء أيضا . الى الشيطان
ثم استدار نحو «كوزماس» وقد كان يتوق الى الحديث معه . وتوقف فجأة
وهو يتصيب عرقا :

- سيدى . ان تفتح فمك ؟ انى أكاد اهوى الى الأرض . لعل ذلك هو
السبب فى ان ساقى ليستا ثابتتين .
- لا تثرثر ياشاريديموس . فالمعما تمطر ولا بد ان تسرع .

كان يريد ان يصل الى حيث يريد عند الفجر دون أن يراهما الاثراك من
أماكنهم فى السهل . واستثمر هطول المطر . وفاضت شرايين الأرض .
واندفعت المياه هادرة الى الجداول . وبرزت السماء من حين لآخر ..
وتناقلت الجبال اصدااء الرعد . فاذا هى تلاثت سمعت أصوات رقات
المطر المنهمر وأموائه المتجمعة المتحدرة الى أسفل الجبل .

وقال عجوز الجبال وهو يجدد الرجاء : « استحلفك بالله ان كنت تؤمن
به . ان تفتح فمك ياسيدى وتكلمنى . ما الذى يحدث فى الدنيا هناك ؟ أهم
بشر مرضى مثلنا ؟ أم انهم شياطين ؟

ولكن «كوزماس» لم يكن راغبا فى الحديث وظل يواصل التسلق وسط
الكلام وتحت المطر مصعما على الا يدنس هذه الساعة المقدسة بخديث
تافه وهو يحس بأن ثمة مشاعر جديدة أكثر حيوية أصبحت تنملكه . كان

يتحمل عنف هطول الأمطار في اسرارز وشموخ كصخرة من صخور «كريت» وهو يحس في أعماق أعماقه بذات احساس البهجة عند الصخور والتراب وهي ترتوى من مياه الأمطار .

وكانت مياه الأمطار هذه رحمة من السماء بالنسبة للحرائق التي اشعلتها الجنود الأتراك في قرى اليونانيين وأديرتهم ، أو تلك التي اشعلها المسيحيين في قرى الأتراك بأدنين عملية التخريب . وكان هؤلاء يعودون الى الملل قرأهم ليبدوا من جديد في بناء بيوتهم حجرا فوق حجر .

وركعت «كريت» مرة أخرى امام الازهار والعنف وهي تنزف دماها وتحرق الأرم وكان الفرسان والمقاتلون يتجمعون داخل الكهوف أو في الاديرة ليناقشوا الأمور . فقد قرعوا منشور المطران مرة بعد أخرى حتى أدركوا في النهاية : أنه صوت اليونان . وزاد غضبهم وهياجهم فسبوا ولعنوا ورفعوا أبصارهم الى السماء وهم يضعون قبضات أيديهم في وعيد .. ولكنهم ما لبثوا ان خفضوا رؤوسهم ونسوا خناجرهم في احزمتهم . ودفنا أسلحتهم .. وعادوا الى بيوتهم وأعمالهم .

وعاد أبناء «ميجالو كاسترو» يفتخون متاجرهم في نجهم وضعت . وعاد الفلاحون يحرثون الأرض ويذرونها . وبدأت عجلة الحياة اليومية للتقليد تدور وتدور . كذلك عاد «الكابتن بوليكيكسيجيس» من الجبال وقد وضع حول طربوشه عصاية سوداء واتجه الى «القديس ميناس» حامي المدينة ليؤوره ويوقد شمعاً أمامه . ويلقب امام مذبحه لحظات في ابتهاج . ثم فتح دكانته بعد ذلك واتخذ لنفسه مكاناً قصياً منه حتى لا يرى أحداً وهو يدخن نرجيلته غارقاً في أفكاره دون ان يغير انتباهها الى العزارعين العائدين عبر بوابة «كائنا» حاملين معهم ما استطاعوا انقاذه من الليون واليرتقال والتبيزد والزيت . لم يكن يريد ان يرى شيئاً . ولم تعد شفاته تبتسمان . وإنما كانتا تقضحان الغل الذي يحتل في صدره .. وتكشطان عن الأسف لهذا الضعف الذي اغراه بترك الجبل : ولم يكن ينبغي أبداً ان استمع الى اليونانيين أو الى المطران . هذا الحزير الوحش - الكابتن ميخائيليس - على حق . كان ينبغي ان أبقى هناك . وأن ألقى مصرعي هناك . أي طعم للحياة الآن ؟ أريد ان الحق به مرة أخرى ؟

ولف انبوبة النرجيلة حول عنقها واتجه الى عتبة الدكان وهو يتلذذ . ومر به في تلك اللحظة الأب «مانوليس» وثوبه المليء ببقع الزيت يتطاير مع الريح . ولم يكن قد غادر «ميجالو كاسترو» . بل ظل داخلها . يدخن . ويعمد . ويبخر بيوت الناس . ويملا جيوبه ويضيف المزيد من الدهن الى عنقه . وكان لحظتها يحمل الكأس المقدسة والققباب . وأمامه «موزوفولوس» هادئاً شاحب الوجه يذرع الطريق وهو يحمل مصباحاً مضيئاً في عز الظهيرة . ورسم «بوليكيكسيجيس» علامة الصليب . كانت قد تناهت اليه الايام الحزينة : كان الأب في طريق عودته بعد مراسم دفن الكابتن «سيفاكس» . فاطلقت سفينة حراسة تركية قذيفة على قارب التهريب الذي كان يستقله فأطاحت بقدميه الأثنتين وغمغم «بوليكيكسيجيس» : «بارك الله روحه . لقد حمل نفسه ما يحمله الرجال» .

وتهباً للعودة الى ركنه داخل الدكان حين لمح «فيندوسوس» يسير ملتحقاً ببطانية وهو يرتعش من البرد ويفوح بدمه ويحدث نفسه . كان طوال يومين قبل اليوم يعدو في الشوارع كما لو كان يمارس من جديد عمله ؟ أو تراه يلقي خلف ظهره كل شيء مع الريح . ويعود الكابتن «ميخائيليس» ليؤكد له انه هو أيضاً رجل وأنه لن يسمح لأحد بأن يزيحه جانباً أو يطأه بأقدامه ؟ لقد قال له قبل وهو يحمله رسالة الى المطران : «لا تعد . فانت فيندوسوس» . ولست أطلب منك شيئاً آخر . فتصرف ان شئت كما يتصرف فيندوسوس» .

وقال «فيندوسوس» يفكر في غضب في تلك الكلمات . وأحس كأنها آلف شيطان يتملقونه . وبأن حاسة الشرف والكرامة تأخذ بتلابيبه . فقرر العودة الى النجيل ليثبت للكابتن «ميخائيليس» ما يريد ان يثبت . ولكنه عاد ففكر زوجته وتذكر الحانة . وجعله ذلك كله يضرب في الشوارع من جديد .

وعندما وقعت عيناه على الكابتن «بوليكيكسيجيس» واقفاً على عتبة دكانه .. توقف . انتبه . هذا «مارق مرموق» ورغم ذلك فانه ويضع ذيله بين ساقيه وأغلق فمه . لماذا ؟ لأن ذلك في مصلحة «كريت» ثم تجيء أنت أيها المعقل «فيندوسوس» لتفلسف الأمور وتتصرف وحدك ؟ أنتبه أيها

الأحمق . ولا تصح لحظة بالخجل - أن قيادة المعارك عمل لا يقدر عليه إلا الفرسان المقاتلون . ولكن حتى هؤلاء الفرسان المقاتلون يثبتون أحياناً أنهم أعلى من هذه المرتبة حين يأمرهم بالقاء السلاح فلنلق السلاح إذن . ولنتحدث قليلاً إلى الكابتن «بوليكسيجيس» لكي نثبت الشجاعة إلى صدورنا .. أن لي أطفالاً . ويجب أن أثلح حياً أنا المسكين .

- طاب يومك ياكابتن . لقد جئت من الجبل أحمل إليك تحياتي .. وقال وهو يذلف من باب الدكان :
وأشاح الكابتن «بوليكسيجيس» بيده وقال هادراً في صنف :
- دعني وحدي في سلام . وليتخلفك الشيطان .

كان ظهور «فيندوسوس» كفيلاً بأن يحرك كرامته . فقد كان يحس بالخجل . ولكن غضبه أثار هياج «فيندوسوس» لاشك أن هذا السيد العظيم يتصور أن فيندوسوس من الرجال الذين يسمحون للغير بأن يزوجهم أو بأن يطنوهم بأقدامهم .. ليس هذا ما يتصورونه ؟ .. حسن .. فسوف يريه إذن .

- أنا عائد إلى الجبل . لن أعاود موقعي هناك . وإذا كان ثمة رسالة تريد أن ..
قالها دون أن يكون قد اتخذ في ذلك قراراً قالها - ببساطة لكي يلذع الآخر .. وصاح الكابتن في ضحكة مترفعة :
- أنت عائد إلى الجبل ؟ أنت يا فيندوسوس ؟ .. أنه من الجنون أن تفعل ذلك .
- نعم . انه من الجنون ياكابتن . أنا أعرف ذلك . ولكن . لا حياة بلا كرامة .. طاب يومك .

وقبل أن يجد الكابتن «بوليكسيجيس» الجواب . خرج من الدكان - خرج بعد أن أصبحت كلماته قراراً حقيقياً : انه لا يعود تظاهراً وأدعاء . وإنما هو يعود . كيما يخجل ميخائيليس وبوليكسيجيس العظيمين . وإذا أراد الله بعد ذلك . فسوف يعود ليرعى بيته ويزوج ابنتيه .

واتجه في سرعة إلى كنيسة القديس «ميثاس» فودعه وأوقد شمعة .

وكانت الكنيسة خالية دافئة فوج في أرجائها رائحة البخور . وخيل إليه أن القديس «ميثاس» الذي لوحت الشمس . والذي يمتلئ صهوة جواده متروفا بالدروع الفضية من قمة رأسه إلى أخمص قدمه .. ينشم له ويحييه :
«أرجو لك رحلة طيبة يا فيندوسوس . أنت سائر على النهج الحق . فلا تقلق . وسوف أعثني أنا بزوجهك وبأولادك . وسوف اختار لابنتيك زوجين من أفضل الفرسان . إلى اللقاء ياكابتن «فيندوسوس» .

ويرسم علامة الصليب والبهجة تغمره . ثم تتاهت إليه أصوات جمع يتكلم . وروى من خلال نافذة قصر الأسقف . القزم السمين «شاريلاوس» . ماذا يفعل ياترى في قصر الأسقف هذا اللص .. تاجر البضائع المصروقة .

ولم يكن «فيندوسوس» يعترف طبعاً ما يريد المرطان من الرجل . لقد جاء القزم إلى المقر بناء على دعوة منه . وهما الآن يشربان القهوة معاً . وهذا ما كان يريد منه المرطان : أن المسيحيين الذين كانوا قد هربوا إلى «أثينا» وإلى «بيريوس» يعودون الآن ليجدوا بيوتهم وقد نهبا الأتراك الذين حطموا الصناديق والدواليب والمقاعد وجعلوها نهبا للثيران - حتى الأبواب احرقوها . فلم تبق سوى الحوائط قائمة تنتظر عودة أصحابها .. وأراد المرطان أن يدعو هذا المالى الكبير «شاريلاوس» ليثبتر في نفسه حاسة الشرف ويقفعه بأن يمتح أصحاب هذه البيوت قروضاً بأرباح مغلولة لكي يعيدوا بناء بيوتهم . وكان «شاريلاوس» قد جمع آلاف الجنيهات على حساب هذه الثورة يلتذاه جانب الباشا . كما أنه جمع الكثير والكثير بالمقايضة على مجرد كسرة خبز .. أخذ الأقران والغلات والأجار الكريمة والنقود الذهبية من المسيحيين الجوعى وامتلأت خزائنه وفاضت بما بداخلها من ذهب ومجوهرات .

وحول القهوة . بدأ المرطان في حلق يدير لغة الحديث إلى الله . ماذا يفيد العزء أن يكسب الدنيا كلها ويضمر روحه ؟ ثم تقدم إلى هدفه خطوة أخرى - إلى الوطن . كم من الأبطال خلدوا لأنهم شحوا بأنفسهم من أجل الوطن . وهذه التنصية - لا ينبغي أن تنسى - لا يجب أن تقتصر فحسب على بذل الأرواح . انها يمكن أن تكون متحققة أيضاً ببذل الأموال - أن هذا الذى يعطى ماله سوف يصبح خالداً هو أيضاً .. وسوف يستحق لقب

وبطله، ويعددها بفتح الله السجلى لكي يضع اسمه وينسب اسما الى الاباطال بحروف من ذهب... وامام هذا الاسم عدد الجننيات التي وهبها من اجل المسيحيين .

وظل القزم الخبيث يحتسى قهوته رشفة رشفة ، ويدخن سيجارته ويتطلع عبر النافذة الى اطلال البيوت والى صفحة البحر المزبد خلفها . وكانت كلمات المطران تنفذ من اذنه لتخرج من الاخرى بينما هو يقول لنفسه وهو ينفث الدخان من انفه : «انه يحاول اقتناصى . انه يحاول ان يعيرنى بالشرف ليعرف خزائى . اه .. لشد ما اسف له ، فانا قد لا يستهان به لمحاولاته .

واطفًا فى النهاية سيجارته فى الكوب البرونزى على اساس ان المطران قد انتهى مما كان يريد ان يقوله . وقال فى صوت حزين منكسر : - ان كلماتك قدسية ياسيدى ، كل مرة انتهت نفسى : اه لو كنت ذلك الرجل الذى يستطيع ان يحمل بندقيته ليهب حياته من اجل الوطن . واه لو كنت على الاقل ذلك الرجل الغنى الذى يستطيع ان يعطى الارامل ويدعم ولو قليلا قضية المسيحيين .. مادام الله سبحانه قد صب على لعنته وجعلنى كما ترى . ولكن الله سوف ينظر الى يعين رحمته يوم الحساب .. ولكننى مخلص ياسيدى .. لقد انتهيت . ان اعمالى توقفت .. وصدقتى ياسيدى حين لقول لك ذلك برغم ان الكثيرين يهينوننى ويصفوننى يائسى استغل الفقراء .. ان الامل او اليتمعة تجيبنى ومعها خاتم اعرف يقينا انه لا يساوى قروشًا معدودة لا غير . ورغم ذلك فاننى امتصتها مقابله ضعف ثمنه لان قلبى يحترق لمرأى حظهها العاثر . اننى اخرب نفسى بيدي .. وانا اعرف ذلك جيداً . ولكننى بشر ياسيدى . احس بالامسى لهم . لقد بعث حقل كروم ومزرعة زيتون وضاع ثمنهما على هذا الطريق ياسيدى .. بل انى مضطر الى رهن بيتى الذى اعيش فيه .. والله شاهد . وانى لاسأل نفسى احياناً : ماذا سيكون مصيرى ؟ لقد حطمتنى طبييتى . وعندما دعوتنى الى هنا قفز قلبى من البهجة وقلت لنفسى : ه ان الله سبحانه عادل ويجازى على خير العمل . ان الاستف يكزمنى بعد ان سمع باعمالى الخيرة . وبعد ان سمع ايضا ولاشك بما اعانيه . لقد الهه الله ذلك .. وسوف يمتحنى

بالقطع معونة من صندوق الاسقفية يمنع سقوطى الى الهاوية .. فقد سمعت ان حصيلة العام طيبة والحمد لله .

وابتلع المطران ريقه بصعوبة وهو يقول لنفسه : «هذا الوحش الخبيث الملعون» كان مرأى القزم قد اصبح يضايقه . فاحتسى قهوته فى جرعة واحدة وتحسس مسبحة فى عصبية . وكان «شاريلاوس» لايزال جالساً فوق الاريكة عاقد الساقين ، فنهض واقفا على ساقيه القصيرتين .. ونفض يده وهو يقول : «الجوارد . ماذا سيكون حالنا بلا وقود المدفئة وبلا ثياب وبلا طعام كاف ياسيدى المطران ؟ لقد اضطررت الى ان ابيع كل نجاشى . ولكن ذلك مكنتى من ان اكل بيضة كاملة كل صباح . نسأل الله ان يرفق بنا» .

وقبل يد المطران وتعباً للخروج وهو يقول
- صل من اجلنا ياسيدى . انصرف الان بانذك . فانى احس ببعض التعب . ولابد ان استريح .

وكان الاطفال لاحظتها يخرجون من مدارسهم متدافعين صاخبين يملتون الجو صغيرا . وكان «تيتروس» قد ابفاهم فى ذلك اليوم طويلا لان دعلة المسيحيين كانت شديداً فى اليوم التالى وكان عليه ان يلغى عليهم درسا اخيرا . وكان قد اصبح الان قوى البنية ممثلتا لوجه الشمس . وكانت الملاحة التى تزوجها تنتظر مولودها مما بعث البهجة الى نفسه . كان الكل من قبل يشيحون عنه . واصبح له الان اليد العليا . والويل للتلاميذ الذين يحاولون ان يسخروا منه .

وترك «فيدوسوس» التلاميذ يعدون فى الطريق . وحين رأى «تيتروس» يخرج فى اثرهم لم يعرفه لأول وهلة .. ثم ماليت ان صاح :
- ايها المدرس .. لقد اكلت فيما يبدو خلاصة تينين فاصبحت انت ايضا تينياً .

ثم قال فى اعتداد :
- انا عائد الى الجبل . هل تريد ان تبعث برسالة الى اخيك الكاتبين ميخائيليس .

وسار معه «تيتوريوس» وهو يشد على يده :

- أنت فارس يا فيندوسوس - أغفلى ، فلم أكن لاحظ ذلك من قبل طوال الفترة التي عرفتك فيها .

- أنا لم كن أبدا فارسا في يوم من الأيام أيها الفارس المدرس . ولكن .. كيف الاصطبار ؟ لقد أصبحت فردا . ان الذي يجلس مع رجل أعشى سرعان ما ترمش عيناه . والكابتن ميخائيلس هو السبب ..

- أنا أيضا أؤدى واجبي . قل له ذلك . قل له ان هذا هو طريقي .. قل له ان كل اغلال الاطفال الكريستيين تلفت حول عنقي . اننى أوقظ كريت من خلائهم .. وأفعل ذلك بأقصى ما أوتيت من قوة .. لقد تركت الجبل لكنى انفع كريت . ومن أجل هذا أيضا يجب ان يهبط هو الآخر .. قل له ذلك .

- لا تقلق . فسوف أخبره . ولكننا لن نهبط . وانتبه جيدا لما قلته .. الى اللغاة أيها المدرس .

- فيندوسوس ، أيها العجوز الطيب .

ثم تابعه بنظراته فى اعجاب وهو يمشى قدما فى شجاعة عبر بوابة المستشفى .

أما المطران فقد نادى الشمس بمجرد أن خرج «شاريلاوس» من عنده وقال :

- أيها الشمس ، أنا متعب . وعلى فى نفس الوقت ان اذهب الى أركوندولا ، فسوف يكون اليأشا هناك . سوف نلتقى مرة اخرى لأول مرة بعد عدة أشهر . انه لن يحضر الى قصر الاسقفية . وأنا لن اذهب الى مقره اليأشوى .. لهذا فقد اتفقنا على ان نلتقى فى بيت «أركوندولا» .

وسأله الشمس الذى كان شاميا قوى البنية أسود الشعر .. ابن فلاح ، صوته يرن مثل الجرس :

- مادمت متعبا .. فهلا أسرجت لك الحمار ؟

- وكان هذا الشمس مشهورا بقوة ، وعندما كان يجلس الى جوار المطران . فكان ثمة أسدا يحرس هذا الأخير . وكان الشعر الذى يغطي رأسه ولحيته كافييا لأن تحشى به وسادة .

- معك حق . باركك الله .. هذا اليأس العفزع أرقفتى -

ويضع الشمس بطانية فوق ظهر الحمار . ثم يسط فوقها قطعة من القماش ذات حواف مطرزة لأشجار سنرو و«سليمان» . ثم اقترب بالحمار من عتبة عاتية . وحمل المطران بيديه وأجلسه فوقه .

وكان اليأشا قد فرغ لتوه من تناول وجبة مليية - مضمصة . كان عاتمة لدجاجة . وشرب ابريقا كاملا من نبيذ «الفيسيا» ثم نادى خادمه «سليمان» :
- أيها الأحق «سليمان» . يجب ان اذهب لأرى هذا القس الكافر السمين حتى أظهر للمسيحيين وللأتراك معا ان القتال قد انتهى وأن الذئب والحمل قد غفر كل منهما للآخر . جهز جوادى اذن . فالظاهر اننى لن أستطيع الذهاب سيرا على قدمى . وتعال أنت معى . فقد أكلت كثيرا وأحس بالنعاس .. فأمسك بى جيدا ونحن نقطع الطريق حتى لا أسقط .

ولكنه عندما هبط الدرج ونهيا لامتناء صهوة الجواد . ظهر أمامه كل من «بابايانيس» و«أفندينا» .. وقد تعانقا .. وغابا فى حالة من الوجد بشاميلان ويصيحان ويتناقشان .

كان «بابايانيس» يحتفل باليوم كما لو كان عيدا . ان واحدة من حفيداته قد أنجبت ولدا .. وأصبح يستطيع ان يحمل بين يديه أول أبناء أحفاده .. وكانت مناسبة كافية لأن يشرب . وعندما شرب .. وانتشى . تذكر «أفندينا» فدعاه وأجلسه وقدم له الطعام والشراب .

وقال «أفندينا» وهو يتشمم الطعام فوق العائدة فى قلق :

- فلنقسم أولا بانك لن تتشك ديشى .

- أقسم يا أفندينا .. فلا تخف . ليس هناك لحم خنزير .. وليس هناك نبيذ . وسوف أكل معك ..

وقال أفندينا :

- لا بأس بالنبيذ . أستطيع ان أشربه . فאלك بشريونه .

- أنا لا أريد ان تحملنى أوزارك فتلطف حول عنقي يوم الحساب . ولذلك فسوف نشرب بعض «السحلب» .

- لا .. لا ان السحلب لا يناسب معدتي يا باربايانيس .. سوف اشرب
اللبنيذ فهو لا يسبب لي ضررا . لحم الخنزير فقط هو الذي يسبب الضرر .

وهكذا افرغ الاثنان زجاجة وانتشيا .

وقال «باربايانيس» فجأة :

- ما رايك يا باربايانيس طالما انني لن اضطر الي عبور أحد الشوارع ؟
- استطيع ان احمك فوق ظهري . فلا تخف . حسن .. فاستمع الي :
انت تركي . وانا مسيحي . فهل تريد ان تقتلني ؟ امامك السكين ..
فأذبني .

وصاح أفندينا :

- لا بحق ديني . اهد هذا السكين يا باربايانيس . انت تجعل قلبي يكاد
يتوقف .

- حسن .. فانا ايضا لا بد ان اذهبك . اليس من الافضل ان ان يصيح
كل الاتراك والمسيحيين مثلنا نحن الاتيين . يعيشون كالأخوة ؟ ألم تر
أحيانا كلمة تنح شيها لقطة بين صغارها ؟ حسن .. فهكذا ينبغي ان يكون
الحال في كريت . هل تفهم ما اقصد ؟ .. اريد ان قول إننا - نحن -
الاتيين - يجب ان نذهب متشاكبي الأذرع الي الباشا لنقول له : « انظر
البنا يا باشا ، انظر كيف فعل الاتراك والمسيحيين ، أفندينا هو تركيا . وأنا
أمثل المسيحية . وقد صرنا أخوين . فمر لنا ببعض الشراب » وسوف
ينفجر الباشا ضاحكا - هذا الرجل الطيب . تخطفه الشيطان - وسوف
يقول : « قدموا لهما ما يريدان ، اني اباركهما » .. وسوف يخرج من دولابه
وساما لكل واحد منا . فنحنى معا متشاكبين - أنت الذي تمثل تركيا . وأنا
الذي امثل المسيحية - وتخرج بعدها عبر الشارع العريش .. الي الكنيسة
لتصلي ثم الي المسجد لتصلي ايضا - وبعدها نمضي الي مقهى حسين
أغا حيث يغني شباب الاتراك وحيث ترتفع روح الرجال في سعادة . هل
تفهمني يا أفندينا ؟ .. هل توافق ؟

وقال «أفندينا» وهو يحس بالبرد يتصيب من وجهه :

- وماذا عن المياه يا باربايانيس ؟

- قلت لك لا تخف . فسوف احمك فوق ظهري . ثم اني تعلمت
السباحة . فانتظر الآن حتى اسبح نفسي - اعني ان احمل معي نسيفي
وترسي .

ورفع سيفا معلقا بالمناط . ويبحث في درج العطبخ عن الترس الذي كان
مجرد قطعة من الصفيح كتلك التي يعلقونها بالأشجار انقاء للعين
الشريفة . ثم قال :

- الامام .. باسم المسيح وباسم محمد . قل نفس الشيء يا أفندينا
وسوف يصبح كل شيء على مايرام يا أحمق .
- ولكن لا بد ان اقدم اسم محمد أولا . فلنتوخ العدل .
- وماذا لو فعلت ؟ حسن .. هيا اذن .

وقال أفندينا :

- باسم محمد وباسم المسيح ..

ثم خطا الاثنان عتبة الدار مبتدئين بالقدم اليمنى .

واستدار «أفندينا» في الطريق وسأل «باربايانيس» :

- ما رايك يا باربايانيس ؟ هل نمر بعلي آغا لناخذة معنا هو ايضا ؟ انه
ليس تركيا وليس يونانيا . انه مجرد واحد كالأخرين . فلناخذة معنا حتى
نبرز للباشا كل الأمة .

وصاح «باربايانيس» الذي ود لحظتها لو قيل الدنيا كلها من فرط البهجة
- ولم لا ؟

ووصلا الي حى الكابتن «ميخائيليس» وقرعا بابا «على آغا» .. وسمعا
اصوت ارتطام كتل خشبية داخل الفناء .. وقال الصوت الحاد الصغير من
الداخل :

- من هناك ؟

وصاح «باربايانيس» :

- صديقان يا اعلى آغا ، فافتح .. لقد جئنا نحمل اليك السم ..
- انا خائف يا والادى .. فلأهدبا لحال سبيلكما .. اى اصدقاء ؟
وقال أفندينا يقدم نفسه :
- انه انا يا اعلى آغا .. أفندينا «روث الخيل» .

وفتح الرجل الضئيل الباب .. وظهر متعصن الوجه . لقد ظل منذ هروب

المسيحيين يروح ويحيى هنا وهناك : المسيحيون لا يتقون به ، والأتراك لا يقيمون له وزنا . وكان يخرج كل صباح الى الحقول ليجمع بعض الاعشاب ياكلها مغموسة بالزيت ويبتسفر اللحظة التي يتعلل فيها الرجال ويعود فيها الجيران الى بيوتهم حتى تعود زيارات المساء الحافلة بالطعام .

ورأى مباربايانس الى ان ذك من الدنيا هبط على اغانا . واحس فجأة بأنه معجب بهذا التركي .. فقد افترقه يؤسه الشديد . وسأله وهو يأخذ بين ذراعيه :

- ماذا اصابك ياغلى اغانا ؟
- لقد اصبحت عجوزا يا باربايانيس ، لم اعد اقدر حتى على اخذ ظهري .. لم اعد قادرا على ثقلب الاخشاب .
وسأله ائندينا :

- هل ستذهب معنا الى الباشا ؟
وصاح العجوز في فزع :
- الى الباشا ؟ وماذا افعل هناك ، .. لا .. لن اخرج من هنا .

وقال مباربايانس ، يشرح الامر -
- انه لصالحك ياغلى اغانا . سوف تحصل على وسام .
وصاح العجوز وهو يغلغ الاب يعقف :
- استغفلكما بالله ان تعضيا الى حال سبيلكما وان تدعاني وشائى .
فقال مباربايانس :
- دعه اذن يا ائندينا . انه اشبه بالميت ، وهيا بنا .

ووصل الاثنان الى الميدان الرئيسى واتجها نحو بوابة الباشا .. وظهر الاحمقان فى نفس اللحظة التى كان الباشا فيها يهبط الدرج .

وصاح الاثنان عندما ابصرا به -
- يا ائندينا الباشا ، قفى وولنا حقنا من الاعجاب .
وسألها الباشا وهو يضحك :
- ماذا يجول براسى الدجاجتين ؟ وما هذه المستخرة ؟

وكان ائندينا قد عقد حواف سروال الخيش الذى يرتديه بعد ان تحرزت

خبيطة بينما وضع مباربايانس السيف بين ساقيه .. وتقدم الاثنان . وبدأ ممثل المسيحية يتكلم فى وقار :

- يا ائندينا الباشا ، لا تحسبنى الان مباربايانس ، بائع الكعك . انا الان مملكة المسيح ، وهذا الرجل ليس ائندينا روث الخيل كما يسمونه . وانما هو متركيا ، لقد اكلنا عشب الخضام واصبحنا اعداء ، ثم اكلنا الشهد فى النهاية وهذا الحال . وما نحن الان قد اصبحتنا اخوة يا ائندينا الباشا : الا ترى ؟ ان كريت مثل الكلية التى تستطيع ان تمنح ثديها لصغارها وتمنحه ايضا للقطط الصغار . ان اللين متوافر للجميع كما ترى .. ويعده وبعه الوقتاق والحب والحياة المطننة والسعادة ، لقد اصبحت اليوم جدا اكبر . فلتعمل من اجل الاصلاح اذن يا باشا .

ويعد ان اغرق الباشا فى الضحك صاح :
- يا سليمان .. هذا الرجل ليس اخفق . من يصدق الان انه كذلك ؟
هذان الرجلان اكثر تعقلا - بحق ديتى - من العطران ومعنى انا ايضا . قدم لهما شرابا وطعاما طيبين .

- ووساما يا ائندينا . ليست هناك اوسمة يا ائندينا الباشا ؟
وفال مباربايانس ، معموما -
- ما هذا ؟ يكلفيكما وسام واحد . لقد منحتك من قبل وساما .
- وماذا عن ائندينا ؟
واشار الى صديقه الذى كانت سراويله تتزلق .
- اعطه خيطا يا سليمان حتى يثبت سرواله .

ثم صاح امرا :
- كفى .. هذا هو كل ما عندى لكما من اوسمة .. فانصرفا اذن فاننا مشغول .

وعندما وصل الباشا الى بيت اركوتدولاء اسعده ان يجد حمار العطران مربوطا الى حلقة الباب . فقال :
- لقد وصل العطران قبلى ، وهذا يعنى انه يعترف باننى انا الكبير هنا .
وانزله سليمان من فوق ظهر الجواد . وسار عبر الفناء الواسع المسهد والذى تنتشر خلاله اصص الزهور . واقبلت صاحبة البيت العجوز لترحب به

و قد شدت وسطها حتى بدت كمدارة الحبوب .. وبدأ أنفها وسط وجهها
المطلى بالمساحيق مغترا مزعجا .

وكان المطران قد قام مرحبا ، وانحنى الباشا عندما دخل الى الحجرة ،
ثم جلس في مواجهته وأخرج مسبحته ، وأسحبت العجوز تاركة الرجلين
الكبيرين وحدهما يناقشان الأمور المهمة التي تخص البلد .

وساد الصمت لحظة بينما كان المطران يدهم يديه فوق الموقد
البويزي أمامه ، فقد كاد يتجمد من شدة البرد . وتتأب المطران بالتالي :

وأخيرا تكلم المطران حتى يفتح باب الحديث :

- البرد شديد اليوم يا أفندينا الباشا .

وأجاب الباشا وهو لا يزال يتأثب :

- نعم .. فقد أقبل الشتاء يا أفندينا المطران .

ثم انحنى فوق الموقد .. وفتح فمه .. ولكن في صغوية بالغة :

- سمعت أن دخان الفحم يسبب الدوار ، أنا أحس بالدوار فعلا .

وقال المطران وهو يتأب بدوره :

- نعم .. سمعت ذلك .. ولكن حين لا يكون الفحم كامل الاحتراق .

وساد الصمت من جديد ، وأحس الباشا بالتعب وهو يبقي يديه

معدويتين فوق الموقد ، فأراحهما فوق ركبتيه وهو يجيل البصر حوله الى

ساعة الحائط الكبيرة والى الاتان الأخضر الملىء بالورود الحمراء المخملية

فوق دواليب رسم فوقه بالحفر ، والى جانبها تمثال لمغربي دى رأس مفرغ

ملىء بأعواد الثقاب ، وفوق الياب صورته هو باللون الأحمر والذهبي

والأسود تمثله وهو ينظر في خيلاء وعظمة .. ولا تكاد الصورة تغفل قدر

شعرة من الأصل . وبينما كان يتطلع الى الصورة معجبا باناقته . أجفل

فجأة ، فقد خيل اليه أن زر طربوشه يتحرك ، فقال في رعشة :

- يا أفندينا المطران ، خيل الى أن زر طربوشى يتحرك فى الصورة ،

أيمكن أن يحدث هذا ؟ ما رأيك ؟

وكان المطران يحس بالارهاق والضيق لأنه لم يتم كعادته بعد الظهر ..

ولكنه استجمع قواه .. وتطلع الى الصورة يفحصها - وعاد الباشا يسأل

- اهذا يمكن يا أفندينا المطران ؟

- عم تتحدث يا باشا ؟

- عن زر طربوشى الذى يتحرك فى الصورة .

وقال المطران وهو يستند بجسده الثقيل الى ظهر مقعده :

- لا .. هذا مستحيل يا أفندينا الباشا .

واستند الباشا بدوره الى ظهر مقعده وأغلق عينيه ، وحين رأى المطران

أغلق هو الآخر عينيه .

وبرز الديك من ساعة الحائط معلنا الوقت ، وهبت ريح شمالية حركت

الشجير بعنف فى الغناء . ونقر عصافير زجاج النافذة ثم ما لبث أن طار

مذعورا حين سمع شخيرا مفرعا . وتسللت القطعة الضخمة التى تعيش

بالبيت وقلزت الى حجر المطران وتوقعت تدفء نفسها ببطنه .. ونامت فى

أطمئنان .. وعاد الديك يبرز من داخل الحائط ليعلم الوقت مرة أخرى .

وضعت أركوندولا فى لقق .. إذنها الى الباب ، ولم تسمع حديثا .

وانما سمعت أنفاسا منتظمة طويلة .. وشخيرا مطمئنا .. وأحد تغبل كأنه

صوت طيلة ضخمة . والآخر كزئير اليوق ، فقالت لنفسها : سوف أعد لهما

بعض القهوة لتوقظهما .

ثم اتجهت الى المطبخ لتضع الاتان فوق النار ، وما لبث الباشا أن سمع

صريز الباب ، ففتح عينيه ، ورأى صاحبة البيت العجوز تدخل حاملة

سنيوية مستديرة ، فقال ساخرا وهو يشير الى المطران النائم :

- لقد غلبه النوم ، لم يعد الممكنين يصلح لهذا الأمر .. لقد شاح .

وفتح المطران عينيه هو الآخر على رائحة القهوة وهى تتسلل الى أنفه ،

وقال وهو يمد يده الى الفنجان :

- لك الشكر من القلب أركوندولا ، كنت فى أشد الحاجة اليه ، قبينى

وبين النوم قيد شعرة .

ورشف الاثنان قهقهتهما يسعادة وبصوت عال . بينما استدار المطران الى الباشا وهو يقول :

- ان محصول القمح ينشر بالخير هذا العام يا القدينا الباشا .
وقال الباشا في يونانية ناقصة
- والشخير ايضا يا القدينا المطران .

ثم نهض واقفا وهو يقول :

- لقد امضيتنا وقتا طويلا اليوم ، فلنكرر هذا اللقاء يوما آخر من أجل مزيد من التداول .

وقال المطران وهو يقف مستندا الى مقعده هو الآخر :

- بكل سرور يا القدينا الباشا .

وكان شة جمع قد اجتمعت خارج البيت بعد ان عرف ان الزعيمين قد التقيا لأول مرة منذ عدة اشهر للتداول في كيفية اقرار الوفاق في البلد . ووقف الجمع ينتظر في البرد .. ويرى الاثنين وهما يخرجان متشابكي الأيدي .

وهو ، كاساباكيس ، الطبيب .. وتوقف ، وراى ، ارستوتل ، الصيدلي يقف منتظرا فسأله :

- ماذا يحدث يا سيد ارستوتل ؟ هل مات أحد ؟

وقال ارستوتل :

- حذار ياكتور . ان الباشا والمطران بالداخل يتفاوضان حول كيفية اقرار الوفاق في البلد . وقد راهم البعض من خلال النافذة والأوراق امامهما : كان المطران يكتب والباشا يتكلم وهو يلوح بيديه . لعلهما الآن يضعان اختتامهما على الورق . كيف حال السيدة مارسيل ؟

وهز الطبيب كتفيه وهو يقول :

- دائما كما هي .. سوف ابعث بها الى ارضي ، كاستاباس ، في الريف حتى تغير الجو .

وكان يتكلم في رضا ، لانه نجح أخيرا في ابعادها حتى يصبح هو وحده

مع الخادمة .. وبينما كان الجميع يتبادلون الأحاديث ، ظهر السيد ، ديميتريوس ، قادما من القرى لأول مرة بعد سبعة اشهر من التجوال وفي يده مظلة من أجل ان يزيل - على حد تعبيره - الهم عن قلبه . ولم يكن طوال هذه الشهور السبعة يتكلم الا نادرا حتى ظن الفلاحون ان الجننيات قد سلبت القدرة على الكلام ، وأسبغوا عليه الشرف اذ سلكوه في عداد الذين مسهم الجن . وكانوا يمنحونه كسر الخبز قباخذها ، ويلوكها دون ان يتوقف . ويتابع السير الى قرية أخرى . وكان يضع المظلة احيانا تحت إبطه . ويفتحها احيانا حسب حالة الطقس .

كان السيد ، ديميتريوس ، يتابع تجواله والقلق يستبد به طوال الفترة التي كانت ، كريت ، تتأصل فيها ملك الموت . اما وقد بدأ السلام يسود ، فقد وجد السلام أيضا في ان يعود الى زوجته ، بنيلوب ، وقد تعمق حذاره وتمزقت ثيابه وضاعت قبعته وأصبح سرواله فضفاضا فوق جسده الذي زاد تحولا .. بتطابر في الهواء مثل ، جوتلة ، امرأة .

ومر بالجمع وهو يعرج مستندا الى مظلة . وقال الطبيب وهو يضحك :

- ما أشد ما هزل جسده .. ان سرواله يكاد ان يكون فارغا ..

واجابه السيد ، ارستوتل ، وهو يهز رأسه المديب كالخيارية :

- لا تقلق عليه ، فسرعان ما يملؤه من جديد . اين ما اصابه بجانب ما اصابني انا من سوء الحظ !!

وكان يفكر في بقائه بالشارع العريض ، وفي انه لم ينجب ولدا يرثه . وكان يفكر ايضا في شقيقاته الثلاث العوانس وتقويهن في باب البيت ، والتي من خلالها يمارسن متعتهن الوحيدة : رؤية الدنيا .

وقال الطبيب للقادم الجديد :

- مرحبا يا سيد ، ديميتريوس ، . كيف حالك ؟

وقال ، ديميتريوس ، وهو يتابع السير :

- الشكر لله .. لقد كسرت قدمي .

وتغمم الصيدلى وهو يتابعه بنظرة :
- لا يستمتع بالدينا حقا الا المغفلون . اما العلاء . فالويل لهم ، كل
الويل .

وصاح الطبيب فجأة :
- اوه .. لقد نسيت ، يجب ان انصرف .

- وماذا نسيت ؟ مريضا ؟

- نعم .. انها اليهودية التي جاء بها ابن اخ الكابتن ميخائيليس . لقد
اجهضت .. فتاة جميلة شقراء - هل رايتها ؟

وقال الصيدلى فى سعادة خبيثة :
- فهذه لعبته الآن اذن .

ثم وقف على اطراف اصابعه ليرى ما يجرى فى فناء بيت « اركوندلا »
حتى يحكى التفاصيل لشقيقاته . ورأى الجمع المحتشد فى تلك اللحظة
الطران الضخم الابيض اللحية يخطو فى وقار عبر الفضاء بين صفتين من
اصصر الورد متجها الى الباب وقد أمسك بيده يد الباشا ذى اللحية
الرمادية الخشنة . واقسح الاتراك واليونانيون الطريق للأتنين بينما الباشا
يبتسم بعينا ويسارا على حين كان الطران متجهم الوجه عاقد الحاجبين
يستند فى تناقل على عصاه الرسمية . كان يريد التخلص فى اسرع وقت
من الباشا . واسرع الشماس يلك رباط الحمار . بينما هرع سليمان
بالجواد .

كان « نعيمى » تحتمل الالام فى بيت اسرة زوجها . لم يكن قد غمض
لها جفن طوال الليلة الماضية حيث ظلت تفكر فى زوجها وفى الجبل الذى
لايد انه كان يتسلقه فى تلك الاثناء . وتفكر فى وليدها الذى ينمو داخل
بطنها ويضغط عليها بقسوة . واحسست برعب غريب يمنعا من النوم .
ويخطر ما فى الجو يتهددها : جسم غير مرئى . صوت لا صوت له .
شبح .. احسست بالعرق البارد يتصبب من جسمها وذلك الشامخ يقفز الى

ذمها . فنهضت واقفة حتى لا تمتشق وفتحت النافذة فاندفع هواء الصباح
المتنعش . كان الصباح يتيق .. وهبطت « نعيمى » فوجدت الام العجوز
محنية توقد نار الفرن . فقالت :

- اماه .. احس بالتعب .. ساخرج لاشم الهواء .

وعندما نظرت اليها الام اجفلت . كانت المسكينة ترتعش من الخوف وقد
برزت عظامها واحاطت بعينها هائلتان سوداوان . وسألتها فى اسفلق :

- والى اين تذهبين فى هذا الوقت المبكر من الصباح وفى هذا الجو
البارد ياطفلتى ؟ سوف تزداد حالتك سوءا .

وترددت « نعيمى » احسست بالخجل من ان يفترض تلك الذعر القاتل
الذى كان يتملكها .. وان تغضخ حالتها حقيقة المكان الذى كانت تريد ان
تتوجه اليه ..

وعادت العجوز تقول :

- الا تعرفين الى اين تريدان الذهاب فى هذا الوقت ؟

- اعرف يا امى . الى الكنيسة لاوقد شمعة .

وصاحت الام :

- هل رايته فى الحلم يا ابنتى ؟

- نعم .

- ووجهت الام بصرها الى السماء ودققتها برتعش . كانت « نعيمى »
ولاشك على حق . انه لم يعد بعد . انه لا يزال فى الجو .. يتسلل خلال
الابواب .. انه لا يزال يضم شرا .

واخيرا قالت فى صوت خافت كما لو كانت تخشى ان يسمعها العجوز
الميت :

- اسمعى يا ابنتى . اذهبى الى الكنيسة واوقدى شمعة من اجله .

وسلى من أجله حتى يشفق عليك . ولكنى استحلكت باله الا تخبريه بأن
حفيده - بانك - .

لن أخيره ياأمى ..

- خذى هذا الوشاح والتقى به جيدا حتى لا يصيبك برد .

وكانت الكنيسة خاوية وائمة حزم متفرقة من الضوء تتسلل خلال النوافذ
الملونة وتوقظ القديسين . والثريا . وأعمدة الشمعدان البرونزية . والى
اليمين من أعلى المذبح . القديس « ميناس » على سهوة جواده . وتناولت
« نعيمة » شمعة من فوق المنضدة واتجهت نحو مذبح السيدة العذراء
التي تعلق صورتها المذبح الى جوار « الباب الجميل » . ولم تجد فى نفسها
الجرأة على أن تتخاطب العجوز الميت مباشرة . وقضت أن تتحدث الى
السيدة العذراء .. الأم ... كواسطة بينها وبينه .

وكان ضوء المصباح الفضى فى مواجهة تمثال السيدة العذراء يلقى
ضوءه الناعم على ذقنها المرتفع وفوق عينيها اللوزيتين . والعصابة
الحمرء حول رأسها .. والمطرزة بالنجوم الذهبية . وركعت « نعيمة » وهى
تنظر إليها .. وظلت راكمها لا تتكلم فترة من الوقت طويلة . وكلما أمعت
النظر .. هذا قلبها واستقر . كانت العذراء تمسك بابنها فى حزم بين
يديها وكانها تخشى أن ينزعه احد . وكانت تسند خدها فى رفق الى خده
وتمسك بصليب خشبى امامه كأنه اللعنة .

ووقفت « نعيمة » وأوقدت شمعة . وقربت فاهها من العذراء وبدأت
تحدثها لم تكن قد تعلمت الصلوات بعد .. فحدثتها كما يمكن أن تتحدث
الى جارة طيبة طرقت بابها وهى فى محنة .

« ياأمى .. أنا نعيمة اليهودية . جئت من أقصى الدنيا . تركت دين
أبائى وأصبحت مسيحية . أنا فى محنة أيتها الأم .. فساعدينى . قولى له
الا يجيئنى بالليل ليعيدنى .. قولى له الا يؤذنى . أنا لا أرجو لبيته سوى
الخير . ابنى أحب ولده . وليس لى فى الدنيا سعادة سواء . ياأمى . سوف
اقول لك شيئا آخر . ولكن : أرجو ألا تنقله اليه : سوف أصبح أما بعد

ثلاثة اشهر . وأخشى أن يؤذى طفلى . لا تدعيه يفعل ذلك . ابنى أركع عند
قدميك بالأم امهات الدنيا .. كوني رحيمة بى .

ثم رفعت رأسها : « ورات العذراء تنظر اليها فى حزن وبأس . وخيل
اليها أن عينيها قد ملانها الدموع فجأة . وارتعشت « نعيمة » . وانتزع
من أذنها القرط الذهبى - هدية كوزماس اليها - وعلقته فوق المذبح وهى
تقول فى همس :

- « هذا كل ما عندى أيتها العذراء المقدسة . هذا القرط لك .. فكرى
فى » .

وعندما عادت الى البيت رأتها « ماريما » فأشاحت بوجهها عنها فى عنف
بينما اتجهت الام العجوز نحوها تسألها :
- هل أوقدت شمعة من أجله ياطفلى ؟ هل سمعت صوتا ؟ هل قال
شيئا ؟

وقالت « نعيمة » :
- أنا ذاهبة لأرقد ياأمى . فانا متعبة .

وصعدت الدرج فى بطء وبأنفاس ثقيلة . وتعددت فوق السرير الحديدى
العريض الذى عانق فوقه المرحوم زوجته أيام كان حيا .

كان الجو خائفا . وكانت « نعيمة » تتنفس بصعوبة وعينها مفتوحتان .
فقد كانت تخشى أن يقحم عليها الرجل الميت المكان وسط الظلام أن هى
أغلقت عينيها .

ودفت الساعة فى الطابق الأسفل . ومن قم الماذن تنهى صوت
المؤذن منغما مؤثرا : الظهر . وأحست بمرارة داخل فمها فلم تنزل لتأكل
وبقيت عيناها مثبتتين على النخلة التى ترتفع فى فناء بيت « أركوندولا »
عالية فوق سطوح المباني . وهبت ريح عنيفة . واهتزت ضلف النوافذ .
وأمسطنعت أوراق النخيل التى تشبه نصال السيوف . وعلى المذبح فى
مواجهتها . ارتعشت ذبالة المصباح الصغير - وبدأ اللهب الخافت وكانه

يبدو أن ينطلق خارج الزجاجية ، ولكن ، نعيمى ، كانت عاجزة عن القيام لشئ المصباح الذى يصارع الموت .. بالزيت .

وأرغقتها التحديق المتصل ، فأغلقت عينها ، ولم تدر ما إذا كان النوم عليها لم أنه قد خيل إليها ذلك ؟ ولكنها على أية حال .. أغلقت عينها فى ذعر وهى واثقة تماما من أن شخصا ما قد تسلسل إلى الحجرة دون أن يفتح بابها .. وبذلت ، نعيمى ، أقصى ما استطاعت من جهد لتتراجع إلى أبعاد حافة السرير .. ثم فتحت عينها ، لا أحد .. ولكنها بالرغم من ذلك كانت تحس بأن شئ شخصا يقف أمامها بين قوائم السرير .

وهمست ، نعيمى ، وقد استبد بها الفزع ، أنه هو .. وعادت تحديق فى الهواء وقد انطلق لها المصباح وغرق المذبح فى الظلال . وكانت كلما أعمنت التحديق ، قوى احساسها بأن الهواء أمام السرير يتكثف ويتجسد : فى البداية لمع مستدسان فضيان ، ثم عنق قوى وشارب أسود مصبوغ بالشمع ، وعينان يطولهما حاجبان كثيفان .. حتى أصبح رجلا تراه العين .

وصرخت ، نعيمى ، :

- أيتها العذراء المقدسة ، التجدة ، أخرجيه من هنا .

ولكنه رفع يده على الفور ، وجذب الملازمة ونحاحا جانبا ، ثم هوى بقبضة يده فوق جسد ، نعيمى ، .

وبدت عن المسكينة صرخة حادة ، وتدرجت من فوق السرير إلى الأرض .. وسمعتها الأم فأسرعت تصعد الدرج لتجد السيدة غارقة فى بركة من الدماء ، فصاحت :

- ماريا .. الطبيب ، بسرعة .

وأبعدت الطفل الذى ولد ساكنا لا يتحرك ، وجعلت تسمح جسد ، نعيمى ، بالروائح العطرية ، ثم أضاعت المصباح وجلست تنتظر وهى تتعجب فى داخلها على حفيدها الذى ولد بلا حس ولا حركة . وما لبثت ، نعيمى ، بوجهها الشاحب أن فتحت عينيها وألقت نظرة حيرى حولها .

أين هى ياترى ؟ وما هذه الدماء ، ومن الذى وجه إليها الضربة ؟ ومنذ متى يستبد هذا الألم الطامى بأحاسائها ؟ وزمت شفقتها حتى لا تصرخ ، ودرات الأم العجوز تتحنى فوقها حادة إليها ذراعها ، فهمست تقول :

- الألم شديد يا أمى .

وجلست الأم إلى جانبها ترطب جسدها بالمطر وفكرها فى ابنها البعيد . ياترى يعرف ابنها الحبيب بهذه الكارثة ؟ وأين هو الآن ياترى فى هذه اللحظة ؟ أليكون فى صحن دار الجد ؟

ولكن ، كوزماس ، كان بعيدا جدا عن صحن دار الجد يتسلق الجبل وسط ظلام الليل وتحت الأمطار ، يتبعه فى صمت العجوز ، شاربيديموس ، بجسده المنحنى ، بينما صورة جده وهو يموت والقبائرة تمنحه جواب سؤاله .. تتجسد أمام روحه فى جمال فائق .

وفجأة توقف ، شاربيديموس ، فلم يعد يطبق مزيدا من الصمت ، أن الرحلة تعنى الحديث المتبادل والمعاملات .. ولكن هذا الرجل الذى يرتدى الملابس الأفرتجية لا يتكلم ولا يضحك .

- لماذا أنت فى عجلة هكذا ياسيدى ؟ لنرى الكابتن ميخائيليس ؟ عليه اللعنة الأفضل لك ألا تراه أبدا .. وإذا كان لابد لك من أن تراه فليكن ذلك إذن دون عجلة كلما أمكن .. ولا تقصر وقت ممكن . لقد أرسلنى جده أول أمس لأبلغه أنه يموت وأنه ينتظر حضوره ليودعه . وعندما استدار ونظر إلى نظرتة الوحشية كدت أن أخرج ما بجوفى .

- لا تنزعج ياشاربيديموس ، انه عمى . ان دماؤه هى ذات الدماء التى تسرى فى عروقى ، وأست خائفا منه .

- فأنت إذن من القوة بما يمكنك من مواجهته ؟ لراهن أنك لم تكون بالقدر الكافى من القوة .

- بل سوف أكون . فلا تتكلم .. وأسرع .

كان كوزماس ، قد عقد العزم على الايندس بالحديث تلك الساعة من الاجتماع الصامت ، لانه كان يفكر في جده - ذلك الجذع القوى الضارب في الارض - ويفكر أيضا في ذلك الغصن المعقد من هذه الشجيرة - الكابتن ميخائيليس الذي يمسك بين يديه ولاشك بمصير كريت . كيف ياترى يتحدث اليه ، وكيف ينسئ له ان يؤثر فيه ؟ وماذا سيقول له ؟ واي شيطان يمتلكه ؟ لقد قال له المطران : ، ان خطاه هو الذي تسبب في ضياع دير السيد المسيح ، هو الآن يريد ان يحو هذا العار - هذا هو السبب في انه لا يريد ان يخصت الى صوت الصواب - ولعله يريد ان يموت ليدفع ثمن خطئه .

وبومها سألته كوزماس .

- فماذا لو كانت مصلحة كريت تقضى بغير مايراه ؟

وظل المطران صامتا لحظات وكأنه يزن الكلمات التي سينطلق بها .. ثم قال بعد تردد :
- فليسأمننى الله ، ولكنى أؤمن بأن ثمة شيطاننا تملك جسدك .. اسعه كريت .

كذلك فإن عمه ، تيتوريوس ، استأمنه على سر :

- ثمة لحظة سوداء في حياته - امر غامض حول الكابتن بوليكسيبيس وامرأة تركية - هناك لفظ كثير حول هذا الامر - ان قلبه قد تحول الى وحش يرفض الانصياع الى ماقد يملحه عقله .

وكان ، شاريلويس ، القزم قد قال له ساخرا :

- انه يغار من اركادى .. من اجل هذا فان الشديير قد اقتنع نفسه بأنه يستطيع هو الآخر ان يفعل شيئا كبيرا ينظم الناس الاغنيات حوله .

ربما كانوا جميعا على حق ، هكذا كان ، كوزماس ، يحدث نفسه وهو يتابع صعود الجبل تحت الأمطار وينزلق أحيانا فوق الصخور المنحدرة - ترى كيف يستطيع اقتناعه بأن يستعيد بوعه اليأسا .. فيعود الى حيث يشاء بسلاحه وبأعلامه ؟ هل يركز على أن تلك رغبة المطران ؟ أو أن ملك اليونان

يطلب ذلك ؟ ان يهن كنفه بلا اكترات ؟ ألم يعد يثق في مخلوق على ظهر هذه الأرض ؟

وظل ، كوزماس ، غارقا في أفكاره بقلب كل أوجه السبل في الحديث الى هذا الوحش الضارى والتي يمكنه أن تهديه سواء السبيل . وفي ذات الوقت ، كان القلق يمزقه من الداخل . أى نوع من الولد سوف يحمله جسد ، نعيمس ، الهزيل الذى أودعه تلك البذرة المرعبة لسلالته ؟ .. كان التفكير في هذا الأمر يثير فيه الرعدة .. ومرة أخرى فقزت به أفكاره الى أرض الغرنجة .. الى المظلم والعار والفقر الذى رآه هناك .. وأخيرا ، ماذا عن دوره هو ؟ فى أى مكان ياترى يستقر ليخوض معركة حياته ؟ كان ثمة مكان لجدته -- ولأبيه .. ولعمه ، أما هو ؟ أين ياترى يحتل مكانه ليقول بعد بملء فيه : - هنا احارب معركةتى ، وإن يرححجنى احد .. وللأول مرة ، احس بأنه معلق فى الهواء .

وهذات السماء أخيرا بعد أن التقت كل أحمالها فوق الجبال ، وهبت ريح باردة تدفع السحب أمامها ، وبرزت النجوم فتوقف ، شاربيديموس ، ونظر الى السماء قاحصا :

- لقد تجاوزت الوقت منتصف الليل ، لقد قطعنا مسافة طيبة ، فان كنت تؤمن بالله ياسيدى فلنتوقف قليلا تحت هذه الصخرة . انها بعيدة عن مهب الريح . ونستطيع أن نشعل سيجارة .

- هل تعبت ياشاربيديموس ؟

- نعم .. تعبت .. يجب ان تعرف أنتى عجوز ، وأن عظامى أصبحت ثقيلة .

والحق أن الخبيث لم يكن قد تعب على الاطلاق ، ولكنه كان يتحرق شوقا الى الحديث . وجلس الاثنان تحت الصخرة ، وقدم له ، كوزماس ، سيجارة .

والآن ، كيف يبدأ شاربيديموس الحديث ؟ .. نظر الى السماء أولا . ما الذى يستطيع أن يقوله عنها ؟ .. ثم طرحها جانبا .. وفكر فى قريته . وفى ميجاوا كاسترو ، وفى كريت كموضوعات ممكنة للحديث . ولكن ماذا

يمكن أن يقول عنها ولا يعرفه هذا الأفرنجى معرفة كاملة ؟ موضوعات هي الأخرى لا تجدى . وقجاة . توقف عند اسم أحد أعمامه ، أندريولوس ، سوف يحدثك عن هذا العم في معرض المقارنة به .. وفي معرض مقارنة الكاتب ، ميخائيليس ، به . ان الكاتب ميخائيليس بالنسبة لعمه هذا ليس أكثر من ذبابة . وسوف أريه .

وجذب من سيجارته نفسا عميقا أتى عليها كلها حتى احترقت أصابعه ، ولكنه لم يلق بها .. واستدار الى « كوزماس » .

هل تعرف ياسيدى ماهو الكبر وحش ضار في هذه الدنيا ؟ قد تقول انه الأسد . أبدا . الرجل .. قد تسألنى : لماذا ؟ لأنه يقتل ويقتل الأتراك مثل عمك ؟ أم لأنه يشترع الأسلحة بخبث الشياطين ويقتل الأسود ؟ لا هذا ولا ذلك . وسوف أقسرلك الأمر . ان لى عما . انهم يسمونه - سامسهم الله - ، أندريولوس . وقد نشأ ضعيف البنية فسموه « الوهم » . لأنه لم يكن يزيد في حجمه عن الحمصة . وكان يجرى هنا وهناك . لا . لم يكن يجرى . بل كان يقفز كما يقفز د نطاط الحشائش ، ولا يكف عن الأنتين والبكاء بسبب ايذاء رفقائه له . وقال الأطباء ان عنده حصاة وأن موته مؤكد . ولكنه بالرغم من ذلك ياولدى - صدقنى - أصبح شبيها .. أصبح رجلا . كان يحمل فأسه ويخرج ، ويركع على أرض الجبل خارج قرية ، فينيراتو ، يانج . يانج . يبيدا فى كسر صخور الجبل بفأسه : عاما وعامين وثلاثة . وكان الفلاحون يعمرون به ويروونه ، فيهزنون من فرط الضحك ويقولون : « الجبل يا أندريولوس .. وكان هويجيبي دوى أن يرفع عينيه عن القاس : أجل .. وسوف أكله لكلا . . وفي العام الثالث بدأ يبني بيتا فى سفح الجبل : خذها نصيحة منا يا أندريولوس ، لا تبني بيتا . فان من يبني بيتا لابد أن يتزوج . . وسوف أفعل هذا أيضا ايها النفاق . . وكان يقول للذين يسخرون منه : سوف أتزوج وأنجب أطفالا يساعدونى فى قهر الجبل . وكان الفلاحون يضحكون : ومن هذه المرأة التى ترضى بك يا « وهم » ؟ .

فكان يجيب

« عندما يكون ثمة زحام عند نكاح الجزار ، فان شبيها من اللحوم لا

يتبقى . وحتى انا سوف أجد زوجة . . وأكمل بناء البيت . ومرت به ذات يوم امرأة فلاحه قصيرة وسمينية وقبيحة الوجه . ولكنها كانت صغيرة . وتطلعت الى الفناء والمخزن والمطبخ وغرفة النوم . فأحببت البيت . وقالت لأندريولوس وهي تغمز له بعينها : « ما رأيك يا أندريولوس ؟ . وفهم عسى . وبالاختصار تزوجها . ونام معها . وأحسن استخدام ليته . ولكنه حين نظر الى الجبل فى صباح اليوم التالي وهو لا يزال أشبه ياقناتم حمل فأسه وعاود الحفر : يانج . يانج . يانج . وكان يقطع فى كل يوم قطعة منه حتى أتمام كومة جديدة من الصخور بنى منها بيتا آخر الى جوار الأول . وبه حجرة نوم أخرى . كما أنه وسع الفناء وبني حظيرة للحيوانات :

« هل تريد أن تبني مدينة ؟ .

« نعم .. والا فأين أضح أطفالى ؟ .

« أفلا تنص بالأم فى الكلى ؟ .

« ما هذا الحديث عن الآلام ايها الجيف ؟ . لا وقت لدى للكلم . .

ومرت الأعوام . وأنجبت النساء اولادا : اثنين ، اثنين .. وظل هو يتابع العمل بفأسه . وأصبحت فى الجبل كهوف وحفر .. فقد كان أندريولوس يأكله حقا .. ولم يعد يستطيع مفارقة الجبل . لقد شاب الآن شعره وهزل جسده أكثر وأكثر ، ولكن ساعديه أصبحتا ذوى قوة خارقة . وأصبحت مخالفه أعرض وأطول - حتى لتصل الى ركبتيه - ان من يراه لا يملك الا أن يضحك لشيئه بذلك التناسل الذى أحضره الباشا مرة الى « ميجالو كاسترو » . ان من يراه لا يملك الا أن يضحك . نعم .. ولكنه لا يملك الا أن يرتعش أيضا .. ان الفلاحين يحرسون على أن تكون ثمة مسافة بينه وبينهم . فقد حدث يوما انه عد مخالفه وقبض على أحد من الضاحكين عليه وعصر عظامه ومن يومها يهرج .. ولقد كبر أطفاله . وكانوا هم أيضا يلقون بأنفسهم فوق الجبل بفنوسهم ويأكلون منه قطعة فقلعة .. وبينون .. تزوجوا وأنجبا أطفالا . وشاخ عسى وهرم ونقل .. القاس فى يده . وذات مساء لحس وهو فى طريقه من الجبل الى البيت بأن نهايته حانت . امرهم بأن يدفنوه فى الجبل وفأسه الى جواره . ثم بسط ذراعيه .. ولغظ أنفاسه الأخيرة .. اذا أنت مررت يوما بقرية « فينيراتو » ياسيدى ، فليدلك الناس على قرية « أندريولوس » .. ان ما بناه عسى أصبح نموذجا يحتذى

ثم سكت .. وأحس بالسعادة لأنه استطاع أن يؤثر في ذلك الأفرنجي .
وبرقت عيناه ويمسك الظلام في رضا وانفعال .

- اسمع يا شارديميوس ، أنا أعرف وحشا آخر أكثر ضراوة وحجما من الأسد ومن عمك « اندروليوس » .

- ومن هو ؟

- نودة الفير .

- اللهم احفظنا . لا تفكر في هذا الأمر بحق الله .

ورسم « شارديميوس » علامة الصليب وهو يغمغم قائلا : « لعننا الله » .

ثم يصق .. وأمسك بعصاه وهو يقول في قلق : « فلنتابع السير بإسبدي » .

مع غيش الفجر . وصل « كوزماس » إلى قمة « سيلينا » يتبعه « شارديميوس » :

- امض أنت يا إسبدي .. فإذا انتهيت من أداء ما جئت من أجله .. نادني . حتى نعود أدرأجنا معا . أفضل ألا أرى عمك فسامحني .

ولم يكن الكابتن « ميخائيليس » قد نام طوال الليل . فقد ظل واقفا في موقعه يراقب دون أن يغمض له جفن . وعند أول ضوء النقط نظارته المقرية ليرى من خلالها موقعا تركيا في أثر آخر في أسفل الجبل كانت ترتفع في كل ليلة عن سابقتها . وكان واضحا أن الأتراك ليسوا في عجلة من أمرهم . وأنهم يدركون من الطلقات المتفرقة التي يطلقها المسيحيون أن ذخيرتهم تتناقص باستمرار . ويدركون أيضا أن هؤلاء الذين تجمعوا على قمة الجبل لم يعد لديهم الا قليل من الخبز يتلفون به . كان الحصار محكما لا يسمح لإنسان أو حيوان بالنتسل الا من ممر لصعود الماعز يعرفه ابن المنطقة ويستطيع عن طريقه أن يصل بالليل إلى عش النسور .

وظل الباشا يبعث رساله الى الكابتن « ميخائيليس » ليقتنع بالطاعة . وكادت القسطنطينية قد بعثت اليه تقول إنه سيكون أفضل لتركيا ان يذل المتطرفون من أن يقتلوا . لأن ذلك يعني أن « كريت » ترضخ بمحض إرادتنا . الأمر الذي تسقط معه كل دعاوى الفرنجة . وقد بعث الباشا في مساء اليوم السابق برسالة الى الكابتن « ميخائيليس » تقول : « اني أمسك آخر فرصة . استسلم غدا صباحا واعتزل بكل شرك العسكري . ولن أمسك بسوء . والا فأتني أقسم بمحمد أنتي سوف أسحقك سحقا .. »

وقد ظل الكابتن « ميخائيليس » طوال الليل يقلب الأمر على وجهه ليرى ماذا يختار . ليس لنفسه . لأنه كان قد اختار لنفسه بالفعل ولكن من أجل زملائه . لم يكن هناك أمل في الفوز . ولم يكن يريد أن يتحمل ضميره ويزم مصيبرهم . فليدع آتني كل واحد منهم يختار طريقه بمحض إرادته . وهكذا . فقد أحاطهم في ذات المساء بمضمون رسالة الباشا . فخبىوه بانهم سيفكروا في الأمر طوال الليل وسوف يكون جوابهم في صباح اليوم التالي .

ولم يغمض لاحدهم جفن ليلتها . وعندما كانت الشمس تلمس الجبل بأشعتها عند الصباح . كان كل واحد منهم قد تسلل منفردا الى الكابتن . وهامم الان ينتشرون حوله شعنا غبرا قد استمخت وتمزقت ثيابهم وغطتها بقع الدماء . ينتظرون أن يكون هو الباشا . بالحديث . ولكنه ظل يحدق في الصغور حتى يهدأ في صدره ذلك القلب المقلع وحتى يكون صوته حين يتكلم .. هادئا وليس أشبه بالزئير . كانت الأفكار تتدافع الى أعناته في حدة البرق : نار . أساكي : المرأة الشركسية .. دير السيد المسيح .. واتحى أخيرا لينتقط حجرا . وظل يضغط عليه وهو يلعن .. حتى سالت الدماء من يده .

كانت شفتاه وحاجباه يختلجان وهو ينظر حوله الى رفاقه . ثم أسفل الى الأتراك . ثم الى أعلى .. الى السماء غير المسكونة فوقه . وشمغم وهو يهز رأسه في عنف « الحرية أو الموت » .. « الحرية أو الموت » .. « أه أيها الكريتيين المساكين . بل الحرية والموت . هكذا كان ينبغي أن أكتب فوق الراية . هذه هي الراية الحقة لكل مقاتل : الحرية والموت .. الحرية .. والموت » .

وهذا قليلا .. فيعد سنين طويلة ادرك الحقيقة واتضحت الامور امامه .
واحس بقوة تسرى في قلبه وهو يستدير في هدوء الى رفاقه ويقول :

- عرفتم ما عرضه هذا الكلب علينا .. وانتم رجال ، ونحن نتنازل من اجل الحرية . ولنكن صرخاء ، ليس لدينا بارود ولا رصاص ولا خبز . ولا لمل . الاترك امامكم في جيش بينما نحن حفاة . فمن اراد منكم ان يذهب فليفعل . واقسم لكم سيغيب الذي ان اسلمه الا لله ان ليس في ذلك ادنى عار . انا ان اذهب . هذا كل ما اردت ان اقله لكم .

وساد الصمت لحظات لم يرفع فيها واحد رأسه ليتكلم . وكانت الشمس قد ارتفعت عن الافق قليلا عندما بدأت الطبول تدق كأن الجنود الأتراك يحتشمون . وعاد الكابتن « ميخائيليس » يقول : « تكلموا في حرية - واحزموا امركم بسرعة » ..

وقال رجل اسود الشعر شاحب الوجه ربط بندقيته بخيط من الدوبارة :

- انتم جميعا تعرفون اننى رجل واننى لا اهرب امام مخلوق . ولست اخشى الآن ان اوصف باننى بعيد عن الرجولة . ولكننى اريد ان اوضح وجهة نظرى في صراحة . ايها الكابتن .. اننا نفرق الآن بلا فائدة . لن نستفيد نحن ولا المسيحية . واسوف نثور « كريت » عن قريب مرة اخرى ولن نكون يومها احياء لنسدد ضرباتنا باسمها . ان حياتنا الآن اكثر فائدة لكريت من موتنا . شرف او عار ، لا يهمنى . فرصة او دمار لكريت . ذلك وحده الذى يشغل بالى .

وانصت اليه الكابتن « ميخائيليس » وقد احضى رأسه . ثم سأل :

- هل انتهيت يا هانوس ؟

- لقد تكلمت .

واستدار الكابتن « ميخائيليس » الى الآخرين :

- كل واحد بدوره . وهذا دورك يا هانوس .

وتحسس « فوروجانوس » شاربه وهو يدير برأسه بعيدا ويقول :

- طوال الليل كان ثمة شيطانان يتصارعان في اعماقى . احدثهما قال

لى : « ابتعد فليس ثمة أمل في النصر » .. وعندما جاء الفجر كان احدثهما قد انتصر .

وقال الكابتن « ميخائيليس » وهو يجول بعينيه في عيون الآخرين :

- وايهما ؟

- بالنسبة لك انت يا كابتين « ميخائيليس » - فانتى العن الساعة التى عرفتك فيها .

- حسن .

- لن اذهب .

واستدار الكابتن « ميخائيليس » الى باقى الدائرة وحوله :

- وماذا عنك انت يا كاجابيس ؟

وقال هذا وهو يتهدد :

- انا .. انا حديث عهد بالزواج . عندي زوجة لم اجد الفرصة لاستمتع معها بالسعادة . ذلك يحرق صدري .

وقال الكابتن فى اصرار :

- حسن .. ذع النساء جانبا الآن .. ماذا يقول الرجل : اننا نسال الرجل .

- لعن الله الساعة التى قابلتك فيها يا كابتين « ميخائيليس » انا ايضا اقولها . انى اريد ان اذهب ولكننى احس امامك بالخجل لن اذهب .

واستدار الكابتن الى ابن اخيه الذى كان ينظف بندقيته ويمشوها بينما رفاقه يتكلمون :

- وانت يا هانوس ؟ .. ماذا تقول ايها الفتى الذى لم تثبت لحيته ؟

واستدار « هانوس » ينظر الى عمه متجهما .. وقد امتلا غضبا واعجابا وحسدا . وقال :

- اتظن انك انت الوحيد الذى تملك الشجاعة . لمجرد ان لحيته تثبت ؟

لن اذهب .

- ولا انا ..

وصاح اثنان احران تلوث صدغاعها بالتراب
- ونحن ايضا -

اما الآخرون : عشرون او يزيدون قليلا . فقد احنوا رؤوسهم ولزموا
الصمت .

وصاح الكابتن « ميخائيليس » :
- ليس امامنا وقت كاف . ان الشمس ترتفع . تكلموا . هل تريدون
الذهاب ؟ انتم احرار انن . فالى اللقاء .

وهمس « كراسو جورجيس » الى جابه . ثم وقف وقد وضع يده فوق
صدره ..

- سامحونى ياخوتى . ان لنا اخوات لم يتزوجن . وابناء لم يعملن
وزوجات واطفال . وموتنا لن يفيد احدا . سوف نذهب .

وقال « مايسترايس » ايضا :
- سامحونى ياخوتى .. نحن ذاهبون .

وصاح الكابتن « ميخائيليس » وهو ينهض واقفا :
- بوركتكم .. بوركتكم ياخواتى . الله يشهد انى لست نالعا عليكم . تحياتنا
الى الناس اسفل الجبل . ولكن انصرفوا بسرعة . كل واحد وشأنه . ولا
تدعوهم يرونكم . اسرعوا قبل ان ترتفع الشمس اكثر .

وقال العشرون كانما نغم واحد :
- سامحونا .. وعسى الله ان يسامحك .

وقال الكابتن « ميخائيليس » :
- لكم ما تريدون . ويعن الله رجلا يقول فى حقمك كلمة واحدة - عود
حميد ..
ويقى خمسة ..

ونظر اليهم الكابتن « ميخائيليس » واحدا بعد الآخر ثم قال :

- نحن انن ستة - هذا يكفى - بل اكثر من الكفاية . ان العقل يقول :
« تريد ان نذهب » .. ولكن القلب - والله معنا - لا يسمح .. ان تغادر هذا
المكان . سوف نموت فداء لكريت . فلنحكم كريت لنا او علينا - نحن الذين
سنموت هنا . تفعل خيرا مما فعله الذين سيغيثون . ان كريت ليست فى
حاجة الى ارياب بيوت .. انها تحتاج الى مجانيين مثنا هؤلاء المجانين هم
الذين سيذلون كريت .

ثم تطلع الى السماء . وكانت الشمس ترتفع حيثما
- اعدوا بناذقكم . وغيروا مزاجكم حتى لا يكتشفوا قلة عدتنا . باسم
الله .

وفى ذات اللحظة التى بدأ فيها المناضلون السنة يتفرفون . وبينما كان
الكابتن « ميخائيليس » يتحنى امام مزغله - تنالر المحصى خلفه - ووصل
« كوزماس » - واستدار الكابتن « ميخائيليس » وامعن النظر :
- من انت ؟ اخفض رأسك اذا كنت لا تريد ان تخترقها رصاصة .

- انا « كوزماس » - ابن اخيك ياكابتن « ميخائيليس » .

وزوى الكابتن ما بين حاجبيه وقد ادرك اى ريح جعلته الى هناك فقال
فى قفاظة :
- زيارة ترحب بها - لماذا قطعتم كل هذا الطريق الى هنا ؟ وماذا يريد
الثعلب فى السوق ؟

وغض « كوزماس » شفطيه حتى لا تفلت من بينهما كلمة غاضبة . ثم قال
فى ضحكة جافة :
- انا لست ثعلبا . واپس هذا سوقا . انا عنك رجل ياكابتن
« ميخائيليس » . انا ابن اخيك .

- الذى يقاتل هو وبعده الرجل - استلق بجانبى وقل لى لماذا جئت
واوجز . فاننا مشغول .

ثم عاد يتطلع الى السماء .. كانت الشمس لصلتها تقرب من ارتفاعها
عند الظهيرة - وصاح رفاهه :

- استعدوا يا اولاد . احشوا بنادقكم . ولكن انتظروا اشارتى قبل ان تطلقوا النار .

وتناهت صيحات وحشية من اسفل الجبل . واطل « كوزماس » من خلال فريجة وسط الصخور ورأى كتلا من الجنود الاتراك تتسلق الجبل ..

وعاد الكابتن « ميخائيليس » يسأل دون ان ينظر الى ابن اخيه :
- تكلم . من الذى ارسلك ؟

.. وظل مسددا بصره الحاد نحو الاتراك . واجاب « كوزماس » :
- كريت ..

وعندما انفجر الكابتن « ميخائيليس » هادرا :

- لا اريد شيئا من هذه الكلمات الضخمة ايها المدرس . تكلم كما يتكلم الرجال . ولا تقل لى ان كريت هى التى ارسلتك . هل سمعت ؟ كريت هى انا .

وادرك « كوزماس » على الفور انه فى مواجهة رجل لا يستسلم .. ما الذى يجبره اذن على ان يمتحن نفسه بالتوسل اليه ؟ . ان الله نفسه لمن يستطيع ان يغير ما يعقل هذا الرجل . لقد اتخذ قراره الحاسم . فلماذا يرحف اذن امامه ؟ وفقر داخل خفايا صورة ذلك القلب الكريشى المرتفع . واحس بالهزل من اسلوب الحديث المصنوع .

وعاد الكابتن « ميخائيليس » يهدر دون ان ينظر اليه :
- حسن .. فماذا تريد ؟

وقال « كوزماس » فى يأس :
- لا شئ ..

وطرح جانبا كل الكلمات التى اعدتها من قبل :
- فقد جئت اذن لتتور عمك ؟ .. الف اهلا .
- جئت لآخبرك بان جدى قد مات .

ويضع الكابتن « ميخائيليس » بتدقيته جانبا . ويرسم علامة الصليب وهو يقول :

- عسى الله ان يكون كريما معه . لقد كان رجلا جديرا بالاحترام . كانت اعداله طيبة . وكانت حياته غنية . والان يرحل .. ليتام .. اما انت . فالى اللقاء نحن هنا فى حرب .

- اليس ثمة رسالة تريد ان اعملها ؟
- اذهب .
- لزوجك . لو لولدك . ثاراساكى ؟

ونفرت عروق الكابتن « ميخائيليس » واضطربت نظرتة . ورفح يده الملونة بالبارود والدماء وهو يضعها فوق فمه .. وصاح هادرا :
- باسم الله .. الحرية او الموت .

وسند بتدقيته . واطلقها . وتجاوبت بالطلقة الاسداء فى الجبال . وانتهالت على الغور رصاصات الاتراك تصفر ساعدة الى اعلى . وبدأ مدفع صغير يهدر على المتحدر كالرعد . واستقرت قذيفته خلف الكابتن « ميخائيليس » وتطلبت الاحجار .

وبدت صرخة الم . واستدار الرفاق فوجدوا « كاجابيس » وقد تخرج فوق الصخرة التى كان يقف فوقها . ليهبط عند قدمى الكابتن « ميخائيليس » . وحين حاول ان يفتح فمه ليتكلم . انبتق عنه سيل من الدماء منعه من الكلام .

وكانت الطبول اسفل تدوى .. وبدأت رؤوس الجنود تتوج وفى مقدمتهم « الدراويش » يحملون الراية الخضراء .

وصاح « تودورس » :
- دعوهم يستقبلونها يا اولاد .. امنبوا الى الكلاب

وارتفعت اكثر واكثر لصوات اقدام الزاحفين والى الكابتن « ميخائيليس » بنفسه فوق « كامانيس » . ابالخذ بين ذراعيه واضطدم

• بكوزماس • الذي كان لا يزال مستلقيا الى جواره ، فصاح فيه :
- الأتراك هنا بامدرس ، اهرب بسرعة ولا تختلط بالرجال .

ولكن • كوزماس • لم يهض . كان ينصت الى قلبه الذي راح يهدرين جنبيه .. والدماغ والياوريد يغطى وجهه . وأحس بأبيه .. ذلك القائد المرعب .. يستيقظ داخل صدره . ومعه جده .. وكريت أيضا .. وأحس بأن هذه ليست أول معركة سيخوضها : فمئذ الف سنة وهو يحارب ، ومئذ ألف سنة قتل ويعت من جديد ألف مرة . وغلت الدماغ في عروقه ..

وتحمس الكابتن • ميخائيليس • جسد • كاجابيس • في سرعة ليفحص جرحه . ويرفت عينا الرجل لحظة ، ثم تجعدت نظراتهما . ومدد الكابتن الجسد على الأرض وصاح :
- تذكروا • أركادى • ياأخوتى . ولتمت جميعا كالرجال .

وبدأت انفاس الأتراك اللاهثة تتناهى لسواتها ، وصاح • فورجانوس • وهو يخس برعشة في صدره ومعدته : « لقد ضعنا » .

وصاح • ثودوريس • الذي كانت الدماغ تسيل من جبهته وتكاد أن تعمي عينيه : « أغلق فمك » .

ثم مسح الدماغ بذراعه ورأى الأتراك امامه فصاح :
- ياأولاد .. لن تصلح البنادق ، فالى خناجركم .

ثم استل خنجر أبيه ذى القبضة السوداء ، وألقى بنفسه فوق الدرويش الذى يحمل علما ويلوح به في جنون . ولم يكد يقترب منه حتى سقط الى الخلف وقد استقرت رصاصا في راسه .

وارتفع خلفهم صوت هادر على حين فجأة :
- الصنحة والسعادة لكم ياقرسان . لقد أدركتهم في اللحظة المناسبة
ياكابتن • ميخائيليس • .

وصاح الكابتن وقد برقت عيناه :

- ماذا ؟ .. أهذا أنت يا، فيندوسوس • امحب ما قلته ياكابتن .
- ائى اسخيه . سامحنى ياأخى . تعال هنا وانخفض رأسك .

وخطا • فيندوسوس • خطوة واحدة . ولكن رصاصا عاجلته . فهوى على الأرض .

ودمعت عينا الكابتن • ميخائيليس • وهو يتحنى ليقبل جبهة • فيندوسوس • ثم استدار فرأى • كوزماس • فرقع قبضته وصاح :
- ابتعد . لا تزال امامك فرصة . ابتعد .

- لن ابتعد ثم اتحنى بسرعة ليلتقط بندقيه • كاجابيس • وليعلق حزام الذخيرة حول عنقه .. ويخرج خنجره من عنقه .. ونظر اليه الكابتن • ميخائيليس • في ذهشة :

- لن تذهب .
- لن أذهب .

وفجأة أدرك الكابتن • ميخائيليس • كل شيء . وتهلل وجهه وهو يأخذ رأس • كوزماس • بين يديه
- حياك الله ياأبن أختى . فأت أيضا تريد أن تضمى بنفسك بالكرت الخالدة .

وهبت عاصفة . واكتست السماء باللون الأحمر . وبدأت السحب تتجمع وتناهت اصوات الطيور الجائفة .

ولقز • فورجانوس • وقد أحس بالعار لأنه كان جبانا للحظة . وبدأ العوت امامه لحظتها وكأنه الله الواحد الرحيم الذى يغسل كل عار ويرسم علامة الصليب . واستل مديته وصاح : « الخرية أو الموت » . ثم اندفع تاركا السائر الذى كان يحتسى به . وألقى بنفسه مكشوف الرأس بلا حماية . فوق الأتراك . وأحاط به خمسة أو ستة منهم . فألقى بنفسه عليهم في ضراوة ووحشية ولكنهم طرحوه أرضا . وجثم أحد الدراويش وذبحه كالحمل .

وعندما رأى الكابتن • ميخائيليس • ما حدث . أصدر أوامره :

- لا يغادر احدكم ساتره .

ولم يكن قد بقي من رفاته سوى اثنتين . احتميا وراء ساترين وظلا يسددان طلقاتهما فلا تخيب منها واحدة .

وكان الكابتن « ميخائيليس » يسدد طلقاته هو الآخر الى جبهة كل جندي يظهر امامه . واصابت خده طلقة . واصابت اخرى جنبه وبدات دمائه تسيل دون ان يحس بالآلام . وكان من حين لآخر ينظر الى ابن اخيه وهو الى جانبه يطلق الرصاص في حواسن : « حياك الله يا ابن اخي . ان اباك ينهض من جديد » . « كوستاروس » ياخى .. نعم ما اتجتب .. وصاح الآخر : نعم للقاء يا عمي . واحس بالبهجة . ويانه يتحول الى شخص آخر . وتملكته نشوة سوداء مبهمة وهو يحس نفسه كأنما قد خف وزنه وتحرر . او كأنما عاد في تلك اللحظة وحدها الى بيته ووطنه . واختفت في لحظات كل الأفكار الامرنجية المثقفة . ومعها اختفت امه وزوجته واختفى ابنه . ولم يعد باقيا شامخا امامه الا شيء واحد فصعب : واجبه الأزلى .

وصاح هو الآخر وهو ينظر الى الأتراك :
- الحرية او الموت ..

وهبط ظلام مفاجيء . وهطلت الثلوج بشدة . وتخللت اشعة الشمس الغارية السحب العمراء في السماء .
وتناهى صوت
- لقاء سمعيد ياكابتن « ميخائيليس » .

كان صوت مؤذن « ميغالو كاسترو » المجهوز بعمامته الخضراء . وهو بلوح فجأة من خلف الساتر .

وقال الكابتن « ميخائيليس » :
- لقاء سمعيد يامؤذن .

ثم أرسل اليه رصاصا اخترقت منه نفاحة آدم . وانبتقت الدماء وهو المؤذن الى الأرض .

وصاح تركي ذو شعر اشقر :
- اقتلوهم .

واندفع الجنود يهدرون :

وقال الكابتن « ميخائيليس » لابن أخيه « كوزماس » :
- لا تتردد يا ابن اخي . ليس ثمة أمل . عاشت كريت .
- صدقت . ليس ثمة أمل يا عمي . عاشت كريت .

واستل كل منهما خنجره واندفع الى الامام . وكان الثلج قد بدأ يعمر جثث القتلى الممدة فوق الأرض . كما أصبحت الطرايبش بيضاء وانقض نسران نحو الرجال المقتولين يتحفظان دوائرهم وقد اشربا عنقاهما .

ووسط خضم القتال المتلاحم بالأيدي .. افترق العم وابن أخيه . واحاط الأتراك بكوزماس . وراء الكابتن « ميخائيليس » عن بعد . فالتحم سلسلة الجنود الذين كانوا يحيطون به . واندفع ليخلص ابن اخيه وهو يصيح .
- انتظر لحظة يا ابن اخي .. انا قادم اليك . ولكن الوقت كان قد فات .

وصاح واحد من أتراك المنطقة في سخرية :
- انه قادم اليه بنفسه ياكابتن « ميخائيليس » . ثم القى عند اقدامه رأس « كوزماس » .

ويسط الكابتن « ميخائيليس » يده ورفع الرأس المفضول من شعره وكأنه اللواء . واكتسى وجهه بهالة من ضوء وحشي يفيض ببهجة لا إنسانية : اكانت كبرياء . لم تحديا .. لم استهانة بالموت ؟ .. اكانت حيا لكريت لا حدود له ؟ ..

وصاح الكابتن « ميخائيليس » هادرا :
- « الحرية او »

.... ولكنه لم يكلمها . استقرت رصاصا داخل فمه . واخرقت اخرى صدغيه .. وتناثر مخه فوق الصخور .

هاتف المغييب

بقلم
جمال الغيطاني

تصدر: ١٥ مايو ١٩٩٢

رئيس التحرير: مصطفى نبيل

رقم الإيداع: ٣٠٨١ / ١٩٩٢

L. S. B. N

2 - 01bo - 07 - 977



نيقوس كازانتزاكيس

○ أشهر كاتب يوناني في القرن العشرين - عاش بين عامي ١٨٨٤ و ١٩٥٧

○ كتبه الرواية والمسرحية والمسرحية

○ درس الفلسفة بجامعة أثينا ثم في باريس - وحصل الي ولاد

أوروبا لدراسة الفن والأدب - وعاد الي اليونان ليعمل في

وظائف قنصلية في وزارة الثقافة ○ درس العقائد الشرقية لسنوات

طويلة - وترجم الأعمال الكاملة لداشي رمبو الي اليونانية

وأوليسيا هوميروس الي الانجليزية - واعتبر اعظم

امثله ○ ذات شهرة من خلال رواية

« نورديا اليوناني » ١٩١٦ - وله

روايات اخرى مثل « العطفة اليونانية - ١٩٥١ » و « الأفراس

الاعقر السيد المسيح - ١٩٤٣ ○ كتب للمسرح و المسرح

يعلم من جديد ○ تحولت أعماله الي افلام سينمائية عالمية - وترجمت

أغلبها الي اللغة العربية

نصح الكاتب اليوناني نيقوس كازانتزاكيس أن يصنع من شخصياته الروائية نماذج حية ومعروفة ربما أكثر من شهرته ككاتب - منها علي سبيل المثال شخصية « نورديا اليوناني » وشخصية الكاتب ميخائيليس في روايته الملحمة « الحرية او الموت »

هذه ترجمة كاملة وأمانة لهذا الصرح الأديبي العملاق الذي كتبه كازانتزاكيس وترجمة سعد زغلول نصار - وهو واحد من المعجم نجوم الاذاعة والترجمة في عصرهما الذهبي -

نصح الكاتب أن يصنع من جزيرة كريت الصغيرة عالماً رجبياً ، بالغ الاتساع - يحسك أن تقابل فيه كافة الفعاليات الحية التي عاشت على سفحات هذه الجزيرة -

تتصارع فيما بينها - وتحاول أن تجد لنفسها ظلاً وسط هذه الصراعات الحادة والعنفية -

الحرية او الموت

رواية تتنبأ بكافة الصراعات العربية التي يشهدها العالم في نهاية القرن العشرين -